أبتون سِنكلير

النفط

ترجمة أسماء عزب

النفط

تأليف
أبتون سِنكلير

ترجمة
أسماء عزب

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

النفط

أبتون سِنكلير

Oil!

Upton Sinclair

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٤٠ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- الرحلة ٩
٢- عقد الإيجار ٣٣
٣- الحَفْر ٦٣
٤- المزرعة ٩٣
٥- الوحي الإلهي ١٢١
٦- التنقيب الاستكشافي عن النفط ١٤٩
٧- الإضراب ١٧٩
٨- الحرب ٢١٣
٩- النصر ٢٣٣
١٠- الجامعة ٢٥٥
١١- التمرد ٢٨١
١٢- يخت «السيرانة» ٣٠٧
١٣- الدير ٣٣١
١٤- النجمة السينمائية ٣٥٩
١٥- العطلة ٣٩١
١٦- الفرصة الذهبية ٤١٩
١٧- الفضيحة ٤٤٣
١٨- الهروب ٤٦٩

١٩- العقوبة ٤٩٣
٢٠- الإخلاص ٥١٣
٢١- شهر العسل ٥٣١

اخلِط البطاقات، وابدَأ جولةً جديدةً من لعبة البوكر، فستجد أن البطاقاتِ مختلفةٌ تمامًا عن بطاقاتِ الجولةِ السابقة، على الرغم من عدم تغيير الحزمة، أو اللعبة، أو الأجواء؛ حيث يجلس اللاعبون متجهِّمين وصامتين، وتُحيط بهم سحابةٌ من دخان التبغ. تُقدِّم هذه الروايةُ صورةً عن الحضارة في جنوبِ كاليفورنيا، كما رآها الكاتب خلال إقامتِه هناك لمدة أحدَ عشرَ عامًا. والصورةُ تعكسُ الحقيقة، وتفاصيلُها الوفيرة تتَّسِم بالواقعية. ولكن كان لا بُد من خلط البطاقات أولًا؛ لذا اختلفَت الأسماء، والأماكن، والتواريخ، وتفاصيل الشخصيات، والأحداث. فالشخصيات الوحيدة التي يُمكِن التعرُّف عليها في هذا الكتاب هي ثلاثةٌ من رؤساء الولايات المتحدة الذين شغَلوا مناصبهم خلالَ خمسةَ عشرَ العام الماضية. ومن الواضح أنه كان من المستحيل «خلط» هذه التفاصيل دون المساسِ بهذه الصورة الواقعية. لكن القارئ الذي يقضي وقتًا في إثبات هُويَّة أباطرة النفط ونجوم السينما سوف يضيع وقته هباءً، وربما يظلم شخصًا ما أطلَق النارَ على إحدى أصابع قدمه للحصول على التأمين ضد الحوادث، دون أن يكون لديه عشيقةٌ أو يدفع رشوةً لمسئولٍ حكومي.

الفصل الأول

الرحلة

١

امتد الطريق، ممهدًا، لا تشوبه شائبة، بعرض أربع عشرة قدمًا بالضبط، بحواف مشذَّبة كما لو كانت مُقلَّمةً بمقَص تشذيب، وكأنه شريطٌ من الخرسانة الرمادية، بسطَتْه يدٌ عملاقةٌ فوق الوادي. كانت أرضية الطريق تمضي في موجاتٍ طويلة من ارتفاع ببطءٍ وهبوط ببطء ثم انحدارٍ مفاجئ؛ فكانت السيارة تصعد، وتنطلق بسرعة، لكنك لا تشعر بالخوف؛ لأنك تعلم أن الشريط السحري سيكون هناك، خاليًا من العوائق، ولا تُفسِده مطبَّات أو ندبات، ينتظر مرور العجلات المطاطية المنفوخة بالهواء التي تدور سبعَ دوراتٍ في الثانية. مرَّت ريح الصباح الباردة محدِثةً صفيرًا، ومنذرةً بقدوم عاصفة، وأصدَرَت أزيزًا وزمجرةً ذات نغماتٍ متغيرة، ومع ذلك تجلس أنت مرتاحًا خلف زجاج السيارة الأمامي المائل، الذي يجعل الريح تنزلق من فوق رأسك. في بعض الأحيان كنتَ ستَودُّ أن ترفع يدك وتشعُر بالهواء البارد يصطدم بها، وفي أحيان أخرى، كنتَ ستُخرِج رأسك من جانب السيارة، وتترك تيار الهواء يصطدم بجبهتك، ويُبعثِر شعرك. ولكن في أغلب الأحيان كنتَ تجلس في صمت ووقار؛ لأن هذا ما كان يفعله الأب، ومما كان يفعله الأب تشكَّلَت آداب قيادة السيارة.

كان الأب يرتدي معطفًا، بنيًّا باهتًا، له ملمسٌ صوفيٌّ ناعم، وقَصَّة رائعة، وعبَّر الخياط عن كرمه في كل موضعٍ ممكن بإضافة صفَّي أزرار، وياقةٍ كبيرة، وطيَّتَي صدرٍ كبيرتَين، وثنياتٍ كبيرة فوق الجيوب. صنع الخياطُ ذاتُه معطف الصبي، من الصوف الناعم نفسه، وبالياقة الكبيرة وطيَّتَي الصدر الكبيرتَين والثنيات الكبيرة نفسها. كان الأب يرتدي قفاز قيادة، وكان المتجرُ ذاتُه يبيع قفازاتٍ للأولاد من النوع نفسه. وكان الأب يضع نظارةً ذات إطارٍ سميك، ولم يُعرَض الصبي على طبيب عيون مطلقًا، لكنه عثَر في متجر للأدوية على

نظارة بلون الكهرمان، وبإطارٍ سميك مثل إطار نظارة الأب. لم يكن الأب يعتمر قبعةً على رأسه؛ لأنه كان يعتقد أن الريح وأشعة الشمس تمنع تساقط الشعر؛ لذلك ركب الصبي السيارة أيضًا تاركًا خصلاتِ شعره حرةً طليقة. الفرق الوحيد بينهما، فضلًا عن الحجم، هو أن «الأب» كان يضع سيجارًا بنيًّا كبيرًا، غير مشتعل، في زاوية فمه؛ إذ كان هذا ما تبقّى له من الأيام الخوالي الشاقَّة، عندما كان يقود البغال ويمضغ التبغ.

خمسون ميلًا، كانت تلك هي قراءة عدَّاد السرعة؛ كانت تلك قاعدة الأب في المناطق الريفية المفتوحة التي تكاد تنعدم فيها المباني، ولم يغيِّرها قَط، إلا عندما يكون الطقس رطبًا. لم تشكِّل درجة انحدار الطريق فارقًا؛ فضغطةٌ بسيطةٌ بقدَمه اليمنى كانت تجعل السيارة تنطلق بأقصى سرعة وترتفع لأعلى، حتى تُصبِح على القمة، ثم تنزلق بسلاسة إلى الوادي الصغير التالي، تمامًا في منتصف الشريط الرمادي السحري المصنوع من الخرسانة. تزيد سرعة السيارة عند الانحدار، ويخفِّف الأب من قوة الضغط بقدمه قليلًا، ويسمح لمقاومة المحرِّك بضبط السرعة. قال الأب: «خمسون ميلًا سرعةٌ كافية»؛ فقد كان رجلًا يحترم النظام.

بعيدًا في الأفق، فوق قِمَم العديد من تموُّجات الطريق، كانت سيارةٌ أخرى قادمة. كانت مثل بقعةٍ سوداءَ صغيرة، توارت عن الأنظار عندما انحدرَت لأسفل ثم ظهرَت مرةً أخرى بحجم أكبر، ثم زاد حجمها في المرة التالية، وفي المرة التي تليها، كانت على قمة المنحدر الذي تسير بأسفله سيارة «الأب»، وكانت تندفع نحو سيارة الأب بسرعةٍ متزايدة، وكأنها قذيفةٌ ضخمة أطلقها مدفع عيار ست أقدام. حانت الآن لحظة اختبار أعصاب سائق السيارة. فالشريط السحري الخرساني كان غيرَ قابل للتمدد. كانت الأرض على الجانبَين مهيَّأة لحالات الطوارئ، لكن لا يمكن التأكُّد دائمًا من أنها كانت قد أُعِدَّت جيدًا لذلك؛ فعند الانطلاق بسرعة خمسين ميلًا في الساعة، تتعرَّض العجلات لتذبذباتٍ بشعة، وقد تجد أن الخرسانة المشذَّبة بعناية ارتفعَت عدة بوصاتٍ فوق الأرض بجانبها، مما يُجبِر السائق على السير على الأرض الترابية، حتى يُمكِنه العثور على مكانٍ يعود منه إلى الطريق الممهَّد مرةً أخرى، وقد يكون هناك رملٌ ناعم من شأنه أن يتسبَّب في انحراف السيارة عن مسارها، أو طينٌ رطب من شأنه أن يتسبَّب في انزلاق السيارة وإنهاء رحلتك نهايةً مفاجئة.

لذلك تحظر قوانين القيادة الجيدة الخروج عن الشريط السحري إلا في حالات الطوارئ القصوى. ومن أخلاقيات القيادة أن للسائق الحقَّ في الحصول على عدة بوصاتٍ من هامش

الحافة اليمنى، وللرجل الذي يقترب بسيارته الحق في عددٍ مساوٍ من البوصات؛ مما يُخلِّف بضع بوصاتٍ بين السيارتَين المنطلقتَين وإحداهما تمُر بالأخرى كالقذيفة. بالطريقة التي يصفُ بها المرءُ الأمر تبدو مخاطرةً، لكن هكذا هو الحال مع الأجرام السماوية، ومع أن التصادُمات بين الأجرام تحدث بالفعل، يتوفَّر وقتٌ كافٍ بين التصادم والآخر لتتشكَّل الأكوان، ووسط التحديات والمخاطر، يتمكَّن رجال الأعمال البارعون من تحقيق النجاح في مسيراتهم المهنية.

انطلقَت السيارة الأخرى كالقذيفة، واندفعَت بقوة للأمام محدثةً دويًّا عاليًا وسريعًا دون أن تُقلِّل سرعتَها. وعند مرور السيارة، كان بإمكان المرء أن يلمح رجلًا آخر يرتدي نظارةً ذات إطارٍ سميك أيضًا، ويُمسِك عجلة القيادة بإحكام بكلتا يدَيه، ويُثبِّت عينَيه دون حَراكٍ على النحو ذاته. فعند القيادة بسرعة خمسين ميلًا في الساعة، لا ينظر المرء وراءه أبدًا؛ فما يُهِم هو الأشياء الواقعة أمامك، وما مضى قد مضى، أو نقول كما يقولون: ما فات قد مات؟ بعد هُنَيهَة ستأتي سيارةٌ أخرى، ومرةً أخرى سيكون من الضروري أن تترك موقعك المريح في منتصف الشريط الخرساني، وتكتفي بالسير في جزءٍ من الطريق محدَّد بدقة، يقلُّ عن النصف ببضعِ بوصات. وفي كل مرة، ستُراهِن بحياتك على قدرتك على وضع سيارتك في المسار المحدَّد، وعلى قدرة واستعداد الطرف الآخر المجهول على فعلِ الشيءِ ذاته. فلا تقع عينُك على سيارته إلا في اللحظة التي تندفع فيها مسرعةً نحوك، وإذا رأيتَ أنه لا يَحيد عن منتصف الطريق بالقَدْر اللازم، تُدرِك أنك تُواجِه أخطر الثدييات التي تسير على رِجلَين وهو: السائق الأهوج. أو ربما كان رجلًا مخمورًا، أو ببساطةٍ امرأة، لكنك لا تملك الوقت الكافي لمعرفة ذلك؛ فليس لديك سوى جزء من الألف من الثانية لتُدير عجلةَ القيادة قيد أُنملة، لتنحرفَ عن الطريق الخرساني وتتجهَ نحو الطريق الترابي.

قد لا يحدث ذلك سوى مرة أو مرتَين فقط أثناء القيادة طوال اليوم. وعندما كان ذلك يحدث، كان الأب يستخدم جملةً واحدةً ثابتة؛ حيث كان يحرِّك السيجار قليلًا في فمه ويُتمتِم: «أحمقُ لَعين!» كانت هذه هي الكلمات البذيئة الوحيدة التي سمح بها سائق البغال السابق لنفسه بقولها في حضور الصبي، ولم يكن لها أيُّ دلالةٍ مهينة — فقد كانت ببساطةٍ المصطلحَ العلمي للسائقين المتهوِّرين والرجال السكارى والنساء اللائي يقُدن السيارات، وكذلك لأحمال التبن وعربات الأثاث والشاحنات الكبيرة التي كانت تسُد الطريق عند المنحنيات؛ وللسيارات ذات المقطورات، التي تنطلق بسرعةٍ مفرطة، وتتأرجح من جانب إلى آخر؛ وللمكسيكيين الذين يقودون العربات الخفيفة التي يجرُّها حصانٌ واحد

وتنقلب بسهولة، وللذين يعجزون عن الالتزام بالطريق الترابي حيث تنتمي هذه العربات، ويمضون بعرباتهم المتمايلة على الطريق الخرساني — وحينما تأتي سيارة في الاتجاه المعاكس، تُضطَر إلى أن تضغَط بقوة على الفرامل، ورفع فرامل اليد، وإيقاف السيارة وهي تُحدِث أصوات صرير وطحن، والأسوأ من ذلك هو انزلاق الإطارات. يعدُّ سائقو السيارات «انزلاق إطارات السيارة» أمرًا مخزيًا، وكان الأب مقتنعًا بأنه في يوم من الأيام سيكون هناك قانونٌ للسرعة عكس القوانين الحالية، حيث ستُحظر القيادة بسرعةٍ أقلَّ من أربعين ميلًا في الساعة على الطرق السريعة، أما الأشخاص الذين يريدون قيادة عرباتٍ خفيفة تنقلب بسهولة وتجرُّها خيولٌ عرجاء، فسيسلكون طرقًا مختصرة أو يمكُثون في منازلهم.

٢

امتد حاجز من الجبال بعَرض الطريق. من بعيد، كانت جبالٌ زرقاء، تعلوها مظلة من الضباب، وكانت تبرُز في شكل تكتلاتٍ متداعية، حيث تصطَف القِمَم واحدةً وراء الأخرى، وتُطِل من فوقها قِممٌ أخرى غامضة، ألوانها باهتةٌ أكثر. كنتَ تعلمُ أنه يجب عليك الصعود إلى هناك، وكان من المشوق تخمينُ المكان الذي يمكن أن يخترق فيه الطريق هذه الجبال. ومع اقترابك أكثر، تغيَّر لون هذه التكتلات الجبلية الضخمة من اللون الأخضر إلى الرمادي أو البني المصفر. لم تَنمُ عليها أشجار، بل شجيراتٌ تتنوَّع فيها درجات الألوان تنوعًا كبيرًا. وانتشَرَت بها صخورٌ سوداء أو بيضاء أو بنية أو حمراء، بالإضافة إلى أوراقِ نباتِ اليُكة الباهتة، وهو نباتٌ له ساقٌ سميكة ترتفع لعشر أقدام أو أكثر في الهواء، تُغطِّيها كتلةٌ ضخمة من الأزهار الصغيرة الحجم، في شكل يشبه تمامًا لهبَ شمعة، إلا أنه لا يخفق مطلقًا عند هبوب الريح.

بدأ ميل الطريق يزيد بحدة صعودًا، وينعطف حول جانب تلة، وكانت هناك لافتةٌ مكتوبٌ عليها باللون الأحمر: «منحدر جوادالوبي: الحد الأقصى للسرعة عند المنحنيات ١٥ ميلًا في الساعة.» لم يُبدِ الأب أي أمارة على أنه كان يجيد قراءة الكلمات المكتوبة على تلك اللافتة، أو الأرقام على عدَّاد السرعة في سيارته. لكنه فهم أن هذه اللافتاتِ كانت للأشخاص الذين لا يعرفون القيادة؛ فبالنسبة للقلة المبتدئة، كانت القاعدة تنصُّ على السير بالسرعة التي تُبقيك على الجهة الخاصة بك من الطريق السريع. في هذه الحالة، كان الطريق على الجانب الأيمن من المعبر؛ حيث يمتد الجبل على يمينك، ويقترب منك كثيرًا عند اجتياز

المنعطفات، ويسير الشخص القادم في الاتجاه المعاكس بالقرب من الحافة الخارجية؛ حيث يمكن أن يلقَى حتفه، لكن هذا شأنه.

قدَّم الأب تنازلًا آخر؛ فحيثما يكون المنعطف على اليمين، بحيث يحجب جسم الجبل الرؤية، كان يُطلِق البوق. كان بوقًا كبيرًا ذا صوتٍ قوي، مَخفيًّا في مكانٍ ما تحت غطاء محرك السيارة الكبير؛ بوقًا يلائم رجلًا اضطرَّته أعمالُه للسفر في رحلاتٍ سريعة عَبْر منطقةٍ كبيرة بما يكفي لاستيعاب إمبراطوريةٍ قديمة، وتنتظره في نهاية رحلته تعاقداتٌ مهمة، ويتنقل ليلًا ونهارًا ولا يهمه اعتدال الطقس أو سُوءُه. كان صوتُ بوق السيارة حادًّا ويشبه البوق العسكري، ولم يحتوِ على أي ملمحٍ من ملامح سماحة البشر. فعند سرعة خمسين ميلًا في الساعة لا مكان لمثل هذه المشاعر؛ فما تريده هو أن يبتعد الناس عن الطريق، وأن يفعلوا ذلك بسرعةٍ فور أن تخبرهم بذلك. ولأن البوق كان يشبه الأنف الكبير، انطلق منه صوتٌ مخنخن. وانبعث صوتُ البوق مع كل انحرافٍ مفاجئ أو منعطفٍ حاد في الطريق السريع، وبهذا يستمر الطريق في الارتفاع والتعرُّج، وتُردِّد جدران منحدر جوادالوبي الصخرية صدى صوتِ البوق الغريب. نظرَت الطيور حولها في حذَر، وغاصت سناجب الأرض في حُفراتها الرملية، وسار على حافة الطريق السريع المحفوفة بالمخاطر أصحابُ المزارع الذين يقودون سياراتهم الفورد المتهالكة، والسائحون القادمون إلى جنوب كاليفورنيا، الذين يربطون كل دجاجاتهم وكلابهم وأطفالهم ومراتبهم وطاساتهم القصدير على عتبات سياراتهم؛ تأرجح هؤلاء حتى آخر بوصةٍ خطرة من الطريق السريع، بينما انطلقَت السيارة المكشوفة السريعة، القريبة من سطح الأرض وهي تُطلِق بوقها.

سيخبرك أي صبي أن هذا رائع. مرحى! بكل تأكيد! فأنت تُحلِّق هنا بالأعلى قريبًا من السُّحب، بمحرِّكٍ بالغ القوة، تتحكم فيه بطريقةٍ سحرية، حيث يستجيب لأقلِّ ضغطةٍ من قدمك. إنه محرِّك بقوة تسعين حصانًا، تخيَّل ذلك! تخيَّل أن يركض أمامك تسعون حصانًا حول جانب الجبل، خمسةٌ وأربعون زوجًا في طابورٍ طويل، ألن يجعل هذا المشهد قلبك يخفقُ بقوة؟ وهذا الشريط الخرساني السحري الممهَّد من أجلك، والذي يعجُّ بالمنعطفات، ويرتفع دون أن تلاحظ أي اختلاف في درجة الانحدار، ويمتد على جانب جبل، مخترقًا في استقامةٍ قمةَ جبلٍ آخر، وغائصًا في الجوف المظلم لجبلٍ ثالث؛ ومنحرفًا ومنعطفًا ومائلًا للداخل عند المنحنيات الخارجية، لكنه يميل للخارج عند المنحنيات الداخلية، حتى تشعُر بالتوازُن والأمان طَوال الوقت، وله الخط المطلي باللون الأبيض مرسومًا بحيث يحدِّد منتصف الطريق، حتى تعرف دائمًا المكان الذي يحق لك السير فيه بالضبط، أي سحرٍ فعل كل هذا؟

أوضح الأب الأمر؛ المال فعل هذا. فقد أصدر الأثرياء الأوامر، وجاء المسَّاحون والمهندسون، وآلافٌ من الحفَّارين، واحتشد المكسيكيون والهنود، أصحابُ البشرة الداكنة، حاملين المعاولَ والمجارف؛ والحفارات الكبيرة التي تعمل بالبخار، والمزوَّدة بجرَّافاتٍ فولاذيةٍ متدلية تشبه مخالب جراد البحر؛ والرافعات ذات الأذرع الطويلة المتأرجحة؛ وآلات كشط الأرض وتسويتها، والمثاقب الفولاذية، وخبراء المفرقعات ومعهم الديناميت، وكسَّارات الصخور، وخلَّاطات الخرسانة التي تبتلع آلافًا من أكياس الأسمنت، وتشرب الماء من خرطومٍ ملطَّخ بالدقيق، وتدور أوعيتُها الفولاذية طَوالَ اليوم مصدرةً أصواتَ طحنٍ عالية. جاء كل هؤلاء، وكدَحوا على مدى عام أو عامَين، ورويدًا رويدًا بسطوا الشريط السحري.

لم يسبق أن كان هناك رجالٌ ذوو نفوذٍ مثل هذا منذ بدء الخليقة. وكان الأب واحدًا منهم؛ فقد كان بإمكانه فعلُ أشياءَ من هذا القبيل، وكان بالفعل في طريقه الآن لفعل شيءٍ من هذا القبيل. في الساعة السابعة من مساء هذا اليوم، في بهو الفندق الملكي في بيتش سيتي، كان ينتظر رجلٌ يُدعى بن سكوت، كشَّافُ نفط، وصفه الأب بأنه «صائد عقود الإيجار»، وكان معه «عرضٌ» كبير، والأوراق جاهزةٌ للتوقيع. لذلك كان للأب الحق في أن يكون الطريق خاليًا، وكان ذلك هو معنى صوت البوق العسكري الحاد الذي كان يخرج مُخَنخنًا وكأنه يقول: «الأب قادم! أفسِحوا الطريق!»

جلس الصبي، متشوِّقًا ومتيقظًا؛ فقد كان يرى العالم بطريقةٍ كان قد حلم بها الرجال في أيام هارون الرشيد، من على ظهر حصانٍ سحري يركض فوق السحاب، وبساطٍ سحري يُحلِّق في الهواء. لقد كانت إطلالةً رائعة تمتد على نطاقٍ كبير؛ مشاهد جديدة تتجلى عند كل منعطف، ووديان تتعرَّج أسفل منك، وقِمَم تلالٍ ترتفع فوقك، وسلاسل الجبال تتوالى على مرمى بصرك. والآن وأنت وسط هذه الجبال، يمكنك ملاحظة الأشجار في الأخاديد العميقة، أشجار صنَوبَر عجوزة باسقة، التوَت أغصانُها جرَّاء العواصف وشقَّها البرق؛ أو مجموعات من أشجار البلوط الدائمة الخضرة التي امتدت لمساحاتٍ شاسعة، مثل الحدائق العامة الإنجليزية. ولكن على قِمَم الجبال بالأعلى، لم يكن هناك سوى أجمةٍ نضرة تتميز باللون الأخضر الربيعي الذي لا يستمر طويلًا، ونباتات المسكيت والمريمية وغيرها من النباتات الصحراوية، التي تعلَّمَت أن تزدهر بسرعة، أثناء وجود الماء، ثم تتحمل الجفافَ الحارَّ الطويل. وتناثَرَت بقعٌ برتقالية اللون إثر انتشار نباتات الحامول التي تنمو في شكل

خيوطٍ طويلة تشبه حرير الذرة، حيث تنسج خيوطها فوق النباتات الأخرى؛ مما كان يؤدي إلى موتها، ولكن كان هناك الكثير منها.

كانت التلال الأخرى صخريةً بالكامل، ذات ألوانٍ متنوعة لا نهاية لها. فترى أسطحًا مرقَّطة ومنقَّطة مثل جلود الحيوانات؛ مثل النمر الأرقط، ومخلوقاتٍ أخرى، يجتمع فيها الأحمر والرمادي أو الأسود والأبيض، لا تعرف أسماءها. وكان هناك تلالٌ مكوَّنة من جلاميد، متناثرة وكأن عمالقةً كانوا يتعاركون ويُلقُون بها بعضهم على بعض، وكانت هناك كتلُ صخورٍ مكدسة بعضها فوق بعض، وكأن أبناء العمالقة كانوا يلعبون بها حتى سئموا من اللعب. وارتفعَت فوق الطريق صخورٌ عاليةٌ مقوَّسة مثل أسقف الكاتدرائيات؛ من خلالها يمكنك رؤية وادٍ عميق ينفرج بالأسفل، وحاجزٍ أبيضَ قوي لحمايتك من السقوط عندما تنعطف. وظهَر من بين السُّحب طائرٌ كبير يُحلِّق فوقنا، ثم توقَّف جناحاه عن الحركة وكأنما أصيب برصاصة، وغاص في الهاوية. سأل الصبي: «هل كان هذا نسرًا؟» أجاب الأب، الذي لم يشعر بأي إثارة: «صقرٌ حَوَّام.»

أخذ الطريق في الارتفاع أكثر فأكثر، وأصدَر المحرك خرخرةً ناعمة، لها نغمةٌ واحدة لا تتغير. تحت زجاج السيارة الأمامي كانت تُوجَد مجموعةٌ معقدة من العدادات وأجهزة القياس؛ عدَّاد سرعة به خطٌّ أحمرُ صغير يوضح سرعة السيارة بالضبط، وساعة، ومقياس للزيت، ومقياس للبنزين، ومقياس للتيار الكهربائي، ومقياس للحرارة كان يرتفع ببطء عند الصعود على منحدرٍ طويل كهذا. كان الأب يدرك كل هذه الأشياء؛ فقد كان يمتلك عقلًا معقدًا أكثر من أي آلة. ففي نهاية المطاف، لم يكن هناك وجهُ مقارنةٍ بين قوة التسعين حصانًا وقوة المليون دولار. فقد يتعطل المحرك، لكن عقل الأب لم يكن يتعطل أبدًا. كان من المقرر أن يصِلَا إلى قمة المنحدر بحلول الساعة العاشرة، وكان مسلك الصبي يشبه مسلكَ مزارعٍ مُسِن يرتدي ساعةً ذهبيةً جديدة، ويقف على شرفة منزله الأمامية في الصباح الباكر، معلقًا: «إن لم ترتفع تلك الشمس فوق التل خلال ثلاثِ دقائق، فهذا يعني أنها قد تأخرَت».

٣

لكن حدث خطبٌ ما وأفسد الجدول الزمني لسير الأمور. إذ كان الضباب قد انتشر، واندفعَت حُجُبٌ بيضاءُ باردة نحو وجهَيهما. كان بالإمكان الرؤية جيدًا، لكن الضباب كان قد بلَّل

الطريق، وكان هناك طينٌ عليه؛ تركيبة تجعل السائق الأكثر مهارةً معدوم الحيلة. لاحظ الأب ذلك بعينه اليقظة، وأبطأ من سرعته، وكان هذا من حسن الحظ؛ لأن السيارة بدأت في الانزلاق، وكادت تلمس الحاجز الخشبي الأبيض، الذي يحول دون السقوط من فوق الحافة الخارجية.

بدآ من جديد، يمضيان بسرعةٍ بطيئة، حتى يتمكَّنا من التوقف بسرعة؛ سجل عداد السرعة خمسة أميال في الساعة، ثم ثلاثة أميال، ثم انزلقَت السيارة مرة أخرى، فصاح الأب قائلًا: «اللعنة». أدرك الصبي أنهما لن يصمدا طويلًا جدًّا، وجال في خاطره: «السلاسل»، وتوقفا بالقرب من جانب التل، في منعطف داخلي يمكن منه للسيارات القادمة من كلا الاتجاهين رؤيتهما. فتح الصبي الباب الذي على جانبه وخرج منه، ونزل الأب برزانة وخلع معطفه ووضعه على المقعد، وخلع الصبي معطفه ووضعه بنفس الطريقة، لأن الملابس كانت جزءًا من وقار الرجل، ورمزًا لمكانته في الحياة، ولا ينبغي أن تتسخ أو تتجعد على الإطلاق. فك أزرار كُمَّي القميص وطواهما لأعلى، واقتدى الصبي به بدقة في كل حركة. في الجزء الخلفي من السيارة كان هناك صندوق مسطح ذو غطاء مائل، فتحه الأب بأحد المفاتيح الكثيرة التي كان يحملها، ويعرف جيدًا استخدام كلٍّ منها، والتي كانت كلها رمزًا للكفاءة والنظام. وبعد أن أخرج الأب السلاسل وربطها بالإطارين الخلفيين، مسح يديه في النباتات المُحمَّلة بندى الضباب على جانب الطريق، وفعل الصبي الأمر ذاته، حيث أحب برودة كريات الماء المتلألئة. وكانت هناك قطعةُ قماشٍ قديمةٌ نظيفة في صندوق السيارة الخلفي، موضوعة هناك لتجفيف اليدَين، وكانت تُغيَّر من حين لآخر. وعاود الاثنان ارتداء معطفَيهما، وعادا إلى مقعدَيهما، وانطلقَت السيارة أسرع قليلًا من ذي قبل، ولكن بحذر، متأخرة عن الجدول الزمني.

«منحدر جوادالوبي: منطقة تجمع المياه: تحذير: خمسة عشر ميلًا في الساعة عند المنعطفات.» هذا ما كانت تنص عليه اللافتة؛ كانا الآن يمضيان بسرعةٍ بطيئة، كابحَين جماح السيارة التي استاءت من الأمر، واهتزت بنفاد صبر. خلع الأب نظارته ووضعها في حجره؛ إذ كان الضباب قد جعل الرؤية من خلالها مشوَّشة، وكان قد ملأ شعره بالرطوبة، وانسابت قطرات الماء فوق جبهته إلى عينَيه. كان من الممتع أن تتنفس الهواء المحمَّل بالضباب وتشعر بالبرد، وأن تمُد يدك وتضغط على البوق؛ فالأب سيسمح لك الآن بفعل كل ما تريده. وظهرَت من بين الضباب سيارة تتقدم ببطء نحوهما، وكانت هي الأخرى تطلق البوق بقوة؛ كانت سيارة فورد، تلهث متعبةً من تسلُّق هذا الطريق، ويتصاعد بخار من مبرد محركها.

ثم فجأةً قلَّت كثافة الضباب، ولم يتبقَّ سوى بضعة خيوطٍ رفيعة، وبعد ذلك اختفى تمامًا؛ وأطلقا العِنان للسيارة، فانطلقَت إلى الأمام نحو الأفق ذي المنظر الخلاب. وتوالت التلال بالأسفل، وامتد في الأفق منظرٌ طبيعي بلا نهاية؛ تمنيتَ وقتها أن يكون لديك أجنحة، لتغوص هناك بالأسفل، وتحلق فوق قمم التلال والسهول المنبسطة. حينئذٍ لن يكون هناك جدوى من حدود السرعة والمنعطفات والمكابح! قال الأب بملل: «جفِّف عدستَي نظارتي.» كان المنظر الطبيعي مُرضيًا بالنسبة له، لكن كان عليه أن يظل على يمين الخط المرسوم باللون الأبيض على الطريق. وانطلق صوت البوق، عند جميع المنعطفات الخارجية.

انسابت السيارة على الطريق، وشيئًا فشيئًا اختفى المنظر الطبيعي، فعادا إلى طبيعتهما البشرية الفانية، وهبطا مرةً أخرى إلى الأرض. اتسعَت المنعطفات، وتجاوَزا جانب التل الأخير، وامتد أمامهما منحدرٌ طويل، مستقيم؛ وبدأَت الرياح تهب مطلقة صفيرًا، وأعلن الخط الأحمر بعداد السرعة عن تزايد السرعة التي كانا يمضيان بها. كانا يعوِّضان الوقت الضائع. ومرت الأشجار وأعمدة التلغراف بسرعة بجوارهما! وصلَت السرعة الآن إلى ستين ميلًا في الساعة؛ قد يخاف البعض عند القيادة بهذه السرعة، لكن أي شخصٍ عاقل لن يخاف عندما يكون الأب من يتولى عجلة القيادة.

لكن فجأةً بدأَت السيارة في التباطؤ، حتى إنك كنت تشعر بالانزلاق للأمام في مقعدك، وأشار الخط الأحمر الصغير إلى انخفاض السرعة إلى خمسين ميلًا، ثم أربعين، ثم ثلاثين. كان الطريق يمتد مستقيمًا أمامك، ولم تكن هناك سيارةٌ أخرى في الأفق، لكن قدَم الأب كانت على الفرامل. نظر الصبي حوله مستفسرًا. قال الرجل: «لا تتحرك. ولا تنظر حولك. إنه كمينٌ مروري للسرعات المخالِفة!»

يا إلهي! مغامرة تجعل قلب الصبي يثب من الإثارة! أراد أن يُلقي نظرة، لكنه فهم أنه يجب أن يجلس دون حَراك، يحدِّق أمامه، وأن يبدو بريئًا تمامًا. وكأنهما لم يسبق لهما القيادة بسرعة تزيد عن ثلاثين ميلًا في الساعة في حياتهما، وإن ظنَّ أي شرطي مرور أنه قد رآهما يسيران بسرعة أعلى على طول المنحدر، فهذا مجرد وهمٍ بصري، خطأ طبيعي لرجل دمَّرت مهنته ثقته في الطبيعة البشرية. لا بد أنه أمرٌ مخيف أن تكون «شرطي سرعة»، وأن تكون عدوًّا للجنس البشري كله! وذلك بأن تخفض معاييرك الأخلاقية وتُقْدِم على تصرفات شائنة؛ بأن تتوارى بين الشجيرات، ممسكًا بساعة إيقاف، ويشترك معك في هذه المؤامرة شخصٌ آخر يقف على مسافةٍ محددة على الطريق، حاملًا ساعة إيقاف أيضًا، ويربط بينكما خط هاتف، حتى تتمكَّنا من متابعة سائقي السيارات الذين يمُرون! حتى

إنهم اخترعوا جهازًا مكونًا من مرايا، يمكن تركيبه على جانب الطريق، حتى يتمكن أحد الرجلَين من ملاحظة وميض السيارة أثناء مرورها، وتسجيل الوقت. كانت هذه مشكلة على سائق السيارة أن ينتبه إليها باستمرار؛ فعند ظهور أبسط مؤشر لحدوث أي شيءٍ مريب، عليه أن يبطئ السرعة على الفور — ولكن بتأنٍّ — تباطؤًا طبيعيًّا، مثلما يفعل أي رجل عندما يكتشف أنه قد تجاوَز، للحظة عرضًا، حدود السلامة التامة في القيادة بشكلٍ طفيف.

قال الأب: «ذلك الرجل سيلاحقنا.» كانت لديه مرآةٌ صغيرة مثبَّتة أمام عينَيه، حتى يتمكن من مراقبة أعداء بني البشر أولئك، لكن الصبي لم يستطع النظر في المرآة؛ لذلك كان عليه الانتظار على أحرَّ من الجمر، مفوتًا المتعة.

«هل ترى أي شيء؟»

«لا ليس بعدُ، لكنه سيأتي؛ إنه يعلم أننا تجاوزنا السرعة المقرَّرة. إنه يستقر في ذلك المنحدر المستقيم؛ لأن الجميع يقود بسرعة في مكان كهذا.» هنا يمكنك الاطلاع على الطبيعة الوضيعة لوظيفة «شرطي السرعة»! لقد اختار مكانًا لا يخشى فيه الناس إطلاقًا من السير بسرعة، وحيث كان يعلم أن الجميع لن يتحلَّوا بالصبر، بعدما حدُّوا من سرعتهم لفترةٍ طويلة؛ بسبب المنعطفات في الجبال والطرق الرطبة! كان هذا هو مقدار اهتمام «شرطيي السرعة» بالتصرف بنزاهة طبقًا للأصول المتعارف عليها!

سارا ببطء بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة؛ وهو الحد القانوني للسرعة في تلك الأيام السوداء، في عام ١٩١٢. أفقد هذا القيادةَ إثارتَها، وجعل الجدول الزمني في طي النسيان. تخيَّل الصبي بن سكوت، «صائد عقود الإيجار»، جالسًا في بهو الفندق الملكي في بيتش سيتي، وهناك كان ينتظر آخرون أيضًا؛ فدائمًا ما كان ينتظر عشرات من الأشخاص، يتناقشون في مسائل العمل المهمة التي تنطوي على المجازفة ﺑ «مبالغ كبيرة». وكنت ستسمع الأب يتحدث في هاتف المسافات البعيدة، وينظر إلى ساعته، ويحسب عدد الأميال التي يجب قطعها، ويحدِّد موعده وفقًا لذلك، ثم كان يتعين عليه أن يصل إلى هناك، ولا بد ألَّا يوقفه أي شيء. إن حدَث عطل في السيارة، فسيخرج حقائبهما، ويوصد السيارة، ويُلَوِّح إلى سائقٍ عابر، ويحصل على توصيلة إلى البلدة التالية، وهناك يستأجر أفضل سيارة يمكنه العثور عليها — أو يشتريها على الفور إذا لزم الأمر — ويستكمل رحلته، تاركًا السيارة القديمة لتُقطر وتُصلَّح. فلا شيء يمكن أن يوقفه!

لكنه الآن كان يسير ببطء بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة! سأل الصبي: «ما الأمر؟»، وجاءه الجواب: «القاضي لاركي!» آه، بالتأكيد! فقد كانا في مقاطعة سان جيرونيمو؛ حيث

كان القاضي الرهيب لاركي يسجن الذين يتجاوزون السرعات المقرَّرة! لن ينسى الصبي أبدًا ذلك اليوم الذي أُجبر فيه الأب على تأجيل كل ارتباطاته، والسفر عائدًا إلى سان جيرونيمو، للمثول أمام المحكمة والتعرُّض للتوبيخ من هذا المستبد المسن. في معظم الأوقات لم يكن المرء ليتعرض لمثل هذه الإهانات؛ فتكتفي بعرض بطاقتك على «شرطي السرعة»، موضحًا أنك عضو في نادي السيارات، وحينئذٍ كان يهز رأسه بأدب، ويسلمك ورقةً صغيرة مدوَّنًا عليها مبلغ «الكفالة»، بما يتناسب مع السرعة التي كنتَ تقود بها عند الإمساك بك، وترسل شيكًا بالمبلغ عَبْر البريد، ولا تفكر في الأمر أكثر من ذلك.

لكنهم هنا في مقاطعة سان جيرونيمو يتعاملون بطريقةٍ لئيمة، وكان الأب قد أخبر القاضي لاركي برأيه في عادة نصب «كمائن السرعة»؛ فالضباط يختبئون بين الشجيرات ويتجسسون على المواطنين؛ إنه عمل مهين، ويُعَلِّم سائقي السيارات أن يعتبروا ضباط القانون أعداء. حاول القاضي أن يكون ذكيًّا، وسأل الأب عما إذا كان قد فكَّر يومًا في احتمالية أن اللصوص أيضًا قد يعتبرون ضباط إنفاذ القانون أعداء. ونشرَت الصحف ذلك على صفحاتها الأولى في جميع أنحاء الولاية: «اعتراض أحد العاملين في مجال النفط على قانون السرعة؛ جيه أرنولد روس يقول إنه سيغيِّر القانون.» سخر أصدقاء الأب منه بسبب هذا، لكنه تمسك بموقفه؛ فعاجلًا أو آجلًا كان سيُجبرهم على تغيير هذا القانون، ومن المؤكَّد أنه فعل ذلك؛ ولذا فالمرء مدين له بحقيقة أنه لم يعُد هناك المزيد من «كمائن السرعة»، وأصبح على الضباط الالتزام بارتداء الزي العسكري أثناء القيادة في الطرقات، وإذا انتبهتَ لمرآتك الصغيرة، يمكنك الانطلاق بالسرعة التي تريدها.

٤

وصلا إلى منزلٍ صغير على جانب الطريق، به سقيفة أوقفا السيارة تحتها، وجسمٌ مستديرٌ منتفخ، نصفه مصنوع من الزجاج والنصف الآخر مطلي بطلاءٍ أحمر، يعني وجود بنزين للبيع. وكانت هناك لافتةٌ مكتوبٌ عليها «نفخ إطارات السيارة مجانًا»؛ أوقف الأب السيارة، وطلب من الرجل أن يخلع سلاسل الجليد من إطارات السيارة. أحضر الرجل رافعةً ورفع السيارة، وفتح الصبي، الذي كان دائمًا يخرج من السيارة فور توقفها، صندوق السيارة الخلفي، وأخرج الحقيبة الصغيرة التي سيضع بها السلاسل. كما أخرج «مسدس الشحم»، وفتحه. فوفقًا للأب: «الشحم أرخص من الصلب». كان لديه العديد من هذه المقولات التي تكفي لتأليف كتابٍ كامل عن الأمثال التي كان الصبي يحفظها عن ظهر قلب. لم يكن

الأمر حرص الأب على توفير المال، أو توفر الشحم لديه بدلًا من الصلب، بل إنه المبدأ العام المتمثِّل في وضع الأشياء في نصابها الصحيح، واحترام آلةٍ رائعة.

نزل الأب من السيارة ليمد ساقَيه. كان رجلًا ضخم الجثة، يملأ كل شبر من المعطف الفخم. وكان خداه اللذان ينضحان بالحيوية محلوقَين دائمًا، ولكن عند إلقاء نظرةٍ أخرى، ستلاحظ وجود انتفاخاتٍ طفيفة حول عينَيه والكثير من التجاعيد. وكان شعره رماديًّا؛ فقد كان قلبه مثقلًا بالهموم، وكان يتقدم في العمر. وكانت ملامحه كبيرة ووجهه مستديرًا، لكنه كان يمتلك فكًّا بارزًا يجعله يبدو صارمًا. ومع ذلك، كانت تعبيرات وجهه معظم الوقت هادئة، أو بالأحرى متبلدة؛ فقد كان يبدو دائمًا كأنه يفكر في أمرٍ ما ويظل يدرسه لوقتٍ طويل. في مواقف على غرار موقفهما الحالي، كان يُظهر جانبًا ودودًا؛ فقد كان يحب التحدث مع الأُناس البسيطين الذين كان يلتقي بهم في الطريق؛ أُناس من نوعه، لم يلاحظوا لغته الإنجليزية الفظة، ولم يحاولوا الحصول على أي أموال منه، أو على الأقل ليس قدرًا كبيرًا منها.

كان مسرورًا لأنه أخبر هذا الرجل في «محطة الوقود» عن حالة الطقس هناك في الممر؛ أجل، كان الضباب كثيفًا، مما تسبَّب في تأخرهما لبعض الوقت، وخُشي من انزلاق السيارة هناك. قال الرجل إن الكثير من السيارات وقعَت في متاعب هناك؛ فقد كانت الأرض طينية، زلقة كالزجاج؛ لذا كان من الأفضل الانتظار حتى يجف الطريق. قال الأب في نفسه: «أحسنتُ صنعًا بالانطلاق على جانب الجبل.» قال الرجل إن الضباب يتلاشى الآن؛ حيث يظهر الكثير من «الضباب المرتفع» في شهر مايو، ولكنه في أغلب الأحيان كان يختفي بحلول الظهيرة. أراد الرجل معرفة ما إذا كان الأب بحاجة إلى بنزين، وقال الأب لا؛ إذ كانا قد تزوَّدا بالبنزين قبل أن يبدآ رحلتهما في المنحدر. كانت الحقيقة أن الأب كان يدقِّق في اختياراته، ولم يكن يحب استخدام أي بنزين سوى الذي كان يصنعه بنفسه، لكنه لن يقول ذلك للرجل؛ لأنه قد يجرح مشاعره.

منح الرجلَ دولارًا فضيًّا مقابل خدماته، وبدأ الرجلُ في البحث عن فكة لإعطائه الباقي، لكن الأب قال له لا عليك، يمكنك الاحتفاظ بالباقي؛ انبهر الرجل من هذا الفعل، ورفع إصبعه كنوع من التحية، وكان من الواضح إدراكه أنه يتعامل مع «رجلٍ مهم». بالطبع، كان الأب معتادًا على مثل هذه المواقف، لكنها لم تفشل قطُّ في جعل قلبه يسعد قليلًا؛ فدائمًا ما كان يحتفظ بعدد من الدولارات الفضية، وأنصاف الدولارات التي كانت تجلجل في جيبه، حتى يشارك كل من يتعامل معه هذا الدفء الروحي. وكان يقول: «يا لهم من

مساكين، لا يحصلون على الكثير من المال!» كان يعرف ذلك؛ لأنه كان فيما مضى واحدًا منهم، ولم يفوِّت قطُّ أي فرصة لتوضيح ذلك للصبي. وفيما يخصه كان ذلك أمرًا حقيقيًّا، أما للصبي فكان أمرًا خياليًّا.

خلف «محطة الوقود» كانت هناك حجرةٌ صغيرة مكتوب عليها بلباقة، «مرحاض عام للرجال». كان الأب يطلق عليها اسم «محطة التفريغ»، وكانا يضحكان على تلك المزحة. ولكن الأب شدَّد على أن تقتصر هذه المزحة عليهما فقط؛ لذا يجب ألَّا يُخبَر أحدٌ بها؛ لأن الآخرين سيُصدمون منها. كان الآخرون «مختلفين»، لكن سبب اختلافهم كان أمرًا ليس له تفسيرٌ بعدُ.

جلسا على مقعدَيهما في السيارة، وكانا على وشك الانطلاق، عندما جاء «شرطي السرعة»، الذي لا بد أنه كان يلاحقهما! نعم، كان الأب على حق؛ إذ كان الرجل يتبعهما، وتجهَّم وجهه عندما رآهما. لم يكن الشرطي يعنيهما في شيء؛ لذلك انطلقا بالسيارة، وقال الأب لا شك أنه سيتخذ محطة الوقود مكانًا للاختباء ومراقبة السائقين المسرعين. وثبت صحة كلام الأب بعد ذلك. كانا قد انطلقا لمسافة ميل أو ميلَين، بوتيرتهما المضجرة بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة، عندما سمعا صوت بوق سيارة من خلفهما، ومرَّت بجوارهما سيارة بسرعة. أفسحا لها الطريق، وبعد نصف دقيقة قال الأب، وهو ينظر إلى مرآته الصغيرة: «ها هو الشرطي!» استدار الصبي ورأى الدراجة النارية تتجاوزهما ويصدر عن محركها هدير. وقفز الصبي متحمسًا في مقعده. «إنه سباق! إنه سباق! هيا يا أبي، لنلحق بهما!»

كان الأب لا يزال يتمتع ببقية من روحٍ مُحبة للهو؛ فهو لم يكن كبيرًا في السن لهذه الدرجة، علاوةً على ذلك، كانت الفرصة مناسبة ليكون العدُو في المقدمة، حيث يمكنك مراقبتُه دون أن يلاحظك. قفزَت سيارة الأب إلى الأمام، وعاد الخط الأحمر بعداد السرعة يتجاوز الأرقام ببطء، وزادت السرعة من خمسة وثلاثين، إلى أربعين، ثم خمسة وأربعين، خمسين، خمسة وخمسين. اشرأبَّ الصبي قليلًا في مقعده، وكانت عيناه تلمعان ويداه مضمومتَين.

كان الشريط الخرساني قد انتهى، وظهر طريقٌ ترابي، واسعٌ ومستوٍ، به منعطفاتٌ غير حادة التقوُّس ويمُر عَبْر أرض ريفية بها تلالٌ لطيفة، ومزروعة قمحًا. امتد الطريق صلبًا أمامهما، لكن كانت هناك نتوءاتٌ صغيرةٌ جعلَت السيارة تقفز من واحد لآخر، لكنها كانت مزودة بجميع الأجهزة المخترعة لتيسير القيادة، مثل الزنبركات وممتصات الصدمات و«المصدات». أمامهما تكوَّنَت سحبٌ من الغبار تُوجِّهها الرياح وتدفعها نحو التلال، حتى

إنك كنت ستظن أن جيشًا كان يسير هناك. وتلمح بين الحين والآخر السيارة المسرعة، والدراجة البخارية تقترب منها من خلفها. «إنه يحاول الفرار! أسرع يا أبي!» كانت هذه مغامرة لن تحدث في كل رحلة!

قال الأب معلقًا: «الأحمق اللعين!» فقد كان الرجل يخاطر بحياته لتجنب دفع غرامةٍ بسيطة. وليس بالإمكان الفرار من ضابط مرور، على الأقل ليس في طرق كهذه. وبالفعل، زالت غيوم الغبار، وعلى جزءٍ مستقيم من الطريق السريع، كانت السيارة تقف على اليمين، والضابط بجانبها يحمل دفتر ملاحظاته الصغير وقلم رصاص، ويكتب أشياء. أبطأ الأب من سرعته إلى ثلاثين ميلًا ومر بجانبهما. كان الصبي يرغب في التوقف والاستماع إلى المناقشة التي لا مفر من حدوثها في مثل هذه المناسبات، لكنه كان يعلم أن الأولوية للجدول الزمني، وكانت الفرصة مواتية لـ «الهروب». بعد اجتياز أول منعطف، انطلقا بسرعة، وكان الصبي يتلفت حوله كل نصف دقيقة طَوال نصف الساعة التالية، لكنهما لم يرَيَا «شرطي السرعة» مرةً أخرى. ومضيا مجددًا وفقًا لقانونهما الخاص.

٥

منذ فترة، شهد هذان الاثنان حادثًا مروريًّا خطيرًا، وبعد ذلك طُلب منهما الحضور للإدلاء بشهادتهما بشأنه. نادى كاتب المحكمة على «جيه أرنولد روس»، وبعد ذلك، نادى، بالصورة الرسمية ذاتها، على «جيه أرنولد روس، الابن»، وصعد الصبي إلى مقعد الشهود، وشهد بمعرفته بطبيعة القَسَمِ وقواعد المرور، وبما رآه بالضبط.

وقد جعلَه ذلك، إن جاز القول، «على دراية بما يجري في المحاكم». وكلما حدث أثناء القيادة أي شيءٍ مخالف للقواعد ولو بقَدْر بسيط، كان خيال الصبي يطوِّره إلى مشهد محاكمة. «لا، سيادة القاضي، لم يكن للرجل أي علاقة بالجانب الأيسر من الطريق؛ لقد كنا قريبين جدًّا منه، ولم يكن لديه وقتٌ لتجاوز السيارة التي كانت أمامه.» أو على النحو التالي: «سيادة القاضي، كان الرجل يسير على الجانب الأيمن من الطريق في الليل، وكانت هناك سيارةٌ قادمة نحونا، حجبَت أضواؤها الرؤية عنا. وكما تعلم، سيادة القاضي، يجب على المرء السير على الجانب الأيسر من الطريق ليلًا، حتى يتمكَّن من رؤية السيارات المتجهة نحوه.» في خضم تخيلات الحوادث هذه، كان الصبي ينتفض قليلًا من مكانه، وكان الأب يسأله: «ما الأمر يا بني؟» كان الصبي حينئذٍ يشعر بالإحراج؛ لأنه لم يحب أن يقول إنه كان يترك أحلامه تتفلت منه. لكن الأب كان يعرف، وكان يبتسم بداخله؛ فهو طفلٌ

مضحك، دائمًا ما يتخيل الأشياء، ويقفز عقله من حدث لآخر، ويشعر بالحماس طوال الوقت!

لم يكن عقل الأب هكذا؛ فقد كان يدخل في موضوعٍ واحد ويبقى فيه، وتتوالى منه الأفكار ببطءٍ وجدية؛ فقد كانت عواطفه مثل الفرن الذي يستغرق وقتًا طويلًا ليسخن. وأحيانًا لم يكن ينبس ببنت شَفة في هذه الرحلات لمدة ساعةٍ كاملة؛ حيث كان تيار وعيه يتدفق مثل نهرٍ ينحدر من خلال الصخور والرمال حتى يختفي تمامًا عن الأنظار، وربما كان الأب يعكس شعورًا بالرفاهية لارتدائه معطفًا دافئًا فخمًا، وربما تعتبره أداةً ملحقةً بمحرك سيارة يخرخر بهدوء ويسبح في الزيت المغلي؛ لاجتياز طريق بسرعة خمسين ميلًا في الساعة. وإذا فككتَ هذا الوعي إلى أجزاء، فلن تجد أفكارًا، ولكن كل ما يتعلق بحالة الأعضاء الجسدية، والطقس، والسيارة، والحسابات المصرفية، والصبي الجالس بجانبه. إن محاولة صياغة كل هذه الأمور في كلماتٍ تجعلها محددة لكن غير مترابطة؛ لذلك يجب محاولة النظر إليها جميعًا دفعةً واحدة، مختلطةً معًا: «أنا، سائق هذه السيارة، الذي كان فيما مضى جيم روس، سائق البغال، وصاحب شركة جي إيه روس وشركاه، للتجارة العامة في كوين سنتر، كاليفورنيا، أصبحتُ الآن جيه أرنولد روس، وأعمل في مجال النفط، وأوشك فطاري على أن يُهضم، وأشعُر ببعض الدفء وأنا أرتدي معطفي الجديد الكبير لأن الشمس بدأَت تشرق، ولديَّ بئرٌ جديدة تنتج أربعة آلاف برميل في نهر لوبوس، وجاري ضخ البترول من ست عشرة بئرًا في أنتيلوب، وأنا في طريقي لتوقيع عقد إيجار في بيتش سيتي، وسنعوِّض الوقت الضائع من جدولنا الزمني في الساعات القليلة القادمة، و«باني» جالس بجانبي، وهو يتمتع بالصحة والعافية، وسيمتلك كل ما أُكَوِّنه، ويحذو حَذْوي، إلا أنه لن يرتكب أبدًا الأخطاء الفادحة الفظيعة التي ارتكبتُها، ولن تكون لديه الذكريات المؤلمة التي لديَّ، وإنما سيكون حكيمًا ومثاليًّا وسيفعل كل ما أقوله.»

في هذه الأثناء، لم يكن عقل «باني» يتصرف بهذا الشكل على الإطلاق، بل على العكس كان يتواثب من موضوع إلى آخر، كما يقفز الجراد النطاط في الحقول من ساقٍ عشبية إلى أخرى. كان هناك أرنبٌ بري، يعدو بعيدًا كالمجنون، وكانت لديه أذنان طويلتان، مثل البغل، ولكن لماذا كانتا شفافتَين وورديتَي اللون؟ وكان هناك طائر نُهَس، يقف على السياج، ويفرد جناحَيه طوال الوقت، كما لو كان يتثاءب؛ ماذا كان يقصد بهذا الفعل؟ وكان هناك طائرٌ طويلٌ نحيف يركض بسرعة مثل حصان سباق، جميل ولامع، وتتداخل في ريشه ثلاثة ألوان هي الأسود والبني والأبيض، وله عرف وذيلٌ انسيابي. من أين تظن

أنه سيحصل على الماء في هذه التلال الجافة؟ كانت هناك على الطريق جثةٌ مشوهة؛ حيث حاول سنجاب عبور الطريق، ودهسَته سيارة ومرَّت فوقه سياراتٌ أخرى، حتى سُحِقَت جثتُه وذرتها الرياح. لم تكن هناك فائدة من قول أي شيء للأب حول ذلك الأمر؛ لأنه سيعلق قائلًا إن السناجب تنقل الطاعون، أو على الأقل بها براغيث تنقل الطاعون، وبين الحين والآخر ستظهر حالات من هذا المرض وسيتعين على الصحف كتمان الأمر؛ لأنه يؤثِّر سلبًا على سوق العقارات.

لكن الصبي كان يفكِّر في هذا الكائن الصغير المسكين الذي أُزهِقَت حياته فجأة. يا لقسوة الحياة، ويا لغرابة الطريقة التي تنمو بها الأشياء، وتتمتع بالقدرة على صنع نفسها، من العدم كما يبدو! لم يستطع الأب تفسير ذلك الأمر، وقال إنه لا يمكن لأي شخصٍ آخر تفسيره، فأنت جئتَ إلى هذا العالم فحسب. ثم جاءت أمامهما سيارة أسفارٍ عائلية، كانت قديمة تميل إلى أحد جانبَيها ومحمَّلة بأغراضٍ منزلية؛ كان الأب يراها مجرَّد عقبة، لكن «باني» رأى غلامَين في عمره نفسه، يركبان في مؤخرة السيارة بجوار الأمتعة ويحدِّقان فيه بعيونٍ ضجرةٍ فاترة. كانا شاحبَين وبدا وكأنهما لا يملكان ما يكفي من الطعام، وكان هذا شيئًا آخر يجب التعجُّب بشأنه، لماذا يُوجد أناسٌ فقراء ولا أحد يساعدهم. وكان تفسير الأب أن عليك مساعدةَ نفسك في هذا العالم.

كان «باني» هو الاسم الشائع لهذا الصبي، وكانت أمه قد أطلقَته عليه عندما كان صغيرًا؛ لأنه كان ناعمًا ودافئًا، وتشوب وجهَه سمرةٌ لطيفة، وكانت تُلبِسه سترةَ فروٍ ناعمة، بنية اللون ومزركشة باللون الأبيض. كان الآن في الثالثة عشرة من عمره، وكان يستاء من الاسم، لكن الأولاد اختصروه إلى «بَن»، وبقي هذا الاسم معه، وكان مُرضِيًا له. كان صبيًّا وسيمًا، أسمر اللون، له شعرٌ بنيٌّ مموج، متناثر بسبب الرياح، وعينان بنيتان براقتان، وبشرةٌ متوردة؛ لأنه كان يقضي معظم وقته في الهواء الطلق. لم يلتحق بالمدرسة، لكنه تعلم على يد مدرسٍ خصوصي بالمنزل؛ لأنه كان من المقرَّر أن يحل محل والده في العالم، ثم بدأ يقوم بهذه الرحلات ليتعلم كل ما يتعلق بأعمال والده.

كانت هذه المناظر الطبيعية تتسم بروعةٍ لا متناهية؛ حيث قابل وجوهًا جديدة، واكتشف أنواعًا جديدة من الحياة. سافر إلى بلدات وقرًى مذهلة، مليئة بالناس والمنازل والسيارات والخيول واللافتات. كانت هناك لافتات على طول الطريق؛ أعمدةٌ إرشادية عند كل تقاطع، تعطيك درسًا في الجغرافيا، بسرد الأماكن التي تؤدي إليها الطرق، وتحديد المسافات؛ حتى تتمكن من وضع جدولك الزمني، وهذا ما يمكن اعتباره درسًا في الحساب!

وكانت هناك لوحاتٌ مرورية تحذرك من خطرٍ ما؛ منحنيات، منحدرات، أماكن زَلِقة، تقاطعات، معابر، سكك حديدية. وكانت هناك لافتاتٌ كبيرة فوق الطريق السريع، أو لافتاتٌ مكتوب عليها بحروفٍ مصنوعة من مصابيحَ كهربائية: «لوما فيستا: مرحبًا بكم في مدينتنا.» ثم بعدها بقليل: «لوما فيستا، حدود المدينة: فلتصحبكم السلامة، في انتظار زيارتكم القادمة.»

كذلك لم تكن هناك نهاية للافتات الإعلانية، وخاصة اللافتات المعدة للحيلولة دون الشعور بالملل أثناء السفر. وتكرَّر ظهور لافتة «أمامك منظرٌ طبيعي يستحق التصوير؛ صوره بكاميرا كوداك»، وحينئذٍ كنت تبحث عن هذا المنظر الطبيعي، لكن لا يمكنك أبدًا التأكد من ماهيته. ونصب أحد مصانع الإطارات مجسمًا خشبيًّا كبيرًا لصبي يُلَوِّح بعلم؛ قال الأب إن هذا الصبي يشبه باني، وقال باني إنه يشبه صورةً لجاك لندن كان قد رآها في إحدى المجلات. كان لدى مصنع إطاراتٍ آخر كتابٌ مفتوحٌ رائع، مصنوع من الخشب، وُضع عند منعطف الطريق المؤدي إلى كل بلدة، كان من المفترض أن يكون كتاب تاريخ، وكان يخبرك ببعض المعلومات عن هذا المكان، حقائق جديدة ومفيدة في آنٍ واحد، فكنت تتعلم أن سيتروس كانت موقع أول بستان برتقال في كاليفورنيا، وأن سانتا روزيتا تتمتع بأجود الينابيع التي تحتوي على الراديوم في غرب جبال روكي، وأن على أطراف مدينة كريسينت سيتي، جعل الأب جونيبيرو سِيرا ألفَين من الهنود الحمر يعتنقون المسيحية في عام ١٧٦٩.

ومن هذا تتعلم أنه لا يزال هناك أشخاصٌ منخرطون في التبشير بالمسيحية وإقناع الناس باعتناقها؛ فقد كانوا يتوجَّهون إلى الطريق السريع بأوعية من الطلاء المختلف الألوان، ويكتبون على الصخور والجسور التي تمُر من أسفلها السكك الحديدية: «استعد للقاء ربك.» ثم ترى لوحةً مرورية مكتوبًا عليها: «معبر سكة حديدية. قف. انظر. اسمع.» أوضح الأب أن شركة السكك الحديدية أرادت لك أن تلاقي ربك بطريقةٍ أخرى؛ لأنه ستكون هناك دعاوى تعويض عن أضرار الإفراط في أخذ العقيدة الدينية على محمل الجد. فيظهر على إحدى الصخور «يسوع ينتظر»؛ ثم ترى بعدها «دجاج للعشاء بدولار واحد.» كانت هناك دائمًا لافتاتٌ مضحكة حول الأشياء التي يمكن أكلها؛ فيبدو أن كل العالم أحب وجبةً معينة، وأصبح سعيدًا بالفكرة. فأماكن تناول الطعام كانت تحمل أسماء مثل «حظيرة النقانق» و«تومي تَسَمم» و«خباز البحر» و«بيت الكركند». وكان لكلمة «نُزُل» نصيب الأسد في التلاعب اللفظي؛ حيث كانت هناك «دار الخلود» و«دار السعادة»

و«بيت الراحة». وعندما تذهب إلى هذه الأماكن، ستجد روح المرح تنتشر على الجدران حيث ترى: «الدفع نقدًا، ولا نقبل الشيكات.» «لا تتذمر من القهوة؛ فيومًا ما أنت أيضًا ستصبح قديمًا وضعيفًا.» «لدينا اتفاق مع المصرف؛ فالمصرف لا يقدِّم الحساء، ونحن لا نصرف الشيكات.»

٦

كانا يمُران عَبْر وادٍ واسع، حيث تمتد لأميال وأميال حقول القمح، التي كانت تتلألأ باللون الأخضر تحت أشعة الشمس؛ وبدت الأشجار من بعيد، وكنتَ تلمح منزلًا وآخر هناك. وظهر سؤالٌ وديٌّ على إحدى اللوحات: «هل تبحث عن بيت؟ إذن سانتا إينيز هي المكان المناسب. فالمياه نقية، والأرض رخيصة الثمن، وهناك سبع كنائس. احجز الآن مع سبراوكس ونَكِلسون للعقارات.» بعد قليل، اتسع الطريق، وكان هناك صف من الأشجار في منتصفه، وبدأَت المنازل تظهر على الجانبَين. وكُتب على لافتةٍ كبيرة: «قُد ببطء واستمتع بزيارة مدينتنا، أو قُد بسرعة واستمتع بزيارة سجننا؛ بأمر من مجلس بلدية سانتا إينيز.» أبطأ الأب من سرعته إلى خمسة وعشرين ميلًا؛ إذ كان من الخدع المفضَّلة لدى مارشالات البلدة وقضاة الصلح نصبُ كمائن سرعةٍ لسائقي السيارات القادمين من الريف وهم يقودون بسرعاتٍ عالية؛ حينئذٍ يوقفونك ويغرمونك غرامةً كبيرة، وعندئذٍ ستتمثل أمامك صورة لهذا النمط الجديد من قطَّاع الطرق وهم ينفقون أموالك في حياة العربدة. من وجهة نظر الأب، كان هذا شيئًا آخر سيُوضَع حدٌّ له؛ فمثل هذه الغرامات يجب أن تذهب إلى الولاية، وأن تُستخدم في إصلاح الطرق.

«منطقة تجارية، السرعة ١٥ ميلًا في الساعة.» كان الشارع الرئيسي في سانتا إينيز يتكون من طريقَين، وبه صفان من السيارات المتوقفة بميل في منتصفه، وصفٌّ آخر من السيارات المتوقفة بميل على جانبَي الشارع. وللعثور على مكان لإيقاف سيارتك، عليك السير ببطء في إحدى حارات الطريق، مترقبًا خروج سيارة من مكانها لتحل محلها على الفور، دون أن تصطدم برفرف السيارة التي على يمينك. ترجَّل الأب من السيارة وخلع معطفه وطواه بعناية مقلوبًا على ظهره واضعًا الأكمام بالداخل، كان هذا شيئًا خاصًّا به، إذ كان يمتلك متجرًا كبيرًا يتضمن «ملابس للرجال». وضع هو وباني معطفَيهما على نحوٍ مرتَّب في صندوق السيارة الخلفي، وأوصداه بإحكام، ثم تجوَّلا على الرصيف يشاهدان أصحاب المزارع في وادي سانتا إينيز والبضائع المعروضة في المتاجر. كانت تشبه أي

منطقةٍ أخرى في الولايات المتحدة، حيث كانت الأشياء المعروضة للبيع هي نفسها الأشياء التي كنتَ ستراها في نوافذ المتاجر في أي شارعٍ رئيسيٍّ آخر؛ تلك الأشياء التي يُطلِق عليها اسم «المنتجات المعلن عنها محليًّا». فقد كان صاحب المزرعة يُسافِر إلى البلدة وهو يقود سيارةً مُعلنًا عنها محليًّا، ويضغط على دواسة الوقود بحذاءٍ مُعلنٍ عنه محليًّا، ويعثر أمام متجر الأدوية على كشك يبيع مجلات مُعلنًا عنها محليًّا، تحتوي على جميع إعلانات السلع المُعلن عنها محليًّا التي سيعود بها إلى المزرعة.

كانت هناك بضعُ تفاصيل تميِّز هذه البلدة الكائنة في الغرب الأمريكي، مثل: عرض الشارع، وحداثة المتاجر، ولمعان طلائها الأبيض، وشبكة المصابيح الكهربائية المعلَّقة في وسط الشارع؛ وكذلك وجود رجل يرتدي قبعةً عريضة الحواف، وعجوزٍ هندي قزم يغمغم بشفتَيه أثناء سيره، وراعي بقرٍ وحيد يرتدي «سروال جلد» فوق سرواله الأساسي. وظهرَت لافتةٌ بيضاءُ اللون مكتوب عليها عموديًّا «مقهى النخبة»، وكُتبت كلمة «وافل» بالطلاء على النافذة، وكانت هناك قائمةُ طعام مثبَّتة بالباب، حتى تتمكَّن من رؤية ما يُقدِّمه المقهى وأسعاره. كانت هناك طاولات بمحاذاة الحائط، ونضد بطول الجانب الآخر منه، يجلس أمامه فوق مقاعدَ صغيرة بلا ظهر أو ذراعَين صفٌّ من الرجال ذوي الظهور العريضة، يرتدون قمصانًا وحمالات سراويل؛ كانت هذه المقاعد مخصَّصة للخدمة السريعة، لذلك جلس الأب والصبي على مقعدَين شاغرَين.

كان الأب يصبح على سجيته في مثل هذه الأماكن ويستمتع بالوجود فيها. فكان يحب أن «يمازح» النادلة، وكان يعرف جميع أنواع الكلام الهَزْلي الذي يمكن قوله، والأسماء المضحكة التي تُطلَق على المأكولات. فكان يطلب أن يكون البيض «مقليًّا على جانبٍ واحد» أو «بيضَ عيون». وكان يقول «بيضٌ ملفوف»، ويضحك على المجهود الذي تبذله النادلة لإدراك أن هذا يعني شطيرة بيض مقلي. وكان يتجاذب أطراف الحديث مع صاحب المزرعة الجالس في الجانب الآخر للاطلاع على حالة القمح، والأسعار المحتملة لمحاصيل البرتقال والجوز؛ فقد كان مهتمًّا بكل ما يتعلق بهذا الأمر، بوصفه رجلًا يبيع النفط الذي يتحدَّد سعره وفقًا لما يحصُل عليه هؤلاء الرجال مقابل منتجاتهم. وكان الأب يمتلك أرضًا أيضًا، وكان مستعدًّا دائمًا لـ «اقتناء» قطعةِ أرضٍ جيدة الإمكانات؛ لأنه، على حد قوله، كان هناك نفطٌ في جميع أنحاء جنوب كاليفورنيا، ويومًا ما ستتحوَّل إلى إمبراطورية نفط.

لكنهما كانا متأخرَين عن جدولهما الزمني، ولم يكن لدَيهما وقتٌ للهو. طلب الأب أرنبًا مقليًّا، لكن باني لم يحبِّذ الفكرة، ليس لأنه لم يكن يُحب أكل لحم الحيوانات، ولكن

بسبب الأرنب الذي رآه مهروسًا على الطريق في ذلك الصباح. ولذلك اختار لحم خنزيرٍ مشويًّا؛ فلم يكن قد رأى أي خنازيرَ ميتة. وهكذا جاءت على طبقٍ كبير شريحتان من اللحم، وكرةٌ من البطاطا المهروسة، بها فتحةٌ من الأعلى مملوءةٌ بمرق اللحم البني اللزج، وكذلك ملعقة من البنجر المقطع وورقة خس عليها صوص تفاح. كانت النادلة قد أعطت الصبي حصةً إضافيةً من الطعام؛ لأنها أحبت هذا الطفل الأسمر المرح، بخدَّيه الورديَّين وشعره المتطاير بفعل الرياح، وشفتَيه الحساستَين، اللتَين تشبهان شفاه الفتيات، وعينَيه البنيتَين المتحمستَين اللتين كانتا تجولان في المكان لإلقاء نظرة على كل شيء، بدءًا من اللافتات على الحائط، وزجاجات الكاتشب وشرائح الفطير، والنادلة السمينة الظريفة، والنادلة الأخرى النحيفة المتعبة التي كانت تتولى خدمته. أدخل السرور على قلبها بإخبارها عن شرطي السرعة الذي كانا قد التقيا به والمطاردة التي شاهداها. وبدورها أطلعَتْهما على مكان كمين سرعة خارج البلدة؛ حيث أُوقف الرجل الجالس بجوار باني وغُرِّم عشرة دولارات؛ لذلك كان لديهما الكثير ليتحدثا عنه بينما كان باني يُنهي عشاءه، وشريحة فطيرة الزبيب وكوب الحليب. أعطى الأب للنادلة نصف دولار إكراميةً، وهو أمرٌ لم يكن شائعًا بين الجالسين على النضد، وبدا كأنه أمرٌ غير أخلاقي، لكنها أخذَتْه.

قادا السيارة بحذر حتى تجاوزا كمين السرعة، ثم «انطلقا بسرعة» في شارعٍ واسعٍ معروف باسم مِيشَن واي (أي طريق المهام)، على امتداده أعمدةٌ تتدلى منها أجراسٌ برونزية. كانت للطرق السريعة في هذا الريف أسماءٌ رائعة، على سبيل المثال: «طريق حديقة الشيطان» و«طريق حافة العالم» و«منحدر ينبوع الجبل» و«طريق تدفُّق ينبوع ماء الثلوج» و«وادي الألف نخلة» و«طريق جون صاحب شجرة التين» و«ممر الذئاب» و«طريق الأرانب البرية». وكان هناك طريقٌ يُدعى «طريق التلغراف»؛ أثار اسمه حماسة الصبي؛ لأنه كان قد قرأ عن معركة في الحرب الأهلية من أجل السيطرة على طريق يُسمى «طريق التلغراف»، وعندما سارا في هذا الطريق، كان يتخيَّل جنود المشاة يختبئون في الشجيرات والفرسان يهجمون عَبْر الحقول، وبدأَت الحماسة تظهر عليه، فسأله الأب: «ما الأمر؟» رد الصبي: «لا شيء يا أبي؛ كنتُ أفكر فقط.» يا له من طفلٍ مضحك! دائما ما يتخيل أشياء!

كذلك، كانت هناك شوارع تحمل أسماءً إسبانية يعتَز بها بشدة «سماسرة العقارات» في الريف المتظاهرين بالتقوى. عرف باني معنى هذه الكلمات؛ لأنه كان يدرس اللغة الإسبانية، ليتمكن في المستقبل من التعامل مع العمال المكسيكيين. فكان اسم أحد الشوارع

يعني بالإسبانية «الطريق الملكي السريع»؛ والآخر «الجلَّاد». «ما قصة هذه الشوارع يا أبي؟» لكن الأب لم يكن يعرف القصة؛ لذلك تشارك في الرأي مع صاحب الشركة المصنِّعة للسيارات التي يُعلن عنها محليًّا، وقال إن معظم أحداث التاريخ ما هي إلا «هُراء».

٧

كان الطريق الآن ممهدًا بالأسفلت، فكان يلمع تحت أشعة الشمس، وكلما امتد أمامك، كان السراب يجعله يبدو كالماء. واصطفَّت على جانبَي الطريق بساتين البرتقال؛ أشجار بلونٍ أخضر داكن متألق، وبلونٍ ذهبي ناجم عما تبقى من محصول العام الماضي، وباللون الأبيض الثلجي لبراعم محصول العام الجديد. وبين الحين والآخر كان النسيم يهب؛ فتشم رائحةً ذكية. وكانت هناك بساتين من الجوز، أشجار كثيفة ذات أوراقٍ عريضة، تُلقي بظلالٍ داكنة على التربة البنية المحروثة بعناية. كانت هناك سياجات من زهور، تمتد لمسافاتٍ طويلة، بارتفاع ثماني أو عشر أقدام، وتغطيها البراعم. وكانت هناك مصدَّات للرياح من أشجار الأوكالبتوس الرفيعة الشاهقة، ذات الأوراق الطويلة المموَّجة واللحاء الذي يتقشر ويتركها عارية، وكانت مألوفة للجميع بسبب ظهورها في أفلام السينما؛ حيث كانت تحل محل أشجار البلوط المتينة وأشجار الدردار القديمة، وأشجار الكستناء الضخمة والنخيل العربي، وأشجار الأرز اللبنانية وأي شيءٍ آخر يتطلبه السيناريو.

كان يتعيَّن على المرء تقليل سرعته هنا، ومراقبة الطريق باستمرار؛ إذ كانت هناك تقاطعات وممرات تتداخل مع الطريق الرئيسي، وعلاماتٌ تحذيرية من أنواعٍ كثيرة، وازدحام في حركة مرور السيارات في كلا الاتجاهَين؛ لذلك كان يلزم التروِّي قبل اتخاذ قرار تجاوز السيارة التي أمامك؛ فقد يأتي أحد في الاتجاه المقابل، وحينئذٍ ستصبح بين شِقَّي رحًى. كان من الممتع مشاهدة تعامل الأب مع حالات الطوارئ هذه، للاطلاع على نواياه ومشاهدته وهو ينفذها.

تباعدَت المسافة بين البلدات فصارت الآن خمسة أميال أو عشرة، وتباطأت باستمرار حركة السير بسبب الازدحام، وكانت هناك باستمرار تحذيراتٌ بالامتثال لمعدل سرعة يضيق منه حلزونٌ قوي البنية. كان الطريق السريع يمُر عَبْر الشارع الرئيسي لكل بلدة، ودبَّر التجار ذلك، على حد قول الأب، على أمل أن تترجل من سيارتك وتشتري شيئًا من متاجرهم، ولو نُقل الطريق السريع إلى أطراف البلدة لتفادي الازدحام المروري، لانتقل

جميع التجار على الفور إلى الطريق السريع! في بعض الأحيان كانوا يُعلِّقون لافتات، تشير إلى وجود منعطف في الطريق السريع، في محاولة لاستدراج قائد السيارة إلى شارعٍ تجاري، وبعد أن تصل إلى نهاية ذلك الشارع، كانوا يوجِّهونك للعودة إلى الطريق السريع! لاحظ الأب مثل هذه الحيل بتسامح واستمتاع رجل استخدم هذه الحيل من قبلُ مع الآخرين، لكنه لم يسمح بأن تنطلي حيل أي أحدٍ معه.

تألفَت كل بلدة من العديد من التقسيمات السكنية المستطيلة الشكل التي تراوَح عددها بين العشرات والآلاف، وكانت أراضيها مقسمة تقسيمًا مثاليًّا إلى قطعٍ مستطيلة الشكل، تضمَّنَ كلٌّ منها بيتًا مكونًا من طابقٍ واحد مصممًا على أحدث طراز، ومزودًا بحديقة تقف بها ربة منزل تحمل خرطومًا. وعلى أطراف البلدة كان هناك واحد أو أكثر من «التقسيمات الفرعية»، كما كان يُطلق عليها؛ حيث قُسمَت الأراضي الكبيرة إلى مساحاتٍ صغيرة، وزُينَت بصف من الأعلام الحمراء والصفراء التي كانت ترفرف ببهجة عند هبوب النسيم، وكذلك صف من اللافتات الحمراء والصفراء التي تطرح أسئلة، وتجيب عنها بردودٍ سريعةٍ مجدية: «هل هناك محطات للوقود؟ نعم.» «ماذا عن الماء؟ الأفضل على الإطلاق.» «هل الإنارة متوفرة؟ بالطبع.» «هل تلتزم المنطقة بالقوانين السارية؟ دون أدنى شك.» «هل تُوجد مدارس؟ قيد الإنشاء.» «ماذا بشأن المنظر الطبيعي؟ أفضل من جبال الألب.» — وما إلى ذلك. كان هناك مكتب أو خيمة على جانب الطريق، وأمامها شابٌّ متيقظ يحمل لوح كتابة وقلم حبر، ومستعدٌّ لكتابة عقد بيعٍ لك بعد التحدث معك لدقيقتَين فقط. اشترى مقسِّمو الأراضي الهكتار بألف دولار، وبمجرد أن رفعوا الأعلام الصغيرة المرفرفة ونصبوا الخيمة، أصبحَت قيمة قطعة الأرض الواحدة ١٦٧٥ دولارًا. وكان الأب يوضِّح هذا الأمر أيضًا دون أي تعصب أو ضيق. فهذا هو حال الدول العظمى!

كانا قد اقتربا من أطراف مدينة إنجِل سيتي. وهناك لم تكن مساراتٌ لعربات الترام ولا خطوط للسكك الحديدية، ولم تكن التقسيمات الفرعية للأراضي تتقيد بأي «قوانين سارية»؛ أي إنه كان يمكنك بناء أي نوع من المنازل التي تفضِّلها وتأجيرها لأشخاص من أي عرق أو لون؛ مما كان يعني أحياءً فقيرةً قبيحة، تنتشر كانتشار القُرح في الجسد، وتتكوَّن من أكواخ من الصفيح وألواحٍ غيرِ مطلية مصنوعةٍ من الورق المكسُو بالقار. وكان هناك عددٌ كبير من الأطفال الذين يلعبون هنا، ولسببٍ غريب بدا أن هناك عددًا كبيرًا منهم في مكان لم تكن ظروفه مواتية للنمو الصحي.

وبفضل الاستمرار في القيادة باندفاع وتجاوُز كل سيارةٍ أخرى على الطريق، كان الأب قد عاد إلى جدوله الزمني. ومضَيا على أطراف المدينة لتجنُّب الازدحام في مركزها، وبعد قليل ظهرت لافتةٌ مكتوب عليها: «جادة بيتش سيتي». كان الطريق أسفلتيًّا عريضًا، به آلاف السيارات المسرعة، والمزيد من التقسيمات الفرعية للأراضي، والأراضي المخصَّصة لبناء المنازل في الضواحي، بالإضافة إلى عددٍ لا نهائي من الإعلانات المبتكرة المصمَّمة لجذب انتباه سائقي السيارات، وجَعلِهم يتوقفون. ويبدو أن سماسرة العقارات كانوا يقرءون قصص ألف ليلة وليلة وحكايات الأخوين جريم الخيالية؛ حيث كانت مقراتهم في مكاتبَ صغيرةٍ غريبة لها أسقفٌ مدببة، أو تميل إلى جانبٍ واحد وكأنها بحَّارٌ مخمور، وكانت ألوانها برتقالية ووردية، أو زرقاء وخضراء، أو بألواحٍ خشبيةٍ مطليٍّ كل واحدٍ منها بلون مختلف، ومنقَّطة بألوانٍ متنوعة. كانت هناك لافتاتٌ مكتوب عليها «مأكولات طيبة» و«مشويات باربكيو»، ولم تكن كلمة «باربكيو» شائعة لرسامي اللافتات؛ إذ على ما يبدو لم تكن موجودةً في كتب التهجئة عندما كانوا يرتادون المدرسة. وكانت هناك أكشاكٌ لبيع عصير البرتقال وعصير التفاح، أمامها كراسيُّ برتقالية اللون من الخوص مخصَّصة للجلوس. وكانت هناك أكشاك لبيع الفاكهة والخضراوات يمتلكها يابانيون، وأكشاكٌ أخرى عليها لافتات تدعوك إلى «مناصرة الأمريكيين». ببساطة كان هناك عددٌ غير محدود من الأشياء التي تَلفِت النظر؛ حيث يجلب كل شيء على حدة إثارةً مميزة لذهن صبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا. كان هذا يلخِّص الغرابة والروعة اللانهائيتين لهذا العالم المتنوع! وأثار هذا الأمر العديد من الأسئلة بذهن الصبي. وبدأ يسأل الأب عن الأسباب التي تجعل الناس يتصرفون بطريقةٍ معينة.

وصلا إلى بيتش سيتي، بشارعها الواسع المُطِل على المحيط. أعلنَت الساعة على لوحة عتبة السيارة تمام السادسة والنصف؛ بالضبط في الموعد المحدَّد حسب الجدول الزمني. توقفا أمام الفندق الكبير، وترجَّل باني من السيارة، وفتح صندوقها الخلفي، وجاء خادم الفندق مسرعًا، بالتأكيد؛ فقد كان يعرف الأب، والدولارات وأنصاف الدولارات التي كانت تُجلجِل في جيوبه. أمسك الخادم حقائب السفر والمعاطف، وحملها للداخل، وتبعه الصبي، شاعرًا بالمسئولية والأهمية؛ لأن الأب لم يتمكن من الدخول بعدُ؛ فقد تعيَّن عليه وضع السيارة في مكان انتظار السيارات. لذا سار باني بخطًى سريعة وبحث في الردهة عن بن سكوت، كشَّاف النفط، الذي أطلق عليه الأب اسم «صائد عقود الإيجار». ووجده جالسًا على كرسي جلدٍ كبير، يدخن سيجارًا ويراقب الباب، نهض عندما رأى باني، ومدَّد جسدَه

الطويل النحيل، وعلَت وجهه النحيل القبيح ابتسامةُ ترحيب. تذكَّر الصبي أنه جيه أرنولد روس، الابن، الذي يمثِّل والده في صفقةٍ مهمة؛ لذا انتصبَت قامته بشدة وصافح الرجل، قائلًا: «مساء الخير يا سيد سكوت. هل الأوراق جاهزة؟»

الفصل الثاني

عقد الإيجار

١

كان عنوان المنزل ٥٧٤٦ جادة لوس روبلس، وكان عليك أن تكون على دراية بهذه المنطقة الواعدة لتعرف أن المنزل يقع وسط حقل للكرنب. ولوس روبلس تعني «أشجار البلوط» بالإسبانية، وعلى بعد ميلَين أو ثلاثة أميال، عند بداية هذا الشارع في قلب مدينة بيتش سيتي، كانت تُوجد أربعُ أشجارِ بلوط نضرة. لكن كان هناك منحدَر تل مُجدِب، وكان منحدِرًا، لكنه لم يكن شديد الانحدار بحيث لا يمكن حرثُه وزرعُه بالكرنب، بالإضافة إلى بنجر السكر بالأسفل على السطح المستوي. كان الحالمون، بمساعدة أدوات المسَّاحين، قد انتهَوا إلى أنه يومًا ما سيمُر شارعٌ واسع في هذا المسار؛ ولهذا شيَّدوا طريقًا ترابيًّا، ووضَعوا في كل زاويةٍ أعمدةً بيضاء تشير إلى الشمال وإلى الشرق مكتوبًا عليها جادة لوس روبلس–شارع بالوميتاس؛ جادة لوس روبلس–شارع إل سنترو؛ وهكذا.

قبل عامَين، جاء «مقسِّمو الأراضي» إلى هنا، ومعهم أعلامهم الحمراء والصفراء الصغيرة، وكانت هناك إعلاناتٌ تغطي صفحاتٍ كاملة في الصحف، وتوصيلاتٌ مجانية من مدينة بيتش سيتي، ووجبةُ غداءٍ مجانية، تتألف من شطائر «النقانق» وشريحة من فطيرة التفاح وكوب من القهوة. في ذلك الوقت، أُخليَت الحقول من الكرنب، ومُهِّدَت، وامتلأَت قطع الأراضي بلافتاتٍ صغيرة مكتوب عليها: «مُباع». كان من المفترض أن تشير اللافتة إلى قطعة الأرض، ولكن مع الوقت أصبحَت تشير إلى المشتري. فقد اضطلعَت الشركة ببناء حواجزَ للطريق وأرصفة وبتوفير الماء والوقود وأنظمة الصرف الصحي، لكنَّ شخصًا ما هرب بالمال، وأفلسَت الشركة، وعلى الفور بدأَت تظهر لافتاتٌ جديدة مكتوب عليها: «للبيع، من قِبل المالك»، أو «صفقة: يُرجى الرجوع لسميث وهيدمتون، للعقارات». وأصيب أصحاب الأراضي بخيبة أمل عندما لم تلقَ هذه اللافتات أي اهتمام، وتمنَّوا أن

يستفيد أطفالهم يومًا ما من هذا الاستثمار عندما يكبرون. وحتى ذلك الحين، سيقبلون عرض صغار المزارعين اليابانيين لزراعة الأرض مقابل الحصول على ثلث المحصول.

لكن حدَث شيءٌ غير متوقع قبل ثلاثة أو أربعة أشهر. إذ كان رجلٌ يمتلك هكتارًا أو اثنَين من الأراضي على قمة التل، قد سمح لشاحنتَين محملتَين بقطعٍ كبيرةٍ مربَّعة من خشب صنوبر أوريجون، أن تشُقا طريقهما لأعلى المنحدر، وبدأ النجارون العمل بهذه الأخشاب، وكان سكان الحي يحدِّقون متسائلين عن نوع المنزل الغريب الذي يمكن بناؤه بهذه الأخشاب. وفجأةً انتشر الخبر، في جوٍّ من الإثارة: إنه برج لحفر بئر نفط!

زار بعض أهالي الحي المالكَ ليتحققوا من الأمر. وأكد لهم أنه مجرد «بئر للتنقيب عن النفط»؛ فقد كان لديه مائة ألف دولار فائضة عن احتياجاته، وهذه كانت فكرته عن كيفية استثمار هذا المبلغ. ومع ذلك، أُزيلت لافتاتُ الصفقات من حقول الكرنب واستُبدلَت بلافتة «حقل نفط للبيع». وبدأ المضاربون في البحث عن أسماء المالكين وعناوينهم، وقُدمَت العروض، وكانت هناك شائعاتٌ بأن بعض المالكين قد حصَلوا على ما يصل إلى ألف دولار؛ أي ما يقرب من ضعف السعر الأصلي لقطع الأرض. فأقبلَت السيارات وهي تسير بصعوبة على الطرق الترابية، جيئةً وذهابًا، وفي فترة ما بعد الظهر يومَي السبت والأحد، كان هناك حشدٌ من الناس يحدِّقون في برج الحفر.

بدأ الحفر، واستمر بهدوء ورتابة. ونشرَت الصحف المحلية النتائج: وصلَت بئر دي إتش كولفر المرتقبة رقم ١ لعمق ١٤٧٨ قدمًا، حيث عُثِر على تكوينات من الأحجار الرملية الصلبة، دون أي مؤشرات على وجود نفط. وتكرَّر الأمر ذاته على عمق ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ قدم، وبعد ذلك، انكسر مثقاب الحفر وحاولوا لأسابيع «اصطياد» الجزء المكسور باستخدام جهاز الحفر، وفقد الجميع الاهتمام؛ فالبئر لم تكن سوى «حفرةٍ جافة»، وبدأ الأشخاص الذين رفضوا بيع أراضيهم مقابل ضعف ثمنها ينعَتون أنفسهم بالحمقى. فحُجة «بئر التنقيب عن النفط» لم تكن سوى مقامرة على أي حال، تختلف تمامًا عن الاستثمارات المحافظة في قطع الأراضي بالبلدات. ثم أوردَت الصحف أن بئر دي إتش كولفر المرتقبة رقم ١ عاودت الحفر، ووصلَت لعمق ٣٠٥٩ قدمًا، لكن المالكين لم يفقدوا الأمل بعدُ في العثور على شيءٍ ما.

ثم حدث شيءٌ غريب. جاءت شاحناتٌ محملة بأشياء ومغطاةٌ بعناية بالقماش. تلقى كل شخص له علاقة بالمشروع تحذيرًا أو رشوة لعدم البوح بشيء، لكن بينما كانت الشاحنات تشُق طريقها أعلى التل بمحركاتها الصاخبة، اختلس الأولاد الصغار النظر

تحت القماش، وقالوا إنهم رأَوا ألواحًا معدنيةً كبيرةً مقوَّسة، بها ثقوب على طول الحواف لتثبيتها بالمسامير. لم يكن هذا يعني سوى شيءٍ واحد؛ صهاريج. وفي الوقت ذاته ظهرَت شائعاتٌ بأن دي إتش كولفر قد اشترى قطعة أرض أخرى على التل. كان معنى كل هذا واضحًا: لقد عُثر على رمال نفطية في البئر المرتقبة رقم ١!

بدأ التل بأكمله يزدهر بالإعلانات، وتوافَد وكلاء العقارات على «حقل النفط». أصبحَت هذه الكلمة سحرية الآن؛ فهو لم يعد يُسمَّى حقل الكرنب أو حقل بنجر السكر، بل «حقل النفط!» أقام المضاربون في الخيام، أو أداروا أعمالهم من السيارات التي كانت تقف على جانب الطريق، وعلَّقوا عليها لافتاتٍ من القماش. أخذ الناس يأتون ويذهبون طوال اليوم، وتجمَّعَت حشود من الناس للتحديق في برج الحفر، والاستماع إلى أصوات الخبط الرتيبة الناجمة عن المثقاب الكبير الذي ظل يلُف طوال اليوم، بالإضافة إلى صوت لهاث المحرك. ووُضعَت لافتةٌ واضحةٌ جلية مكتوب عليها: «ممنوع الدخول قطعيًّا!» حيث فقد السيد دي إتش كولفر وموظفوه بطريقةٍ ما كل ما لديهم من أخلاقٍ حميدة.

لكن فجأةً أصبح من المستحيل إخفاء الأمر أكثر من ذلك، وعلمَت الدنيا كلها حرفيًّا بالأمر؛ إذ نقلَت كَبْلات التلغراف الأخبار إلى أقاصي المعمورة. واعتُبِر «حقل بروسبكت هيل (أي تل الآمال)» أعظم اكتشاف في مجال النفط في تاريخ جنوب كاليفورنيا! فقد بدا أن باطن الأرض قد انبثق من خلال تلك الحفرة؛ إذ اندفع عمودٌ أسود محدثًا جلبةً وصخبًا، مثل شلالات نياجرا، وارتفع في الهواء مائتَي قدم، أو مائتَين وخمسين — لم يكن بوسع أحد أن يجزم برقمٍ محدد — ونزل على الأرض محدثًا صوتًا مدوِّيًا على هيئة كتلة من سائلٍ سميك، أسود، لزج، زلق. وقذف الأدوات والأشياء الثقيلة الأخرى في كل اتجاه؛ لذا كان على الرجال أن يركضوا للنجاة بحياتهم. وملأ السائل حفرة التجميع، وفاض منها، مثل قِدرٍ يغلي بسرعةٍ كبيرة للغاية، وتدفق نزولًا على جانب التل. غطت سحابة من الضباب الأسود، حملَتها الرياح، منزل آل كولفر وحوَّلَته إلى اللون الأسود، مما جعل النساء اللاتي كن بالمنزل يهربن إلى حقول الكرنب. بعد ذلك، أخذ الناس يتندَّرون على هؤلاء النساء اللائي كن يندبن على تلف ملابسهن وستائر نوافذهن؛ بسبب فيضان «الذهب الأسود» هذا الذي تبلغ قيمته مليون دولار.

انتقل الخبر عَبْر الهاتف إلى مدينة بيتش سيتي؛ وأعلنَت عنه الصحف، وتحدثَت عنه الحشود في الشوارع، وسرعان ما امتلأت الطرق المؤدية إلى حقل «بروسبكت هيل» بالسيارات. ووصل الخبر إلى مدينة إنجِل سيتي، وطبعَت الصحف هناك «نسخًا إضافية»

لنشر الخبر، وقبل حلول الظلام، اكتظ كلا اتجاهَي جادة بيتش سيتي بالسيارات التي كانت تسير جميعُها في الاتجاه ذاته. وقف خمسون ألف شخصٍ مشكِّلين حلقةً عند ما اعتبروه مسافةً آمنةً من البئر المتدفقة، بينما حاول رجال شرطة الطوارئ دفعهم بعيدًا إلى الخلف، صائحين: «أطفئوا أي شيءٍ قابل للاشتعال! أطفئوا أي شيءٍ قابل للاشتعال!» تردَّد صدى هذه الكلمات طوال الليل، حتى أدرك الجميع الخطر؛ فقد ينسى أحمق ويشعل سيجارة، حينئذٍ سيشتعل على الفور جانب التل بأكمله، وقد يتسبب في ذلك أيضًا اصطدام مسمار في حذائك بحجر، أو حتى شاحنة مزوَّدة بعَجلاتٍ ذات إطاراتٍ فولاذية. ففي كثير من الأحيان، تشتعل النيران في هذه الآبار بمجرد أن يتدفق النفط خارجها.

ومع ذلك تجمَّعَت الحشود، وفتح الرجال أسقف سيارتهم القابلة للطي، ووقفوا على المقاعد، وأجرَوا المزادات تحت ضوء النجوم. وعُرضَت قطع الأراضي للبيع بأسعارٍ رائعة، وبيع بعضٌ منها، وعُرضَت عقود الإيجار، وتأسَّسَت الشركات، وبيعت الأسهم، وشَق التجار طريقهم بعيدًا عن الحشود، ووقفوا على مسافةٍ آمنة من البئر على الجانب الواقع في مهب الريح؛ حيث يمكنهم إشعال سيجارة، ورؤية بعضهم وجوه بعض، وتدوين ملاحظات بما اتفقوا عليه. واستمرت هذه التعاملات التجارية معظم الليل، وفي الصباح، نُصبَت خيامٌ كبيرة كانت مخصَّصة فيما مضى لاجتماعات الكنيسة لإحياء الروح الدينية، وتزيَّنَت حقول الكرنب باللافتات الحمراء والسوداء المكتوب عليها: «الجمعية التعاونية رقم ١ في مدينة بيتش سيتي»، «نقابة سكايت، رقم ١، عشرة آلاف وحدة، ١٠ دولارات».

في غضون ذلك، كدَح العمال جاهدين لإيقاف تدفق النفط من البئر، ولم يتمكنوا من الحفاظ على توازنهم أو حتى الرؤية بوضوح بسبب الرذاذ الأسود؛ إذ لم يكن هناك مكانٌ يمكنهم استعادة توازنهم فيه، أو شيءٌ يمكنهم التشبُّث به؛ لأن كل شيء كان زلقًا بسبب تدفُّق النفط. ولتحديد مكان البئر، كانوا يتحسَّسون طريقهم في الظلام، مسترشدين بصوت هديره الصاخب، والأشياء التي كان يقذفها عليهم، والرذاذ الذي كان يبصُقه في وجوههم. ساد التوتر الشديد بيئة العمل، حيث عُرضَت مكافآت بقيمة خمسين دولارًا لكل رجل يتمكن من إيقاف التدفُّق قبل منتصف الليل، ومائة دولار في حالة إيقافه قبل الساعة العاشرة. لم يستطع أحد تقدير قيمة الثروة المهدَرة، لكنها لا بد أن تُقدَّر بآلاف الدولارات كل دقيقة. حتى إن السيد كولفر انضَم بنفسه للمساعدة، وبسبب جهوده المتهورة ثُقِبَت طبلتا أذنَيه. وقال أحد العمال دون أي تعاطف: «لقد حاول أن يوقف التدفق برأسه.» وبالإضافة إلى ذلك، اكتشف المالك، على مدار الأسابيع التالية، أن هناك ٤٢ دعوى قضائية

مرفوعة ضده للتعويض عن الأضرار التي لحقَت بالمنازل، والملابس، والدجاج، والمَعْز، والأبقار، وحقول الكرنب، وبنجر السكر، والسيارات التي انزلقَت في مصارف المياه بسبب تدفق النفط على الطريق.

٢

كان المنزل رقم ٥٧٤٦ بجادة لوس روبلس ملكًا لجو جرورتي، الحارس الليلي لشركة أولتمن لمبر بمدينة بيتش سيتي. وكانت السيدة جرورتي قد «اعتادت» أن تغسل ملابس الغير للمساعدة في إعالة أطفالها السبعة، أما الآن بعد أن كبروا وتركوا المنزل، فانشغلَت بتربية الأرانب والدجاج. عادةً ما كان جو يغادر إلى عمله في تمام الساعة السادسة مساءً، لكن في اليوم الثالث من «الاكتشاف المفاجئ للنفط»، قرَّر ترك وظيفته، وكان الآن يجلس في شرفته الأمامية، وكان رجلًا مسنًّا رقيقَ الحاشية يكسو الشيب شعره، يرتدي بدلةً سوداء بياقة من السيلولويد وربطة عنق سوداء، وكان هذا هو زيه المخصَّص لأيام الأحد والعطلات وحفلات الزفاف والجنائز. لم يكن لدى السيدة جرورتي ملابسُ مناسبة لهذه المناسبة الحالية؛ لذلك أخذها زوجها إلى وسط المدينة في سيارته الفورد، وأنفقَت بعضًا من المال الذي توقَّعَت الحصول عليه؛ بسبب هذا الاكتشاف على شراء فستان سهرة من الساتان الأصفر. كانت الآن تشعُر بالإحراج لأن الفستان كان يكشف عن جسدها، من الأعلى؛ حيث كان كلٌّ من ذراعَيها ونهدَيها بارزًا للغاية، أو من الأسفل حيث كانت ساقاها السمينتان ملفوفتَين في جورب من الحرير المطرز، لا يمكن رؤيته من شدة رقته. وأكَّدَت لها البائعة أن هذا هو ما ترتديه «الأخريات»، وكانت السيدة جرورتي عاقدة العزم على أن تصبح واحدةً من أولئك «الأخريات».

كان المنزل على طراز «البنجِلو» التقليدي، وكانت قد بنَتْه عائلة أكثر ثراءً في أيام الازدهار العقاري. كان المنزل قد عُرِض بسعرٍ أقلَّ بكثير من قيمته الفعلية، وتمسَّكَت السيدة جرورتي بشرائه لأن به غرفةَ معيشةٍ رائعة. دفعا مدخراتهما نقدًا، وقسَّطا بقية المبلغ بحيث يدفعان ثلاثين دولارًا شهريًّا. وحصَلا على سند بملكية المنزل، وكانا يدفعان الأقساط في وقتها؛ لذا كانت ملكيتهما في أمان.

عندما تتجاوز عتبة المنزل، كان أول شيء يلفت انتباهك هو اللمعان؛ أروع بريقٍ يُمكِن رؤيتُه في مشغولاتٍ خشبية، ولزيادة التأثير أضاف الرسام بعض التموجات للخشب، ليشبه تجزع خشب البلوط؛ لا بد أنه كانت هناك عشرات الآلاف من الخطوط التي استخدم

الرسام لكل واحدٍ منها ضربةَ فرشاةٍ مختلفة. كانت المدفأة مصنوعة من أحجارٍ متعددة الألوان، مصقولة بعناية وتلمع مثل الجواهر. وكان أكثر ما يلفِت الانتباه هو وجود دَرَجٍ خشبيٍّ في آخر الغرفة بدرابزين لامع ومتعرج أيضًا؛ حيث كان هذا الدرَج يتجه لأعلى ثم ينعطف، وكانت هناك بسطة عليها نخلةٌ مزروعة في أصيص. وقد تعتبر أن من المُسَلَّم به أن يكون هذا الدرَج شأنه شأن سائر الأدراج، وأن الهدف منه توصيلك للدور الثاني. وقد تذهب إلى منزل آل جرورتي مائة مرة، وتراه ليلًا ونهارًا، قبل أن يخطر ببالك أن ثمَّة خطبًا ما، لكنك ستدرك فجأة — وأنت واقف خارج المنزل في أحد أيام العطلة — أن هناك سقفًا مسطحًا يغطي منزل آل جرورتي بأكمله، ولا يُوجد طابق ثانٍ في أيٍّ من أجزائه. حينئذٍ ستدخل المنزل، يدفعك فضولٌ خبيثٌ جديد، وتُمعِن النظر في الدرَج والبَسطة وتدرك أنهما لا يؤديان إلى أي مكان؛ فالغرض الوحيد من وجودهما هو شكلهما الجميل.

وقفَت السيدة جرورتي بجوار الطاولة المركزية بحجرة المعيشة، في انتظار وصول الرفقة المتوقع حضورها. كانت هناك زهرية ورد على هذه الطاولة، وأمامها مباشرة، تحت المصباح الكهربائي، كتابٌ ذو تصميمٍ رائع ملفوف بقماشٍ أزرق ومكتوب عليه بحروفٍ ذهبية: «دليل السيدات: الكتيب العملي للأرستقراطية». كان هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد في منزل آل جرورتي، وكانت السيدة جرورتي قد أحضرَتْه منذ يومين فقط؛ حيث كانت موظفة ذكية في المتجر قد أخبرت «ملكة النفط»، بعد شراء الفستان الساتان بأن هناك عرضًا لا يُفَوَّت في قسم الأعمال الأدبية. وكانت السيدة جرورتي تقرأ الكتاب في أوقات فراغها، والآن كانت تتباهى بعرضه كرمز للثقافة.

كان أول الواصلين الأرملة ميرتشي، التي كانت قد جاءت من آخر المربع السكني؛ حيث كانت تعيش في منزل صغير من طابق واحد مع طفليها، وكانت هزيلة وخجولة، وترتدي سوارًا أسود في كلا معصميها. أشادت بزي السيدة جرورتي، وهنأتها على حسن حظها في العيش بالمنحدر الجنوبي من التل، حيث يمكنها ارتداء الفساتين الأنيقة. فعلى الجانب الشمالي، حيث كانت الرياح السائدة محملة بالنفط، سيتلف حذاؤك في كل مرة تخرج فيها من المنزل. وحتى الآن كان بعضُ الناس لا يجرُءون على استخدامِ مواقدِ مطابخِهم خوفًا من حدوثِ انفجار.

ثم جاء السيد والتر بلاك وزوجتُه وابنهما البالغ، أصحاب قطعة أرض بالزاوية الجنوبية الغربية، وكانوا يعملون في مجال العقارات في المدينة. كان السيد بلاك، الواثق

من نفسه، يرتدي بدلة بنقوشٍ مربعة، ويتدلى على صدره العريض سلسلةُ ساعة جيب، عليها حيوانٌ مفترسٌ مصنوع من الذهب. وكان للسيدة بلاك جسدٌ ضخم أيضًا، وكانت لديها بالمنزل ملابس بقَدْر روعة ملابس السيدة جرورتي، لكن سلوكها كان يدُل على أنها لن ترتدي هذه الملابس إلا في الأماكن التي تليق بها. تبعهم السيد دَمبري، الذي يعمل نجارًا، ويمتلك كوخًا صغيرًا خلف منزل آل جرورتي، يُطِل على طريق إلدورادو، الواقع على الجانب الآخر من المربع السكني، وكان السيد دَمبري رجلًا هادئًا، صغير الحجم، له كتفان منحنيتان ويدان تظهر عليهما آثار كدحه طوال عمره. لم يكن بارعًا جدًّا في التعامل مع الأرقام، وكانت تَشُقُّ عليه هذه الأوضاع الغامضة المفاجئة التي كانت تجتاح حياته.

جاء بعد ذلك الزوجان رايثل، اللذان كانا يمتلكان قطعة أرضٍ صغيرة ومتجرًا للحلوى في المدينة، وهما زوجان شابَّان مهذَّبان للغاية، حريصان على إسعاد الجميع، وقد شعرا بإحباطٍ شديد عندما اكتشفا أن هذا أمرٌ مستحيل. تبعهما السيد هانك، وهو رجلٌ نحيل ذو وجهٍ طويل ونحيف وله صوتٌ مزعج، وكان يملك «قطعة الأرض الصغيرة» المجاورة، وبسبب عمله في مناجم الذهب، اعتبر نفسه مسئولًا عن عقود إيجار النفط. جاء بعده عدُوه اللدود، السيد ديبل، المحامي، الذي كان يمثل مالك الزاوية الشمالية الغربية الغائب، وكان قد تسبَّب في حدوث مشاكل بالإصرار على العديد من الأمور الفنية التي يصعُب على غير المحامين فهمها؛ إذ حاول جاهدًا فصل النصف الشمالي من المربَّع السكني، واعتبره ساكنو النصف الجنوبي خائنًا. ثم جاء السيد جولايتي، الذي كان يملك «قطعة أرضٍ متوسطة». لم تكن مهنتُه معروفة، لكنه أبهر الجميع بملابسه وأسلوبه المتحضر، وكان يُصلِح بين الأطراف المتشاحنة، ويتميز بصوتٍ عميق، لطيف، وكان يميل إلى الانخراط في محادثاتٍ مطولة، لكن المشكلة الوحيدة كانت أنه عندما ينتهي من كلامه، قد لا يمكنك التيقن من مغزى كل ما قاله.

وصل آل بروملي، وهما زوجان عجوزان ثريان، يقودان سيارةً كبيرة. أحضرا معهما آل لوكر، وهما خيَّاطان يهوديان قليلا الشأن، وعادةً لم يكن تجمعُهم أي أحاديث خارج متجر الخياطة، لكن بالتحالف معًا أصبح لديهم أربع «قطعٍ متوسطة من الأراضي» كانت كافيةً لتشييد موقع للحفر يمتد عَبْر المربَّع السكني، مما مكَّنهم من تهديد باقي ملَّاك الأراضي بالحصول على عقد إيجارٍ منفصل. جاء بعدهم آل سايفون سيرًا على الأقدام من منزلهم الكائن بالزاوية الشمالية الشرقية، وبالرغم من امتلاكهم لسيارةٍ مستعمَلةٍ مصنَّعة

منذ ثلاث سنوات، كانوا أناسًا مُتغطرسِين، يزدرون بقية أهل الحي دون أي سبب. وكانوا هم مَن حصلوا على عقد الإيجار هذا، وكان الجميع على يقين من أنهم سيحصلون على حصةٍ كبيرةٍ غير رسمية من الأرباح، لكن لم تكن هناك طريقة لإثبات ذلك، ولا يمكن فعل أي شيءٍ حياله؛ لأن جميع من قدَّموا عروضًا للإيجار كانوا قد وُعِدوا سرًّا أيضًا بالحصول على حصةٍ غير رسمية من الأرباح.

جاء معهم السيد سام، عامل الجص، الذي كان يعيش مؤقتًا في «مرأبٍ» مبني على «قطعة أرضٍ صغيرة» مجاورة لأرض آل سايفون. وبالرغم من أن منزله كان لا يساوي شيئًا، كان هو مَن طالب بفجاجة بأن يتكبد المستأجر نفقة نقل المنازل، حتى إنه حاول وضع شرط للتعويض عن صفوف الفاصوليا والطماطم المزروعة في أرضه. وقد حاول الآخرون الاعتراض على كلامه، لكن ما أثبط عزيمتهم هو أن السيد دمبري، النجار الصامت، أعلن أن هذا يبدو له طلبًا منطقيًّا، وأوضح أن لديه سبعة صفوف من الذرة والفاصوليا المزدهرة، وكان من رأيه أن العَقْد لا بد وأن يتضمن على الأقل شرط أن تُحفر البئر الأولى في قطعة أرضٍ غير مزروعة، لإعطاء البستانيين الوقت اللازم لجني ثمار كدحهم.

٣

كانت الساعة السابعة والنصف موعد بدء الاجتماع، ونظر الجميع حولهم في انتظار أن يبدأ أحدهم الحديث. في النهاية، نهض شخصٌ غريب، ضخم الجسد يبلغ طوله ست أقدام ويتحدث ببطء مؤكدًا على حروف العلة، وقدَّم نفسه على أنه السيد إف تي ميريويذر، محامي السيد بلاك وزوجته، مالكَي الزاوية الجنوبية الغربية؛ واستنادًا إلى نصيحته، يودُّ هذان الطرفان طلب إجراء تغييراتٍ طفيفة في صياغة عقد الإيجار.

قال السيد هانك صاحب الوجه الطويل النحيف وهو يهبُّ من مكانه: «تغييرات في عقد الإيجار؟ ألم نتفق على عدم إجراء المزيد من التغييرات؟»

«هذا أمرٌ بسيط للغاية، يا سيد ...»

«لكن السيد روس سيصل إلى هنا في غضون خمسَ عشرةَ دقيقة، وعلى أتم الاستعداد للتوقيع!»

«إنها تفصيلةٌ يمكن تغييرها في خمس دقائق.»

كان هناك صمتٌ منذِر بشؤم.

«حسنًا، ما التغيير الذي تريد إجراءه؟»

قال السيد ميريويذر: «مجرد أن يُذكر صراحةً أنه عند حساب المساحة لتحديد كيفية توزيع حصص الأرباح، يجب مراعاة أحكام القانون التي تنُص على أن حقوق النفط تمتد إلى وسط الشارع، وإلى وسط الزقاق في الجزء الخلفي.»

«ماذا؟» فغَر الحضور أعينهم وأفواههم، وانتشرت بينهم همهمات الدهشة والاعتراض. وصاح السيد هانك: «من أين أتيتَ بهذه المعلومة؟»

«حصَلتُ عليها من قوانين ولاية كاليفورنيا.»

«حسنًا، لكن هذا ليس مذكورًا في عقد الإيجار هذا، وأنا شخصيًّا لا أتفق معه!» تعالت الأصوات المؤيدة للسيد هانك قائلة: «لا أعتقد ذلك! لم أسمع عن شيءٍ كهذا من قبلُ. هذا أمرٌ سخيف!»

صاحت السيدة جرورتي: «بالتأكيد، بالتأكيد!»

أجاب السيد ديبل، المحامي: «أظن يا سيدة جرورتي أن هناك سوءَ تفاهم؛ بسبب عدم إلمامكِ بقوانين النفط بالولاية. إن أحكام القانون واضحة.»

انفجرَت السيدة جرورتي قائلةً بحدة: «نعم، بالتأكيد! لسنا بحاجة إلى معرفة رأيك؛ نظرًا لأنك تمثِّل قطعة أرض بالزاوية، وستحصُل قطع الأرض بالزاوية على ضعف المال!»

«إن الوضع ليس بهذا السوء، يا سيدة جرورتي. لا تنسَي أن أرضكِ ستمتد إلى وسط جادة لوس روبلس، التي يبلغ عرضها ثمانين قدمًا.»

«نعم، لكن أرضك ستمتد إلى وسط الشارع الجانبي أيضًا ...»

«نعم، سيدة جرورتي، لكن شارع إل سنترو لا يزيد عرضُه عن ستين قدمًا.»

«هذا يعني أنك ستجعل مساحة أراضيك خمسًا وتسعين قدمًا، بدلًا من خمسٍ وستين قدمًا، كما ظننا جميعًا عندما نتخلى عن أراضينا، ووافقنا على السماح للأراضي ذات المساحات الكبيرة بالحصول على حصةٍ أكبر.»

صاح السيد هانك: «وكنتَ ستدَعُنا نوقع على ذلك! وكنتَ تعمل في هدوء لخداعنا!»

دوَّى صوت السيد جولايتي، الذي يُحب الصلح بين الأطراف المتشاحنة، قائلًا: «يا سادة! يا سادة!»

قاطعه آيب لوكر، الخياط، قائلًا: «دعوني أستوضح هذا الأمر. إن طريق إلدورادو ليس واسعًا مثل جادة لوس روبلس؛ هذا يعني أننا، القاطنين في النصف الشرقي، لن نحصل على الكثير من المال مثل الآخرين.»

قال السيد ميريويذر: «عمليًّا، الفارق ضئيل. يمكنك حساب ...»

«بالتأكيد يمكنني حساب الفارق! ومع ذلك، إذا كان الفارق ضئيلًا فما الذي جعلَك تأتي إلى هنا لفسخ عقد الإيجار الخاص بنا؟»

صاح السيد هانك: «دعني أؤكِّد لك هذا الآن! أنا لن أوقِّع على أيِّ اتفاقٍ من هذا القبيل.»

قالت الآنسة سنايب، الممرِّضة المتمرسة، وهي سيدةٌ شابةٌ حازمة تضع نظارة: «ولا أنا. أظن أننا، أصحاب الأراضي ذات المساحات الصغيرة، قد تحمَّلنا نصيبنا من الغُبن.»

أضاف السيد هانك: «أرى أن نلتزم بالاتفاق الأصلي، الاتفاق الوحيد المعقول؛ حيث تحصل جميع الأراضي على حصصٍ متساوية، تمامًا مثلما يحدُث في عملية التصويت.»

قال السيد ديبل بقَدرٍ كبيرٍ من الهدوء والجدية: «دعني أوضح شيئًا، يا سيد هانك. هل صحيح أنك تمتلك واحدةً من الأراضي الصغيرة المجاورة للزقاق؟»

«نعم، هذا صحيح.»

«حسنًا، إذن، هل قدَّرتَ أن القانون يمنحك الحق في خمس عشرة قدمًا إضافيةً بطول ذلك الزقاق؟ هذا يجعل حصتك أكبر إلى حدٍّ ما من حصص أصحاب الأراضي المتوسطة.»

فغَر السيد هانك فاه. وقال: «يا إلهي!»

وانفجَرَت السيدة جرورتي في الضحك. «يا إلهي! يا إلهي! بالطبع، هذا سيغيِّر مسار الأمور! فقد أصبحنا نحن، أصحاب الأراضي المتوسطة الذين يشكِّلون نصف عقد الإيجار، المخدوعين الآن!»

صاحت السيدة كيث، التي كانت زوجة لاعب بيسبول: «وماذا عنا نحن أصحاب الأراضي الصغيرة التي لا تقع في الزقاق! ماذا عني وعن زوجي؟»

قال السيد سام، عامل الجص: «يبدو لي أننا في ورطةٍ كبيرة. فنحن لم نعُد نعرف المجموعة التي ننتمي إليها.» ومثل معظم الرجال في الغرفة، كان قد أخرج قلم رصاص وورقة، وكان يحاول فهم هذا التعديل الجديد، وكلما زاد استيعابه للأمر، اكتشف المزيد من التعقيدات.

٤

كانت عائلة والتر براون هي صاحبة فكرة «الاتفاق الجماعي» لهذا المربَّع السكني. فقد كانت قطعتان أو ثلاث قطع من الأرض كافيةً لحفر بئر، ولكن لن يهتم بعقد إيجارٍ مثل

هذا إلا الشركات الصغيرة، ومن المرجَّح أن تقع في يد سمسار يقايضك، وربما تستغلك «نقابة» وتقسِّم الأرض وتبيعها في شكل «وحدات»، أو تقع في شَرَك عقدٍ مليء بالثغرات؛ حيث تقف مكتوف الأيدي تراقب الآخرين وهم يستنزفون النفط من تحت أرضك. ولذلك كان الحل الأمثل أن يجتمع قاطنو المربع السكني معًا في عقد إيجارٍ واحد، وعندئذٍ سيتوفر لديك ما يكفي من الأراضي لحفر نصف دزينة من الآبار، ويمكنك التعامل مع إحدى الشركات الكبرى، وستُجرى عمليات الحفر بسرعة، والأهم من ذلك، ستكون متأكدًا من الحصول على حصتك من الأرباح بعد استخراج النفط وبيعه.

لذلك، بعد الكثير من المثابرة، والشد والجذب، والتهديد والتملق، والمساومة والتآمر، اجتمع أصحاب الأراضي البالغ عددها أربعًا وعشرين في بيت آل جرورتي، ووقَّع كلٌّ من الأزواج والزوجات أسماءهم على «الاتفاق الجماعي»، الذي كان مفاده ألَّا يؤجِّر أيٌّ منهم أرضه بمعزل عن الآخرين. سُجِّل هذا المستند على النحو الواجب في محفوظات المقاطعة، وهم الآن يدركون يومًا بعد يوم ما ارتكبوه بحق أنفسهم. لقد اتفقوا على الاتفاق، ومنذ ذلك الحين، أصبحوا غير قادرين على الاتفاق على أي شيء!

كانوا يجتمعون في الساعة السابعة والنصف مساء كل يوم، ويتشاحنون حتى منتصف الليل أو بعد ذلك، ثم يعودون إلى منازلهم مرهقين، ولا يتمكَّنون من النوم، وأهملوا أعمالهم وشئونهم المنزلية وريَّ مروجهم، فما فائدة العمل مثل العبد وأنت ستصبح غنيًّا؟ وعقدوا اجتماعات للأقليات، وشكلوا مجموعاتٍ فئوية، وقدَّموا وعودًا حنثوا بها، سرًّا تقريبًا، قبل غروب الشمس. وخضَعَت طبيعتهم البشرية الضعيفة إلى إجهادٍ يفوق قدرتها على التحمل؛ فقد اشتعلَت نيران الجشع في قلوبهم، واهتاجت حتى وصلَت إلى أوج اشتعالها، وأذابت كل مبدأ وكل قانون.

تعقَّبهم «صائدو عقود الإيجار»، وحاصَروا بيوتهم، واتصلوا بهم عَبْر الهاتف، ولاحقوهم بالسيارات. لكن بدلًا من الشعور بالرضا مع كل عرضٍ جديد، شعَروا بالقلق والشك والكراهية. وأيًّا كان من قدم العرض، لا بد أنه يحاول خداع الباقين، وأيًّا كان مَن يدافع عنه، لا بد أنه يتحالف معه. تعرَّضوا جميعًا للخيانة والحيل، حتى أكثرهم لطفًا، السيد دمبري، النجار المسالم المسكين، الذي كان يجُر قدمَيه من الترام متجهًا نحو البيت، بأصابعَ متقرحة وظهرٍ متألم من تثبيت عدة آلاف من مسامير الألواح الخشبية على أحد الأسطح، قابلَه رجل يقود سيارة ليموزين فخمة. قال الرجل: «اركب، يا سيد دمبري. إنها سيارةٌ جيدة، ألا تظن ذلك؟ ما رأيك أن أخرج منها وأتركها لك؟ سأكون سعيدًا جدًّا بأن أفعل ذلك إن أقنعتَ مجموعتك بالتوقيع لنقابة كاوتش.» قال السيد دمبري: «أوه، لا،

لا أستطيع فعل ذلك، لقد وعدتُ الآنسة سنايب بأنني سألتزم بخطة أوينز.» قال الرجل: «حسنًا، يمكنك نسيان ذلك. لقد تحدَّثتُ للتو مع الآنسة سنايب، وهي على استعداد لركوب السيارة.»

وبعدما كانوا قد دخلوا في حالة من الهستيريا الدائمة، انبعث فيهم الأمل فجأة، مثلما ينبعث ضوء الشمس من بين سحب العواصف؛ حيث جلب السيد سايفون وزوجته عرضًا من رجل يُدعى سكوت، كان يمثِّل جيه أرنولد روس، وقدَّم لهم أفضل عرضٍ كانوا قد حصلوا عليه حتى الآن: مبلغ نقدي إضافي قدره ألف دولار على كل قطعة أرض، وربع الأرباح، واتفاق على «بدء حفر» البئر الأولى في غضون ثلاثين يومًا، وفي حال عدم الالتزام تُدفع غرامة قدرها ألف دولارٍ أخرى لكل قطعة أرض، وتُودَع هذه الغرامة في البنك.

كانوا جميعًا يعرفون بشأن جيه أرنولد روس؛ إذ نشرَت الصحف المحلية مقالات عن دخول «واحد من كبار العاملين في مجال النفط» إلى حقل النفط الجديد. ونشرَت الصحف صورته ونبذةً مختصرة عن حياته؛ فقد كان نموذجًا للمواطن الأمريكي، عصاميًّا بنى نفسه بنفسه، مما أعاد المجد لأرض الأحلام العظيمة هذه. وأثناء قراءة هذه القصص توهَّج قلب كلٍّ من السيد سام، عامل الجص، والسيد دمبري، النجار، والسيد هانك، عامل المنجم، والسيد جرورتي، الحارس الليلي، والسيد رايثيل، صاحب متجر الحلوى، والسيدَين لوكر، مصمِّمَي أزياء النساء والرجال. فقد كان العرض لهم بمثابة فرصةٍ لا تُعوَّض!

كان هناك تشاحنٌ عنيفٌ آخر، أسفر عنه قرار أصحاب الأراضي الكبيرة والمتوسطة بنبذ خلافاتهم جانبًا، والتصويت ضد أصحاب الأراضي الصغيرة، وأعدُّوا عقد إيجار ينص على حصول كل قطعة أرض على حصة من الأرباح تتناسب مع مساحتها. وأبلغوا السيد سكوت بأنهم مستعدون للتوقيع، ورتَّب السيد سكوت لمقابلة السيد روس العظيم في الساعة الثامنة إلا الربع مساء اليوم التالي والتوقيع على المستندات. والآن، ها هم قد حضروا في الموعد المحدد بالضبط، ولكن كانت تنتابهم حالةٌ أخرى من الفوضى! فقد حصلَت أربع من «الأراضي الصغيرة» بشكلٍ غيرِ متوقَّع على قيمةٍ أكبر من «الأراضي المتوسطة»، ونتيجة لذلك، كان هناك أربعة من «أصحاب الأراضي الكبيرة» وأربعة من «أصحاب الأراضي الصغيرة بعض الشيء» يؤيدون عقد الإيجار، وأربعة من «أصحاب الأراضي الصغيرة جدًّا» واثنا عشر من «أصحاب الأراضي المتوسطة» ضده!

وهنا، بوجهٍ حانقٍ أحمر بلون القرميد، كانت الآنسة سنايب تهزُّ إصبعَها في وجه السيد هانك. وتقول له: «دعني أؤكِّد لك، لن تُجبرني أبدًا على التوقيع على تلك الورقة، لن

يحدث هذا أبدًا!» وهنا ردَّ عليها السيد هانك صائحًا: «دعيني أؤكد لكِ، القانون سيُجبرك على التوقيع عليها، إذا صوَّتَت الأغلبية لصالحها!» وهنا كانت السيدة جرورتي تحملق غضبًا في السيد هانك، متناسية كل شيء عن «الكُتيب العملي للأرستقراطية»، وتقبض على يدَيها كما لو كانت تُحْكِم قبضتها على حلقه، وقالت: «لقد كنتَ أنتَ من يصرخ من أجل حقوق أصحاب الأراضي الصغيرة! وكنتَ من ينادي بالحصول على حصصٍ متساوية؛ يا لكَ من لئيم!» كانت هذه هي الحالة التي وصلوا إليها، لكن فجأةً هدأَت الأصوات، وارتخت الأيدي المشدودة، وتلاشت النظرات الغاضبة. فقد سمعوا طرقًا على الباب، طرقًا حادًّا قويًّا، وخطر إلى ذهن كل شخص في الغرفة الفكرة ذاتها: إنه جيه أرنولد روس!

٥

لم يكن الكثيرون من هؤلاء الرجال ليقرءوا كتابًا عن آداب السلوك؛ إذ كانوا يكتسبون خبراتهم الحياتية من التجارب الفعلية، وها هم بصدد المناسبة الأكثر إفادة لهم على الإطلاق. فقد تعلموا أنه عندما يدخل رجلٌ عظيمٌ غرفة، فإنه يدخل أولًا، متقدمًا مرءوسيه. وتعلَّموا أنه يرتدي معطفًا فخمًا كبيرًا ويقف في صمتٍ حتى يُقدِّمه أحد مرءوسيه. قال سكوت، وكيل الإيجار: «أيتها السيدات والسادة، أقدِّم لكم السيد جيه أرنولد روس.» عندها ابتسم السيد روس بسرور، مُرحِّبًا بكل الحاضرين وقال: «أيتها السيداتُ والسادة، طاب مساؤكم.» نهض ستةُ رجال، وعرضوا عليه الجلوس على مقاعدهم؛ وبكل بساطة ودون إضاعة الوقت في المناقشات، جلس على كرسيٍّ كبير، مدركًا، دون شك، كيف سيكون الموقف محرجًا للمضيفة إذا لفَت الانتباه إلى نقص عدد الكراسي.

كان يقف خلفه رجلٌ آخر، ضخم أيضًا. قدَّمه سكوت قائلًا: «السيد ألستون دي برنتيس»، وتضاعَف انبهارُهم، كونه محاميًا مشهورًا من مدينة إنجِل سيتي. كذلك دخل الغرفة ولدٌ صغير، على ما يبدو أنه كان نجل السيد روس. كان لدى العديد من النساء في الغرفة أولادٌ صغار، كل واحدٍ منهم مُقدَّر له أن يكبر ليصبح تاجر نفطٍ عظيمًا؛ لذلك كانوا يراقبون ابن السيد روس، وتعلموا أن صبيًّا كهذا يبقى بالقرب من والده، ولا يقول شيئًا، لكنه يولي كل شيء اهتمامًا كبيرًا بعينَين متجولتَين تواقتَين. وعلى الفور، جلس على حافة النافذة، يستمع بكل انتباه، كما لو كان رجلًا ناضجًا.

حصلَت السيدة جرورتي على جميع الكراسي التي كان بإمكان جيرانها توفيرها، وذهبَت إلى «الحانوتي» واستأجرت دزينة من الكراسي القابلة للطي، ولكن كان لا يزال

هناك نقص في العدد، ولم يذكُر كتاب آداب السلوك كيفية التصرُّف في مثل هذه المواقف. لكنَّ هؤلاء الرجال الغربيين الأَفْظاظ والمتأهبين حلوا المشكلة، بعدما بحثوا مطولًا في سقيفة تخزين الأخشاب، التي كانت خلف المرأب، وجلبوا بعض «الصناديق» الفارغة، مثل تلك التي تُشحَن فيها فاكهة الخوخ والمشمش والبرقوق عند شرائها. وبعد تنظيمها في وضعٍ عمودي، تحوَّلَت هذه الصناديق إلى مقاعدَ تفي بالغرض، وسرعان ما استقر الحضور.

قال السيد سكوت بلطف: «حسنًا، يا رفاق. هل كل شيء جاهز؟»

قال السيد هانك بصوته الحاد: «لا. نحن لسنا مستعدين. لا يمكننا الاتفاق.»

صاح «صائد عقود الإيجار»: «ماذا؟ لماذا؟ لقد أخبرتني أنكم اجتمعتم معًا!»

«هذا صحيح. لكننا انقسمنا مرةً أخرى.»

«ما الأمر؟»

بدأ بعض الأشخاص يقصون عليه المسألة، وطغى صوت السيد سام على باقي الأصوات. وقال: «هناك بعض الأشخاص الذين أتوا إلى هنا ومعهم محامون بارعون للغاية، وقد استندوا في حجتهم إلى مجموعة من القوانين المزعومة التي لا يوافق بقيتنا عليها.»

قال السيد سكوت بأدب: «حسنًا، السيد برنتيس محامٍ ممتاز، وربما يمكنه المساعدة في توضيح الأمر.»

وهكذا، عرضوا جميعًا المشكلة في الوقت ذاته، فيما يشبه الجوقة تقريبًا، وأعلنوا عن اعتراضاتهم. ثم أخبرهم محامي السيد روس، متحدثًا بمقتضى منصبه، أن بيان القانون كان صحيحًا تمامًا، وأن عقد الإيجار بصيغته الحالية يشير إلى المنطقة الواقعة في منتصف الشوارع والأزقة، ولكن بالطبع لم يكن هناك ما يمنعهم من إجراء أي تعديل يرونه مناسبًا، وتوضيحه بالتفصيل في عقد الإيجار.

ثم ازداد الموقف سوءًا؛ وبدَءوا في الجدال بشأن وجهات نظرهم الصحيحة والخاطئة، وتأجَّجَت نار العداوة بينهم بشدة لدرجة أنهم نسُوا حتى وجود جيه أرنولد روس ومحاميه البارز. وأعلنَت الآنسة سنايب: «قلتُ لك من قبل، وسأقولها مرةً أخرى — أنا لن أوقع! لن أوقع!»

صاح السيد هانك: «ستُوقِّعين إذا صوَّتَت الأغلبية لصالح ذلك!»

«فلتُحاوِل وسترى بنفسك النتيجة!»

«هل تقصدينَ أن بإمكانكِ خرقَ الاتفاق؟»

«أقصد أن لديَّ محاميًا يقول إن بإمكانه خرقَ الاتفاق وقتَما أخبره بذلك.»

قاطعهم السيد ديبل قائلًا: «حسنًا، في رأيي، بوصفي محاميًا — وأظن أن زميليَّ، السيد برنتيس والسيد ميريويذر سيدعمانني — يصعُب خرقُ هذا الاتفاق.»

صاح السيد سام: «حسنًا، على الأقل يمكننا عرضُ الأمر على المحكمة! ولتبقَ القضية هناك عامًا أو عامَين!»

قال السيد هانك ساخرًا: «هذا لن يفيدَك على الإطلاق!»

قالت الآنسة سنايب: «حسنًا، نحن بين المطرقة والسندان؛ إذا لم يسرقنا هؤلاء اللصوص، فسرعان ما سيأتي غيرهم.»

قاطعها بن سكوت على عَجل قائلًا: «حسنًا، يا رفاق! من المؤكد أننا لن نضُر بمصالحنا الشخصية بسبب شعورنا بالغضب. ألا تظنون أنه من الأفضل أن تدَعوا السيد روس يخبرنا عن خططه؟»

صاح السيد جولايتي: «بالتأكيد، دعونا نسمع السيد روس!» عندئذٍ تعالت الأصوات موافقةً بكل السبل على سماع السيد روس. فهو الوحيد القادر على إنقاذهم!

٦

نهض السيد روس، ببطء ورزانة. وكان قد خلع بالفعل معطفه الكبير، وطواه ووضَعه بعناية على السجادة بجانب كرسيه، لاحظَت ربات البيوت ذلك، وسيستخدمنه في جدالاتهن العائلية المستقبلية. كان رجلًا وقورًا، يرتدي بذلةً مريحة من الصوف، نظر إليهم بملامحه الجادة واللطيفة في الوقت نفسه، وتحدث إليهم بصوتٍ حنون، يكاد يكون أبويًّا. إذا كنتَ منزعجًا من أن طريقة حديثه تختلف عن طريقتك، فضَع في اعتبارك أن الأمر لا يتعلق باللغة الإنجليزية، بل باللهجة الأمريكية الخاصة بالمناطق الجنوبية الغربية التي يستخدمها. وسيتعيَّن عليك الانخراط في صناعة النفط في تلك المنطقة، لكي تدرك أن رجلًا ما قد يتحدث بلهجته الخاصة ويقول: «لقد فعلتُ ذلك من قبل، وسأفعله مرةً أخرى»، مع أنه يرتدي زي موظف بنك يعمل في منطقةٍ حضرية، ويتمتع بثقة جنرالٍ هادئ، ونبل أسقف كنيسة عطوف. قال السيد جيه أرنولد روس:

«أيتها السيدات والسادة، لقد سافرتُ مسافةً طويلةً جدًّا عَبْر ولايتنا للوصول إلى هنا هذا المساء. لم أستطع الرحيل قبل ذلك؛ لأن بئري الجديدة في نهر لوبوس بدأَت في إنتاج

النفط، وكان عليَّ متابعة هذا الأمر. تُنتِج هذه البئر الآن أربعة آلاف برميل، وتُدر عليَّ دخلًا قَدْره خمسة آلاف دولار في اليوم. وجارٍ الآن حفر بئرَين أخريَين، ولديَّ ست عشرة بئرًا منتِجةً في أنتيلوب. لذا، أيتها السيدات والسادة، عليكم أن تُصدِّقوني عندما أقول إنني تاجر نفط.»

«لديكم فرصةٌ رائعة هنا، أيتها السيدات والسادة، لكن تذكَّروا، يمكنكم خسارة كل شيء إذا لم تتوخَّوا الحذر. فمن بين جميع الرفاق الذين يتوسَّلون إليكم للحصول على فرصةٍ لحفر أرضكم، قد يكون هناك تاجرُ نفطٍ واحد من كل عشرين، أما البقية فسيكونون سماسرة، رجالًا يحاولون أن يكونوا حلقة الوصل بينكم وبين تجار النفط، للحصول على بعض الأموال التي من حقكم الحصول عليها. وحتى إذا عثَرتُم على شخصٍ لديه مال، ومستعد للحفر، فربما يكون لا يفقه شيئًا عن التنقيب، وسيتعيَّن عليه التعاقد مع شخصٍ آخر لإنجاز المهمة؛ حينئذٍ ستكونون معتمدين على «مقاول» يحاول إتمام وظيفته بسرعة، للحصول على عقدٍ آخر بأسرع ما يمكن.»

«لكني، أيتها السيدات والسادة، أتولى عمليات الحفر الخاصة بي بنفسي، والرفاق الذين يعملون معي هم رجالٌ أعرفهم جيدًا. ودائمًا ما أكون موجودًا للإشراف على أعمالهم. ولا أفقد أدواتي في البئر، ولا أقضي شهورًا في محاولة التقاطها، وأجيد تغطية البئر بالأسمنت، حتى لا يتسرَّب له الماء، ويضيع عقد الإيجار بالكامل. ودعوني أؤكد لكم، أنا أفضل من أي رجل أو شركةٍ أخرى في هذا المجال. ونظرًا لأن بئر نهر لوبوس قد بدأَت في إنتاج النفط، فلديَّ مجموعةٌ كاملة من الأدوات الجاهزة للعمل. يمكنني تحميل حفَّار على شاحنات، وسيصل إلى هنا في غضون أسبوع. لديَّ معارف تربطني بهم علاقات عمل؛ لذا يمكنني الحصول على الخشب لبناء برج الحفر، فمثل هذه الأشياء تتم بالصداقات، إن كنا في عَجلة من أمرنا كما هو الحال الآن. لهذا السبب يمكنكم ضمان أنني سأبدأ في الحفر، وسأنفق نقودي لتدعيم كلامي. وأؤكِّد لكم أن كل ما وعَد الآخرون بفعله، عندما تحين اللحظة الحاسمة، لن تجدوا له أثرًا.»

«أيتها السيدات والسادة، ليس لي الحق في أن أقول كيف ستُقسِّمون حصص الأرباح. لكن دعوني أخبركم شيئًا؛ كل ما تتخلَّون عنه، من أجل التوصل إلى اتفاق، سيكون صغيرًا مقارنةً بما قد تخسرونه جرَّاء التأخير، وجرَّاء الوقوع في أيدي مقامرين ومحتالين. أيتها السيدات والسادة، بوصفي تاجرَ نفط، أؤكد لكم أن حقل «بروسبكت هيل» لن يحتوي على الكثير من الآبار الغزيرة الإنتاج، وسيقل عما قريب الضغط تحت الأرض؛ ومن ثَمَّ

لن يحصل على النفط سوى أولئك الذين يحفرون أراضيهم أولًا. فحقول النفط تنضب سريعًا، وفي غضون عامَين أو ثلاثة أعوام، لن تتمكَّنوا من استخراج النفط من هذه الآبار إلا باستخدام المضخَّات؛ أجل، حتى في هذه البئر التي اكتُشِفَت حديثًا وكانت سببًا في جنونكم جميعًا. لذا، ثقوا بكلامي، ولا تفسخوا عقد الإيجار هذا، واقبلوا بأخذ حصةٍ صغيرة من الأرباح إذا لزم الأمر، وأتعهَّد بأن تكون قيمة الأرباح الكلية كبيرة، وبذلك لن تخسروا شيئًا من أموالكم. وبهذا، أيتها السيدات والسادة، ينتهي ما كنتُ أودُّ قوله.»

ظلَّ الرجل العظيم واقفًا، وكأنه ينتظر ليرى إن كان لدى أي شخصٍ رد على ما قاله؛ ثم جلس، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة. كانت كلماته وجيهة، ولم يكن لدى أحد الشجاعة للتغلب على تأثير وقع كلماته عليهم.

أخيرًا، نهض السيد جولايتي. وقال: «أيها الأصدقاء، إن هذا كلامٌ منطقي يتفوَّه به رجلٌ نبيل نثق به جميعًا؛ وأنا شخصيًّا أعترف باقتناعي، وآمل أن نُثبِت أننا مجموعة من رجال الأعمال، القادرين على اتخاذ قرارٍ حكيم، في هذا الأمر الذي يعني الكثير لنا جميعًا.» وهكذا بدأ السيد جولايتي في إلقاء واحد من خطاباته الطويلة، مفاده أنه يجب احترام رأي الأغلبية.

قال السيد سام: «ولكن هذه هي المشكلة، مَن الأغلبية؟»

قال السيد خايم لوكر: «لنُجرِ تصويتًا، ونكتشف مَن الأغلبية.»

كان السيد ميريويذر، المحامي، يتشاور همسًا مع موكلَيه. ثم أعلن قائلًا: «أيتها السيدات والسادة، نيابةً عن السيد والتر بلاك وزوجته أودُّ أن أقول إنهما تأثَّرا بشدةٍ بما قاله السيد روس، وإنهما يودَّان تقديم أي تنازلٍ ضروري للوصول إلى توافُق. وهما على استعداد للتنازل عن النقطة التي أثرتُها في بداية هذه المناقشة، والتوقيع على عقد الإيجار بصيغته الحالية.»

سألت السيدة جرورتي: «لكن ماذا يعني ذلك؟ هل سيحصلان على أرباح قطعة أرض مساحتُها خمس وتسعون قدمًا؟»

«عرضُنا هو التوقيع على الوثيقة كما هي، ويمكن البت في مسألة تفسير النص القانوني لاحقًا.»

صاح السيد جرورتي قائلًا: «حسنًا! هذا تنازلٌ جيد، ويتزامن مع ما سمعناه للتو من السيد برنتيس عن أن القانون يصُب في مصلحتكم!»

قال السيد هانك وهو يبذل قصارى جهده لجعل صوته يبدو لطيفًا: «لقد وافقنا على التوقيع.»

صاحت الآنسة سنايب: «يا إلهي، أنت من يقول ذلك! الرجل النبيل الذي كان يقول، قبل أقل من نصف ساعة، إننا يجب أن نلتزم بالاتفاق الأصلي، «الاتفاق الوحيد المعقول، حيث تحصل جميع الأراضي على حصص متساوية، تمامًا مثلما يحدث في عملية التصويت.» هل اقتبست كلامك بشكلٍ صحيح، يا سيد هانك؟»

أعلن عامل مناجم الذهب السابق بعناد: «لقد وافقتُ على توقيع عقد الإيجار هذا.»

قالت الممرضة المتمرسة: «من ناحيتي، لقد قلتُها من قبل، وسأقولها مرةً أخرى، يستحيل أن أوقِّع هذا العقد!»

٧

اعتادَت السيدة روس العجوز، جدة باني، الاحتجاجَ بشدة على اصطحاب صبي في رحلات العمل هذه. إذ كانت ترى أن هذا يكفي لتدمير طبيعته اللطيفة؛ فهذا من شأنه أن يجعله متشائمًا قاسي القلب في طفولته؛ بسبب كل هذه الدناءة والكراهية التي لا يخلو السعي وراء جمع المال منها. لكن والد باني أجاب بأن هذه هي الحياة، وليس من الجيد خداع نفسك؛ فباني سيعيش في هذا العالم يومًا ما، وكلما تعرف عليه سريعًا، كان ذلك أفضل. ولذلك كان الصبي يجلس هناك، على حافة النافذة، يراقب ما يحدث، مستحضرًا كلمات جدته.

أجل، لا شك في أنهم كانوا حَفْنة من الحثالة؛ لقد كان الأب محقًّا عندما قال إن عليك الانتباه طوال الوقت لأن شخصًا ما سيحاول استلاب شيء منك. فهؤلاء الأشخاص جُنَّ جُنونُهم بكل بساطة بسبب الأمل المفاجئ في الحصول بسرعةٍ على الكثير من المال. وكان باني، الذي دائمًا ما كان يتوفَّر لديه ما يحتاجه من مال، يشاهد شجارهم التافه بازدراءٍ كبير. وشعر في قرارة نفسه أنه لا يمكن الوثوق في هؤلاء الأشخاص؛ فبإمكانهم فعل أي شيء لإيذائك. فتلك السيدة العجوز السمينة التي ترتدي فستانًا أصفر من الساتان، بذراعَيها الحمراوَين السمينتَين وساقَيها السمينتَين الملفوفتَين بالحرير، لن تتردَّد في غرز أظفارها في وجه أحدهم. وذلك الرجل ذو الوجه الطويل النحيف، الذي له صوتٌ يشبه صوت المنشار الدائري، يستطيع طعنك بسكين في ليلةٍ مظلمة!

أراد الأب أن يعيَ ابنُه كل ما يخص هذه الاتفاقات: بدءًا من بنود عقد الإيجار وأحكام القانون، إلى أحجام قطع الأراضي المختلفة والمبالغ المتضمَّنة. وكان ينوي التحدث لاحقًا مع الصبي عن هذه الأمور، حيث سيختبره لمعرفة مدى فهمه. لذلك كان باني

يستمع بانتباه، ويربط المعلومات بعضها ببعض، متذكرًا بنود عقد الإيجار التي سمع والده يناقشها مع بن سكوت والسيد برنتيس في طريقهم إلى الحقل في سيارة الأخير. لكن الصبي لم يستطع منع عقله من التفكير في تلك الشخصيات المختلفة الحاضرة، ووجهات نظرهم، واللمحات التي استطاع استخلاصها عن حياتهم. ذلك الرجل المسن ذو الكتف المحني واليدين اللتين تظهر عليهما علامات الشيخوخة؛ كان عاملًا فقيرًا، وكان بإمكانك ملاحظة استيائه من هذا الجدال، لقد أراد شخصًا يمكنه الوثوق فيه؛ لذلك كان يتلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن هذا الشخص، لكن هذا الحشد لم يكن يضم شخصًا كهذا. وتلك الشابة التي تضع نظارة أنفية كانت صعبة المراس، تُرى ماذا كانت تفعل بخلاف الشجار؟ وهذان الزوجان المسنان اللذان كان يبدو عليهما الثراء، وكانا مهتمَّين بإظهار ذلك قدر استطاعتهما، لكنهما في نفس الوقت جاءا للحصول على حصتهما، تمامًا مثل الآخرين، دون الشعور بأي تعاطفٍ تجاه أصحاب «الأراضي الصغيرة»!

جذب السيد المسن مقعده إلى جانب الأب وبدأ يتحدث معه همسًا. لاحظ باني أن الأب هز رأسه رفضًا، وبعدها انسحب السيد المسن. ثم تحدَّث الأب إلى سكوت، ونهض الأخير وقال: «يودُّ السيد روس أن يوضح أنه ليس مهتمًّا بأي عرضٍ لتأجير جزءٍ من المربع السكني. فهو لن يحفر بئرًا دون أن تتوافر المساحة الكافية لحفر الآبار الفرعية المقابلة. وإذا لم توافقوا على هذا، فسيقبل بعقدِ إيجارٍ آخرَ وفرتُه له.»

أصابهم الرعب مما سمعوا، وأوقفوا الجدال. لاحظ الأب ردة فعلهم، وأومأ برأسه لـ «صائد عقود الإيجار»، الذي أكمَل حديثَه قائلًا: «لدى السيد روس عرضٌ بعقد إيجار في الجانب الشمالي، الذي يتميز بإمكاناتٍ واعدة؛ حيث نعتقد أن التكوين الجيولوجي للأرض هناك يشير إلى وجود نفط. وهناك عدة هكتارات مملوكة لطرفٍ واحد؛ لذا سيكون من السهل الحصول على الموافقة.» أفزعهم هذا الكلام حقًّا، ولم تمُر سوى عدة دقائق حتى بدءوا في الشجار مجددًا!

كان بإمكان باني رؤية أضواء «البئر المكتشفة حديثًا»، من مكانه على عتبة الشباك، لكنها كانت مطفأة الآن في انتظار بناء الخزانات، وعَبْر النافذة المفتوحة كان بإمكانه سماع أصوات طرق العمال بالمطرقة على الخزانات، وأصوات بناء النجَّارين لأبراج حفرٍ جديدة على طول المنحدر. كان شارد الذهن عندما فاجأه صوتٌ هامس، يبدو أنه قادم من المكان المظلم إلى جواره مباشرة، وقال: «أيها الصبي!»

أطل باني من النافذة، ورأى شخصًا يلتصق بجانب المنزل. قال الصوت الهامس مرةً أخرى: «أيها الصبي. أصغِ إليَّ، لكن لا تدَع أحدًا يلاحظ ذلك. يجب ألَّا يعلموا أنني هنا.»

«هل هذا جاسوس يحاول معرفة تفاصيل عقد الإيجار؟» هذا ما جال بخاطر باني. لذلك استمع بتأهُّب إلى صوتٍ هامسٍ هادئ ومستمر وقوي ومؤثِّر يقول:

«أيها الصبي! اسمي بول واتكينز، والسيدة التي تسكن هنا هي عمتي. لكنني لا أدَعُها تعرف بوجودي هنا؛ لأنها إذا عرفَت فستجعلني أعود إلى المنزل. فأنا أعيش في مزرعة في سان إليدو، ولقد هربتُ من المنزل لأنني لا أستطيع تحمُّله. تعيَّن عليَّ أن أحصُل على وظيفة، لكني أريد أن آكل أولًا، لأنني أكاد أتضوَّر جوعًا. وعمتي لن تمانع في حصولي على الطعام لأننا أصدقاء، إلا أنها سترغب في عودتي إلى المنزل، وأنا لا أستطيع تحمُّل ذلك. لذا أريدكَ أن تُحضِر لي شيئًا من المطبخ لآكله، على سبيل الاقتراض، وعندما أحصُل على بعض المال، سأرسِله لها مقابل هذا الطعام. كل ما أريده منك هو فتح باب المطبخ. وأعدك أنني لن آخذ شيئًا سوى قطعة من الفطيرة وربما شطيرة أو ما شابه. كل ما عليك فعلُه هو أن تطلب من عمتي أن تدعك تذهب إلى المطبخ للحصول على كوب من ماء، ثم تترك المفتاح في الباب وتعود إلى القاعة. ويمكنك الخروج من الباب الأمامي إذا أردتَ ذلك، والقدوم معي لتتأكد من أنني لن أفعل سوى ما قلتُه لك. أيها الصبي، فلتكن جديرًا بثقتي لأنني في وضعٍ عصيب؛ فمن الصعب حقًّا عدم الحصول على وجبةٍ طوال اليوم، ولقد كنتُ أتطفل على سيارات الغرباء للسفر معهم مجانًا وأسير لفتراتٍ طويلة، وقد أُنهِكتُ تمامًا. سأخبرك بكل شيءٍ عندما تخرج، لكن لا تحاول أن تتحدث معي الآن؛ لأنهم سيلاحظون تحرُّك شفتَيك وسيعلمون أن هناك شخصًا ما بالخارج.»

فكَّر باني سريعًا. لقد كانت مسألةً أخلاقيةً دقيقة؛ إن كان يحق لك فتح الباب الخلفي الخاص بشخصٍ آخر، حتى يتمكن لصٌّ محتمَل من الدخول! لكن بالطبع لا يمكن اعتباره لصًّا حقيقيًّا، إذا كانت صاحبة المنزل عمته، وستُعطيه هذا الطعام على أية حال. لكن كيف يمكنك معرفة أن القصة حقيقية؟ حسنًا، يمكنك الذهاب معه، كما قال، وإذا كان لصًّا يمكنك الإمساك به. ما أثَّر في قرار باني هو صوتُ بول واتكينز الذي أعجبه؛ فحتى قبل أن يرى وجهَه، شعر باني بقوة شخصيته، وانجذَب لعمقه ونشاطه وقوته.

انزلق باني من على عتبة النافذة، وسار نحو السيدة جرورتي، التي كانت تجفِّف جبهتها من العَرق بعد إلقاء خطبةٍ خبيثة. وقال: «عذرًا سيدتي، هلا تكرَّمتِ وسمحتِ لي بالذهاب إلى المطبخ للحصول على كوب ماء؟»

كان يرى أن هذه حُجةٌ جيدة لعدم كشف الأمر، لكنه أخفَق في استيعاب حقيقة أن السيدة جرورتي كانت تهيِّئ نفسها لإتقان الكياسة، ولن تتخلى عن فرصة مراقبة تصرفات الأغنياء حتى لشرب كوب من الماء. لانَ قلبُها لابن جيه أرنولد روس، واختفَت الحدة التي كانت في صوتها. وقالت: «بالطبع، يا عزيزي»، ونهضَت وتقدَّمَته إلى المطبخ.

نظر باني حوله. وصاح قائلًا: «يا إلهي، يا لها من غرفةٍ جميلة!»، وكانت الغرفة جميلةً حقًّا لأنها كانت مطلية بطلاءٍ أبيض.

قالت السيدة صاحبة المنزل، وهي تأخذ كوبًا من أحد الرفوف وتفتح الصنبور: «نعم، إنها كذلك، ويسعدني أنك تظن ذلك.»

قال باني: «مطبخٌ كبيرٌ حقًّا؛ إن المطابخَ الكبيرةَ تُضفِي دائمًا شعورًا بالراحة.» أخذ منها كوب الماء وشكرها وشرب جزءًا منه. جال بخاطر السيدة جرورتي أنه صبيٌّ طبيعيٌّ ومهذَّب. غير متكبر على الإطلاق!

توجَّه باني نحو الباب الخلفي. «أظن أن لديكِ سقيفةً كبيرةً بستائر هنا. إن الجو حارٌّ بعض الشيء بالداخل، ألا تظنين ذلك؟» وفتح الباب، وفتح الستائر، ونظر إلى الخارج. وقال: «يا له من نسيمٍ رائع. وبإمكانكِ رؤية جميع الآبار من هنا. سيكون الأمر ممتعًا عند بدء الحفر في هذا المربع السكني!»

كانت الفكرة التي كوَّنَتها السيدة جرورتي عنه أنه صبيٌّ لطيفٌ ودود، ووافقَته الرأي وتمنَّت حدوث ما يقوله قريبًا. أخبرها باني أنها ربما تُصاب بنزلة برد بسبب فستان السهرة الجميل الذي كانت ترتديه؛ لذلك أغلق الباب مرةً أخرى، وكانت مضيفتُه مفتونةً بأخلاق الطبقة الأرستقراطيةِ اللطيفةِ لدرجة أنها لم تلاحظ أنه لم يُوصِد الباب. وضَع الكوب الفارغ على لوح حوض التصريف بجوار المغسلة، وشكَر السيدة جرورتي وأخبَرها أنه لا يرغب في المزيد، وتبعَها مرةً أخرى إلى غرفة المعيشة المكتظة.

علا صوت السيد سام، عامل الجص، قائلًا: «ما أودُّ قولَه هو الآتي. إذا أردتم حقًّا التوقيع على عقد الإيجار بصيغته القديمة، فوقِّعوا عليه كما فهمناه جميعًا، دعونا نحسب الأرض التي نمتلكها وليس الشارع الذي لا نمتلكه.»

قالت السيدة والتر بلاك ساخرةً: «بعبارةٍ أخرى، دعونا نغيِّر عقد الإيجار.»

قالت الآنسة سنايب بطريقةٍ أكثرَ سخرية: «بعبارةٍ أخرى، دعونا لا نقع في الفخ الذي نصَبه لنا أصحابُ الأراضي الكبيرة.»

٨

كان من المتوقع أن يسأم صبي في الثالثة عشرة من عمره من مثل هذا التشاحن؛ لذا لم يولِ أحدٌ أي اهتمام عندما شق جيه أرنولد روس الابن طريقه إلى الباب الأمامي وخرج. وصل إلى الباب الخلفي في الوقت الذي كان بول واتكينز يغلقه برفقٍ خلفه. وقال الأخير هامسًا: «شكرًا أيها الصبي»، وتسلَّل خفيةً إلى سقيفة تخزين الأخشاب، وباني يتبعه كظله. كان أول ما نطق به بول هو: «لقد أخذتُ قطعةً من لحم الخنزير، وشريحتَي خبز، وقطعةَ فطيرة.» كان بالفعل قد بدأ يأكل وامتلأ فمُه بالطعام.

قال باني بتروٍّ: «لا بأس في ذلك، على ما أظن.» وانتظر، ولبرهة لم يكن هناك أي صوت باستثناء صوتِ مضغِ كائنٍ جائع. كان الفتى الغريب مجرد ظل له صوت، لكن بالخارج، في ضوء النجوم، لاحظ باني أن الظل أنحفُ منه وأطولُ منه بقليل.

في النهاية قال الصوت: «يا إلهي، إن التضوُّر جوعًا أمرٌ عسير! هل تريد بعضًا من هذا؟»

قال باني: «لا، لقد تناولتُ عشائي. وليس من المفترض أن آكل ليلًا.»

تابع الفتى الآخر المضغ، الأمر الذي وجده باني غامضًا ومثيرًا؛ فقد يعود هذا الصوتُ لذئبٍ جائعٍ يختبئ في الظلام. جلسَا على الصناديق، وعندما توقَّف صوت المضغ، قال باني: «ما الذي جعلك تهرُب من المنزل؟»

ردَّ عليه الفتى بسؤالٍ آخر، لكنه كان مربكًا: «إلى أي كنيسة تنتمي؟» ردَّ عليه باني: «ماذا تعني؟»

«ألا تعلم ماذا يعني أن تكون منتميًا لكنيسة؟»

«حسنًا، في بعض الأحيان تأخذني جدتي لكنيسةٍ معمدانية، وتأخذني أمي لكنيسةٍ أسقفية عندما أزورها. لكنني لا أعرف لأي واحدةٍ أنتمي.»

قال بول: «يا إلهي!» كان من الواضح اندهاشه الشديد من هذا التصريح. «هل تعني أن والدك لا يجعلك تنتمي لأي كنيسة؟»

«لا أظن أن والدي يؤمن بشدة بهذه الأشياء.»

«يا إلهي! ألستَ خائفًا؟»

«ممَّ أخاف؟»

«من عذاب الجحيم. من خسارة روحك.»

«لا، لم أفكِّر في الأمر من قبلُ.»

«أيها الصبي، إن هذا أمرٌ في غاية الغرابة بالنسبة لي. فقد استسلمتُ لفكرة أني سأذهب إلى الجحيم، ولا أُلقي بالًا لهذا. هل تسُب؟»

«ليس كثيرًا.»

«لقد سببتُ الرب.»

«كيف تفعل ذلك؟»

«قلتُ: «تبًّا للرب!» بضع مرات، وكنتُ متأكدًا من أن السماء سترسل البرق ليصعقني. وقلتُ: «لستُ مؤمنًا، ولن أكون مؤمنًا، ولا أكترث بهذا الأمر».»

«لكن لماذا تخاف إن لم تكن مؤمنًا؟» كان عقل باني منطقي التفكير هكذا طوال الوقت.

«حسنًا، أظن أنني لم أكن أعرف إن كنتُ مؤمنًا أم لا. ولا يمكنني الجزم بذلك الآن. يبدو أن عقلي الضعيف المسكين غير قادر على تكوين رأيٍ محدَّد بشأن خالق هذا الكون. لم أرَ بحياتي شخصًا بهذا السوء. يقول بابا إنني أخبثُ صبي على وجه الأرض.»

«بابا هو والدك؟»

«أجل.»

«وبمَ يؤمن؟»

«بالدين القديم. عقيدة كنيسة فورسكوير (إحدى الطوائف المسيحية الإنجيلية الدولية). إنها تنتمي للكنيسة الرسولية؛ حيث يقفزون.»

«يقفزون!»

«نعم، يحل عليك الروح القدس، ويجعلُك تقفز. وفي بعض الأحيان يجعلُك تتدحرج، وفي أحيانٍ أخرى تتكلم بألسِنة.»

«ماذا تقصد؟»

«عجبًا، أقصد صدور أصواتٍ سريعة منك، وكأنك تتحدث بلغةٍ أجنبية، وربما تكون كذلك؛ فأبي يقول إنها لغة رؤساء الملائكة، لكنني لا أدري. لا يمكنني أن أفهمَها، ولا أحبها.»

«وهل يفعل والدك ذلك؟»

«في أي وقت، نهارًا أو ليلًا، هو معرَّض لذلك. فهذه هي طريقته لتجنُّب الإغراءات. فإذا قلتُ شيئًا في أوقات تناول الطعام، مثل: إنه لا يُوجد ما يكفي من الطعام في المنزل، أو ذكرتُ أن فائدة الرهن العقاري مستحقة الدفع، وأن عليه ألَّا يصرف جميع أمواله على الإرساليات، فحينئذٍ سينظر أبي لأعلى ويبدأ في تلاوة الصلوات بصوتٍ عالٍ ويُطلق العِنان لنفسه، على حد قوله، ليسكن فيه الروح القدس ويبدأ في القفز والاهتزاز في كل مكان، وينزلق من مقعده ويتدحرج على الأرض ويبدأ في التكلم بألسِنة، كما يقول الكتاب المقدس. حينئذٍ تبدأ أمي في البكاء بسبب خوفها؛ فهي تعلم أن عليها واجباتٍ تجاه أطفالها، لكنها لا تُقاوِم الروح، ويصيح أبي بصوتٍ جَهْوري، وكأنه الصوت الذي سمعه بنو إسرائيل قرب جبل سيناء، قائلًا: «أطلقي العنان، أطلقي العنان»، حينئذٍ تبدأ كتف أمي في الارتعاش وتفغر فمَها وتبدأ في التدحرج على المقعد، وتصرخ طلبًا للمعمودية الخمسينية. ويُشعل هذا حماس الأولاد، مما يجعلهم جميعًا يقفزون ويَهْذون؛ يا إلهي، إنه منظرٌ مخيف، فكأن هناك شيئًا يتحكم فيك ويجعلك تهتز سواء أردتَ ذلك أم لا. هُرعتُ خارج المنزل، ولوَّحتُ بقبضتي نحو السماء وقلت صائحًا: «تبًّا للرب! تبًّا للرب!» حينئذٍ انتظرتُ أن تسقط السماء، لكن هذا لم يحدث، وقلت إنني غير مؤمن، ولن أجبر نفسي على الإيمان، حتى لو ذهبتُ إلى الجحيم بسبب ذلك.»

«هل هذا سبب هروبك؟»

«أحد الأسباب. فلا يمكنك تحقيقُ أي شيءٍ عندما تعيش مثلنا. فنحن نمتلك مزرعةً كبيرة، لكن معظمها مغطًّى بالصخور؛ ولذلك كنا نواجه أوقاتًا عصيبةً بالرغم من الجهود التي كنا نبذلها، فعند زراعة أي محصول، لا ينبُت شيء سوى الحشائش عند سقوط الأمطار. عجبًا، لو كان هناك إله، وكان هذا الإله يهتم بشئون خلقه من البشر المساكين، فلماذا خلق العديد من الحشائش الضارة؟ كانت تلك هي المرة الأولى التي بدأتُ فيها اللعن؛ حيث كنتُ أجرف الحشائش طوال اليوم، ووجدتُ نفسي أقول مرارًا وتكرارًا دون توقف: «تبًّا للحشائش! تبًّا للحشائش! تبًّا للحشائش!» يقول أبي إنها ليست من صنع الرب بل الشيطان، لكن الرب هو مَن خلَق الشيطان ويعلم ما سيفعله؛ لذا أليس مَن ينبغي أن يُلام هنا هو الرب؟»

قال باني: «يبدو لي ذلك.»

«لكنك محظوظ، أيها الصبي! ما كنتَ تعلمُ من قبلُ أن لديك روحًا! وبالتأكيد تجنَّبتَ العديد من المشاكل!» مرَّت برهة من الصمت، ثم أضاف بول: «لقد واجهتُ صعوبة في

الهرب، وأعتقد أنني سأعودُ في النهاية؛ فمن الصعب التفكير في أن يتضوَّر إخوتي وأخواتي جوعًا حتى الموت، ولا يمكنني أن أتوقع خلافَ ذلك.»

«كم عددهم؟»

«هناك أربعةٌ غيري، وجميعهم أصغر مني سنًّا.»

«كم عمرك؟»

«ستة عشر عامًا. والأخ الثاني هو إيلاي، الذي يبلغ خمسة عشر عامًا، وقد باركَه الروح القدس؛ حيث يستمر في الارتعاش طَوال اليوم في بعض الأحيان. وهو يرى الملائكة وهي تتنزَّل من سُحب المجد، وقد شفى السيدة باجنر العجوز، التي كانت تعاني من بعض المشاكل الصحية، بأن وضع يدَيه على رأسها. يقول أبي إن الرب سيُجري بركاتٍ عظيمةً من خلاله. ثم هناك روث، التي تبلغ ثلاثة عشر عامًا، وهي أيضًا تنتابها رؤًى، لكنها بدأَت تفكِّر مثلي، وتدور بيننا محادثاتٌ منطقية، أنت تعلم ما أقصد؛ فأحيانًا يمكنك التحدث مع أشخاصٍ بمثل عمرك في أمور لا يمكنك التحدث عنها مع الكبار.»

قال باني: «نعم، أعلم. فهم يحسبون أنك لا تفهم شيئًا. ويتحدثون أمامك ويتساءلون عما إذا كان هناك خطبٌ ما في عقلك. إن هذا يصيبني بالسأم.»

واصل الآخر حديثه قائلًا: «روث هي من تُصعِّب عليَّ أمر البقاء بعيدًا. فقد طلبَت مني الذهاب، لكن ماذا هم فاعلون؟ لا يمكنهم الاضطلاع بأعمالٍ شاقة مثلي. ولا تحسبن أنني لن أهرب من العمل الشاق إذا توفَّرَت لي الفرصة، كل ما في الأمر أنني أريد تحقيق شيء في الحياة، وإلا فما الفائدة من العمل الشاق؟ ليست هناك أي فرصةٍ لنا. أعد أبي العربة وانطلق بنا جميعًا إلى بارادايس؛ حيث توجد الإرسالية الخمسينية، وهناك يتدحرجون جميعًا ويُتمتِمون طوال يوم الأحد، في الأغلب، ويأمرهم الروح بالتبرُّع بكل أموالهم لهداية الوثنيين، فكما تعلم لدينا إرسالياتٌ في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهذه أممٌ ملحدة، وسيَعِد أبي بأن يدفع أكثر مما لديه، وحينئذٍ سيتعين عليه الدفع؛ لأن هذا المال لم يعُد ملكًا له بعد الآن، إنه ملك الروح القدس. ولهذا السبب تركتُ المنزل.»

ساد الصمت لبرهة، ثم سأل بول: «ما سبب تجمُّع هذا الحشد الكبير؟»

«هذا بسبب عقد إيجار النفط، ألستَ على درايةٍ بما يحدث؟»

«بلى، سمعنا بشأنِ اكتشافِ النفط. من المفترض أن يكون هناك نفطٌ في مزرعتنا؛ فعمي إيبي كان يقول إنه صادفَ علاماتٍ تدُل على ذلك، لكنه مات ولم أرَ تلك العلاماتِ من قبلُ، ولم أتوقع قطُّ أن تكون عائلتي محظوظةً بهذا القَدْر. لكن يُقال إن العمة ألي هذه ستصبح غنية.»

ومضت فجأةً أمام عينَي باني صورةٌ للسيدة جرورتي في ثوبها اللامع من الساتان الأصفر، وذراعَيها ونهدَيها الكبيرَين المكشوفَين. وقال: «قل لي، هل تتدحرج عمتك على الأرض؟»

قال الفتى الآخر: «مطلقًا! فقد تزوَّجَت كاثوليكيًّا، ويُطلِق عليها أبي لقب «عاهرة بابل»، ومن المفترض ألَّا نتحدث معها. لكنها طيبة القلب، وكنتُ أعلم أنها ستعطيني بعض الطعام؛ لذا عندما وجدتُ أنني لم أستطِع الحصولَ على وظيفة، جئتُ إلى هنا.»

«لماذا لم تستطِع الحصولَ على وظيفة؟»

«لأن الجميع يوبِّخونني ويقولون لي أن أعود إلى المنزل.»

«لكن لماذا تخبرهم أنك تركتَ المنزل؟»

«اضطُرِرتُ لذلك. فقد كانوا يسألون عن المكان الذي أعيشُ فيه، وعن سبب عدم وجودي بالمنزل، ولن أكذبَ عليهم.»

«ولهذا أنت تتضوَّر جوعًا الآن!»

«أن أتضوَّر جوعًا خيرٌ من أن أصبح مخادعًا. فقد دار شجارٌ بيني وبين أبي وقال إذا ابتعدتَ عن الكلام المقدس، فسيُسيطر عليك الشيطان ويجعلك تكذب وتغش وتسرق وتزني، حينئذٍ قلتُ له: «حسنًا يا سيدي، لنَرَ. أظن أن بإمكان المرء أن يكون خلوقًا دون الحاجة إلى الشيطان.» وعزمتُ أمري على أن أثبت له وجهة نظري. وسأدفع ثمن هذا الطعام للعمة ألي؛ فأنا أقترضُه فحسب.»

مد باني يدَه في الظلام. وقال: «خذ هذه.»

«ما هذه؟»

«بعض النقود.»

«لا يا سيدي، لا أريد أي نقود، حتى أكسبها بعرقِ جبيني.»

«لكن اسمَع يا بول، والدي لديه الكثير من المال، وهو يعطيني ما أطلبه منه. ولقد جاء إلى هنا لتأجير هذا المربَّع السكني من عمتك؛ ولذا لن يلاحظ عدم وجود هذا المبلغ البسيط.»

«لا يا سيدي، أنا لستُ شحاذًا؛ أنا لم أهرُب من المنزل من أجل هذا. هل تظن أنه لأنني أخذتُ بعض الطعام من حجرة المؤن لدى عمتي ...»

«لا، أنا لا أظن ذلك على الإطلاق! ويمكنك اعتباره قرضًا، إن أردتَ ذلك.»

قال الفتى الآخر بنبرةٍ فظة: «فلتحتفِظ بمالك. أنا لن أقبل أيَّ قروض، وقد قدَّمتَ لي ما يكفي؛ لذا انسَ الأمر.»

«حسنًا، لكن يا بول ...»

«افعل ما أقوله لك، الآن!»

«حسنًا، لكن هلا أتيتَ إلى الفندق غدًا لتناول الغَداء معي؟»

«لا، لا يمكنني القدوم إلى الفندق؛ فمظهري لا يبدو لائقًا.»

«لكن هذا لا يهم يا بول.»

«بالتأكيد يهم! والدك رجلٌ غني، ولن يرغب في وجود صبيٍّ قادمٍ من مزرعة في فندقه.»

«والدي لن يأبه لذلك، صدِّقني! فهو يقول إنني ليس لديَّ الكثير من الأصدقاء، وإنني أجلسُ بمفردي وأقرأ كثيرًا.»

«حسنًا، لكنه لن يرغبَ في وجود فتًى مثلي.»

«صدِّقني يا بول أنت لا تعرف أبي؛ فهو يقول لي إن عليَّ أن أعمل. سيُسعِده حضورك، وسيودُّ أن نكون صديقَين.»

ساد الصمتُ لبرهة، بينما كان بول يفكر مليًّا في هذا الاقتراح، وانتظر باني بقلق وكأنه ينتظر حكم محكمة. لقد أُعجِب بهذا الصبي! وهو لم يقابل من قبلُ أي صبي أُعجِب به بهذا القَدْر! لكن هل كان الصبي معجبًا به؟

ولكن لسوء الحظ، لم يصدُر حكم المحكمة. فقد وقف بول فجأة وقال صائحًا: «ما هذا؟» وقفز باني كذلك من مكانه. فقد جاء صوت جلبة من ناحية منزل السيدة جرورتي، وكانت الأصواتُ أعلى من أصواتِ دق المطارق وأصواتِ العمل في الحي. أخذَت أصواتُ الصياح تتعالى، وتتعالى، واندفع الصبيَّان نحو نافذة المنزل المفتوحة.

كان كلُّ مَن في الغرفة واقفًا، وبدا أن الجميع يصرخون في آنٍ واحد. كان من المستحيل رؤية الكثير في هذا الحشد، لكن لفَت انتباههما رجلان كانا يقفان بالقرب من النافذة وكانا منخرطَين في صراعٍ منفصل. كان هذان الرجلان هما السيد سام، عامل الجص، المالك لواحدة من «الأراضي الصغيرة جدًّا»، والسيد هانك، عامل مناجم الذهب السابق، والمالك لواحدة من «الأراضي الصغيرة بعض الشيء»؛ كان أحدهما يلوِّح بقبضته في وجه الآخر، وكان السيد سام، الطرف الأول، يصيح في وجه السيد هانك، الطرف الثاني، قائلًا: «أيها الحقيرُ الجبانُ الكذابُ القذِر!» أجاب الطرفُ الثاني: «خذ هذه، أيها المغرورُ الجبان!» ولكَم الطرفَ الأول في أنفه! ردَّ الطرفُ الأولُ بلكمه في فكِّه لكمةً صاعدةً

قوية. وهكذا استمرَّت بينهما مباراةُ الملاكمة هذه! لكمة في الأنف تقابلها لكمة في الفك، والصبيَّان يحدِّقان من النافذة المفتوحة في هلعٍ وجذل. مرحى! هناك شجار!

٩

بدا من المظهر العام وكأن كل مَن في الغرفة كانوا يتشاجرون، ولكن الوضع لم يكن هكذا؛ فقد كان هناك العديد من الرجال الذين يحاولون الفصل بين السيد سام والسيد هانك، ودفعهما إلى زاويتَين متقابلتَين. وقبل إتمام هذه العملية، سمع باني صوتًا ينادي عليه من أمام المنزل. أجاب: «حسنًا، يا أبي!»، وركض لمقابلة والده.

كان روس والرجلان اللذان جاءا برفقته ينزلون من على الدرَج الأمامي، ويتقدَّمون نحو الممشى أمام المنزل. قال الأب: «هيا، نحن عائدون إلى الفندق.»

«يا إلهي يا أبي! ماذا حدث؟»

«إنهم حفنةٌ من المغفَّلين، لا يمكن التفاهم معهم. لن أقبل بتأجير أرضهم حتى ولو عرضوها عليَّ هدية. لنرحل من هنا.»

كانا يسيران نحو سيارتهما التي كانت متوقفة على مسافةٍ قصيرة على الطريق. توقف باني فجأة. وصاح: «فلتنتظر دقيقة يا أبي! أرجوك يا أبي، هناك صبي قابلتُه وأريد أن أخبره شيئًا. انتظرني، أرجوك!»

قال الأب: «حسنًا، لكن أسرع. فهناك عقد إيجارٍ آخر عليَّ أن أنظر بشأنه الليلة.»

عاد باني بأقصى سرعة يمكن أن تركض بها قدماه. كان الذعر قد سيطر عليه. وصاح: «بول! بول! أين أنت؟»

لم يكن هناك أي صوتٍ أو أثر يدل على وجود الصبي الآخر. هرول باني نحو سقيفة تخزين الأخشاب، وركض حول المنزل صائحًا: «بول! بول!» اندفع نحو السقيفة ذات الستائر، وفتح الباب الخلفي واسترق النظر في المطبخ الخاوي المطلي بطلاء أبيض، ثم عاد يجري إلى سقيفة تخزين الأخشاب، ثم إلى المرأب أمامها، ووقف محملقًا في حقول الكرنب المظلمة وصاح ينادي بأعلى صوته: «بول! بول! أين أنت؟ أرجوك لا ترحل!» لكن لم يأتِه رد.

حينئذٍ سمع باني مجددًا صوت والده، الذي كان ينادي بنبرة لا يمكن تجاهلها؛ لذلك رحل، بقلبٍ حزين، وجلس على مقعده في السيارة. طَوال طريق العودة إلى الفندق، بينما كان الرجال يناقشون عقد الإيجار الجديد الذي خطَّطوا له، جلس باني في صمتٍ والدموع

تنسل على خدَّيه. لقد رحل بول! قد لا يراه مجددًا! يا له من فتًى رائع! يتمتَّع بالحكمة، كان يعرفُ الكثير من الأشياء! ولديه رؤيةٌ واضحة، ومن الممتع جدًّا التحدُّث معه! فتًى صادق، لا يكذب ولا يسرق! شعر باني بالخجل عندما تذكَّر أنه كذب عدة مرات في حياته، ليس في أمورٍ خطيرة، ولكن في أشياء صغيرة بدت في غاية التفاهة والحقارة بالمقارنة بنزاهة بول.

وما كان بول ليقبل بأخذ أي مبلغ من أموال الأب. وبالرغم من اعتقاد الأب أن كل من في العالم سيسُرهم الحصول على ماله، فقد رفضه هذا الصبي. لا بد أنه كان غاضبًا من باني بسبب ضغطه عليه لقبول المال، وإلا فما هرب هكذا! أو أنه لم يُعجَب بباني لأي سببٍ آخر؛ ولذلك لن يراه باني مجددًا!

الفصل الثالث

الحَفْر

١

مرة أخرى، تردد صدى أبواق السيارات في أخاديد منحدر جوادالوبي ووديانه. وهذه المرة لم يكن صوت سيارة واحدة، بل أسطول كامل من السيارات، ودزينة من الشاحنات الكبيرة القوية التي تزن سبعة أطنان، ومزودة بعجلات مزدوجة عريضة ومتينة، ومقطورات في الخلف تحمل المزيد من الأطنان. كانت الحمولة الأولى محركًا ثابتًا كبيرًا، يقف شامخًا فوق المقطورة ومُثبتًا في مكانه بأخشاب ضخمة مثبتة بإحكام على الجانبين، وبالطبع كانت هذه الشاحنة تسير بحذرٍ شديدٍ عند المنعطفات. جاءت خلفها «مضخة الوحل» و«معدات الرفع»؛ يليها «رتل» من أدوات الحفر المكونة من أنابيب مجوفة من أجود أنواع الفولاذ، متصلة بعضها ببعض من الطرفين، حيث تُنزَّل في الأرض لمسافة ميل أو أكثر إذا لزم الأمر. امتدت هذه الأنابيب متجاوزة نهاية المقطورات، حيث وُضِعَت رايات حمراء للتحذير بشأنها، في المنعطفات القصيرة كانت الأنابيب تصل إلى الجانب الآخر من الطريق، وفي حالة وجود سيارة قادمة في الاتجاه المقابل، كان يتعين على قائد المقطورة التوقف حتى تمر السيارة بحذر، وإذا لم تكن هناك مساحة كافية، فيتعين على السيارة الأخرى الرجوع إلى مكان يكون فيه الطريق أكثر استقامة. استلزم كل هذا حدوث ضجة مستمرة من أصوات أبواق الشاحنات، التي كان من شأنها أن تجعلك تحسب أن سربًا كبيرًا من طيور ما قبل التاريخ — هل كانت الديناصورات المجنحة تصدر أصواتًا أم لا؟ — هبطت على منحدر جوادالوبي وكانت تركض على الطريق مصدرةً صيحاتٍ تشبه صوت أبواق الشاحنات.

لكن المعنى الحقيقي لهذه الأصوات هو: «الأب في انتظارنا! لقد وقَّع الأب على عقد الإيجار، وجارٍ بناء برج الحفر؛ لذا يجب أن يصل «الحفار» في الوقت المحدد. أفسحوا

الطريق!» ما كان الأب ليثق في السكك الحديدية لإنجاز مهمة عاجلة مثل هذه؛ فقد ينقلون أغراضك إلى خطوط فرعية، وتقضي أسبوعًا في إجراء المقابلات والمحادثات الهاتفية مع مسئولين أغبياء. لكن عندما تستأجر الشاحنات، تصبح تحت سيطرتك طوال مدة الإيجار؛ ولذا تصلك أغراضك مباشرةً. كان هناك تأمين لتغطية جميع الحوادث المحتملة، بما في ذلك تعويض أي رجل يقود سيارة فورد قد تتسبب في سقوطه من على الجبل.

وهكذا جاءت دزينة من الشاحنات القوية التي كانت تطلق أبواقها، وتشق طريقها ببطء صعودًا على المنحدر، بسرعة أقل بكثير من السرعة المحددة التي تبلغ خمسة عشر ميلًا في الساعة. أصدرت مبردات المحركات حفيفًا وتصاعد البخار منها، وكان عليها التوقف عند كل ميل أو نحو ذلك لتبريد المحركات. لكنها وصلت إلى القمة بسلام، وحينئذٍ بدأت الزحف ببطء إلى أسفل، وكان هناك رجل يسير بالمقدمة حاملًا رايةً حمراءَ لتحذير السيارات الأخرى، وتوجيهها إلى تجاويف آمنة في الطريق للانتظار حتى مرور الأسطول بأكمله. وبمجرد الخروج من المنحدر والسير على الطريق المستقيم، حيث تستطيع الشاحنات السير بسرعة كبيرة مثل باقي السيارات، علا صوت المحركات الشديدة البأس وكان المشهد رائعًا. وانبعث صوت الأبواق وكأنها تقول: «أفسحوا الطريق! الأب ينتظر!»

كان يجلس فوق أدوات الحفر شبابٌ صغارٌ يرتدون سراويل من الجينز الأزرق وقمصان كاكي، وهذا دليل قاطع على أن بئرهم الأخيرة لم تكن جافة، بل أنتجت القدر المطلوب منها من النفط، ذلك الكنز الذي لطخ ملابسهم. ومع ذلك كانت وجوههم نظيفة، وكانوا يستمتعون بالمنظر الطبيعي المشمس وعلى شفاههم ابتسامات مشرقة. صدحوا بالأغاني وشاركوا احتفالاتهم المرحة مع السيارات التي كانوا يمرون بجوارها، وأرسلوا القبلات للفتيات في منازل المزارع ومحطات الوقود، ومنصات بيع عصير البرتقال، وأكشاك «المأكولات الطيبة». استغرقت الرحلة يومين، لم يشعروا فيهما بأي قلق؛ فقد كانوا في عهدة الرجل الكبير، السيد روس، وكان هو من عليه أن يقلق. فبادئ ذي بدء، كان عليه أن يعطيهم أجورهم، ليلة كل سبت، وكانت هذه الأجور أعلى من أجور العمال الآخرين في المناطق المجاورة بمقدار دولار واحد في اليوم، علاوة على ذلك، كانوا يحصلون على هذه الأجور ليس فقط أثناء أعمال الحفر، ولكن أثناء جلوسهم فوق الشاحنات المحملة بالأدوات التي تشق طريقها عبر جنة من بساتين البرتقال بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة، وهم ينشدون أغاني عن الفتاة التي تنتظرهم في البلدة المتجهين إليها.

٢

كان الأب قد وقَّع العقد مع رجلٍ في منحدر الشمال، السيد بانكسايد، وهو سيد محترم يعرف بالضبط ماذا يريد؛ لذا لم يضيع وقت الأب. لم تكن الأرض قريبة من البئر المكتشفة حديثًا؛ ولذلك كان على الأب دفع سدس الأرباح فقط، بالإضافة إلى خمسة آلاف دولار مقابل الهكتارين ونصف الهكتار.

ذهب الأب وباني إلى مكاتب شركة صنسيت للأخشاب، وحظيا بمقابلة خاصة للغاية مع رئيس هذه الشركة. كان السيد أسكوت رجلًا محترمًا بدينًا، له وجنتان متوردتان، وكان ودودًا للغاية؛ عبثَ بشعر باني، وقدم للأب سيجارًا ملفوفًا في رقاقة ذهبية، وتحدث عن الطقس والإمكانات المرتقبة للحقل الجديد، لدرجة أنك كنت ستعتقد أنه والأب كانا صديقين منذ فترة طويلة. حتى بدأ الأب أخيرًا في الحديث عن الأعمال، وقال إنه كان قطعًا بحاجة إلى أن تُسلَّم الأخشاب لبناء برج الحفر في غضون ثلاثة أيام، حينئذٍ رفع السيد أسكوت يديه في يأس وأوضح أن هذا طلب يستحيل تحقيقه. فقد أصبحت جميع ساحات بيع الأخشاب فارغة؛ نظرًا للإقبال الشديد على طلب الأخشاب لبناء أبراج الحفر، وتراكمت الطلبات حتى وصلت إلى عشرين طلبًا في اليوم. لكن الأب قاطعه، إذ كان على دراية بكل ذلك، لكن هذه كانت حالة خاصة؛ فقد وقع للتو على عقد يتضمن غرامةً كبيرةً مودعة في البنك، وهو لا يفضل استخدام أبراج الحفر الفولاذية؛ لذا سيتعين على أصحاب ساحات الأخشاب مساعدته بالتأكيد، إلا إذا أرادوا أن يخسروا إلى الأبد إمكانية العمل معه. وأراد طلب نصف دزينة أخرى من أبراج الحفر، تُسلَّم خلال الأشهر الثلاثة المقبلة، وعلاوةً على ذلك، كان يتعين على السيد أسكوت أن يفهم أن هذه البئر التي كان الأب ينوي حفرها ستؤدي إلى مزيد من الاكتشافات؛ ومن ثم حدوث تطورات جديدة، وزيادة كبيرة في تجارة الأخشاب، ولذلك كانت هذه في الواقع خدمةً عامةً يضطلع بها الأب، وعليهم جميعًا التكاتف ومساعدته. إلى جانب ذلك، أراد الأب تشكيل نقابة صغيرة لإدارة جزء من هذه البئر الأولى، مقدمًا مجرد عرض بسيط لمجموعة صغيرة من الأشخاص الذين يغتنمون الفرص، ويقدِّرون الانخراط في الأعمال منذ اللحظة الأولى، وإن السيد أسكوت يعلم أن الأب رجل يفي بوعده ولا يخشى مواجهة التحديات.

قال السيد أسكوت إن هذا هو رأيه في الأب، وقال الأب إنه قد جاء إلى ذلك الحقل لتكريس معظم وقته له، وإنه سيحقق إنجازًا كبيرًا هنا، وأراد تشكيل هذه النقابة الصغيرة حتى يدعم أحدهما الآخر، فهكذا تسير الأمور في مجال النفط. أقر السيد أسكوت

أن التعاون، بالطبع، عنصر أساسي في الأعمال التجارية الحديثة، وظهرَت التجاعيد على جبهته، وهو يدقق في بعض الأوراق على مكتبه، ويُجري بعض الحسابات في دفتر، وسأل الأب عن الساعة التي يريد فيها تلك الأخشاب. أوضح الأب أن الرجلَ التابع له المسئول عن الأسمنت قد انتهى من نصف القبو والأساسات، وأن كبير النجَّارين كان يجمع طاقمًا من النجَّارين؛ حيث إنه لن يثق في أي مقاول لتولي هذه المسألة. وسيفي بالمراد إذا وصَّل السيد أسكوت العتبات الخشبية للموقع يوم الخميس ليلًا.

قال السيد أسكوت إنهم كانوا يواجهون الكثير من المشاكل بسبب الوضع السيئ للطرق حول حقل «بروسبكت هيل»، وقال الأب إنه على دراية بهذا الأمر، وإنه لا بد من فعل شيءٍ ما حيال ذلك بسرعة؛ لذلك سيذهب لمقابلة المشرف على الطرق بالمقاطعة. حينئذٍ وافق السيد أسكوت على تنفيذ المطلوب منه، ودعاه الأب لأن يأتي ويلقي نظرة على الحقل، وأن يسمح للأب بأن يُطلِعه على بعض الفرص الجيدة التي يتمتع بها الحقل، ثم تصافحا، وعبث السيد أسكوت بشعر باني مرةً أخرى، وكان على باني التظاهر بتقبُّله هذا الأمر أثناء عقد صفقات الأعمال.

هكذا جرت الأمور. وعندما ركبا سيارتهما وانطلقا، كرَّر الأب مقولته بأن الشحم أرخص من الفولاذ. كان الأب يقصد بذلك أنه يجب أن تدع الناس يحصلون على حصة من أرباحك، حتى يصبحوا جزءًا من «منظومتك»، وينفذون بسرعة كل ما تقوله. في غضون ذلك، وصلا إلى مكتب المشرف على الطرق، حيث أجريا مقابلة خاصة أخرى. لم تدل ملابس هذا الموظف المسئول، السيد بنزنجر — وهو رجلٌ قصير، حاد الذكاء، يرتدي نظارة على أنفه — أنه رجل ثري، وأدرك باني ذلك من الاختلاف الذي طرأ على نبرة صوت الأب. لم يعرض على الأب سيجارًا ملفوفًا في رقاقةٍ ذهبية ولم يتحدث عن أحوال الطقس؛ لذا انخرط الأب على الفور في مناقشة الأمر الذي جاء من أجله. كان قد جاء إلى مدينة بيتش سيتي لتنفيذ مشروع من شأنه توظيف مئات الرجال، وهذا يعني ملايين الدولارات للمجتمع المحلي؛ وهنا يظهر السؤال التالي: هل ستتعاون السلطات المسئولة عن الطرق لجعل هذا ممكنًا؟

أجاب السيد بنزنجر أن السلطات بالطبع تريد فعل كل شيء من أجل تحقيق تلك الغاية؛ فهذا هو الغرض من وجود أفرادها في وظيفتهم، لكن المشكلة كانت أن اكتشاف النفط في حقل «بروسبكت هيل» تسبب في عدم وجود أي أموال مخصصة للأعمال التي تتطلب سرعة في التنفيذ. قال الأب إن هذا قد يكون صحيحًا، لكن لا بد أن تكون هناك طريقةٌ ما للتعامل مع مثل هذا الموقف، فعلى الجميع أن يتعاونوا معًا.

تردد السيد بنزنجر وسأل السيد روس عما يريده بالضبط. ومن ثَمَّ حدد له الأب قطع الأرض التي كان يوشك على الحفر فيها، ورسم خريطة صغيرة توضح الشوارع التي تحتاج إلى تمهيد، والحفر التي تحتاج إلى أن تُملأ بالحجارة المسحوقة، حتى تتمكن عتباته الخشبية من الوصول مساء يوم الخميس. قال السيد بنزنجر إنه ربما يمكن ترتيب ذلك، وطلب من سكرتيره، الشخص الآخر الوحيد في الغرفة، أن يخرج ويطلب من السيد جونز الحضور، أدرك الأب معنى ذلك التصرف، وبمجرد أن ذهب السكرتير، أخرج من جيبه رزمةً صغيرة من النقود، مشيرًا إلى أن السيد بنزنجر سيُضطَر إلى العمل لوقتٍ إضافي في هذا الشأن، وسيواجه مشكلات ونفقاتٍ إضافية؛ لذا كان من العدل أن يعوضه الأب، وكان يأمل أن يفهم السيد بنزنجر أنه سيكون بينهما الكثير من التعاملات في المستقبل؛ فقد كان الأب يؤمن بالاعتناء بأصدقائه. وضع السيد بنزنجر النقود بهدوء في جيبه، وقال إنه يفهم الوضع تمامًا، وإن سلطات المقاطعة ترغب في تقديم كل مساعدةٍ ممكنة للرجال الذين يأتون لتنمية المجتمع المحلي وصناعاته، ويستطيع الأب أن يعوِّل على أن العمل في تلك الشوارع سيبدأ في الصباح.

عندئذٍ تصافحا، وخرج الأب وباني، وأخبر الأب باني أنه يجب ألَّا يذكُر تحت أي ظرف من الظروف ما رآه في ذلك المكتب؛ لأن كل موظفٍ حكومي لديه أعداء يحاولون الاستيلاء على وظيفته، وسيحاولون جعل النقود التي دفعَها الأب له أن تبدو كأنها رشوة. لكنها بالطبع لم تكن كذلك على الإطلاق؛ فوظيفة الرجل تتمثل في تصليح الطرق، وما قدَّمه له الأب كان مجرد إكراميةٍ بسيطة، على سبيل الشكر، إن جاز التعبير، فلم يكن من اللائق ألَّا يعطيه شيئًا؛ لأنه كان سيجني الكثير من المال، بينما كان يتعين على هؤلاء المساكين أن يعيشوا بمرتباتٍ ضئيلة للغاية. لا شك أن السيد بنزنجر كان لديه زوجة وأطفال في المنزل، وأنهم كانوا غارقين في الديون، وربما كانت زوجته مريضة، وليس لديهم وسيلة لدفع أجرة الطبيب. وكان على الرجل البقاء لوقتٍ متأخر في مكتبه، والخروج الليلة ودفع بعض الرجال لإنجاز هذه المهمة، وربما يوبِّخه رؤساؤه لتصرُّفه دون صلاحيات؛ فلا شك في أن الرؤساء كانوا يعملون لحساب بعض الشركات الكبرى، التي لم تكن تريد بناء طرق إلا لعقود الإيجار الخاصة بها. قال الأب إنه كان هناك العديد من المخططات السرية التي يجري تنفيذها؛ لذا عليك أن تكون يقظًا طوال الوقت. لا تتخيل أبدًا أنه سيُسمح لك بالدخول إلى مكانٍ جديد، واستخراج ثروةٍ تُقدَّر بعدة ملايين من الدولارات من الأرض، دون أن يحاول الجميع أخذها منك!

بدا كل هذا منطقيًّا، واستمع باني للأب وهو يؤكد على حكمته المفضلة: اعتنِ بأموالك! فقد يتعرض الأب لحادثٍ يومًا ما، حينئذٍ سيتولى باني على عاتقه مسئولية كل شيء؛ ولذلك عليه أن يدرك أن الأشخاص الذين يقابلهم قد يحاولون، بطرق ماكرة، الاستيلاء على أمواله. استحثَّ هذا الكلام باني على أن يُعلِّق، ليس معارضة لنقاشات والده، ولكن لمجرد وضع الأمور في نصابها الصحيح في عقله: «لكن هل تتذكر يا أبي ذلك الصبي الذي يدعى بول؟ بالتأكيد لم يكن يحاول الحصول على أموالنا؛ لأنني عرضتُ عليه بعضًا منها، ولم يقبلها، ورحل ولم أقابله مرةً أخرى.»

قال الأب: «نعم، أعلم، لكنه أخبرك أن عائلته بأكملها مجنونة، وأنه أيضًا مجنونٌ مثلهم ولكن بطريقةٍ مختلفة قليلًا، هذا كل ما في الأمر.»

٣

كانت هذه معضلةً أخلاقية أخذ باني يفكر فيها في نفسه: هل كان بول واتكينز مجنونًا، بسبب الطريقة التي كان يتصرَّف بها؟ وإن كان كذلك، فلا بد أن هناك نزعةً جنونية لدى باني أيضًا؛ لأنه كان معجبًا بشدة ببول، ولم يستطع التوقف عن التفكير فيه. وتكريمًا لحس بول الأخلاقي، قرَّر باني أنه لن يسمح لنفسه بالكذب، حتى في الأمور التافهة. كذلك، تسبَّب لقاء بول في إدراك باني المفاجئ للحياة الرغدة التي كان يعيشها. في صباح اليوم التالي مباشرةً، عندما فتح عينَيه، وهو يرقد على مرتبةٍ سميكةٍ وثيرة في سرير الفندق، بأغطيته الكتانية الثقيلة الشديدة النعومة والبياض، وبطانياته الدافئة، الناعمة مثل الصوف، والمخطَّطة بلون الفراولة الناضجة، خطر بباله على الفور ما يلي: كيف نام بول ليلته هذه، بلا مأوًى وبلا غطاء؟ هل استلقى على الأرض؟ لكن الجدة، إذا رأتك حتى جالسًا على الأرض في المساء، فستصرخ قائلةً: «ستُصاب بالبرد!» وبالأسفل، في غرفة الطعام الفسيحة بالفندق، أفسدَت فكرة عدم حصول بول على وجبة الإفطار طعم فاكهة الجريب فروت في الثلج المجروش، ورقائق الذرة والقشدة السميكة، واللحم المقدَّد والبيض، وكعك القمح مع شراب القيقب. قد يتضوَّر بول جوعًا؛ لأن كبرياءه يمنعه من تناول طعام لم يحصل عليه من ماله الخاص، وبالرغم من الحياة المريحة التي كان يعيشها باني، فقد شعر بانجذابٍ غريب نحو هذا الناسك الزاهد في الملذات المادية!

في صباح اليوم التالي للاجتماع بمنزل السيدة جرورتي، كان باني يجلس تحت شجرة نخيل أمام الفندق، على أمل أن يأتي بول. لكن بدلًا من ذلك، أتت السيدة جرورتي

وزوجها، وأحضرا معهما السيد دمبري، يتبعه السيد بروملي وزوجته، مع صديقَيهما المؤقتَين الخياطَين اليهوديَّين. كان وفدًا من «أصحاب قطع الأراضي المتوسطة»، جاء ليوضِّح أنهم واصلوا اجتماعهم حتى الساعة الواحدة صباحًا، وقرَّروا إلغاء عقدهم الجماعي، والحصول على عقودٍ فردية، والآن كان «أصحاب قطع الأراضي المتوسطة» يريدون من الأب أن يؤجر أراضيهم. أخبرهم باني أن الأب كان في حقل النفط مع الجيولوجي، وبإمكانهم انتظاره، لكن باني كان يعلم مدى إصرار الأب بشأن الآبار الفرعية المقابِلة؛ لذلك لم تكن هناك فرصة لقبوله عقود إيجارٍ فردية.

بعد ذلك، جلس باني على مقعد بجوار السيدة جرورتي، بغرض معرفة ما إذا كان بول قد أظهر نفسه لها. واعترف باني لها بأنه ارتكب خطأً فادحًا أمس؛ إذ لم يتمكن من أن يوصد باب المطبخ بعد النظر من الشرفة. واتباعًا لقراره بقول الحقيقة كاملة، أوضح أن شخصًا ما قد دخل مطبخها وأخذ بعض الطعام، لقد وعدَه باني بعدم الكشف عن هُويته، لكنه كان شخصًا جائعًا جدًّا، وشعر باني بالأسف حيال ذلك. وهنا جذب حقيبته الصغيرة ليدفع ثمن هذا الطعام إذا سمحَت له السيدة جرورتي بذلك.

تألق وجه السيدة جرورتي سرورًا لرقة مشاعر الطبقة الأرستقراطية؛ كانت قد أُعجِبَت بهذا الصبي الغريب، الذي كان في غاية الوسامة، بشفاه حمراء صغيرة مثل شفاه الفتيات، وفي الوقت ذاته كان يتمتع بأخلاق ماركيز مسن، أو ما شابه ذلك، حيث كانت السيدة جرورتي قد عرفت هؤلاء الأشخاص من الأفلام. رفضت ماله، وفكرت في الوقت ذاته في أنه شيء مؤسف للغاية أنها لم تصبح ثرية في وقت أبكر من حياتها، حتى يتمكن أطفالها من ارتداء مثل هذه الملابس الجميلة، وتعلم التعبير عن أنفسهم بكياسة عتيقة الطراز!

بعد يومين أو ثلاثة أيام، بينما كان باني يستكشف «حقل النفط»، ويشاهد المناظر المثيرة للاهتمام، تصادف مروره بمنزل آل جرورتي، ورأى ملكة النفط المستقبلية تطعم أرانبها. نادته قائلة: «أيها الصبي!» وعندما اقترب باني، قالت: «تلقيتُ رسالة من بول.»

صاح باني بحماسة: «أين هو؟»

«أُرسلت الرسالة من سان باولو. لكنه يطلب ألا نبحث عنه، لأنه يتنقل بسيارات الغرباء وسيرحل.»

«وكيف حاله؟»

«يقول إنه بخير، ولا داعي للقلق. أرسل لي الصبي المسكين طوابع بريد بقيمة ربع دولار، ليدفع ثمن الطعام الذي أخذه! ويقول إنه اكتسب هذا المال، فليباركه الرب!» سالت

الدموع على خدَّي السيدة الكبيرين، وتعلم باني درسًا صعبًا مفاده أن الطبيعة البشرية شيء معقد؛ فالسيدة السمينة نفسها يمكن أن تكون امرأة جشعة في لحظة، وفي اللحظة التالية أمًّا مكلومة.

جلس هذان الاثنان على قفص الأرانب، ودار بينهما حديث طيب. أخبر باني السيدة جرورتي بكل ما حدث، وشعر براحة بعدما تخلص من تأنيب ضميره. أخبرته السيدة جرورتي بدورها عن عائلة واتكينز، وكيف انتقلوا من أركنساس، حيث سافروا بالطريقة القديمة، بالعربة، عندما كانت السيدة جرورتي فتاة صغيرة، وقبل ذلك، عندما كانت رضيعة تُحمَل، انتقلت من جبال تينيسي. كان مسكنهم في بارادايس، في ريف سان إليدو، عبارة عن مزرعة مَعْز، بها ينبوع في وادٍ صخري صغير، لم يكن هناك سوى بضعة هكتارات صالحة للزراعة، وكان جزء منها يحتاج إلى ضخ مياه الري يدويًّا. كان ريفًا صحراويًّا، ولم تكن تدري كيف يمكنهم العيش دون عمل بول؛ لذا كانت ترسل لهم القليل من المال الذي حصلَت عليه من النفط، لكنها لم تكن تعرف ما إذا كان شقيقها آيبل — والد بول — سيقبل منها أي شيء؛ فقد كان مهووسًا بدينه.

سألها باني عما إذا كان دائمًا «يتدحرج على الأرض»، أجابته بالنفي؛ فقد كان فكرًا تبنَّاه قبل بضع سنوات فقط. أما السيدة جرورتي، فعندما تزوَّجَت من زوجها الحالي، قبل ثلاث سنوات، اطمأن قلبها للإيمان الحقيقي الذي لا يتغير عَبْر العصور؛ كان إيمانًا يبعث على الراحة، ويدعك وشأنك، دون أن يفرض عليك مفاهيمَ جديدةً مجنونةً أو يدعو إلى الانقسام إلى طوائف. كانت لديهم كنيسةٌ جميلةٌ في بيتش سيتي، وكان الأب باتريك ذا قلبٍ طيب وصوتٍ قويٍّ ورائع؛ حينئذٍ سألت باني عما إذا حضر يومًا قداسًا كاثوليكيًّا. ردَّ باني بالنفي؛ حينئذٍ كان من الممكن أن تعتبر السيدة جرورتي نفسها قد وجدَت شخصًا وسيمًا وثريًّا مستعدًّا لتغيير دينه، لولا أنها كانت في ذلك الوقت تتعرض لإغراءٍ شديد من قِبل قوى هذا العالم.

نعم، لقد أحضرها الشيطان إلى هناك، وجعلها تجلس فوق قفص الأرانب، وكان يريها جميع ملذات الحياة! وعلى الجانب الآخر من الشارع، عند رقم ٥٧٤٣ بجادة لوس روبلس، كانت نقابة كاوتش قد نصبت خيمةً كبيرة، وعلَّقَت عليها لافتاتٍ حمراء، وكانت السيارات تمُر طوال اليوم، وكان الناس يشترون «وحدات» بسعر عشرة دولارات للوحدة. وأوضحَت السيدة جرورتي أن جماعة مالكي «قِطَع الأراضي المتوسطة» لم تؤجِّر أراضيها بعد؛ عُرِضَت عليهم عروضٌ عديدة، أفضلُها من سليبر وويلكينز، وهنا سألَت باني عما

إذا كان قد سمع أي شيء عن هذَين الشخصين. وإذا كان الأب قد قرَّر حقًّا أن أفضل الاحتمالات للعثور على النفط يكمن في الجانب الشمالي. كانت السيدة جرورتي وزوجها يفكران في وضع نصيبهما في الأرباح، عندما يحصلان عليه، في بعض وحدات شركة يوريكا للبترول، التي كانت تَعِد بإجراء عمليات حفر سريعة في المنحدر الشمالي. وفجأةً وجد باني نفسه يتذكَّر تحذير الأب: «احذر من الأشخاص الذين يُحاوِلون استغلالك!»

٤

أرسل السيد بنزنجر شاحنتَين محملتَين بالمكسيكيين وأصلح الطرق، وأوفى السيد أسكوت بوعده وسلَّم الخشب اللازم لبناء برج الحفر، وجمع كبير النجارين لدى الأب أفراد طاقمه، وحفروا تجاويف مستطيلة في العتبات لتعشيقها ببعضها، وثقبوها، وثبتوها بالمسامير، وشيئًا فشيئًا وصل ارتفاع برج الحفر الشاهق إلى ١٢٢ قدمًا، حيث كان ينتصب مستقيمًا ومتينًا وصلبًا. كان هناك سلم، وبسطة في منتصفه، ومكان آخر للوقوف بالأعلى، كان كل شيء جميلًا ونظيفًا وجديدًا، وكان الأب يسمح لباني بالتسلق؛ للاستمتاع برؤية المنظر الرائع من فوق المنازل والأشجار، حتى مياه المحيط الهادي الزرقاء؛ يا إلهي، كان هذا رائعًا! ثم عند غروب الشمس، جاء أسطول الشاحنات، محدِثًا صوتًا مدويًا، ومغَبرًا وملطَّخًا من أثَر السفر، ولكنه كان مفعمًا بـ «الحيوية»، بالنظر إلى الجلَبة التي صنَعها، حيث أطلق أبواق الشاحنات تحيةً لجيه أرنولد روس وابنه. امتلأَت الحفرة على جانب الطريق بالصخور المسحوقة، مما جعل الطريق ممهدًا للقيادة نحو حقل النفط، وتوقفَت هناك اثنتا عشرة شاحنة في صفٍّ واحد.

كانت هناك مصابيحُ كهربائيةٌ ساطعة على برج الحفر، ورجال ينتظرون، وأكمام قمصانهم الكاكية مطوية. لقد ذهبوا إلى هناك بعزم وتصميم؛ لأنهم كانوا يعملون تحت إشراف «الرجل الكبير»، المسيطر على أجورهم ومصائرهم. لقد احترموا هذا «الرجل الكبير» لأنه كان يعرف عمله، ولا يمكن لأحد أن يخدعه. كما أنهم أحبوه؛ لأنه كان يتمتع بقدْرٍ معقول من اللطف بجانب صرامته؛ فقد كان بسيطًا ومتواضعًا، فعندما كانت الأعمال تتراكم عليه، كان بالإمكان رؤيته يأكل الفاصوليا ويحتسي القهوة على كرسي بجوارك، في أحد المطاعم التي تقدِّم الوجبات الرخيصة. لقد كان «رجلًا حقيقيًّا»، وكان يتمتع بالإضافة إلى ذلك بسحر رجلٍ غني. نعم، كان يملك «المال»، الكثير منه، ولكن لا يمكن مقارنة الساحر الذي يسحب الأرانب والشريط الطويل من كُمَّيه، بمن يمكنه توفير

عشراتٍ من أبراج الحفر، وأنابيبِ دعمٍ فولاذية بطول عدة أميال، وخزانات، وأساطيل من الشاحنات وطرق لتسير عليها.

كما أحبوا «الصبي»؛ لأنه كان متواضعًا مثل والده، وكان مرحًا ومهتمًّا بما تفعله، ويطرح أسئلةً منطقية ويتذكَّر إجاباتك. نعم، بإمكان طفلٍ كهذا تعلُّم المهنة ومواصلة مسيرة والده، وكان الرجل الكبير يُحسِن تعليمه كل شيء. كان يعرف جميع أفراد طاقم العمل بأسمائهم الأولى، وكان يضحك على مزاحهم، وكانت لديه بدلةٌ قديمةٌ ملطخة بالشحم يرتديها؛ لتأدية أي وظيفة يمكنه الاضطلاع بها.

لكن لم يكن هناك وقتٌ للمزاح الآن، كان وقت تحطيم الأرقام القياسية. كانت هناك كتلةٌ أسمنتيةٌ كبيرة مخصصة للمحرك، فوقها كتلةٌ خشبية لامتصاص الاهتزازات، وتراجعَت الشاحنة التي تحمل المحرك حتى توقفَت في المكان الصحيح، ووُضِعَت حواجز خلف الإطارات لضمان عدم تحركها، وفي لمح البصر، انزلق المحرك، على الألواح الخشبية المثبتة بإحكام، إلى مكانه وأصبح جاهزًا للعمل. في الوقت ذاته، جهَّز طاقمٌ آخر غلاية البخار الكبيرة. وكان هناك خزان من زيت الوقود، وبمجرد توصيل أنبوب التغذية، أصبحَت الغلاية جاهزة للعمل. في غضون ذلك، تراجعَت الشاحنة التالية وتوقفَت في المكان المخصَّص لها، وانزلقَت «معدات الرفع» على الألواح الخشبية، وعندما عاد باني في صباح اليوم التالي، وجد «أسطوانة كَبْل الرفع» الكبيرة مثبَّتة في مكانها، وكذلك كانت البكرة المتحركة مثبَّتةً أعلى برج الحفر، وكانوا يُفرغون الشاحنة التي تحمل «عمود الحفر». كانوا سيضعون سلسلة من الفولاذ حول ثلاثة من الأنابيب الثقيلة في وقتٍ واحد، ثم يوصلون السلسلة بخطافٍ فولاذي يتدلى من بكرة، ثم يبدأ المحرك في العمل محدثًا صوتًا عاليًا، حتى تصبح السلسلة والكَبْل الفولاذي مشدودَين بقوة، وينزلق الأنبوب من الشاحنة. كان طول كل أنبوب من هذه الأنابيب عشرين قدمًا، ووزنه تسعة عشر رطلًا لكل قدم؛ أي عندما يكون لديك بئر عمقها ميلٌ واحد، سيكون هناك خمسون طنًّا من الفولاذ، وكان على برج الحفر أن يحمل هذا الوزن، وعلى الكَبْلات الفولاذية رَفْعه، وعلى أسطوانة الكَبْل والمحرك تحمُّل الضغط. كان الناس يعبِّرون عن عدم رضاهم عن سعر البنزين، لكنهم لم يفكروا قطُّ في سعر عمود الحفر وأنابيب الدعم!

كان باني قد سمع كل هذه الأشياء مائة مرة من قبل، لكن الأب لم يتعب قَط من قولها. ولم يكن يشعُر بالرضا التام ما لم يكن الصبي بجانبه، ليتعلم كل ما يخص هذا المجال. ويجب ألا تخدع نفسك بفكرة أنه يمكنك تعيين خبراءَ للاهتمام بالأشياء، فكيف

يمكنك معرفة أن الرجل خبير في أمرٍ ما، ما لم تكن تتمتع بنفس القَدْر من الخبرة؟ فيومًا ما قد يموت رئيس عمالك، أو يأخذه منك رجلٌ آخر بمبلغ أكبر مما تعطيه له، حينئذٍ ماذا ستفعل؟ ولذا عليك أن تكون خبيرًا في عملك، كما يقول الأب!

كانت الآلة التي تضطلع بالدوران تُسمَّى «الطاولة الدوارة»، وكانت متصلة بالمحرك بسلسلة فولاذية، مثل ترس الدراجة المسنن بالضبط، إلا أن وصلات تلك السلسلة كانت بحجم قبضة يدك. كان بالطاولة الدوَّارة ثقب في المركز، يمُر من خلاله عمود الحفر، وكان هناك ثقبٌ مماثل في أرضية برج الحفر، وقريبًا سيكون هناك ثقب في الأرض! كان الثقب في الطاولة الدوَّارة مربعًا، وكان عمود الحفر العلوي، المعروف باسم «عمود كيلي»، مربعًا، ويتناسب مع هذا الثقب؛ حيث يمكنك إنزاله فيه، ولكن عليك أولًا إحكام ربط «الوصلة القارنة» و«المثقاب»، وهو الأداة التي كانت فعليًّا تحفر الأرض. بدءوا بـ «مثقابٍ قرصي» يتكون من قرصَين من الصلب يشبهان أطباق العشاء، موضوعَين متقابلَين، وأثناء دورانهما، كان وزن الأنبوب يتسبب في اختراقهما للأرض. إذا بدأتَ الحفر بـ «مثقاب» يبلغ قطره ثماني عشرة بوصة، فمع دورانه ستحصل على حفرة قطرها قدمان.

جاء وقت تركيب الأداة الأخيرة، وإحكام ربط المسمار الأخير، وأصبحَت أدوات الحفر جاهزة لرحلتها الطويلة في أحشاء الأرض. كانت لحظةً عظيمة، أقرب ما تكون إلى تدشين سفينة، أو تنصيب أول رئيس لجمهورية. اجتمع الأصدقاء والعمال من مناطق العمل المجاورة، وحشدٌ من المتفرجين. كان الطاقم يكافح لمدة ثلاثة أسابيع، وكان هذا هو هدفهم، والآن وقف عمال نوبة النهار ونوبة الليل، فخورين بما أنجزوه، ومتشوِّقين لما سيحدث مستقبلًا. كانت يد العامل المسئول عن تشغيل المحرِّك على الذراع وعينه على الأب، أومأ له الأب، فدفع الذراع، وبدأ المحرك في العمل، وأحدثَت التروس جلبةً مدوية، وارتطم المثقاب بالأرض مُصدرًا صوتًا يشبه كلمة spud (التي تعني «حفر» بالإنجليزية) أو على الأقل هذا ما تخيَّل الرجال سماعه؛ ولذلك كانوا يطلقون على العملية اسم «الحفر الأوَّلي». وغنى رئيس العمال أغنية «ليصعد الجميع للتوجه إلى الصين!» (أول أبورد فور تشاينا!)، وصافح كل مَن كانوا نظيفي الأيدي الأب، بما في ذلك السيد بانكسايد، الذي كانوا يحفرون أرضه، والسيدة بانكسايد وجميع أفراد عائلة بانكسايد. رافقوا الأب وباني إلى منزلهما، الذي كان في عقد الإيجار، وفتحوا زجاجة شمبانيا، وشربوا رشفةً صغيرة في صحة بئر روس-بانكسايد رقم ١، الذي وصل بالفعل إلى عمق ستِّ أقدام.

٥

كان الجو لطيفًا على الشاطئ في الصيف، أما عند نهر لوبوس فكان الجو شديد الحرارة؛ لذلك قرَّرَت العائلة أن تنتقل. لم يضيِّع الأب الكثير من الوقت في مثل هذه المسألة، وذهب إلى مكتب وكيل عقارات، وطلب أفضل منزلٍ مفروش في البلدة، وتوجَّه إلى منزلٍ يشبه القصر مُطلٍّ على المحيط، وألقى نظرةً عليه، وعاد إلى المكتب ووقع عقد إيجار لمدة ستة أشهر مقابل ألفين وخمسمائة دولار.

كان هذا المنزل مطليًّا من الخارج بجص موضوع على سلك ذي فتحاتٍ صغيرة، أو ما شابه ذلك؛ ومن الداخل، كان المنزل براقًا مثل بيت السيدة جرورتي، إلا أن التموجات كانت تشبه خشب الماهوجني وليس خشب البلوط. كان هناك بهوٌ كبير، وقاعة استقبال على أحد الجانبَين، وعلى الجانب الآخر غرفة طعام، مزوَّدة بتجهيزاتٍ عصريةٍ مدمَجة متقنة الصنع. وأضاف المالك إليها أثاثًا دون أي اعتبار للتكلفة أو الحقبة الزمنية، تضمَّن: أثاثًا فرنسيًّا مذهبًا بأرجلٍ طويلة ونحيفة، مكسوًّا بحرير عليه زهور، وأثاثًا من خشب الجوز الأسود الأمريكي من منتصف القرن، مزينًا بحلي على شكل زهور، وأثاثًا من خشب الساج الصيني الأسود، محفورًا عليه أشكال تنانين. وكانت هناك تماثيل لسيداتٍ عاريات، من الرخام المصقول بعناية، وكذلك تمثالٌ رخامي لكاهن يرتدي رداء رجال الدين وربطة عنقٍ رفيعة على شكل فراشة. كان الطابق العلوي يحتوي على ست غرف نوم، كل غرفةٍ منها مطلية بلونٍ مختلف اختارته سيدة من أفضل متجر في البلدة. ربما رأى بعض الناس أن المكان يفتقر إلى الطابع الأسري، لكن باني لم يفكِّر قط في شيء كهذا؛ فقد تعلم أن يكون سعيدًا في غرفة بفندق، مستعينًا بالبهو. فطوال حياته، بقَدْر ما يمكن أن يتذكَّر، كان البيت مكانًا يمكن استئجاره أو شراؤه باعتباره استثمارًا مستقبليًّا. ومثلما يقتل الهنود في ريف خليج هدسون أيلًا في فصل الشتاء، ويتنقَّلون حيث تتواجد الأيائل، كان الأب يبدأ في حفر بئر النفط، ثم ينتقل حيث تُوجد البئر.

جاء أولًا السيد إيتون، المدرس الخصوصي؛ فقد كان معتادًا على تلقي مكالمةٍ هاتفية لإعلامه بمكان جثة الأيل. كان يحزم حقيبتَي سفره وصندوق ثيابه ويستقل القطار أو الحافلة للذهاب إلى تلميذه. كان شابًّا لطيفًا إلى حدٍّ ما، وخجولًا للغاية، وله عينان زرقاوان شاحبتان، وجيوبٌ متدلية لأنه كان يضع الكتب فيها. وقد وُظِّف بشرط أن يراعي القيد الصريح الذي يتمثل في أن النفط أهم من التعلُّم؛ بعبارةٍ أخرى أنه كان عليه أن يدِّرس لتلميذه في الأوقات التي لم يكن الأب يفعل فيها ذلك. لم تكن لدى الأب رؤيةٌ واضحة

بشأن موضوع المعرفة المستقاة من الكتب؛ ففي بعض الأحيان كان يقول إن الأمر كله «هُراء»، ولكن في أحيانٍ أخرى كان يشيد بها بداعي الحرج. بالطبع؛ فقد كان «عامل نفط»، وكان على باني أن يكتسب من المعرفة أكثر منه، لكنه في الوقت ذاته كان يشعر بالغَيرة من تلك المعرفة، ويخشى من أنها قد تكون شيئًا لا يلقى استحسانه. كان محقًّا في هذا الشأن؛ لأن السيد إيتون أخبر باني بكل صراحة أن هناك أشياء في العالم أهم من النفط.

جاءت بعد ذلك سيارة العائلة الليموزين، تستقلها الجدة والعمة إيما، ويقودها رودولف، الذي كان يعمل سائقًا وبستانيًّا في آنٍ واحد، ويمكنه أن يرتدي معطفًا طويلًا ليصبح كبير الخدم في الحفلات. بجانبه على المقعد الأمامي ركب سينج، الطباخ الصيني، الذي كان يحظى بمكانةٍ كبيرة للغاية عند العائلة؛ ولذلك لم يتركوه يستقل حافلة أو قطارًا. أما نيلي، الخادمة، فكان من السهل استبدالها؛ لذا جاءت بمفردها. وجاءت الصناديق والأغراض المتنوعة على متن شاحنة، ومنها: دراجة باني وصندوق قبَّعات العمة إيما، وأعمال الجدة الفنية الثمينة.

كانت السيدة روس العجوز تبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا، وكانت في الأيام الخوالي، قبل اختراع السيارات والهواتف والآلات، تعيش حياة امرأةٍ مُزارِعة. كانت قد عانت معاناةً شديدةً من الفقر، وكوَّنَت أسرة، وشهدَت وفاة ابنتها أثناء المخاض، ووفاة ابنٍ لها من التيفوئيد أثناء الحرب الإسبانية، ووفاة ابنٍ آخر بسبب إدمان الخمر؛ والآن كان «جيم» هو كل ما تبقى لها، وقد أصبح ثريًّا في وقتٍ متأخر من حياته، وجعلها تشعر بالرفاهية في نهاية حياتها. وربما تُمضي وقتًا طويلًا في تخمين كيفية استفادتها من هذا الأمر. فجأةً، أعلنَت أنها ستصبح رسامة! كانت، على ما يبدو، تحتفظ بهذا الحُلم طيلة ستين عامًا، بينما كانت تغسل الأطباق، وتوبِّخ الأطفال، وتجفِّف المشمش والعنب.

لذا الآن، أينما سكنوا، تتخذ الجدة من أي غرفةٍ شاغرة «مرسمًا» لها. وقد تعلمَت على يد فنانٍ متجول كيفية التعامل مع الألوان الخام والألوان الزاهية. كان هذا الفنان قد رسم غروب الشمس في الصحراء وجبال كاليفورنيا وسواحلها الصخرية، لكن السيدة روس العجوز لم ترسم قَط أي شيءٍ كانت قد رأته من قبلُ. فقد كانت تهتم بالأشياء التي تنتمي للطبقة الأرستقراطية، مثل الحدائق والمروج والطرق الظليلة التي فيها سيدات يرتدين تنانيرَ مطوقة، ورجال نبلاء يرتدون سراويل ذات أرجلٍ واسعة. كان مقاس تحفتها الفنية ست أقدام في أربع أقدام، وكانت تُعلَّق دائمًا في غرفة طعام المنزل المستأجر، كانت

خلفية اللوحة منزلًا أنيقًا للغاية من طابقَين، وفي كل طابق شرفةٌ لها أعمدةٌ مزيَّنة بنقوش يمكنك رؤيتها بوضوح. في المقدمة، كان هناك ممَر عرباتٍ دائري، في منتصفه نافورة، يتناثر منها الماء بوضوحٍ تام. كانت تسير في هذا الممَر عربةٌ فيكتورية مكشوفة — أو ربما كانت عربة لاندو أو بروشة — يستقلها رجل وامرأة ويقودها حوذيٌّ زنجي. خلف المركبة كان يركض كلبٌ صغير، وصبي يلعب على المرج برفقة فتاة ترتدي تنورةً واسعة وتمسك طوقًا في يدها. وكان هناك أيضًا غزالٌ حديدي على المرج، وكان من المستحيل أن تسأم من النظر إلى هذه اللوحة؛ لأنك ستعثر دائمًا على شيءٍ جديد فيها، كان الأب يعرضها على الزوار ويقول: «أمي رسمت هذه اللوحة، أليست معجزةً أن تفعل ذلك امرأةٌ في الخامسة والسبعين من عمرها؟» وكان الوكلاء الذين يأتون بعروض إيجار، أو المحامون الذين لديهم أوراق تحتاج إلى مراجعة، أو رؤساء العمال الذين يمُرون لتلقي الأوامر، يفحصونها بعناية، ويتفقون دومًا مع رأي الأب.

كانت العمة إيما أرملةَ الابن الذي مات بسبب إدمان الخمر، وقد تمكَّنَت هي أيضًا من العيش برفاهية في وقتٍ متأخر من حياتها. لم يفرض الأب أي قيودٍ مادية على السيدتَين؛ لذا كانتا تحصِّلان كل ما تريدان، حتى إنهما كانتا تحرِّران شيكات من حسابه البنكي. وهكذا كانت العمة إيما تذهب إلى أرقى المحلات لشراء الثياب، وتخرج بها للتأكيد على مكانة عائلة روس في البلدة أو المدينة التي يسكنون فيها. كانت هناك نوادٍ للسيدات، وكانت العمة إيما تحضر فعالياتها، وتستمع إلى الشخصيات المؤثِّرة التي تنهض وتقول: «سيدتي الرئيسة»، وتقرأ أبحاثًا عن «العنصر الأنثوي في مسرحيات شكسبير»، و«القيمة العلاجية للتفاؤل»، و«ما يجب علينا فعله من أجل شبابنا». كانت السيدتان تقيمان حفلة شاي مرةً كل شهر، ودائمًا ما كان الأب ينشغل في عصر ذلك اليوم في «حفر» بئرٍ جديدة، أو «سد البئر بالأسمنت»، وهي مهمةٌ صعبة كان يتعيَّن عليه توليها بنفسه.

كانت العمة إيما تتردَّد بشكلٍ خاص على أنضاد متاجر بيع الأدوية؛ حيث يبيعون مستحضرات التجميل، وكانت تعرف بالاسم الشابات اللاتي كن يعملن هناك، كما أنها كانت تعرف أسماء أحدث المنتجات التي كانت تُعرض هناك، وكانت تنطق أسماء المنتجات الفرنسية بطريقةٍ أمريكيةٍ بسيطة دون الشعور بأي خجل، حيث كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع من خلالها البائعات الشابات معرفة ما تعنيه. كانت تسريحتها مغطاة بصفوف من الصناديق الصغيرة الرقيقة والجِرار والزجاجات، التي تحتوي على صبغات ومساحيق وعطور ومعاجين تجميل ومواد مُلمِّعة، وأشياءَ أخرى لم يعرف

بشأنها سواها. كانت إحدى ذكريات باني الأولى عن العمة إيما، وهي تجلس على كرسي، وتبدو مثل ببغاء ضخم، مُسرَّج. فقد كانت لم تفرغ بعدُ من ارتداء ملابسها بالكامل، ولم تلتفِت إلى وجوده؛ لأنه كان صغيرًا جدًّا؛ لذلك لاحَظَ كيف كانت الحبال والأربطة تلتف حول جسدها مثل الدرع؛ حيث كانت ترتدي مشداتٍ ضيقة، ووسادتَين واقيتَين تمنعان ظهور العرق على الملابس، ورباطَين جانبيَّين لتثبيت الجوربَين، وحذاءً طويلًا مربوطًا بإحكام. كانت تجلس منتصبةً وفي منتهى الجدية، حيث كانت تضع المساحيق على خدَّيها وحاجبَيها، وتربِّت على بشرتها بقطعٍ قطنيةٍ صغيرةٍ مخضَّبة بمسحوقٍ ورديٍّ وأبيض، وفي الوقت ذاته تُخبر باني عن زوجها، المتوفَّى منذ سنواتٍ عديدة. فقد كان يتمتع بالكثير من الفضائل، بغَض النظر عن عيبه الفاجع الوحيد، وكان طيب القلب، وفي غاية اللطف والكرم، واستطردَت العمة إيما كلامها قائلة: «نعم، نعم، لقد كان رجلًا طيبًا، أتساءل أين هو الآن.» بعد ذلك، ربَّتَت على وجهها، لتمسح الدموع عن خدَّيها ولتجعلهما ورديَّين مرةً أخرى!

٦

بعيدًا في باطن الأرض، أسفل بئر روس-بانكسايد رقم ١، كانت تدور كتلةٌ كبيرة من الفولاذ. السطح السفلي لها مزود بأسنان فولاذية غير حادة، مثل مِبْشرة جوزة الطيب، ويستقر فوقها «عمود الحفر»، وهو أنبوبٌ فولاذي يبلغ طوله بضعة آلافٍ من الأقدام، يضغط عليه عشرون طنًّا؛ ولذلك عندما يدور، يسحق الصخور الصلبة، ليشُق طريقه عبرها. كان يعمل وسط طينٍ رقيقٍ سائل، يُدفَع لأسفل عبر مركز الأنبوب المجوف، ثم يصعد مرةً أخرى بين السطح الخارجي للأنبوب والأرض. كان الهدف من الطين السائل تحقيق ثلاثة أغراض؛ منع سخونة المثقاب وعمود الحفر، ونقل الصخور المسحوقة، وعند ظهوره على الجزء الخارجي من عمود الحفر، يُكدَّس على جدران الحفرة، ويتحول إلى جصٍّ للحفاظ على صلابة الجدران، حتى لا تندفع نحو ساق الحفر. في الأعلى فوق سطح الأرض، كانت هناك «حفرة تجميع» للطين والماء، وماكينة للحفاظ على الخليط، وكانت هناك «مضخَّات للوحل»، تُصدِر ضجة وتنفث، وتدفع الطين داخل العمود تحت ضغط يبلغ ٢٥٠ رطلًا لكل بوصةٍ مربعة. لطالما كان الحفر عملًا قذرًا؛ إذ يسبح المرء في طينٍ رماديٍّ باهت حتى تمام حفر البئر، وبعد ذلك ينزلق في النفط.

وكان أيضًا عملًا باهظ التكلفة. فعليك أن تعلم أن تدوير تلك الأنابيب الفولاذية التي يبلغ وزنها عشرين طنًّا يتطلب قوةً حقيقية، حيث تصبح أثقل كل يوم نتيجةً لزيادة طولها. وعندما كان المحرك البخاري الكبير يبدأ في سحب السلسلة، وتبدأ التروس الفولاذية في إحداث ضجة، كان باني يقف ويستمع بسرور. وكان من شأن عامل الرافعة أن يقول: «يا له من محرِّك! إن قوَّته تبلغ خمسين حصانًا»، ويمكنك تخيل خمسين حصانًا مربوطة بطاولةٍ دوارةٍ قديمة الطراز مزودةٍ بعمود، مثل تلك التي استخدمها أسلافنا لسحب الماء من البئر، أو لتشغيل آلةِ دراسٍ بدائية.

أجل، كان حفر بئر نفط هنا في كاليفورنيا يتكلف مالًا؛ فالأمر لم يكن مثل الحُفر السطحية الصغيرة في الشرق؛ حيث لا تستخدِم في الحفر سوى مجموعةٍ من أدواتك. لكن الوضع مختلف هنا؛ فعليك أن تكون مستعدًّا للحفر بعمق ستة أو سبعة آلاف قدم، مما كان يعني توفير وصلاتِ أنابيبَ يتراوح عددها بين ثلاثمائة وثلاثمائة وخمسين وصلة، وكذلك توفير أنابيب دعم للبئر؛ لأنك لا تستطيع ترك هذه الحفرة طويلًا دون حماية. كانت هناك طبقات من الرمل الناعم يتدفق خلالها الماء، وعند تجاوز هذه الطبقات، سيتعيَّن عليك إنزال أسطوانة من الفولاذ أو الحديد المطاوع، تشبه مدخنةَ موقدٍ طويلة وكبيرة، سيتعين عليك إنزال وصلات الأنابيب واحدة تلو الأخرى، وتثبيتها معًا بإحكام، لمنع تسرُّب الماء، وعند الانتهاء من وضع أنبوب الدعم في الأسمنت، يمكنك بدء الحفر بمثقاب صغير، بقطر أربع عشرة بوصة على سبيل المثال، تاركًا أنبوب الدعم العلوي مستقرًّا بثبات على ما يشبه الرف. ومع استمرار الحفر، سيكون عليك تصغير حجم المثقاب شيئًا فشيئًا، حتى يتقلص حجم الحفرة ليصل إلى خمس أو ست بوصات عند الوصول إلى الرمال النفطية. وإذا كنتَ رجلًا حذرًا، مثل الأب، فستمدُّ كل مجموعة من أنابيب الدعم حتى أرضية برج الحفر، ليصبح لديك أربعُ مجموعاتٍ من أنابيب الحفر في الجزء العلوي من الحفرة، واحدةً داخل الأخرى.

ظل المحرك يعمل ليلًا ونهارًا دون انقطاع، ويسحب السلسلة الكبيرة، وظلت الطاولة الدوَّارة تلُف دون توقف، وشَقَّ المثقاب طريقه في الصخور. ولذلك كان لا بد من وجود نوبتَي عمل، مدة كلٍّ منهما اثنتا عشرةَ ساعة، وبسبب اندفاع العمال المفاجئ للعمل، تشاركوا الأسرَّة بسبب قلة عدد أماكن المعيشة. وكان لا بد من توفُّر طاقم للعمل في الموقع طوال الوقت لمتابعة أعمال الحفر ومراقبتها. فلا بد من إمداد المحرك بالكثير من الماء والوقود والزيت، ولا بد من مراقبة أداء المضخَّة، ودوران الطين السائل، وتناثُر الرذاذ من

ماكينة الخلط، والمعدَّل الذي يَحفِر به المثقاب. كان من الممكن وقوع أخطاء في عددٍ لا حصر له من الأشياء، وكانت التكلفة المادية لهذه الأخطاء متفاوتة. وكان من المحتمل أن يستيقظ الأب في أي ساعة من الليل ليعطي أوامر عَبْر الهاتف، أو ربما يرتدي ملابسه على عَجل ويقود سيارته نحو حقل النفط. وفي صباح اليوم التالي، كان من شأنه أن يخبر باني عن الأمر أثناء تناول الإفطار؛ قال له: «إن ذلك المدعو دان روسيجر، رئيس عمال النوبة المسائية، شخصٌ عنيد للغاية؛ إنه يعمل ببطءٍ شديد، وعند التعبير عن انزعاجي، قال: «حسنًا، إذا كنتَ تريد أن ينكسر أنبوبُ الحفر.»» وكان الأب قد ردَّ بقوله: «لا يهمُّني أن ينكسر أنبوب الحفر، أريد منك تسريعَ عملية الحفر.» وبالتأكيد، انكسر أنبوب الحفر على الفور! أقسم الأب أن دان فعل ذلك عن قصد؛ فقد كان هناك أناسٌ يتمتعون بالقَدْر الكافي من اللؤم لفعل ذلك، وبالطبع كل ما كان عليه فعله هو زيادة سرعة المحرك.

على أي حال، انكسر أنبوب الحفر، وهذا يعني إخراج كل بوصة من الأنبوب البالغ طوله ألفي قدم. كان لا بد من سحب الأنبوب وتفكيكه إلى أربع وصلاتٍ في المرة الواحدة، يُطلَق على هذه العملية اسم «التفكيك»، وتوضع كل مجموعة من الوصلات الأربع، التي يُطلق عليها اسم «المنصة»، على برج الحفر في وضعٍ عمودي، ثم يبدأ العمل المرهق. فلا يمكن تحديد مكان الكسر حتى الوصول إليه، حينئذٍ تُفكَّك القطعة المكسورة، ويُلقى بها بعيدًا، وتبدأ المهمة الحقيقية، ألا وهي «اصطياد» ما تبقى من عمود الحفر في الحفرة. ولتنفيذ هذه المهمة، كانت هناك «أداة التقاط قابضة» كبيرة وثقيلة، تشبه مِلْقط الثلج، مزودة بكَبْل لإنزالها في الأنبوب حتى تمسك بإحدى الوصلات عند سحبها لأعلى. لكن ربما تحصل على القطعة المفقودة، وربما لا تنجح في ذلك؛ لذا عليك قضاء الكثير من الوقت في أرجَحَة أداة الالتقاط القابضة لأعلى ولأسفل حتى تعلق بشيء، وتُخرِج ما تبقى من عمود الحفر! ثم تفك القطعة المكسورة، وتضع مكانها قطعة سليمة، وتعيد كل شيء إلى الحفرة، منصة تلو الأخرى، حتى تصبح جاهزًا للبدء مرة أخرى. لكن هذه المرة ستعمل بالمعدل الذي يراه دان روسيجر آمنًا، ولن تتذمر من أدائه حتى لا ينكسر أنبوب الحفر مجددًا.

في تلك الأثناء، كان الأب يقضي يومه في مكتبه الصغير في منطقة الأعمال بالبلدة. كان يعمل لديه كاتب ومحاسب، وكان يحتفظ بجميع سجلات آباره المختلفة. وكان يتردد عليه أشخاص يريدون أن يعرضوا عليه عقود إيجار جديدة، وباعة شباب محتالون ليعرضوا عليه أداة جديدة رائعة تشبه «موسع الآبار»، أو لإقناعه بأن أنابيب الدعم المصنوعة من

الحديد المطاوع تدوم لمدة أطول من تلك المصنوعة من فولاذ الزهر، أو ليشرحوا له نموذج المثقاب الجديد الذي كان يسجل أرقامًا قياسية مدهشة في حقل بالومار. كان الأب يقابلهم جميعًا، لاعتقاده أنهم قد يكون لديهم «عرض جيد». ولكن وا أسفاه على الشاب الذي يخطئ في حساب الأرقام؛ فالأب كان يحتفظ بنسخ من «سجلات» جميع آباره، وبإمكانه سحب الدفتر ليوضح للشاب المحرج ما فعله بالتفصيل في نهر لوبوس، باستخدام مثقاب ستابس رقم سبعة الذي يشبه ذيل السمكة.

بعد ذلك يأتي ساعي البريد، جالبًا تقارير من جميع الآبار، وبعدها يملي الأب على كاتبه الرسائل والبرقيات. أو ربما يرن الهاتف وتأتي مكالمةٌ هاتفية للسيد روس من منطقةٍ بعيدة، ويعود الأب إلى المنزل لتناول الغداء وهو يستشيط غضبًا؛ فهناك أنبوبٌ سقط على ذلك الرجل الذي يُدعى إمبي في موقع أنتيلوب، مما أدى إلى حدوث كسر في ساقه؛ ذلك الشاب صاحب الشارب الأسود، هل تتذكَّره؟ تذكَّره باني وقال نعم ذلك الرجل الذي صاح الأب في وجهه. قال الأب: «لقد فصلتُه من العمل، ولكني شعرتُ بعد ذلك بالأسف على زوجته وأولاده؛ ولذلك أعدتُه. لقد وجدتُ ذلك الرجل جاثيًا على ركبتَيه ورأسه عالق بين السلسلة وبكرة السحب، وهو يعلم أنه لا يُوجد لدينا صمام صرف في هذا المحرك! وقال إنه كان يُحاوِل إخراج قطعة من الحبل وعلقَت أصابعه هناك! فما الفائدة من محاولة فعل أي شيءٍ لأشخاص لا يتمتعون بالمنطق السليم الكافي للحفاظ على أصابعهم، فضلًا عن رءوسهم؟ يا إلهي، إنني حتى لا أعلم كيف يعيشون طويلًا حتى تنبُت لهم شواربُ سوداء في وجوههم!» ثم يهتاج الأب على إثر مناقشة موضوعه المُفضَّل، وهو تكاسل الطبقة العاملة التي كان عليه توظيفها. وبالطبع كان لديه هدف من هذه المناقشة؛ فالحفر عملٌ خطر حتى في أحسن الظروف؛ لذا يجب على باني توخي الحذر في أثناء جولاته الاستكشافية أسفل برج الحفر.

عندئذٍ جاءت برقية من نهر لوبوس تعلن عن تعطُّل الحفر في البئر رقم اثنتَين. فقد فقدوا أولًا مجموعة من الأدوات، وبعد ذلك، أثناء تعليق حبل لاصطياد الأدوات من الحفرة، أسقط أحد العمال عتلةً مصنوعة من الفولاذ في الحفرة! كانوا على عمق أربعة آلاف قدم، وتُعتبَر عملية «اصطياد» الأدوات العالقة مهمةً مكلفة على ذلك العمق! بدا أن تلك البئر منحوسة؛ فقد «علقَت» الأدوات ثلاث مرات؛ ولذا كانوا متخلفين ستة أسابيع عن جدولهم الزمني. شعر الأب بالقلق، وكان يتصل بعمال البئر هاتفيًّا كل بضع ساعات في اليوم، لكن لم يُجدِ أي شيءٍ نفعًا؛ فقد حاولوا تجربة أدواتٍ مختلفة، واتصل بهم الأب

ليُجرِّبوا أدواتٍ أخرى، لكن دون جَدْوى. فقد انهارت البئر على الأدوات العالقة، وكان لا بد من تنظيف الحُطام واستكمال مهمة اصطياد الأدوات العالقة، وقد تكرَّرَت هذه العملية أكثر من مرة. وبالفعل تمكَّنوا من التقاط الأدوات وإخراجها باستخدام وصلة خلخلة، لكن العتلة كانت لا تزال بالبئر، دون أن تتزحزح من مكانها.

في الليلة الثالثة، قال الأب إنه يظن أن عليه الذهاب إلى نهر لوبوس؛ فقد حان الوقت لوضع أنبوبِ دعمٍ جديد على أي حال، وكان يودُّ الإشراف على هؤلاء الرجال المسئولين عن الأسمنت. قفز باني من مكانه وصاح قائلًا: «خذني معك يا أبي!» قال الأب: «بالتأكيد!» علَّقَت الجدة تعليقها المعتاد عن أن هذا سيتسبَّب في تدهور تعليم باني، وردَّ الأب عليها ردَّه المعتاد بأن باني أمامه حياته بأكملها ليتعلم الشعر والتاريخ، لكن في الوقت الحاضر سينتهز فرصة وجود أبيه ويتعلم منه كل ما يخص النفط. حاولَت العمة إيما حث السيد إيتون على قول شيء للدفاع عن الشعر والتاريخ، لكن المدرس الخصوصي التزم الصمت الحذِر؛ فقد كان يعلم من يتولى زمام الأمور المالية في هذه العائلة! فهم باني أن السيد إيتون لم يكن لديه مانع؛ فقد كان يُعِد أطروحة لنيل درجة الماجستير، وكان يستمتع بقضاء وقت فراغه في إحصاء المقاطع الأخيرة المخفَّفة، في مسرحياتِ بعض كتَّاب فترة ما قبل الحقبة الإليزابيثية.

٧

انطلقا مرةً أخرى إلى الحقل القديم، وتذكَّر باني جميع مغامرات الرحلة الأخيرة، والمكان الذي تناولا فيه الغداء، وما قالته النادلة، والمكان الذي توقفا فيه للتزود بالوقود، وما قاله الرجل، والمكان الذي صادفا فيه «شرطي السرعة». كان الأمر أشبه بالصيد — صيد الأسماك الحقيقية وليس صيد الأدوات العالقة في آبار النفط — فأنت تتذكر المكان الذي اصطدت فيه السمكة الكبيرة، وتتوقع اصطياد واحدةٍ أخرى في المكان ذاته. لكن كان الأب يقول إن السمكة الكبيرة دائمًا تظهر في مكانٍ جديد، وحدث الأمر ذاته مع «شرطي السرعة». فقد لمحهما شرطي خارج مدينة بيتش سيتي، وهما يمُران بكمين بسرعة سبعة وأربعين ميلًا، ابتسم الأب ابتسامةً عريضة ومازح الشرطي قائلًا إنه سعيد أنه لم يكن يسير بسرعة كبيرة.

وصلا إلى نهر لوبوس مساء ذلك اليوم، وهناك كانت عملية اصطياد الأجسام العالقة قيد التنفيذ داخل برج الحفر؛ حيث تُربط منصات الأنبوب معًا وتُنزَّل داخل حفرة البئر

مع وضع نوع من أدوات الالتقاط في نهايتها، ثم تُسحب المنصات، التي وصل عددها إلى خمسين أو ستين منصة، لأعلى وتُفكك منصة تلو الأخرى، حتى تصل أخيرًا إلى المنصة السفلية لتكتشف أنك لم تعثر على «الجسم العالق»!

أبدى الأب رأيه بنبرة أجبرت الجميع على الإنصات إليه. إذا لم يكن بوسع الرجال الاهتمام بسلامتهم الشخصية، فلا شك أنه من غير الممكن أن يأمل في اهتمامهم بممتلكاته. وقفوا هناك، وكأنهم مجموعة من التلاميذ يُوبَّخون على أفعالهم، مع أن «العامل» الذي كان يقع عليه اللوم بالكامل كان بالطبع قد طُرد منذ وقتٍ طويل.

كان هناك مندوب مبيعات من أحد متاجر الإمدادات يروج لجهاز يحمل علامة تجارية، وكان يؤكد على نجاح الجهاز في جلب الجسم العالق من أول محاولة؛ لذلك جربوا الجهاز، ولكنه علق في الحفرة وتركوه هناك! من الواضح أنه كان هناك جيب بالأسفل، وأن العتلة كانت محشورة بالعرض؛ لذلك قال الأب إن عليهم استخدام كمية صغيرة من الديناميت. هل سمعت من قبل صوت انفجار يقع على عمق أربعة آلاف قدم تحت الأرض؟ كانت هذه هي الطريقة التي حرروا بها العتلة، ثم بدَءوا في مهمة التنظيف، وأعقب ذلك مزيدٌ من الحفر، ووضع أنابيب الدعم لتغطية المكان المتضرر في الحفرة.

وهكذا، يومًا بعد يوم، كان باني يتلقى دروسًا في التنقيب عن النفط. وكان يتجول في الحقل مع الأب والجيولوجي وكبير الحفارين، بينما كانوا يحددون مواقع الآبار المستقبلية، وأخذ الأب ظرفًا وقلم رصاص، وشرح لباني السبب وراء حفر الآبار في أربع زوايا تشكل مُعينًا، وليس مربعًا. يمكنك تجربة ذلك بنفسك، برسم دائرة حول كل بئر، للإشارة إلى المنطقة التي يتم تصريف النفط منها، سترى أن شكل المعين يغطي الأرض بأقل تداخل. فعندما تتداخل الآبار، هذا يعني أنك تحفر بئرين للحصول على برميل النفط ذاته، ولن يفعل ذلك سوى شخص أخرق.

عادا إلى بيتش سيتي، ووجدا أن بيرتي قد عادت إلى البيت. كانت بيرتي أخت باني، وكانت تكبره بعامَين، وكانت تزور آل وودبريدج رايلي العصريين بشدة، في الشمال. حاول باني أن يخبرها عن مهمة اصطياد الأجسام العالقة في الآبار، وكيف كانت الأمور تسير في نهر لوبوس، لكنها كانت فظةً وسيئة الطباع؛ ووصفته بأنه «قزم النفط الصغير»، وقالت إن أظافر أصابعه القذرة تعطي مؤشرًا واضحًا على أنه يعمل في مجال النفط. كان يبدو أن بيرتي صارت تخجل من النفط، وكان هذا شيئًا جديدًا؛ لأنها قديمًا كانت صديقةً مقربة، مهتمة بالعمل، وتتجادل مع باني وتعطيه الأوامر مثلما تفعل أي أختٍ كبيرة. لم

يستطع باني استيعاب الأمر، لكنه أدرك تدريجيًّا أن هذا كان جزءًا من التعليم العصري الذي كانت بيرتي تحصل عليه في مدرسة ميس كاسل.

كانت العمة إيما هي الملومة على هذا الأمر. إذ كانت قد منحَت جيم الحق في قصر تدريب باني على جني الأموال، لكن بيرتي على الأقل يجب أن تكون شابةً راقية؛ مما يعني أنها يجب أن تتعلم كيفية إنفاق الأموال التي كان سيجنيها الأب وباني. لذا حصلَت العمة إيما على اسم أغلى مدرسةٍ للشابات المبذرات، ومنذ ذلك الوقت لم ترَ العائلة بيرتي كثيرًا؛ فقد كانت تذهب بعد المدرسة لزيارة أصدقائها الأغنياء الجدد. لم تستطع إحضارهم إلى منزلها؛ حيث لم يكن هناك كبير خدم حقيقي، وأوضحَت أن رودولف «عامل مزرعة». كانت قد تعلَّمت بعض الكلمات السوقية الجديدة؛ فإذا لم يعجبها كلامك، فستخبرك أنك «مليء بالهراء»، وكما تعلم لم يعُد أحد يستخدم هذا المصطلح الذي عفا عليه الزمن. كانت تدور حول نفسها وتتباهى بملابسها الداخلية الغالية الثمن، المزودة بشرائط بنفسجية اللون، وكانت تضحك بابتهاج وتقول: «يا لي من شابة مفعمة بالطاقة»، وعبارات أخرى كانت تجعل الجدة تحدق فيها والأب يبتسم ابتسامة عريضة. وكانت تنزعج من طريقة تحدُّث والدها، وتقول له: «أبي، أرجوك لا تتحدث بهذه اللهجة!» حينئذٍ يبتسم الأب مرةً أخرى، ويرد عليها قائلًا: «هذه هي الطريقة التي أتحدث بها منذ تسعة وخمسين عامًا.» ومع ذلك، بدأ يحسِّن لهجته؛ فهكذا تتقدم الحضارات.

تكرَّمَت بيرتي بزيارة الحقل لرؤية أبراج الحفر الجديدة التي كانت تُبنى. وذهبا بعد ذلك في نزهة على الأقدام، وقابلا السيدة جرورتي، وهي تخرج من سيارتها الفورد القديمة أمام بيتها. كان باني سعيدًا ببراءة لرؤيتها، وأَصَرَّ على تعريفها على بيرتي، التي عاملتها بفتور، وعندما تابعا سيرهما، وبخت بيرتي باني على ذوقه السوقي البشع؛ فبإمكانه التعرف على كل أنواع الرعاع إذا أراد، لكن بالتأكيد يجب عليه ألا يجعل أخته تصافحهم! لم يستطع باني فهم وجهة نظرها؛ فهو لم يوفق قَط، طوال حياته، في فهم كيف يمكن ألا يهتم الناس بالآخرين.

أخبر بيرتي عن بول، وكم كان فتًى رائعًا، لكن بيرتي قالت بالضبط ما قاله الأب، وهو أن بول «مجنون». والأكثر من ذلك أنها شعرَت بالغضب، وأعربَت عن رأيها وهو أن بول «فتًى بغيض»، وكانت سعيدة أن باني لم يتمكن من العثور عليه مجددًا. كان هذا هو الموقف الذي ستبديه بيرتي نحو بول طوال حياته، وقد عبَّرَت عن هذا الموقف منذ اللحظة الأولى، وكان باني المسكين في حَيرة تامة. لكن في الحقيقة، لم يكن من المعقول

توقع إعجاب بيرتي، التي كانت تذهب إلى المدرسة لكي تتعلم حب المال — لتستخدم بعد ذلك حَدْسها في معرفة مقدار المال الذي يملكه الشخص بالضبط، وتقيِّمه على هذا الأساس — برجل أصر على أن المرء لا يستحق المال إلا إذا كان قد جناه بكَدِّه!

كانت بيرتي تتصرف حسب طبيعتها، وكان باني كذلك. جعله غضب أخته يضع بول في مكانة مرموقة في خياله، لم يحتلها أحدٌ من قبلُ؛ فهو شخصٌ غريب، شبه أسطوري، الوحيد الذي أُتيحت له فرصة الحصول على بعض من أموال الأب، لكنه رفض! وبين الحين والآخر، كان باني يمر على منزل السيدة جرورتي ويجلس على قفص الأرانب، ويسألها عن أخبار ابن أخيها. وذات مرة عرضَت عليه السيدة السمينة رسالةً مكتوبة بخط سيئ من روث واتكينز — أخت بول، التي كان يحبها — مفادها أن العائلة لم تتلقَّ أي أخبارٍ جديدة عن بول، بالإضافة إلى أنهم كانوا يواجهون صعوبة في البقاء على قيد الحياة، وكان عليهم ذبح عنزة بين الحين والآخر، وقالت السيدة جرورتي إن ذلك كان يقضي حرفيًّا على رأس مالهم. فيما بعد كانت هناك رسالةٌ أخرى من روث مفادُها أن بول أرسل إليها رسالة يقول فيها إنه في الشمال، وما زال يتنقل؛ ولذلك لا يمكن لأحد العثور عليه، وأرسل ورقةً نقدية بقيمة خمسة دولارات في رسالة مسجلة بعلم الوصول، وحدد أن تُصرف على الطعام وليس الإرساليات. وقال بول إنه لم يكن من السهل ادخار المال، عندما لا تحصل إلا على أجر صبي، ومرةً أخرى شعر باني بحالة من الذهول لكنه لم يفصح عنها. وبلغ به الأمر أن أقدم على تصرفٍ غريب سرًّا؛ حيث أخذ ورقةً نقدية بقيمة خمسة دولارات، وطواها بعناية في ورقة، ووضعها في مظروفٍ عادي وختمه، وعنونه إلى «الآنسة روث واتكينز، بارادايس، كاليفورنيا» ووضعه في صندوق بريد.

كانت السيدة جرورتي تسعد دائمًا برؤية باني، وللأسف، كان باني يعرف السبب؛ إذ أرادت استغلاله من أجل بئر نفط! كان يعطيها بأدب قَدرًا معينًا من المعلومات. وسأل الأب عن سليبر وويلكينز، فقال إنهما محتالان، ونقل باني هذه المعلومة للسيدة جرورتي، ولكن «أصحاب قطع الأراضي المتوسطة» مضوا قدمًا ووَقَّعوا عقدًا مع هذَين الرجلَين، وسرعان ما تمنوا لو لم يفعلوا ذلك. فقد شرع سليبر وويلكينز في بيع عقد الإيجار لإحدى النقابات؛ ولذا نُصبَت خيمة على قطعة الأرض بجوار منزل جرورتي؛ حيث كان هناك رجلٌ صاخب يوزِّع وجباتِ غداءٍ مجانية للحشود المتجمهرة في شوارع بيتش سيتي. كانت النقابة تُدعى «نقابة بونانزا رقم ١» وعلى الفور بنَوا برج حفر، وبدءوا الحفر كما ينبغي، وحفَروا حتى عمقِ مائةِ قدمٍ أو نحو ذلك، وكانت السيدة جرورتي في غاية

السعادة، وأنفقَت نصيبَها من الأرباح الذي كان يبلغ ألف دولار على شراء مائة وحدة من نقابةٍ أخرى تُدعى «الجمعية التعاونية رقم ٣». سحقَت الحشودُ حديقتَها، لكنها لم تهتم بذلك؛ فقد كانت الشركة ستنقل منزلها عندما تحفر البئر الثانية، وكانت ستذهب إلى حي «أبرز اجتماعيًّا»، كما قالت لباني.

ولكن بعد ذلك، في الزيارة التالية، لاحظ باني في ملامح السيدة السمينة كدرًا. فقد توقف الحفر، ونشرَت الصحف أن طاقم العمل كان يحاول «اصطياد» أجسامٍ عالقة، لكن العمال قالوا إن سبب التوقف هو عدم حصولهم على أجورهم. تباطأت عملية بيع «الوحدات»، وصمت «الرجل الصاخب»، ثم بيعت النقابة لما أُطلِقَ عليه اسم «شركة قابضة». ومع ذلك، لم يُستأنف الحفر، وحاولَت السيدة جرورتي المسكينة بشكلٍ مثيرٍ للشفقة أن تجعل باني يكتشف من والده ما سيحدث لهم. لكن الأب لم يكن يعرف، ولم يعرف أحدٌ ما كان يجري إلا بعد مرور ستة أشهر أو نحو ذلك، أي بعد فترةٍ طويلة من النجاح الكبير الذي حققه الأب في بئر روس بانكسايد رقم ١. حينئذٍ نشرت الصحف عناوين مخيفة مفادها أن هيئة المحلفين الكبرى كانت بصدد اتهام دي باكيت كايبر وزملائه من نقابة بونانزا، بالاحتيال في عمليات بيع حصص مخزون النفط. قال الأب لباني إن هذا الأمر قد يكون «ابتزازًا»؛ فبعض المسئولين، وربما بعض الصحفيين، أرادوا «لفت انتباه» السيد كايبر. ويبدو أنهم نجحوا في «لفت انتباهه»، حيث لم يُوجَّه أيُّ اتهامٍ رسمي. وفي الوقت نفسه، لم يستطع أصحاب عقد الإيجار إقناع أي شخص بمواصلة الحفر؛ لأن البئر التي حُفرت في المربع السكني المجاور لهم لم تنتج سوى مائتَي برميل، وهذا عمليًّا لا شيء يُذكَر، ونشرَت الصحف أن «التوتر» يسود المنحدر الجنوبي بكل تأكيد.

وهكذا، كان من شأن باني، في خضم مجد والده، أن يمر في الشارع ويقابل السيد دمبري المسكين، الذي نزل من عربة الترولي، عائدًا إلى البيت يجُر قدمَيه، بعدما ثبَّت آلافًا من مسامير الألواح الخشبية على أحد الأسطح، أو السيد سام، عامل الجص، يعتني بحديقته الصغيرة، التي تحتوي على صفوف الذرة والفاصوليا التي تُروى بالخرطوم. كان من شأن باني أن يرى السيدة جرورتي، وهي تُطعِم دجاجاتها وتُنظِّف أقفاص أرانبها، لكنه لم ير ثانيةً قطُّ ثوب السهرة الرائع المصنوع من الساتان الأصفر! كان من شأنه أن يدخل منزلها، ويجلس ويتحدث معها، حتى لا يبدو «متغطرسًا»، وكان الدرج الذي لا يؤدي إلى أي مكان لا يزال موجودًا، وكذلك كتاب «دليل السيدات: كتيب عملي للأرستقراطية» على الطاولة المركزية، وأصبح الحرير الأزرق الملتف حوله ملطخًا

ببصمات الأصابع، وفقدت حروفه الذهبية بريقها. استوعبت عينا باني هذه الأشياء، وأدرك ما يعنيه الأب عندما قارن قطاع النفط بملكوت السموات، حيث يتمنى الكثيرون دخوله، ولكن لا يفوز به إلا قلةٌ مختارة.

٨

انتشرَت أبراج الحفر في كل مكان فوق التل، وكانت طواقم العمل تتسابق لتكون أول من يصل إلى الكنز الثمين. نهارًا، كنت ترى المحركات البخارية تنفث دخانًا أبيض، وليلًا، كنت ترى المصابيح تلمع على أبراج الحفر، وليلًا ونهارًا كنت تسمع صوت المعدات الثقيلة يدوي رتيبًا في الأرجاء. نشرت الصحف النتائج، وقرأها مئات الآلاف من المضاربين والمضاربين المحتملين الذين انطلقوا بسياراتهم نحو حقل النفط؛ حيث نصبت النقابات خيامها، أو احتشدت في غرف الاجتماعات بالبلدة؛ حيث كانت الأسعار مكتوبة بالطباشير على ألواح كبيرة، وكانت «الوحدات» تُباع لأشخاص لا يعرفون الفرق بين برج الحفر ولعبة الأفعوانية.

برأيك من احتل الصدارة في تقارير الصحف؟ ليس عليك سوى أن تخمِّن تخمينًا واحدًا فقط؛ إنه روس-بانكسايد رقم ١. فقد كان الأب موجودًا، ليلًا ونهارًا، يعرف الرجال الذين يعملون لحسابه، ويُراقبهم، ويشجِّعهم، ويوبِّخهم إذا لزم الأمر؛ ولهذا لم يقع حادثٌ واحد في موقع الحفر، ولم يضيِّع الأب يومًا أو ليلة. ووصل عمق البئر إلى ثلاثة آلاف ومائتَي قدم، وكان في الطبقة الأولى من الرمال النفطية.

كانوا يستخدمون مثقابًا قطره ثماني بوصات، وكانوا قد اعتادوا، لبعض الوقت، أن يأخذوا عينة أسطوانية من التربة لتحليلها. كان الأب متحمسًا بشأن هذا الأمر؛ فقد أصر على ضرورة معرفة كل شبر من البئر، وكان يروي قصصًا عن رجال كانوا يحفرون في رمال غنية بالنفط ولم يعرفوا ذلك قَط. لذا استخرج المثقاب عينة أسطوانية من الصخور، تمامًا مثل اللب الذي تستخرجه من التفاحة، وتعلَّم باني التمييز بين الصخر الطيني والحجر الرملي، وتكتلات كلٍّ منهما. وتعلَّم قياس ميل الطبقات، وما كان الجيولوجي يستخلصه من ذلك عن شكل الأرض بالأسفل، والاتجاه المحتمل لطبقات الأرض. وحينما ظهرت آثار النفط، كان لا بد من إجراء تحليلات كيميائية، وتعلَّم تفسير هذه التقارير. كل خزان نفط في العالم يختلف عن الآخر؛ فكل واحد كان يشكل لغزًا، ويحمل جوائز كبيرة لمن ينجحون في حل هذا اللغز!

توقع الأب أنه وصل إلى الخزان؛ ولذا أمر بإحضار «الصهاريج». اندفع الجميع من أجل تنفيذ هذا الأمر، كما كان الحال لكل شيء آخر؛ فقد كان الأب يملك المال، والأهم من ذلك أنه كان مشهورًا بامتلاكه المال! كانت «الصهاريج» مذكورة في عقد الإيجار، وحتى إذا لم يحالفه الحظ في العثور على النفط، فسيعثر عليه شخص آخر، وسيسعده أن يأخذ «الصهاريج» منه. وهكذا جاء موكب من الشاحنات الثقيلة، وتكدس الحقل بصفائح فولاذية مسطحة، وصفائح مقوسة، تتناسب بالضبط بعضها مع بعض. وبالطبع لم يَغِب عن مشتري «الوحدات» ملاحظة ذلك! فقد كانوا يتجولون حول برج الحفر ليلًا ونهارًا، محاولين التقاط أي تلميحات، ويتبعون العمال إلى منازلهم ويحاولون رشوتهم أو الدخول في محادثات مع زوجاتهم. أما باني، فكان الفتى الأكثر شعبية في بيتش سيتي، وكان رائعًا وجود العديد من السادة الطيبين، وحتى السيدات اللطيفات، المتشوِّقات لشراءِ الآيس كريم له، أو إعطائه علبًا من الحلوى! منعه الأب من التفوه بكلمة للغرباء، أو أن تكون له أي علاقة بهم، كما أنه حظر في الوقت الراهن إجراء المناقشات على مائدة العائلة؛ لأن العمة إيما كانت تدردش في نوادي السيدات، وكانت السيدات يخبرن أزواجهن، إلى جانب المضاربة «بمفردهن!»

أظهرت العينة الأسطوانية المزيد من العلامات، وأعطى الأب أوامره لبناء أساسات الصهاريج، ثم أمر بتركيبها، ودوى صوت ماكينات التثبيت بالمسامير، وبطريقةٍ سحريةٍ شُيدَت ثلاثة صهاريج، سعة كلٍّ منها عشرة آلاف برميل، مطلية حديثًا برصاصٍ أحمرَ متوهج. وبعد ذلك … ساد الصمت! كانوا قد وصلوا إلى الرمال النفطية الحقيقية، عين الأب طاقمًا من المكسيكيين ليَحفِروا له خندقًا من خط الأنابيب، واكتشف صائدو عقود الإيجار وتجَّار الوحدات ذلك الأمر، وفقدَت البلدة صوابها. في منتصف الليل، قفز الأب من فراشه، ونادى باني، وارتديا ملابسَهما القديمة وخرجا مسرعين إلى البئر؛ فقد ظهرت أولى علامات الضغط، وكان الطين قد بدأ يبقبق في البئر ويخرج منها! كان الحفر قد توقف، وكان الرجال على عجل يستخدمون المسامير لإحكام غلق «رأس أنبوب الدعم» الكبير، الذي كان الأب قد أحضره. لم يكن الأب راضيًا عما يفعلونه؛ لذا أمرهم بتثبيت عروات ثقيلة على الرأس، ودفع اثنين من عمال الأسمنت لبناء كتل كبيرة من الأسمنت فوق العروات؛ لتثبيتها جيدًا لتتحمل أي ضغط تتعرض له. وهكذا كان يمكن التأكد من عدم حدوث انفجار في بئر روس-بانكسايد رقم ١، وأيًّا كان النفط الذي سيخرج من تلك البئر، فسينتهي به المطاف في الصهاريج، ومنها إلى حساب الأب المصرفي!

حان وقت «سد البئر بالأسمنت»، لجعلها مقاومة للماء، وحماية الرمال النفطية الثمينة. تحت الأرض كان هناك خزان من النفط، عالق تحت طبقة مُحكَمة من الحجارة، تمامًا مثل حوض غسيل مقلوب. كان النفط مليئًا بالغاز، مما تسبب في الضغط. والآن إذا حفرت حفرة في الخزان، فسيخرج النفط والغاز، ولكن بشرط عدم السماح بنزول أي ماءٍ سطحي حتى لا يقضي على الضغط. فطوال عملية الحفر، كان ماء البرك والمجاري الجوفية يتسرب، والآن عليك وضع كتلةٍ كبيرة، صلبة ومحكمة، من الأسمنت، أسفل الحفرة لسد كل شق، داخل أنبوب الدعم وخارجه. وبعد إحكام سد هذه الكتلة، سيكون عليك أن تحفر حفرة خلالها، وصولًا إلى الرمال النفطية بالأسفل، وهكذا يصبح لديك قناة يمكن للنفط أن يتدفق من خلالها إلى أعلى، دون أن يتسرب الماء إلى أسفل. كان هذا هو الجزء الحاسم من العملية، وأثناء تنفيذه، كان الطاقم بأكمله في غاية التوتر والحماس، وغنيٌّ عن القول أنَّ المالك وابنه كانا في الحالة ذاتها.

عليك أولًا إنزال أنبوب الدعم، المعروف باسم «أنبوب الماء». وإذا كنتَ رجلًا حريصًا، مثل الأب، فستجعل هذا «الأنبوب» يصل إلى أرضية برج الحفر. بعد ذلك تبدأ في ضخ الماء العذب الذي يُضخ لساعاتٍ عديدة، حتى تغسل البئر من الأوساخ والنفط، وبعد ذلك يأتي دور عمال الأسمنت. أتى العمال بشاحنة عليها جميع المعدات اللازمة للمهمة، مستعدين للتوجه إلى أي بئر. وجلبَت شاحنةٌ أخرى بضع مئات من أكياس الأسمنت؛ إذ كانت المهمة تتطلب أسمنتًا نقيًّا، دون رمل. وجهَّزوا كل شيء قبل أن يبدءوا، ثم بدءوا العمل بسرعة وحماس؛ فقد كان لا بد من إتمام هذه المهمة بالكامل في أقلَّ من ساعة، قبل أن يبدأ الأسمنت في التماسك.

كانوا يعملون وفقًا لخطةٍ بارعة، وكان من الرائع مشاهدتهم. وضعوا «سدادة» من الحديد الزهر داخل أنبوب الدعم، وكانت هذه السدادة مزودةً بأقراصٍ مطاطية بالأعلى والأسفل؛ بحيث تطفو على الماء في أنبوب الدعم، وصبوا الأسمنت فوقها. فُتحت الأكياس بقوة، وأُلقيت في آلة خلط الأسمنت، التي بدأت تدور، وبعدها تدفَّق السائل الرمادي داخل البئر. تدفَّق الأسمنت بسرعة، وبدأَت المضخات الثقيلة في العمل، وقادته إلى الأسفل. في غضون نصف ساعة كانوا قد ملَئوا عدة مئات من الأقدام من أنبوب الدعم بالأسمنت، وبعدها وضعوا «سدادة» مطاطية لسد أنبوب الدعم بإحكام، ومرة أخرى، بدأَت المضخات الثقيلة في العمل، ودفعَت كتلة الأسمنت، بين «السدادتَين»، إلى أسفل البئر. عندما وصلتا إلى القاع، سقطَت السدادة السفلية، وتدفق الأسمنت، وساعد ضغط السدادة العلوية على

دخوله في كل شق في البئر، ودفعه لأعلى في الجزء بين السطح الخارجي لأنبوب الدعم والأرض، حتى وصل إلى ارتفاع مائة أو مائتَي قدم، وعند تماسُكه، سيصبح لديك «حاجز للماء».

ما الذي يمكن أن يكون أكثر إمتاعًا من مشاهدة أمر كهذا؟ فهنا يمكنكَ معرفة ما يجري تحت الأرض، ومشاهدة البراعة التي يتغلب بها الإنسان على عقبات الطبيعة، ورؤية طاقم من العمال، يندفع أفراده في كل مكان، ويعملون كخلية نحل أو نمل، ولكنهم في الوقت ذاته هادئون وواثقون من أنفسهم، وعلى دراية بعملهم، وكيفية سير الأمور!

أُنجِزَت المهمة، وكان يتعين الانتظار عشرة أيام حتى يتماسك الأسمنت تمامًا. جاء المفتش الحكومي وأجرى اختباراتِه للتأكد من وجود «حاجزٍ» منيع؛ ففي حالة وجود مشكلة بالحاجز، يتعين عليك تكرار العملية مرة أخرى، وقد كرر بعض المساكين هذه العملية عشرين أو ثلاثين مرة! لكن الأب لم يتعرض لشيء من هذا القبيل؛ فهو خبير في عملية «سد البئر بالأسمنت»، وأضاف بابتسامة أنه كان خبيرًا أيضًا فيما يخص المفتشين. على أي حال، حصل على تصريحه، والآن، كانت بئر روس-بانكسايد رقم ١ تحفر في الرمال النفطية الحقيقية، في حفرة قطرها ست بوصات. وكل بضع ساعات كانوا يختبرون الضغط، للتأكد من أن لديهم ما يكفي، ولكن ليس أكثر من اللازم. كان الأب على وشك تحقيق الانتصار الآن، وكان قلبه يخفق سريعًا ويشعر بحماسٍ شديد. كان الأمر أشبه بانتظار صبيحة عيد الميلاد المجيد لفتح جورب هداياك، ورؤية ما أحضره لك سانتا كلوز! كانت هناك حشودٌ تحدق في البئر طوال اليوم؛ ولذلك كان يتعين وضع لافتاتٍ وقحة لمنعهم من التدخل فيما لا يعنيهم.

قال الأب إنهم وصلوا إلى العمق المناسب الآن، وشرعوا في تثبيت أنبوب الدعم الأخير الذي كان يُعرف باسم «البطانة»، وكان مزودًا بثقوب مثل الغربال، ليتدفق من خلالها الكنز. كانوا يعملون حتى وقتٍ متأخر من الليل، وكان كلٌّ من الأب وباني يرتديان ملابسَ قديمة، وكان يغطيهما النفط والطين. أخيرًا، كانت «البطانة» جاهزة، وأخرجوا الأدوات، وبدءوا في «غسل» البئر عن طريق ضخ الماء العذب لتنظيفها من الطين والرمل. استمر ذلك لمدة خمس أو ست ساعات، وفي هذه الأثناء حصل الأب وباني على قسط من النوم.

عندما عادا، كان وقت «نزح الماء» قد حان. أنت تدرك أن أنبوب الماء كان يحتجز ضغط الغاز والنفط، على عمق ثلثَي ميل. والآن كان لديهم ما أطلقوا عليه اسم «نازح الماء المزدوج»، والذي كان ببساطة دلوًا طوله خمسون قدمًا. كانوا ينزلونه، ويرفعون خمسين

قدمًا من عمود الماء، ويُلقون به في حفرة التجميع. ثم ينزلون الدلو لخمسين قدمًا أخرى، وبعد قليل يجدون أنه ليس عليهم النزول لهذا العمق؛ فالضغط كان يدفع عمود الماء لأعلى البئر. حينئذٍ عرفتَ أنك تقترب من النهاية، وليس عليك سوى إنزال الدلو مرةً أخرى أو مرتَين حتى ينطلق الماء من الحفرة، ويندفع الطين والماء والنفط فوق قمة برج الحفر؛ ليصبح ملطخًا بقطراتٍ سوداءَ جميلة. يجب عليك طرد الحشود من موقع الحفر الآن، وأن تصيح في الحمقى الذين يدخِّنون السجائر قائلًا: «أطفئوا أي شيء قابل للاشتعال!».

ها قد اندفع النفط خارج البئر! وهتف جميع الحاضرين، وركض المتفرجون بعيدًا لتجنُّب رذاذ النفط الذي كانت الرياح تقذفه. تركوا النفط يندفع من البئر لفترة من الوقت، حتى لُفِظ الماء، واندفع النفط أعلى وأعلى فوق قمة برج الحفر، وأحدث ضوضاء جميلة وحفيفًا، وتناثر في كل مكان!

حان وقت غروب الشمس، وكانت السماء قرمزية. ظل الأب يصيح قائلًا: «أطفئوا أي شيء قابل للاشتعال!» إذ كان يجب أن يمتنع الجميع حتى عن تشغيل سيارة أثناء انبثاق النفط. بعد قليل، أوقَفوا تدفق النفط، لتجربة صمام رأس أنبوب الدعم، وظلُّوا يعملون حتى وقتٍ متأخر من الليل، تاركين النفط يتدفق، ثم أوقفوه مجددًا، كان الأمر مثيرًا بشكلٍ غامض في عتمة الليل. في النهاية كانوا مستعدين لـ «الحصول على النفط»، مما يعني أنهم سيُحكِمون غلق «خط التدفق» بين رأس أنبوب الدعم والخزان، ويتركون النفط ينساب في الخزَّان. هكذا بكل بساطة، دون استعراض، ودون ضجة، فقط تترك النفط يتدفق، أظهَر المقياسُ تدفُّق النفط بمعدَّل ثلاثين ألف جالون في الساعة، مما يعني أن الخزَّان الأول كان سيصبح ممتلئًا بحلول ظهر اليوم التالي.

كان هذا كل شيء، لكن الأخبار انتشرَت في بيتش سيتي وكأن ملاكًا ظهر في سحابةٍ براقة، وبعثر قطعًا ذهبية من فئة العشرين دولارًا في الشوارع. كان روس-بانكسايد رقم ١ «دليلًا على وجود نفط» في المنحدر الشمالي بأكمله؛ ولعشرات الآلاف من المستثمرين، الكبار منهم والصغار، كان ذلك يعني أن الأمل تحول إلى يقينٍ عظيم. لم يكن من الممكن إخفاء مثل هذه الأخبار، فهذا يتعارض مع الطبيعة البشرية، نشرَت الصحف بيانًا بالتفاصيل التالية: روس-بانكسايد ينتج ستة عشر ألف برميل في اليوم، وكثافته ٣٢، وبمجرد الانتهاء من خط الأنابيب — بحلول نهاية الأسبوع — سيكون بحوزة مالكه دخلٌ يزيد عن عشرين ألف دولار كل أربع وعشرين ساعة. هل ثمة حاجة للقول إن الحشود كانت تحدِّق في الأب وباني، أينما تجولا في شوارع المدينة؟ ها هو جيه أرنولد

روس العظيم، صاحب البئر الجديدة! وهذا الفتى الصغير هو ابنه! إنه يكسب نحو ثلاثة عشر دولارًا في الدقيقة، سواء كان مستيقظًا أو نائمًا. أقسم أن المرء يستطيع أن يطلب غَداءه دون القلق بشأن سعره، إذا كان لديه دخل كهذا!

لم يستطع باني منع نفسه من الشعور بالأهمية، ومن أن يظن أنه أصبح مميزًا ورائعًا. تجاوزَت حماستُه الحد، وشعر كما لو أنه يستطيع أن يقفز إلى السماء ويطير. حينئذٍ قال الأب: «هون عليك يا بني! أمسِك عليك لسانك، ولا ترفع رأسك متفاخرًا. تذكَّر أنك لم تجنِ هذا المال، ويمكنك أن تخسره في لمح البصر، إن لم تكن ذكيًّا.» كما ترى، كان الأب رجلًا عاقلًا، كما ترى؛ فقد مر بكل هذا من قبلُ، أولًا في أنتيلوب، ثم في نهر لوبوس. وسبق أن شعَر بإغراء العظمة، وعرف ما كان يشعُر به الصبي. من الجيد أن يكون لديك الكثير من المال، لكن عليك أن تتذكر أن هذا كله أمرٌ مؤقت، ووسط احتفالك بالنجاح، يجب أن تتذكَّر أن الموت هو مصيرك المحتوم!

الفصل الرابع

المزرعة

١

بعد ذلك بوقتٍ قصير، حان موعد زيارة باني لوالدته.

لم تكن والدة باني تحمل اسم السيد روس كما هو حال أمهات الأولاد الآخرين؛ فقد كانت تُدعى السيدة لانج، وعاشت في منزلٍ صغير في ضواحي مدينة إنجِل سيتي. كان هناك اتفاق يحق لها بموجبه أن تستضيف باني لمدة أسبوعٍ واحد كل ستة أشهر، وكان باني يعرف دائمًا متى يقترب هذا الوقت، وكان يتطلع إليه بمشاعرَ مختلطة. كانت والدته لطيفة، وكانت تمنحه التدليل الذي كان يفتقده في أوقات أخرى، وكانت تطلق على نفسها اسم «الأم الصغيرة الجميلة». ولكن من نواحٍ أخرى، كانت الزيارة محرجة؛ لأنه كان من المفترض إخفاء بعض الأمور عن باني، لكنه شعر بذلك ولم يسَعْه سوى التخمين. كان من شأن الأم أن تسأله عن شئون الأب، وكان باني يعلم أن الأب لا يرغب في أن يتحدث أحدٌ عن شئونه. حينئذٍ أيضًا كانت الأم تشتكي من أنها لا تملك ما يكفي من المال؛ فقد كان الأب يسمح لها بمائتَي دولار فقط في الشهر، كيف يمكن لمطلقةٍ شابة ساحرة أن تعيش بمثل هذا المبلغ؟ ولطالما كانت فاتورة إصلاح سيارتها غير مسدَّدة، وكانت تخبر باني عنها، وتتوقَّع منه أن يخبر الأب، لكن الأب كان من شأنه أن يتهرَّب من الاستماع. وفي المرة التالية، كان من شأن الأم أن تبكي وتقول إن جيم كان طاغيةً وبخيلًا. كان الوضع صعبًا جدًّا الآن؛ لأن الأم كانت قد قرأَت عن البئر الجديدة في الصحف، وعرفَت مقدار الأموال التي تحصَّل عليها الأب، وكشفَت لباني عن خطتها، وهي أنه يتعين عليه أن يحاول إقناع الأب بزيادة المبلغ المخصَّص لها، ولكن دون أن يجعل الأب يشك في أنها مَن اقترحَت ذلك. لكن هذا الطلب جاء بعدما تعهَّد باني بعدم قول الأكاذيب الصغيرة!

كذلك كان هناك لغزٌ حول أصدقاء الأم. فقد كان هناك دائمًا أصدقاءُ رجال يأتون لرؤيتها أثناء وجود باني هناك، وقد يعاملون باني بلطف وقد لا يفعلون. عندما عاد إلى المنزل، وجَّهَت إليه العمة إيما الأسئلة التي اتضح منها أنها كانت تريد أن تستفسر بشأن هؤلاء الأصدقاء الرجال، لكنها لم ترغب في أن يعرف باني ذلك. لاحظ باني أن الأب لم يتطرَّق مطلقًا إلى هذه الأمور؛ فلم يطرح قَط أي أسئلةٍ حول الأم، وكانت العمة إيما تسأل هذه الأسئلة دائمًا أثناء غياب الأب.

كان لكل هذا تأثيرٌ غريب على باني. ومثلما احتفظ الأب بخزينة ودائع في البنك، لا يمكن لأحد سواه الاطلاع عليها، احتفظ باني بمكانٍ سري في ذهنه. فظاهريًّا، كان فتًى مرحًا وصادقًا، وإن كان ناضجًا إلى حدٍّ ما مقارنةً بعمره، لكن طَوال الوقت كان يعيش حياةً مزدوجة؛ حيث كان يلتقط الأفكار من حوله، ويحملها بداخله ويخفيها، كما يفعل السنجاب مع ثمرة الجوز حتى يتمكَّن من الرجوع إليها في موسم لاحق ليقشرها ويأكلها. بعض ثمار الجوز كان جيدًا وبعضها كان سيئًا، وقد تعلم باني كيفية الحكم عليها، والتخلص من الثمار السيئة.

شيءٌ واحد كان واضحًا؛ كان ثمَّة شيءٌ ما يفعله الرجال والنساء، وقد تآمروا جميعًا معًا لمنعك من معرفة ما كانوا يفعلونه. كان ركنًا مظلمًا من الحياة، غامضًا وبغيضًا إلى حدٍّ ما. في البداية، كان باني مخلصًا لوالده، ولم يحاول معرفة ما لا يريده والده أن يعرفه. لكن هذا لم يكن من الممكن أن يستمر إلى أجلٍ غير مسمًّى؛ لأن العقل يسعى تلقائيًّا إلى الفهم. لم يكن الأمر يقتصر على التلميحات التي كانت تعطيها لك الطيور والدجاج والكلاب في الشارع؛ كذلك لم يكن يقتصر على أن كل فتًى في الشارع كان يعرف، وكان تواقًا لأن يشرح، بل كان إصرار الكبار الأغبياء أنفسهم على قول أشياء لم تستطع منع نفسك من فهمها. كان لدى العمة إيما قناعةٌ ثابتة بأن كل السيدات كن يلاحقن الأب، أو كما كانت تقول «يحاولن جذب انتباهه»، أو «يسبِّلن له أعينَهن»، وعبارات أخرى كثيرة من هذا القبيل. وكان الأب يشعر دائمًا بإحراجٍ غريب كلما أظهر القليل من الاحترام لأي سيدة؛ فقد بدا أنه يشعُر بالقلق خشية أن يشارك باني شكوك العمة إيما. لكن الحقيقة كانت أن باني كان منزعجًا من عمته، وتعلَّم التهرب من أسئلتها، وعدم إخبارها بما قاله الأب للسيدة اللطيفة في الفندق عند نهر لوبوس، وما إذا كانت السيدة قد تناولَت العشاء معهما أم لا. اكتسب باني هذه الآداب الدنيوية، لكن كان هناك دائمًا ثورة تجرى سرًّا بداخله. لماذا لا يستطيع الناس التحدُّث بصراحة؟ لماذا كان عليهم التظاهر والتهامس، وجعلك لا تشعر بالراحة؟

٢

في غضون أسبوع من إنتاج بئر روس-بانكسايد رقم ١، بدأ الأب في بناء برجٍ حفرٍ جديد في الموقع ذاته، وانتهى من تجهيزه بعد أسبوعٍ آخر، وكانت مجموعة الأدوات القديمة ستُستخدم في الحفر مرةً أخرى. كما كان لديه برجان جديدان قيد البناء، ومجموعتان جديدتان من الأدوات قيد التسليم. ستكون هناك أربع آبار، يقف كلٌّ منها على الزوايا الأربع لشكل المعين، ويبعُد كلٌّ منها عن الأخرى مسافة ثلاثمائة قدم. كان من الضروري استدعاءُ ناقلات منازل، لنقل منزل آل بانكسايد إلى قطعةِ أرضٍ أخرى، لكن هذا لم يزعج السيد بانكسايد، الذي كان قد انتقل بالفعل إلى قصرٍ يطلُّ على المحيط بالقرب من الأب، واشترى لنفسه أثاثًا جديدًا، وسيارةَ ليموزين كبيرةً جديدة، وكذلك «سيارة رياضية»، يقودها للذهاب إلى النادي الريفي للعب الجولف عصر كل يوم. بدأت عائلة بانكسايد تعتاد وجودَ كبير للخدم، وقد رُشِّحت السيدة بانكسايد للانضمام لأكثر نوادي السيدات تميزًا. كانت الفعالية هي الشعار السائد هنا في الغرب، وعندما تقرِّر تغيير وضعك الاجتماعي، عليك اتخاذ الإجراءات الضرورية لتحقيق هدفك.

انطلق الأب وباني في رحلةٍ أخرى إلى نهر لوبوس، ونجحا ببعض الصعوبة في القضاء على «النحس» بالبئر رقم اثنتَين، وجعلوها بئرًا جيدة جدًّا. كان من المقرَّر بناء برجَين إضافيَّين هناك، وجلب المزيد من الأدوات التي من المفترض شراؤها وتسليمها. هكذا كان الحال في قطاع النفط، فبمجرد حصولك على أي أموالٍ تستثمرها في عملياتِ حفرٍ جديدة، وهو ما يعني بالتأكيد مسئولياتٍ جديدة. القوى الكامنة في مجال النفط هي ما يدفعك لفعل ذلك. فأنت تتسابق مع أشخاصٍ آخرين، يهددونك دائمًا بالحصول على نفطك. وبمجرد أن تحفر بئرًا، يجب أن تكون لديك «آبارٌ فرعية مقابلة» لحمايتها من الناس الذين يودُّون الحصول على نفطك من كل جانب. أيضًا، قد تُواجِه مشكلة في تسويق نفطك، وستبدأ تفكِّر في أنه سيكون رائعًا أن يكون لديك معملُ تكريرٍ خاص بك، وأن تكون مستقلًّا تمامًا. لكن الاستقلالية لها ثمنُها؛ إذ سيتعيَّن عليك حينئذٍ توفيرُ ما يكفي من النفط للحفاظ على استمرارية عمل معمل التكرير، وستودُّ أن يكون لديك سلسلة من محطات الوقود لتصريف منتجاتك. كان مجالًا صعبًا على المبتدئين، ومهما زاد حجم استثماراتك، كان هناك دائمًا مَن هو أكبر منك!

لكن الأب لم يكن يُعاني من هذه الأمور الآن؛ فكل شيءٍ كان يسير على ما يُرام. وفي خضم انتصاراته الأخرى، كان قد خطر له أن يتعمق قليلًا في حفر إحدى آباره القديمة

بموقع أنتيلوب، ليرى ما سيعثُر عليه، وبالفعل جَرَّب ذلك، وفوجئ باندفاع النفط عند الوصول إلى عمق ثمانمائة قدم. كانت الآبار في طبقةٍ جديدة من الرمال النفطية، وكل بئرٍ من هذه الآبار الست عشرة القديمة، التي كانت تُنتِج النفط لبضع سنوات، وكانت على وشك النضوب، كانت جاهزة لتزوِّد الأب بثروةٍ جديدة، مقابل تكلفةٍ قدرُها بضعة آلاف من الدولارات لكل بئر!

ولكن على الفور ظهرَت مشكلةٌ جديدة؛ لم يكن هناك خطٌّ أنابيبَ يصل إلى هذا الحقل، ولا بد من وجود واحد. أراد الأب أن يتعاون مع غيره من العاملين في مجال التنقيب عن النفط، وكان سيذهب إليهم ليعقد صفقة. ثم جاء إليه باني، وهو في غاية الجدية. وقال: «أبي، هل نسيت، لقد اقترب الخامس عشر من نوفمبر.»

«ماذا في ذلك يا بني؟»

«لقد وعدتَني أننا سنذهب لصيد السُّمانى هذا العام.»

«يا إلهي، هذا صحيح! لكنني مشغول بشدة في الوقت الحالي يا بني.»

«أنت تعمل باجتهادٍ مفرط يا أبي، تقول العمة إيما إنك تجهد كُليتَيك، وقد أخبرك الطبيب بذلك.»

«وهل يوصي الطبيب باتباع حميةٍ تحتوي على السُّمَانى؟»

عرف باني من ابتسامة الأب العريضة أنه سيقدِّم بعض التنازلات. توسل الصبي قائلًا: «لنأخذ معدَّات التخييم معنا، وعندما تنتهي من عملك في موقع أنتيلوب، دعنا نعُد للديار من طريق وادي سان إليدو.»

«سان إليدو! لكن يا بني، هذا على بعد خمسين ميلًا من طريقنا!»

«يقولون إن السُّمَانى متوفرٌ هناك بكثرة يا أبي.»

«نعم، ولكن يمكننا العثور على السُّمَانى في أماكنَ أقربَ بكثير للديار.»

«أعلم يا أبي، لكنني لم أذهب إلى هناك من قبلُ، وأريد رؤية المكان.»

«ولكن ما الذي جعلك تودُّ الذهاب إلى هذا المكان؟»

شعَر باني بالإحراج؛ لأنه كان يعلم أن الأب سيظن أنه «غريب الأطوار». ومع ذلك، أصَر على موقفه. «هذا هو المكان الذي يعيش فيه آل واتكينز.»

«آل واتكينز، من هؤلاء؟»

«ألا تتذكَّر ذلك الصبي، بول، الذي التقيته ذاتَ ليلةٍ عندما كنتَ تتحدث عن عقد الإيجار؟»

«يا إلهي! أما زلتَ منشغلًا بشأن هذا الصبي؟»

«لقد قابلتُ السيدة جرورتي في الشارع أمس، وأخبرَتْني بشأن العائلة؛ إنهم في ورطة مروِّعة، سيستولي البنك على مزرعتهم لأنهم لا يستطيعون دفع فائدة الرهن العقاري، وتقول السيدة جرورتي إنها لا تستطيع التفكير فيما سيفعلونه. أنت تعلم أن السيدة جرورتي لم تحصل على أي أموال، وعلى أقل تقدير، ستكون قد أنفقَت نصيبها من الأرباح على الوحدات التي لم تستفِد منها بأيِّ شيء، وعليها أن تعيش على ما يكسبه زوجها من وظيفته كحارسٍ ليلي.»

«وماذا تريد أن تفعل حيال ذلك؟»

«أريدك أن تدفع ذلك الرهن العقاري، يا أبي، أو يمكنك فعل أي شيءٍ آخر، حتى يتمكَّن آل واتكينز من البقاء في منزلهم. من السيئ أن يخرج الناس من منزلهم على هذا النحو، وهم يبذلون قصارى جهدهم.»

«هناك الكثير من الأشخاص الذين يخرجون من بيوتهم يا بني، عندما لا يستطيعون الوفاء بالتزاماتهم.»

«ولكن ماذا لو كان ذلك بلا جريرةٍ اقترفوها، يا أبي؟»

«سوف يستغرق الأمر مراجعة الكثير من الدفاتر لمعرفة جريرة مَن هذه، والبنوك لا تحفظ الدفاتر من أجل هذا الأمر.» حينئذٍ، بعد رؤية الاحتجاج في وجه باني، قال الأب: «هناك الكثير من الأشياء القاسية في العالم التي لا تملك تغييرها، يا بني. وسيتعين عليك تقبُّل ذلك الأمر، إن عاجلًا أم آجلًا.»

«لكن يا أبي، هناك أربعة أطفال، ثلاثٌ منهم فتيات، أين سيذهبون؟ بول بعيد عنهم، وليس لديهم أي وسيلة لإعلامه بما حدث. لقد أرتني السيدة جرورتي صورة لهم، يا أبي، إنهم أناسٌ طيبون، ولطفاء، يمكنك أن ترى أنهم كانوا يكدُّون طوال حياتهم. صدقني يا أبي، لن أكون سعيدًا إذا لم أساعدهم. لقد قلت لي إنك ستشتري لي سيارة في يوم من الأيام، وأنا أفضِّل أن تأخذ هذا المال وتدفع به هذا الرهن العقاري. إنه أقل من ألفَي دولار، وهذا لا شيء يُذكَر بالنسبة لك.»

«أعلم يا بني، ولكن حينئذٍ سيعتادون ذلك ...»

«لا، إنهم ليسوا كذلك، لديهم عزة نفس، وتقول السيدة جرورتي إنهم لن يقبلوا منك أي مال، تمامًا مثلما فعل بول. لكن إذا دفعت الرهن العقاري للبنك، فلن يبقى أمامهم سوى قبول ذلك. أو يمكنك شراء المزرعة يا أبي وتأجيرها لهم. يقول بول إن هناك نفطًا في تلك المزرعة؛ لقد رآه عمه إيبي على سطح الأرض.»

«هناك الآلاف من المزارع مثل تلك الموجودة في كاليفورنيا، يا بني. ووجود النفط على سطح الأرض لا يعني أي شيء مميز.»

«حسنًا يا أبي، لطالما قلت إنك تريد استكشاف مناطق لم يُعثر فيها على نفط قط، وأنت تعلم أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك بها فعل ذلك؛ فهناك سيكون لديك قطعة أرض كبيرة، ولن تضطر إلى دفع أي أرباح، ولن يتدخل أحد في عملك. لذا دَعْنا نجرِّبْ حظنا في بارادايس، ونذهب إلى هناك ونخيم لبضعة أيام ونصطَد بعض السُّمَانى، ونرَ الوضع هناك، ونساعد هؤلاء الفقراء، ونمنح كُليتَيك بعض الراحة في الوقت ذاته.»

قال الأب حسنًا، وغادر وهو يقول في نفسه: «يا إلهي! يا له من طفل عجيب!»

٣

يقع وادي سان إليدو على حافة الصحراء، وعليك أن تمر عبر جزء صغير من الصحراء للوصول إليه، لم يكن هناك سوى صحراء جرداء من الرمال والصخور التي تغمرها أشعة الشمس الحارقة، ولا شيء سوى نباتات صحراوية رمادية متربة. كان بإمكانك القيادة بسرعة على الطريق المرصوف الممهد، لكن الأرض كانت مسكونة بأرواح الرواد القدامى الذين عبروها في عربات مغطاة أو مع قطيع من البغال، وتركوا عظامهم بجانب العديد من الممرات. وحتى الآن، كان عليك توخي الحذر عند السير في الممرات الجانبية عبر هذه الأراضي القاحلة؛ فبين الحين والآخر تتعطل سيارة بسبب نفاد ماء المبرد، وقد يحالف هؤلاء الناس الحظ ويخرجون من هناك أحياء.

يمكنك الحصول على الماء إذا حفرت بئرًا عميقة؛ ولذا كانت هناك مزارع للفاكهة وحقول للبرسيم متناثرة في عدة أماكن. وكانت هناك مساحاتٌ كبيرة من الأرض لونها أبيض مثل الملح، قال الأب إن هذا كان ملحًا قلويًّا، مما جعل هذا المكان أشبه بالفخ. كان الشخص الغريب القادم من الشرق يأتي ويفحص مزرعةَ فاكهةٍ جميلة، ويعتقد أنه كان يعقد صفقة جيدة للحصول على الأرض المجاورة مقابل مائة دولار للهكتار، ثم يزرع أشجار الفاكهة ويرويها بصبر، لكنها لا تنمو، ولا ينمو شيءٌ سوى القليل من البرسيم، وربما كان هناك الكثير من الملح القلوي الذي يمنع حدوث ذلك. حينئذٍ يضطر صاحب المزرعة المحتمل إلى اقتلاع الأشجار، ومحو آثارها، وتعيين سمسار عقارات للإيقاع بمغفل آخر.

كان هناك صرة كبيرة، ملفوفة في غطاء مقاوم للماء، مربوطة بعتبة سيارة الأب، على الجانب الأيمن حيث جلس باني؛ فقد كانا سيخيمان في العراء، مما أثار في عقل

الصبي أفكارًا عن المخاطر والأشياء المثيرة التي تعرض لها الإنسان قبل عشرة آلاف عام. أحكم باني قبضتيه على زوج من بنادق الصيد المتعددة الطلقات، أمسك بهما لساعات، من ناحيةٍ لأنه كان يحب ملمسهما، ومن ناحية أخرى لأنه كان لا بد من حملهما في العراء، فإذا وضعتهما في الصندوق الخلفي للسيارة فسيُعتبران «أسلحة مخبأة»، وكان ذلك مخالفًا للقانون.

بالقرب من رأس الوادي تشعب طريق ترابي، وظهرت لافتةٌ مكتوبٌ عليها: «باراديس، ثمانية أميال.» انحرفا إلى مفازة صغيرة، تحدُّها الجبال التي بدت وكأنها أكوام من الصخور المتساقطة، من كل الأحجام والألوان. كانت هناك مزارع فاكهة، وأشجار خالية من الأوراق، جذوعها بيضاءُ متكلسة، وأشجارٌ صغيرة حولها شباك من الأسلاك، لإبعاد الأرانب عنها. سقطَت الأمطار الموسمية الأولى، ونبتَت الأعشاب الجديدة، إنه ربيع كاليفورنيا الذي يبدأ في الخريف.

اتسعَت المفازة، وتناثرت بيوت المزارع هنا وهناك، وكانت قرية باراديس، المكوَّنة من شارع واحد، تحتوي على عددٍ قليل من المتاجر المتناثرة التي تتخذ من أشجار الأوكالبتوس مأوًى لها؛ حيث كانت تلقي بظلالها الطويلة حتى وقتٍ متأخر من العصر. توقف الأب في محطة الوقود، التي كانت تحتوي أيضًا على متجر لبيع الأعلاف. «هل يمكن أن تخبرني أين تقع مزرعة آل واتكينز؟»

قال الرجل: «هناك عائلتان تحملان هذا الاسم. هناك آيبل واتكينز العجوز ...»

صاح باني: «نعم هذا هو!».

«لديه مزرعة مَعْز، بجانب المنحدر. ليس من السهل العثور عليها. هل تنويان الوصول إلى هناك الليلة؟»

قال الأب: «لن نقلق إذا ضللنا الطريق؛ فلدينا عدة تخييم.»

وصف لهم الرجل الطريق مستخدمًا توجيهات معقدة. اسلك الممر خلف مبنى المدرسة، حيث ستجد العديد من المنعطفات، يليها حوالي ستة عشر تقاطعًا، حتى تصل إلى التقاطع الصحيح، ثم اتبع المنحدر الذي ينقل الماء إلى روزفيل، حتى تصل إلى الغدير الرابع بعد المرور بمزرعة أغنام السيد تاكر العجوز، حيث المنزل الصغير تحت أشجار الفلفل. وهكذا انطلقا وسلكا طريقًا متعرجًا يبدو أن الأغنام هي من أسسته، وغابت الشمس خلف التلال الكالحة، وتحولت السحب إلى اللون الوردي، وتفاديا الصخور التي كانت أعلى من أن تسير فوقها السيارة وزحفا في الأخاديد الصغيرة، ثم صعدا مرة أخرى، معتمدَين على التبديل المستمر بين سرعات السيارة. لم تكن هناك حاجة للسؤال عن

السُّمَانى؛ فقد رددت التلال صدى النداء المزدوج الشجي للأسراب المتجمعة بعد حلول الظلام.

بعد قليل وصلا إلى «المنحدر»، الذي كان عبارة عن ممر خشبي ينقل الماء — وكان كثير من الماء يتسرب منه؛ لذا انتشر العشب الأخضر اللامع في كل اتجاه، موفرًا طعامًا لقطيع كبير من الأغنام، التي لم تلتفت إلى السيارة، ولا إلى صوت البوق، كان من الممكن أن تتعرض هذه الأغنام الغبية الخرقاء للدهس تحت عجلات السيارة! ثم جاء رجل يمتطَّى صهوة حصان، كان رجلًا وسيمًا ضخمًا أسمر البشرة، يضع حول رقبته منديلًا ذا ألوان زاهية، وقبعة عريضة الحواف لها حزام من الجلد. كان يرعى قطيعًا من الماشية، وأثناء ركوبه على حصانه، كان سرجه وأحزمة ركابه تصطدم ببعضها محدثةً صوتًا اعتبره الصبي مثيرًا، خاصة في الهدوء الذي كان يخيم على المساء. توقف الأب، وتوقف الرجل، قال الأب: «مساء الخير»، أجابه الرجل: «مساء الخير». كان الرجل لطيفًا وأمينًا ودلَّهُما على الطريق، لم يكن من الممكن أن يغفلا عن الغدير؛ لأنه كان الوحيد الذي يوجد به ماء، وكانا سيريان المباني بمجرد الصعود لأعلى قليلًا. وعندما انطلقا قال باني: «يا إلهي، أبي أتمنى أن نتمكن من العيش هنا؛ أود أن أركب حصانًا مثل هذا.» كان يعلم أن الأب سيُعجَب بهذا الأمر؛ لأن الرجل كان تجسيدًا حيًّا للصورة التي كان يضعها الأب لكيف يجب أن يبدو الرجال؛ إذ كان ضخمًا وقويًّا، ببشرة سمراء تشوبها بعض الحمرة وكأنه أحد الهنود الحمر. نعم، لن يتطلب الأمر الكثير لإقناع الأب بشراء مزرعة آل واتكينز لابنه!

تهاديا على طريق الأغنام، وأخذا يحصيان عدد الأغادير، التي كانت جدرانها تلوح عاليًا في الشفق، متوجة بأكوام مذهلة من الحجارة. كانت أنوار السيارة مضاءة، وكانت تتأرجح في كل اتجاه للبحث عن الطريق الصحيح؛ حتى وصلا أخيرًا إلى غدير به ماء — كان مميزًا بوجود العشب الأخضر اللامع — وانعطفا، وتابعا السير في ممر أكثر وعورة، وظهرت أمامهما بعض المباني، حيث سطع الضوء من إحدى النوافذ. كانت هذه هي المزرعة التي وُلد فيها بول واتكينز وترعرع، وشعر باني بداخله بإثارة لا يمكن تفسيرها، كما لو كان يقترب من مكان ولادة أبراهام لنكولن، أو شخص بهذا القدر من العظمة!

فجأة تحدث الأب. وقال: «اسمع يا بني. قد يكون هناك نفط هنا، فهناك دائمًا فرصة ولو كانت ضئيلة؛ لذا لا تقُل شيئًا عن هذا الأمر. يمكنك إخبارهم أنك قابلت بول إذا أردت ذلك، لكن لا تقُل إنه ذكر أي شيء عن النفط. دعني أنا أتحدث عن الأمور المتعلقة بالأعمال.»

كان المنزل يشبه «منازل كاليفورنيا»، أي إنه كان مصنوعًا من ألواح بعرض قدم، مثبتة عموديًّا، وتغطي شرائط صغيرة من «القطن» الشقوق. لم تكن به شرفة، سواء أمامية أو خلفية، لا شيء سوى حجر واحد مسطح يُستخدم كدَرَج. كان الطلاء، أو ما تبقى منه، باهتًا للغاية لدرجة أنك لا تستطيع رؤيته حتى مع إضاءة مصابيح السيارة. على الجانب الآخر من الممر، بعيدًا أعلى الوادي الصغير، لاحت في الأفق مجموعة من السقائف، وحظيرة كبيرة مبنية من ألواح الخشب، ومزودة بأعمدةٍ مقطوعة من أشجار الأوكالبتوس. وأتت من هذا المكان أصوات تذمُّر وهياج عدد كبير من الحيوانات المحشودة معًا.

اصطفت العائلة في الفناء، تحدق في مشهدٍ غير معتاد لسيارة تدخل ملكيتهم. كان هناك رجل نحيف ومحني الظهر، وصبي أقصر منه ومحني الظهر أيضًا؛ كان كلاهما يرتدي قميصًا أزرق باهتًا من دون ياقة، وبنطال جينز به الكثير من الرقع ومثبتًا بحمالات. وكانت هناك ثلاث فتيات، يقفن واحدة وراء الأخرى، من الأقصر إلى الأطول، ويرتدين فساتين عادية من قماش الكاليكو، وفي المدخل كانت تقف امرأة شاحبة، يبدو عليها الإرهاق الشديد. وقف الستة جميعًا صامتين، بلا حراك، بينما دخلَت السيارة إلى الفناء وتوقفَت، وهدأ صوت المحرك الصاخب. قال الأب: «مساء الخير.»

قال الرجل: «مرحبًا يا أخي.»

«هل هذا منزل آل واتكينز؟»

«نعم يا أخي.» كان صوتُه ضعيفًا مهزوزًا، لكنه أثار إعجاب باني بشدة؛ لأنه كان يعلم أن هذا الصوت قد اعتاد «التمتمة» و«التكلم بألسنة». تخيل لو أن الأسرة «أطلقَت العنان لنفسها»، وبدأت في «القفز» و«التدحرج» أثناء وقوف باني هناك!

قال الأب: «نحن في رحلة صيد، وقيل لنا إن هذا المكان سيكون جيدًا للتخييم. هل لديك ماءٌ صالح للشرب؟»

«الأفضل على الإطلاق. اعتبِر نفسك في بيتك، يا أخي.»

«حسنًا، سنصعد إلى الممر قليلًا، بعيدًا عن الطريق. هل لديك شجرةٌ كبيرة يمكن أن توفِّر لنا ظلة؟»

«إيلاي، أرِهما شجرة البلوط، وساعِدْهما في التخييم.»

مرةً أخرى شعر باني بسعادةٍ غامرة؛ فهذا كان إيلاي، الذي كان مباركًا من الروح القدس، وكانت تنتابه «الرعشات»، وقد شفى السيدة باجنر العجوز، التي كانت تعاني

من مضاعفاتٍ صحية، بأن وضع يدَيه على رأسها. تذكَّر باني كل التفاصيل حول هذه العائلة، وهي، باستثناء القصص، أكثر التفاصيل التي صادفها غرابةً على الإطلاق.

٤

سار إيلاي صاعدًا على الممر، وتبعَتْه السيارة. كانت هناك شجرةُ بلوط كبيرةٌ دائمة الخضرة، وكانت تحتها مساحةٌ خالية، وأوقف الأب السيارة بحيث تضيء المساحة الخالية؛ فعندما تخيم ومعك سيارة، لا داعي للقلق بشأن الظلام! توقفا، وانزلق باني فوق الباب إلى جواره، وبدأ يفك الأحزمة التي كانت تثبِّت الصرة الكبيرة فوق عتبة السيارة. فك الأحزمة في لمح البصر، وفتح الصرة، وأخرج منها أشياءَ سحرية للغاية. كان هناك خيمة، مصنوعة من حريرٍ خفيف مقاوم للماء؛ بحيث يمكن لف هذه الخيمة البالغ حجمها ثماني أقدامٍ مربعة في صُرة في حجم حقيبة ملابس. وكان هناك أعمدة للخيمة، مكوَّنة من عدة وصلات يمكن ضمها باستخدام المسامير، وأوتاد، وفأس تخييم صغيرة لتثبيت الأوتاد. وكان هناك ثلاث بطانيات تخييم للتدفئة، بالإضافة إلى غطاءٍ مقاوم للماء، يمكن أيضًا استخدامه بطانية. وكانت هناك وسادتان هوائيتان، ومرتبةٌ هوائية، عليك الجلوس لنفخها حتى يحمر وجهك، ويا له من نشاطٍ مسلٍّ ورائع! أخيرًا، كانت هناك حقيبةٌ من القماش تحتوي على مجموعة من أواني التخييم، كلها مصنوعة من الألومنيوم، ويمكن إدخال بعضها في بعض، وكانت كلها مزودةً بمقابض قابلة للفصل، وصناديق ألومنيوم مُقسَّمة لتخزين الطعام. عند ترتيب كل هذه الأشياء، يمكن أن تشعر بالراحة وسط الصحراء أو على قمة جبل كما لو كنتَ في أفضل غرفةٍ في فندق.

طلب السيد واتكينز من إيلاي أن يساعدهما، لكن الأب أخبره ألا يشغل باله؛ فهما يعرفان جيدًا ما يجب عليهما فعله، وكان الأمر سهلًا. ومن ثَمَّ طلب السيد واتكينز من إيلاي إحضار سطل من الماء، وسألهما بعد ذلك عما إذا كانا يريدان بعض الحليب، وبالطبع لم يكن لديهم سوى حليب ماعز. قال الأب لا بأس بهذا، وشعر باني أنه سافر إلى البلقان، أو أيٍّ من الأماكن المثيرة التي قرأ عنها؛ حيث يعيش الناس على حليب الماعز. طلب السيد واتكينز من روث الذهاب لإحضار بعض الحليب، وسُر باني مرةً أخرى؛ لأن روث كانت الأخت التي أحبها بول، والتي قال عنها إنها كانت «عاقلة». ونادى عليها السيد واتكينز، وطلب منها جلب بعض من «البيض» أيضًا، وقال الأب إنهما يرغبان في بعض الخبز، حينئذٍ أصيب باني بالصدمة؛ لأن الرجل العجوز قال إنهم لا يملكون خبزًا؛

فهم لا يملكون مكانًا لزراعة الحبوب، ولم تكن الذرة تنمو جيدًا هنا على التلال؛ لذا لم يكن لديهم سوى البطاطس. قال الأب إنه لا بأس بالبطاطس، فيمكنهما سلق بعضها لتناول العشاء، حينئذٍ قال السيد واتكينز إن بإمكانهما الحصول عليها بشكلٍ أسرع إذا سلقَتها السيدة واتكينز على الموقد؛ مما أثبت عدم فهمه بالكامل للمغزى من رحلة التخييم. رفض الأب، وقال إنهما سيُشعِلان النار على أي حال، وقال السيد واتكينز إن هناك القليل من الثلج الذي يتساقط كل ليلة الآن، وطلب من إيلاي أن يجلب لهما الكثير من الخشب. كان من السهل فعل ذلك، فبمجرد السير لبضع أقدام على جانب الغدير، ستصادف أشجارًا صحراوية، الكثير منها ميت وجاف؛ لذا قطع إيلاي بعض الشجيرات وسحبها وكسرها إلى قطعٍ صغيرة على ركبته. ثم أحضر بعض الصخور، وكان ذلك سهلًا أيضًا؛ لأنه بالكاد كان بإمكانك المشي عشر أقدام في مزرعة آل واتكينز دون أن يصطدم إصبع قدمك بصخرة.

وبعد قليل أشعلا النيران، وسلقا البطاطس في القِدْر بسرور، وفتحا وعاءً من لحم الخنزير المقدَّد وقلَياه في المقلاة. تولَّى الأب أمور الطهو؛ فقد كانت مهنتَه كريمة، بينما تولَّى باني مسئولية تحضير الأطباق وغيرها من الأغراض على الغطاء المقاوم للماء، والذي كان كمفرش طاولة بدون طاولة. وعندما أصبح لحم الخنزير المقدد جاهزًا، كسر الأب البيض على جانب المقلاة، وقلَاه ليحصل على «بيض عيون». وكان حليب الماعز، الغني والدسِم، باردًا حيث كان يُحفظ في «مخزن الينبوع»، ولم تكن النكهة القوية مزعجة؛ لأنك أقنعت نفسك بأنها رائعة. شربا الحليب في أكواب من الألومنيوم كانت جزءًا من عدة التخييم، وكان هناك أيضًا طبقٌ من العسل وقرص عسل، من عسل المريمية البني القوي النكهة، الذي كانت روث قد أحضرَتْه.

دعا الأب العائلة للحضور وتناول الطعام معهما، لكن الرجل العجوز رفض وشكره، وقال إنهم قد تناولوا طعامهم بالفعل. حينئذٍ قال الأب: هل من الممكن أن يجلسوا على الأقل؛ لأنهم لم يكونوا يبدون مرتاحين بالوقوف هناك؛ لذا جلس إيلاي والفتيات الثلاث، وأمهم، التي انضمَّت إليهم، جلسوا جميعًا على صخور على مسافةٍ معقولة من الضوء، وجلس السيد واتكينز على صخرة أقرب قليلًا، وبينما كانا يأكلان، تحدَّث الأب معه عن حالة الطقس والمحاصيل وعن طريقة حياتهم هنا في التلال.

عندما انتهى الأب وباني من تناول الطعام، ومدَّدا جسدَيهما على البطانيات، شاعرَين بالراحة، عرض السيد واتكينز أن يتولى إيلاي نصب الخيمة، لكن الأب قال مرةً أخرى إنه

لا داعي للقلق؛ فقد كان الأمر بسيطًا للغاية، ولن يستغرق سوى بضعِ دقائق. حينئذٍ قال السيد واتكينز إن إحدى البنات ستغسل الأواني من أجلهما، وقال الأب: حسنًا، هذا جيد؛ لذا جمع باني المقالي والأطباق معًا، وحملَتها الفتاة المتوسطة الحجم، التي كانوا يدعونها ميلي، إلى المنزل. وبعد ذلك تجاذب الأب والسيد واتكينز أطراف الحديث، ولاحظ باني أن الأب كان يتعرف بمهارة على الأسرة ويكتسب ثقتهم.

فجأةً جاءت لحظةٌ حرجة في التعارُف؛ حيث ساد صمتٌ مؤقت، وبصوتٍ رصين مثقل بالمشاعر، يختلف عن صوته المعتاد، قال آيبل واتكينز: «أخي، هل لي أن أطرح عليك سؤالًا شخصيًّا؟»

قال الأب: «نعم، بالتأكيد.»

«أخي، هل خَلصتما؟»

حبس باني أنفاسه؛ لأنه تذكَّر ما قاله بول عن طريقة السيد واتكينز، فإذا قلتَ أي شيءٍ مخالفٍ لدينه، فحينئذٍ سينظر إلى أعلى ويبدأ في تلاوة الصلوات بصوتٍ عالٍ و«يطلق العنان لنفسه». كان باني قد أخبر الأب عن هذا، ومن الواضح أن الأب قد عرف ما يجب فعله. لذلك أجاب بنبرةٍ لا تقل رصانة عن نبرة السيد واتكينز وقال: «نعم يا أخي، لقد خَلصنا.»

«هل اغتسلتما بدم المسيح؟»

«نعم يا أخي، لقد اغتسلنا.»

«ما كنيستك يا أخي؟»

«إنها تُسمَّى كنيسة «كلمة الحق».»

ساد صمتٌ مؤقت. ثم قال السيد واتكينز: «لا أعرف شيئًا عن رسالتها.»

قال الأب: «أنا آسف. أودُّ أن أشرحها لك، لكن لا يُسمح لنا بالتحدث عن عقيدتنا مع الغرباء.»

«لكن يا أخي!» من الواضح أن السيد واتكينز كان مندهشًا من ذلك. «قيل لنا في الكتاب المقدس: «الرب قد دعانا لنُبشِّرَهم» وأيضًا «ينبغي أن يُكرَز أولًا بالإنجيل في جميع الأمم.»

قال الأب وهو لا يزال محتفظًا بجديته البالغة: «يا أخي، أنا أفهم ذلك، لكن وفقًا لعقيدتنا، علينا أن نكوِّن صداقات أولًا، ثم نتحدث عن ديننا لاحقًا. وعلينا جميعًا احترام معتقدات الآخرين.»

قال السيد واتكينز: «نعم، يا أخي»، وخفَت صوته قليلًا، وكان بإمكانك أن ترى أنه لا يستطيع العثور على الرد المناسب. ونظر إلى أفراد عائلته وكأنه يطلب الدعم منهم، لكنهم لم ينطقوا بكلمة، باستثناء «حسنًا يا أبي» عندما كان يُطلب منهم فعل شيءٍ ما.

لذلك كان الأمر متروكًا للأب للتخفيف من حدة الموقف المحرج. قال: «لقد جئنا إلى هنا للبحث عن السُّمَانى. أسمع الكثير منه حولنا.»

٥

كان الطقس يزداد برودة لدرجة أن النار الصغيرة لم تعد توفر الدفء اللازم؛ لذا غادر آل واتكينز، ونصب الأب وباني الخيمة، ووضعا فيها أغراضهما، ونفخ باني المرتبة حتى امتلأت. كانت النجوم تتلألأ؛ لذا وضعا فراشهما في العراء. وبعد بسط البطانيات، خلعا أحذيتهما وملابسهما الخارجية، ووضعاها في الخيمة، ودخلا مسرعَين تحت البطانيات؛ فقد كان البرد قارسًا لدرجة تجعلك تقفز في مكانك! تكوَّر باني على نفسه التماسًا للدفء، واستلقى على فراشه، مستشعرًا بنسيم الليل على جبهته، وقال: «قل لي يا أبي، ما هي كنيسة «كلمة الحق»؟»

ضحك الأب ضحكة قصيرة. وقال: «يا له من معتوهٍ عجوز مسكين! كان عليَّ إسكاته بأي طريقة.»

استلقيا في مكانهما، وسرعان ما غط الأب في نومٍ عميق. لكن الصبي، رغم أنه كان متعبًا، لم ينم على الفور. وظل راقدًا يفكر: كان سلوك الأب مختلفًا عن السلوك الذي قرَّر باني اتباعه. فقد كان الأب يكذب كلما رأى ذلك ضروريًّا، وكان يبرر ذلك بأن الشخص الآخر لا يمكنه تحمُّل الحقيقة، أو أن ليس لديه الحق في معرفتها في ظروفٍ معينة. ومع ذلك، كان من الواضح عدم رغبة الأب في اتباع باني السلوك ذاته. فقد كان يطلب من باني ألَّا يقول شيئًا، لكنه لم يطلب منه قطُّ أن يكذب، وبوجهٍ عام، عندما كان يُضطر إلى الكذب، كان يفعل ذلك في غياب باني! وكان هناك الكثير من الأشياء المماثلة؛ فقد كان الأب يدخِّن السيجار، ويشرب بين الحين والآخر، لكنه لم يكن يريد باني أن يدخِّن أو يشرب. كان هذا غريبًا.

كان رأس باني ووجهه باردَين، لكن باقي جسده كان دافئًا، وكان قد بدأ يغفو تدريجيًّا، وأصبحَت أفكاره ضبابية، لكنه فجأة استيقظ مرةً أخرى وكان في تمام وعيه. ما كان ذلك؟ كانت المرتبة تهتز، لدرجة أنها كانت تدحرجك من جانب لآخر؛ لذلك كان

عليك مد مرفقَيك للحفاظ على توازنك. صاح باني: «أبي! ما هذا؟» استيقظ الأب على الفور، وانتصب جالسًا، وكذلك فعل باني، مادًّا يدَيه ليحافظ على ثباته. صاح الأب: «يا للهول! إنه زلزال!»

من المؤكد أنه كان زلزالًا! كان شعورًا غريبًا أن تهتز الأرض الصلبة، التي تعتمد عليها، على هذا النحو! وبدأَت الشجرة تصدر صريرًا فوق رأسَيهما وكأن ريحًا تهزها، حينئذٍ قفَزا وفرًّا من تحتها. ثارَت ضجة، وصياح، ونواح؛ فالمَعْز، التي كرهَت هذا الإحساس أكثر من البشر، لم يكن لديها أفكار عن بنية الأرض والصدوع الجيولوجية لتهدئة عقولها. ثم صدر نوعٌ آخر من الصخب، قادمًا من آل واتكينز، الذين على ما يبدو كانوا قد هُرعوا خارج الكوخ. «المجد للرب! أنقذنا يا يسوع! ارحمنا يا رب!»

قال الأب: «انتهى كل شيء الآن، دعنا نستلقِ مرةً أخرى، وإلا فسيأتي هؤلاء الأشخاص ليُصلُّوا معنا.»

أطاعه باني، واستلقيا بلا حراك. همس الصبي: «يا إلهي، كان ذلك زلزالًا مروعًا! هل تعتقد أنه تسبَّب في هدم أي مدن؟»

أجاب الأب: «على الأرجح كان في هذه المنطقة فقط. تحدث الزلازل كثيرًا هنا في هذه المنطقة المرتفعة.»

«إذن أنت تظن أن آل واتكينز معتادون عليها.»

«أظن أنهم يستمتعون بإحداث ضجة. فليس لديهم الكثير من الإثارة في حياتهم.» وكان هذا كل ما كان على الأب قوله. فقد كان لديه الكثير من الإثارة في حياته الخاصة، ولم يكن مهتمًّا بشكلٍ خاص بالزلازل، فضلًا عن هذيان هؤلاء المجانين المتدينين. وسرعان ما راح في النوم مجددًا.

لكن باني رقد واستمع. فها هم آل واتكينز «يُطلِقون العنان لأنفسهم»، وكانوا يؤدون صلاة تحتوي على قفزٍ مقدسٍ منتظم، في العراء تحت النجوم البيضاء الباردة. صاحوا، وصلَّوا، وضحكوا، وغنوا، وصرخوا قائلين: «المجد! المجد!» و«آمين!» و«سلاه!» وكلمات أخرى لم يفهمها باني، لكنها ربما كانت يونانية أو عبرية، أو ربما من لغة رؤساء الملائكة. كان صوت آيبل واتكينز العجوز هو الأعلى، وأطلق الأطفال صرخات حادة كأنهم يغنون في جوقة، وكان ثغاء المَعْز يشبه الصوت الصادر من مجموعة من الكمان الأجهر في أوركسترا. دبت قُشَعريرةٌ باردة في ظهر باني؛ فعقله ذو التفكير العلمي، الذي كان يعرف بنية الأرض والصدوع الجيولوجية، كان عمره قرنًا أو قرنَين فقط، بينما يبلغ

عمر العقل الفطري الذي يلفظ التعاويذ آلافًا وربما مئات الآلاف من السنين. لقد ابتدع الكهنة نوبات الهياج، وتنبَّئوا بالكوارث التي تحقَّقَت بسبب إيمان الكهنة والضحايا بها، مما عزز من مصداقية الكهنة أكثر من أي وقتٍ مضى. كانت هذه تعويذة ضد الزلازل — حيث كانوا يجثون على ركبهم، ويرفعون أيديهم في الهواء ويتمايلون بأجسادهم …

«مركبات إلى المجد،
مركبات إلى المجد،
مركبات إلى المجد
مع الحمل المقدس!»

غفا باني في النهاية، وعندما فتح عينَيه مرةً أخرى، كان نور الفجر يشقشق خلف التلال، وكان الأب يرتدي ملابس الصيد ذات اللون الكاكي. وعلى الفور، قفز باني من الفراش، دون حتى فرك عينَيه، وارتدى ملابسه بسرعة؛ فهذه البرودة كادت تجمد العظام!

صعد إلى جانب التل، وبدأ في تجميع الأغصان الجافة، وأشعل النيران ووضع عليها القدر. ثم جاء إيلاي، حاملًا الأطباق النظيفة وغيرها من الأغراض، وسأل ما إذا كانا يريدان حليبًا باردًا من الليلة الماضية، أم حليب هذا الصباح الدافئ. وسأل إيلاي بحماس: «هل شعرتُما بذلك الزلزال. لقد كان زلزالًا رهيبًا! هل تحدُث الزلازل في الأنحاء التي أتيتما منها؟»

كان لإيلاي شعرٌ أصفرُ شاحب، لم يقُصَّه منذ فترة من الوقت، ولم يُمشَّط منذ «زلزال» أمس. كانت عيناه زرقاوَين شاحبتَين جاحظتَين قليلًا، تعطيانه مظهرًا شغوفًا. وكان لديه عنقٌ طويل وتفاحةُ آدم كبيرة. كشف بنطال إيلاي البالي عن حذائه الذي كان يرتديه بدون جوربَين، وساقَيه اللتَين كانتا تتدليان منه نتيجة لنموهما السريع. وقف هناك، يحدق في كل تفاصيل معدات وملابس هذَين الغريبَين القادمَين من المدينة، وفي الوقت ذاته كان يحاول استكشاف روحَيهما. «ماذا تقول كنيسة «كلمة الحق» عن الزلازل؟»

كان الأب منشغلًا بقلي لحم الخنزير المقدَّد والبيض، وللتخلص من إيلاي قال إنهما يرغبان في الحصول على بعضٍ من حليب هذا الصباح. لكن إيلاي لم يستغرق وقتًا طويلًا للعودة مرةً أخرى، ووقف وراقب كل لقمة تدخل فمَيهما؛ وأخبرهما أن العائلة «صلَّت بقوةٍ عظيمة» أثناء الزلزال، وأن الزلازل تعني أن الروح القدس قد سئم من الزنا والسكر

والكذب في العالم، وسألهما عما إن كانا يرتكبان أيًّا من هذه الأشياء. لم يكن لدى باني فكرةٌ واضحة عن الزنا، لكنه كان يعلم أن الأب قد كذب كذبةً كبيرةً للغاية قبل حدوث «الزلزال» بوقتٍ قصير، وضحك بداخله وهو يقول لنفسه إن آل واتكينز قد يعتبرون هذا الأمر معجزة، إن عرفوا ذلك!

جاء الرجل العجوز للتأكُّد من أنهما بخير. كان السيد واتكينز النسخة الأكبر والأطول من ابنه، بالعينَين الزرقاوَين الشاحبتَين البارزتَين أنفسهما وتفاحة آدم الكبيرة؛ كان وجهه مسفوعًا نتيجة التعرض لظروفٍ مناخيةٍ مختلفة، ويظهر فيه الكثير من التجاعيد الناجمة عن الشعور بالقلق، وكان يبدو عليه أنه رجلٌ عجوزٌ لطيف، صادق وطيب، على الرغم من جنونه. تحدَّث هو أيضًا عن «الزلزال»، وتحدَّث عن الزلزال الذي هز المباني المشيدة بالطوب والخرسانة في روزفيل قبل عدة سنوات. ثم قال إن ميلي وسادي ذاهبتان إلى المدرسة، وستُحضِران بعض الخبز إذا أراد الغريبان ذلك. لذلك أعطاه الأب دولارًا، وبعدها تجادلا قليلًا؛ لأن السيد واتكينز قال إنهم لن يقبلوا إلا بالسعر المعتاد لبيع البيض والحليب والبطاطس في المتجر، وإنهم لن يتلقوا أي أجرٍ مقابل التخييم؛ لأن ذلك لم يشكِّل أي مشكلة لهم؛ فهم يسعدون بمقابلة الغرباء؛ لأنهم يعيشون حياةً منعزلة في هذه التلال، ولولا الرب وكتابه المقدس، لفقدوا الشغف في الحياة.

٦

وضع الأب وباني أحزمة الخراطيش حول كتفَيهما، ولقما بنادق الصيد المتعددة الطلقات، وانطلقا عبر التلال نحو الوادي الصغير. لم يهتم باني كثيرًا بصيد السُّمَانى؛ فقد كان يشعر بالأسف تجاه تلك الطيور الجميلة ذات اللون الأسود والبني، التي كانت تتباهى بعرفها الفخم، وتركض بأرجلها الرشيقة السريعة، وتطلق أصواتًا عذبة عند غروب الشمس. لكن باني لم يبُح مطلقًا بهذه الأفكار؛ لأنه كان يعلم أن الأب يحب الصيد، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإبعاده عن عمله، والخروج إلى العراء، وهو ما قال الطبيب إنه مفيد لصحته. كان الأب سريعًا مثل البرق في تحريك بندقيته، وبسبب مهارته في التصويب بدا وكأن إصابة الهدف أمرٌ سهل للغاية، ولم يرتكب قَط الخطأ الذي ارتكبه باني، وهو محاولة إطلاق النار على عصفورَين في الوقت نفسه. كما كان لدى الأب الوقت لمراقبة باني وتعليمه؛ للتأكد من أنهما يتحركان في خطٍّ مستقيم، ولم ينحرفا عن بعضهما، حتى لا يكون أحدهما في مرمى بندقية الآخر.

تجولا كثيرًا في التلال والوديان، وحلَّقَت الطيور في كل اتجاه مرفرفةً بسرعة بأجنحتها، ثم دوى صوت البندقية، وكانت الطيور إما تتمكن من الفرار وإما تسقط على الأرض. لكن حينئذٍ لم يكن هناك داعٍ لالتقاطها، فما زال هناك طيورٌ أخرى، فهي تحلق بعيدًا وتختبئ، وعليك تتبُّعها، وإطلاق المزيد من الطلقات، حتى تجمع أخيرًا كل ما يمكنك العثور عليه، ويصبح لديك حزم من الريش الدافئ الناعم، المبقع بالدم. في بعض الأحيان كانت الطيور تظل على قيد الحياة حتى بعد إصابتها، وحينئذٍ كان عليك كسر رقابها، وكان باني يكره هذا الفعل.

ملآ حقائبهما، ثم عادا إلى المخيم وهما في غاية التعب والجوع. أتى إيلاي، وعرض أن ينظف الطيور لهما، وكانا سعيدَين بالسماح له بفعل ذلك، وأعطياه نصف الطيور ليأكلها أفراد أسرته، كان من المثير للشفقة رؤية التماع عينَي الشاب الفقير الذي كان يتضوَّر جوعًا عند سماع هذا النبأ. فليس من السهل أن تصل إلى درجةٍ عالية من النضج الروحي في هذه السن المبكرة!

أخذ إيلاي الطيور إلى المنزل، حيث يتوفر لوح تقطيع ودلاء من الماء، وفي هذه الأثناء، استلقى باني لنيل قسط من الراحة، مادًّا قدميه أمامه. فجأة انتصب جالسًا في تعجُّب. وقال: «أبي! انظر إلى هذا!»

«علام أنظر؟»

«عند حذائي!»

«ما الأمر؟»

قرَّب باني قدمه إليه. وقال: «أبي، هذا نفط!»

«هل أنت متأكد؟»

«ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟» نهض ووثب على قدمٍ واحدة، حتى يستطيع الأب أن يرى بنفسه. «إنه يغطي الجزء العلوي من الحذاء.»

«هل أنت متأكد من أنه لم يكن موجودًا من قبلُ؟»

«بالطبع لا يا أبي! ما زال طريًّا. لا يمكنني حزمُ حذائي هكذا دون أن ألاحظه. لا بد أنني وطئتُ على تجمُّع للنفط. يا إلهي، أراهنك أن السبب كان الزلزال! ربما خرج بعض النفط عَبْر أحد الشقوق!»

خلع باني حذاءه، وفحص الأب الاكتشاف. وقال له ألا يبالغ في الشعور بالحماس؛ فقد كان من الشائع العثور على تجمُّعاتٍ نفطية قريبة من سطح الأرض، لكن عادةً ما

تكون صغيرة ولا تفضي إلى أي شيء. ومع ذلك، لا ينبغي تجاهل المؤشرات التي تدل على وجود نفط؛ لذلك بعد الغَداء سيخرجان مرةً أخرى، ويتتبعان خطواتهما، لمعرفة ما يمكنهما اكتشافه.

كان من السهل على الأب أن يقول لباني ألا يتحمس كثيرًا؛ فهو لم يكن يعرف سوى القليل عن عقل ولده! فقد كان هذا حُلم باني الذي ظل يحلُم به لسنوات. فقد كان الأب يتحدث طوال الوقت عن أنه سيمتلك يومًا ما قطعةَ أرضٍ غنية بالنفط، تخصه هو وحده. وكان يجري حساباته ويبين أنك عندما تدفع لرجل سدس الأرباح، فأنت في واقع الأمر تعطيه نصف صافي أرباحك؛ لأنك مطالب بدفع جميع التكاليف، ليس فقط تلك الخاصة بالحفر، ولكن أيضًا المتعلقة بصيانة البئر وتشغيلها، وتسويق النفط. وبهذا يكون الشخص الآخر قد حصل على نصف أموالك، دون أن يفعل شيئًا سوى امتلاك الأرض! حسنًا، يومًا ما، سيكتشف الأب أرضًا، ويمتلكها وحده، حتى يتمكن من تطويرها جيدًا، وبناء مدينة نفطية يمكنه إدارتها كما ينبغي، دون أي تدخل أو أي ابتزاز.

ولكن كيف سيعثر على تلك الأرض؟ كان هذا هو حلم باني! كان قد تخيل خوض هذه المغامرة بأشكال عدة؛ منها أن يحفر حفرة في الأرض، ثم يندفع النفط منها، ومن ثم يغطيها باني ليخفيها عن الأنظار، ويشتري الأب أميالًا من الأراضي حول هذه الحفرة، ويجعل باني شريكًا معه فيها، أو أن باني، أثناء استكشاف كهف في الجبال، يسقط في تجمع نفطي، ويخرج منه بصعوبة بالغة. كان هناك العديد من الطرق المختلفة التي تصورها، لكنه لم يفكر قطُّ في هزةٍ أرضيةٍ تتسبَّب في تصدُّع الأرض، قبيل خروجه هو والأب لصيد السُّمَانى!

كان باني متحمسًا للغاية، لدرجة أنه لم يلاحظ طعم تلك الوجبة اللذيذة من السُّمَانى والبطاطس المقلية واللفت المسلوق. وبمجرد أن فرغ الأب من تدخين سيجاره، انطلقا مرة أخرى، ولم يرفعا عينيهما عن الأرض إلا لدراسة المعالم البارزة حولهما، ولمعرفة ما إذا كانا قد سارا في هذا الممر عبر التلال أو ذاك. كانا قد سارا لمسافة نصف ميل أو نحو ذلك، عندما وجد الأب زوجًا من السُّمَانى وأطلق عليه الرصاص فأسقطه، ومشى لالتقاطه، ثم صاح قائلًا: «ها هو، يا بني!» ظن باني أنه كان يتحدث عن السُّمَانى، لكن الأب نادى مرة أخرى: «تعال إلى هنا!» وعندما اقترب الصبي قال له الأب: «ها هو النفط!»

كان هناك خطٌّ أسودُ من النفط، بعرض ست أو ثماني بوصات، يسيل عَبْر صدع متعرج في الأرض، كان طريًّا ورطبًا، وكان يتدفَّق مُصدرًا فقاقيع بين الحين والآخر، كما

لو كان لا يزال يتسرب. جثا الأب على ركبتَيه وغمس إصبعه فيه، ورفعه أمام الضوء ليرى اللون، وكسر غصنًا يابسًا من شجرة وغرزه في الصدع ليرى مدى عمقه، ومقدار ما تبقَّى فيه من نفط. عندما نهض الأب مرةً أخرى، قال: «لا شك في أن هذا نفطٌ حقيقي. أظن أن شراء هذه المزرعة لن يضُرنا في شيء.»

وهكذا عادا إلى المخيم. وكان باني يشعر بسعادةٍ بالغة، كانت بادية عليه، وكان الأب يحسب ويخطط، ولم يهتم أيٌّ منهما بالسُّمَانى. سأل الأب: «هل أخبرَتْك السيدة جرورتي من قبلُ عن مساحة هذه المزرعة؟»

«قالت إن مساحتها ميلٌ مربع.»

«سيتعيَّن علينا معرفة حدودها. وبالمناسبة، يا بني، لا ترتكب أي خطأ في الوقت الحالي، ولا تتفوه بكلمة لأحد عن النفط، ولا حتى بعد أن أشتري المكان. فالحصول على مساحةٍ كبيرة من الأرض في هذه التلال لن يضُرنا في شيء. ولن نُضطَر إلى دفع الكثير مقابل حجارة.»

«لكن اسمع يا أبي، ستعطي السيد واتكينز سعرًا عادلًا!»

«سأعطي له ثمن الأرض، لكنني لن أدفع له مقابل النفط. وذلك لأنه ربما يشتبه في الأمر ويرفض البيع. فلا شأن له بالنفط الموجود هنا؛ فهو لم يَستفِد منه من قبلُ، ولن يستفيد منه حتى بعد مليون عام. وعلاوةً على ذلك، ما الفائدة التي يمكن أن يجنيها مسنٌّ مسكينٌ معتوه مثل هذا من أموال النفط؟»

«لكننا لا نريد استغلاله يا أبي!»

«سأعطيه ما يكفيه من المال الذي لا يجعله يعاني، وفي الوقت ذاته لا يمكنه التبرع به لأي إرساليات، وسأعتني به دائمًا، وبأطفاله، وأتأكد من أنهم يعيشون في رغد. ولكن لن يكون هناك أي أرباح من النفط! وإذا سألك أيٌّ منهم عني، يا بني، فقط قُل إنني أعمل في التجارة؛ أتاجر في الأراضي وجميع الأشياء الأخرى. قُل لهم إنني أملك متجرًا عامًّا؛ حيث أشتري المعدات وأُقرِض المال. وهذا كله صحيح تمامًا.»

تابعا السير، وبدأ باني في تأمل عناصر المشكلة الأخلاقية التي كانت تشغل تفكيره من حين لآخر لسنواتٍ عديدة. فما حقوق آل واتكينز بالنسبة للنفط الموجود تحت أرض هذه المزرعة؟ لم يقُل الصبي أي شيء لوالده؛ لأنه كان يعلم أن والده قد حسم قراره، وبالطبع سوف يطيع أوامر والده. لكنه فكر في الأمر طوال الطريق حتى عادا إلى المزرعة؛ حيث شاهدا الرجل المسن يثبِّت بعض الألواح الخشبية بحظيرة المَعْز الخاصة به. انضَمَّا

إليه، وبعد الدردشة قليلًا حول السُّمَانى، قال الأب: «سيد واتكينز، هل يمكنني أن آتي إلى منزلك لأحظى بمحادثة معك أنت وزوجتك؟» وعندما وافق السيد واتكينز، التفت الأب إلى باني قائلًا: «معذرةً، يا بني، فلتُحاوِل اصطياد بعض الطيور بنفسك.» وكان باني يعرف بالضبط ما يعنيه ذلك؛ فقد ارتأى الأب أنه من الأفضل لابنه ألَّا يشهد هذه العملية الجراحية، التي سيفقد فيها آل واتكينز البائسون ستمائة وأربعين هكتارًا من الحجارة!

٧

تجول باني إلى أعلى الغدير، وفي أعلى المنحدر رأى المَعْز وهي تأكل. صعد ليشاهدها؛ وهناك قابل روث.

كانت جالسةً على جلمودٍ صخريٍّ كبير، تحدق في حافة التلال. كانت حاسرة الرأس وكانت ساقاها باديتَين من الفستان الكاليكو المرقَّع والباهت، الذي صغُر مقاسه عليها ولم يكن لديها غيره. كانت طفلةً نحيفة، وجهها شاحب، على الرغم من سمرته؛ فقد كان يشوبه الهزال، ويفتقر إلى التورُّد. كانت عيناها زرقاوَين مثل باقي أفراد الأسرة، وجبهتها مستديرة بارزة، وشعرها مشدودًا للخلف ومربوطًا بشريطٍ قديم. جلسَت ترعى قطعان المَعْز، كما كان الفتيان والفتيات يفعلون قبل ألفَي عام في فلسطين، كما قرأَت في الكتاب الوحيد الموجود في منزل آل واتكينز. كانت تفعل هذا كل أسبوعَين لمدة عشر ساعات أو اثنتَي عشرةَ ساعةً في اليوم، بالتناوب مع شقيقتَيها. نادرًا ما كان يقترب أحدٌ من هذا المكان؛ ولذلك شعَرَت بعدم الارتياح عندما صَعِد الصبي الغريب إلى هناك، لم تنظر إليه، وكانت تشعُر بالتوتر.

لكن باني كان يعرف كيف يمكنه الدخول إلى قلبها. سألها: «أنت روث، أليس كذلك؟»، وعندما أومأَت برأسها، قال: «أنا أعرف بول.»

وهكذا صارا صديقَين في لمح البصر. ضمَّت يديها معًا وسألَته وهي تحدِّق فيه: «يا إلهي، أين قابلته؟»

أخبرها باني كيف أنه كان في منزل السيدة جرورتي — لكنه لم يقُل شيئًا عن النفط بالطبع — وكيف جاء بول، وما حدث بالضبط. أصغت إلى كل كلمة دون أن تقاطعه؛ فروث لم تكن كثيرة الكلام، وبالرغم من عمق مشاعرها، لم تكن تُفصِح عنها. لكن باني كان يعلم أن روحها كانت هائمة في قصته؛ فقد كانت تُحب أخاها حبًّا جَمًّا. سألَته هامسة: «ألم تره بعد ذلك مرةً أخرى؟»

قال باني: «أنا لم أرَه قَط على الإطلاق، ولن أعرفه إن التقيتُ به. ألا تعرفين أين هو؟»

«لقد تلقيتُ منه ثلاث رسائل. دائمًا ما يرسلها من مكانٍ جديد، ويقول إنه لن يقيم هناك. يقول إنه سيأتي لرؤيتي في يوم من الأيام، أنا فقط. فهو خائف من أبي.»

«ماذا سيفعل والدكِ؟»

«سيجلده. فهو مختلفٌ معه بشدة. ويقول إنه أحد أعوان الشيطان. فبول يقول إنه لا يؤمن بما في الكتاب المقدَّس! هل تصدق ذلك؟»

تردَّد باني، متذكرًا والده وما قاله عن «كلمة الحق». لكنه قرَّر أنه يمكنه الوثوق في روث؛ ولذلك أخبرها أنه لا يظن أنه يؤمن بكل شيء. حدَّقَت روث في عينَيه بقلقٍ شديد وسألَته: «ما الذي يسبب الزلازل؟»

أخبرها باني بما علَّمه إياه السيد إيتون عن قشرة الأرض وتقلُّصها، والصدوع التي تحدُث في الطبقات التي تتأثر على الفور بهذا الضغط. واستنتج من نظرة الإعجاب على وجهها أن هذا كان أول درسٍ لها على الإطلاق في العلوم الطبيعية. قالت: «ولذلك لستَ بحاجة لأن تخاف!»

ثم لاحظ باني علامات بزوغ فكرةٍ أخرى في ذهنها. وكانت روث تحدِّق فيه باهتمام أكثر من أي وقتٍ مضى، وصرخَت: «يا إلهي! أنت من أرسلت ذلك المال!»

تساءل ببراءة: «أي مال؟»

«جاءت أربع رسائل بداخل كلٍّ منها ورقةٌ نقدية فئة خمسة دولارات، دون أن يكون مكتوبًا معها شيء. قال أبي إنه الروح القدس، لكنه كان أنت! أليس كذلك؟»

وهكذا بعد هذه المواجهة المباشرة، أومأ باني برأسه معترفًا؛ واحمر وجه روث خجلًا، وبدأَت تشكره وهي تتلعثم وتشعُر بالإحراج؛ فهي لم تكن تعلم كيف سيتمكنون من رد هذا المال؛ فقد كانوا يواجهون وقتًا عصيبًا. قاطعها باني، وأخبرها أنه ليس هناك داعٍ لرد المال لأن الأب كانت لديه أموالٌ كثيرةٌ فائضةٌ عن حاجته. وأوضح لها أن الأب كان يعرض شراء المزرعة من والدَيها، وسداد الرهن العقاري، والسماح لهم بالعيش هناك ما داموا يريدون ذلك، مقابل دفع إيجارٍ صغير جدًّا. بدأَت الدموع تسيل على خدَّي روث، وكان عليها أن تدير رأسها بعيدًا؛ كان الأمر محرجًا فهي لم تستطع تمالُك نفسها، ولم يكن لديها شيءٌ تمسح به دموعها، فكل قطعةٍ من فستانها كانت ضرورية لتغطية ساقَيها العاريتَين. انزلقَت عن الصخرة، ودخلت في نوبة بكاء بعيدًا عن بصره،

وجلس باني مضطربًا، ليس بسبب تعبيرها عن عواطفها بقَدْر ما كان بسبب الحرب الأخلاقية التي كانت تدور بداخله. قال لنفسه إن دافعه الحقيقي لحمل الأب على المجيء إلى هنا كان مساعدة آل واتكينز، أما النفط فقط فكان مجرد ذريعة لإقناع الأب. وفي هذا الخصوص، كان الأب سيشتري المزرعة، فقط لمساعدة الأسرة، وبدون أي نفط، ربما كان الأمر سيتطلب بعض المناقشات، لكنه كان سينجح في النهاية! لذلك طمأن باني نفسه، لكن طَوال الوقت كان يفكر في تلك العملية الجراحية التي كانت تُجرى في الكوخ، بينما كان يجلس هنا تاركًا روث تعتبره بطلًا ومنقذًا.

كان الأب قد قال: «ما الفائدة التي يمكن أن يجنيها مسنٌّ مسكين معتوه مثل هذا من أموال النفط؟» وعرف باني أن الأب كان سيستعمل الحُجة ذاتها بشأن روث؛ فقد كانت سعيدة وتتمتع بصحةٍ جيدة، وتجلس في الشمس كاشفةً عن ساقَيها السمراوَين، كان هذا عندها أفضل شيء في العالم، أفضل بكثير مما لو كانت ساقاها في جواربَ حريريةٍ باهظة الثمن. كان هذا لا بأس به بالنسبة لباني، لكن حينئذٍ، راودَتْه فكرةٌ أخرى: لماذا ترتدي النساء الأخريات الجوارب الحريرية؟ فها هي العمة إيما التي تجلس على تسريحتها، لا ترتدي فقط الجوارب الحريرية، بل المشدات المستوردة من باريس، ولديها ما يكفي متجرًا كاملًا من مستحضرات التجميل، لماذا لا تجلس هنا في الشمس ترعى المَعْز وهي تكشف عن ساقَيها السمراوَين؟

٨

سمع باني صوت الأب ينادي عليه، فودَّع روث، وركض نحو الغدير. كان الأب جالسًا في السيارة. قال: «سنذهب إلى بارادايس. لكن غَيِّر أولًا هذا الحذاء الملطَّخ بالنفط.» فعل باني كما قال الأب، ووضع حذاءه جانبًا في صندوق السيارة. قفز في السيارة، ومضيا في الممر، وقال الأب، وعلى وجهه ابتسامةٌ مبتهجة: «حسنًا، يا بني، لقد أصبحَت المزرعة ملكنا.»

كان الأب مستمتعًا باللعبة التي لعبها للتو، وأخبر باني عنها، متجاهلًا احتمالات تأثير ذلك على مشاعر باني. كان الأب قد بدأ الحديث بلباقة مع السيد واتكينز وزوجته حول افتقار العائلة للخبز، مما جعل السيد واتكينز يتحدث عن الموقف برمته. كان هناك رهنٌ عقاري بقيمة ألف وستمائة دولار بضمان المزرعة، بالإضافة إلى الفائدة المتأخرة التي تصل قيمتها إلى ما يقرب من ثلاثمائة دولار، وكانوا قد تلقَّوا إنذارًا نهائيًّا من البنك بأن إجراءات نزع الملكية ستبدأ الأسبوع المقبل. وهنا أوضح الأب أنه يريد مكانًا للتخييم

الصيفي؛ حيث يمكن أن يعيش ولده في الهواء الطلق، وسيشتري المزرعة بسعر معقول. بدأَت السيدة واتكينز المسكينة في البكاء؛ فقد كانت، حسبما بدا، قد وُلدَت في هذا المكان؛ ولذلك فهو يتمتع بمكانةٍ أكبر من مجرد منزل. أخبرها الأب أنه لا داعي للقلق؛ فبإمكانهم البقاء في المزرعة، والاستمرار في زراعتها، لمدة تسعة وتسعين عامًا مقابل دفع عشرة دولارات في السنة. أمسك الرجل المسن بيد الأب، وقال إنه كان يعلم أن الرب سينقذهم. رأى الأب أن هذه ركيزةٌ جيدة يمكنه استخدامها؛ ولذا أوضح أن الرب قد أرسله، مسترشدًا برؤيا «كلمة الحق»؛ وبناءً على ذلك كان السيد واتكينز يوافق على كل ما كان يقوله له الرب على لسان الأب!

وبالطبع تولى جيه أرنولد روس شئون تلك الأسرة ونظَّمها، وأوقف هُراء التبرع بأموالهم للإرساليات! فقد قال الرب للأب أن يخبر السيد واتكينز أنه سيستخدم نقوده في إطعام أطفاله وكسوتهم وتعليمهم. علاوةً على ذلك، أخبره الرب ألا يدفع أسهم الأرض نقدًا، بل يجب أن تكون في شكل شهادات إيداع في شركة لإدارة الأموال، ستدفع لهم دخلًا صغيرًا يبلغ حوالي خمسة عشر دولارًا في الشهر، وذلك أفضل بكثير من دفع فائدة على الرهن العقاري تُقارِب عشرة دولاراتٍ شهريًّا للبنك! وكذلك أمر الرب بأن تُحفظ هذه الأموال في شكل وديعة للأطفال، ويمكن لبول صديق باني أن يشكُر الأب لأنه وفر له نصيبًا. فقد قال السيد واتكينز إن أحد أبنائه قد ضل الطريق، ولا يستحق رعاية الرب، لكن الأب أخبره أن رؤيا «كلمة الحق» أكَّدَت له أن الرب سيهدي هذا الابن الضال في الوقت المناسب، تلقَّى السيد واتكينز هذه الرؤيا بفرح، ووقَّع هو وزوجته على عقد البيع الذي أخرجه الأب. كان سعر الشراء ثلاثة آلاف وسبعمائة دولار، وفقًا لتقدير السيد واتكينز؛ فقد قال إن ثمن الأرض في هذه التلال يبلغ خمسة دولارات للهكتار، وقدَّر ثمَن الإصلاحات التي أجراها بالمزرعة بخمسمائة دولار. قال الأب إن الإصلاحات لا تستحق هذا المبلغ حقًّا؛ فما زالت المزرعة تحتاج إلى المزيد من الإصلاحات، لكنه قَبِل بتقدير الرجل المسن لقيمتها. ونَصَّ العقد على أن يكون للسيد واتكينز الحق في الحصول على ما يكفي من الماء لري هكتارَين من الأرض؛ حيث كانت هذه هي المساحة المزروعة حاليًّا؛ وبالطبع، سيعطيه الأب المزيد إذا أراد، وذلك ليتجنَّب أي نزاعاتٍ مستقبلية حول حقوق الماء. وفي الصباح، كان السيد واتكينز وزوجتُه سيتوجهان إلى بارادايس، وسيستأجر الأب هناك سيارة تتسع لأربعة ركاب، وسينطلق بهما إلى بلدةٍ أخرى؛ حيث يمكنهم إيداع العقد لدى وكيل ضمان دون إجراء المزيد من المناقشات.

في غضون ذلك، كان الأب في طريقه إلى بارادايس، ليطلب من وكيل عقارات البلدة شراء المزيد من الأراضي له. سأله باني: «لماذا لا تطلب ذلك من بن سكوت؟» أجاب الأب بأن بن كان وضيعًا؛ فقد أمسك به وهو يحاول الحصول على عمولة من الطرف الآخر. وعلى أية حال، يمكن لأي رجلٍ محلي أن يفعل ذلك الأمر على نحوٍ أفضل، وسيكسب الأب ولاءه بعمولةٍ إضافية، ليسمح لباني أن يلاحظ ويتعلم كيفية سير الأمور. ولحسن الحظ، كان الأب قد اتخذ الاحتياطات اللازمة، وأحضر معه شيكًا مصرفيًّا قيمته ثلاثة آلاف دولار. قال بسخريةٍ ماكرة: «لم أكن أعرف إلى متى سنخيم.»

وهكذا ذهبا إلى مكتبٍ يحمل لافتةً مكتوبًا عليها: «جيه إتش هارداكر، للعقارات والتأمين والقروض». كان السيد هارداكر يجلس واضعًا قدمَيه على مكتبه والسيجار في فمه، في انتظار فريسته؛ حيث كان يشبه عنكبوتًا نحيفًا يبدو عليه الجوع، ولم ينخدع للحظة بملابس الصيد القديمة ذات اللون الكاكي التي كان يرتديها الأب؛ علم أن هذا الرجل يملك المال؛ لذا أنزل قدمَيه على الأرض وانتصب في جلسته. جلس الأب، وأبدى ملاحظةً عن الطقس، وسأل عن الزلزال، وأخيرًا قال إن له قريبًا يريد أن يعيش في مكانٍ مفتوح من أجل حالته الصحية، وإن الأب قد اشترى للتو مزرعة آيبل واتكينز، ويرغب في التوسُّع في تربية المَعْز؛ لذا هل يمكنه الحصول على بعض الأراضي المتاخمة؟ أجاب السيد هارداكر على الفور، وقال إن هناك عددًا كبيرًا من الأراضي المتاحة للشراء؛ فهناك أرض السيد باندي، التي تقع بجوار مزرعة آل واتكينز مباشرةً، وأخرج السيد هارداكر خريطةً كبيرة وبدأ يوضح للأب مكانها بقلمه الرصاص، وكانت مساحتُها تبلغ ما يقرب من ألف هكتار، لكنها مليئةٌ بالصخور ويقع معظمها في التلال. سأل الأب عن سعر الشراء، وقال السيد هارداكر إن سعر الهكتار في التلال كان خمسة أو ستة دولارات. وبدأ في عرض أراضٍ أخرى، وطلب منه الأب أن ينتظر، وأخرج ورقة وقلم رصاص وبدأ في تدوين الأسماء والمساحات والأسعار. كان واضحًا أنه كان يمكن شراء كل الأراضي في هذه المنطقة، وكلما كان الرجل يغفُل عن ذكر أي قطعة، كان الأب يسأل: «وماذا عن تلك الأرض؟» فيقول السيد هارداكر: «هذه أرضُ العجوز راسكوم، أظن أنه يمكن شراؤها.» قال الأب: «دعنا نضع جميع الأسماء في قائمة»، وبدأَت تظهر على وجه السيد هارداكر نظرة غريبة؛ فقد بدأ يدرك أن هذه كانت أعظم فرصة في حياته.

قال الأب: «حسنًا، سيد هارداكر، دعنا نتحدث بصراحة. أريد شراء بعض الأراضي، إذا كان من الممكن الحصول عليها بشكلٍ معقول. فبمجرد أن يكتشف الناس أنك تريد

شراء أراضيهم، يبدَءون في رفع السعر؛ لذلك دعنا نوضح الأمور، أنا على استعداد لدفع سعرٍ معقول، ولا أنوي دفع ما يزيد عن ذلك، وإذا بدأ أي شخص في المبالغة في السعر الذي يطلبه، فقُل له أن ينسى الأمر لأن هذا ما سأفعله أنا أيضًا. لكن أريدك أن تشتري لي جميع الأراضي التي يمكنك شراؤها بسعرٍ معقول، ويمكنك الحصول على عمولتك من البائع بالطريقة المعتادة، وإلى جانب ذلك، ستحصل مني على عمولة نسبتُها خمسة بالمائة. خلاصة القول، أريدك أن تعمل لحسابي، وأن تفعل كل ما في وسعك حتى أحصل على الأرض بأقل الأسعار. لستُ بحاجة إلى أن أوضِّح لك أن اعتباري الوحيد هو الشراء في سرعة وهدوء؛ حتى لا يحظى الناس بوقتٍ لملاحظة زيادة الطلب على أراضي المنطقة. هل تفهم ما أقول؟»

قال السيد هارداكر: «نعم. لكنني لستُ متأكدًا من مدى إمكانية فعل ذلك في هدوء؛ فالمنطقة صغيرةٌ جدًّا، وكلام الناس كثير، وإبرام الصفقات يستغرق وقتًا.»

«لن يستغرق الأمر أي وقتٍ على الإطلاق إذا تعاملتَ معه بطريقتي، واستخدمتَ المنطق السليم. ولا تُفصِح عن هويتي؛ فأنت تشتري الأراضي لعميلٍ غير معروف مقابل عقودِ خياراتٍ نقدية؛ وهذا يعني، إذا كان الأشخاص موجودين، فأبرم الصفقاتِ على الفور.»

قال السيد هارداكر بنبرةٍ يشوبُها قليل من الخوف: «لكن هذا سيتطلب مبلغًا كبيرًا من المال.»

قال الأب: «معي مبلغٌ بسيط في جيبي، بالإضافة إلى شيك بثلاثة آلاف دولار، يمكنني صرفُه في الصباح. وكما ترى، سيد هارداكر، أنا مهووس بصيد السُّمَانى؛ ولذا راودَتْني فكرة أنه إذا عثَرتُ على الكثير من السُّمَانى بإحدى الأراضي، فسأشتريها لأصطاد السُّمَانى بها. لكنني أودُّ أن أوضِّح لك أن بإمكاني صيد السُّمانى في أي مكان؛ فهذا ليس السبب الوحيد لاهتمامي بشراء هذه الأراضي!»

أخرج الأب من محفظة بطاقاته رسالةً من رئيس بنكٍ كبير في مدينة إنجِل سيتي، ينصح كل من يهمه الأمر بأن السيد جيمس روس رجلٌ ذو مواردَ كبيرة ويتمتَّع بأعلى درجات النزاهة. كان الأب يحمل رسالتَين مثل هذه، كما كان باني يعرف؛ إحداهما باسم جيمس روس والأخرى باسم جيه أرنولد روس؛ كان يستخدم الرسالة الأولى في شراء الأراضي التي تحتوي على نفط، ولم يطَّلع أحدٌ قطُّ على هُويَّته وقت شراء الأراضي!

كان اقتراح الأب كالتالي: سيبرم عقدًا مع السيد هارداكر يستطيع بموجبه تقديم عقود خيارات مدتها عشرة أيام لقائمةٍ طويلة من الأراضي، بمساحاتٍ محددة وأسعارٍ محددة؛ حيث يدفع خمسة بالمائة من سعر الشراء لكل عقد خيار، ويوافق الأب على الحصول على كل هذه العقود في غضون ثلاثة أيام، ويدفع خمسة بالمائة للسيد هارداكر على جميع عمليات الشراء. كان السيد هارداكر في حَيرة من أمره بين الشعور بالقلق والرغبة في التملك، وفي النهاية قال إنه يرى أنه سيغتنم الفرصة، وإذا خذَله الأب، يستطيع بسهولة إشهار إفلاسه! جلس على آلته الكاتبة الصدئة وكتب نسختَين من العقد، مع قائمةٍ طويلة من الأراضي التي كان من المفترض أن تكلف الأب ما يزيد عن ستين ألف دولار. قرآ العقد مرتَين، ووقَّعه الأب، ووقَّعه السيد هارداكر بيدٍ مرتعشة، وقال الأب حسنًا، ووضع على المكتب عشر أوراقٍ نقدية من فئة المائة دولار، وقال للسيد هارداكر أن يبدأ عمله فورًا. كان من الأفضل أن تكون جميع عقود الخيارات جاهزة على توقيع الطرف الآخر، وظن الأب أن لديه بعضًا من النسخ في السيارة؛ لم يكن متأكدًا من ذلك، لكنه سيذهب ليرى. خرج، وسأل السيد هارداكر باني، بطريقةٍ لطيفةٍ وودية: «ما هو عمل والدك، يا فتى؟» أجاب باني، وهو يبتسم بداخله: «أبي يعمل في جميع الأنشطة التجارية، ويشتري الأراضي، وغيرها من الأشياء الأخرى.» «ما طبيعة هذه الأشياء الأخرى؟» قال باني: «حسنًا، لديه متجرٌ عام، وفي بعض الأحيان يشتري الآلات ويُقرِض المال.» حينئذٍ عاد الأب، ولحسن الحظ، تصادَف أن كان لديه عددٌ من العقود في سيارته، وابتسم باني بداخله مرةً أخرى؛ لأنه دائمًا ما كان الأب يعثُر على المستنَد الصحيح، أو الأداة المناسبة، أو الطعام المناسب، أو المطهر واللاصق الطبي المناسبَين، مخبَّأً في مكانٍ ما في تلك السيارة!

٩

عادا بالسيارة إلى المخيم، وكان الوقت يقترب من غروب الشمس مجددًا، وكانت نداءات السُّمَانى تنتشر في جميع أنحاء التلال. ومرا بالخَيَّال الذي كان يرعى قطيعًا من الماشية، وتوقف وتحدث عن الزلزال، ثم أكمل طريقه، محدثًا الصوت الذي ينجم عن تصادم سرجه وأحزمة ركابه. وقال الأب: «ربما سنشتري أرض ذلك الرجل قبل الليل، حينئذٍ يمكنك ركوب حصانه.» وتابعا مضيَّهما، وجاء بعد قليلٍ رجلٌ آخر، هذه المرة سيرًا على الأقدام. كان شابًّا صغيرًا، طويل القامة ونحيفًا، لكن ظهره كان محنيًّا كما لو كان معتادًا على العمل بالمحراث، كان يرتدي ملابسَ ريفية وقبعةً من القش، ومَرَّ بجانبهما بسرعة،

محدقًا فيهما بشدة، وبالكاد أومأ برأسه ردًّا على تحية الأب الودودة: «مساء الخير». علق الأب قائلًا: «يا له من شابٍّ غريب الأطوار»، ورسم باني في عقله صورةً ذهنيةً لوجهٍ، بادي الجدية، ذي أنفٍ بارز وفمٍ واسعٍ حزين.

واصلا السير حتى وصلا إلى مخيَّمهما، وأشعلا نارًا، وأعدَّا وجبةَ عَشاءٍ لذيذة، تتكوَّن من السُّمَانى ولحم الخنزير المقدد المطهوين في المقلاة، والكاكاو الساخن، وخبزٍ محمَّص مصنوع من الخبز الذي كانت قد أحضرَتْه ميلي وسادي، وبعض الخوخ المعلَّب الذي كان باني قد اشتراه. وبعد العَشاء رأى باني روث بالأسفل عند حظيرة المَعْز، ومشى متمهلًا نحوها ليلتقي بها؛ نظرَت حولها بخوف لتتأكد من عدم وجود أي شخصٍ آخر بالقرب منها، ثم همسَت: «بول كان هنا!»

أجفل باني، مذهولًا. «بول؟» وفجأة ظهرَت الحقيقة أمامه. «لقد كان الذي مررنا به على الطريق هو بول!» وصَف شكله لروث، فقالت نعم، كان هذا هو بول، كان قد سافر متطفلًا مجانًا لرؤيتها، كما وعدَها، وأعطاها خمسة عشر دولارًا وفَّرها من دخله. «أخبرتُه أننا لسنا بحاجة إليها الآن، لكنه تركها.»

حينئذٍ صاح باني: «أوه، لماذا لم يتوقف ويتحدث معي أنا وأبي؟ لم يزِد على أن أومأ إلينا!»

كانت روث بادية الإحراج، وكان من الصعب جعلُها تتحدث عن بول بعد الآن. لكن باني أصر، وقال إنه كان حريصًا جدًّا على معرفة بول، وبدا الأمر كما لو أن بول لم يكن يحبه. عندها فقط تشجَّعَت روث لتخبره بما قاله بول. «لقد كان غاضبًا بسبب بيع أبي للمزرعة. ويقول إنه لم يكن علينا فعل ذلك.»

«ولكن ما الحلول الأخرى التي كان يمكنكم اللجوء إليها؟»

«يقول إنه كان يتعيَّن علينا بيع المَعْز، وسداد القرض للبنك، وزراعة الفراولة، كما يفعل بعض الناس هنا. حينئذٍ كان يمكن أن تتحسَّن الأحوال ونصبح مستقلين ...»

صاح باني: «إن بول شامِخ الأنفِ جدًّا! إنه خائف جدًّا من قبول الإحسان!»

قالت روث: «لا، ليس الأمر كذلك بالضبط.»

«ماذا إذن؟»

«حسنًا، ليس من اللائق التحدُّث عن ...» شعرت روث بالإحراج مرةً أخرى.

«ما الأمر يا روث؟ أريد أن أحاول فهم بول.»

«حسنًا، يقول إن والدك تاجرٌ كبير في مجال النفط، ويقول إن هناك نفطًا في هذه المزرعة، وأنت تعرف ذلك؛ لأنه أخبرك بذلك.»

ساد الصمت.

«هل والدك تاجر نفط؟»

أجبر باني نفسه على الإجابة. وقال: «أبي رجل أعمال؛ يشتري الأراضي وغيرها من الأشياء. لديه متجرٌ عام ويشتري المعدات ويُقرِض المال.» هذا ما أمره الأب بقوله، وكانت هذه هي الحقيقة كما نعلم، ومع ذلك اعتبر باني نفسه كاذبًا وهو يقول ذلك. كان يُضلِّل روث اللطيفة، البريئة، حَسَنة الظَّنِّ بالنَّاس، ذات العينَين الواسعتَين الصادقتَين والملامح الجميلة اللطيفة، روث التي كانت لا تراودها فكرةٌ بغيضة أو دافعٌ أناني؛ فقد كانت حياتها كلها تضحيةً طويلةً من أجل الأخ الذي تُحبه! يا إلهي، لماذا كان عليه خداع روث؟

واصلا الحديث قليلًا عن بول. كان قد مكث في التلال معظم فترة بعد الظهر وأخبر أخته عن أحواله. وقال إن أموره تسير على ما يُرام؛ فقد حصل على وظيفة مع محامٍ عجوز لم يكن يكترث بأمر هروبه من المنزل، بل سيساعده أيضًا على أن يظل مختبئًا. فقد كان هذا المحامي ممن يُدعَون ذوي التفكير الحر؛ حيث قال لبول إن لديه الحق في تصديق ما يختاره، وكان بول يساعده في الاعتناء بحديقته وغيرها من الأمور اليدوية، وأعطاه المحامي القديم كُتبًا ليقرأها، وكان بول يتعلم منها. بدا الأمر رائعًا ومريعًا في الوقت ذاته؛ إذ كان بول قد قرأ كتابًا عن الكتاب المقدس، بَيَّن أنه لا يحتوي إلا على التاريخ اليهودي القديم وحكاياتٍ خرافية، وأنه مليءٌ بالتناقضات وجرائم القتل الدموية وحالات الزنا، وأمورٍ ليس من المعقول أن تُوصَف بأنها كلام الرب. وأراد بول أن تقرأ روث هذا الكتاب، لكن روث كانت قلقةً للغاية، ومع ذلك لاحظ باني أنها كانت خائفةً على روح بول، وليس على روحها!

بعد ذلك، عاد باني إلى الأب وأخبره أن الشاب الذي مرَّا به على الطريق كان بول؛ قال الأب: «حقًّا؟» وكرَّر ما قاله سابقًا أنه كان «شابًّا غريب الأطوار». لم يكن الأب مهتمًّا بهذا الأمر، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن ضيق النفس الذي يشعر به باني، كانت أفكاره كلها تدور حول الاكتشاف العظيم والصفقات التي كان يعقدها. استلقى على ظهره، واضعًا وسادةً تحت رأسه، محدقًا في النجوم. وقال ساخرًا: «هناك شيءٌ واحد مؤكد يا بني؛ إما أن نتقدم أنا وأنت إلى مقاعد الصف الأمامي في قطاع النفط، وإما أن نصبح ملوك المَعْز والأغنام في كاليفورنيا!»

الفصل الخامس

الوحي الإلهي

١

كان باني سيلتحق بالمدرسة. كانت العمة إيما والجدة وبيرتي قد انتهجْنَ مبدأ التذمر المستمر، ولم يعُد باني «صبي النفط الصغير» الذي يكرس وقته لتعلُّم كيفية كسب المال، وكان سيعيش طفولته مثل غيره من الأولاد، ويقضي وقتًا ممتعًا، ويرتدي سترات رياضية، ويصرخ في مباريات كرة القدم، ويكون جزءًا من منظومة التعليم الرائعة. كان السيد إيتون قد تحمس لبذل كل ما في وسعه من مجهود، وعالج نقاط الضعف في قدرات تلميذه العقلية، واجتاز باني بعض الاختبارات، وأصبح تلميذًا مسجلًا رسميًّا في مدرسة بيتش سيتي الثانوية.

امتدت هذه المدرسة على مساحة مربعَين سكنيَّين على أطراف المدينة، وكانت تتكون من عدة مبانٍ على شكل مربع ناقصٍ ضلعًا، كانت المباني منمقةً ومزخرفة وتمثل مصدَر فخرٍ كبير للمدينة، وكذلك عبئًا على مواردها المادية. كانت المدرسة مجانية، وكان يرتادها أبناءُ وبناتُ تلك الشريحة من السكان التي لم تكن مضطرةً للذهاب إلى العمل، قبل سن الثامنة عشرة أو العشرين. وكان هذا يعني كل الأشخاص الميسوري الحال، وبدأ الأولاد والبنات، الذين يمثلون طبقةً اقتصاديةً معينة، يقسِّمون أنفسهم إلى طبقاتٍ فرعية وفقًا للمبدأ ذاته. وازدهَرَت «رابطاتهم السرية» بالرغم من حظر المعلمين لها، وكان الانضمام لهذه الرابطات يعتمد أساسًا على الثروة، والأشياءِ اللطيفةِ التي يمكن شراؤها بهذه الثروة، مثل: الأجساد الجيدة التغذية، والملابس العصرية، والسلوك السلس اللطيف، وعيش الحياة بمرح.

قُسِّم الشباب إلى مجموعاتٍ صغيرة، وكانوا يتنقلون بين الفصول؛ حيث كانوا يحصلون على جرعاتٍ محسوبة بدقة من الثقافة. لقد كانت منشأةً تعليميةً ضخمة، وقد

دفع الآباء مقابل الحصول على أفضل الإمكانات الممكنة، ولكن من خلال بعض العمليات التي يستحيل شرحها، انتقلَت السلطة تدريجيًّا من المعلمين إلى التلاميذ. وكل عام كان الشباب يبدون أقل اهتمامًا بالعمل، وأكثر استغراقًا فيما يُطلَق عليه «الأنشطة الخارجية» التي تضُم الملعب الرياضي، وملاعب التنس وكرة السلة، وحوض السباحة الكبير وقاعة الرقص. فقد كان الأولاد والبنات يصنعون لأنفسهم عالمًا منفصلًا، له معاييرُه الخاصة، وحياتُه السرية. وكانوا يضعون دبابيس وشارات، وكان لديهم كلماتُ مرور ومصافحاتٌ ذات دلالاتٍ سرية، بالإضافة إلى شفراتٍ معقدة، تتعلق بوضع زهور، أو لون ربطة العنق، أو الشريط الموجود على قبعتك، أو زاوية لصق طابع بريد على مظروف.

كانوا ينتهجون سلوك القطيع في حياتهم، التي تستند في جانبٍ منها على المكانة المادية، مثل حياة البالغين، وفي جانبٍ آخر على البراعة الرياضية. وكانت تتمثل في الاندفاع من حدثٍ جماهيري إلى آخر. فتتنافس قوى فريقك مع قوى فريقٍ آخر، وقدرة جماعتك على إطلاق صيحات التشجيع بصوتٍ أعلى من الجماعات الأخرى، وتجتمعون معًا وتتدربون على هذه الصيحات، بينما تتدرب الفرق على المباريات التي ستُشجِّعونها فيها. كان كل ذلك تحضيرًا للإنجازات اللاحقة والأكثر واقعية التي ستُحقِّقونها في الكلية والجامعة؛ حيث ستستقبل الأخويات العظيمة الطلاب الأقوياء ماديًّا ورياضيًّا، ويؤدون أنشطتهم الاجتماعية والرياضية بمهارة وتميُّز متقنَين.

كان باني، كما نعلم، يتمتع بالمؤهلات التي تبحث عنها الأخويات؛ فقد كان لديه ملامحُ أنجلوسكسونية، والكثير من السترات الصوفية الكبيرة، وكان يذهب إلى المدرسة في سيارة من طراز تلك السنة. انضم إلى أخويةٍ مميزة، وسرعان ما أصبح حضوره مطلوبًا في جميع فعالياتها. وكان مهتمًّا اهتمامًا كبيرًا بكل شيء، ولم يتخيل من قبلُ قط أن هناك الكثير من الشباب في العالم، وأراد أن يتعرَّف عليهم جميعًا. كان يتنقل معهم بحماسٍ من نشاط إلى آخر، وكان يراقب كل ما يفعله المعلمون والتلاميذ ويستمع إلى كل ما يقولون. ولكن طَوال الوقت كان هناك شيءٌ يميزه عن البقية؛ فقد كان رصينًا وتقليديًّا و«غريب الأطوار». جاء ذلك، بلا شك، من معرفته بالكثير عن تجارة النفط؛ فقد كانت بيرتي محقة في ملاحظتها القاسية بأن هناك بقعَ نفط تحت أظافر أصابعه. فهو لن يؤيد أبدًا أفكار محبي الترف الآخرين في اعتقادهم أن «المال ينمو على الأشجار»؛ إذ كان يعلم أنه يأتي من خلال العمل الجاد المحفوف بالمخاطر. وكان على باني كذلك مواجهة الموقف في الديار، وهو أمرٌ فهمه بوضوح تام؛ فوالده لم يكن متأكدًا على الإطلاق من أن المدرسة

الثانوية هي أفضل مكان للصبي، وكان يراقبه ويستمع إليه طَوال الوقت، ليرى نوعية الأفكار التي كان باني يتلقاها. لذا كان الصبي دائمًا يقارن بين التعليم الذي يتلقاه من المدرسة، والتعليم الذي اكتسبه على يد والده، ليُقرِّر أيهما كان حقًّا صحيحًا.

قبل أن يبدأ باني مسيرته التعليمية الجديدة، تلقَّى من والده ما يُطلِق عليه الآباء «محادثة جادة»، وكانت هذه المحادثة باعثةً على الفضول والحَيرة. في البدء، كان الأب سيعطيه سيارة، لكن لا بد أن تكون هناك قواعدُ بشأن ذلك الأمر. فيجب أن يَعِده بعدم تجاوُز السرعة المقررة، سواء في المدينة أو خارجها، وكانت تلك بالتأكيد حالةً غريبة من ازدواجية المعايير الأخلاقية! لكن الأب تعامل مع الأمر بصراحة؛ فقد كان ناضجًا، ويمكنه تقدير السرعات، علاوةً على ذلك، كانت لديه مصالحُ مهمة تبرِّر تجاوُزه، أما باني فكان يتعيَّن عليه الذهاب إلى المدرسة مبكرًا، وبقية الوقت لن يقود السيارة إلا لأغراضٍ ترفيهية. ويمكنه السماح للآخرين بالركوب معه في سيارته، لكن يجب ألا يسمح لأحد غيره بقيادة السيارة؛ فالأب لم يكن لديه ما يكفي من المال ليُوفر لإحدى أخويات المدرسة الثانوية مرأبًا مجانيًّا، ولذلك سيكون من المناسب أن يخبرهم باني بشكلٍ قاطع أن والده هو من سَنَّ هذه القاعدة.

علاوةً على ذلك، أراد الأب من باني أن يَعِده بعدم تدخين التبغ، أو شرب الخمور حتى يبلغ الحادية والعشرين. ومرةً أخرى ظهرَت «ازدواجية المعايير»، وكان الأب صريحًا حيال هذا الموضوع. فقد تعلَّم التدخين، لكنه تمنى لو لم يفعل ذلك، فإذا أراد باني اكتساب هذه العادة، فهذا من حقه، لكن الأب كان يرى أن عليه الانتظار حتى يبلغ من العمر ما يكفي ليعي تصرفاته، وحتى يتمَّ مرحلة نموه. وينطبق الأمر ذاته على الخمور. كان الأب لا يكثر من الشرب الآن، ولكن كانت هناك مرحلة في حياته اقترب فيها من أن يصبح مدمنًا للخمور؛ ولذا كان خائفًا منها، وسمح لباني بالذهاب إلى الكلية — على نفقته الشخصية — بشرط أن يَعِده بتجنُّب مسابقات شرب الكحول. وبالطبع وافقه باني على هذا الشرط؛ فقد كان ذلك سهلًا بما فيه الكفاية بالنسبة له. وكان يودُّ أن يطلب من والده أن يخبره المزيد عن قصته، لكنه لم يُحب ذلك كثيرًا. فلم يسبق له أن رأى الأب في حالة سُكر، وكان من المذهل التفكير في هذا الأمر.

وأخيرًا كان هناك موضوع النساء؛ وهنا، لم يستطع الأب، على ما يبدو، أن يكون صريحًا. لكنه قال له أمرَين؛ أولًا، كان من المعروف أن والد باني فاحش الثراء، وهذا يعرِّضه لواحدة من أسوأ المخاطر التي يتعرض لها الشباب. فكل أنواع النساء سيحاولن

إقامة علاقة معه، فقط لينفق عليهن، أو لابتزازه، وسيميل باني إلى الوثوق بهن؛ لذا وجب على الأب تحذيره من هذا الأمر. وأخبره الأب بقصصٍ مروِّعة عن شبابٍ أثرياء، ونساء تورطوا معهن، وكيف دمَّر هذا حياتهم وجلَب العار لعائلاتهم. وبعد ذلك، تحدَّث عن مسألة المرض؛ إذ كانت النساء المنحلَّات أكثر عرضةً للإصابة بالأمراض، وحكى الأب شيئًا عن هذا الأمر، وعن الدجالين الذين يستغلون الأولاد الجاهلين الخائفين. ولذلك إذا واجه المرء مشكلةً من هذا النوع، يجب عليه الذهاب إلى طبيبٍ متمرس.

كان هذا كل ما قاله الأب لباني. وتقبل باني كلامَ والده بامتنان، لكنه تمنى لو أنه كان قد أخبره بالمزيد؛ فقد كان يودُّ أن يطرح على والده أسئلةً كثيرة، لكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على فعل ذلك، في ظل إحجام والده الواضح عن قول المزيد. دَلَّ سلوك الأب وموقفه على أنه يرى أن ممارسة الجنس ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفجور؛ ولذلك لا يمكنك أن تحمل نفسك على التحدث عنه؛ فهو جزء من حياتك يجب إبقاؤه طي الكتمان، وعدم الإفصاح عنه أبدًا. كانت فكرة باني أن حديث والده لم يكن ينطبق كثيرًا عليه. فقد كان على علم بأن هناك أولادًا يرتكبون أفعالًا شائنة، لكنه لم يكن واحدًا منهم، ولم يتوقع مطلقًا أن يكون كذلك.

كان الوضع أسهل بكثير على باني لأنه سرعان ما أُغرِم بشدة. فقد كانت المدرسة تعجُّ بالشابات الجميلات، وكان من المستحيل الهروب منهن، خاصةً عندما تكون ممتلكاتك ومكانتك الاجتماعية من النوع الذي يدفع الكثيرات لملاحقتك! كانت بعض الشابات جريئاتٍ جدًّا في مبادراتهن، أو يبالغن بوضوح في الدلال، مما جعل الشاب الخجول ينفر منهن، وكانت الوحيدة التي جذبَت انتباهه تتسم بالرزانة والهدوء، مما جعله ينجذب إليها عاطفيًّا. كان اسمها روزي تينتور، وكانت تُصفِّف شعرها الطويل في ذيل حصان يصل إلى منتصف ظهرها، وكانت تتهادى على جبهتها خصلاتٌ رقيقةٌ ذهبيةٌ لامعة؛ كانت خجولةً أكثر من باني، ولا تتحدث كثيرًا، لكن هذا لم يكن ضروريًّا، لأنها كانت تمتلك قدرةً عظيمةً على إبداء إعجابها بأقل الكلمات، وكانت لديها عبارة تعبِّر بها عن إعجابها بقولها «يا للروعة!»، وزادت «روعة» علاقتهما، بهمساتٍ غامضةٍ مفعمة بالعاطفة، وكانت ترى أن تجارة النفط تتمتع بـ «روعة» خاصة، ولم تملَّ قطُّ من سماع باني يتحدث عنها، وهذا شيءٌ أسعده بشدة؛ فقد كان لديه الكثير الذي أراد أن يقوله. كان والد روزي طبيب أسنان، وكذلك والدتها، وهذه ليست مهنةً ممتعة على الإطلاق؛ لذلك كان من الطبيعي أن ترى الطفلة أنه من المثير أن يجوب المرء البلاد كما فعل باني، ويوجِّه أعدادًا كبيرة من العمال، ويستخرج من الأرض كنوزًا هائلة.

كانت تتجول مع باني في سيارته، وعندما يبتعدان عن المدينة، حيث كان الوضع آمنًا، كان باني يقود سيارته بيدٍ واحدة، ويضع الأخرى على يد روزي، وكانت الإثارة التي يشعران بها في غاية «الروعة» حقًّا. استمتعا بالتجوُّل بالسيارة لساعات، أو بالابتعاد عن المدينة والتجوُّل في التلال وجمع الزهور البرية والجلوس ومشاهدة غروب الشمس. كان باني في غاية الاحترام، وعندما بلغَت به الجرأة مرة أو مرتَين إلى حد تقبيل خد محبوبته، فعل ذلك وهو يشعر برهبةٍ شديدة. وفي الأوقات التي لم يكن فيها الطقس مناسبًا للتودُّد في الهواء الطلق، كان يزور منزلها؛ حيث كان الأب والأم يمارسان هوايتهما في جمع اللوحات الإنجليزية القديمة التي كانا يضعانها في أطر ويعلقانها على جميع الجدران، وكان هناك أكوامٌ منها يمكنك الاطلاع على ما تحتويه من مشاهدَ غريبة من القرن الثامن عشر، لرجالٍ يصطادون وهم يرتدون معاطفَ حمراء ومعهم مجموعاتٌ من كلاب الصيد، ونادلاتٌ حمراوات الخدود يقدِّمن كئوس الجعة لأشخاصٍ منغمسين في الشراب، ويدخِّن كلٌّ منهم غليونًا كبيرًا. كان باني يستغرق ساعات في النظر إلى هذه الرزم من اللوحات؛ حيث كان التنقل من لوحةٍ لأخرى يتطلب يدًا واحدةً فقط. ماذا يمكن أن يكون أكثر «روعة» من أن تكون صغيرًا جدًّا في السن وفي الوقت ذاته مستقيمًا جدًّا؟ كان باني يشعر بسعادةٍ بالغة لمجرد شراء قبعةٍ جديدة من القش، ولقاء محبوبته في الشارع، وتوقُّع تعليقاتها على القبعة!

٢

في ذلك الوقت، كان الأب ينطلق بمفرده في رحلات العمل، ما لم يتمكن من تأجيلها إلى عطلات نهاية الأسبوع والعطلات الرسمية. لم يكن يُحب الذهاب بمفرده، أما باني، فكان عقله دائم الانشغال بوالده، وعند عودة الأب، كان يسمع كل التفاصيل حول كيفية سير الأمور.

كانت هناك ست آبار الآن في نهر لوبوس، وكانت كلها «تدرُّ أرباحًا كبيرة». وكان لدى الأب أربع عملياتِ تنقيبٍ أخرى، وقد تعمَّق في حفر إحدى عشرة بئرًا من آبار موقع أنتيلوب القديمة، وكان لديه خطٌّ أنابيبَ هناك، يتدفق من خلاله نهر من الثروة. أما فيما يخُص عقد الإيجار مع آل بانكساید، فقد كانت لديه ستُّ آبارٍ منتجة، وقد دفع للسيد بانكسايد أرباحًا تزيد عن مليون دولار، وكانت هذه هي البداية فقط، على حد

قوله. وكانت لديه بئرٌ جيدة في عقد الإيجار التالي، هي روس-واجستاف، وثلاث عملياتِ تنقيبٍ أخرى، وعلى بعد حوالي نصف ميل شمالًا كان يفتتح منطقةً جديدة بحفر بئر روس-أرميتاج رقم ١.

كان من المدهش رؤية ما حدث في حقل بروسبكت هيل. ففي جميع أنحاء قمة التل والمنحدرات، انتشَرَت أبراج الحفر، وبدأت تتوغل في حقول الكرنب وبنجر السكر. عند رؤيتها من بعيد، في ضباب الغروب، يمكنك أن تتخيلها جيشًا من الحلزونات، ذات القواقع المرتفعة، يتحرك للأمام. وعند الاقتراب منها، تسمع جلبةً ودويًّا، كأنها قادمة من العالم السفلي، وفي الليل كان المشهد ساحرًا، أضواء ضبابية بيضاء وذهبية، مع نفثات من البخار، ووهج من نيرانٍ متراقصة؛ حيث كانوا يحرقون الغاز الذي ينبثق من الأرض، لعدم توفُّر أي وسيلةٍ لاستخدامه.

عند المرور من أمام هذا المشهد، وأنت جالس في سيارتك المريحة، قد تحسبه عالمًا سحريًّا. لكن عليك تذكير نفسك أن جيشًا من الرجال كان يعمل هنا بجد، في نوباتٍ مدتها اثنتا عشرة ساعة، ويعرِّض أفراده حياتهم وأطرافهم للخطر. كما كان عليك أن تتذكر الشد والجذب، والمكايد والخيانة، والخراب والآمال الضائعة، وعليك أن تسمع قصص الأب حول ما كان يحدُث لآلافٍ من المستثمرين الصغار، الذين اندفعوا إلى حقول النفط مثلما يندفع العُثُّ نحو لهب الشمعة. حينئذٍ سيتحول هذا العالم السحري إلى مسلخ، يُهرس فيه الكثيرون ويتحوَّلون إلى نقانق تُفطِر بها القلة المختارة!

كان لدى الأب مكتبٌ كبير الآن، يعمل به مشرف وستة كتَبة، وكان الأب يجلس هناك وكأنه قبطانُ سفينةٍ حربية في برج القيادة. ومهما حدث للآخرين، كان الأب يعتني بنفسه وذويه. لقد أصبح معروفًا بأنه أكبر مستثمرٍ مستقل يعمل في هذا المجال، وقُدمَت له عروض من جميع أنواع الأشخاص؛ مشاريع جديدة ورائعة ومتألقة — فمع اشتهار الأب بالجمود، كان بإمكانه تأسيس شركةٍ قيمتها عشرة أو عشرون مليون دولار، حينئذٍ سيتدفق إليه عامة المستثمرين. لكن الأب رفض كل هذه الأشياء، وقال لباني إنه يُفضِّل أن ينتظر حتى يكبر، وينتهي من تعليمه. وبحلول ذلك الوقت سيكون لديهم الكثير من النقود وسيفعلون شيئًا كبيرًا بكل تأكيد. وافقه باني، وقال إن هذا يناسبه. وكان يأمل أن يحدث هذا «الشيء الكبير» في بارادايس؛ لأنه حينئذٍ سيكون لديه نصيبٌ حقيقي. قال الأب بالتأكيد؛ فقد كانت مزرعة واتكينز من اكتشافه، وعندما يبدءون الحفر هناك، سيطلق على البئر اسم روس الابن.

لكنهما لم يتخذا أي خطوات هناك، وكانا ينتظران؛ بسبب حدوث هفوةٍ مؤسفة في المفاوضات على الأرض. فقد شاء القدر أن يكون السيد باندي، صاحب أرض آل باندي الكبيرة، بعيدًا عن الديار في اليوم الذي جمع فيه السيد هارداكر عقود الخيارات، وعندما عاد السيد باندي، وعلم بكل عمليات الشراء المفاجئة، اشتبه في الأمر، وقرَّر أنه سيحتفظ بأرضه. وليبرهن على إصراره، رفع سعر الهكتار من خمسة دولارات إلى خمسين دولارًا! وما زاد الطين بِلةً أن أرض باندي كانت ملاصقةً لأرض آل واتكينز، وكانت مساحتها تزيد عن ألف هكتار، وتمتد بالقرب من المكان الذي عثَر فيه الأب وباني على النفط، في الواقع، كان الأب يظن أن خط النفط كان في أرض السيد باندي، لكن لم يكن يمكنه التأكُّد من ذلك دون إجراء مسح للأراضي. قال الأب إنهما سينتظران، ويتركان السيد باندي يتحمل عاقبة قراره لبضع سنوات. كان الأمر أشبه بمراقبة قطةٍ لحفرة سنجاب، وتوقُّع من سيشعر بالملل أولًا. وسأل باني عما إذا كان السيد باندي يمثل القط أم السنجاب، وأجاب الأب بأنه إن ظن أحدٌ خطأً أن جيم روس سنجاب، فسيُحاوِل أن يثبت له أنه مخطئ.

وهكذا انتظرا. وفي يوم من الأيام، جاء ذلك القريب الوهمي للأب، الذي كان يعاني من مشاكلَ صحية، إلى تلك التلال الصخرية ليرعى بضعة آلاف من المَعْز، وفي غضون ذلك، أُجِّرَت معظم المزارع للأشخاص الذين كانوا يمتلكونها في السابق. كانت هناك ثلاث أو أربعُ قطعِ أراضٍ شاغرة، لكن الأب لم يقلق بشأن ذلك، وقال إنه سيتركها للسُّمانى، وطلب من السيد هارداكر أن يضع ألف لافتةٍ مكتوب عليها «ممنوع الدخول» على الاثنَي عشر ألف هكتار التي اشتراها؛ وذلك لإبهار السيد باندي بموقف الأب المبالغ فيه لحماية أرضه، حتى من تلك الطيور الصغيرة.

٣

انخرط أغلب العالم المتحضر في الحرب. وتحوَّلَت الصحف التي كان يقرؤها الأب وباني إلى ملصقات، حيث امتدت العناوين الرئيسية بطول الصفحة، معلنة كل يوم عن المعارك والحملات التي فقدَ فيها آلاف الرجال، وربما عشرات الآلاف من الرجال، حياتهم. بدت هذه الأخبار لسكان كاليفورنيا، الذين كانوا يتمتعون بالسلام والرخاء، وكأنها قصةٌ عن «أحداثٍ حزينة وقديمة تحدث بعيدًا عنهم»، ويصعب عليهم إدراكها. كانت أمريكا قد أعلنَت الحياد رسميًّا؛ مما يعني أنه في حصة «الأحداث الجارية»؛ حيث تعلَّم باني ما

يجري في العالم، كان من المتوقَّع أن يتعامل المعلم مع الحرب بموضوعية، وأن يوبِّخ أي طفل يُعرِب عن تحيُّزه الذي قد يسيء إلى أي طفلٍ آخر. أما فيما يخص رجال الأعمال مثل الأب، فكان ذلك يعني أنهم سيَجْنون المال من كلا الجانبين؛ فسيبيعون للحلفاء مباشرةً، وللقُوى المركزية عن طريق وكلاء في هولندا والدول الاسكندنافية، وسيعترضون بشدة عندما يحاول البريطانيون فرض الحصار على تجارتهم.

بالطبع، بدأ سعر «الوقود» في الارتفاع على الفور. وبدا لباني أنه من المريع أن تتضاعف ملايين الأب بسبب المعاناة الجماعية التي يتعرض لها بقية العالم، لكن الأب قال إن ذلك كان هراءً؛ فهو لم يكن مسئولًا عن إصرار الناس في أوروبا على القتال، وإذا أرادوا المنتجات التي يبيعها، فسيدفعون له بسعر السوق. عندما جاء المضاربون إليه، ليوضِّحوا له أنه، بما يمتلكه من مبالغَ نقديةٍ طائلة، يمكنه تحقيق ربحٍ سريع في شراء الأحذية، أو السفن، أو شمع الأختام، أو غيرها من السلع المتعلقة بالحرب، كان الأب يردُّ بأنه ليس لديه خبرة إلا في عملٍ واحد فقط، وهو النفط، وأنه قد نجح في حياته من خلال التمسك بما يعرفه. عندما دعاه ممثلو القوى المتحاربة لتوقيع عقود لتزويدهم بالنفط، كان يجيبهم بأنْ لا شيء يسعده أكثر من توقيع مثل هذه العقود، لكن عليهم أن يدفعوا له بالدولار الأمريكي وليس بالسندات الأوروبية. وكان يعرض عليهم اصطحابهم إلى المطعم الصغير الموجود على جانب الطريق؛ حيث يمكنهم رؤية لافتة: «المصرف لا يقدِّم الحَسَاء، ونحن لا نصرف الشيكات.»

بسبب اشتهار الأب بالموارد غير المحدودة والنزاهة الراسخة، اختير باني ليكون أمين صندوق فريق كرة القدم للطلاب الجدد، وهو منصب ينطوي على مسئوليةٍ كبيرة، منحه حق الجلوس على الخط الجانبي للملعب ومساعدة المشجعات. وبينما كان الرجال، على الجانب الآخر من العالم، يترنحون في الظلام والوحل والثلج، تُعميهم شدة الإعياء، أو فقدوا أعينهم بعيار ناري، أو تدلت أحشاؤهم خارج بطونهم، كانت الشمس مشرقة في كاليفورنيا، وكان باني يواجه حشدًا من ألف تلميذ أو ألفين، مصطفين على المقاعد، وصائحين في تناغم تشجيعًا لفريقهم. ثم يعود إلى المنزل وهو في غاية السعادة، ويخبرهم النتيجة بصوته المبحوح من كثرة الصياح، وكانت العمة إيما تبتهج بمشاركة باني في مثل هذه الأنشطة التي تناسب عمره، وباتخاذ عائلة روس لمكانتها المستحقة في المجتمع.

كان الأب يكد في عمله بشهادة الجميع؛ ولذا عندما جاءت عطلة عيد الميلاد اقترح باني قائلًا: «هيا نذهب لصيد السُّمَانى!» لم يكن من الصعب إقناعه بأخذ قسط من

الراحة الآن؛ لأن لديهما أرضهما المخصصة لصيد السُّمَانى، وكانت هذه فرصة رائعة عليهما ألَّا يهدراها. لذا حزما عدة التخييم، وتوجها إلى بارادايس، ونصبا خيمتهما تحت شجرة البلوط دائمة الخضرة، وهناك كانت المزرعة، وعائلة واتكينز، كما كانتا من قبل، باستثناء أن الأطفال كانوا أطول ببضع بوصات، وكانت الفتيات يرتدين أثوابًا جديدة لتغطية أرجلهن السمراء الآخذة في النمو. تحسنت أوضاع العائلة تحسنًا كبيرًا، حيث كانوا يحصلون على دخل شهري قدره خمسة عشر دولارًا من البنك، بدلًا من أن يدفعوا له عشرة دولارات.

ذهب الأب وباني لصيد السُّمَانى، وتمكنا من اصطياد ملء كيس، وبالمصادفة مرَّا بخط النفط، ووجدا أنه أصبح جافًّا وصلبًا، ومغطًّى بالرمال والتراب. عادا إلى المخيم وتناولا وجبة شهية، ثم أتت روث لتأخذ الأطباق المتسخة؛ حيث كانت تحل محل إيلاي، لأنه كان قد استُدعيَ للاعتناء بالسيدة بافر التي كانت تُعاني من آلام في رأسها. كان إيلاي يتمتع بقدرةٍ علاجيةٍ رائعة، وقد جذب ذلك الأمرُ الأنظارَ إليه، وكان الناس يأتون من جميع أنحاء العالم ليضع يدَيه عليهم. سأل باني عما إذا كانت روث قد تلقَّت أي أخبار عن بول، وأجابت أنه جاء لرؤيتها منذ شهرَين، وكانت أحواله على ما يُرام.

بدت خجلةً بعضَ الشيء، واعتقَد باني أن ذلك قد يكون بسبب والده الذي كان مستلقيًا هناك يستمع لحديثهما؛ لذلك سار معها إلى المنزل، وفي الطريق أخبرته روث أن بول قد أحضر لها كتابًا لتقرأه، ليُثبِت لها أنها ليست مضطرة إلى الإيمان بالكتاب المقدس إذا لم تكن تريد ذلك، لكن والدها اكتشَف الكتاب، وأخذه منها وألقى به في النار، وعاقبَها بشدة.

شعَر باني بالذعر. وسألها: «هل تقصدين أنه ضَربكِ؟» أومأَت روث بالإيجاب. صاح باني: «بماذا؟»، فأجابت أنه استخدم حزام سرج. «وهل تألمتِ؟» أجابت أنها تألَّمَت كثيرًا، لدرجة أنها لم تتمكَّن من الجلوس إلا بعد مرور أسبوع. كانت مندهشةً بعض الشيء من حنق باني؛ لأنه بدا لها أمرًا عاديًّا أن «يجلد» أبٌ ابنته التي تكاد تبلغ من العمر ستة عشر عامًا؛ فقد كان يفعل ذلك لمصلحتها؛ إذ كان يظن أن من واجبه إنقاذَ روحِها من نار الجحيم. وكان بوسع باني أن يلاحظ أن روث لم تكن متأكدةً من صحة أفعال والدها لكنه قد يكون محقًّا.

سألها: «ماذا كان موضوع الكتاب؟» فقالت له كان عنوانُه «عصر المنطق» وهو كتابٌ قديم، وتساءلَت عما إذا كان باني قد سمع به من قبلُ. لكن كانت هذه هي المرة

الأولى التي يسمع فيها باني عن هذا الكتاب، وبالطبع، قرَّر أن يعثُر على نسخة، ويقرأَها، ويُخبر روث بكل ما فيها.

رجع إلى أبيه، وحكى له ما حدث ساخطًا، لكن وجهة نظر الأب بشأن هذا الموضوع كانت مثل وجهة نظر روث. بالطبع، كان مخزيًا أن يُجلَد طفل بسبب محاولته الحصول على المعرفة، لكن آيبل واتكينز المسن كان راعي عائلته، وله الحق في تأديب أبنائه. واستطرد الأب قائلًا إنه سمع عن الكتاب؛ فقد كان من تأليف «ملحدٍ» شهير اسمه توم باين، الذي كانت له صلةٌ بالثورة الأمريكية. لم يقرأ الأب الكتاب من قبلُ، ولكن كان من السهل فهمُ لماذا أثار هذا الكتاب غضب السيد واتكينز؛ فإذا كان بول يقرأ مثل هذه الكتب، فمن المؤكد أنه ابتعَد كثيرًا عن إيمانه.

لم يستطع باني التوقف عن الشعور بالانزعاج؛ فقد كان تعرُّض روث للضرب لمجرد أنها حاولت استخدام عقلها أمرًا مروعًا للغاية. وظل باني يتحدث عن هذا الأمر طوال عصر ذلك اليوم، وارتأى أنه لا بد من أن يكون هناك قانون لمنع حدوث مثل هذا الشيء. قال الأب إن القانون لن يتدخل إلا في حالة استخدام الأب لعقابٍ قاسٍ وغريب. أصَر باني على أن أباه لا بد أن يفعل شيئًا، فضحك الأب، وسأل باني عما إذا كان يريده أن يتبنى روث. لم يكن ذلك ما أراده باني، لكنه كان يرى أن عليه أن يستخدم نفوذه مع الرجل المسن. أجاب الأب عن هذا قائلًا إن من الحماقة محاولة الانخراط في نقاشٍ مع مثل هذا المهووس، فكلما جادلتَه تمسَّكَ بوجهة نظره أكثر، وقد حصل الأب على هذا النفوذ الذي يتمتع به في علاقته مع السيد واتكينز، من خلال التظاهر بالإيمان بأوهام الرجل المسن.

لكن باني لم يتوقف عن الحديث في هذا الموضوع؛ فبإمكان الأب أن يفعل شيئًا إن أراد، وبالتأكيد يجب أن يتدخل. لذا فكَّر الأب قليلًا، ثم قال: «أتعلم يا بني، ما يجب أن نفعله أنا وأنت هو أن نعتنق دينًا جديدًا». تبيَّن باني نبرة الصوت هذه، لقد كان والده «يمازحه»؛ ولذا انتظَر بصبر. اقترح الأب أن عليهما تطوير فكرة كنيسة «كلمة الحق»، يجب أن يجعلا عدم تعرُّض الفتيات للضرب على يد الرجال إحدى النقاط الأساسية التي تدعو إليها الكنيسة. وتابع الأب لا بد أن يكون هناك وحيٌ إلهي مختص بهذه النقطة، وعندئذٍ بدأ باني يُبدي اهتمامًا. سأله الأب عن بول، وعما يؤمن به، وعما قاله بول عن روث، وعما أخبرَتْه به روث عن نفسها. أدرك باني أن الأب سيحاول أن يفعل شيئًا ما؛ ولذا انتظر.

اصطادا المزيد من السُّمَانى، وعادا وأشعلا نارًا كبيرةً في المعسكر، وحظيا بعشاءٍ ممتع، ثم قال الأب: «الآن دعنا نذهب لندعُو إلى ذلك الدين.» وهكذا سارا إلى الكابينة،

وكان الأب منهمكًا في تفكيرٍ عميق، وكان باني يغلب عليه الفضول؛ فلم يكن بوسع أي أحد معرفة ما سيفعله الأب عندما يميل إلى ارتكاب فعلٍ خبيث. في السنوات اللاحقة، اعتاد الصبي أن يتأمل هذه اللحظة ويتعجب؛ بماذا كانا سيشعُران لو كانا قادرَين على التنبؤ بعواقب مزحتهما هذه، التي كانت بمثابة حركة «إحياء» ستغدو ذات تأثيرٍ عميق على ولاية كاليفورنيا بأكملها، أو على الأقل الجزء الريفي منها، والعديد من الولايات المجاورة!

٤

على أي حال، دعاهما السيد واتكينز المسن بحرارة للدخول، وترك كلٌّ من سادي وميلي كرسيهما من أجلهما، وجلسا على صندوق أو شيء من هذا القبيل في أحد أركان الغرفة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها باني منزل آل واتكينز، وهناك أدرك مدى فقرهم مما جعل قُشَعريرةً تسري في بدنه. لم يكن المنزل مطليًّا من الداخل، مثلما كان من الخارج، وكان هناك طاولةٌ كبيرةٌ غير مطلية، وستة كراسي غير مطلية، وبضعة رفوف عليها أوانٍ فخَّارية، وبضع مقالٍ معلَّقة على الحائط، وموقد يستقر جزئيًّا على حجر بدلًا من إحدى قوائمه المكسورة. كان هذا كل شيء، حرفيًّا كل شيء، باستثناء مصباح كيروسين وفَّر إضاءةً ضعيفة ساعدَت على رؤية باقي محتويات المنزل. كانت هناك غرفتان أخريان، واحدة للرجل وزوجته، والأخرى للفتيات الثلاث، اللائي كن ينمن في سريرٍ واحد. وكان ملحقًا بالجزء الخلفي من المنزل سقيفة بها فراشان أحدهما فوق الآخر ومثبتان بالحائط؛ كان إيلاي ينام في الفراش العلوي، بينما كان الفراش الآخر شاغرًا، يذكرهم بالابن الضال.

كان إيلاي في الغرفة بعدما عاد من مهمته. كان في الثامنة عشرة من عمره الآن، وكان يتمتَّع ببنية وصوت رجلٍ مكتمل الرجولة، إلا أن نبرةَ صوته كانت ترتفع بين الحين والآخر، وتصبح حادةً بطريقة قد تُعتبَر مضحكةً لأي شخصٍ يتمتَّع بحس الفكاهة. كان حينئذٍ يُخبر والدَيه وأخواته المتعجِّبات كيف باركه الروح القدس مجددًا، وانتابَتْه ارتعاشة، وشُفِيَت السيدة بافر العجوز على الفور من آلامها. قال السيد واتكينز: «آمين!» ثلاث أو أربع مرات، بصوتٍ عالٍ جدًّا، ثم التفت إلى الأب، وعلق قائلًا: «الرب يباركنا من خلال أبنائنا.» أيَّد الأب كلامه وقال إن هذا حقيقي، وربما كان أصدقَ مما كانوا يعلمون، وسأل السيد واتكينز عما إذا كان قد فكَّر يومًا في إمكانية أن يرسل الرب وحيًا جديدًا إلى العالم. وعلى الفور كان بإمكانك ملاحظة أن العائلة انتصبَت في جلستها، وركَّزوا جميعًا أعينَهم على الأب، كما لو كانوا قد تحوَّلوا إلى تماثيل. ماذا كان يقصد زائرهم؟

قال الأب موضحًا إنه كان هناك وحيان إلهيان حتى الآن، سُجِّلا في العهد القديم والعهد الجديد؛ فلماذا لا يكون الروح القدس بصدد التحضير لوحيٍ آخر؟ لقد انتظر أتباع كنيسة «كلمة الحق» طويلًا تحقُّق هذا الأمر، وكان هذا الوعد موجودًا في الكتاب المقدس، وبإمكان أي أحدٍ قراءته. وسيحلُّ هذا الوحي الجديد محل سابقَيه، ومن الطبيعي أن يكون مختلفًا عنهما، وقد يفشل أتباع الرسالة القديمة في التعرُّف عليه، مثلما حدث سابقًا. سأل الأب عما إذا كان ما يقول يبدو معقولًا، وأجاب السيد واتكينز على الفور بأنه كذلك، وطلب من الأب أن يتابع حديثه. عندها قال الأب إن عقول البشر هي التي ستُفصِح عن «كلمة الحق» هذه، التي ستكون رسالةً تدعو إلى الحرية؛ حيث أراد الروح القدس أن نسعى بجرأة وألا نخاف، وبعد فترةٍ وجيزة من سعي العديد من الأذهان ستظهر «الحقيقة»، ربما على يد شخصٍ كان محتقرًا ومنبوذًا، لكنه سيصبح قائد أتباع الوحي الجديد. استمع باني لوالده وهو يقول كل هذا بغاية الجدية، وكان يشعر بحَيرةٍ كبيرة؛ فهو لم يكن لديه أي فكرة عن أن الأب كان على درايةٍ كبيرة بمصطلحات الكتاب المقدَّس، مثله مثل أيِّ واعظ!

هكذا بدا الأمر أيضًا لعائلة واتكينز. فقد أنصت الرجل العجوز باهتمامٍ إلى كل كلمة، وأصَر على ضرورة أن يُفصِح لهم الأب عن كل ما يعرفه. وأخبرهم الأب أنه قد وصل إلى مسامعه كلام ابنهم، ويبدو له أنه يجسِّد الروح الحقة للوحي الثالث. كان الأب قد التقى بهذا الابن، وقد صُدم من مظهره؛ لأنه بدا تمامًا كما توقع أتباع «كلمة الحق» استنادًا إلى تعاليمهم؛ كان طويل القامة، ذا شعر أشقر وعينين زرقاوين، وهيئة رزينة وصوت رخيم. لذلك اعتقد الأب أن حامل رسالة الحرية هذه، التي كُلِّفوا باتباعها، هو ابنهم الأكبر، بول، الذي أخطَئوا في طرده من بيتهم.

كان يجب أن ترى وقع هذا الكلام على العائلة! فقد كان السيد واتكينز المسن جالسًا فاغرًا فاه في دهشة بالغة، كما لو أن زوجًا من أجنحة الملائكة قد نما للأب أمام عينيه. وعلت وجه السيدة واتكينز النحيف نشوةٌ غامرة، وضمت يديها الرقيقتين معًا أمام ذقنها. أما روث، فقد بدت على وشك السقوط من مقعدها على ركبتيها. بدا الجميع مسرورًا باستثناء شخص واحد، هو إيلاي. كان إيلاي يحدق غاضبًا في الأب، وفجأة قفز من مقعده، وتبدلت ملامح وجهه، وصاح بصوتٍ حاد، عالي النبرة قائلًا: «هل ظهرت عليه العلامات؟» وعندما تأخر الأب في الإجابة، صاح مرةً أخرى: «هل ظهرت عليه العلامات؟ هل شفى المرضى؟ هل أخرج الشياطين؟ هل شُفي الكسيح ووقف وصار يمشي؟ هل حمل المحتضَر سريرَهُ ومشى؟ قل لي! أخبرني!»

فُوجِئ الأب برد فعل إيلاي؛ فلم يتوقَّع مطلقًا أن يهاجمه هكذا. ظن الأب أن إيلاي ريفيٌّ أحمق، لا يرتدي جوربًا، وسرواله لا يصل إلى رسغَي قدمَيه، ويُحضر لهما الحليب ويأخذ الأطباق المتسخة، ولكن ها هو إيلاي، قد تحول إلى أحد أنبياء الرب، ويشتعل مثلهم غضبًا! «أنا الذي باركه الروح القدس! أنا الذي اختاره الرب لتظهر عليه العلامات! انظر إليَّ، انظر إليَّ! أليس شعري أشقر وعيناي زرقاوين؟ أليس وجهي رزينًا وصوتي رخيمًا؟» وبالتأكيد، هدأت نبرة صوت إيلاي مرة أخرى، ليعزز فكرة أنه رجل بالغ؛ فهو يستطيع رؤية الأحداث قبل وقوعها ويتنبَّأ بالكوارث. «أقول لكم احذروا من هذا الذي يأتي كالحية، يزحف في الليل ليغوي نفوس ضعاف الإيمان! أقول لكم احذروا من أبناء إبليس، الذين يغوون النفس بعقيدة باطلة، ويدمرون أسس الإيمان! أنا هو من تظهر عليه العلامات التي يعلمها الجميع! أتمسك بعقيدة كنيسة فورسكوير، التي كانت كافية لآبائي وهي كافية لي! هللويا، ليتمجد الرب، والخلاص للذين غسلوا خطاياهم بدم حَمَل الرب! هللويا! هللويا!»

رفع إيلاي يدَيه عاليًا وصرخ صرخةً قوية، ونهض السيد واتكينز المسن من مقعده وصاح: «ليتمجد الرب! ليتمجد الرب!» ثم بدأ يحدُث شيءٌ فظيع؛ انتاب إيلاي نوعٌ من نوبات التشنج، واختفت حدقَتاه أعلى جفنَيه، وأرغى من شفتَيه، وشَهدَت ذراعاه سلسلة من الالتواءات تبدأ من كتفَيه حتى أطراف أصابعه، وبدأَت ركبتاه ترتجفان، وعلت وجهَه مجموعةٌ متنوعة من التعبيرات البلهاء. وبدأ يصيح بصوتٍ هائل، لم تكن لتحلم أبدًا بإمكانية صدوره من جسد بحجمه، ولا يمكنك إعادة سرد ما قاله؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يتذكَّر مزيجًا مختلطًا من المقاطع غير المفهومة، وعلى أي حال، لا يمكن تدوينه لأنه سيبدو سخيفًا جدًّا. لكن كان لهذه المقاطع تأثيرٌ سحري على السيد واتكينز المسن؛ فقد جعلَته يرفع يدَيه في الهواء، ويهزُّ ذراعَيه كما لو كان يُحاوِل الصعود إلى الجنة. وصرخ: «أطلِق العنان! أطلِق العنان!» وبدأ يتلوى كما لو كان قد أصيب بعيارٍ ناري، وبدأَت السيدة واتكينز العجوز، تلك المرأة الضعيفة المسكينة الصغيرة الحجم والشديدة النحافة حتى برَز عظمها من جلدها، تهتزُّ وتترنَّح في مقعدها، وانزلقَت الفتاتان الصغيرتان على الأرض وتدحرَجَتا على بطنَيهما، بينما جلسَت روث شاحبةَ الوجه ومذعورة، تنتقل عيناها المُحدِّقتان بين الغريبَين وإيلاي، الذي كان يصيح بمقاطعَ صوتيةٍ متنوعة، كما لو كان يُلقي لعنةً غاضبةً على الأب.

وكانت هذه هي النهاية. انسحب الأب وباني، وتسلَّلا في الظلام إلى مخيمهما، وهمس الأب طوال الطريق قائلًا: «يا للهول!».

٥

كان اليوم التالي هو يوم الأحد، أو يوم الراحة، كما أطلق عليه آل واتكينز، وبحلول الوقت الذي تناول فيه الأب وباني فطورهما في الصباح، كانت العائلة قد شدت حصانها العجوز الوحيد إلى عربتها القديمة، وغادر الأب والأم في العربة، بينما سبقهما الأبناء الأربعة سيرًا على الأقدام، في طريقهم إلى اللقاء الأسبوعي في الكنيسة الرسولية ببارادايس.

أتاح ذلك للأب وباني فرصة الذهاب لصيد السُّمَانى، دون أن تزعجهما آراء الآخرين، وفي فترة ما بعد الظهر، ركبا سيارتهما، وتوجَّها لفحص الحقل الذي اشترياه، ولمقابلة بعض الجيران الذين كانوا يستأجرونه الآن. كان لدى الأب خريطة، توضح الأراضي المختلفة، وبينما كانا يقودان السيارة كان يخطط أماكن الطرق وغيرها من التحسينات في ذهنه، وقال يومًا ما سيستقرُّ هذا المكان، وأول شيءٍ يجب البدء به هو جلب كسَّارة صخور! قابلهما في الطريق الرجل الذي كان يركب على ظهر حصانه، الذي كانا قد التقيا به من قبل، وكانا قد عرفا الآن أنه ابن السيد باندي، عدوهما، تبادلوا التحيات، كان كلٌّ من القط والسنجاب يتصرف بلباقة!

توجَّها بالسيارة إلى أحد الأغادير؛ حيث كانت هناك مزرعةٌ شاغرة مملوكة للسيد راسكوم. فُوجئا بأن وجدا منزلًا صغيرًا جميلًا من طابقٍ واحد، وبه شرفةٌ جيدة في الواجهة، تعترش حوله بالكامل عريشة من نباتات الجهنمية، التي ستتحول إلى مجموعة من الزهور الأرجوانية في الربيع. صاح باني: «أبي، يا للهول، هذا هو المكان الذي يجب أن نمكث فيه!» أجاب الأب بأنه يجب أن يكون هناك من يعتني بالمكان، وأضاف أن هناك بئرًا، ومع إجراء بعض الإصلاحات سيتحول المكان لمسكنٍ رائع. كانت هناك أيضًا قطة، وبدت مسترخيةً تمامًا، قال الأب يبدو أن هناك الكثير من السناجب، وكانت هذه علامةً جيدة على الانتصار على السيد باندي! وضحك كلاهما.

تبعا «المنحدر» وصولًا إلى روزفيل، وشاهدا الكنيسة المحلية القديمة هناك، وتناولا العَشاء، وفي المساء عادا من طريق بارادايس، وعلى أطراف البلدة، عند نهاية الطريق السريع، شاهدا مبنًى، وسط بستان من الأشجار، تسطع نوافذه بالأضواء، وتصدُر من داخله غمغمات. غطى أحد الأصوات، الذي كان يصيح عاليًا، على أصوات الآخرين، وكان من السهل تمييزه. كانت تلك هي كنيسة «القافزين المقدسين»، وكان إيلاي يلقي موعظةً. صاح باني: «أبي، دعنا نسمعه!» أوقفا السيارة وترجَّلا منها ووقفا في ظل الأشجار، وكان هذا ما سمعاه:

«... لأن أيام تجاربكم قد انتهت. تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين المثقلين بالأحمال وأنا أريحكم. لأنني حامل كلمة الحق! وأحمل العلامات؛ أبرئ المرضى، وأطرد الشياطين، وأجعل الكسيح يسير والمحتضَر يحمل سريره ويمشي! أيها الإخوة، لقد أُرسلتُ لأعلن لكم «الوحي الثالث»! فمرةً أخرى، يتجلى الروح القدس، ويتكشَّف لكم الإنجيل الجديد، حسب النبوءات الموضحة حتى الآن. كان هناك شريعةٌ قديمة، لكن الناس تخلَّوا عنها واستبدلوها، والآن يحدُث الأمر ذاته مع العهد الجديد، ولقد أُرسِلتُ لأعلن لكم عن كلمة الحق الداعية إلى الحرية وأسلِّمها لكم. وويل للذي لا يلتفت إلى هذه الكلمة؛ لأنه سيُلقى به في الهاوية، وخيرٌ له لو طُوِّق عنقُه بحجرِ رحًى وأُغرِق في البحر. ويلٌ للذي يأتي كالحية في الليل، ليغوي نفوس المتردِّدين. احذروا من أبناء إبليس، الذين يُغْوون النفس بعقيدةٍ باطلة، ويُدمِّرون أسس الإيمان! أحمل العلامات التي يعلمها الجميع، وستحلُّ بركتي على مَن يتبعني وتُشفى آلامه، ويرى مجد الرب ويتلقَّى هبات الروح القدس، وهي التكلم بألسنة! هللويا، ليتمجد الرب، والخلاص للذين غسلوا خطاياهم بدم حمل الرب! هللويا!»

ضاع صوتُ صياح إيلاي وسط جوقة من التهليل والصراخ والصياح والأنين، كما لو أن جميع رعايا الكنيسة الرسولية ببارادايس كانوا يقفزون على مقاعدهم، أو يتدحرجون على الأرض. في الواقع، لم يمُر وقتٌ طويل قبل أن يحدُث ذلك، لكن الأب لم يكن ليدع باني يقترب ليرى ما كان يحدث، فعلى حد قوله كان الأمر مهينًا للغاية، وهكذا ركبا سيارتهما وانطلقا. صاح الصبي: «عجبًا يا أبي! كان إيلاي يقول كل كلمة علمتَه إياها! هل تظن أنه يؤمن حقًّا بكل هذا؟»

أجاب الأب بأن الروح القدس وحده هو الذي يستطيع تحديد ذلك. كان إيلاي مجنونًا وخطيرًا، لكنه من النوع الذي لا يمكنك وضعه في مستشفى الأمراض العقلية؛ لأنه كان يستخدم عباراتٍ دينية. لم يكن ذكيًّا بما يكفي لابتكار أفكاره الخاصة، لكنه كان يتمتَّع بالقدر الكافي الذي يُمَكِّنه من استخدام العبارات التي سمعَها من الأب، وهكذا أصبح هناك الآن دينٌ جديدٌ طليق يُربِك الفقراء والجهلاء، ولا أحد يستطيع إيقاف انتشاره.

جاء في اليوم التالي رجلٌ قادم على ظهر حصان من خارج بارادايس، لتوصيل مكالمةٍ هاتفية للأب؛ حيث كانت هناك مشكلة في بئر روس-أرميتاج رقم ١ تتطلب وجود الأب في الحال. وقبل أن يبدأ رحلة العودة، تمكَّن باني من التحدث مع روث، وأخبرها بخطةٍ رائعة خطرَت على باله؛ حيث أوصى الأب بضرورة إقامة شخصٍ ما في مزرعة السيد راسكوم للاعتناء بالمكان، واقترح باني أن يشتري الأب بعض المَعْز وأن يزوِّد المزرعة ببعض

الماشية، ويؤجِّرها لبول، ويسمح لروث بالذهاب إلى هناك للاعتناء بالمنزل من أجله، عندئذٍ ستتمكَّن روث من قراءة جميع الكتب التي ترغب في قراءتها، دون أن يضربها أحد.

بدت روث سعيدة، لكنها قالت إن بول لن يفعل ذلك أبدًا، ولن يقبل صدقةً من أي أحد. أكد لها باني أن الأمر ليس صدقة على الإطلاق؛ فقد أراد الأب حقًّا أن يمكث أحدٌ في المزرعة، وسيعقد معه صفقة عمل. تنُص على أن يعمل بول في المزرعة، مقابل أن يدفع للأب جزءًا من المال. لكن روث تنهَّدَت وقالت إنه أيًّا كان الأمر، فلن يسمح لها والدها أبدًا بالذهاب؛ فقد زادت معارضته لبول أكثر من أي وقتٍ مضى، بسبب إيلاي، الذي كان يغار من بول، ومن ادعاء بول التمتع بالمعرفة. كان إيلاي دائمًا على هذا النحو، لكنه أصبح الآن أسوأ؛ لأن سكان المدينة أيدوا بول؛ ولذلك كان والدها لا يريدها حتى أن تتحدث مع باني أو والده، خوفًا من أن تفقد إيمانها.

كانت روث في مثل عمر باني، أي أنها كانت على وشك أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها، وقال باني إن أمامها عامين فقط لتبلغ سن الرشد، وقال الأب إنه حينئذٍ يمكنها الذهاب إلى حيث تشاء، ويمكن أن تنضم إلى بول، أو يمكنها أن تدير هي وبول مزرعة راسكوم. قال لها باني ألَّا تخاف، وأن تنتظر، وألَّا تهتم بمسألة القفز الأحمق هذه؛ فقد كان هذا هراءً بغيضًا، ولن يضرها أبدًا أن تفكر، وتستخدم منطقها السليم، وتنتظر حتى تكبر. وسيسعد الأب بمساعدتها في أن تتعلم، وتتحرر من إيلاي ونبوءاته، ويمكن لروث أن تتأكد من أن الأب كان يكره إيلاي، بقدر ما كان إيلاي يكره الأب!

٦

مرت ثلاثة أشهر، وتمكن الأب من جعل بئر روس–أرميتاج رقم ١ تنتج النفط مرة أخرى، وحقق نجاحًا كبيرًا آخر، وعثر على النفط في الكثير من الأراضي الجديدة، وعاد الناس يشيدون به بوصفه صاحب إنجازات عظيمة في حقل بروسبكت هيل. لكن الطبيب قال مجددًا إنه كان يرهق نفسه في العمل، وجاءت عطلة عيد الفصح، وراجع باني الخرائط، وعرض على الأب اقتراحًا: كانت الجبال الزرقاء على بعد عشرة أميال فقط من بارادايس، وكان هناك وفرة من سمك السلمون المرقط هناك، فلماذا لا يجعلان مزرعة راسكوم مقرهما، ويصطادان سمك السلمون المرقط؟ ابتسم الأب؛ فقد أصبح باني مرتبطًا بشدة ببارادايس ولا يمكنه الابتعاد عنها طويلًا! برَّر باني ذلك قائلًا إن بارادايس كانت

اكتشافه، وإلى جانب ذلك، أراد أن يطمئنَّ على أحوال روث، ويعرف آخر أخبار بول وإيلاي ووحيه الإلهي الثالث.

علاوةً على ذلك، جاءت رسالة من الوكيل، السيد هارداكر، مفادها أن ثورًا هاجم السيد باندي الأب في أحد الحقول وأُصيب بالشلل، واعتقد السيد هارداكر أن باندي الابن لا يريد العمل في المزرعة، وإنما يريد الانتقال إلى المدينة؛ لذلك قد يكون من الممكن شراء المكان، إذا كان السيد روس لا يزال يريد ذلك. شعر باني بحماس شديد عند سماع الرسالة، لكن الأب أخبره أن يتحلى بالهدوء؛ فالسناجب الصغيرة في السن صيدها أسهل بكثير من السناجب الكبيرة في السن، وكتب للسيد هارداكر يقول إنه لم يكن حريصًا جدًّا على شراء هذه الأرض، لكن من الممكن أن يشتريها بنفس السعر الذي اشترى به باقي الأراضي، وأخبره أنه قادم للصيد في غضون أيام قليلة، وسينظر في الأمر.

ثم كتب الأب رسالة إلى السيد واتكينز، يطلب منه أن يتكرم ويرسل أحد أبنائه لينظف المنزل في مزرعة راسكوم ويجهزه لهما. وطلب الأب من باني الذهاب مع العمة إيما إلى متجر أثاث في بيتش سيتي وشراء بعض الأغراض، بما في ذلك أوانٍ فخارية وأدوات للمطبخ، وتحميلها على شاحنة وإرسالها إلى بارادايس، وكذلك أوصى باني بشراء بعض الطعام المعلَّب، وكل ما يحتاجانه، حتى يكون المكان جاهزًا عندما يصلان إلى هناك. يمكنك أن تتخيل مدى استمتاع باني بتلك المهمة؛ فبداخله، كان يجهز هذا المنزل، ليس فقط له وللأب ليبيتا فيه، ولكن لكي يستقر فيه بول وروث ويصبح بيتهما!

عندما تكون ابن رجلٍ ناجحٍ يعمل في مجال النفط، يمكنك تحقيق أحلامك. غادر الأب وباني بالسيارة، ووصلا وقت غروب الشمس، واتجها مباشرةً إلى مزرعة راسكوم، وهناك كانت روث تقف في الشرفة الأمامية، تحيط بها عريشة الجهنمية التي كانت قد أينعَت، مما جعلها تبدو وكأنها قنطرةٌ أرجوانيةٌ رائعة فوق رأسها، وبجانبها كان يقف رجل، من بعيد ظن باني أنه السيد واتكينز المسن، ولكن بعد ذلك رأى أنه كان شابًّا، وكاد قلب باني يخرج من صدره توترًا وانفعالًا. نظر إلى هذا الشخص الضخم القوي، الذي كان يرتدي قميصًا أزرق وبنطالًا كاكيًّا بحمَّالات، وله شعرٌ كثيفٌ أشعث مائل إلى الصفرة. هل يمكن أن يكون هو، بالتأكيد، من المستحيل أن يخطئ باني في تمييز ذلك الوجه المهموم، ذي الأنف الكبير البارز والفم الحزين، وهمس بحماس: «إنه بول!»

وبالفعل كان هو. تقدم كلٌّ من روث وبول، وقدَّمَت روث شقيقها للأب، وقال بول: «مساء الخير يا سيدي»، وانتظَر للتأكد من رغبة الأب في مصافحته. ثم صافح بول باني،

وشعر الأخير بإحساسٍ غريب، فلم يكن هذا هو بول الذي كان يحلم به، ذلك الصبي الذي كان من الممكن أن يصبح صديقًا مقربًا، وبدلًا من ذلك كان يقف أمامه هذا الرجل البالغ، الذي بدا أكبر منه بعشر سنوات، ويصعُب أن تربطهما أي علاقة.

سأل الأب: «هل وصل الأثاث؟» أجابت روث بأنه قد وصل، وأنهما رتَّبا كل شيء، وأضافت أنهما لو كانا يعلمان بموعد وصول السيد روس، لكانا جهَّزا العشاء، على أي حال، سيكون العشاء جاهزًا على الفور. في هذه الأثناء، كان بول يساعد باني في إدخال الحقائب، ويا للهول، لقد تحول المنزل الصغير إلى أجمل منزلٍ صغير رأته عيناك، كل شيء في غاية الترتيب والنظافة، حتى إنه كان هناك غطاءٌ ورقيٌّ وردي فوق المصباح، وزهور على المنضدة المركزية! من الواضح أن روث أولت هذه المهمة اهتمامًا كبيرًا. سألت الأب بخجلٍ شديدٍ عما يحب تناوله على العشاء، فأجابها الأب كل الطعام المتوفر في المنزل، وسرعان ما انتشرَت رائحة لحم الخنزير المقدد الذي كان يئزُّ في المقلاة، وكان بول يقف منتظرًا، بعدما أفرغ السيارة، وبدأ باني على الفور يسأله عن أحواله، وكيف انتهى به المطاف هنا في مزرعة راسكوم.

أوضح بول أنه وصل بالأمس ليرى روث. وقد أفرغ كل ما في صدره مع والده هذه المرة؛ إذ كان قد أتم عامه التاسع عشر الآن؛ ولذا كان يرى أنه أصبح كبيرًا بما يكفي للسماح له بالاعتناء بنفسه. سأله باني عما إذا كان والده قد «عنَّفه»، فابتسم بول وقال إن والده ليس في وضع يسمح له بتعنيف أي شخص؛ فحالته الصحية تزداد سوءًا بسبب التهاب المفاصل. لكنه كان جافًّا ومتعنتًا كعادته، وطلب من بول أن يمضي في طريقه إلى الجحيم، وأنه سيُصلي من أجله. لاحظ باني على الفور أن لغة بول الإنجليزية قد تحسنَت كثيرًا عكس بقية أفراد عائلة واتكينز؛ فقد كان يتحدث مثل رجلٍ مثقف، وقد كان كذلك بالفعل.

أصبح العَشاء جاهزًا. وتوقع بول وروث أنهما سينتظران عند الطاولة، لكن الأب جعلهما يجلسان، وحظي الأربعة باحتفالٍ صغير، وكان الأمر في غاية المتعة. أمطر باني بول بوابل من الأسئلة عن نفسه وحياته، وأخبر بول عرضًا كيف أنه بحث عنه في تلك الليلة في منزل السيدة جرورتي، وسأله عن سبب هروبه. وتحدَّثوا عن عمة بول، ومأساة عقد إيجارها، وعن «الوحدات» العديمة القيمة التي اشترتها. كان بول قد علم من روث أن باني أرسل لها مالًا، وأعرب بول عن امتنانه، وقال إنه سيرُدُّه له؛ كان لا يزال يتمتع بهذه الكبرياء العنيدة؛ فهو لن يطلب معروفًا أبدًا، ولن يفرض خدماته ما لم يطلب أحدٌ مساعدته.

أخبرهم كيف مرَّت عليه السنوات الفائتة، وكيف توفي أخيرًا المحامي المسن الذي كان يرعاه، وترك له جميع الكتب في مكتبته، عدا كتب القانون. لقد كان كنزًا رائعًا للغاية؛ فقد كانت المكتبة تحوي الكثير من الكتب العلمية، وأفضل كتب الأدب الإنجليزي القديم. تمكَّن بول من استخدام هذه المكتبة لما يقرب من ثلاث سنوات، وكانت محور حياته؛ فنادرًا ما كان يفوِّت القراءة مساءً حتى بعد منتصف الليل، كما أنه كان يدرُس كثيرًا أثناء النهار؛ لأنه لم يكن مسئولًا عن القيام بكثير من الأعمال؛ فقد كان القاضي مينتر يعطف عليه لأنه لم يكن لديه أطفال، وكانت تثيره فكرة الصبي الذي يريد تثقيف نفسه. كان لدى القاضي مجهرٌ قديم، وكان بول يستخدمه، مما جعله يرغب في الحصول على وظيفةٍ لها علاقة بالمجاهر، وعقد العزم على قضاء بضع سنواتٍ أخرى في قراءة الكتب العلمية، ثم الحصول على وظيفة في أحد المختبرات، حتى لو كانت وظيفة بواب، إذا لزم الأمر، والمضي قدمًا حتى يحصل على وظيفة تتضمن استخدام المجهر.

يا لروعة الأشياء التي تعلمها بول! فلقد قرأ لهكسلي وسبنسر، وتحدث عن جالتون ووايسمان ولودج ولانكستر، والكثير من الأسماء التي لم يسمع بها باني من قبلُ. تقلصت المعرفة الضئيلة التافهة التي اكتسبها باني المسكين في المدرسة الثانوية، وفجأة بدا مدى سخافة انتصارات كرة القدم. لم يكن الأب على علم بهذه الأمور أيضًا؛ كان رجلًا في الخمسينيات من عمره، لكنه لم يقابل طالب علومٍ من قبلُ! وكان من المثير للاهتمام رؤية مدى سرعة استيعابه لهذه الأشياء. وأخبرهم بول أن الباحثين يحاولون معرفة ما إذا كانت الصفات المكتسبة يمكن أن تنتقل عن طريق الوراثة؛ لقد كان سؤالًا يحظى بأهميةٍ كبيرة، وقد قطع وايسمان ذيول الفئران ليرى ما إذا كانت الأجيال القادمة ستمتلك ذيولًا. استطرد بول قائلًا إن ذلك كان سخيفًا؛ لأن الفأر لم يتعرض لأي تغييرٍ حقيقي في صفاته الحيوية عند قطع ذيله؛ فالشيء الذي يجب اكتشافه هو الوقت المستغرق لشفاء الذيل عند قطعه، وما إذا كانت الأجيال الجديدة من الفئران يمكن أن تُشفى أسرع.

وأضاف بول إن السبيل لتسوية مسألة وراثة الصفات المكتسبة هي تحفيز الحيوانات لتطوير قدرةٍ جديدة، ومعرفة ما إذا كانت الأجيال الجديدة ستطوِّرها بسهولةٍ أكبر. أدرك الأب الفكرة في الحال، وقال إنك قد تتعلم شيئًا ما من خلال دراسة الخيول المدرَّبة على الخبب وسلالتها، ووافقه بول على هذا الأمر. كان الأب يودُّ معرفة المزيد عن مثل هذه الموضوعات، فعرض عليه بول كتابًا كان معه ورحَّب الأب بقراءته. كانت روث تغسل الصحون، وخرج بول ليُحضِر المزيد من الحطب، ونظر الأب إلى باني وقال: «يا له من

شابٍّ جيد، يا بني!» حينئذٍ اعترى باني فخرٌ شديد؛ لأنه هو من اكتشف بول، مثلما كان هو من اكتشف حقل نفط بارادايس، الذي سيُوجد يومًا ما في هذه البقعة!

بعد ذلك جلس الأب للتحدث مع بول في أمور تتعلق بالعمل. أراد الأب أن يقيم شخصٌ ما في هذه المزرعة، وقال بول إنه قد فكر مليًّا في الأمر، وسيفعل ذلك إذا تمكَّنا من التوصل إلى اتفاقٍ عادل. سأله الأب كيف يدبِّر أموره، فقال بول إنه وفر ثلاثمائة دولار من راتبه، وسيشتري بعض المَعْز، ويزرع بعض الفاصوليا هذا الربيع، وبعض الفراولة التي ستجلب له دخلًا العام المقبل، وسيدفع للأب نصفَ ما يحصل عليه من هذه المحاصيل. تجادلا بشأن ذلك الأمر؛ لأن الأب كان يعتقد أن عليه أن يدفع لبول مقابل عمله كناظرٍ للمزرعة، لكن بول قال إنه لا ينظر إلى الموضوع من هذه الزاوية، وإنه يُصِر على تقسيم حصص الأرباح بالطريقة المعتادة لتأجير الأراضي في هذه الأنحاء. وعندما يأتي السيد روس من أجل رحلات الصيد، سينتقل بول بالطبع إلى الخيمة. لكن الأب رفض ذلك؛ فقد كان يخطِّط لبناء كوخ لنفسه، أفضل من الكوخ الحالي، وبإمكان بول مساعدة النجَّار والحصول على أجر إذا أراد ذلك. قال بول إنه يمكنه بناء الكوخ بنفسه، إذا وافق الأب على ذلك، وبإمكانه فعل كل شيءٍ ما عدا تعليق الأبواب والنوافذ؛ فقد تعلَّم القيام بجميع المهام المطلوبة في المزرعة. وسأل الأب عما إذا كانت روث ستبقى مع بول، وردَّ بول إنه سيمكُث هنا في المنزل، ويترك الأمور تجري على أعنَّتها، وستأتي روث لرؤيته، حتى يعتاد والدُهما تدريجيًّا الفكرةَ. فمن الصعب التفريق بين بول وروث؛ خاصةً الآن مع غياب إيلاي عن المنزل طوال الوقت تقريبًا.

حينئذٍ سأل الأب عن إيلاي، ومدى تطور دعوة «الوحي الثالث». بعد ثلاثة أو أربعة أيام فقط من إعلان إيلاي عن «الوحي الثالث» في كنيسة بارادايس، جاء وفد من الكنيسة في روزفيل، وقالوا إنهم سمعوا عن معجزات إيلاي المشهورة، وطلبوا منه أن يأتي ويعظهم. وبالفعل ذهب إيلاي، وألقى عظته، وتجلَّت «العلامات»، وهكذا ذاع صيت النبي الجديد أكثر من ذي قبل. والآن كان يُطوِّف أنحاء البلاد في سيارة ليموزين باهظة الثمن ملك أحد الأشخاص، وفي الجزء الخلفي من السيارة كان هناك كومةٌ من عكاكيز الأشخاص الذين «شُفُوا» على يده. وتُنصب هذه العكاكيز على مرأًى من رعايا الكنيسة الجدد، وعادةً ما كان يزيد عددها، وعندئذٍ كان يسقط على رأس النبي وابل من الدولارات وأنصاف الدولار الفضية، والعملات المعدنية الملفوفة في الأوراق النقدية، وقد منح إيلاي نفسه الآن لقب «رسول المجيء الثاني»؛ حيث كان من المقرر أن يُعلَن عن ساعة عودة

المسيح إلى الأرض من خلاله. في بعض الأحيان كان رعايا الكنيسة أجمعون يتأثرون بكلامه بشدة، ويؤمنون برسالة «كلمة الحق»، أو يؤمن بعضهم فقط مما يتسبب في حدوث انقسام داخل الكنيسة؛ الأمر الذي يترتب عليه إنشاء كنيسةٍ جديدة في ذلك المكان.

سأل الأب: «في رأيك، كيف ينجح في إقناعهم؟»

قال بول: «إنه يشفي الناس حقًّا؛ بعضهم يعيش بالقرب من هنا، يمكنك التحدث إليهم. لقد كنتُ أقرأ كتابًا عن الإيحاء، يبدو أن هذا النوع من الأشياء كان يحدث منذ آلاف السنين.»

سأل الأب: «هل يُرسِل أي أموالٍ إلى أهله؟»

فابتسم بول بتجهُّم. وقال: «إن المال مقدَّس؛ فهو يخص الروح القدس، وإيلاي هو أمين خزانته.»

٧

في صباح اليوم التالي، انطلقا لصيد سمك السلمون المرقط، وفي الطريق توقَّفا لمقابلة السيد هارداكر. وقبل الدخول إليه، حذَّر الأب باني قائلًا: «التزم الصمت، ولا تُظهِر أي تعابير على وجهك. دعني أتَولَّ هذا الأمر.» دخلا إلى السيد هارداكر الذي قال إنه تلقَّى عرضًا من باندي الابن، نيابةً عن والده، ببيع المزرعة مقابل عشرين ألف دولار. رقَص قلب باني في صدره فرحًا، وكان من الجيد أن الأب قد حذَّره؛ لأنه أراد أن يصيح قائلًا: «اقبل بالعرض يا أبي! اقبل به!» لكنه تمالَك نفسه، وجلس متخشبًا، بينما قال الأب: «يا إلهي، ماذا يخالنا هذا الرجل؟»

أوضح السيد هارداكر أن هناك حوالي عشرين هكتارًا من الأراضي الصالحة في هذه المنطقة، رد عليه الأب حسنًا، فلنقل إن سعر الهكتار مائة دولار، والتحسينات أربعة آلاف دولار، هذا يعني أن باندي الابن كان يحاول بيع ألف هكتار من الصخور مقابل أربعة عشر دولارًا للهكتار، وهذا سعرٌ مُبالَغ فيه. لا بد أنه يظنهما أحمقَين ويسهُل خداعُهما.

قال الوكيل: «الحقيقة يا سيد روس أنه يعلم أنك تعمل في مجال النفط، ويعتقد أنك ستحفر هذه الأرض.»

قال الأب: «حسنًا. أخبِره أن يبحث عن شخصٍ آخر ليَحفِر أرضه، وإذا حصل على أي نفط، فسأحفِر قطع الأرض الخاصة بي. وفي غضون ذلك، سأستخدم الأرض التي أملكها الآن في تربية كل السُّمَانى الذي يسمح القانون بصيده في موسم واحد.»

أنهى الأب حديثه بأن قال إنه سيدفع اثني عشر ألفًا نقدًا، وإلا فسيصرف نظره عن الأرض؛ بعد أن ركبا السيارة وشغلا المحرك، همس باني: «يا للهول، يا أبي، أليست هذه مجازفةً كبيرة؟» لكن الأب قال: «اتركه في حَيرته قليلًا. لديَّ كل الأرض التي يمكنني حفرها الآن.»

«لكن يا أبي، قد يُحضر شخصًا آخر ليحفرها!»

«لا تقلق! أنت تريد تلك الأرض؛ لأن لديك حدسًا تجاهها، لكن لا يمتلك أحدٌ آخر هنا أي حدس، وسيُصاب باندي الابن بالتعب بعد أن يحاول لبعض الوقت. دعنا نذهب لنصطاد.»

انطلقا، واصطادا سمك السلمون المرقط اللامع البارد الجميل من بحيرةٍ جبليةٍ صغيرة، وفي وقتٍ متأخر من المساء عادا إلى مزرعة راسكوم، قلى بول السمك، وتناول ثلاثتهم عشاءً رائعًا، وبعد ذلك دخَّن الأب سيجارًا وسأل بول أسئلةً متنوعةً متعلقة بالعلوم. قال الأب إنه كان يتمنى لو حصل على هذا النوع من التعليم عندما كان صغيرًا؛ فهذه هي الأشياء التي تستحق المعرفة، لماذا لم يدرس باني علم الأحياء والفيزياء، بدلًا من أن يملئوا رأسه باللغة اللاتينية والشعر، وتاريخ الملوك القدامى وحروبهم وعشيقاتهم، وهي أمورٌ لا فائدة تُرجى منها لأي أحد؟

في صباح اليوم التالي، ودَّعا بول، وعادا إلى الجبال، وأمضَيا معظم اليوم في صيد السمك، ثم انطلقا إلى بيتش سيتي، ووصلا هناك قرابة وقت النوم. عاد باني إلى المدرسة، وكان منصبه الجديد هو أمين صندوق فريق البيسبول، وشرع الأب في العمل وحَفْر أربع آبارٍ جديدة في أرض أرميتاج، وثلاثٍ في أرض واجستاف. وفي هذه الأثناء، أنشأَت دول أوروبا لنفسها جبهتَين للموت، تمتدَّان عَبْر القارة، واندفع ملايين الرجال، كما لو كانوا تحت تأثير تعويذةٍ وحشية، إلى هاتَين الجبهتَين لتفجير أجسادهم إلى أشلاء وسفك دمائهم على الأرض. تحدَّثَت الصحف عن المعارك التي استمرَّت لأشهر، واستمَر سعر المنتجات النفطية في تكديس ثروات لجيه أرنولد روس.

أتى فصل الصيف، وكان لدى بيرتي خططٌ لأخيها. كانت بيرتي الآن سيدةً شابة في الثامنة عشرة من عمرها، متألقة ولامعة؛ حيث كانت تختار ملابسَ برَّاقة تشبه ملابس راقصات السيرك. وكانت ترتدي فوق ساقَيها الصغيرتَين الجميلتَين أفضل أنواع الحرير وأكثرها شفافية، وكان حذاؤها الأنيق المدبَّب لا يحتوي على أي خدوش. وعندما كانت بيرتي ترتدي فستانًا باللون الأرجواني أو القرمزي أو البرتقالي أو الأخضر، كان من

الغريب أن تتمتَّع الجوارب والأحذية، والقبعة والقفازات وحتى حقيبة اليد بدرجة اللون ذاتها، قال الأب مازحًا إنها ستقتني قريبًا سياراتٍ رياضيةً تتناسب مع درجات لون ملابسها. كانت هناك لمحة من الكآبة في مزاح الأب بشأن أكوام الفواتير التي عليه أن يدفعها، وكان في حَيرة من أمره بشأن هذه الفراشة الشابَّة الرائعة التي ساعد في خروجها من شرنقتها. قالت العمة إيما إن الفتاة تستحق «الاستمتاع بحياتها»، وعلى الأب تحمُّل تكاليف هذا الأمر، لكنه كان يقف صامدًا كالطود أمام جهود بيرتي لدفعه إلى دوَّامتها الاجتماعية. فقد كان يهاب هؤلاء الأشخاص المتغطرسين، وخاصةً النساء، عندما كن يحدِّقنَ فيه باحتقارٍ من خلف شبكاتهن التي كن يضعنها على وجوههن، أو أيًّا ما كُن يُسمُّونها، الأمر الذي كان يجعله يشعر أنه ضئيلٌ مثل الحشرة. ماذا يمكن أن يقول لأشخاص لا يعرفون الفرق بين موسِّع الآبار وآلة تدوير ذراع الضخ؟

كان باني قد انتهج هذا السلوك السوقي، الذي اعتقد أنه «فَطِن»؛ ولذلك كانت أختهُ تسخر منه. بالطبع من الصعب على فتاةٍ شابة تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا أن تتنازل وتعترف بوجود صبيٍّ يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، ولكن أصدقاء بيرتي الأثرياء كان لهم إخوة وأخوات أصغر سنًّا، وأرادت من باني أن يكشط الزيت من تحت أظافر أصابعه، ويدخل هذا العالم العصري، ويتعرف على فتاةٍ أجدر من روزي تينتور. وبالفعل وافق باني، الذي كان دائمًا ينتابُه الفضول حيال الأشياء الجديدة، وجرَّب هذا لفترة من الوقت، لكنه بالنهاية اعترف بأن هؤلاء الشباب الأغنياء الذين يفوقون الوصف لم يُثيروا اهتمامه كثيرًا؛ فهو لم يستطع ملاحظة تمتُّعهم بأي معرفةٍ مميزة أو قدراتٍ استثنائية. كان حديثهم يدور كله حول بعضهم، وكانوا يستخدمون الكثير من التلميحات المبهمة وفيضًا من العبارات العامية الدارجة التي كادت تُشكِّل لغةً جديدة. لم يُعجَب باني بأيٍّ منهم بما يكفي ليهتم بفك شفرة لغتهم، وفضَّل ارتداء ملابسه المبقَّعة بالنفط والتوجُّه إلى الآبار قيد الحفر، وفي حالة عدم توافر وظيفةٍ له ﻛ «عامل حفر»، كان يساعد عُمال الرافعة وعُمال إعداد المعدات على التخلص من كتل الرمل والصخور المسحوقة التي كانت تخرج مع الوحل، وتتسبَّب في انسداد الطريق المؤدي إلى حفرة التجميع.

في هذه الأثناء كان باني يفكِّر، وسرعان ما توصل إلى خطة. قال: «أبي، ماذا عن ذلك الكوخ الذي كنا سنبنيه في بارادايس؟»

سأل الأب: «ماذا عنه؟»

«لقد أرسل بول رسالةً يقول فيها إن روث أتت لتقيم معه. لذا في الخريف القادم، عندما نذهب لصيد السُّمَانى، لن نجد مكانًا لنقيم فيه. لذا دعنا نذهَبْ إلى هناك الآن، ونأخذْ إجازة، ونَبْنِ ذلك الكوخ.»

«ولكن يا بني، الجو حارٌّ جدًّا هناك في الصيف!» لكن باني لم يقتنع بهذا الكلام، وأجابه بأن بول يتحمل هذا الطقس، وعلى أي حالٍ كان من الجيد أن يُوجَد الأب في هذا الطقس الحار؛ ليعرق ويفقد الوزن الزائد الذي اكتسبه أخيرًا، وبإمكانه الجلوس تحت عريشة الجهنمية مرتديًا بدلتَه الصيفية، بينما يتولى باني أعمال النجارة مع بول، وليعتبره نوعًا من التغيير، وسيتصل باني بالدكتور بلاكيستون هاتفيًّا ليحصُل على موافقته. عندئذٍ ابتسم الأب، واقترح أن بإمكانه أيضًا تبنِّي هذا الزوج من أبناء واتكينز لينتهي من هذا الأمر.

لذلك اتجها نحو مزرعة راسكوم، وأخذا معهما خيمتَهما، وأصَر بول وروث على ترك المنزل، ونامت روث في الخيمة، واستلقى بول في مخزن القش الفارغ. كان بول قد استأجر حصانًا ومحراثًا، وأصبحَت لديه حديقةُ خضراواتٍ مزدهرة وقطعةُ أرضٍ كبيرة مزروعة بالفاصوليا، وكان قد زرع الفراولة التي كان يعتني بها باستخدام محراثٍ يدوي صغير، وجلب أيضًا ست عنزاتٍ وفَّرَت له الكثير من الحليب، وبعض الدجاجات التي كانت تعتني بها روث.

وكان الأمر الأكثر إثارةً للذهول على الإطلاق هو أن بول أحضر الكتب من مكتبة القاضي مينتر. وظل معظمها في الصناديق، لعدم توفُّر مكان لها، لكن بول صنع بعض الأرفف من أحد صناديق التعبئة، ووضع عليها كتبًا لهكسلي وهَيكِل ورينان، وغيرهم من الكتَّاب المؤثِّرين بشدة في روح أي شخصٍ يقرأ لهم. أما والده، فقد وصل إلى مرحلة الاستسلام، على حد قول روث، التي نضجَت فجأة، وأصبحَت أكبر من أن تتعرض لـ «التعنيف»؛ وإلى جانب ذلك، كان يعاني بشدة من مرض الروماتيزم، ولم يستطع إيلاي شفاءه. قال الأب إنهم عندما يطلبون الخشب لبناء الكابينة، سيحصُلون على بعض الأغراض التي تصلُح لبناء أرفف الكتب، ويمكن لبول أن يبنيها خلال الشتاء. خاض الأب وبول جدالًا آخر، وقال الأب إن هذا منزل بول، ومن المؤكَّد أن من حقه أن يضع بعض أرفف الكتب فيه إذا أراد ذلك، وبإمكان بول أن يُقرِضه بعض الكتب عندما يأتي إلى هنا، ويساعده في الحصول على القليل من التعليم، حتى في هذه السن.

ساعَد الوجود مع هذه الأسرة السعيدة وفي هذا المكان الرائع على توقُّف الأب عن التفكير في آباره، ومشاكله مع أحد أفضل رؤساء العمال لديه، الذي ذهب وتزوَّج من فتاةٍ

طائشةٍ حمقاء، ولم يعُد يكترث بعمله. حصَلوا على الخشب من التاجر في روزفيل، وتولى بول دور «كبير النجَّارين»، وكان باني «النجَّار المساعد»، وحاول الأب أن يشغَل نفسه بفعل أشياءَ أخرى حتى بدأ يتصبَّب عرقًا، حينئذٍ ذهب ليجلس تحت أزهار الجهنمية، وفتحَت له روث زجاجةً من عصير العنب التي كان قد جلَبها مع غيرها من الأشياء الفاخرة.

وبعد ذلك في المساء، قادا سيارتهما إلى بارادايس ليستلما البريد، وكانت هناك صحيفةٌ محليةٌ بسيطة يقرؤها السيد واتكينز المسن، وبدأ باني يتصفَّحها، وأصابه الذهول مما رأى، ودعا والده ليلقي نظرة هو الآخر — كان هناك خبر في الصفحة الأولى، حول الاجتماع الرائع الذي عقده إيلاي في سانتا لوتشيا، وحالة الهياج التي دخل فيها المصلون، وإعلان إيلاي أنه كُلِّف ببناء «مَقْدِس الوحي الثالث»، الذي كان من المفترض أن يُبنَى بالكامل من الرخام الأبيض الثلجي، ويُزيَّن بزخارفَ ذهبية، وكان من المقرَّر أن يشغل مربعًا سكنيًّا كاملًا في مدينة إنجِل سيتي، وأن يكون بالأبعاد نفسها التي تكشَّفَت لإيلاي في حُلم. بعدما قرأ الأب الأبعاد، قال إنها أكبر من أي مربعٍ سكني يمكن لإيلاي أن يعثُر عليه في مدينة إنجِل سيتي، لكن لا شك في أنهم سيجدون طريقةً للتغلب على هذه المشكلة، ويعتبرون هذه الطريقة «وحيًا» جديدًا. كانت صحيفة روزفيل التي تحمل اسم «إيجل» تتفاخر بإيلاي، الذي كان، على حد قولها، «يضع وادي سان إليدو على الخريطة». وكان من المقرَّر إعادة بناء الكنيسة الرسولية ببارادايس من «الهِبات التطوعية» التي كان يتبرَّع بها رعايا الكنيسة في اجتماعات إيلاي، مع الاحتفاظ بالمبنى القديم، حتى يتمكَّن الحُجَّاج من القدوم لزيارة منبع «كلمة الحق».

بعدها قابلا السيد هارداكر في الشارع. وأخبرهما أن باندي الابن قد غيَّر رأيه بشأن اعتقاده بأن الأب سيُنقِّب عن النفط في أرضه، وأنه أراد أن يأخذ والدَيه إلى المدينة ويصبح رجل أعمال؛ ولذلك ستقبل العائلة بعرض الأب إذا كان لا يزال قائمًا. فوافق الأب، وطلب منه إخبارَه بأنه يمكنه أن يأتيَ في أي وقت، وأن العقد سيُودَع لدى وكيل ضمان. في اليوم التالي توجَّه السيد هارداكر بسيارته إلى مزرعة راسكوم، وقال إنه اصطحب وكيل الضمان إلى منزل آل باندي، وقد وقَّع السيد باندي المسن وزوجته على عقد تسليم الملكية؛ لذا ركب الأب وباني سيارتهما، وتوجَّها إلى البنك، وأودع الأب أربعة آلاف دولار، ووقع عقدًا لدفع ثمانية آلافٍ أخرى عند اكتمال عملية التقصي عن ملكية الأرض. بعد ذلك،

عندما خرجا من البنك، ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «حسنًا يا بني، الآن يمكنك حفر أرضك!»

بالطبع، كان باني متحمسًا لبدء العمل على الفور، وأراد أن يتصل الأب هاتفيًّا برئيس العمال، وأن يعيِّن مقاول طرق! لكن الأب قال إن عليهما الانتهاء من بناء الكوخ أولًا، وفي هذه الأثناء سيُفكِّر في الأمر. لذلك عاد باني إلى عمله، وأخذ يثبِّت على السقف الألواح الخشبية بالمسامير، وكان يشعر بسعادةٍ غامرة، لكن كانت هناك فكرةٌ واحدة تؤرقه كأنها دودة تنخر في روحه. كيف يمكنه إخبار بول وروث بقرار التنقيب، وهل سيعتبر بول وروث أن الأب قد حصل على مزرعة آل واتكينز بناءً على ادعاءاتٍ كاذبة؟

كان القدر لطيفًا مع باني. وحدث شيءٌ ما، ما كنتَ لتستطيع تخمينه على الإطلاق! بعد مرور ثلاثة أيام فقط على صفقة أرض آل باندي، كان الأب لا يزال يفكر مليًّا في الأمور، وفي أثناء ذلك جاءت ميلي واتكينز سيرًا من منزلها وهي ترتدي قلنسوةً زرقاءَ كبيرة؛ لحمايتها من شمس منتصف النهار، وفي جعبتها خبرٌ مذهل. فقد مر عليهم السيد رينكوم المسن الذي كان يقود سيارته في طريق عودته من المدينة، وأخبر والدها أن شركة نفطٍ كبيرة، اسمها شركة إكسلسيور بتروليوم، قد استأجرَت مزرعة آل كارتر، على الجانب الآخر من الوادي، على بعد ميلٍ واحد غرب باراديايس، وستبدأ التنقيب عن النفط! أبلغَت ميلي هذا الخبر للأب الذي كان جالسًا تحت الجهنمية، ونادى الأب بحماس على باني وبول، اللذَين كانا يثبِّتان أرضية الكابينة. أسرع إليه الاثنان، وجاءت روث ركضًا من فِناء الدجاج، وعندما سمعوا الأخبار، صاح باني: «إكسلسيور بيت! يا إلهي يا أبي، إنها واحدة من أكبر خمس شركات في مجال النفط!»

تبادلوا جميعًا التحديق، وفجأة ضم الأب قبضة يده وصاح: «يا إلهي، إن هذه الشركات لا تَحفِر الأراضي إلا إذا كانت متأكدة من وجود نفط فيها. باني، أعتقد أنني سأجرِّب أن أحفِر بئرًا هنا، وأرى ما سنحصل عليه!»

صاحت روث: «أوه، سيد روس! يجب أن تفعل ذلك؛ كان عمي إيبي يقول دائمًا إنه يوجد نفط هنا!»

قال الأب: «حقًّا؟ حسنًا، سأجازف إذن، لمجرد التسلية.» ونظر إلى باني، وابتسم له ابتسامةً خاطفة. عندما فكَّر باني في أمر هذه الابتسامة وجد أنها تعكس الكثير؛ فقد خمَّن الأب أن باني كان قلقًا، وأدرك بالضبط معضلته مع آل واتكينز، وكان الأب يتمتع

بالذكاء الكافي ليحفظ ماء وجه باني، ويجعله يتجنَّب الاضطرار إلى الاعتراف. فقد كان الأب المسن العزيز الطيب حريصًا على فعل كل شيءٍ من أجل ولده، حتى الكذب من أجله! كيف يمكن لأي فتًى ألَّا يقتنع بهذا الحل السعيد لمشاكله الأخلاقية؟

الفصل السادس

التنقيب الاستكشافي عن النفط

١

بعد تفكيرٍ عميق، ودراسةٍ متأنية لحسابه المصرفي، اتخذ الأب قرارًا بحفر بئر روس الابن–بارادايس رقم ١، على وجه السرعة، ومنافسة «إكسلسيور بيت»؛ فلم تكن ثمَّة فائدةٌ من ترك الشركات الخمس الكبرى تظن أنها تتحكم في قطاع النفط بأكمله. سيمكث الأب هناك لمتابعة بدء عملية الحفر؛ لذلك اتصل هاتفيًّا بالجيولوجي الذي اعتاد العمل معه، وبحث عن مقاول ليساعدهم على حفر بئر للماء.

في اليوم التالي، أتى السيد بانينج، الجيولوجي، وقضى على آمال باني من البداية. وقال إن الأب كان محقًّا في تصوره أنه لا يمكن الاعتماد كثيرًا على خط النفط الذي ظهر على سطح الأرض. فقد تعثُر على رمالٍ نفطية على عمق مائة أو مائتَي قدم، لكن من غير المحتمل أن يُسفِر هذا عن نتائجَ كبيرة، إذا كان هذا هو هدفك الوحيد، يمكنك إحضار واحدة من تلك الحفَّارات الصغيرة المزوَّدة بعجلات مثل تلك المستخدمة في ولاية بنسلفانيا! وأضاف السيد بانينج أن الرمال النفطية الحقيقية هنا تقع على أعماقٍ بعيدة، ولا يمكنك أبدًا أن تتوقع ما ستعثر عليه إلا عند الوصول إلى هذه الأعماق. لكنه عبَّر عن إعجابه بالمنطقة، ورأى أنها تستحق المحاولة؛ ولذا أمضى بضعة أيام في التجوُّل عبر التلال مع الأب وباني، ودراسة درجة ميل طبقات الأرض، وأخيرًا اختار هو والأب جانبَ أحدِ التلال بمزرعة آل واتكينز، على مقربة من المكان الذي كان باني قد جلس فيه وتحدث مع روث، بينما كانت ترعى المَعْز.

جاء الرجل المسئول عن حفر بئر الماء، وعرض حَفْر بئر قطرها ٤ بوصات مقابل ٢٫١٢ دولار للقدم؛ وقَّع الأب عقدًا معه، وحدَّد عدد الأقدام التي يجب أن يَحفِرها يوميًّا، مع الحصول على مكافأة إذا تجاوَز ذلك العدد، ودفع غرامة إذا لم يحقِّقه. بعد ذلك،

اتجه الأب وباني لزيارة السيد جيريمايا كاري، وهو صاحب مزرعة بالقرب من روزفيل، ورئيس مجلس المشرفين في المقاطعة، والمسئول عن كل ما يتعلق ببناء الطرق.

كان يمُر عَبْر ممتلكات الأب الخاصة جزءٌ كبير من الطريق، وتصوَّر باني بسذاجة أن الأب سيستدعي مقاولًا، ويتحمل التكلفة، كما فعل مع بئر الماء. لكن الأب رفض ذلك؛ فهذه لم تكن أفضل طريقة للتعامل مع الطرق؛ فهذا طريقٌ عام، يمتد من بارادايس إلى روزفيل، على طول المنحدر، ومن المفترض أن تتكفل الدولة بتمهيده ورصفه. لا شك في أن الأب سيستخدم هذا الطريق أكثر من أي شخصٍ آخر، لكنه أيضًا سيدفع حصته من الضرائب، وسيدفع جميع مُلاك الأراضي على طول المنحدر حصتهم، وسيزيد الطريق الجديد من قيمة ممتلكاتهم.

أوضح الأب كل هذه الأمور، أولًا لباني، ثم للسيد كاري، وهو رجلٌ مسنٌّ ودود كان يزرع المشمش والخوخ على منحدرات التلال التي تُطِل على وادي سان إليدو. كان واضحًا أن السيد كاري كان مسرورًا بمقابلة واحدٍ من منقبي النفط المشهورين، واستضافهما في منزله، وأجلسهما على كرسيَّين من كراسي الشرفة الكبيرة، وطلب من السيدة كاري إحضار بعض عصير الليمون لباني. أخرج الأب سيجاره الملفوف برقائقَ ذهبية، وأخبر رئيس مجلس المشرفين بالمقاطعة أن مشاريع التنقيب عن النفط سيكون لها تأثيرٌ رائع على المنطقة بأكملها، وتحدَّث عن عقد إيجار بانكسايد في حقل بروسبكت هيل، والمبلغ، الذي يزيد عن المليون دولار، الذي دفعه لعائلة بانكسايد، والقصر المُطِل على شاطئ البحر الذي يشغله السيد بانكسايد الآن، كان يمكنك ملاحظة الدهشة في عينَي السيد كاري وزوجته، عندما شاركهما الأب تصوُّره بانتشار أبراج الحفر في جميع أنحاء هذا المنحدر. وبالتأكيد، كل هذا يعتمد على مسألةٍ واحدة، وهي الطرق. من الجلي أنه لا يمكنك إحضار مواد بناء برج الحفر وأدوات الحفر والآلات الثقيلة، عَبْر هذا الطريق الضيق الوعر الموجود الآن، والذي تسبَّب في كسر زنبرك في سيارة الأب الجديدة، ولا يمكن للمقاطعة أن تتوقع من الأب أن يتحمل تكاليف تحسين طريقٍ عام، بالإضافة إلى دَفْع ضرائبَ جديدة لخزينة المقاطعة تصل إلى عشرات الآلاف من الدولارات. أبدى السيد كاري موافقته على كل ما قاله الأب.

استطرد الأب موضحًا أنها مسألة وقت؛ فإذا كانت سلطاتُ المقاطعة ستماطل، وتجعله ينتظر، فحينئذٍ سيباشر أعمال الحفر في أراضيه الكثيرة الأخرى التي يمتلكها، ويُبقي على بارادايس مكانًا مخصصًا لصيد السُّمَانى فقط. بدا السيد كاري قلقًا، وقال

إنه سيبذل قُصارى جهده، لكن بالطبع كان السيد روس يعلم أن الشئون العامة تتطلب وقتًا؛ فلا بد من إصدار سندات لتمهيد طريقٍ جديد، ولا بد من إجراء اقتراعٍ خاص للتصويت عليها. قال الأب إن هذا ما جاء لأجلِ معرفته، وإذا كان الأمر كذلك، فهو لم يعُد مهتمًّا بالأمر. وسأله عما إذا كانت هناك طريقةٌ ما يمكن من خلالها تعجيل هذه الإجراءات، على أساس كونها إصلاحات لطريقٍ قديم، بدلًا من رصف جديد. قال السيد كاري بالطبع؛ فقد كان لديهم أموالٌ مخصَّصة لأعمال الإصلاح، لكنه لا يعرف مقدارها بالضبط، وكان عليه استشارة زملائه في المجلس.

نهض السيد كاري ورافق الأب وباني إلى السيارة، وبينما هم واقفون هناك يتحدثون، أخرج الأب ظرفًا من جيبه وقال: «سيد كاري، أنا أطلب الكثير من وقتك، وليس من العدل أن تعمل دون مقابل. آمل ألَّا تشعر بالإهانة إذا طلبتُ منك السماح لي بدفع تكلفة بنزين وإطارات السيارة التي ستستخدمها أثناء العناية بهذا الأمر.» تردَّد السيد كاري، وقال إنه لا يعرف إن كان يصحُّ أن يقبل هذا المبلغ، لكن الأب أكد له أنه أمرٌ مقبول؛ فهو يدفعه مقابل وقت السيد كاري فقط، ولن يؤثِّر في قراره بشأن ما ينبغي فعله، وبلا شك ستكون بينهما معاملاتٌ أخرى، وربما في يوم من الأيام ينقِّب الأب عن النفط في مزرعة السيد كاري. وضع الأخير الظرف في جيبه، وأخبر الأب أنه سيتواصل معه قريبًا.

كان باني يدرس الآن في المدرسة مادةً تُسمَّى «التربية الوطنية»، وتعلَّم كل شيء عن كيفية سير الأمور في حكومة بلاده. وجرى العديد من المناقشات في الفصل، وذكَروا، من بين أمورٍ أخرى، «فساد المسئولين الحكوميين». وسأل باني المعلمة — بالطبع دون الإشارة إلى أن لديه أي معرفةٍ شخصية بمثل هذا الأمر — عن إمكانية دفع رجل أعمالٍ مبالغَ إضافية لمسئولٍ حكومي مقابل وقته وجهده المبذول في الاضطلاع بالأمور العامة، وقد صُدمَت المعلمة من مثل هذا الاقتراح، وأوضحَت أن هذه تُعتبَر رشوةً بلا شك. فأخبر باني الأب بذلك، وأوضح له الأخير وجهة نظره. فهناك اختلاف بين استعراض المسألة من منظورٍ نظري واستعراضها من منظورٍ عملي. فالمعلمة لم تُضطَر قط إلى حفر بئر نفط، وعملها لم يعتمد على نقل المواد الثقيلة عَبْر طريقٍ وعرٍ ضيق، كل ما كانت تفعله هو الجلوس في غرفة واستخدام كلماتٍ رنانة، مثل «المُثل العليا» و«الديمقراطية» و«الخدمة العامة». وهذه هي مشكلة التعليم؛ فالمعلمون أناس يفتقرون إلى الخبرات العملية؛ ومن ثَم لم تكن لديهم معرفةٌ حقيقية بشئون الحياة الواقعية.

انتهى هذا الحديث بسؤالٍ واحد، هل يريدون حفر أرض آل واتكينز أم لا. بالطبع بإمكانهما الانتظار عشر سنوات، حتى يأتي شخصٌ آخر ليطوِّر المقاطعة، في إطار تطوير

الدولة، ويفعل ما كان الأب يفعله الآن، أي «ممارسة الضغوط على» السلطات العامة، و«تقدير مجهوداتها» لتيسير الأمور. في كثيرٍ من الحالات كانت السلطات جشعة وتتعمد تعطيلك وتجبرك على دفع الرشاوى، وفي حالاتٍ أخرى كان السبب هو مجرد الجهل وعدم المبالاة، ولكن على أي حال، إذا كنتَ ترغب في إنجاز أمرٍ ما، فعليك دفع ثمنه. شرح الأب الفرق بين الأعمال العامة والخاصة؛ فأنت رئيس عملك الخاص، وأنت المسئول عن دفع الأمور قُدمًا والتغلب على العقبات، لكن عندما تحتكُّ بالسلطات العامة، ستُصاب بالإحباط بسبب ما ستجده من ابتزاز وإهدار للموارد وانعدام الكفاءة. ومع ذلك، كان هناك دائمًا حمقى يشجعون الملكية العامة؛ أناسٌ يطلقون على أنفسهم اسم «الاشتراكيين»، ويريدون أن تتولى الحكومة إدارة كل شيء، وعندما يتحقق هذا الأمر، ستُضطَر إلى ملء عشرات الاستمارات، وانتظار قرار مجلس من المسئولين قبل أن تتمكن من شراء رغيف خبز.

قال الأب إن باني سيحصل على درسٍ عملي في مادة التربية الوطنية، ويمكنه مشاركة هذا الدرس مع معلمته لاحقًا؛ فهما لن يحصلا على طريقٍ ممهد بدفع إكرامية لأحد مزارعي المشمش. وبالتأكيد هذا ما حدث! فبعد يومَين اتصل الأب بالسيد كاري هاتفيًّا، وعلم أنه أجرى مقابلاتٍ مع أعضاء المجلس الآخرين، لكنه أعرب عن قلقه إزاء وجود بعض المعارضة؛ فهناك انتخاباتٌ قادمة للمجلس في هذا الخريف، وكان هناك الكثير من التذمر بشأن إهدار الأموال المخصَّصة للطرق، ولم يرغب أحد في مواجهة المزيد من المشاكل. وكان مقررًا عقد اجتماع للمجلس الأسبوع المقبل، وفي غضون ذلك، إذا كان للأب أيُّ نفوذ، فسيكون هذا أنسب وقتٍ لاستخدامه. كرر الأب هذا الكلام على سمع باني، وأوضح أنه كان من المفترض أن يزور أعضاء المجلس الآخرين ويوزِّع عليهم المزيد من المظاريف. وأضاف الأب قائلًا: «لكنني سأتبع نهجًا شاملًا وسريعًا في فعل ذلك، قبل أن يعي العاملون بشركة «إكسلسيور بيت» ما يحدث. هذه فرصتُنا الوحيدة، لديَّ فكرة.»

دخل الأب إلى مكتب السيد هارداكر، الوكيل العقاري، وأخبر هذا السيد المحترم المعروف، وهو ينفث دخان سيجاره الملفوف برقائق الذهب، بمشكلة الأشخاص الذين على السيد هارداكر زيارتهم، إذا كان يودُّ بناء طريق في مقاطعة سان إليدو. ضحك السيد هارداكر وقال إنه سيذهب أولًا لمقابلة جيك كوفي، وبعد ذلك سيعود إلى المنزل ويستريح. وتبيَّن من أسئلةٍ أخرى أن جيك كوفي تاجرُ تبنٍ وأعلاف في بلدة سان إليدو، عاصمة المقاطعة، وأيضًا رئيس الحزب الجمهوري في المقاطعة. شكره الأب على هذه المعلومات، وبعد قليلٍ كان هو وباني في السيارة، يتجهان نحو سان إليدو بسرعة الأب المعتادة. وقال: «الآن يا بني، ستكمل درسك في التربية الوطنية!»

٢

جلس جايكوب كوفي، تاجر التبن والأعلاف والحبوب، والجير والأسمنت والجص، في مكتبه الخاص خلف متجره، واضعًا قدمَيه على طاولة تتوسط الغرفة، لم تُنظَّف بعدُ من بطاقات ورقائق مباراة بوكر. كانت تبدو عليه الصرامة وله فمٌ مشدود وملامحُ أخرى تتوافق مع شكله القاسي، وكانت بشرته سمراء خشنة، وجميع أسنانه الظاهرة ذهبية. أنزل قدمَيه من على الطاولة ونهض، وعندما سمع اسم الأب قال: «كنت أتوقع مكالمةً هاتفيةً منك.» قال الأب: «لقد سمعتُ عنك للتو. وجئتُ بسرعة خمسين ميلًا في الساعة.» وبهذا أصبحا صديقَين، وقَبِل السيد كوفي سيجارًا ملفوفًا برقائق الذهب بدلًا من عقب السيجارة الذي كان يمسك به، وجلسا معًا لمناقشة الأعمال.

قال الأب: «سيد كوفي، أنا تاجرُ نفطٍ مستقل، أو ما تُسمِّيه شركات النفط الخمس الكبرى واحدًا من «التجَّار الصغار»، وبالرغم من ذلك يمكنني إحداث فارقٍ كبير هنا في مقاطعة سان إليدو. لقد اشتريتُ اثنَي عشر ألف هكتار وأريد التنقيب عن النفط. وإذا عثَرتُ على أي نفطٍ هنا، فسأحفِر بضع مئاتٍ من الآبار في الأراضي، وأوظِّف ألف رجل، وأدفع أجورًا تصل إلى بضعة ملايين من الدولارات، الأمر الذي سيترتَّب عليه تضاعُف قيمة العقارات الواقعة على مسافة خمسة أو عشرة أميال. لكن حاليًّا، شركة «إكسلسيور بيت» موجودة هنا؛ وبالطبع ستحاول جاهدة إبعادي وإبعاد أي شخصٍ آخر. الشيء الذي أريد أن أوضِّحه لكم، أيها السياسيون، هو أن هذه الشركات الكبيرة لن تدفع أي أموال إلا إذا كانت مضطرة لذلك، وعلى أيِّ حال يذهب معظمها إلى أجهزة الدولة. ولذا فهذه الشركات بحاجة إلى القليل من المنافسة، مثل أي شيءٍ آخر، لجعل التعامل معها أيسر. فنحن التجار المستقلين ندفع أكثر، ونجعل الشركات الكبيرة تدفع المزيد أيضًا. وأظن أنني أتحدث إلى رجل على دراية بقوانين هذه اللعبة.»

قال السيد كوفي ببرود: «يمكنك أن تظُن ذلك. ماذا تريد بالضبط؟»

«في الوقت الحالي، أريد شيئًا واحدًا فقط؛ أريد طريقًا يؤدي إلى بارادايس. فمن دون طريق، لا حفر، وهذا ليس تهديدًا فارغًا، بل حقيقة يمكنك فهمُها؛ لأنك تنقل موادَّ ثقيلةً بنفسك، وربما تكون قد حاولتَ إجراء عمليات تسليم عَبْر هذا الطريق الضيق الوعر.»

قال السيد كوفي: «هذا صحيح.»

«حسنًا، إذن، لا داعي لقول المزيد. أريد طريقًا، وأريد تجهيزه دون أي إجراءاتٍ روتينية؛ أريد أن تبدأ المقاطعة في العمل في غضون الأيام العشرة القادمة، وإتمام المهمة

سريعًا، حتى أتمكَّن من توصيل معداتي إلى هنا وحَفْر البئر؛ حيث يتوفَّر لديَّ الآن برجُ حفرٍ إضافي. ربما لم يحدث هذا من قبلُ، ولكن هذا ما أريده، وقد جئتُ لأسأل عن ثمن تنفيذ هذا الطلب. هل كلامي واضح؟» قال السيد كوفي: «وضوح الشمس»، وعلت وجهه القاسي ابتسامةٌ خفيفة. كان من الواضح أنه أعجِب بأساليب الأب في العمل.

تحدَّث السيد كوفي عن موقفه في هذه المسألة، وفهم باني أنه كان يساوم الأب، ويرسم صورةً خيالية للصعوبات الهائلة التي ينطوي عليها الأمر. وقال إن إدارة المقاطعة كانت تواجه العديد من المشاكل في الآونة الأخيرة؛ فقد سرق أحد الحمقى الملاعين بعض المال، وأضاف أنه من السخيف أن تأخذ أموال المقاطعة عندما يمكنك جني الكثير من المال بطرقٍ مشروعة. كما وُجِّهَت انتقاداتٌ لعقود تحسين الطرق من خلال رجلٍ مهووس في هذه البلدة، ينشُر صحيفةً أسبوعية تُدعى «ووتش-دوج» (التي تعني بالإنجليزية كلب الحراسة)، ويملؤها باتهاماتٍ واهية. بيت القصيد أن استخدام أموال المقاطعة المخصَّصة للإصلاحات الطارئة لبناء طريق لأحد منقبي النفط؛ سيثير حتمًا الكثير من الجلبة، الأمر الذي سيترتَّب عليه خسارة الأصوات التي تحتاجها إدارة المقاطعة. وكما قال السيد روس، فإن عاملي «إكسلسيور بيت»، الذين لديهم بالفعل طريقٌ يؤدي إلى أرضهم، لن يدعموا الطريق الذي يريده الأب، وقد يُمِدُّون صحيفة هذا المهووس الأسبوعية بمعلوماتٍ مغلوطة، وقد يقدِّمون شكوى للجنة الولاية، ويجعلون حياة السيد كوفي جحيمًا.

استمع الأب بتهذيب تقتضيه عملية المساومة. وقال إنه يدرك تمامًا كل هذه المشاكل، وينوي معالجتها. في المقام الأول، ستكون هناك مهمة ضمان انتخاب مشرفي المقاطعة. استطرد الأب كلامه وسأل السيد كوفي عما إذا كان من المناسب المساهمة بمبلغ خمسة آلاف دولار في صندوق الحزب للجنة الحملة. نفث السيد كوفي في الهواء سحابةً كبيرة من دخان التبغ الأزرق الضارب إلى الرمادي، وجلس محدقًا بثبات في الرقم خمسة والثلاثة الأصفار التي شكَّلَتها سحابة الدخان.

أضاف الأب: «وبالطبع أنت تدرك أن هذه مسألة متعلقة بالحزب، ومنفصلة عن أي عرضٍ أقدمه لك شخصيًّا.»

قال السيد كوفي بهدوء: «لم لا تخبرني بفكرتك كاملة؟»

حينئذٍ ألقى الأب «خطبته العصماء» عن إيمانه بالتعاون والعمل الجماعي؛ فدائمًا ما يعمل ضمن فريقٍ صغير، ويساعد أصدقاءه ويمنحهم نصيبًا من أرباحه. وتحدَّث عن بئر روس-بانكسايد رقم ١ الخاصة به، وكيف أنه شكَّل نقابة من أجل هذه البئر، وللتأكُّد

من الحصول على مواد بناء برج الحفر دون تأخير، سمح لرئيس واحدةٍ من شركات الأخشاب الكبيرة بالحصول على حصة مقدارها اثنان بالمائة، في شكل خدمةٍ وديةٍ بسيطة، وقد وصل صافي أرباح البئر حتى الآن إلى ما يقرب من ستمائة ألف دولار، وجنى رئيس هذه الشركة أكثر من اثنَي عشر ألفًا مقابل جهوده لتوفير الأخشاب التي يحتاجها الأب وقتما يريد.

والآن كان الموقف ذاته يتكرر؛ فإذا تمكَّن الأب من إنشاء طريق، فسيخاطر بالاستثمار في أراضي باراديايس، وبإمكان السيد كوفي مشاركتُه في هذه المخاطرة. وعرض عليه الأب أن «يمنحه» اثنَين بالمائة من البئر؛ حيث ستتجاوز التكلفة الكلية المائة ألف دولار، أي إن السيد كوفي سيستثمر بمبلغ ألفَي دولار، وإذا أنتجَت البئر نفطًا، فقد يحصل على خمسة أو عشرة، أو حتى ثلاثين أو أربعين ألف دولار؛ فقد حدث هذا الأمر عدة مرات، ومن الممكن حساب الأرباح بالضبط. بالطبع، كان الأب يتوقع أن يترتَّب على هذا الأمر أن يصبح هو والسيد كوفي صديقَين، ويعملا معًا، ويساعد أحدهما الآخر بأي خدماتٍ صغيرة قد تكون مطلوبة.

نفث السيد كوفي عدة سُحبٍ أخرى من الدخان، ونظر إليهما متأملًا، وقال إنه معجَب بالأب، لكنه كان يرى أن من الأفضل أن يساهم الأب بألفَي دولار لصندوق الحملة، وبخمسة آلاف دولار للسيد كوفي شخصيًّا. حينئذٍ سأله الأب، وهو ينظر في عينَيه: «هل يمكنك تقديم المساعدة المرجوة؟» أكَّد له السيد كوفي أن بإمكانه تقديم المساعدة على أكمل وجه، ونصح الأب بأن يطمئن وألَّا ينشغل بأي مخاوف. وهكذا عُقِدت الصفقة، وأخرج الأب دفتر شيكاته وكتب ألفَي دولار تُصرف لأمين صندوق لجنة حملة المقاطعة التابعة للحزب الجمهوري. ثم سأل السيد كوفي عما إذا كان يشغل أي منصبٍ حكومي، فأجاب الأخير بالنفي، وأخبره أنه مجرد رجلِ أعمالٍ عادي، حينئذٍ أخبره الأب أن العقد يمكن أن يحمل اسم السيد كوفي، وكتب مذكرةً مفادُها أنه حصل على مبلغ دولارٍ واحد واعتباراتٍ أخرى جيِّدة وقيِّمة، مقابل أن يتملك السيد كوفي خمسة بالمائة من صافي أرباح بئر ستُحفَر في مزرعة آيبل واتكينز بالقرب من باراديايس، وسيُطلق عليها اسم بئر روس الابن-باراديايس رقم ١. ولكن كان من المفهوم والمتفق عليه أن البئر المذكورة آنفًا لن تُحفَر حتى يكتمل إنشاء طريقٍ متينٍ جيد، من الشارع الرئيس لباراديايس إلى مدخل مزرعة آيبل واتكينز، وإذا لم يكتمل الطريق المذكور آنفًا في غضون ستين يومًا، فحينئذٍ لن يكون السيد أرنولد روس المذكور آنفًا ملزمًا بحفر البئر المذكورة آنفًا، ولا بإعادة

الدولار وغيره من الاعتبارات الجيِّدة والقيِّمة المذكورة آنفًا إلى السيد جايكوب كوفي المذكور آنفًا. وسلَّم الأب المذكرة لجايكوب كوفي المذكور آنفًا، وابتسم، وقال مُعلقًا إنه يأمل ألَّا تقع هذه المذكرة في يد صحيفة «ووتش دوج». ابتسم السيد كوفي، ووضع يدَه على كتف باني، وقال إنه يأمل ألَّا يرتكب هذا الشاب أي خطأ ويتحدث عن المذكِّرة، قال الأب إن باني كان يتعلم كل ما يتعلق بتجارة النفط، وكان الدرس الأول الذي تعلَّمه ألَّا يتحدث أبدًا عن شئون والده.

تصافحوا جميعًا، وركب الاثنان سيارتهما، وصاح باني: «لكن يا أبي، كنتُ أظن أنك تنتمي إلى الحزب الديمقراطي!» ضحك الأب وأوضح أنه لم يكن يتدخل في تحديد التعريفة الجمركية على الهايبركلوريد، ولا استقلال جزر الفلبين؛ فكل ما كان يريده هو إنشاء طريقٍ يصل إلى مزرعة آل واتكينز. قال باني: «هناك شيءٌ واحد لا أفهمه، كيف يمكن للسيد كوفي أن يفعل كل ذلك، إذا لم يكن يشغل أي منصبٍ رسمي؟» أجاب الأب أنه عادةً ما يتجنَّب الرجال الكبار شغل المناصب الرسمية لهذا السبب بالذات؛ ليتفرَّغوا لأعمالهم. فمن الممكن أن يُسجَن السيد كاري إذا ثبت أنه تلقَّى نقودًا من الأب، لكن لا يمكن فعل أي شيءٍ لكوفي؛ فقد كان «الزعيم». واستطرد الأب حديثه قائلًا إن صاحب المنصب الرسمي إما مسكين يحتاج إلى راتبٍ ضئيل، وإما مغرور يُحب إلقاء الخطب، وتصفيق الحشود، ورؤية صورته في الصحف. لن ترى أبدًا صور جيك كوفي في الصحف؛ فقد كان يقوم بعمله من مكتبه الخلفي، بعيدًا عن الأضواء.

تذكَّر باني، بالطبع، ما كان قد تعلمه في مادة «التربية الوطنية»، وسأل عما إذا كانت هذه هي الطريقة التي تُدار بها أعمال الحكومة دائمًا. قال الأب إن هذا الموقف يكاد يتكرر في كل مكان، بدءًا من المقاطعة، مرورًا بالولاية، ووصولًا إلى الحكومة الوطنية. لم يكن الأمر بالسوء الذي يبدو عليه؛ فقد كان مجرد نتيجةٍ طبيعية لعدم كفاءة عددٍ كبير من الناس. لا بأس من إلقاء خطبٍ عصماء حول «الديمقراطية»، لكن ما هو واقع الحال؟ ومن هم الناخبون هنا في مقاطعة سان إليدو؟ هل هم المغفَّلون الذين رآهم باني «يقفزون» و«يتدحرجون على الأرض» و«يتكلمون بألسنةٍ مختلفة» في كنيسة إيلاي، وهل يمكن لأي شخص أن يزعم أن هؤلاء الناس بإمكانهم إدارة حكومة؟ كان من المفترض أن يتخذوا قرارًا بشأن إنشاء طريق للأب ليحفر بئرًا! وكان من المؤكد أنهم لن يتمكَّنوا من فعل ذلك؛ ولذا كان جايك كوفي هو من يتخذ القرار نيابة عنهم، حيث كان يتمتع بالسرعة والكفاءة اللتين يجب أن يتمتع بهما رجال الأعمال، ويفتقر إليهما نظامنا الأمريكي.

٣

شرع الرجال المسئولون عن بئر الماء وعمال الهاتف في العمل؛ مما دفع الأب إلى إدراك أن الوقت قد حان لتجهيز أماكنَ لإقامة طاقمهم. كانوا سيسكنون في استراحةٍ مخصَّصة للعمال في أثناء مرحلة التنقيب، ثم، إذا نجحوا في العثور على نفط، فسيبنون كبائنَ لطيفة لعائلات العمال. قال الأب لبول إنه كان من الحماقة إضاعة وقته في زراعة الفاصوليا والفراولة التي ستجعله فقيرًا طوال حياته، ومن الأفضل له أن يصبح نجارًا ويتولى مهمة البناء هذه، وبعد ذلك يمكنه تعلُّم التنقيب عن النفط. طلب الأب من رئيس نجاريه أن يأتي ليحدد المواد اللازمة لبناء استراحة العمال، والإشراف على الأساسات والعتبات، وبمجرد الانتهاء من هذا الأمر، يمكن أن يتولى بول المهمة بمساعدة نجَّارين محليين من اختياره، وسيدفع له الأب خمسة دولارات في اليوم، وهو ما يعادل خمسة أضعاف ما كان سيحصُل عليه من العمل في هذه المزرعة القديمة.

وافق بول، وجلسا ذات مساءٍ ليتفقا على خطة بناء المنزل. أعرب الأب عن إعجابه بالأمر لأن هذا ما كان يريده باني، وكان باني يتحول إلى مصلحٍ اجتماعيٍّ صغير، وكان ينوي إطعام العمال كبد الإوز الفاخر. وبدلًا من النوم في غرفةٍ واحدةٍ طويلة مليئة بالأسرَّة، سيحظى العمال بغرفٍ فرديةٍ صغيرة، لكلٍّ منها نافذةٌ منفصلة، وسريران، أحدهما فوق الآخر، من أجل عمال نوبة النهار وعمال نوبة الليل. وسيكون هناك عدد من أماكن الاستحمام، بالإضافة إلى غرفة الطعام والمطبخ والمخزن، وغرفة جلوس لطيفة مزوَّدة بفونوغراف وبعض المجلات والكتب، كانت تلك الفكرة من بنات أفكار باني؛ فقد كان يريد أن يعمل لديه عمالُ نفط مثقَّفون.

انطلق الأب وباني بالسيارة إلى روزفيل، لشراء بعض الأثاث والأشياء لكابينتهما الخاصة، التي كان قد اكتمل بناؤها الآن. اشترى الأب نسخةً حديثةً من صحيفة «إيجل»، وبمجرد أن فتحها، انفجر في الضحك بصوتٍ عالٍ. لم يسبق أن رآه باني يضحك بهذا الشكل في حياته من قبلُ؛ لذلك نظر على الفور إلى الصحيفة حيث نُشر على الصفحة الأولى خبرٌ عن صاحب مزرعة يُدعى أدونايجا بريسكوت، يعيش بالقرب من المنحدر الواقع بين بارادايس وروزفيل؛ تحدَّث الخبر عن حادثٍ وقع قبل حوالي ثلاثة أشهر، حيث انقلبَت عربة السيد بريسكوت وكُسرَت عظمة الترقوة، وكان يرفع الآن دعوى ضد المقاطعة للحصول على تعويض يبلغ خمسة عشر ألف دولار، والأكثر من ذلك أنه كان يقاضي كل عضو في مجلس المشرفين بالمقاطعة، زاعمًا إهمالهم لواجباتهم العامة بتركهم

الطريق في هذه الحالة غير الآمنة! وظهر في الصفحة الافتتاحية مقالة من عمودَين حول الحالة المروِّعة للطريق المذكور آنفًا، وذكَرَت أنه كانت هناك ينابيعُ مياهٍ معدنية بالجوار، اقتُرح تطويرها من قبلُ، لكن المشروع توقف بسبب عدم توفر وسائل النقل، والآن كانت هناك احتمالات لوجود نفط، ولكن هذه أيضًا كانت مهددة بسبب الطرق السيئة، التي أبقت سان إليدو واحدةً من أكثر المقاطعات تخلفًا في الولاية. وذكرَت صحيفة «إيجل» أن السيد جو ليماخر، صاحبَ مزرعةٍ مهتمًّا بالمجتمعات المحلية، كان يوزِّع عريضة لإجراء إصلاحاتٍ فورية للطريق على طول المنحدر، وكان يأمل أن يوقع عليها جميع المواطنين ودافعي الضرائب.

في اليوم التالي جاء السيد ليماخر في سيارة فورد صدئة، وطلب من الأب التوقيع على العريضة! فكر الأب مليًّا، وقال إن هذا سيكلفه الكثير من الضرائب. بعد الانخراط في جدال استمر لبعض الوقت مع السيد ليماخر المهتم بالمجتمعات المحلية، والذي كان يتقاضى ثلاثة دولارات في اليوم من جيك كوفي، وافق الأب في النهاية وقال إنه لا يريد أن يظن جيرانه أنه بخيل؛ لذلك سيوقع مع الآخرين. بعد أربعة أيام، ظهرَت أنباءٌ عن عقد المشرفين لاجتماعٍ خاص والتصويت على إجراء إصلاحاتٍ فورية لطريق المنحدر، وبعد يومَين من ذلك جاء عمال تمهيد الطرق برفقة مجموعاتٍ من الخيول الكبيرة المزوَّدة بمحاريثَ ثقيلة، وصل عددهم، على طول قطعة الأرض هذه التي تمتدُّ لمسافة ميلَين، إلى عشرين عاملًا، وهو أمرٌ مثير للدهشة حيث لم يكن من المتوقع وجود مثل هذا العدد من العمال في المقاطعة. حفروا الأرض، واستخدم الرجال العتلات لإزالة الصخور عن الطريق، وانزلق آخرون بالكاشطات على التربة لتسويتها، وسرعان ما بدأ الطريق يبدو وكأنه طريقٌ سريع. وبعد ذلك، بدءًا من نهاية الطريق الرئيسي ببارادايس، جاءت كمياتٌ لا حصر لها من الصخور المسحوقة محمَّلة على شاحناتٍ كبيرة تميل للخلف لتُفرغ حمولتها. وكانت هناك آلاتٌ لتسوية هذه المواد، ومَحادِلُ طرقٍ بخاريةٌ رائعة لتجعلها مسطَّحة، يا للهول، كان من الرائع رؤيةُ ما يمكن أن تفعله أموال الأب!

وصل الخشب الذي طلبوه لبناء الاستراحة على شحناتٍ صغيرة، وتولَّى بول هذه المهمة مع ستة رجال من الحي. وقد عيَّنَهم بنفسه، وتواصَل معهم هاتفيًّا من بارادايس، وعندما كان يشعر أيٌّ منهم بالإهانة للعمل تحت قيادة رئيسٍ يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، كان شيك الأب الذي تبلغ قيمته ٢٢ دولارًا يخفِّف عليه هذا الشعور كل سبتٍ في الساعة الثانية عشرة والنصف. حتى السيد واتكينز العجوز، والد بول، انبهَر بهذا التطور

المفاجئ لـ «ابنه الضال»، ولم يعُد يقول أي شيء عن نار الجحيم. فكما تعلم، كانت كل هذه الجلَبة تحدث في مزرعته؛ حيث كانت مطارق النجَّارين تدق طوال اليوم، وكانت البئر الارتوازية تتدفق بالقرب من منبع الغدير، وكان العمال والخيول يُسوُّون الطريق المؤدي إلى موقع الحفر. بدا لعائلة واتكينز كما لو أن المقاطعة بأكملها قد انتقلَت فجأةً إلى مزرعتهم. ونتج عن هذا الارتفاع الفوري لأسعار كل الأطعمة التي يمكنهم تقديمها. لا يسعُك إلا الإعجاب بكل هذه الجلَبة، على الرغم من معرفتك بأنها من عمل الشيطان!

كان أفضل ما في الأمر هو تأثير كل ذلك على روث، التي كانت في غاية السعادة لنجاح بول. اعتنت روث بالمنزل من أجل الأب وباني، بالإضافة إلى الاهتمام بنفسها وبول، ويبدو أن هذه المسئولية كانت مناسبةً لها بشدة، حيث تحسَّنَت صحتها الجسدية، وتورَّد خداها. وأصبح لديها المال لشراء الأحذية والجوارب والفساتين النظيفة، وأدرك باني فجأةً أنها فتاةٌ جميلة. اتفقَت مع باني في رأيه أن والده رجلٌ عظيم، وأعربَت عن إعجابها بإعداد الفطائر وحلوى البودينج له، بغَض النظر عن حقيقة أنه كان يحاول الحفاظ على وزنه! بعد الانتهاء من أعمال اليوم، كان الأربعة يتناولون العشاء معًا كل مساء، في منزل آل راسكوم الذي تحيط به عريشة الجهنمية، ثم يجلسون بالخارج تحت العريشة في ضوء القمر ويتحدَّثون عما فعلوه خلال اليوم، وما ينوون فعله غدًا، وكانت محادثاتهم تجعل العالم بالتأكيد يبدو مكانًا جميلًا يستحق العيش فيه!

٤

حان وقت عودة باني إلى المدرسة، ولكن كان عليه أولًا أن يقوم بزيارته نصف السنوية لأمه.

وقعَت عينا باني على إشعارٍ في الصحيفة، مفادُه أن السيدة أندرو وذرسبون لانج كانت ترفع دعوى طلاق للهجر. وأخبرَتْه الأم أن سبب رفع هذه الدعوى هو أن زوجها الثاني هجرها بكل دناءة بعد عامَين من زواجهما، ولم يكن لديها أي فكرة عن مكانه. بدت في غاية الوحدة والحزن، وكانت الدموع تملأ عينَيها، ولم يكن لدى باني أي فكرة عن مدى صعوبة الأمر، وكيف كان الجميع يحاولون استغلال النساء اللاتي لا حول لهن ولا قوة. بعد قليل، أدرك باني أن «الأم الصغيرة الجميلة» كانت تستخدم هذه الدموع لتُلمح بلباقة إلى شيءٍ ما؛ كان لا بد أن يكون لها اسمٌ جديد عندما تحصُل على الطلاق، وأرادت استعادة اسم الأب، ولم يكن باني متأكدًا مما إذا كان ذلك يعني أنها تريد العودة

للأب أم أنها تريد اسمه فقط. سألَتْه عن أحوال الأب، وعما إذا كان وحيدًا، وهل لديه صديقاتٌ مقربات. أزعج ذلك باني؛ لأنه لم يكن يحب أن يتقصى الناس عن علاقات والده بالنساء؛ فهو نفسه لم يكن يعلم شيئًا، ولم يكن يودُّ التفكير في الأمر. أخبر الأم أن عليها أن ترسل للأب رسالة؛ لأن الأب لم يكن يسمح لباني بالتحدُّث عن هذه الأمور. حينئذٍ سال المزيد من الدموع على خدَّيها الجميلَين، وقالت الأم إن الجميع يبتعدون عنها، حتى ابنتها بيرتي رفضَت القدوم والبقاء معها هذه المرة، وتساءلَت عما يعنيه ذلك. أوضح لها باني السبب، بقَدْر استطاعته؛ فقد كان يرى أن أخته كانت أنانية، وانخرطَت في تحقيق طموحاتها الدنيوية؛ فقد أصبحت سيدةً شابةً الآن، ذات تطلعاتٍ عالية، تُصاحِب الأغنياء الذين يعشقون حياة الرفاهية؛ ولذا لم يعُد لديها وقتٌ لأيٍّ من أفراد عائلتها.

لكن بيرتي كانت قد وجَدَت أخيرًا وقتًا للتحدث مع شقيقها، وأخبرَتْه أنه بلغ الآن من العمر ما يكفي ليعرف حقيقة والدتهما. وكانت بيرتي قد حصلَت على هذه الحقائق منذ فترةٍ طويلة من العمة إيما، والآن تودُّ مشاركتَه إياها، مما ساعد الصبي على حل العديد من الألغاز، ليس فقط حول والدته، ولكن أيضًا حول والده. فقد تزوَّج الأب بعد سن الأربعين، وكان حينئذٍ حارسًا لمتجر عند مفترق الطرق، وتزوَّج من حسناء القرية، التي ظنت أنها حققَت إنجازًا كبيرًا بالزواج من الأب. ولكن سرعان ما تجاوَز طموحُها حدود القرية، وحاولَت إقناع الأب بالخروج منها، وفي النهاية هجرَتْه وهربَت مع بائعِ سنداتٍ غني من مدينة إنجِل سيتي، الذي تزوَّجها، لكنه سئم منها بعد ذلك وتركها.

كان رحيل الأم قد فعل ما فشلَت كل مناقشاتها في فعله، وهو ترك الأب للقرية. فقد فكر مليًّا في الأمر وأدرك أن ما يريده الجميع هو المال، وأن سبب إخفاقه هو عدم امتلاكه ما يكفي من المال؛ ولذا قرَّر أن يثبت للجميع أنه ليس فاشلًا. ومنذ ذلك الوقت لزم الأب الصمت وشرع في العمل. اقترح عليه بعض رفاقه في القرية التنقيب عن النفط، وبالفعل انضَم إليهم، وحققوا نجاحًا، وسرعان ما توسَّع الأب في مشاريعه الخاصة.

فكر باني في هذه القصة مليًّا، وراقب والده عن كثب، وبدأ يجمِّع قطع الأحجية معًا. أجل، لقد فهم الآن السبب وراء ذلك التركيز الصارم والحذَر والسعي الدءوب، لقد كان الأب يعاقب السيدة أندرو وذرسبون لانج، ويُظهِر لها أنه بمثل كفاءة أيِّ بائعِ سندات من المدينة! بالإضافة إلى ذلك كان الأب لا يثق في النساء، ويعتقد أنهن جميعًا كن يحاولن الاستيلاء على أمواله! وكان يُركِّز كل آماله على باني، متمنيًا أن يصبح سعيدًا، ويتمتع بكل فضائل والده ويتجنَّب عيوبه، ويحقِّق ذلك المعنى والهدف اللذَين لم يستطع الأب

أن يعثُر عليهما في حياته! عندما كان يتأمل باني كل ذلك، كان يشعر بتعاطفٍ مفاجئ، ويضع ذراعه على كتفَي الأب، ويُعرِب عن قلقه من كدِّ والده في العمل، وضرورة أن يكبر بسرعةٍ ليتحمل جزءًا من المسئولية.

غامر على استحياءٍ شديد بالتطرق إلى موضوع ديون أمه، وطلبِها بزيادة دخلها؛ حينئذٍ أخبره والده بوجهة نظره حول والدته. وقال إنه لم يكن هناك أي فائدةٍ من إعطائها المال؛ فهي لم تكن من أولئك الذين يعيشون في حدود إمكانياتهم؛ ولذا كانت الديون تتراكم عليها طوال الوقت ولا تشعُر بالرضا. لم يكن ذلك بخلًا من جانب الأب، ولا رغبةً منه في معاقبتها؛ فقد كان لديها ما يكفي من المال لتعيش بنمط الحياة التي وافقَت عليه عندما تزوَّجَته، وكان هذا من وجهة نظره عادلًا. فهي لم يكن لديها أيُّ دورٍ في النجاح الذي حقَّقه لاحقًا؛ ولذلك ليس لها الحق في جني ثماره. وإذا أدركَت إمكانيةَ حصولها على المال من باني، فستجعل حياته جحيمًا؛ ولهذا السبب كان الأب صارمًا بشأن هذا الأمر. يمكن للتجَّار مقاضاة والدته، لكنهم لن يتمكَّنوا من استرداد أي شيء؛ لذلك في النهاية سيتعلمون عدم إعطائها أي شيءٍ بالآجل، وسيكون هذا أفضل شيءٍ لها. لقد كان موضوعًا مؤلمًا، ولكن حان الوقت الذي لا بد أن يستوعب فيه باني هذا الأمر، وأن يتعلم أن النساء اللواتي يحاولْنَ الاستيلاء على أموالك قد يتمادَين إلى أبعدَ من ذلك ويتزوَّجنك!

لم يفصح باني عن ظنِّه في أن وجهة نظر الأب في النساء كانت في غاية السلبية. كان باني يعرف أنْ ليس كل النساء كما يزعم والده؛ لأن محبوبته روزي تينتور، التي كانت حبيبتَه منذ عام أو أكثر، كانت استثناءً من هذه القاعدة. ولطالما حاولَت روزي منعه من إنفاق المال عليها، قائلة إنها لا تملك أي نقود؛ ولذا ليس من العدل أن تقبل ماله، وكان الأمر الوحيد الذي بإمكانها قبوله هو ركوب سيارته. كانت في غاية اللطف والطيبة، لكن باني لم يكن سعيدًا بشأن ما كان يحدُث لعلاقة حبهما. لكن جهوده لإنكار الحقيقة كانت غير مجدية؛ وبدأ يشعر بالملل! تأمَّلا لوحات القرن الثامن عشر الإنجليزية حتى حفظاها عن ظهر قلب، وظل تعليق روزي على كل شيء كما هو: «يا للروعة!» أراد باني أن يرى أشياءَ جديدة، وأن يسمع تعليقاتٍ جديدة، ولم يستطع منع نفسه من هذه الرغبة، مهما بدا الأمر قاسيًا. لذلك قلَّل من جولاته بالسيارة مع روزي، واصطحب فتاةً أخرى للرقص مرة أو مرتَين. كانت روزي الصغيرة لطيفةً ورزينة كالمعتاد، حتى إنها لم تبكِ، على الأقل ليس في حضور باني؛ كان باني متأثرًا بشدة، ولكن مثل جميع المخلوقات من الذكور، وجد أنه من المريح للغاية عندما يوافق حبيبان قديمان على إنهاء علاقتهما دون ألم، ودون إثارة ضجة! ودون وعي، كان مستعدًّا لأن يُغرم بفتاةٍ جديدة.

٥

انتهى العمل في الطريق الجديد، واكتمل بناء الاستراحة وسكنها العمال، وذهب رئيس نجَّاري الأب إلى برج الحفر، وكان بول يعمل معه هناك. بعد ذلك جاء أسطول من الشاحنات المحمَّلة بأدوات الحفر، وبدءوا في تجهيز المعدات، وساعدَهم بول في ذلك. كان باني في المدرسة، وفوَّت كل هذه المتعة، لكن الأب كان يحصل على تقريرٍ شبه يومي من رئيس العمال، وكان يشاركه مع باني وقت العَشاء. لقد كانوا متأخرين في سباقهم مع «إكسلسيور بيت»، التي كانت قد بدأَت الحفر بالفعل، مستفيدةً بميزة وجود طريق من البداية، لكن الأب قال إنه لا داعي للقلق؛ فالوصول إلى قاع تلك الآبار سيستغرق وقتًا طويلًا.

حانت اللحظة الأهم في حياة باني، وصادف أن حدَث ذلك في يوم جمعة؛ ولذا اعتذر باني عن الذهاب إلى المدرسة؛ لم يكن من المعتاد أن يعتذر صبي عن المدرسة بسبب «عملية تنقيبٍ استكشافي للنفط» في بئر تحمل اسمه؛ حيث كان عليه الذهاب إلى هناك للضغط على ذراعٍ وتشغيل آلات الحفر! انطلقا في الصباح الباكر ووصلا عصرًا، وكانا يشعران بالفخر وهما يسيران على هذا الطريق الجديد، المتين، الممهَّد، الرمادي! وصلا إلى غدير آل واتكينز، والطريق الجديد المؤدي إليه؛ إنه طريقهما الخاص، المميز للغاية! لم يكن هناك أحدٌ في منزل آل واتكينز؛ فقد توجَّه الجميع إلى البئر، كان يمكنك أن ترى حشدًا متجمعًا حول برج الحفر اللامع الجديد المبنيِّ من خشب الصنَوبَر الأصفر، والمستقر فوق حافةٍ صخرية في منتصف المنحدر، وكانت البئر تحمل اسم «روس الابن-بارادايس رقم واحد!»

وصلا إلى هناك بسيارتهما، ورحَّب بهما رئيس العمال، كان بإمكانهم بدء الحفر منذ بضع ساعات إذ كان كل شيء جاهزًا؛ فقد انتهَوا من إحكام ربط جميع أجزاء برج الحفر، والتأكد من عمل الآلات بكفاءةٍ عالية. نظر باني حوله، ولاحظ وقوف بول بالخلف وسط العمال الآخرين. كانت روث مع عائلتها؛ ولذا اتجه باني نحوهم، وكان سعيدًا برؤيتهم جميعًا، حتى السيد واتكينز العجوز، على الرغم من القفز والدحرجة والروماتيزم وغيرها من المشاكل. كان الحي بأكمله هناك، وكان باني يعرف العديد منهم بالاسم، وتحدَّث إليهم، سواء كان يعرفهم أم لا، لقد أحبوا جميعًا هذا الفتى الشغوف، الأمير الشاب الذي يملك بئرًا تحمل اسمه. كان بعضهم يُكِن شعورًا بـ «الضيق» بسبب بيع الأراضي بسعرٍ بخس؛ فلو كانوا قد احتفظوا بها، كان من الممكن أن يصبحوا أثرياء ومشاهير، لكنهم لم

يفصحوا عن هذا الشعور؛ فقد كانت هذه لحظةً رائعة، واحتفالًا سيتحدثون عنه لعدة أيام.

فحص الأب موقع الحفر، وطرح بعض الأسئلة للتأكد من سير الأمور كما ينبغي، وكان على وشك أن يأمر ببدء الحفر، عندما لاحظ قدوم سيارةٍ أخرى على الطريق. أفسح الحشد الطريق لسيارة ليموزين كبيرة لامعة، كانت تقترب منهم بسرعةٍ حتى توقفَت، ونزل منها شخصٌ لم يتوقع أحدٌ قدومه، شابٌّ طويلٌ غريب الأطوار له ظهرٌ محدَّب وبشرةٌ سمراء من أثَر التعرُّض للشمس، وعينان زرقاوان شاحبتان وشعرٌ كثيف أشعث لونه لون الذرة؛ إنه إيلاي واتكينز، نبي الوحي الثالث، الذي تجلَّى وتمجَّد مرتديًا ياقةً بيضاءَ منشاة وربطةَ عنقٍ سوداء وبذلةً من الجوخ الأسود، غير مناسبة ولكنها باهظة الثمن، وكان يتصرف بطريقةٍ تتناسَب مع هذا الزي، فكان يجمع بين الفخر والتواضُع اللذَين ينبعان من هذه المهمة الإلهية. تبعه رجلٌ ثريٌّ كبير السن، ساعد على الخروج من السيارة سيدتَين ترتديان النسخة الأنثوية من ملابس إيلاي، كانوا من أتباع النبي الجديد، أو أولئك الذين نجح في «شفائهم». كان الجيران يحدِّقون فيه باحترام، ونسُوا البئر لمدة دقيقة أو دقيقتَين؛ حيث طغت القوى الروحية على الأمور الدنيوية.

تقدم الأب وصافح النبي، ودعاه إلى نسيان الماضي، وتجاوُز كل الخلافات القديمة في هذه اللحظة العظيمة. اندهش باني مما حدث؛ لأنه يعرف أن الأب لا يحب إلقاء الخطب ما لم يُطلب منه ذلك. لكن جيه أرنولد روس كان يتمتع بنزعة غريبة الأطوار تظهر من حين لآخر، وتتسبب في حدوث هذه التقلبات الغريبة في الأحداث. وقف الأب أمام الحشد، وتنحنح وقال: «أيتها السيدات والسادة، نحن نحفِر هذه البئر هنا في المزرعة التي ولد فيها السيد إيلاي واتكينز؛ لذلك ربما يودُّ أن يلقيَ عليكم بضع كلمات في هذه المناسبة.» كانت هناك موجة من التصفيق، واحمر وجه إيلاي خجلًا، من الواضح أنه شعر بالإطراء الشديد، تقدم خطوتَين إلى الأمام، وضم يدَيه أمامه كما لو كان يتلقى البركة، ورفع رأسه، وعيناه شبه مغمضتَين، ودوَّى صوته الجَهْوري قائلًا:

«أيها الإخوة والأخوات، على هذه التلال رعيتُ قطعان أبي، مثل أنبياء الأزمنة القديمة، وسمعتُ صوت الروح القدس الذي كان يتحدث إليَّ عَبْر العواصفِ ودَوِي الرعد. أيها الإخوة والأخوات، يتجلى الرب بطرقٍ عدة، ويمنح أبناءه العطايا الثمينة. فهو يملك كنوز الأرض، وعندما يُنعِم بها برحمته على البشرية، ستُستخدَم بمشيئته في خدمته وتمجيد اسمه. فالأمور الدنيوية تخضع للأمور الروحية، وإذا أراد الرب بحكمته الإلهية أن يُخرِج

من هذه البئر الكنوز، فلتُستخدَم في خدمة القدير، ولتحلَّ بركاتُه على كل من يملكها أو يعمل فيها. آمين.»

ردَّد الحضور معًا: «آمين!» وهكذا تمَّت مراسم مباركة البئر! وبطلَت كل الأكاذيب التي قالها الأب لعائلة واتكينز والآخرين، وأصبحَت الرشاوى التي دفعها للسيدَين كاري وكوفي مُلغاة، وأصبحَت بئر روس الابن-بارادايس رقم ١ من ذلك الوقت فصاعدًا بئرًا مقدسة. وهكذا استدار الأب ونظر إلى باني الذي كان يقف بجانب المحرك واضعًا يده على الذراع. وقال: «حسنًا يا بني!» حرَّك باني الذراع، ودوَّى صوت المحرِّك، وسُحِبَت السلسلة، وقعقعَت التروس، ولفَّت الطاولة الدوَّارة، ومن أسفل أرضية برج الحفر صدَر ذلك الصوتُ المثير الذي يطلق عليه عمال النفط اسم «صوت الحفر!»

٦

على عمق أقل من مائتَي قدم، وصلوا إلى الرمال التي كانت السبب وراء «نفط الزلزال» الذي رآه باني، وثبت أنها تمتد لقدمَين، وقال الأب إن هذه الكمية ستمنحهما ما يكفي من الوقود لتشغيل سيارتهما لمدة عام! تعمَّقوا أكثر في الحفر، دون تغيير المثقاب الذي كان يبلغ قطره ثماني عشرة بوصة، مخترقين طبقاتٍ قاسية من الحجر الرملي، وبدءوا الحفر دون وضع أنابيب دعم؛ لأن الأرض كانت في غاية الصلابة. كان بول يقدِّم المساعدة في جميع المهام، ولا سيما النجارة. قال باني: «أبي، سنجعل بول مدير أعمالنا يومًا ما»، لكن بول ابتسم وقال إنه سيصبح عالِمًا، ولن يخدع نفسه بفكرة أن الوظائف ذات المناصب العالية سهلة؛ فهو لن يستبدل وظيفته التي تستغرق ثماني ساعات بوظيفة الأب التي تمتد لثماني عشرة ساعة. كان هذا نوعًا من الإطراء الخفي، ورفع مكانة بول لدى الأب!

كان عيد الشكر على الأبواب، وكان باني يشعر بحَيرةٍ بالغة. فقد كانت هناك مناسبةٌ رائعة في المدرسة، وهي مباراة كرة القدم السنوية مع مدرسةٍ منافِسة تُعرف باسم «بولي هاي»، التي تقع في مدينة إنجِل سيتي. وهنا ظهر السؤال التالي: هل كان باني فتًى طبيعيًّا أم صبيَّ نفط؟ دار صراع داخل باني للإجابة عن هذا السؤال، وأعلن قراره الذي تمثَّل في الذهاب إلى بارادايس مع الأب، مما أثار استياء روزي تينتور والعمة إيما! وأخبر الصبيُّ عمَّتَه أنهم في موسم صيد السُّمانى، وأن الأب بحاجة إلى التغيير، لكن السيدة العجوز الحادَّة الذكاء أخبرَتْه أن بإمكانه خداع نفسه، لكن ليس بإمكانه خداعُها.

لم يكونا مضطرَّين لأخذ أي أغراضٍ خاصة بالتخييم معهما الآن؛ فلديهما الكابينة الخاصة بهما في مزرعة آل راسكوم، بالإضافة إلى هاتف وكل سبل الراحة. كان هناك هاتفٌ آخر في المنزل؛ ولذا كل ما كان عليهم فعله هو الاتصال بروث، ليجدا النار مشتعلةً لتدفئة الكابينة، والعَشاء جاهزًا على الطاولة في المنزل، بما لذَّ وطاب من جميع أنواع الأطعمة المنزلية الصنع، التي كان من شأن أكلها أن يجعل لزامًا على الأب أن يسير أميالًا عديدة عَبْر التلال في اليوم التالي! وبالطبع، سيمُران أولًا على البئر، لمعاينة سير الأمور والتحدُّث مع رئيس العمال. ظهرَت آثار للنفط مرةً أخرى، وكان الأب قد أخبرهم بأخذ عينةٍ أسطوانية، وطلب من السيد بانينج الحضور في اليوم التالي لدراستها معه.

صار برج الحفر على مرمى بصرهما. وكان عمود الحفر خارج الحفرة، وكان بإمكانهما رؤية مجموعة من «المنصَّات» الموضوعة في مكانها المحدَّد. عندما اقتربا، رأيا أن الطاقم قد أنزل كَبْلًا في الحفرة، وعندما رآهما ديف مورجينز، رئيس العمال، توجَّه إلى السيارة، وكان من الواضح أن هناك خطبًا ما. «لدينا حادث، سيد روس.»

«ماذا جرى؟»

«لقد سقط رجل في الحفرة.»

صاح الأب: «يا إلهي! من؟» ارتعدَت فرائصُ باني، وبالطبع كان أوَّل من خطَر بباله هو بول.

قال رئيس العمال: «عامل حفر. رجلٌ يُدعى جو جوندا. أنت لا تعرفه.»

«كيف حدث هذا؟»

«لا أحد يعرف. كنا نغيِّر المثقاب، ونزل هذا الرجل إلى القبو لغرضٍ غير معلوم؛ فحسبما نعلم لم يكن هناك ما يستدعي نزوله. ولم يلاحظ أحدٌ غيابه لفترة.»

«هل أنت متأكِّد من أنه بالأسفل؟»

«كنا نستخدم خطافًا لاصطياد الأجسام العالقة، وحصَلنا على قطعة من قميصه.» ابيضَّت شفتا باني. «يا إلهي، هل سيكون على قيد الحياة يا أبي؟»

«منذ متى وهو بالأسفل؟»

قال مورجينز: «نحن نبحث عنه منذ نصف ساعة.»

«ولم تسمعوا صوتًا؟»

«لا شيء.»

«إذن، فقد غرق في الوحل. على أي عمقٍ هو؟»

«حوالي خمسين قدمًا. يهبط الوحل إلى هذا الحد عندما نخرج عمود الحفر. لا بد أنه نزل برأسه أولًا، وإلا كان سيتمكن من إبقاء رأسه فوق الوحل وإصدار صوت.»

صاح الأب: «يا إلهي! يا إلهي! هذا ما يجعلني أرغب في ترك هذه المهنة! ما الذي يمكن فعله لمساعدة الرجال الذين لن يساعدوا أنفسهم؟»

كان باني قد سمع هذا الصراخ ألف مرة من قبل. كان هناك غطاءٌ للحفرة، وعلى أي رجل ينزل إلى القبو أن يضعه في مكانه. فلا بد من تكوُّن الأوساخ حول الحواف، مما يجعل الجزء العلوي للحفرة أشبه بالقمع، وتكون حوافها زلقةً بسبب الوحل، الذي يحتوي في هذه الحالة على آثار نفط، ومع ذلك، يجازف الرجال، وينزلقون حول حافة تلك الحفرة المنفرجة! لكن ما الذي يمكن فعله لمساعدتهم للحفاظ على أنفسهم؟

سأل الأب: «هل لديه عائلة؟»

«لقد أخبر بول واتكينز أنه لديه زوجةٌ وبعض الأطفال في أوكلاهوما؛ فقد كان يعمل في حقول النفط هناك.»

جلس الأب بلا حَراك، محدقًا أمامه؛ دون أن ينطق أحدٌ بكلمة. فقد كانوا يعلمون أنه كان يهتم حقًّا برجاله، وكان الاعتناء بهم أمرًا يجعله فخورًا بنفسه. شعر باني بخيبةِ أملٍ كبيرة بداخله؛ يا للعار، من بين جميع الأماكن، يحدُث هذا الأمر المؤسف في بئره الأولى التي كان من المفترض أن تكون نقطة البداية في الحقل الجديد! لقد أفسد هذا كل شيء عليه، ولن يكون قادرًا على الاستمتاع بنفطه إذا حصل عليه!

في النهاية قال الأب: «حسنًا، ماذا تفعلون الآن؟ هل تؤرجحون الخطاف لأعلى ولأسفل؟ لن يمكنكم العثور عليه هكذا أبدًا. سيتعيَّن عليكم إنزال ماسكةٍ ثلاثية الشُّعَب.»

أوضح ديف مورجينز بتردُّد: «لقد اعتقدتُ أن ذلك سيُمزِّقه إربًا ولذلك ...»

قال الأب: «أعلم ذلك، ولكن هذا ما عليك القيام به. ليس الأمر كما لو أنه ما زال على قيد الحياة. واثنِ الشُّعب حتى تتناسب مع قُطر الحفرة، واضغَط عليها لتخترق الجثة. هيا امضِ قُدُمًا وانتهِ من هذا الأمر، ولنأمل أن يتعلم بقية العمال شيئًا من هذه الحادثة.»

ترجَّل الأب من السيارة، وطلب من باني أن يأخذ أمتعتهما إلى منزل آل راسكوم، وأن ينقل الأخبار إلى روث، التي ستشعر بالاستياء، خاصةً إذا كانت تعرف هذا الرجل. أدرك باني أن الأب لم يكن يريده أن يكون حاضرًا عند خروج تلك الجثة الممزَّقة من الحفرة، ونظرًا لعدم قدرته على تقديم أيِّ مساعدة، أدار السيارة في صمت وانطلق مبتعدًا. تخيَّلَ الرجال وهم يربطون في عمود الحفر «الماسكة»، وهي أداةٌ صُممَت لاختراق العوائق التي

سقطَت في الحفرة، والإمساك بها بخطَّافاتٍ حادة. قد يمسكون بجو جوندا من ساقَيه وقد يمسكونه من وجهه — يا إلهي، كلما قلَّ تفكيرك في أمر كهذا، كان ذلك أفضل لاستمتاعك بالعمل في مجال النفط!

وصل الأب إلى الكابينة بعد بضع ساعات، واستلقى لبعض الوقت لنيل قسط من الراحة. قال إنهم أخرجوا الجثة، واتصلوا بالطبيب الشرعي، الذي أقسم أمامه العديد من الرجال بوصفهم هيئة المحلَّفين، وسمع شهادةَ آخرين، وفحص الجثة، ثم أعطى تصريحًا بالدفن. كان بول قد ذهب إلى فراش الرجل الميت، ونظر في أغراضه، ووضعها جميعًا في صندوق لتُشحن إلى زوجته، واحتفظ الأب في جيبه بنصف دزينة من الرسائل التي كان قد عُثر عليها ضمن الأغراض، ولأنه لم يكن يريد أن يظن باني أن المال يأتي بسهولة، أو أن الحياة كانت كلها لعبًا ولهوًا، أعطاه هذه الرسائل، وجلس باني في ركنٍ بعيد وقرأها؛ رسائل صغيرة مثيرة للشفقة، مكتوبة بخطٍّ صبياني يُقرأ بصعوبة، تخبرنا كيف قال الطبيب إن قلب سوزي سيصبح ضعيفًا لفترةٍ طويلة بعد إصابتها بالإنفلونزا؛ وأن هناك سِنَّتَين أخريَين ظهرتا في فم الرضيع مما تسبَّب في انزعاجه بشدة، وأن العمة ماري قد حضرَت للتو لزيارتها، وقالت إن ويلي في شيكاغو وإنه بخير؛ كانت هناك علاماتٌ متقاطعة ودوائر تمثِّل قُبلاتٍ من الأم ومن سوزي ومن الرضيع. وكانت هناك جملةٌ واحدة أسعدَت الأب وباني: «أنا سعيدة بأن لديك صاحبَ عملٍ جيدًا هكذا.»

كانت أمسية عيد الشكر كئيبة، لدرجة أنهم لم يأكلوا سوى القليل من المأدبة التي أعدَّتها روث، دون أي متعةٍ حقيقية. تحدَّثوا عن الحوادث، وأخبرهم الأب عن شيء كان قد حدث في أول بئر حفرها؛ كانوا على عُمق ثلاثين قدمًا فقط، عندما زحف رضيعٌ إلى القبو وانزلَق في الحفرة. تطلَّب الأمرُ رجلَين قويَّي البنية لمنع الأم من النزول في الحفرة، بينما حاول الباقون إخراج الطفل. حاولوا اصطياده بخطَّافٍ كبيرٍ مربوط في حبل، ووضعوا الخطَّاف أسفل جسم الرضيع ورفعوه برفقٍ لبضع أقدام، ولكن بعد ذلك انحشر جسم الرضيع بطريقةٍ ما، وأصبحوا عاجزين عن التصرف. كان الطفل قد علق هناك، ولم يكن يصرخ، لكنه كان يصدر أنينًا خفيضًا مستمرًّا طَوال الوقت، يمكنهم سماعه بوضوح. على بعد عشرين قدمًا من البئر بدءوا يحفرون ممرًّا عموديًّا، يكفي لعمل رجلَين فيه، وحفروا الأرض بالعتلات، وجرفوها في دلاءٍ بمعاولَ كبيرة، وسحب الرجال بالأعلى الدلاءَ بالحبال. وعندما وصلوا إلى أسفل الرضيع، حفروا جانبيًّا، ونجحوا في إخراجه. كان الخطَّاف قد

انغرز في لحم فخذه، لكن دون أن يمزِّق الجلد، شُفيَت الكدمة، وفي غضون أيامٍ قليلة كان الطفل على ما يُرام.

يا لها من حياةٍ غريبة! لو بقي باني في الديار في ذلك اليوم، لكان قد أخذ روزي تينتور إلى مباراة كرة القدم، وفي الوقت الذي لقي فيه جو جوندا المسكين حتفه، لكان باني يصرخ بأعلى صوتٍ له بسبب ظفر فريقه ببضع ياردات. ولكان الآن، في المساء، يرقص؛ نعم، فقد كانت بيرتي في واقع الأمر في حفلٍ راقص، في بيت أحد أصدقائها العصريين، أو في أحد الفنادق الفخمة حيث كانوا يقيمون حفلة. تخيَّل باني كلًّا من كتفَيها ونهدَيها لامعًا، وفستانها المصنوع من القماش الناعم اللامع، وخدَّيها المشرقين ووجهها النابض بالحياة؛ كانت تحتسي الشمبانيا، أو تتجول في الغرفة بين ذراعَي آشلي ماثيوز، الشاب الذي كانت تُحبه الآن. ولكانت العمة إيما في غاية تأنقها، تستمتع بلعب الورق في إحدى الحفلات المخصَّصة لذلك، ولكانت الجدة ترسم لوحةً للورد شاب، أو دوق، أو شخصٍ ما، يرتدي سروالًا قصيرًا وجواربَ حريرية، ويقبِّل يد محبوبته!

نعم، الحياة غريبة وقاسية. فالمرء يعيش في دائرةٍ ضيقةٍ صغيرة من وعيه، وكما يقول الناس، ما لا تعرفه لن يؤذيك. لم يمُر عَشاء عيد الشكر كما ينبغي؛ لأن عاملًا مسكينًا انزلَق إلى داخل البئر التي صادف أنك تمتلكها، لكن عشرات وربما مئات الرجال أصيبوا في آبارٍ أخرى في جميع أنحاء البلاد، وهذا لم يزعجك ولو قليلًا. وفي هذا الخصوص، فكِّر في كل الرجال الذين كانوا يموتون هناك في أوروبا! على طول الطريق من فلاندرز إلى سويسرا، كانت الجيوش تختبئ في الخنادق، تتبادل القصف ليلًا ونهارًا، وكان آلافٌ يتعرَّضون لتشوُّه أجسادهم بشكل مروِّع تمامًا مثلما تفعل الماسكة في قاع البئر، لكنك لم تكن تنوي أن تترك ذلك يفسد عليك عَشاء عيد الشكر، ولو قليلًا! فأنت لم تهتم بهؤلاء الرجال بقَدْر اهتمامك بالسُّمانى الذي كنت تنوي اصطياده غدًا!

جاء الطبيب الشرعي، ودفنوا جثة جو جوندا، على قمة تلٍّ بعيدًا عن الأنظار، ووضعوا صليبًا خشبيًّا لتمييز البقعة. كانت تلك هي وظيفة السيد شروبز، الواعظ في كنيسة إيلاي، وحضر إيلاي، والسيد واتكينز المسن وزوجته، ومرتادو الكنيسة من كبار السن الذين يحبون الذهاب إلى الجنازات. كان الأمر غريبًا؛ فقد بدا الأب سعيدًا بمجيئهم وبإخبارهم له بما يجب عليه فعله؛ فقد كانوا على دراية بأمور يجهلها! وبالطبع لم يَستفِد الفقيد المسكين حقًّا من الوعظ والصلاة على جثته المشوَّهة، ولكنه على الأقل كان طقسًا يشارك فيه الناس، وكل ما كان عليك فعله هو أن تقف حاسر الرأس في الشمس لفترة، وبعد ذلك

تُعطي الواعظ عشرة دولارات. نعم، هكذا كانت تتم الأمور، في الموت، كما في الحياة، فإذا أردتَ إنجاز مهمةٍ ما، يأتي شخص من شأنه تولي أمر هذه المهمة، وتدفع له. بدا الأمر لباني ظاهرةً طبيعية؛ فلا يهم إذا كان ذلك الشخص هو السيد شروبز، الذي صلى على عامل الحفر الميت، أو الرجل في محطة الوقود الذي يزوِّد سيارتك بالوقود والزيت والماء وينفخ إطاراتها، أو الموظفين العموميين الذين أسهموا في بناء الطريق الذي تقود عليه السيارة.

أرسل الأب برقية إلى السيدة جوندا لينقل لها النبأ الحزين، مضيفًا أنه سيرسل شيكًا بقيمة مائة دولار لتغطية نفقاتها الحالية. ثم كتب الأب رسالة، يشرح فيها ما فعلوه، وكيف أنهم سيرسلون متعلقات زوجها الميت في صندوقٍ عَبْر البريد السريع. كان لدى الأب تغطيةٌ تأمينية ضد الحوادث، وكانت شركة التأمين ستدفع تعويضًا للسيدة جوندا؛ كل ما عليها فعله هو تقديم طلبها للجنة الحوادث الصناعية. من المرجَّح أن يمنحوها خمسة آلاف دولار، وأعرب الأب عن أمله في أن تستثمر هذا المبلغ في سنداتٍ حكومية، وألَّا تدع أي أحدٍ يخدعها، بسندات النفط أو غيرها من مخطَّطات الثراء السريع.

وكان هذا كل شيء، وقال الأب إن بإمكانهما الذهاب لصيد السُّمانى، ومحاولة نسيانِ ما لم يستطيعا منع حدوثه. وافقه باني، لكنه في الحقيقة لم يستمتع بالصيد؛ ففي ذهنه اختلطَت جثث السُّمانى بطريقةٍ ما بجثة جو جوندا وجثث الجنود في فرنسا؛ ولذلك حالت هذه الجثث المشوهة دون استمتاعه بوقته.

٧

كان عيد الميلاد المجيد يقترب، وكان باني قد خطَّط لكل شيء. كان سيصطحب الأب إلى مباراة كرة القدم التي ستُقام يوم عيد الميلاد المجيد، وفي صباح اليوم التالي سيغادران إلى بارادايس، ويبقيان هناك حتى يحين وقت العودة لمشاهدة المباراة التي ستُقام يوم رأس السنة الجديدة. كانت أحوال البئر تسير على ما يُرام؛ حيث وصلوا إلى عمقٍ يتجاوز الألفَي قدم، وكان الصخر يتحطَّم بسهولة، ولم يكن لديهم أي مشكلة. ثم قبل عيد الميلاد ببضعة أسابيع، عاد باني إلى المنزل من المدرسة، وقالت العمة إيما: «لقد اتصل والدُك للتو؛ لديه بعض الأخبار عن إكسلسيور بيتر.» كانت العمة إيما قد خمَّنَت أن «بيت» اسمٌ مستعار، ولأنها تتمتع بصفاتِ ليدي حقيقية ستستخدم الاسم الكامل «إكسلسيور بيتر»، وكانت العائلة تضحك على هذا الأمر! وبالطبع، كانوا يسخرون منها طَوال الوقت.

صاح باني: «ما الأمر؟»

لقد عثَروا على نفط.»

«في بارادايس؟» هرع باني إلى الهاتف في حالة من الإثارة الشديدة. قال الأب إن ديف مورجينز قد اتصل هاتفيًّا وأخبره أن «إكسلسيور-كارتر رقم ١»، كما كان يُطلَق على البئر، قد ظهر بها رمالٌ نفطية لعدة أيام، وتمكَّنوا من إبقاء الأمر سرًّا. والآن كانوا يسُدُّون البئر بالأسمنت، وهو أمرٌ لا يمكن لأحد إخفاؤه.

قفز باني في السيارة وانطلق بسرعة نحو المكتب. كان الجميع متحمسين، ونشَرَت الصحف المسائية الخبر، وتوافَد بعض أصدقاء الأب العاملين في مجال النفط للتحدث في هذا الشأن. فبالطبع كان هذا يعني حقلًا جديدًا، وسيندفع الناس إلى بارادايس. كان الحظ حليف الأب لامتلاكه اثنَي عشر ألف هكتار في هذه المنطقة، ملكيةً مطلقة! كيف حدث ذلك؟ قال الأب إنه لم يفعل ذلك متعمدًا؛ فقد أنفق مائة ألف دولار لتسلية ولده، ولجعله يهتم بالعمل، وربما لتعليمه درسًا. ولكن الآن، يبدو كما لو أن الصبي هو من لقَّنه الدرس! قال السيد بانكسايد، الذي أصبح خبيرًا في مجال النفط الآن، وكان يحفِر بئرًا خاصة به، إنه كان يأمل دائمًا أن يخسر أبناؤه عندما بدءوا في لعب القمار، حتى لا يعتادوا هذه العادة، وافقه الأب الرأي، لكنه قال إنه كان على استعدادٍ أن يجازف بروح باني هذه المرة؛ فقد كان هناك الكثير من المال على المحك!

بعد ذلك، بالطبع، كان باني على أحرَّ من الجمر للوصول إلى بارادايس، وأراد ترك المدرسة، لكن الأب رفض. وقرَّر باني أنه لم يعد يهتم بتلك المباراة التي ستقام يوم عيد الميلاد، وأراد أن يعرف رأي والده في هذا الأمر. أجابه الأب أنه تمكَّن من الوصول إلى سن التاسعة والخمسين دون مشاهدة مباراة كرة قدم! لذلك قال باني إنه سيرسل إلى روث ويخبرها أنهما سيأتيان في ليلة عيد الميلاد، وسينطلقان بعد المدرسة مباشرةً، وسيتناولان العَشاء في وقتٍ متأخر، على غرار عادات المجتمع العادي. كان من الصعب على روث أن تصدِّق أن الأشخاص العصريين في المدن يتناولون عَشاءهم في الساعة الثامنة أو التاسعة مساءً!

في غضون ذلك، استمَر الحفر في البئر حتى وصلوا إلى عمق ٢٣٠٠ قدم، وكان من المعروف أن الرمال ظهرَت في بئر إكسلسيور-كارتر رقم ١ على عمق ٢٤٣٧ قدمًا. كان باني متحمسًا للغاية لدرجة أنه كان يركُض إلى الهاتف بين الحصص في المدرسة، ويتصل

بسكرتيرة والده في المكتب، ليسأل عما إذا كان هناك أيُّ أخبار. وهكذا، قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد، تلقى الخبر السعيد؛ حيث تحدَّث إليه الأب عَبْر الهاتف، وأخبره أن الرمال النفطية قد ظهرَت في بئر باني. كان من السابق لأوانه قول المزيد؛ فكل ما كانوا سيفعلونه هو أخذ عينةٍ أسطوانية. وبمجرد انتهاء الحصص الدراسية، انطلق باني بأقصى سرعة إلى المكتب، وهناك استمع إلى مكالمةٍ بعيدة المدى أجراها الأب مع الرجل الذي حصَل منه على معدَّاته. كان يطلب شحن رأسِ أنبوب دعمٍ مميز، الأكبر من نوعه، إلى البئر، وكان من المقرَّر وضعه على شاحنة وأن تنطلق الشاحنة الليلة. وبعد ذلك تحدَّث الأب إلى مورجينز مرةً أخرى، وأخبره بموعد وصول رأس أنبوب الدعم، وضرورة شروعهم في العمل وإخراج عمود الحفر، وإحكام تثبيت رأس أنبوب الدعم باستخدام عُروات على الجانب، ووضع ما لا يقل عن خمسين طنًّا من الأسمنت؛ فباراديايس تقع في منطقةٍ نائية؛ ولذا إذا وقع أي انفجار، فسيُحيل المكان إلى جحيم.

حصَلوا على العينة الأسطوانية التي بلغَت ثماني أقدام، وكانت تحتوي على نفطٍ عالي الجاذبية؛ مما يعني أن هناك ثروةً بانتظارهم، أسفل تلك التلال الصخرية، التي وطئَتْها أقدام المعز والأغنام لسنواتٍ عديدة! أرسل الأب في طلب «الصهاريج»، وبعد ذلك طلب المزيد منها. ثم علموا بوصول رأس أنبوب الدعم، وثُبِّت بإحكام، باستخدام «العُروات»، وبعد وضع الأسمنت، قال الأب إن كل الغاز الموجود أسفل جبل فيزوف لن يتمكَّن من رفع هذا الحمل. بدءوا الحفر مجددًا، وأخذوا عينةً أسطوانيةً أخرى، ووجدوا أن كثافة النفط قد زادت عن ذي قبل. رضخ الأب أخيرًا وأقرَّ بأهمية ما يحدث، ورأى أن على باني الاعتذار عن الذهاب إلى المدرسة لمدة يومٍ واحد. أعطى الأب أوامره بـ «غسل» البئر، وتحدَّث هاتفيًّا مع مورد الأسمنت، واتفق معه على توصيل شاحنةٍ كبيرة إلى باراديايس؛ حيث سيقابلهم الأب هناك، وسيبدءون العمل في اليوم الذي يسبق عيد الميلاد، وأخبرهم أنهم إذا أتموا مهمة بناء حاجز الأسمنت بنجاح، فسيدعوهم لتناوُل أكبر ديكٍ رومي في تلك المنطقة الريفية التي تُشتهَر بتربية الديوك الرومية. ولذلك، في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، ألقى الأب وباني بحقائبهما في السيارة، وانطلقا نحو باراديايس محطمين الأرقام القياسية للسرعة. وبعد ثلاث ساعات توقفا لإجراء مكالمةٍ هاتفية، وقال رئيس العمال إنهم «يغسلون» البئر، وإن عمال بئر إكسلسيور بيت قد انتهَوا من تجهيز حاجز الماء، وحفَروا في الأسمنت، وفي طريقهم للوصول إلى الرمال النفطية، وهي المرحلة الأخيرة من حفر البئر.

وصلا إلى سان إليدو، وقال الأب: «سنتوقف لإلقاء التحية على جيك كوفي.» توجها إلى المتجر، وقفز باني خارج السيارة، وقال له الموظف الموجود هناك: «لقد ذهب جيك إلى بارادايس لرؤية البئر. ألم تسمع الأخبار؟ يتدفَّق النفط من بئر إكسلسيور بيت في كل مكان!» خرج باني من المتجر وهو يركُض وينادي على الأب بصوتٍ عالٍ، وقفز في السيارة، وانطلقا بأقصى سرعةٍ على طول ذلك الطريق عَبْر الصحراء! ضحك الأب، وقال إن شرطيِّي السرعة سيكونون جميعًا عند البئر.

وصلا إلى بارادايس، وبدت البلدة وكأنها مهجورة؛ فلم يكن هناك أحدٌ في الشوارع، ولا حتى سيارة، باستثناء تلك السيارات التي كانت تسير بسرعة، مثل سيارة السيد روس وابنه. كان الوضع مواتيًا لسرقة البلدة بأكملها، لكن اللصوص أنفسهم كانوا يشاهدون البئر المتدفقة، برفقة شرطيِّي السرعة! كان عليك إيقاف سيارتك على بعد ربع ميل من البئر، حيث كان بالإمكان سماع صوت تدفُّق النفط من البئر الذي كان يشبه صوت هدير الماء في شلالات نياجرا! وبعد الالتفاف حول منعطفٍ في الطريق سيرًا على الأقدام، سيكون بإمكانك رؤية الوادي، متشحًا بالسواد؛ حيث كانت الرياح تهبُّ بشدة، مما أسهم في تكوُّن سحابةٍ رعدية، وستارٍ من الضباب الأسود على مد البصر. كان برج الحفر مخفيًّا عن الأنظار تمامًا؛ ولذا كان عليك الالتفاف من خلف تلٍّ صغير، والصعود على قمَّته المواجهة للريح؛ حيث تجمَّعَت الحشود التي كانت تحدِّق في نافورة النفط الأسود الكبيرة التي كانت تنبثق من الأرض، وتندفع إلى الهواء لارتفاع يصل إلى بضع مئات الأقدام، محدثةً صوتًا يشبه صوت مرور قطارٍ سريع لا نهاية له. كان يمكنك رؤية رجال يعملون، أو يحاولون العمل، تحت برج الحفر، وكان يمكنك رؤية مجموعةٍ منهم يحاولون بناء سد باستخدام المعاول والمجارف لإيقاف تدفُّق النفط، لكن الأب قال إنهم لن يدَّخروا الكثير؛ فهو يتبخر بسرعةٍ كبيرة.

كان بوسع الأب أن يراقب هذا المشهد بعقلانية دون أدنى تأثُّر؛ فالأمر لم يكن يعنيه في شيء. كان من الممكن أن يعرض المساعدة لو كانت هذه البئر تابعةً لأحد المستقلين، مثله، لكن إكسلسيور بيت مشهورةٌ بسوء سمعتها؛ حيث كانت تحتقر تجار النفط الصغار، وكانت لا تدَّخر جهدًا في ارتكاب الأفعال اللئيمة لخدمة مصالحها. بالطبع، كان من المخزي رؤية ضَياع كل هذا الكنز هباءً، لكن العاطفة ليس لها دورٌ في مجال النفط. ما كان عليك الانتباه إليه هو ألَّا تغيِّر الرياح اتجاهها فجأة، حتى لا تتلطخ ملابسك الجيدة!

٨

ظلا يشاهدان لفترة، ثم تذكَّرا أن لديهما بئرًا مملوكةً لهما، وعادا بالسيارة إلى بارادايس، عَبْر الوادي باتجاه مزرعة آل واتكينز. أجريا حديثًا طويلًا مع رئيس العمال، وفحص الأب العينة الأسطوانية، وتقرير الكيميائي الذي اختبر النفط، ورأى أن عملية «الغسيل» كانت تسير على ما يُرام، وأنهم سيكونون مستعدين لسد البئر بالأسمنت في الصباح. كان الجميع في حالة تأهُّب، وكانوا سيؤدون وظائفهم بشكلٍ أفضل من جماعة «إكسلسيور بيت»، ولن يلطِّخوا المكان بالنفط الخام. كانت الصهاريج قد وصلَت إلى محطة السكة الحديدية، وفحَصوا الأساسات التي اكتمل بناؤها للتو من أجل الصهاريج.

قال الأب إن كل شيء على ما يُرام. قادا السيارة إلى منزل آل راسكوم حيث قابلا روث، وارتدى باني ملابس الصيد الخاصة به، واصطاد عددًا قليلًا من السُّمانى قبل غروب الشمس، ثم تناولوا العَشاء، وأخبرهم بول بكل الشائعات التي تدور حول البئر، وكذلك أخبرهم بكم الأموال التي جمعَها إيلاي من أجل كنيسته. بعد العَشاء، لم يتمكَّنا من قضاء الوقت بعيدًا عن البئر؛ ولذا عادا إلى هناك! كانت أمسيةً باردة ومنعشة، وظهر الهلال في السماء، ومن فوقه لمع نجمٌ أبيضُ كبير، كان كل شيء جميلًا جدًّا، وكان باني في غاية السعادة؛ فقد كان يمتلك «بئر نفط استكشافية»، وكانت نتائج العينات «واعدة»، وسيُسفِر كل هذا عن حصوله على كنز من شأنه أن يجعل كل الحكايات الخيالية القديمة ومغامرات ألف ليلة وليلة تبدو صبيانية. كانوا يرفعون «أنبوب الماء» الآن، وهي عمليةٌ ضرورية لسد البئر بالأسمنت؛ إذ يجب رفع أنبوب الدعم الموجود بالأسفل، لدفع الأسمنت لأسفل. كان الأمر صعبًا؛ لأن أنبوب الدعم كان عالقًا، وكان عليهم إنزال أداةٍ تُعرف باسم «وصلة خلخلة»؛ حيث كانت تدق بقوة على أنبوب الدعم وتهزُّه حتى يتمكَّنوا من تحريكه. استطاع باني سماع صوت هذه الدقات الصادرة من باطن الأرض وهو على منصة برج الحفر، وفجأة صدر صوتٌ لم تسمع مثله أذنا باني طوال حياته، من شدَّته شعر باني أنه تلقَّى ضربة على جانب رأسه فعليًّا، وبدا وكأن كل ما بداخل الأرض قد انفجر خارجًا فجأة. واندفع فجأةً في الهواء رأس أنبوب الدعم الهائل، بكتلته الأسمنتية، الذي قال الأب عنه إنه سيسد بركان جبل فيزوف، ومن ورائه اندفع أنبوب الدعم الكبير ذو الأربع عشرة بوصة، مخترقًا الجزء العلوي من برج الحفر، محطمًا البكرة العلوية والرافعة كما لو كانتا مصنوعتَين من سكَّر الحلوى!

بالطبع استدار باني وركض للنجاة بحياته، وتشتَّت الجميع في كل اتجاه. ألقى باني بضع نظراتٍ خاطفة وهو يجري، ورأى كلًّا من رأس أنبوب الدعم وجزء كبير من أنبوب الدعم يندفع إلى أعلى، كما لو كان زهرة زراوند لكن مستقيمة. عندما أصبح ذلك الجزء المندفع من البئر طويلًا جدًّا، انهار وتحطَّم على الجانبَين، محطِّمًا معه جزءًا من برج الحفر، وانبثقَت من البئر نافورة ماء، تلاها فيضانٌ من النفط الأسود، تصحبه تلك الجلبة المألوفة التي تُشبه صوت خروج قطارٍ سريع من باطن الأرض! أطلق باني صيحةً أو اثنتَين، ورأى الأب يلوِّح بذراعَيه، وكان على ما يبدو يصيح هو الآخر، توجَّه نحو والده، لكن عندها حدث فجأةً الأمر الأكثر فظاعةً على الإطلاق؛ حيث اشتعلَت النيران في كتلة النفط المندفعة في الهواء!

لم يعرفوا قطُّ السبب وراء ذلك؛ ربما شرارة كهربائية، أو نار الغلاية، أو شرارة ناتجة عن الحُطام المتساقط، أو احتكاك الصخور المندفعة من البئر بالفولاذ؛ على أية حال، كان هناك برج من اللهب، وكان المشهد الأكثر روعةً هو أن النفط المحترق كان يرتطم بالأرض، ثم يرتد لأعلى، وينفجر، ويقفز مرةً أخرى ثم يسقط مجددًا، مما يتسبَّب في ظهور كتلٍ كبيرة من اللهب الأحمر، التي كانت تنفجر، وتنتُج عنها كتل من الدخان الأسود، التي تتحوَّل بدورها إلى اللون الأحمر.

ارتفعَت جبالٌ من الدخان إلى السماء، وهبط إلى الأرض سيلٌ من اللهب المتأجِّج، وكانت كل نافورة لهب تصطدم بالأرض تتحوَّل إلى بركان، ثم ترتفع مرةً أخرى، أعلى من ذي قبل، وتحوَّلَت كتلة النار بأكملها، التي كانت تغلي وتنفجر، إلى نهر من النار، فيضان من الحمَم البركانية يتدفَّق إلى أسفل الوادي، ويحوِّل كل شيء يلمسه إلى لهب، ثم يبتلعه ويُخفي ألسنة اللهب في سحابةٍ من الدخان. تدفَّقَت النيران نزولًا عَبْر الوادي بسبب قوة الجاذبية، ودفعَتْها قوة الرياح إلى جانب التل، والتهمَت النيران استراحة العمال دفعةً واحدة، بالإضافة إلى مخزن المعدَّات، وكل شيءٍ مصنوع من الخشب، وعندما هبَّت الرياح، ووجَّهَت سيل النفط والغاز إلى أحد الجوانب، كان بالإمكان رؤيةُ هيكل برج الحفر المغطَّى بالنار!

رأى باني والده وركض لينضم إليه. كان الأب يجمع الرجال؛ ليتأكد من عدم تعرُّض أحدٍ منهم للإصابة. وبالفعل نجح في تجميع الطاقم، واحدًا تلو الآخر، وكانوا جميعًا بخير، حمدًا للرب! وأمر الأب بول بالذهاب بسرعةٍ إلى بيت المزرعة، وأَخْذ عائلته إلى التلال، وطلب من باني الذهاب معه، والابتعاد عن النار بمسافةٍ كبيرة؛ إذ لم يكن

يمكن لأحدٍ تحديد الاتجاه الذي ستمتد إليه. ومن ثَمَّ ذهب باني بأقصى سرعة إلى أسفل الغدير في أعقاب بول، ووجدا أفراد الأسرة جاثيين على ركبهم يصلُّون والفتاتين في حالة هستيرية. ساعداهم على الوقوف وأخبراهم إلى أين يذهبون، ونصحهم باني بعدم الالتفات إلى متعلقاتهم القليلة؛ فالأب سيدفع لهم ثمنها. صرخ بول عندما تذكَّر المَعْز، فركضا إلى الحظيرة، لكن كل شيءٍ كان على ما يُرام؛ فعندما شعرَت الحيوانات بالذعر كسرَت جزءًا من سور الحظيرة، وهربَت بعيدًا نحو أسفل الغدير؛ حيث يمكنها الاعتناء بنفسها!

انطلق باني عائدًا، وفي الطريق، رأى الأب وهو يقود سيارته. أخبرهما أنه ذاهب لإحضار الديناميت، وفي غضون ذلك، عليهما الابتعاد عن الحريق، وانطلق هو في الظلمة. كانت هذه هي المرة الوحيدة في حياة باني التي يجد فيها والده يحتاج إلى شيءٍ ليس بحوزته؛ فهو لم يفكِّر من قبلُ في إحضار أي ديناميت معه في رحلاته بالسيارة!

بالطبع كان باني قد سمع عن حرائق النفط التي كانت تثير رعب العاملين بهذا القطاع. وكان يعلم عن الأجهزة التي تُستخدَم عادةً لإطفائها. لم يكن الماء ذا جدوى، بل على العكس تمامًا؛ فالحرارة ستفكِّك الماء إلى مكوِّناته الأصلية، وحينئذٍ ستتغذَّى النيران بالأكسجين. يجب أن تتوفَّر لديك كمياتٌ هائلة من البخار الحي، ولتحقيق ذلك أنت بحاجة إلى العديد من الغلايات، لكن لم يكن هناك سوى واحدةٍ فقط، ولن تتوقف هذه النيران إلى أن يجلبوا المزيد؛ كان باني قد سمع عن حريق استمر عشرة أيام، حتى وضَعوا فوق البئر غطاءً مخروطي الشكل من الصلب، وفتحوا فتحةً أعلاه لاندفاع ألسنة اللهب من خلالها وصب البخار الحي. وفي غضون ذلك، سيضيع كل الضغط، وستحترق ملايين الدولارات! أدرك باني أنه، كمحاولةٍ أخيرةٍ بائسة، كان الأب سيحاول سد الفتحة عن طريق تفجيرها بالديناميت، حتى ولو انطوى ذلك على المخاطرة بتدمير البئر.

التفَّ الصبيَّان حول المنحدرات، وعادا إلى البئر، على الجانب المواجه للريح، بعيدًا عن ألسنة اللهب. وهناك وجدا الطاقم منشغلًا بحفر حفرة بالقرب من الحريق، أدرك باني أنهم كانوا يستعدون لوضع الديناميت. وكانوا قد أقاموا حاجزًا لعزل الحرارة، مستخدمين بعض الأحواض الفولاذية التي كانوا يخلطون فيها الأسمنت؛ حيث كانوا يرشُّون عليها الماء باستخدام خرطوم، فيتحول الماء إلى بخار بمجرد لمسه تلك الأحواض. وكان من شأن أحد الرجال أن يركُض باتجاه الحرارة الحارقة، ليضرب بضع ضرباتٍ بمعوَل، أو يجرف التراب بمجرفة، ثم يبتعد بسرعة، ويركض رجلٌ آخر ليفعل الشيء ذاته. وكان ديف مورجينز هو الذي يمسك بالخرطوم وهو مستلقٍ على الأرض واضعًا فوق رأسه

قطعةً من القماش المبلل. لحسن الحظ، استفادوا من ضغط البئر الارتوازي؛ لأن المضخة كانت معطَّلة، مثل باقي المعدات. صاح ديف مصدرًا أوامره بزيادة عمق الحفرة. ركض بول للمساعدة، وأراد باني المشاركة، لكن ديف صاح فيه ومنَعه؛ ولذا كان عليه أن يقف ويشاهد «بئره الاستكشافية» وهي تحترق حتى لفحَت النيران وجهه.

بمجرد أن نزلوا تحت سطح الأرض، أصبحت المهمة أسهل، لكن الرجل الذي كان يعمل في تلك الحفرة كان يُخاطِر بحياته؛ فلو غيَّرت الرياح اتجاهها ولو لبضع ثوانٍ، فستنزلق كتلة النفط المغلي هذه فوقه! لكن الرياح كانت قويةً وثابتة، مما جعل الرجال يقفزون في الحفرة ويَحفِرون، لدرجة أن التراب كان يتطاير بكمياتٍ كبيرة لخارج الحفرة. بعد ذلك بدءوا يحفرون نفقًا نحو البئر، وحاولوا الاقتراب منه على قَدْر استطاعتهم، قبل أن يضعوا الديناميت.

وفجأةً فكر باني في والده، الذي كان سيُحضر معه المواد اللازمة؛ فهو لن يكون قادرًا على قيادة السيارة على الطريق، وسيُضطَر إلى الالتفاف من عند جانب التل الصخري، حاملًا هذه الحمولة الخطرة في الظلام. فركض باني بأقصى سرعة لتقديم العون.

كانت هناك سياراتٌ على الطريق؛ حيث رأى كثيرٌ من الناس وهجَ الحريق وجاءوا إلى مكان الحادث. سأل باني عن والده، وبعد ذلك جاءت سيارة تُطلق بوقها دون انقطاع، وكان بها الأب ورجل آخر لا يعرفه باني. قادا السيارة لأقرب مسافة ممكنة من الحريق، وكانت النيران قد ابتلعت منزل آل واتكينز منذ فترةٍ طويلة. أوقفا السيارة ونزلا منها، وطلب الأب من باني أن يأخذ السيارة إلى مكانٍ آمن، وألَّا يقترب منه أو من الرجل الآخر الذي يحمل الديناميت؛ كانا سيتجهان إلى البئر بحذرٍ شديد. سمع باني الأب يطلب من الرجل الآخر أن يتقدم ببطء؛ فهما لن يخاطرا بحياتهما لمجرد إنقاذ بضعة براميل من النفط.

عندما عاد باني إلى البئر مرةً أخرى، كان الأب والرجل هناك بالفعل، وكان أفراد الطاقم يضعون الديناميت. كان لديهم ما يشبه البطارية الكهربائية ليُفجِّروه بها، وبعد وقتٍ قليل أصبحوا جاهزين، وتراجَع الجميع إلى الوراء، ودفَع الرجل الغريب مقبضًا لأسفل، وصدرَت جلبة واندفعَت ألسنة اللهب من الحفرة، وتوقفَت نافورة النفط التي كانت تندفع من البئر على الفور؛ تمامًا كما لو كنتَ أوقفتَ خرطومَ الحديقة بوضع إصبعك على فُوَّهته! انهار برج النفط، بعدما اندفع وانفجر عدة مرات، وكانت تلك هي النهاية. استمرَّت النيران في التدفق لأسفل الغدير، وكان الحريق سيستغرق وقتًا طويلًا لينطفئ، لكن الجزء الرئيسي من العرض كان قد انتهى.

لم يُصَب أحد بأذًى؛ لا أحد سوى باني، الذي وقف بالقرب من حافة الوهج الأحمر، مُحدِّقًا فيما تبقَّى من برج الحفر المهيب، والأسس المتفحمة للاستراحة التي أسهم في بنائها، وجميع آماله المحطمة. لو كان الفتى أصغر سنًّا بقليل، لانهمرَت الدموع من عينَيه. اقترب منه الأب ولاحظ وجهه وخمَّن السبب، وبدأ يضحك. «ما الأمر يا بني؟ ألَا تدرك أنك حصَلتَ على نفطك؟»

الغريب في الأمر أن هذه الفكرة لم تكن قد خطرَت ببال باني حتى تلك اللحظة! حدَّق في والده، مندهشًا لدرجة أن الأخير وضع ذراعه حول الصبي وعانقه. «ابتهِج يا بني! هذا مجرَّد حادث، وليس بالأمر الجلَل. فأنت مليونير، وتملك عشراتِ أضعافِ ما ضاع في الحريق.»

قال باني: «يا إلهي! هل هذا صحيح حقًّا؟»

ردد الأب متسائلًا: «صحيح؟ عجبًا، يا فتى، لدينا محيط من النفط تحت هذه الأراضي التي نمتلكها كلها، ولا يمكن لأي شخصٍ سوانا الاقتراب منها! فلماذا تقلق بشأن هذه البئر الصغيرة.»

«لكن يا أبي، لقد عملنا بجد!»

ضحك الأب مرةً أخرى. وقال: «انسَ الأمر يا بني! سنحفرها مرةً أخرى، أو نحفر بئرًا جديدةً في لمح البصر. كانت هذه مجرد نارٍ صغيرة من أجل عيد الميلاد؛ للاحتفال بانضمامنا للتجار الكبار!»

الفصل السابع

الإضراب

١

مرَّ عامٌ تغيَّرَت فيه معالم مدينة بارادايس بسبب التطورات الكبيرة التي حدثَت فيها. أصبح الطريق ممهدًا، بَدءًا من الوادي، وكانت تصطفُّ على جانبيه لافتاتٌ كبيرة وصغيرة، تُعلن عن أراضٍ غنية بالنفط متاحة للبيع أو الإيجار، وأكشاك وخيام لإتمام عمليات البيع والإيجار. وعلى الفور كان من الممكن رؤية أبراج الحفر؛ واحد بجوار كنيسة إيلاي الجديدة، وآخر عند قدس الأقداس، البنك الوطني الأول. فقد كان بإمكان أي أحدٍ أن يشتريَ قطعة أرض ويبني عليها منزلًا وينتقل إليه، وفي الأسبوع التالي يبيع المنزل، ويُزيل المشتري المنزل، ويبدأ في بناء برج حفر. وكان عددٌ كبيرٌ من المشترين لم يتقدموا قطُّ إلى ما هو أبعد من الخطوة الأولى، المتمثِّلة في إنشاء برج الحفر على أراضيهم؛ حيث اكتشف وكلاء العقارات الذين يقسِّمون الأراضي إلى قطعٍ صغيرةٍ أن أفضل طريقةٍ على وجه الأرض للإعلان عن الأراضي؛ هي وجود برج حفر فيها. كان بالإمكان إحصاء أحد عشر بُرجَ حفر أثناء قيادة السيارة إلى الجانب الغربي من الوادي؛ حيث تدفق النفط من بئر إكسلسيور، ومن أعلى التلال، كان بالإمكان إحصاء خمسين برجَ حفر تنتمي إلى حواليَ عشرين شركةً مختلفة. وبالاتجاه شرقًا، كنتَ تجد عشراتٍ من أبراج الحفر الأخرى قبل أن تصل إلى أرض آل روس، وكان هناك شخصٌ ما ينقِّب عن النفط في الجانب الآخر من هذه الأرض، على طول المنحدر المتجه إلى روزفيل، حيث كان يُبنى فندق مينيرال سبرينجز.

أصبح غدير آل واتكينز الصغير موقعًا لقريةٍ جديدة. وانتشر على طول المنحدرات أربعة عشر برجًا للحفر، وبالأسفل كانت هناك صهاريجُ كبيرة ومخازن للمعدات ومستودعات ومكتب. كان الأب قد بنى البيت الجديد لعائلة واتكينز بالقرب من

مدخل المكان، وكانوا قد باعوا مَعْزهم، وأصبح لديهم الآن قطعة أرض يزرعون فيها الفراولة والخضراوات، ويربُّون الدجاج، ويحصُلون على البيض، ويُوردون كل ذلك لمطاعم الشركات. بالإضافة إلى ذلك، كان لديهم كشكٌ صغير على جانب الطريق، وكانت السيدة واتكينز والفتيات يخبزْنَ الفطائر والكعك وغيرها من الحلوى الطيبة، التي كان يزدردها عمال النفط بسرعةٍ مذهلة، بالإضافة إلى «المشروبات الغازية» ذات الألوان الزاهية. لكن لم يكن الكشك يبيع أي «سجائر»؛ لأنها تتعارض مع الوحي الثالث، وكان يمكنك الحصول عليها من الكشك المنافس الكائن على الجانب الآخر من الطريق.

كانت استراحة العمال الجديدة تقع على مسافةٍ قريبة، تحت ظلال بعض أشجار الأوكالبتوس. وكانت تحتوي على ستة حمَّامات للاغتسال، يتردَّد عليها العمال بكثرة، ولكن ما أحزن باني بشدة أنه نادرًا ما كان أحدٌ يدخل غرفة القراءة، على الرغم من أنها كانت مُزينةً بستائرَ جميلة صنعَتها روث، فنادرًا ما كان يقترب عمال النفط من المجلات الثقافية. حاول باني معرفة السبب، وأخبره بول أن السبب هو أن الرجال كانوا يُضطرُّون إلى العمل لساعاتٍ طويلة، كان بول نفسه يعمل نجارًا لمدة ثماني ساعات في اليوم؛ ولذا نجح في تخصيص وقت للقراءة، لكن عمال النفط كانوا يعملون في نوبتَين، مدة كلٍّ منهما اثنتا عشرة ساعة، وكانوا يعملون طوال السنة، حتى في أيام الأحد والعطلات. عندما تقضي هذا الوقت الطويل في التعامل مع المعدَّات الثقيلة، كل ما تحتاجه هو أن تتناوَل العشاء وتستلقيَ وتغُطَّ في نومٍ عميق. كان الأب مشغولًا جدًّا ولم يكن لديه وقتٌ لحل هذه المشكلة في الوقت الحالي.

كان بول رئيس النجارين، وكان مسئولًا عن جميع عمليات البناء، وكانت هذه مسئوليةً كبيرة على شاب في عمره. كانوا قد أتموا بناء أربعين كوخًا لعائلات العمال حتى الآن، وبلغَت تكلفة كلٍّ منها حوالي ستمائة دولار، وكانت تؤجَّر بثلاثين دولارًا شهريًّا، مع توفير الماء والغاز والكهرباء مجانًا. لم يكن أحدٌ يعرف بالضبط تكلفة هذه الخِدمات الأخيرة؛ لذلك لم يستطع باني تحديدَ ما إذا كان السعر معقولًا أم لا، وانطبق الأمر ذاته على عمال النفط، لكن الأب قال إن سعادتهم بالحصول على المنازل كانت دليلًا لأي رجل أعمال على عدالة الصفقة.

ولكن كانت هناك نقطةٌ واحدة تدخَّل فيها باني بكل حماس؛ فهو لم يستطع فَهْم سبب أن كل شيء متعلق بمجال النفط كان قبيحًا للغاية، وشعَر بضرورة فعل شيء حيال هذه الأكواخ. سأل روث عن ذلك الأمر، وذهبا إلى مشتلٍ في سان إليدو، ودون أن يقول

شيئًا للأب، اشترى مائة شُجيرة سَنْط، كلٌّ منها موضوعة في علبة من القصدير، بالإضافة إلى مائتَي زهرةٍ متسلقة، كلٌّ منها مربوطة بجذورها في كيس من الخيش. والآن أصبح في كل كوخ شجيرةٌ صغيرة وبجانبها وتد، وعلى طول الطريق كانت هناك إطاراتٌ مصنوعةٌ من أنابيب الغاز، ومزينة بكروم الورد التي بدأَت تتسلقها. وتولَّت روث مسئولية اختيار أحد العمال شهريًّا ليترك عمله، ويسقي الأشجار والكروم، وفي اليوم التالي يهذِّبها ويزيل الحشائش والأعشاب الضارة. ومن أجل هذه الخدمة، اضطُرَّت روث لقبول راتبٍ قَدْره عشرة دولارات شهريًّا، وحملَت اللقب الرفيع «المشرفة على أعمال البستنة». كان باني يتفقَّد النباتات النامية، ويجلس في غرفة القراءة الخاصة به، ويُقنِع نفسه بأنه قد بدأ رحلته في وظيفة المصلح الاجتماعي؛ لحل النزاعات بين أصحاب رأس المال والعمال، التي كان يَدْرسها في مادة «الأخلاقيات الاجتماعية» في المدرسة.

الآن كاد باني يُتِم عامه الثامن عشر، وعلى الرغم من نحافته، كان قوي البنية، مثل العدَّائين. كانت بشرتُه سمراءَ كالعادة، وشعره لا يزال مموجًا، وشفتاه حمراوَين وجميلتَين مثل شفاه الفتيات، لقد كان مرحًا من الظاهر، لكنه كان جادًّا في قرارة نفسه، ويحاول بكل إخلاص الاستعداد لمهمة إدارة ملايين الدولارات من رأس المال، وتوجيه حياة آلاف من العمال. وكان باني يريد تعلم أي اقتراحاتٍ مفيدة لدى الأشخاص الذين ألفوا كتبًا حول هذه الأمور، ودرَّسوها في المدارس؛ لذلك كان يستمع لنصائح الآخرين ويقرأ الكتب التي يقترحونها عليه، ثم يعود إلى المنزل ويسأل الأب عن كل هذه المعلومات، وعندما يزور حقل النفط، كان يسأل بول. وفقًا للمعلمين والكتب المدرسية، لم يكن يُوجَد نزاعٌ حقيقي بين أصحاب رأس المال والعمال؛ فهم شركاء وضروريون للمجال، ويجب أن يتعلموا كيفية التعاون والعمل معًا. بينما قال الأب إن هذا كان صحيحًا، ولكن نظريًّا فقط، مثل أي شيءٍ آخر، ولم يُفلِح دائمًا. وأضاف أن العمال كانوا جهلاء، ويريدون أشياء لا يستطيع مجال النفط توفيرها، ومن هنا ظهرَت الخلافات. لكن الأب لم يكن يعرف ماذا يفعل حيال ذلك، ويبدو أنه لم يكن يُحاوِل أن يعرف؛ فقد كان دائمًا مشغولًا للغاية في تطوير قطعة أرضٍ جديدة، ولم يستطع باني التذمُّر بشأن هذا الأمر بعدما أشرك الأب في الكثير من الأعمال الأخيرة!

كان الأمر، عند استيعابه، يبدو مخزيًا. فقد كانت هذه المزرعة مكانًا يمكن للأب أن يأتي فيه للراحة وصيد السُّمانى، ولكن الآن بعد أن عثَروا على النفط، أصبحَت آخر

مكان في العالم يمكن أن يستريح فيه. كان من المقرر وضعُ خططٍ لحفر آبارٍ جديدة، ومد خطوطِ أنابيب، وتسويق النفط، والنظر في أمور التمويل، وبناء منازل ورصف طرق، وإنشاء مصنع غاز، والحصول على المزيد من المياه؛ ففي كل يوم كان يظهر شيءٌ جديد. أظهرَت الدفاتر أن ما يقرب من ثلاثة ملايين دولار كانت قد أُنفقَت في المكان حتى الآن، وكان الأب يؤكد على الضرورة الحتمية لامتلاكه لمعمل تكرير خاص به؛ فقد كان عقله مليئًا بآلاف التفاصيل الفنية المتعلقة بهذا الأمر. كان هناك مجموعة من الرجال — الرأسماليين الكبار حقًّا — الذين أرادوا مشاركته، وتحويل هذا الحقل إلى واحد من حقول النفط الضخمة، وتأسيس شركةٍ رأس مالها ستون مليون دولار، وستكون هناك «مزرعة صهاريج»، والعديد من معامل التقطير وسلسلة من محطات التوزيع. هل ينبغي على الأب الموافقة على هذا العرض، أو الاحتفاظ بهذا المشروع من أجل باني؟ سيتعيَّن على الصبي أن يقرِّر قريبًا، هل يريد أن يتحمل عبئًا ثقيلًا مثل هذا، أو يترك آخرين يتحملونه نيابةً عنه؟ هل يريد أن يدرس موضوعاتٍ مختلفة، مثل بول، أو يريد الانخراط في مجال النفط، وإيلاء اهتمامه لعملية التقطير الهدام، واستخدام مكثِّفات التجزئة الخاصة بأبراج التقطير؟

٢

لم يكن مقدَّرًا أن تظل تكهُّنات باني حول مشكلة أصحاب رأس المال والعمال نظرية. فأثناء عطلة عيد الميلاد التي قضاها في بارادايس، بدت على بول الجدية، وسأله عن موقف الأب تجاه مسألة الاتحادات هنا في حقل النفط. كان هناك مَن يؤسس اتحادًا للنجَّارين، وقد تحدث بول معه، وقرَّر أن من واجبه الانضمام لهذا الاتحاد. كان بعض الرجال قد انضموا سرًّا، لكن بول لم يُرِد إخفاء أي شيء عن السيد روس. أجاب باني أن والده لم يكن يحبِّذ فكرة الاتحادات، لكنه بالتأكيد لن يعترض على انضمام بول، إذا كان بول يرى أن هذا هو التصرُّف الصائب، على أي حالٍ سيتناقشون حول هذا الأمر. وبالفعل ناقشوا الموضوع معًا ذلك المساء بشكلٍ يختلف تمامًا عن المناهج في المدرسة الثانوية.

كان الأب يؤمن بتنظيم الاتحادات، ودائمًا ما كان يقول إن هذا المبدأ يمكن تطبيقه على العمال، على الأقل نظريًّا. لكن على أرض الواقع، كان الأب قد لاحظ أن اتحاد العمال كان يتيح الفرصة للكثير من المسئولين للعيش عالةً على العمال الحقيقيين، لدرجة أن

هؤلاء المسئولين أصبحوا طبقة بذاتها، نوعًا من المصلحة الشخصية، وكانوا يعتنون بمصالحهم، وليس بمصالح العمال. وبطبيعة الحال كان عليهم إيجاد مسوِّغ لوجودهم؛ ومن ثَمَّ كانوا يميلون إلى أن يثيروا لدى العمال استياءً لم يكن العمال يشعرون به في الأساس.

قال بول إن هذه إحدى وجهات النظر للموضوع، لكن في الواقع، كان يمكن النظر إلى الموضوع من منظورٍ آخر؛ فقد يكون العمال مستائين، ويحاول المسئولون تهدئتهم. كان المسئولون يتفاوضون مع أصحاب العمل، وبطبيعة الحال كانوا يطلبون من العمال الامتثال لما اتُّفِق عليه. ألا يمكن تفسير الخلافات في مجال النفط بطريقةٍ أكثر عقلانيةً من خلال إدراك الحقيقة الجوهرية المتمثلة في وجود مجموعتَين؛ واحدة توفِّر العمال، بينما تدفع الأخرى المال مقابل مجهود هؤلاء العمال؟ ومن الطبيعي أن مَن يشتري حصانًا لن يقدِّر قيمته مثلما يفعل صاحبه.

كان واضحًا أن الأب لم يُعجَب بوجهة النظر هذه؛ لأنها زادت من صعوبة عمله. وقال إن أكثر ما يزعجه في الاتحادات هو حرمان المرء من حريته الشخصية؛ فهو لم يعُد مواطنًا أمريكيًّا حرًّا، وأصبح مجرد جزءٍ من آلةٍ يديرها سياسيون، وفي كثيرٍ من الأحيان فاسدون. إن ما جعل هذا البلد عظيمًا هو العمل الفردي، ويجب علينا حماية ذلك. وافقه بول في الرأي، لكنه أضاف أن أصحاب العمل أعطوا للعمال نموذجًا سلبيًّا؛ إذ كانوا قد انضموا إلى «اتحاد أرباب العمل في قطاع النفط»، الذي تحكَّم في القطاع بصرامةٍ شديدة. وقد قيل لبول إن السيد روس في بداياته أضاف دولارًا إلى أجور رجاله اليومية المعتادة، وذلك للحصول على أفضل عمالة، ولكن عندما دخل حقل بروسبكت هيل، كان عليه الانضمام إلى الاتحاد، وحينئذٍ لم يُسمح له بدفع أكثر من الأجور المعتادة.

اعترف الأب بصحة هذا الأمر، لكنه سارع إلى توضيح أنه لم يخفِّض أجر أي شخص؛ فقد نمت أعماله بسرعةٍ كبيرة، وعيَّن رجالَه في مناصبَ أعلى، وعندما عيَّن رجالًا جددًا للقيام بالوظائف القديمة، أعطى لهم الأجور المعتادة. لكن عندما ضغط عليه بول، اعترف الأب أنه بالفعل كان ينتمي للاتحاد، وأنه قد ضحَّى بحريته الشخصية من أجل هذا. كان واضحًا بما فيه الكفاية، أنه كان لا بد من وجود بعض النظام بين أرباب العمل، لمنعهم من أن يُلحِق بعضُهم الضرر بمصالح بعض، واعترف الأب بأنه ربما لو كان عاملًا لأدرك الضرورة ذاتها.

شعر الأب بالسعادة عندما قال بول إنه لو كان جميع أرباب العمل عادلين مثل السيد روس، لكان من السهل التعامل معهم، لكن واقع الأمر أن كثيرين منهم كانوا لا يحترمون إلا السلطة، ولن يحظى العمال بأي سلطة إلا إذا كانوا مجموعة. لماذا كان النجَّارون يعملون ثماني ساعات فقط؟ لأن هذا هو نظامهم الخاص المتبع في جميع أنحاء البلاد، ولا يمكنك الحصول على الكثير من النجَّارين الجيدين بأي شروطٍ أخرى. لكن عمال النفط كانوا يعانون من سوء التنظيم، ومن هنا ظهر النظام غير الإنساني المتمثِّل في العمل فترتَين، الذي نتج عنه عدم تمكُّن باني من جعل الرجال يستفيدون من غرفة القراءة الخاصة التي أنشأها. ابتسم بول وهو يقول ذلك، ليخفِّف من حدة كلامه؛ فقد كان يعلم أن هذا الكلام سيؤذي باني، وأن الأب، هو الآخر، سينزعج من سماعه. لن يستطيع الأب أن يجعل عمال النفط لديه يعملون لمدة ثماني ساعات فقط في اليوم، حتى لو أراد ذلك؛ لأن «اتحاد أرباب العمل في قطاع النفط» سَلبَه حريته الشخصية في اتخاذ قرار في هذا الصدد. وأضاف بول أنه سيتعيَّن على الاتحاد مواجهة هذه المشكلة في القريب العاجل؛ لأن عمال النفط كانوا ينظِّمون اتحادًا هنا في حقل بارادايس، كما كان السيد روس بلا شك يعلم.

قال الأب إنه سمع بهذا الأمر، حتى إنه اعترف بأن الاتحاد قد أرسل له نشرات لإبقائه على اطلاع بمجريات الأمور. وأضاف أنه مع ذلك لم يكن قلقًا، فإذا أراد رجاله تكوين اتحاد، فسيجد طريقة للتعامل مع هذا الأمر؛ فقد حاول أن يكون عادلًا طوال حياته، وكان الرجال يعرفون ذلك، أو على الأقل معظمهم. أجاب بول بأن على السيد روس أن يفهم الحقيقة الجوهرية، وهي أن تكلفة كل شيء كانت ترتفع منذ بدء الحرب في أوروبا، وكان سعر النفط يرتفع أيضًا، لكن اتحاد أرباب العمل تمسَّك بجدول الأجور القديم، ولم يكن ذلك منصفًا، وكان يتسبَّب في حدوث المشاكل. لم يكن أرباب العمل الذين حاربوا الاتحادات يتمتَّعون بنظرةٍ مستقبلية؛ لأن ما فعلوه حقًّا جعل الرجال يتوجهون إلى «اتحاد عمال الصناعة في العالم». بدت الدهشة على وجه الأب عند سماع ذلك الأمر؛ لأن أعضاء هذا الاتحاد، الذين كان يُطلق عليهم اسم «الهائجون» كانوا معروفين بأنهم أشخاصٌ خطرون، وكادوا يكونون فوضويين؛ حيث أرادوا الاستيلاء على الآبار وتشغيلها لصالح العمال، وكانت هناك إشاعاتٌ مروِّعة عن دعوتهم لارتكاب أعمال «تخريب»، وهو ما كان يعني أنه في حالة عدم حصول الرجال على ما يعتبرونه صفقةً عادلة، سيعاقبون أصحاب العمل عن طريق إتلاف الممتلكات، وحتى إشعال النار في الآبار. هل انضمَّ «اتحاد عمال

الصناعة في العالم» إلى قطاع النفط حقًّا؟ أجاب بول أنه ليس من العدل أن يُبلغَ عن الرجال؛ فهذا سيجعله جاسوسًا، ولكن في واقع الأمر، يتواجد «الهائجون» في كل قطاع وفي كل صناعة؛ فمن المستحيل أن تمنع مشاركتهم، لكن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو تقليص نفوذهم باتباع سياسة اللعب النظيف.

كان بول قد أخذ يدرُس مسألة أصحاب رأس المال والعمال هذه، كما اعتاد أن يدرُس كل موضوع يقابله. وكان يقرأ كتبًا لم يسمع باني عنها من قبل؛ إذ لم تكن تُدرَّس في فصول المدارس الثانوية؛ لأنها، على حد قول بول، كانت تتبنى وجهة نظر العمال. كان بول قد انخرط في محادثات مع أحد منظمي الاتحادات الذي جاء من أجل «اتحاد عمال النفط»، وكان هذا الرجل في غاية الذكاء؛ حيث كان يعمل في حقول النفط لعدة سنوات، وعلى درايةٍ كبيرة بظروف العمال. كان باني مهتمًّا جدًّا بذلك الأمر، وقال إنه يودُّ مقابلة الرجل، وتساءل عما إذا كان الأب قد يرغب في ذلك أيضًا. أجاب الأب بالرد الذي كان يستخدمه دائمًا أخيرًا، وهو أنه كان مشغولًا جدًّا في أعمال تركيب خط الأنابيب الجديد، ومشكلة معمل التكرير، ولكن ربما يكون مهتمًّا لاحقًا. كان الأب دائمًا ما يخدع نفسه بتلك الطريقة؛ أن في المستقبل سيتوفَّر لديه بعض الوقت عندما لا يكون مشغولًا!

ومع ذلك، لم يكن لديه أي اعتراض على مقابلة باني لجميع منظمي الاتحادات الذين يرغب في مقابلتهم؛ فلا شك أنه سيتفاوض مع الكثير منهم خلال حياته. قال بول إنه كان من المفترض أن يحضر توم أكستون سرًّا، ولكن في الحقيقة كان جميع أصحاب الأعمال يعرفونه؛ فقد طُرد من ملكية إكسلسيور بيت البارحة فقط. سيكون راغبًا بكل تأكيد في التحدث مع باني، بشرط ألَّا يؤثِّر هذا على حقِّه في ضم الرجال الذين يعملون لدى السيد روس إلى الاتحاد.

كانت نتيجة ذلك أن دُعي أكستون لمقابلة باني ذات صباح في غرفة القراءة؛ مما تسبَّب في حدوث نشاطٍ كبير في أرض آل واتكينز لم تشهده منذ انفجار البئر المكتشفة واندلاع الحريق. لم يذهب رجال النوبة الليلية للنوم، وانتظروا بترقب ليشهدوا هذه المقابلة، وظلوا يمُرون بجانب الأبواب والنوافذ ملقين نظرةً على ما يدور بالداخل! كان من المفترض أن يكون منظم الاتحاد شخصًا غامضًا ومخيفًا، يأتي ليلًا، ليلتقي بك وبأصدقائك في مكانٍ ما في التلال، ولكن ها هو ذا، يستقبله ابن الرجل الكبير علنًا! أُعجِب الرجال بباني روس، وقالوا إنه شابٌّ رائع، متفقين مع الأب في هذه النقطة!

كان توم أكستون رجلًا ضخمًا، يتحدث ببطءٍ، بصوتٍ ناعم، به لهجةٌ جنوبية بسيطة، بدا قويًّا، وكان يلزم أن يكون كذلك، بالنظر إلى المعاملة التي كان يحصل عليها. بالطبع، لم يستطع الجزم بأن أعضاء اتحاد أرباب العمل هم الذين أرسلوا البلطجية لضربه، وحاولوا إصابته بعجز، ولكن عندما تكرَّر هذا الأمر في عدة حقولٍ مختلفة في جنوب كاليفورنيا، كان من الطبيعي أن يتوصل إلى بعض الاستنتاجات؛ حيث كانت هذه الهجمات تستهدفه هو بالذات دون الآخرين. ذَهِل باني عند سماع هذا الأمر؛ فهو لم يسمع من قبلُ عن هذه الواقعة، وشعَر أنه عاجز عن الكلام، لكنه أوضح للسيد أكستون أن والده لم يكن له علاقة بمثل هذه الأعمال القذرة. ابتسم منظم الاتحاد، وكان جليًّا أنه دار حديث بينه وبين بول؛ لأنه قال: «يظن والدك أن من يديرون اتحادات العمال فاسدون وعالة على الغير. حسنًا، أودُّ أن تسأله عن القَدْر الذي يعرفه حقًّا عن اتحاد أرباب العمل، ونوعية الرجال الذين يديرونه، وما الذي يفعلونه لنا. قد تكتشف أن والدك كان يهمل شئون اتحاده، تمامًا مثلما يهمل معظم العمال شئون اتحادهم.» كان على باني الاعتراف بأن هذه كانت وجهة نظر عادلة، وعندما سأل الأب، ووجد أنه لم يحضُر قط أي اجتماع للاتحاد، ولكنه كان فقط يدفع الاشتراكات دون نقاش، بالطبع جعل ذلك باني يحترم توم أكستون أكثر، ويصدِّق ما قاله عن الأحوال هنا في بارادايس، وفي الحقول الأخرى، وعن السرعة التي كان ينتشر بها السخط وسط الرجال.

بالأمس فقط طردَت شركة فيكتور أويل أربعة عشر رجلًا لانضمامهم للاتحاد؛ حيث كان لدى الرؤساء جاسوسٌ بينهم، وانتظروا حتى جاءت الفرصة المناسبة لاتخاذ إجراء ضد العمال! قال منظِّم الاتحاد: «من المؤكد أنه سيحدث إضرابٌ عما قريب. سيحتجُّ العمال على نظام النوبات الثلاث، وعلى أمورٍ أخرى، وعندما يحدث ذلك، سيتعيَّن على والدك التفكير فيما إذا كان سيتعامل بشكلٍ منفصل مع رجاله، أو سينحاز إلى جانب اتحاد أصحاب العمل، ويترك مجموعةً من كبار رجال الأعمال الفظِّين يجرُّونه إلى المشاكل.» يمكنك أن تتخيل مدى تأثُّر باني بهذا الكلام، وعدد المناقشات التي أجراها مع والده، ومع بول، ومع مدرس مادة «الأخلاق الاجتماعية» في مدرسة بيتش سيتي الثانوية!

٣

كان الحلفاء، الذين كانوا يسيطرون على البحر، يعملون على تجويع ألمانيا، وكان الألمان يردُّون على ذلك بالسلاح الوحيد الذي بحوزتهم، الغواصة. أجبَرَت الولاياتُ المتحدة

الحكومةَ الألمانية على الموافقة على عدم نسف سفن الركاب بالطوربيد دون سابق إنذار، لكن في أوائل شتاء عام ١٩١٧، أعلن الألمان أنهم لن يتَّبعوا هذه السياسة بعد الآن، وكان الجميع يقولون إن على أمريكا خوضَ الحرب. أُعيد السفير الألماني في واشنطن إلى بلاده، وبعد ذلك لم تعُد روح الحياد تهيمن على حصص «الأحداث الجارية» في المدرسة.

بدا لأصحاب آبار النفط أنه من غير الوطني أن يطالب العمال بالعمل لمدة ثماني ساعات في اليوم وزيادة الأجور في هذه الأزمة. فالبلاد كانت على وشك الدفاع عن نفسها، وكانت بأمسِّ الحاجة إلى النفط أكثر من أي وقتٍ مضى في التاريخ! لكن العمال ردوا بأن أصحاب العمل لم يقدِّموا التنازلات طوعًا، ولكن لأنهم اضطُروا لذلك، وقد تكون هذه هي المرة الوحيدة التي يتعرضون فيها لهذا الموقف. لم يكن ثمَّة ما يدعو إلى افتراض أن أرباب العمل كانوا يبيعون النفط دون مقابل؛ فقد كانوا يحصلون على ثمنٍ باهظ مقابله، وكانوا سيحصلون على السعر ذاته، أو أفضل منه، إذا خاضت البلاد الحرب. طالب العمال بالحصول على حصةٍ تتناسب مع أسعار احتياجاتهم. وكانوا يعقدون اجتماعاتٍ في جميع أنحاء حقل النفط، وفي أواخر شهر فبراير أرسل مسئولو الاتحاد خطاباتٍ إلى مختلف الشركات طالبين عقد مؤتمر. وعندما قُوبل هذا الطلب بالتجاهل، أرسلوا إخطارًا إلى أصحاب العمل بأنه سيكون هناك إضراب.

جاء ثلاثة رجال لمقابلة الأب؛ أحدهم موظفٌ قديم والاثنان الآخران من الموظفين الجدد. كان الثلاثة صغارًا في السن؛ في الواقع لم يكن عُمرُ عمال النفط يزيد عن خمسة وثلاثين عامًا، وكانوا جميعًا من الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء. حمل الرجال الثلاثة قبَّعاتهم في أيديهم، وكانوا شاحبين بعض الشيء، وبالرغم من شعورهم بالإحراج كانوا حازمين. لقد أحبوا جميعًا السيد روس، وأقرُّوا بذلك؛ فقد كان «منصفًا» ولا بد أنه يعرف أن مطالبهم كانت معقولة. ألن يكون القدوة لأصحاب العمل الآخرين، بموافقته على الجدول الزمني الجديد، ليستمر عمله دون انقطاع؟ فإذا حدث الإضراب، فلا مفَر من انتشاره، وسيؤدي ذلك إلى ارتفاع تكلفة النفط دفعةً واحدة، وسيكسب السيد روس أكثر بكثير مما كان سيدفعه للرجال. لكن الأب أجاب بأنه قد انضم إلى اتحاد أرباب العمل، ووافَق على الالتزام بقراراته، وتساءل عما سيحدُث لسمعته كرجل «منصف» إذا لم يحافظ على وعده لشركائه في وقت الأزمة. ما سيفعله هو أنه سيعمل من خلال الاتحاد من أجل الوصول لاتفاق مع الرجال، وسيترك كل أعماله، ويتجه إلى مدينة إنجِل سيتي ليرى ما يمكن أن يحقِّقه. كان يرى أن العمل لمدة ثماني ساعات في اليوم أمرٌ عادل، ودعم

فكرة تعديل الأجور بما يتوافق مع تكلفة المعيشة؛ بحيث لا يتأثر دخل الرجال بالتقلبات. سُرَّت اللجنة المكوَّنة من الرجال الثلاثة بهذه الوعود، وتصافحوا.

لو كان الأمر بيده، لما اتخذ جيه أرنولد روس هذا الدور العظيم قطُّ. فقد كان يفكر في ماله، أو في الأشياء التي يرغب فيها ويمكِنه تحقيقها باستخدام ماله، وعلى الأرجح كان سينحاز إلى جماعته، كما اعتاد أن يفعل. لكن كان هناك باني، «المثالي الصغير»؛ لقد أحب باني العمال، وكان العمال يحبونه، وكان الأب فخورًا بهذا الإعجاب المتبادَل، وتعاطَف مع باني، مع أنه لم يتصور يومًا أنه سيشعر بمثل هذه المشاعر. علاوةً على ذلك، كان هناك بول، الذي كان على درايةٍ تامة بأحوال العمال، وأصر باني على إشراك بول في حياتهما، وإمطاره بالأسئلة، وجعله يتحدث بصراحة عن المواضيع التي كان يتردَّد في مناقشتها. لذلك أصبح بول مؤثِّرًا قويًّا في وعي الأب؛ ولذا وعد الأب بأن يحاول مساعدة العمال.

حضر لأول مرة اجتماعًا لاتحاد أرباب العمل. عُقد الاجتماع في الليل، واستمر حتى الساعة الواحدة صباحًا، وفي اليوم التالي الذي وافق يوم السبت، جاء باني إلى البلدة والتقى بوالده في الفندق، وسمع قصة ما حدث. بدا أن معظم أرباب العمل في مجال النفط كانوا بالضبط مثل جيه أرنولد روس؛ حيث تركوا إدارة اتحادهم للآخرين، لم يكن هناك أكثر من أربعين رجلًا في هذا الاجتماع الحاسم، وتألَّفت المجموعة المهيمنة من ممثلي «الخمسة الكبار». كان رئيس الاجتماع، المسئول عن إدارة أمور الاتحاد، محاميًا ممثلًا لإكسلسيور بيت، وكان يمتلك بئرًا صغيرة، على الأرجح لتعزيز مصداقيته ومكانته داخل الاتحاد. وكانت جماعتُه تحذو حَذوَه وتصوِّت لصالح قراراته. وأصبح الأمر، على حد قول الأب، كما لو كانت هناك قوةٌ مهيمنة تتحكم في التصويت على قرارات الاجتماع.

أراد باني معرفة جميع التفاصيل، وأغرقَ والدَه بالأسئلة. دافع الأب عن وجهة نظر العمال، بأقصى قَدْر من الدبلوماسية، وعلى استحياء كان هناك اثنان من الحضور على استعداد لموافقته. بدا للجماعة المسيطرة، وكأنه خائن، ولَمَّحوا بذلك. أوضح الأب قائلًا: «أنت تعرف طبيعة الوضع هنا، يا بني؛ فالبلدة هنا لا تدعم فكرة الاتحادات، وهذا رأي أعضاء الاتحاد أيضًا، ومحاولة مناقشتهم بشأن ذلك الأمر غير مجدية بالمرة؛ فهذا أشبه بمناطحة جدارٍ حجري. كانت لديهم حُججٌ قوية لاتخاذهم هذا الموقف؛ فقد واجهوا مشاكلَ مريرةً مع العمالة التابعة للاتحادات. فعلى حد قولهم ...»، وذكر الأب بالتفصيل الحُجَج التي أخبروه بها؛ فالاتحادات كانت تعني لهم الابتزاز، و«تعطيل الأعمال»، والفوضى، والإضراب، والاشتراكية.

«ماذا سيفعلون يا أبي؟»

«كل ما في الأمر أنهم لن يسمحوا للعمال بتكوين اتحاد. قلتُ لهم: «يبدو أن اتحاد أرباب العمل قد تحوَّل إلى منظمة لفض الإضرابات». وبنبرةٍ حادة رد عليَّ فريد نومان — رئيس الاتحاد — قائلًا: «هذا صحيح!» سيشكِّلون منظمةً مخصصة لفض الإضرابات، وقتما يحدث إضراب في حقول النفط الخاصة بهم؛ هذا ما قاله ريموند، نائب رئيس شركة فيكتور. ثم أضاف بن سكوت ...»

«بن سكوت؟»

«نعم، كان هناك؛ يبدو أنه كان يتجسَّس على العمال من أجل الاتحاد، أو لاستخدام لفظ أكثر تهذيبًا، كان يُجري بعض «التحقيقات». فقد كان يعرف بالضبط ما قلتُه للعمال في اليوم السابق، وتساءل عما إذا كنتُ قد أدركتُ التأثير السلبي لموقفي الذي وصل إلى دعم المضربين معنويًّا. أخبرتُ بن أنني عادةً ما أعبِّر بحرية عما أفكر فيه، تمامًا مثلما أفعل في هذا الاجتماع، ومثلما سأفعل إذا طلبَت الصحف معرفة رأيي. ابتسم نومان ساخرًا، وقال: «حقًّا لا أظنُّ أن الصحف ستطلب ذلك يا سيد روس».»

وفعلًا لم تطلب الصحف معرفة أي شيء، سواء وقتئذٍ أو لاحقًا! كان من المفترض أن يكون الاجتماع سريًّا، مما يعني أنه لم يُسمح باقتباس كلام الأعضاء، لكنَّ الرئيس أو شخصًا ما أدلى للصحافة بتقريرٍ رسمي، يروي فيه كيف صوَّت الاجتماع للوقوف بحزم ضد تهديدات الاتحاد. وأعلن البيان الذي نُشِر في الصحيفتَين الصباحيتَين أن الوقت قد حان لأن يدعم جميع محبي أمريكا مصلحة البلاد، في مواجهة الأعداء من الداخل والخارج.

سأل باني: «ما الذي تنوي فعله؟»

«ما الذي يمكنني أن أفعل يا بني؟» كان وجه الأب شاحبًا ومرهقًا بشدة؛ كان باني يعرف أنه لم يكن معتادًا على السهر لوقتٍ متأخر، وعلى الأرجح أنه رقد مستيقظًا حتى الصباح، قلقًا بشأن هذا الوضع.

ومع ذلك، لم يستطع باني منع نفسه من زيادة صعوبة الأمر عليه. «هل سنسمح لهؤلاء الرجال بإدارة أعمالنا يا أبي؟»

«يبدو أننا مضطَرُّون لذلك، يا بني. فأنا لست في وضعٍ مالي يسمح لي بالمعارضة.»

«ولكن ماذا عن كل النفط الذي تمتلكه؟»

«لديَّ قدْرٌ كبير من النفط، لكن معظمه تحت الأرض، وأحتاج لإخراجه إلى بضعة ملايين من الدولارات في البنك.»

ومضى يشرح الممارسات الحديثة في إدارة الأعمال. لا يُوجد ما يكفي من المال، مهما كان ما لديك، فهناك دائمًا حاجةٌ إلى مزيد من المال لإنجاز الأعمال المستقبلية، إذا جاز التعبير. فقد كان يُودع ماله في البنك، وكان ذلك يعطيه الحق في اقتراض المزيد من المال من البنك مقابل «ورقة» تُلزِمه بالسداد. حاليًّا، كان الأب يحفِر الكثير من الآبار الجديدة، وكان يشتري معدَّاتٍ ومواد، ويدفع للعمال أجورهم مقدمًا، معتمدًا في كل ذلك على إيمانه الراسخ في النفط الذي سيحصُل عليه الشهر المقبل والشهر الذي يليه، كان يعلم أنه سيحصُل عليه، ووثقَت به البنوك، استنادًا إلى سُمعته، والقيمة المعروفة لأراضيه. ولكن إذا قرَّر الأب تحدِّي اتحاد أرباب العمل، فلن يتعامل معه أي بنك في ولاية كاليفورنيا، وسيتعيَّن عليه أن يدفع نقدًا مقابل كل شيء، وسيتعيَّن عليه إيقاف جميع أعمال التطوير التي يُجريها، وعندئذٍ، قد لا يكون قادرًا على الوفاء بالتزاماته المادية عندما يحين موعد استحقاقها.

صُدم باني مما سمعه؛ لأنه كان يظن أن والده من أغنى الرجال في الولاية وأكثرهم استقلالية. «يا إلهي، هل هذا يعني أننا لا نملك عملنا، يا أبي! لا نملك حتى أرواحنا!»

جعل هذا الكلام الأب يَشرَع يتحدَّث عن أحد موضوعاته المعتادة. فإدارة الأعمال ليست أمرًا سهلًا مثل إعداد حفلة شاي. وكان من الصعب الحصول على أراضٍ، وكما قال لابنه عدة مرات، هناك دائمًا أشخاصٌ يحاولون الاستيلاء على أراضيك. ولتأمين الثروة، لا بد من الانضباط، ويجب على الرجال الأثرياء التكاتُف معًا. قد يبدو الأمر قاسيًا إذا لم تفهمه، لكن هذه هي الحياة. انظر إلى تلك الحرب الدائرة في أوروبا؛ إنها شيءٌ فظيع، يجعلك تشعر بالغثيان من مجرد التفكير فيه، لكنها واقع لا مفر منه، وإذا كنتَ طرفًا فيها، وأنتَ بالفعل طرف فيها، فعليك المشاركة فيها والقتال. ينطبق الأمر ذاته على عالم الأعمال؛ فلن تحقِّق الأمان إلا إذا انضمَمتَ إلى المجموعة التي تمتلك القوة. وإذا ابتعدتَ عن القطيع، فسوف تمزِّقك الذئاب إرْبًا في لمح البصر.

لكن باني لم يكن مكتفيًا بهذه المبادئ العامة، وأراد معرفة تفاصيل هذا الوضع. «من فضلك أخبرني يا أبي، من هؤلاء الرجال الذين يتعين علينا العمل معهم؟»

أجاب الأب بأنهم مجموعة من الصعب تحديدها، يمكنك أن تطلق عليهم اسم «الجماعة المناهضة لفكرة الاتحادات»؛ كانوا رجال الأعمال الكبار الذين يديرون أمور إنجِل سيتي، والمناطق التي كانت تعتمد على المدينة، أو تدعم المدينة، حسب الطريقة التي ينظر بها المرء للأمور. كان لديهم العديد من الاتحادات، ليس فقط اتحاد أرباب

العمل في قطاع النفط، ولكن رابطة التجار وأصحاب المصانع، وغرفة التجارة، ونادي المصرفيين. وكانت بينهم علاقاتٌ متشابكة ومتداخلة، وكانت مجموعةٌ صغيرة منهم تتولى زمام الأمور؛ حيث كان بإمكان فريد نومان الاتصال هاتفيًّا بعشرات الرجال وجعلك منبوذًا من مجتمع الأعمال، حينئذٍ لن يقرضك أي بنك دولارًا واحدًا، ولن يقبل أيٌّ من التجار البارزين منحك أي بضائع دون الدفع نقدًا، وقد يرفض البعض التعامل معك حتى مقابل الدفع نقدًا.

حتى آخر لحظة في عمره، لم يستوعب السيد روس قطُّ طبيعة ابنه الغريبة. وكان دائمًا يتفاجأ من الحدة التي كان يتعامل بها باني مع الأمور التي كان الأب يراها جزءًا من طبائع الأمور. كان الأب يقسم ذهنه إلى قسمَين؛ واحد للأمور التي كانت في نصابها الصحيح، والآخر للأمور القائمة، والتي عليك أن تسمح لها بأن تكون قائمة، وأن تدافع عنها، بطريقةٍ غريبة، غير حماسية، ومع ذلك عنيدة. ولكن عقل الصبي كان يمثل له ظاهرةً جديدة؛ فقد كان يتكون من قسمٍ واحد، حيث يجب أن تكون الأمور في نصابها الصحيح، وإذا لم تكن كذلك، يجب عليك تصحيحها، وإلا فما فائدة أن يكون لديك أيُّ حقوق؛ فأنت هكذا تخادع نفسك في هذا الشأن.

توسَّل الصبي قائلًا: «اسمع يا أبي، ألا تُوجد طريقةٌ ما يمكننا من خلالها التغلب على قوة الاتحاد الغاشمة؟ ألا تستطيع وقف مشاريعك الجديدة، وتحويل كل التعاملات إلى تعاملاتٍ نقدية، والتقدم ببطء؟ كما تعلم، قد يكون ذلك أفضل لك، بطريقةٍ ما؛ فأنت تبذل الكثير من الجهد، وبحاجةٍ ماسة إلى الراحة.»

لم يستطع الأب منع نفسه من الابتسام، على الرغم من الألم الذي علا وجه باني. وأجاب: «يا بني، إذا شرعتُ في معارضة الاتحاد، فلن أحظى بساعةٍ أخرى من الراحة، حتى تدفنَني هناك على التل بجانب جو جوندا.»

«لكنك تملك النفط، وإذا توصلتَ إلى تسوية الأمور مع الرجال، فسوف يستمر تدفق النفط. وستصبح الوحيد الذي يملك نفطًا في هذه المنطقة بأكملها!»

«هذا صحيح يا بني، لكن النفط ليس مالًا؛ يجب بيعه.»

«هل تقصد أنهم لن يشتروه منك؟»

«لا أستطيع الجزم بذلك، يا بني؛ فأنا لم أتعرض لموقفٍ كهذا من قبل، ولا أعرف ما الذي سيفعلونه. كل ما يمكنني قوله هو أنهم لن يسمحوا لي أن أكون سببًا في فشل خطتهم! ومن المسلَّم به، مثلما تشرق الشمس من الشرق، أنهم سيجدون طريقةً ما للنيل مني!»

٤

عاد الأب إلى حقل النفط وجمع ممثلي رجاله. بالطبع لم يخبرهم بالقصة كاملة، لكنه قال إنه بذل قصارى جهده لإقناع أصحاب العمل بآرائه، ولكنه فشل. وقال إنه ملتزم باتفاقياتٍ لا يمكنه خرقها، لكن سيسُره بشدة أن يلبي شروط العمال إذا وافق الاتحاد على أن يفعل ذلك. وإذا حدث إضراب، فسيتوقف العمل في أراضيه في الوقت الحاضر. ومع أن ذلك من شأنه أن يتسبَّب له في خسائرَ فادحة، وإغلاق أفضل آباره، لكنه سيحاول تحمُّل الموقف، وبإمكان رجاله اعتبار هذا اليوم إجازة، والعودة إلى العمل عند انتهاء الإضراب. في غضون ذلك، يمكنهم البقاء في الاستراحة، بشرط أن يُحافظوا عليها، ولا يتسببوا في حدوث أي تلفيات. كان هذا، بالطبع، تنازلًا غير عادي، وأعرب عن أمله في أن يقدِّره الرجال. أجابت اللجنة أن الرجال سيفعلون ذلك بلا شك، وكانوا ممتنين للغاية لموقف السيد روس. شعر أعضاء اللجنة بالإحراج وعبَّروا عن احترامهم الشديد للسيد روس؛ فكما ترى، من الصعب على العمال المتواضعين مواجهة صاحب عملهم، ذلك الرجل «المرموق» المتسلح بقوة المال السحرية.

دُعي إلى الإضراب من ظهر يوم الأربعاء، وخرج الرجال جميعًا في مسيرةٍ غنائية. لم ينضم أكثر من عشرة بالمائة من العمال إلى الاتحاد، لكنهم توقفوا جميعًا عن العمل، وعلى أي حال، لم تكن القلة التي ربما رغبَت في البقاء كافيةً لتشغيل الآبار. ولذلك أوقفوا تدفُّق النفط وتركوا كل شيء في مكانه، وتوجَّهوا نحو بارادايس؛ حيث عقدوا اجتماعًا جماهيريًّا. كان هناك ما يقرب من ثلاثة آلاف عامل في هذا الحقل، وقد جاءوا جميعًا، بالإضافة إلى معظم سكان البلدة، وعدد من أصحاب المزارع، وبدا أن تعاطف المجتمع المحلي كان بالكامل مع العمال.

ألقى توم أكستون خطابًا عرَض فيه مظالم الرجال، وأخبرهم، من واقع خبراته السابقة، كيف يجب القيام بالإضراب. كان أهم شيء هو الحفاظ على تعاطُف الآخرين معهم، من خلال الالتزام بالقانون وتجنُّب كل أعمال الفوضى؛ لم يكن من السهل تحقيقُ ذلك لأن أعضاء اتحاد أرباب العمل كانوا على دراية بهذا الأمر، وكذلك قادة الإضراب، وكانوا سيفعلون كل ما في وسعهم لاستفزاز الرجال لارتكاب أعمال عنف، وكان هذا هو الغرض الذي جاء من أجله «الحراس»، وكانت الصعوبة التي سيواجهها المضربون هي الابتعاد عن طريقهم. وفقًا لأكستون، كان هذا هو الحال بشكل عام في الإضرابات؛ وأضاف أن الحراس كانوا رجالًا من نوعيةٍ وضيعة، أتت بهم وكالات التحري الكبرى

من أكثر المناطق إجرامًا في المدينة، وكانوا يحملون أسلحةً في جيوبهم الخلفية. لكن توم أكستون لم يكن متأكدًا مما إذا كان الرجال قد أحضروا لأنفسهم زجاجة الويسكي التي في الجيب الآخر أم أن أصحاب العمل هم من أعطَوهم إياها. على أي حال، أُحضر عددٌ كبير منهم إلى هنا على متن شاحنات، وفي الطريق توقفوا عند مكتب الشريف في سان إليدو، الذي ظل مفتوحًا ليلَ نهارَ لهذا الغرض، وأدَّوا جميعًا القسم بوصفهم «نوابًا للشريف»، ومُنحوا دروعًا فضية لارتدائها فوق طية صدر معاطفهم، وبعد ذلك أصبح كل ما يفعلونه قانونيًّا. كان يستمع إلى خطاب أكستون عددٌ قليل من هؤلاء النواب، وغني عن الذكر أنهم لم يُعجَبوا به.

أيضًا ألقى رئيس الاتحاد، الذي جاء إلى حقل النفط لقيادة الإضراب، كلمة، وكذلك أمين الاتحاد، ومنظم اتحاد النجارين، لم يكن هناك حدٌّ لعدد الخطب؛ لأن الرجال كانوا مُفعَمين بالحماس وكانت عقولهم منفتحة على الأفكار، كان الإضراب درسًا في معنى التضامن. انضم للاتحاد مئاتٌ من العمال، ودفعوا الاشتراكات من مدخراتهم البسيطة. شُكِّلَت اللجان، وبدأَت العمل في حظيرةٍ قديمة استُؤجرَت لتصبح مقر الاتحاد؛ حيث كانت المكان الوحيد الشاغر بأي مساحة، الذي تمكنوا من العثور عليه وسط هذه المنطقة المليئة بحقول النفط. كان المكان يعجُّ بالرجال، الرائحين والغادين، وكانت هناك جلبةٌ كبيرة، وكان المسئولون والمساعدون المتطوعون يعملون وكأن أشياء مثل الراحة والنوم غيرُ مهمة للكائن البشري. وكانت هناك مساكنُ مؤقتة متاحة؛ حيث لم يتكرم الكثير من أصحاب آبار النفط بتوفير مأوًى للمضربين! وكان الاتحاد قد طلب الكثير من الخيام، واحتاج إلى المزيد، عندما انتهت عقود إيجار الأكواخ التي كانت مستأجرةً في أرض الشركة. لحسن الحظ، لم يكن لدى الكثير من الرجال عائلاتٌ في هذا الحقل؛ فعامل النفط يشبه الطائر المهاجر؛ حيث ينتقل إلى حقلٍ جديد، وعليه أن يعمل لفترةٍ طويلة قبل أن يحصُل على ما يكفي من المال لإحضار زوجته وأطفاله من الحقل السابق.

وصل باني صباح يوم السبت، وبحلول ذلك الوقت كانت موجة الحماس الأولى قد انتهت. كان يومًا ممطرًا، ولم يكن للرجال مكانٌ ليجتمعوا فيه؛ ولذلك احتشدَت مجموعاتٌ منهم في المداخل، أو تحت المظلات، حيثما كان هناك مأوًى مجاني، بدوا محزونين إلى حدٍّ ما، كما لو أنهم وجدوا أن الإضراب أقلُّ روعةً مما كانوا يتوقعون. كان الرجال يتجوَّلون أمام الأراضي التي تحتوي على نفط، لا سيما تلك الخاصة بالشركات الكبرى، يرتدون قبعاتٍ ومعاطفَ مطاطية، وتعلو وجوههم نظراتُ ريبة، وكان بعضهم يحملون بنادق

على أكتافهم، مثل الحراس العسكريين. وصل باني إلى أرض والده، وهناك رأى المنظر ذاته، وشعر بحنقٍ شديد؛ حيث تجسَّدَت أمامه تلك الكراهية التي كانت تؤلمه بشدة في العالم الصناعي، والتي كان يحلُم بشغف أن يستبعدها من حقل «روس الابن». لكن الحقيقة كانت أن وجهات نظر الابن عن العمل كانت تتلاشى مؤقتًا، بينما سيطرَت آراء الأب على مجريات الأمور وأثَّرَت فيها.

في المكتب الموجود بحقل النفط، ضغط باني على والده ليتحدث عن مسألة الحراس؛ هل كانوا حقًّا بحاجة إلى الحراس لحمايتهم من رجالهم؟

احتج الأب قائلًا: «لا بد أنك تمزح، يا بني! هل تريد أن تترك أرضًا تصل قيمتها إلى ثلاثة ملايين دولار دون حماية؟»

«متى وظَّفنا هؤلاء الحراس يا أبي؟»

«نحن لم نوظفهم يا بني؛ الاتحاد هو من يتولى هذا الأمر.»

«لكن ألا يمكننا توظيف حراسٍ تابعين لنا؟»

«لا أعرف أي حراسٍ أو حتى من أين تحضرهم. كنتُ سأفعل الشيء ذاته وأستعين بوكالةٍ ما.»

«ولِمَ لم نستخدم رجالنا الذين نعرفهم؟»

«هل تقصد استخدام المضربين كحراس؟ يا إلهي يا بني، يجب أن تعرف أننا لن نستطيع فعل ذلك!»

«ولِمَ لا؟»

«حسنًا، لسببٍ واحد، شركات التأمين؛ تخيل مدى السرعة التي سيُلغون بها تأميني ضد الحرائق! وبعد ذلك، إذا حدث حريق، فسأتحمل أنا كامل التكاليف. ألا تعي كل هذا؟»

بدأ باني يعي الصورة كاملة؛ حيث بدا كما لو أن العالم كله نظامٌ واحدٌ متقن، يناهض العدالة واللطف، ويعزِّز القسوة والألم. وكان هو ووالده جزءًا من هذا النظام، ويجب أن يساعدا في المحافظة عليه رغم أنفهما!

«هل ندفع أجور هؤلاء الحراس يا أبي؟»

«بالطبع، علينا دفع جزءٍ منها.»

«إذن خلاصة القول: علينا أن ندفع المال لفريد نومان لفض الإضراب؛ على الرغم من أننا قد لا نريد فض الإضراب!» علق الأب على هذا الكلام معبرًا عن استيائه الشديد الناجم

عن الإغلاق المفاجئ لكل تلك الآبار المنتجة. والتفَت إلى بعض الأوراق على مكتبه، وجلس باني في صمتٍ لفترة من الوقت، يفكِّر فيما يدور بداخل والده. كانت أفكارًا أساسية، لا تتطلب أي فطنةٍ لفهمها. فقد كانت هناك إحدى عشرة بئرًا منتجةً في الحقل، وصل إجمالي إنتاجها حتى صباح الخميس الماضي إلى سبعة وثلاثين ألف برميل نفط في اليوم. وفي ظل الطفرة الحالية في الأسعار، كان هذا يعني دخلًا إجماليًّا يقارب المليونَي دولار شهريًّا. كان عقل الأب مشغولًا بكل الأشياء التي كان سيفعلها بتلك الأموال، والآن كان يفكِّر في المشاكل المتعلقة بكيفية تدبُّر أموره من دونها. كان وجهه لا يزال شاحبًا ومهمومًا، وزاد من قلقه ما يشعُر به باني. فقد تمنَّى باني أن يفوز الرجال، ولكن هل أراد أن يحدُث ذلك على حساب تحمُّل والده أعباءً إضافية؟

٥

علم باني أن بول قد انضم للمضربين. وكان السيد روس قد عرَض عليه البقاء، لتولي بعض مهام البناء؛ حيث لم يشترك النجارون في الإضراب. لكن بول فكَّر في الأمر وقرَّر أن مِن واجبه الانضمام لعمال النفط؛ حيث لم يكن بينهم الكثير من الرجال المتعلمين، كان ذلك أحد الأعباء التي فرضَها عليهم العمل لمدة اثنتَي عشرةَ ساعةً في اليوم؛ لذلك كان على السيد روس قبول استقالة بول، التي قد تكون دائمة أو مؤقتة، حسبما يراه مناسبًا. قال الأب إنه لن يُكِنَّ نحو بول أيَّ ضغائن، وبإمكانه العودة للعمل عندما ينتهي الإضراب.

توجَّه باني إلى منزل آل راسكوم لرؤية روث والاطمئنان على المنزل. قامت «المشرفة على أعمال البستنة» بالانضمام إلى رئيسِ النجَّارين في الإضراب، لكنهما كانا لا يزالان يمكُثان في المنزل، وكانت روث تتولى شئون الأب، كلما جاء إلى الكابينة. قالت روث إن بول لم يعُد بإمكانه القدومُ إلى هنا بعد الآن؛ فقد كان ينام على بعضٍ من أكياس القش في مقَر الاتحاد؛ حيث كان يعمل حوالي عشرينَ ساعةً في اليوم. لذا، كانت ميلي تقيم مع أختها، وكانتا تقضيان كل أوقاتِ فراغِهما في الخَبز، وكان السيد واتكينز العجوز يأتي، بالحصان العجوز نفسه الذي كان يجُر العربة القديمة ذاتها، وكان ينقل تلك المخبوزات إلى باراديس؛ حيث يبيعها للمضربين. وكانوا قد أغلقوا الكشك المقام على أرضهم؛ لأنه لم يكن هناك أحدٌ سوى الحراس، وهم لن يُطعِموا الحراس، حتى ولو كانوا يتضوَّرون جوعًا. هذا ما قالَته ميلي، التي كانت ثرثارةً بعض الشيء، ونظرَت روث إلى باني وهي تشعُر بالخجل، ظنًّا منها أنه لم يكن من اللائق قولُ هذا الكلامِ أمامه. لكن باني قال

إنه هو نفسه لم يكن مؤيدًا لفكرة وجود الحراس، وكان يشعُر بالاستياء عند رؤيتهم في المكان الذي كان من المفترض أن يكون ملكَه. قالت ميلي إن الرجل الذي كان يتولى حراسةَ أرضهم لم يكن شخصًا سيئًا؛ فقد كان خبيرًا بالغابات وإطفاء الحرائق، لكن بعض الحراس الآخرين كانوا فظيعين، وكان الوالد يخافُ أن تخرج الفتيات ليلًا؛ فقد كانوا يُكثِرون من استخدام الألفاظ النابية، ويشربون الخمور طَوالَ الوقت.

انبعثَت من المطبخ رائحةٌ شهية لكعك الزنجبيل الساخن، ولم يكن باني قد تناول غداءه بعد؛ لذا أعدَّت الفتاتان المائدةَ الصغيرة، وجلس الثلاثة، وتناوَلوا وجبةً من البيض المخفوق والبطاطس، والخبز والزبدة، وحليب الماعز وكعك الزنجبيل والفراولة؛ فقد كانت روث تُولِي نباتات بول عنايةً فائقة؛ فلم يكن بإمكانها ترك أي كائنٍ حي يعاني، حتى النباتات. كانت روث الآن سيدةً شابةً تبلغ من العمر ثمانيةَ عشرَ عامًا تقريبًا؛ أي في عمر باني نفسه، لكنها كانت تشعُر بأنها أكبر سنًّا بكثير، كما هو حال الفتيات. كانت ترفَع شعرها الجميل فوق رأسها، ولم تعُد ملابسها تكشف عن ساقَيها. كانت دائمًا تبدو جميلةً وهي تعمل في المطبخ؛ لأن خديها كانا يتوردان، وكانت تتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الكفاءة في عملها؛ ولذا كانت ترفضُ محاولاتِ الآخرين مساعدتَها وتطلب منهم الجلوسَ وعدمَ العبث بالأشياء. ومثل جميع أفراد عائلة واتكينز، كانت عيناها زرقاوَين لامعتَين، لكنَّ عينيها كانتا تتميزان بنظرةٍ صريحةٍ وهادئة، تتغلغل في أعماقك، فلا تترك مجالًا للخِداع والفَظاظة.

كان باني في ذلك الوقت قد بدأ للتو في خوض تجربةٍ عميقةٍ في الديار؛ أول علاقة حب جدية له، والتي سنعلم عنها بعد قليل. كانت يونيس هويت فتاةً غنيةً وذات شخصيةٍ معقدة؛ ولذلك كانت معرفتُها أمرًا ممتعًا تارةً ومؤلمًا تارةً أخرى. أما روث فكانت فتاةً فقيرةً وبسيطة، وكان وجودُها يبعث على الهدوء والسكينة والراحة، أجواء تشبه أجواء صباح يوم السبت. كانت حياة روث تتمحور حول اقتناعها بأن أخاها بول كان رجلًا عظيمًا وصالحًا. حاليًّا كان بول قد ترك وظيفته التي كان يتقاضى عنها عشرة دولارات يوميًّا لمساعدة المضربين، وكانت روث تخبز للمضربين، وتبيع لهم الطعام إذا توفَّر لديهم المال، وعندما كان ينفَد منهم المال، كانت تُعطيهم الطعام مجانًا.

كانت ميلي أيضًا تسعَد بإعداد الطعام للرجال، لكن هذا لم يكن الأمرَ الوحيدَ الذي كانت تهتم به. فقد تسبَّب ظهور النفط في أرض آل واتكينز في حدوث تغييراتٍ كبيرةٍ في حياة ميلي؛ فلم تعُد راعيةَ أغنامٍ كما كانت سابقًا، بل ازدهرَت شخصيتُها وأصبحَت مثقفةً

ولبقة، وبدأَت تهتَم بأناقتها حيث كانت تزين شعرَها بشريطةٍ ملونةٍ لامعة، وتضع حولَ رقبتِها قلادةً من الخرز الأصفر. شعَرَت ميلي بإثارةٍ بالغة عندما ذهبَت إلى البلدة في الليلة السابقة! فقد أصبح إيلاي الآن واعظًا متمكنًا، وكانت له كنيسةٌ خاصةٌ به، يقيم فيها الصلوات كل مساءٍ لتمجيد الرب، وقد حضَر إليها عددٌ كبيرٌ من المضربين، وعمَّت البركة أرجاء المكان، ووسط تجليات الروح القدس للحركة الخمسينية، سمعَت ميلي أخبارًا عن الإضراب؛ حيث كان هناك عراكٌ في شارع ماين؛ لأن أحد الحراس المخمورين تصرَّف بوقاحةٍ مع مامي بارسونز، وكان بول أحد أعضاء اللجنة التي ستقابل الشريف وتطالبه بسحب الخمور أو الأسلحة من نوابه، وغدًا ستذهب ميلي إلى الكنيسة مرةً أخرى؛ حيث ستُقام ثلاثُ صلواتٍ طوال اليوم، وقيل إن أصحاب الآبار سيُحضِرون يوم الإثنين عمالًا بدلًا من العمال المشاركين في الإضراب، ليبدأ النفط في التدفُّق من جديد من آبار إكسلسيور بيت، وكان الرجال يستعدُّون لوقف ذلك الأمر إن استطاعوا، وبالطبع ستكون العواقب وخيمة!

توجَّه باني إلى البلدة وتجوَّل في طريقه لرؤية معالمها، لكن هذا لم يبعث السعادة في نفسه. لم يستطع مقابلة بول؛ لأن بول كان يعمل بجدٍّ في مقر الإضراب، ولم يكن من الصواب أن يذهبَ باني إلى هناك؛ فقد يحسب شخصٌ ما أنه يتجسَّس عليهم. لم يعُد باني أمير النفط الشاب، الذي كان يمدحُه الجميع ويعجبون به، لقد صار عدوًّا، وكان يرى العداوةَ في أعينِ الرجال، حتى لو لم تكن موجودة. كان مثل جنديٍّ في جيش، يشعُر بأن قضيتَه غيرُ عادلة، وليس لديه استعدادٌ للقتال؛ ومع ذلك من الصعب على المرء أن يتمنَّى الهزيمة لنفسه!

في صباح يوم الأحد، كانت الشمسُ مشرقة، ولم يرَ باني من قبلُ مثل هذه الحشود في بارادايس. كان إيلاي يقيم قداسًا في البستان بجانب «مَقْدِسه» الجديد، وكان يُخبِر المضربين أنه لا داعي للقلق بشأن أجورهم إذا كانوا يؤمنون بالروح القدس، وذكَّرهم بمعجزة تكثير الخبز والسمك؛ فأبوهم السماوي قادرٌ على إطعامهم إذا وثقوا فيه. صدَّق البعضُ حديثَه وصرخوا «آمين»، وسَخِر البعضُ الآخرُ منه، وتوجَّهوا إلى الملعب بمبنى المدرسة؛ حيث كان الاتحاد يعقد اجتماعًا لأولئك الذين كانوا يؤمنون بأن الحصول على أجرٍ منتظمٍ أمرٌ ضروريٌّ لتأمين سبل العيش. ذهب باني إلى هناك، واستمع إلى خطابِ بول الافتتاحي. كان حدَثًا عظيمًا ليس فقط لباني، ولكن للبلدة بأكملها، في واقع الأمر، وممن أضاف إلى روعة الموقف ابنا آل واتكينز، عبقريًّا الحي المتنافسان، اللذان كانا يُلقِيان الخُطب في الوقتِ ذاتِه، ويدعوان إلى مبادئَ متعارضةٍ إلى حدٍّ ما!

لا بد من قول إن إيلاي لم يعارض الإضراب عن عمد، ومن المحتمل أنه لم يفهم بوضوحٍ كيف من المرجَّح أن تساعد تعاليمُه اتحاد أرباب العمل. فقد كانت شقيقتاه تعدان الخبز من أجل المضربين، وتكدَّان في العجن بأيديهما، بينما كان إيلاي يعلن طَوالَ الوقت أنه يستطيع من خلال قوة الصلوات إجراءَ معجزةِ الحصولِ على سلالٍ كاملةٍ من الخبز. سَخِر منه المتشكِّكون وسألوه عن سبب عدم تنفيذه لتلك المعجزة، فأجاب إيلاي أنه بسببِ ضعفِ إيمانهم. لكنهم قالوا إن الأمر بيده؛ فإذا أنتج رغيفًا واحدًا من الخبز بطريقة الكتاب المقدس، فسيزيد إيمانهم أضعافًا مضاعفة، وستنضَم الحركة العمالية المنظمة بأكملها إلى كنيسة الوحي الثالث!

كان بول يمتلك صوتًا رخيمًا وناضجًا، وكان يتحدث ببطءٍ وبطريقةٍ مثيرة للإعجاب. لقد كان خطيبًا جيدًا؛ لأنه لم يكن يستخدم أية حيل، وكان يعني كل كلمة يقولها. كان هناك صراعٌ وشيك حول مسألة عودة العمل في الآبار، وكان بول يستشير المحامين، ويخبر المضربين بالضبط بما يحقُّ لهم فعلُه، وما يجبُ الامتناعُ عنه. وبهذا سيحتفظون بحقوقهم القانونية، ولن يُضعِفوا قضيتهم بانتهاك القانون، ومَنحِ أعدائهم فرصةَ إيقاعهم في الخطأ. كان مستقبلهم كله على المحك، ومستقبل زوجاتهم وأولادهم إذا تمكَّنوا من الفوز بمسألة النوبات الثلاث في اليوم، فسيصبح لديهم وقتٌ للدراسة والتفكير، ورفع مستواهم الاجتماعي، وإبقاء أولادهم لفترةٍ أطول في المدرسة. كانت تلك هي القضية الحقيقية في هذا الإضراب؛ فإذا كانت الديمقراطية لا تعني ذلك، فلا معنى لها، وسيصبح الحديث عن الوطنية هُراء. هتَف الحشد الغفير لبول، وبمشقة تمكَّن باني من منع نفسه من الهتاف معهم، وابتعَد وهو يشعر بأنه بلا قيمة، وأنه لا يعرف شيئًا عن الحياة. كان لديه الوقتُ الكافي للتفكير في الأمر أثناء رحلة العودة الطويلة إلى بيتش سيتي بمفرده، وصل في منتصف الليل، وطَوالَ الطريق كان يسمع صوتَ بول الذي غطَّى على صوت هدير المحرك، متحديًا كل ما كان باني يحسب أنه يؤمن به!

٦

بعد عودته إلى المدرسة، اضطُر باني لأن يحصل من الصحف على أخبار الإضراب، لكن هذه الأخبار لم توفِّر له الكثير من الراحة. فقد اعتَبرَت الصحف الإضراب جريمةً بحق الوطن في ظل هذه الأزمة، وعاقبت المضربين، ليس فقط بالتنديد بهم في مقالاتٍ افتتاحيةٍ طويلة، ولكن بنشر قصصٍ شنيعةٍ عن سلوك المضربين السيئ. في صباح يوم الثلاثاء،

كتبَت الصحف عن مجيء العديد من الشاحنات المحملة بعمال النفط — لم توضح الصحف أنهم جاءوا ليُفسِدوا الإضراب — إلى أرض شركة إكسلسيور بتروليوم، وأنهم قُوبلوا، عند المداخل، بغوغاء أمطروهم بالسباب والألفاظ النابية، وألقَوا عليهم الحجارة. ونُشر البيان الكامل الذي أصدره اتحاد أرباب العمل، الذي أدان فيه مدى تحكُّم أعمال الشغب في المجتمع المحلي المسالم.

في اليوم التالي، جاء دور شركة فيكتور أويل، ولقلقِ القائمين عليها من تكرار الأمر ذاته أحضروا مئاتِ الرجالِ إلى روزفيل على متن القطار، ومن هناك توجَّهوا إلى بارادايس بالسيارات، برفقة حراسٍ مسلَّحين للدفاع عنهم. حدثَت مشادَّاتٌ أخرى مع الغوغاء، وكذلك معاركُ بين نواب الشريف والمضربين في أماكنَ أخرى مختلفة. وبعد وقتٍ قصير، أصيب العديد من المضربين بجروح وتعرَّض عددٌ من نواب الشريف للضرب المبرح. ووجَّه الاتحاد نداءً إلى الحاكم لإرسال مليشيات لحماية حقوقهم؛ حيث كانت تُهدِّد أمنَهم مجموعةٌ من المجرمين الخارجين عن القانون، الذين كانوا يتحدَّون ولاية كاليفورنيا، ويعرقلون عملية سير الأمور في البلاد التي كانت على مشارفِ حرب.

من كل عشرة أشخاص قرءوا هذه الأخبار في الصحف صدَّقَها تسعة. وفعليًّا كان كل من يعرف باني يصدقونها، وكانوا يعتقدون أنه كان غريب الأطوار إلى حدٍّ ما؛ لأنه كان مترددًا وشكاكًا. كانت العمة إيما، على سبيل المثال، قد عرفَت للتو أن المضربين بطبيعتهم مجرمون، وعملاء للألمان، أو على الأقل متحالفون مع عملاء ألمان، وليس هناك فارقٌ بين الأمرَين! كانت السيدات في الأندية يحصلْنَ على معلوماتٍ مباشرة من داخل المقر الرئيسي؛ وذلك لأن عديداتٍ منهن كن متزوجاتٍ برجالٍ ذوي نفوذ، كانوا على دراية بما يجري، ويبلغونه لزوجاتهم؛ ومن ثَم كانت الزوجات يخبرْنَ العمة إيما، التي كانت تشعر بسعادةٍ غامرة لمعرفتها بهذه المعلومات؛ حيث كان الوضع المالي لصهرها يُخوِّلها ذلك.

كانت بيرتي، التي زادت شخصيتها سوءًا، لا تزال تمثل النموذج الأعظم للتكبر! وكانت محاطةً بالمجموعة الأصغر سنًّا، التي كانت على دراية أيضًا بكل شيء، لكن دون الحاجة إلى انتظار أي شخصٍ لإخبارهم. كانت بيرتي تتكرَّم بزيارة إحدى آبار النفط الخاصة بوالدها بين الحين والآخر، وهناك كانت تلاحظ وجود سلالة من كائناتٍ دنيا تضطلع بمهامها المحدَّدة، كائنات ملطخة بالسواد، تلمس قبعاتها تحيةً لها، أو تنسى فعل ذلك، ولكن في كلتا الحالتَين كانت تُحدِّق فيها في رهبةٍ بلهاء، وفي عيونها الذليلة ظهرت علاماتُ ذكاء شبه بشرية، جعلَت بيرتي تشعر بعدم الراحة. لقد زارت بارادايس

مرة، وقضت ليلة في الكابينة، وتعاملَت بتعالٍ مع بول وروث اللذَين توليا خدمتها، وشعَر كلاهما بذلك، ولم يستطيعا قول شيء، وتفضَّلَت بيرتي بإقرار أنهما كانا عاملَين محترمَين جدًّا، لكنها لم تستطع فهم سبب إصرار شقيقها على إقامة علاقةٍ وثيقة معهما. هاج باني وصاح غاضبًا: «يا إلهي، ما الذي يميِّزنا عنهما؟» وبالطبع، كان من المثير للاشمئزاز تذكير أخته بأن والدهما كان يومًا ما يقود البغال في معسكر بناء من فترةٍ ليست بعيدة، وأنه لا يُوجد فرق بين قيادة البغال وبناء المنازل. قالت بيرتي بتعالٍ إن مكانة والدها ارتقت بسبب تفوُّقه الفطري؛ فقد كانت تعلم أنه من «سُلالةٍ طيبة»، رغم أنها لم تستطع إثبات ذلك. أجاب باني أنه ربما كان بول وروث من «سلالةٍ طيبة» أيضًا، وكانا بالتأكيد في طريقهما للارتقاء بنفسَيهما.

كان موضوعًا لن يتوقف الاثنان عن الخلاف بشأنه أبدًا. وأصرَّت بيرتي على أن بول كان متكبرًا، واستغل طبيعة باني الطيبة، وكان يتعامل معه بتعالٍ لا يُطاق. فقد اعتاد بول أن يدعوه «بُني»، كما كان الأب يفعل، وكان هذا تصرفًا وقحًا! وكانت بيرتي تشير إلى صديق شقيقها باسم «صديقك القديم بول»، وقالت بيرتي: «لقد رحل صديقك القديم بول وخان أبي، وهذا بالضبط ما كنتُ أخبرك به طوال الوقت، لا يمكنك الوثوق بهؤلاء الناس.» وعندما وجدَت بيرتي أن باني كان يتعاطف مع بول، وينجذب نحو «الغوغاء»، وصفَته بأنه صعلوكٌ صغير بكل ما تحمله الكلمة من معنًى، وعاق، وما شابه ذلك. فقد كان والدهما يخاطر بحياته، ويبقى هناك وسط هؤلاء الغوغاء الخارجين عن القانون، وهو أمرٌ لم يفعله أيٌّ من أصحاب الآبار الآخرين؛ فقد ظلوا في مكاتبهم في مدينة إنجِل سيتي، وتركوا وكلاءهم يفُضُّون الإضراب نيابةً عنهم. لكن الأب تأثر بالطبع بمفاهيم باني العاطفية السخيفة، وإذا حدث أي شيء له هناك، فإن باني سيتحمل المسئولية طوال حياته.

عاد الأب إلى الديار بعد بضعة أيام، وشعَرَت بيرتي بمزيد من السخط عندما أخبر أفراد الأسرة أنه سيتعيَّن عليهم تقليل نفقاتهم حتى ينتهي الإضراب؛ فقد كان يواجه مشاكل في التمويل. اقترحتَ بيرتي بسخرية أن باني قد يرغب في بيع سيارته لمساعدة والده على الخروج من الأزمة. أخبرهم الأب عن حدوث اضطراب بسيط في أرضه، حيث تشاجر أحد المضربين مع حارس في الليل، لم يكن من الواضح على من يقع اللوم، لكن قائد الحراس هدَّد بسحب جميع الحراس إذا لم يطرد الأب المضربين من استراحة العمال ومن أرضه.

توصلوا أخيرًا إلى حلٍّ وسط يضع فيه الأب سياجًا؛ ليفصل بين أرضه واستراحة العمال ومنازلهم التي كانت تقع في الجزء القريب من الطريق. كان السياج مصنوعًا من الأسلاك الشائكة، ووصل ارتفاعه إلى ثماني أقدام، وعلَّقَت بيرتي ساخرة أنه سيكون مكانًا آخر يمكن أن يزرع فيه باني وصديقتُه روث الزهور. كان تعليقها مؤلمًا؛ لأنه لخص لباني الدور الذي كان يلعبه في هذا النضال، زراعة الزهور على سياج الأسلاك الشائكة الذي يفصل أصحاب رأس المال عن العمال.

وبَّخ الأب بيرتي قائلًا إن الرجال ليسوا مجرمين، بل كان معظمهم رجالًا محترمين ومواطنين أمريكيين صالحين؛ لم يكن للألمان أي علاقةٍ بالموضوع على الإطلاق. كانت المشكلة أنهم تعرَّضوا للتضليل على يد المحرِّضين. لكن هذا لم يغيِّر رأي بيرتي؛ لأن «بول صديق باني القديم» كان من أسوأ هؤلاء المحرِّضين. ولم تكن بيرتي تحبِّذ فكرة نوم والدها هناك في تلك الكابينة المنعزلة، وترك آل واتكينز يُعِدون الطعام له. فقد سمعَت قصة في منتهى الوحشية عن عمال أحد المطاعم الذين كانوا مضربين عن العمل، ووضعوا السم في الحَسَاء، وعندما انفجر الأب وباني من الضحك على هذه القصة، قالت إنها لا تعني بالضبط أن بول أو روث سيفعل مثل هذا، لكنهما بالتأكيد لا يمكنهما الاستمتاع بالطهو لكلٍّ من المضربين والأب في الوقت ذاته، ولا بد أن يشعر الأب بالاستياء لأنهما تركاه في وقت الأزمة. انتهز باني الفرصة ليعلن أن روث كانت فتاةً مخلصة، وهنا قاطعَته شقيقتُه، فبالطبع، كانت على علمٍ بإعجاب باني بالآنسة روث الرائعة، وربما كان الشيء التالي الذي سيسمعانه هو أنه كان يُحبها، أم أنه كان يحب ميلي، أو أيًّا كان اسم الفتاة الأخرى؟

نهض باني وخرج من الغرفة. كان باني يحب فتاةً أخرى، وكان تعصُّب أخته الطبقي أمرًا بغيضًا. ومع ذلك، كان عليه أن يذكِّر نفسه بأن بيرتي، داخل دائرتها الخاصة، كانت كريمة، وأحيانًا رقيقة القلب. فقد كانت مخلصةً لأصدقائها، وتساعدهم إذا واجهوا المشاكل، وتضع الخطط للترفيه عنهم. فكما ترى، كانت بيرتي تعرف هؤلاء الناس، كانوا جميعًا أغنياء؛ ولذا اعتبرتهم أندادًا لها، وكانت على استعدادٍ للدخول في حياتهم. لكنها لم تكن تعرف عمال النفط، وكانت تعتبرهم كائناتٍ أقلَّ مكانة، خُلقوا من أجل إرضائها، ويدينون لها بالخضوع، وهذا ما كانوا يُحاولون التهرُّب منه.

وهنا يظهر السؤال التالي: ما الذي كانت تمثله بيرتي حتى يتعين على عمال النفط أن يدعموها؟ كانت شابةً أنيقةً وذكية، ماهرة في إنفاق قدْرٍ كبير من المال لتستمع بحياةٍ

رغدة، بصحبة شبابٍ آخرين يتمتعون بالقدرات ذاتها، وكانت تقضي الوقت بصحبتهم، ويتمحور حديثها حول محادثاتهم وأنشطتهم وممتلكاتهم. كانت بيرتي تعيش حياةً مفعمة بالحيوية، ونادرًا ما كانت تعود إلى المنزل قبل الساعات الأولى من الصباح، وإذا كانت مستيقظةً قبل الغداء؛ فذلك لأن لديها موعدًا عليها الإسراع للحاق به. فما فائدة امتلاك الكثير من المال إذا لم تستمتع به؟ كان هذا هو المذهب الذي كانت تحاول بيرتي إقناع أخيها الأصغر به، وكانت العمة إيما تُكرِّر الكلام ذاته، والآن جاء دور يونيس هويت، التي كانت قد اختارَت مرافقة باني، وكانت تتمتَّع بالتأثير الأقوى عليه. فكنَّ جميعًا يصحْنَ به ليتمتع بحياة الشباب! ويسألْنَه: لماذا تحمل كل أعباء العالم على عاتقك؟ خاصةً وأنه ليس هناك ما يمكنك فعله؛ لأن العالم كان محدَّدًا ومقدرًا، ولن يسمح لك بالمساس بأقل التباينات المكتسبة والممنوحة!

٧

أغرقَت الغواصات الألمانية العديد من السفن الأمريكية، وكانت أمريكا في طريقها إلى الحرب، وجرى استدعاء الكونجرس، وكانت البلاد بأكملها في حالة تأهُّبٍ للدخول في الحرب. كانت الصحف تنشُر صفحاتٍ من إرسالياتٍ مرسلة من واشنطن ونيويورك، ومن عواصم أوروبا؛ لذلك لم يكن مفاجئًا أن تتلاشى أخبار إضراب النفط ببارادايس. ومن وقتٍ لآخر كان يُنشر خبر في الصفحة الخلفية لا تتعدى مساحته بوصةً واحدة أو اثنتَين يعلن عن القبض على ثلاثةٍ من المضربين، بتهمة ضرب عاملٍ بديل في ليلة مظلمة، وأعلن أصحاب الآبار أن المضربين حاولوا إشعال النيران في المنطقة، وأنه كان هناك عملاءُ ألمان بين مثيري الشغب؛ أشياء صغيرة من هذا القبيل، لتذكيرك بأن ثلاثة آلاف رجل، وزوجات وأطفال الكثير منهم، كانوا يخوضون صراعًا يائسًا مع الجوع.

كان الأب بالطبع يتلقَّى تقاريرَ يوميةً عما كان يحدث، وهكذا كان باني يحصل على الأخبار. وشيئًا فشيئًا، جمع أصحاب الآبار عددًا من الرجال، ودفعوا لهم أجورًا إضافية، وأحضروهم إلى حقل النفط. نادرًا ما كان هؤلاء الرجال يتمتعون بالمهارة، وتسبَّب ذلك في حدوث العديد من الحوادث، ومع ذلك، عاد النفط يتدفق من عددٍ من الآبار، وأُجريَت بعض أعمال الحفر في بئرَين أو ثلاث. لكن في أرض السيد روس، كان كل شيء معطلًا، واستطاع باني ملاحظة انزعاج والده من هذا الموقف. فقد كان يخسر الكثير من المال كل يوم، وفي الوقت ذاته كان يفقد علاقته برفاقه من أصحاب الآبار، الذين ظنُّوا أنه كان إما

مخبولًا وإما خائنًا، لكنهم لم يتمكنوا من أن يحدِّدوا أيهما هو. بالطبع، كان الخمسة الكبار سعداء لرؤية خسارة أحد المستقلين، لكنهم تظاهروا بالسخط، ونشروا الشائعات والأكاذيب عن منافسهم، وبالغوا في حجم المتاعب التي كان يسبِّبها في مجال النفط.

كان باني يرى كل ما يحدث، وتأثَّر بشدةٍ من القيل والقال الذي نقلَته لهم العمة إيما من النوادي، ونقلته بيرتي من حفلاتها المنزلية وحفلات العشاء الراقصة. ثم كان يفكر في الرجال، الذين كانوا يتشبثون بيأس في حُلم الحصول على حياةٍ أفضل، وكان قلبه ينفطر بسبب كل هذه المشاعر المتناقضة. لكن كان هناك شيءٌ واحد فقط يمكن أن يسوِّغ موقف الأب؛ هو أن يفوز الرجال، لا بد أن يفوزوا، لا بد من ذلك! كان الأمر أشبه بما كان يشعر به باني عند مشاهدة مباراة كرة قدم، والهتاف بأعلى صوتٍ للفريق المضيف. فقد كان لديه دافعٌ للنزول إلى الملعب ومساعدة الفريق، لكن للأسف، حظرَت قواعد اللعبة مثل هذا الفعل!

ظهر المزيد من المشاكل مع الحراس في أرض السيد روس، واتجه الأب إلى حقل النفط، ورافقه باني لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. كان فصل الربيع قد حل، وكانت التلال خضراء وأشجار الفاكهة مثمرة وفي غاية الجمال! ومع ذلك كان ملايين من البشر بائسين، ولم يتمكَّنوا من الشعور بالسعادة في مثل هذا العالم. فبالرغم من ظهور معالم فصل الربيع في جميع أنحاء البلاد، كان الجميع يستعدون للدخول في الحرب، وتشكيل جيوشٍ ضخمة، وقتل أناسٍ آخرين يبحثون أيضًا عن السعادة! قال الجميع إن الأمر حتمي؛ ومع ذلك لم يتوقَّف شيءٌ ما بداخل باني عن الحُلم بعالمٍ لا يشوِّه فيه الناس بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا، ولا يدمِّرون فيه سعادة الآخرين فحسب، بل سعادتهم أيضًا.

وصلا إلى بارادايس، وهناك كان الوضع غريبًا؛ حيث كان يتجول في الشوارع رجالٌ عاطلون، بينما يقف الحراس على مداخل جميع الأراضي التي تحتوي على آبار نفط. وكان شخصٌ ما يُلقي خطابًا في قطعةِ أرضٍ شاغرة، وحشدٌ يستمع إليه. كانت الأجواء مناسبة لجميع المهووسين بتعليم الأشياء، كالمبشِّرين المتجولين، وبائعي الأدوية المسجَّلة، والداعين للاشتراكية؛ حيث استمع الناس إليهم جميعًا دون تحيُّز. وجد باني أن غرفة القراءة التي أنشأها أصبحَت ذات فائدةٍ الآن؛ حيث قرأ بعض الرجال جميع المجلات، بما في ذلك الإعلانات!

اجتمع الأب بلجنةٍ من رجاله. وأبلغوه أن الوضع أصبح مستحيلًا؛ فقد كان الحراس يثيرون المشاكل عمدًا، وكانوا ثَمِلين أغلب الوقت، وغير مدركين لأفعالهم وعواقبها. ولذلك

نصب الاتحاد المزيد من الخيام، وكان الرجال المقيمون في الاستراحة على وشك المغادرة. أما أولئك الذين كانوا برفقة عائلاتهم، وكانوا يشغلون المنازل، فسيحاولون البقاء فيها، إذا سمح لهم السيد روس بذلك؛ فلم يكن هناك مكانٌ تذهب إليه العائلات، ولم يجرُءوا على تَرْك النساء والأطفال وحدهم في الحي الذي كان يكتظُّ بالحراس. أجرى الأب مقابلةً مع قائد الحراس، وحصل على معلوماتٍ تفيد بأن الرجال بالفعل كانوا يشربون الخمور ليتحمَّلوا العيش في هذا المكان المعزول. اضطُر الأب إلى الإقرار بصحة هذا الأمر؛ فتلك هي طبيعة الرجال، وعندما تحتاج إلى حماية ممتلكاتك في حالات الطوارئ، يتعيَّن عليك أن تقبل بتعيين أي حراسٍ مهما كانت تصرفاتهم. لم يكن باني مقتنعًا بهذه الحجة، لكن باني كان شخصًا «مثاليًّا»، ونادرًا ما يشعر هؤلاء الأشخاص بالرضا في هذا العالم القاسي.

ذهب باني لزيارة روث وميلي، أفضل مصدرَين للحصول على الأخبار! لم يمنعهما انشغالهما بالخبز عن إطلاعه على آخر الأخبار، وأخبرَتْه ميلي بسيل من القيل والقال. كان ديك نيلسون في المستشفى بعدما فقد جزءًا من فكه جرَّاء طلقٍ ناري، وتذكَّر باني ذلك الشاب اللطيف، الذي كان يعمل في البئر رقم إحدى عشرة؛ كان قد طرح حارسًا أرضًا لأنه وجَّه كلامًا بذيئًا لأخته، فأطلق حارسان آخران النار عليه. وكان بوب مورفي في السجن؛ إذ كان قد قُبِض عليه عندما كانوا يحضرون العمال البدلاء إلى أرض شركة فيكتور. وهكذا ظلت تقول اسمًا تلو الآخر، وكان باني يعرفهم جميعًا. اتسعَت عينا ميلي من الرعب؛ فقد كان ما يحدث يحمل قدرًا كبيرًا من الإثارة لم تشهده من قبلُ في سِنِي عمرها القليلة. فقد تستمتع ميلي بظهور الشيطان، بحوافره وقرنَيه ومِذْراته ورائحة الحريق التي تنبعث منه، في اجتماع بمَقْدِس الوحي الثالث، وعلى نفس المنوال، كانت ميلي تستمتع بوجود هذا الطاقم من الحراس الوحشيين الذين كانوا يشربون الويسكي ويُردِّدون السباب، هؤلاء الهمج الذين لفظهم فجأةً عالم المدينة السفلي إلى قريتها المسالمة التقية، المزدانة بأشجار الربيع.

سأل باني عن بول، وعلم أنه قد وقع الاختيار عليه للانضمام إلى لجنة الإضراب، وكان يحرِّر صحيفةً صغيرة ينشُرها الاتحاد؛ كانت صحيفةً رائعة، وسألَت الفتاتان باني عما إذا كان قد اطَّلع عليها. أعطته الفتاتان نسخةً من الصحيفة التي كانت تتكون من صفحةٍ مزدوجة، منسوخ عليها الكلام على كلا الجانبَين لتقليل التكاليف، وبأعلى الورقة الأولى برج حفرٍ صغير، إلى جانب العنوان، «نصير حقوق العمال». وكانت مليئةً بأخبار

عن الإضراب، وتحذيرات، ومناشدة لحاكم الولاية للتصدي لعنف نواب الشريف ورفض الشريف مَنْعهم من شرب الخمور، كما كانت هناك قصيدة بعنوان «صحوة العمال» للسيدة ويني مارتن، زوجة أحد عمال إعداد المعدَّات». كان بول قد عاد لتوِّه من رحلةٍ إلى بعض حقول النفط الأخرى؛ حيث ذهب لإقناع الرجال بالانضمام إلى الإضراب، وقد حاول القائمون على «مركز النفط» إلقاء القبض عليه، لكنه كان قد تلقَّى تحذيرًا وتمكَّن من الهرب من طريقٍ خلفي.

كانت أمريكا في طريقها لدخول الحرب، وكان الجميع متحمسين بشأن هذا الأمر، وفي المدرسة كانوا ينشدون الأغاني الوطنية وينظِّمون فيالق التدريب. ونتيجةً لذلك قلَّ الاهتمام الذي كان يحظى به إضراب النفط ولم يعُد أحد يلتفت إليه، إلا أنه كان يستحوذ على تفكير باني، وبدا وكأنه حربُه الأهم. فهو لم يستطع تجاهل كل هذه الغطرسة السلطوية، وهذا التحدي للقانون والأخلاق، وهذه الأكاذيب البائسة بشأن العمال! حينئذٍ استوعب باني الحقيقة، من خلال تعاملاته المباشرة مع الرجال والنساء الذين كان يعرفهم، ثم تذكَّر الحكايات التي قرأها في الصحف، وشعَر بالكراهية تجاه نفسه لأنه كان يعيش على المال الذي تحصَّل عليه بهذه الطريقة! فقد كان والده يدفع «اشتراكات» الاتحاد؛ ومن ثَمَّ كان يدفع رواتب هؤلاء الحراس الأوغاد، ويدفع ثمن بنادقهم وذخائرهم، وزجاجات الويسكي الذي بدونه لن يبقَوا!

ما الذي كان يعنيه هذا؟ ما الذي كان يكمن وراءه؟ شيءٌ واحد فقط، هو جشع مجموعةٍ صغيرة من أصحاب الآبار المسيطرين، الذين لا يدفعون لرجالهم أجورًا كافية، بل يجعلونهم يعملون لمدة اثنتَي عشرةَ ساعةً في اليوم. وكانوا يتعاملون مع الرجال بالمسدسات والبنادق، ويبعدونهم عن الآبار، مصدر رزقهم الوحيد، ويجعلونهم يتضوَّرون جوعًا للرجوع للعمل بالشروط القديمة الظالمة. كان هذا هو صلب الموضوع بمنتهى البساطة، وهنا، في مطبخ روث الصغير، كان بالإمكان رؤية التفاصيل من الداخل. فقد اضطُرَّت الفتاتان إلى تخفيض سعر الخبز الذي كانتا تبيعانه؛ لأن بعض الناس لم يستطيعوا تحمُّل سعره! فعمال النفط لا يدَّخرون الكثير؛ لأنهم مضطرون للتنقُّل وإحضار عائلاتهم، أو إرسال المال إليها. والآن بعدما نفدَت مدخراتهم، لم تكن المساهمات التي كانت تأتي من الحقول الأخرى كافية، وكان بول، الذي كان قد ظل يدَّخر المال من أجل أن يدرُس ويصبح عالِمًا، يستخدم هذا المال لدعم العائلات الجائعة، وكانت روث وميلي تكرِّسان كل وقتهما للمساعدة، وحتى السيدة واتكينز العجوز كانت تساعد عندما تستطيع!

نقل باني معاناته إلى والده. وسأله عما سيفعله الناس عندما لا يعود لديهم طعامٌ للبقاء على قيد الحياة. ردَّ عليه الأب بأنه لن يكون أمامهم سوى العودة إلى العمل! «ألن يعني هذا فشل الإضراب يا أبي؟» رد الأب بلى، إذا لم يتمكَّنوا من الفوز، فهذا يعني الفشل؛ تلك هي طبيعة الإضرابات، التي كانت تنطبق على كل شيءٍ آخر في الحياة. فالحياة قاسية، وعليك، عاجلًا أم آجلًا، أن تتعلم الدرس منها. لا بد من استسلامهم، وانتظار الوقت المناسب الذي يُصبح فيه اتحادهم أقوى. «لكن يا أبي، كيف يمكنهم جَعْل اتحادهم أقوى مع مقاطعة أصحاب الآبار لهم؟ أنت تعلم أنهم طردوا الرجال الذين انضموا للاتحاد؛ ولذلك إذا استسلموا، في الوقت الحالي، فإن معظم الشركات لن تعيد العمال الذين شاركوا في الإضراب.» وقال الأب إنه يعرف ذلك، لكن على الرجال الاستمرار في المحاولة، فليس هناك سبيلٌ آخر. بالتأكيد لم يكن بوسعه دعم الإضراب بإبقاء آباره معطلة! فعلى الرجال أن يفهموا أنه لم يكن بإمكانه تحمُّل الخسارة أكثر من ذلك، ولم يكن لديهم الحق في توقع ذلك منه، ويجب عليهم إما إغلاق الآبار الأخرى، وإما رؤية آبار السيد روس مفتوحة. شعر باني بخيبةِ أملٍ كبيرة، وأخفى بداخله، لشعوره بالخزي الشديد، الفكرة التالية: «سنعيِّن في أرضنا العمال الذين لم ينضموا للاتحاد!»

٨

كان المنزل هو المكان الوحيد الذي كان باني يشعر فيه بالسعادة. وكان يُمضي عصر يوم السبت هناك لمساعدة روث وميلي؛ فقد كانت هذه هي المساعدة الوحيدة التي سُمح له بتقديمها للإضراب! كانوا يقضون جانبًا من الوقت في الحديث عن المعاناة التي كانوا يعيشونها، وجانبًا آخر يمرحون ويمزحون مثل غيرهم من الشباب، لكنهم كانوا يكدُّون في العمل طوال الوقت؛ حيث كانوا يصنعون من الطحين الخاص بالاتحاد أنواعًا مختلفة من المأكولات. في وقت العَشاء، جاء السيد واتكينز على متن العربة، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يأتي فيها، وأعطَوه المأكولات، وتوجَّهَت ميلي معه إلى مقر الاتحاد، بينما مكث باني مع روث، وساعدها على تنظيف المكان، وحاول شرح المأزق الذي فيه والده، ولماذا لم يستطع باني مساعدة الإضراب مساعدةً حقيقية.

ذهب إلى الاجتماعات يوم الأحد، واستمع إلى خطابٍ آخر لبول. بالإضافة إلى الكآبة التي كانت تعلو وجه بول طوال الوقت، كان يبدو هزيلًا بسبب تحمُّل أسابيع من قلة الطعام والنوم، وكان صوتُه يحمل في طياته مشاعرَ جياشة؛ تحدَّث عن رحلته إلى حقول

النفط الأخرى، وأنه لم يكن هناك عدالةٌ في أي مكان؛ فقد كانت سلطات البلدة والمقاطعة والولاية مجرد بيادقَ في يد أصحاب الآبار، تفعل كل ما في وسعها لقمع الرجال وتفكيك اتحادهم. وفي خِضَم هذه المعاناة القاسية، بدأَت روح بول تكتسب الصلابة، وشاركَه في ذلك الشعور حشدُ العمال، وتعهَّدوا من جديدٍ بالتضامن مع بعضهم، وشعر باني بحماس هذا الحشد، وتاق إلى أن يكون جزءًا من هذه التجربة الجماعية العظيمة، لكنه أحجم عن قراره، مثل الشاب في القصة المذكورة بالكتاب المقدَّس الذي كان لديه الكثير من الممتلكات.

كان بول قد رآه وسط الجموع، وبحث عنه بعد انتهاء الاجتماع. وقال له: «أريد أن أتحدث معك»، وبمجرد أن ابتعدا عن الآخرين، دخل بول في صلب الموضوع مباشرةً دون إهدار وقت:

«اسمع، أريدك أن تدَع أختي وشأنها.»

صاح الآخر: «أدعها وشأنها!»، وتوقَّف عن السير، وحدَّق في بول. «لماذا؟ ماذا تعني؟»

«أخبرَتْني ميلي أنك تتردَّد على المنزل كثيرًا، وأنكَ كنتَ هناك الليلة الماضية معها.»

«لكن يا بول! كان على شخصٍ ما البقاء معها!»

«سنعتني بأنفسنا؛ كان من الممكن أن تذهب إلى منزل والدها. وأريدك أن تفهم، لن أسمح بتسكُّع أي شبابٍ أثرياء مع أختي.»

«لكن يا بول!» كانت نبرة صوت باني مفعمةً بالحزن والصدمة. «حقًّا، أنت مخطئ تمامًا يا بول.»

«أريدك أن تعيَ شيئًا واحدًا، إذا تسبَّب أي شخص في أذية أختي، فسوف أقتله، دون أدنى تردُّد.»

«لكن يا بول، أنا لم أفكِّر قط في هذا الشيء! يا إلهي، أنا بالفعل مغرمٌ بفتاةٍ في المدرسة. صدقني يا بول، أنا أحبها بشدة، ولم يراودني هذا الشعور تجاه أي شخصٍ آخر.»

تورَّد خدا باني سريعًا عندما أدلى بهذا الاعتراف، وكان من المستحيل ألَّا تُدرك أنه كان صادقًا. خفَّت حدة صوت بول. وقال: «اسمع يا فتى، أنتَ لم تعُد طفلًا، وكذلك روث. لا أشُك فيما تقوله، بطبيعة الحال، ستختار فتاةً تنتمي إلى طبقتك الاجتماعية. لكن قد لا يكون الأمر كذلك مع روث؛ فقد تهتم بأمرك؛ ولذا عليك الابتعاد عنها.»

لم يعرف باني ماذا يقول ردًّا على هذا؛ فلم تخطر على باله هذه الفكرة من قبلُ. وأوضح قائلًا: «وددتُ أن أطلع على أخبار الإضراب ولم تُتَح لي الفرصة للتحدث معك على الإطلاق. لا يمكنك تخيُّل مدى استيائي، لكنني لا أعرف ماذا أفعل.» وعبَّر في عُجالة، في جملٍ صغيرة، عن كل ما يشعر به من حزن؛ فقد كان محتارًا بين ولائه لوالده وتعاطُفه مع الرجال، وكان يشعر أنه واقع في فخ، وعاجز عن التصرف.

ردَّ عليه بول بنبرةٍ قوية. وقال: «أعلم أن والدكَ يساعد على إبقاء هؤلاء الحراس الأوغاد في الحقل.»

«إنه يدفع اشتراكات الاتحاد، إذا كان هذا ما تعنيه. فقد كان متعاقدًا مع اتحاد أرباب العمل عندما انضم ...»

«إن العقد الذي يتطلب خرق القانون لا يُعتبَر نافذًا! ألا تعلم أن هؤلاء الناس ينتهكون مائة قانونٍ في اليوم؟»

«أعلم يا بول، لكن أبي مرتبطٌ بأصحاب الآبار الآخرين؛ فأنت لا تفهم كم المشاكل المالية التي يُواجِهها حقًّا بسبب غلق آباره، وهو يفعل كل هذا من أجل العمال.»

«أعلم ذلك، ونحن نقدِّر ما يفعله. لكنه الآن يقول إن عليه الاستسلام، وجَلْب عمالٍ آخرين غير منضمين للاتحاد مثل أصحاب الآبار الآخرين. إن هذا التصرُّف يفوقُ قدرتنا على التحمُّل؛ إنهم يحاربوننا بقذارة، ووالدك يعرف ذلك، ومع ذلك يسايرهم فيما يفعلون!»

مرَّت برهةٌ من الصمت، وأكمل بول حديثه بصرامة. «أعلم بالطبع أن أمواله على المحك وأنه لن يخاطر بها، وأنك ستفعل ما يخبرك به.»

«لكن يا بول! لا أستطيع معارضة أبي! هل تتوقَّع مني فعل ذلك؟»

«عندما حاول والدي التحكُّم في حياتي، وحاول منعي من التفكير وتعلُّم الحقيقة، عارضتُه، أليس كذلك؟ وقد شجَّعتَني على فعل ذلك، وظننت أنْ لا بأس في هذا.»

«لكن يا بول! إذا عارضتُ أبي في مثل هذا الشيء، فقد ينفطر قلبه.»

«حسنًا، ربما أكون قد تسبَّبتُ في انفطار قلب والدي، لكنني لا أعرف، وكذلك أنت. بيت القصيد هو أن والدك يرتكب خطأً وأنت تعرف ذلك؛ فهو يساعد هؤلاء الهمج ويسمح لهم بقمعنا، ويحرمنا من حقوقنا كمواطنين، وحتى كبشر. لا يمكنك إنكار ذلك، ومن واجبك الدفاع عن الحقيقة.»

ساد الصمت، بينما حاول باني مواجهة فكرة معارضة الأب المروِّعة، كما عارض بول السيد واتكينز العجوز. وبالرغم من أن الأمر بدا صحيحًا جدًّا في حالة بول، كان مستحيلًا للغاية في حالة باني!

في النهاية أكمل بول حديثه. وقال: «أتفهَّم الأمر، يا فتى. لن تفعل ذلك؛ فأنت لا تملك الجرأة اللازمة لذلك، أنت ليِّن العريكة.» وصمَت لبرهة، حتى يستوعب باني تلك الكلمات القاسية. «نعم، هذا هو أفضل وصفٍ لك، ليِّن العريكة. دائمًا ما كان لديك كل ما تريد، مقدَّم لك على صينية من فضة، وهذا ما جعلك ضعيف الشخصية. أنت طيِّب القلب، ويمكنك تمييز الصواب من الخطأ، لكن ليس لديك القدرة على التصرُّف؛ فأنت تخاف من إلحاق الأذى بالآخرين.»

بهذه الكلمات، وصل حديثهما إلى نهايته. لم يعُد لدى بول ما يقوله، ولم يستطع باني الرد. واغرورقَت عيناه بالدموع، وكان هذا أكبر دليل على ضعفه. ولذا أشاح برأسه حتى لا يرى بول الدموع.

قال الأخير: «حسنًا، يجدُر بي الانطلاق؛ فلديَّ العديد من الأعمال التي عليَّ الاضطلاعُ بها. سينتهي هذا الصراع يومًا ما، وسيستمر والدك في جني الأموال، وآمل أن يجلب ذلك لك السعادة، بالرغم من أنني أشك في ذلك حقًّا. وداعًا يا بني.»

قال باني بتخاذُل: «وداعًا»، واستدار بول ورحل مسرعًا.

مشى باني، وشعَر باهتياج في روحه. كان غاضبًا بسبب عدم تفهُّم بول، وفظاظته القاسية، لكن طَوال الوقت كان هناك صوتٌ آخر بداخله ظل يقول بإصرار: «إنه على حق! أنت ليِّن العريكة، أنت ليِّن العريكة، هذا هو أفضل وصفٍ لك!» كما ترى، كان هذا الجانب من شخصية باني هو ما يثير غضب أخته بيرتي للغاية؛ أن باني أخضَع نفسه لبول، وأنه كان على استعدادٍ لقبول سوء معاملة بول، بكل خنوع. فقد كان لا يعي المكانة التي منحَتْها له ملايين أبيه!

٩

عاد باني إلى المدرسة، واستمرَّت معاناة عمال النفط مع قلة الأكل، لكنهم ظلوا صامدين. في غضون ذلك، كانت أمريكا في حالة حرب، وكان الكونجرس يتخذ سلسلةً من الإجراءات، نَصَّ أحدها على توفير «قرض الحرية» الضخم، لدفع تكاليف الحرب، ونَصَّ آخر على انضمام جميع الرجال الذين بلغوا سن التجنيد إلى الجيش، لإعداد جيشٍ ضخم.

وبعد ذلك بدأَت تنتشر شائعاتٌ مثيرة عن حدوث هدنةٍ مع العمال. وارتبطَت هذه الشائعات في المرتبة الأولى برجال السكك الحديدية، الذين كان كثيرون منهم مضربين من أجل الحصول على أجورٍ كافيةٍ للمعيشة وتحسين أوضاع العمل. كانت السكك الحديدية ضروريةً للغاية للانتصار في الحرب؛ ولذا كان على الكونجرس أن يأذن للحكومة بالتدخُّل في النزاعات، والتفاوض مع الاتحادات، والتأكُّد من التوصل إلى صفقةٍ مُنصِفة للجميع. في حال ما اتُّخذَت هذه الإجراءات من أجل رجال السكك الحديدية، فمن المؤكد أنها ستُتَّخذ مع الآخرين، وقد يحصل عمال النفط على تلك الحقوق التي كان اتحاد أرباب العمل يسعى لحرمانهم منها! كانت الصحافة العمالية تعجُّ بأخبارٍ عن الصفقة الجديدة الوشيكة، وكانت البرقيات تأتي من مقر اتحاد العمال في واشنطن، تطلب من الرجال في بارادايس الثباتَ على موقفهم.

كان الوضع يشبه «المشهد الرئيسي» في مسرحيات الميلودراما الرخيصة القديمة، التي اعتدنا أن نشاهدها في شارع باوري في طفولتنا؛ حيث تُربط البطلة إلى جذع شجرة في مصنع لنشر الأخشاب، وتُسحَب بسرعة إلى المكان الذي ستُشَق فيه نصفَين، وعندئذٍ يصل البطل راكضًا بسرعةٍ على صهوة جواده، ويقفز من فوقه، ويحطِّم الباب بفأس، ويُهرَع إلى الذراع ويوقف الماكينة في اللحظة الحاسمة. أو إذا أردتَ تناوُل الموضوع من منظورٍ أرقى وأكثر وقارًا، فقد كان الوضع يشبه التراجيديا الإغريقية القديمة، التي بعدما تتشابك فيها مصائر جميع الشخصيات وتصل إلى تعقيدٍ ميئوس منه، يتنزل الإله من السماء في آلة، ويترجَّل منها، ويسوِّي كل الأمور المعقَّدة، وينتصر الخير وينهزم الشر. ومن الممكن أن تصدِّق هذا؛ لأنه في كلاسيكيات الأدب الإغريقي، لكنك ستجد صعوبةً في تصديق أن «الجماعة المناهضة لفكرة الاتحادات» في كاليفورنيا، بما تتمتع به منظومتها الصناعية من نفوذٍ شامل، وبكل الملايين المودعة في مصارفها، وآلتها السياسية ووكالاتها المخصَّصة لفض الإضرابات، وجواسيسها ومسلحيها، وميليشياتها الحكومية المزوَّدة بالمدافع الرشاشة والسيارات المصفَّحة في الخلفية، ستجد صعوبة في تصديق أن كل هذه القوة الرائعة شعَرَت بقبضةٍ أقوى منها تُمسِك بقبضتها فجأةً وتزيحها عن عنق ضحيتها! ستجد صعوبةً في تصديق أن إلهًا آخر نزل من إحدى الآلات، إلهًا أمريكيًّا مسنًّا نحيفًا، له لحيةٌ صغيرة بيضاء ويرتدي بدلةً مخططةً باللونَين الأحمر والأبيض، مرصعةً بنجومٍ زرقاءَ متلألئة؛ ستجد صعوبة في تصديق أن العم سام شخصيًّا تدخل، وأعلن أن عمال النفط بشر ومواطنون؛ ولذا يتعيَّن حماية حقوقهم!

جاء الإعلان من مقر اتحاد العمال في واشنطن؛ حيث نصَّ على أن عمال النفط سيحصلون على أجورٍ كافية وثماني ساعاتِ عمل في اليوم، وسيُرسَل «وسيط» حكومي للتأكُّد من تنفيذ ذلك، وفي تلك الأثناء، كان يتعيَّن عليهم العودة إلى العمل، حتى يتمكَّن الرجل المسن المعطاء ذو اللحية البيضاء والبدلة ذات اللون الأحمر والأبيض والأزرق؛ من الحصول على كل النفط الذي يحتاجه. كان رئيس الولايات المتحدة يُلقي خطبًا رائعةً ومقنعة، عن الحرب التي كان من شأنها أن تنهي الحرب، وتُحقِّق العدالة للبشرية جمعاء، وترسِّخ نظام حكم الشعب، على يد الشعب، ومن أجل جميع شعوب الأرض. شعر الجميع بسعادةٍ غامرة وتأجَّجَت قلوبهم بالحماسة لقضيتهم! ودبَّت البهجة في ملعب المدرسة في بارادايس، عندما وردَت أنباء عن أن المسلَّحين سينسلُّون عائدين إلى الأحياء الفقيرة التي أتَوا منها، وكان من المقرَّر أن يبدأ هذا على الفور!

تلقَّى الأب الأخبار في الصباح الباكر، مما جعل باني يرقص فرحًا في جميع أنحاء المنزل، ويُحدِث ضجة كما لو كان يشجِّع فريقه في مباراة كرة قدم، وقال الأب إنه يشعر بالسعادة أيضًا؛ فمن الجيد بالتأكيد أن تعود هذه الآبار لإنتاج النفط مرةً أخرى؛ فما كان ليتمكَّن من الصمود أسبوعًا آخر بدونها. وأخبره باني أنه سيتغيَّب عن المدرسة في فترة ما بعد الظهر، ليذهبا معًا لمشاهدة الاحتفالات، وتوطيد علاقاتهما مع الجميع مرةً أخرى، لبدء العمل من جديد. وأول شيءٍ سيفعلانه هو هدمُ سياجِ الأسلاك الشائكة الذي يفصل أصحاب رأس المال عن العمال! ففي العالم الجديد، لن يكون هناك مكانٌ للأسلاك الشائكة ولا للضغائن؛ حيث ستُزهِر الزهور على سياج الشجيرات أمام منازل العمال، وسيكون هناك كتابٌ يجمع خطب الرئيس في غرفة القراءة، وسيتوفَّر لدى جميع عمال النفط وقتٌ لقراءته!

الفصل الثامن

الحرب

١

كانت يونيس هويت هي ابنة «تومي» هويت، صاحب شركة هويت وبرينرد، التي تُرى إعلاناتها عن أوراقها المالية الاستثمارية على الصفحات المالية لصحف بيتش سيتي. وكان تومي يُوجَد في السباقات ومباريات الملاكمة، وعادةً ما كان يُلاحَظ أنه يصطحب سيدةً جديدة، تضع الكثير من مساحيق التجميل، وفي بعض الأحيان كانت تضع وشاحًا على رأسها، لكن كان عليك التحلِّي باللباقة وعدم التدخُّل في هذا الأمر، وإدراك أن تومي «رجل لعوب». أما زوجته فكانت تُرى صورها بين «مضيفات الأسبوع المميزات»، وكانت مهتمةً بالفن؛ ولذا كان يزورها بالمنزل شبانٌ عاطفيون. تفهَّم الخدم الوضع، وكذلك فعلَت يونيس.

كانت فتاةً نحيلةً، ضئيلة الحجم، ذات بشرةٍ داكنة، مفعمة بالحيوية وسرعة الحركة، لكنها كانت ضيقة الخُلُق. كانت تحضر صفَّين مع باني، وبعدما اكتشفَت أنه شابٌّ جاد، كانت تضايقه بكلامٍ حادٍّ ولاذع، لدرجة أنه لم يتيقن مطلقًا مما إذا كانت تفعل ذلك عن قصد أم لا، ولم يجرؤ على سؤالها؛ لأنه حينئذٍ ستكون مضايقاتها له أسوأ من ذي قبل. كانت تتبعها دائمًا نصف دزينة من الزملاء؛ لذلك كان من السهل الابتعاد عن طريقها.

ولكن عصر أحد أيام السبت، فاز باني بسباق ٢٢٠ ياردة لفريق المدرسة، مما جعله بطلًا نوعًا ما، واحتشد الأولاد والبنات حوله، وهم يهتفون ويُربِّتون على ظهره. ثم بعد استحمامه وارتدائه لملابسه، خرج بحثًا عن سيارته، وكانت يونيس في اللحظة نفسها تستقل سيارتها المكشوفة، وقالت له: «دعني أوصلك.» أجاب: «سيارتي الخاصة معي هنا»؛ صاحت قائلة: «يا إلهي، يا لكَ من فظٍّ بغيض! اركب هذه السيارة في الحال، أيها

الشاب!» وهكذا بالطبع انصاع لأوامرها، وهو متوتر قليلًا. وعندما قالت: «هل تخشى أن يسرق أحدٌ ما سيارتك القديمة الرخيصة؟» لم يستطع أن ينافح عن هدية الأب الأخيرة التي كانت أحدث طرازٍ وباهظة الثمن.

قالت: «باني، هناك شجارٌ دائر بين أمي وأبي في المنزل، والحال مريعٌ هناك.»

قال بتعاطف: «حسنًا، ماذا تريدين أن تفعلي؟»

«دعنا نذهب إلى مكانٍ ما ونتناول العَشاء، بعيدًا عن كل شيء. هيا، أنا أدعوك.»

لذلك قادا السيارة لمدة ساعة أو نحو ذلك، وصَعِدا إلى أعلى تلٍّ عَبْر طريقٍ متعرج، وكان هناك مقهًى، له شرفة تُطِل على خليجٍ وشاطئٍ صخري، كان من الممكن أن يكون مشهورًا لو كان في إيطاليا. تناولا طعام العَشاء، وتجاذبا أطراف الحديث حول شئون المدرسة، وأخبرَتْه يونيس عن حياتها المنزلية، وكيف أن أحدهم أرسل لوالدتها رسالةً تكشف عن أن والدها دفع الكثير من المال لامرأة، وغضبَت السيدة هويت لأنها لم تفهم لماذا يرتكب الرجال أفعالًا تُلزِمهم بدفع المال.

غربَت الشمس فوق المحيط، وأُضيئَت المصابيح على طول الشاطئ، وارتفع بدرٌ تمامٌ كبيرٌ من خلف التلال، وقالت يونيس: «هل تُحبني ولو قليلًا يا باني؟» أجابها أنه يُحبها بكل تأكيد، وقالت: «لكنك لا تُظهِر ذلك مطلقًا.» أوضح لها قائلًا: «حسنًا، لم أعرف قطُّ طبيعة شعوركِ؛ لأنكِ تسخرين مني دائمًا»، ردَّت عليه: «أعلم يا باني؛ فأسلوبي مقيت، لكن الحقيقة هي أنني أفعل ذلك فقط للحفاظ على شجاعتي. أيضًا أنا أخاف منك؛ لأنك جادٌّ وأنا مجرد ثرثارةٍ سخيفة؛ ولذلك أنا مضطرةٌ لأن أتصرَّف على هذا النحو.» حينئذٍ تمكَّن باني من الاستمتاع بالنزهة.

ركبا السيارة وانطلقا مرةً أخرى. كان الطريق يمُر عَبْر مجموعة متشابكة من الكثبان الرملية، تمتد لأعلى مستوى المحيط. قالت يونيس: «يا إلهي، يا له من منظرٍ رائع!»، وعندما وصلا إلى مكانٍ كانت الأرض فيه صلبة، أوقفَت السيارة بجوار الرصيف. وقالت: «دعنا نذهب ونشاهد المحيط. هناك بساطٌ في الخلف.» لذا أخرج باني البساط، وسارا فوق الكثبان الرملية، وجلَسا فوق أحدها، واستمعا إلى صوت الأمواج بالأسفل، ودخَّنَت يونيس سيجارة، ووبَّخَت باني لأنه شابٌّ متشددٌ فظيع، لا يمكنه أن يكون جليسًا مؤنِسًا لها. بعد قليل، مرَّ بهما رجل ونظر إليهما وهو يسير، فقالت يونيس: «هل تحمل مسدسًا؟» وعندما قال إنه لا يحمل واحدًا، علَّقَت قائلة: «من المفترض أن تُحضِر معك

مسدسًا هذه الأيام، عندما تذهب مع فتاةٍ إلى نزهة ملاطَفة.» لم يكن باني قد أدرك أن هذه كانت بالضبط نزهة للملاطفة، لكن بالتأكيد لم يكن من التهذيب أن يقول ذلك.

استمع إليها وهي تخبره عن قطَّاع الطرق الذين كانوا يكسبون أقواتهم من سرقة الشباب الذين يوقفون سياراتهم على جانب الطريق، وأخبرته بأن بعضهم كانوا يتعاملون بوحشية مع الفتيات، وسألَته عما سيفعله إذا ظهر أحدهم فجأة؟ قال باني إنه لا يعرف، لكنه بالطبع سيبذل قصارى جهده للدفاع عن امرأة. قالت يونيس: «لكنني لا أريدك أن تُصاب بطلقٍ ناري. لدينا فضيحةٌ بالفعل في عائلتنا.» ولذا استطردَت قائلة: «دعنا نرحل عن هنا يا باني» فلمَّ البساط وتجوَّلا فوق الكثبان، بعيدًا عن الطريق وعن كل شيء، وفي أحد التجاويف المنعزلة الهادئة حيث كانت الرمال ناعمة وملساء، طلبَت منه أن يفرد البساط مرةً أخرى، وهناك جلسا، مختبئَين من كل شيء إلا القمر الأصفر المستدير، الذي شهد ملايين وملايين من تلك المشاهد، لكن دون أن يُفصِح يومًا عما كان شاهدًا عليه.

جلسا متجاورَين، وأراحت يونيس رأسها على كتف باني وهمست: «هل تهتم لأمري ولو قليلًا؟» أكَّد لها أنه يهتم لأمرها، لكنها أخبرَتْه أن هذا غير صحيح، وأنه لا بد أنه يحسبها جريئة وفظيعة، وعندما أخبرها أنها لم تكن كذلك، قالت: «إذن لماذا لا تُقبِّلني؟» بدأ في تقبيلها، لكنها لم تكن راضية، وأخبرَتْه أنه لم يكن صادقًا في قُبلته، وفجأة همسَت قائلة: «باني، أعتقد أنك لم تُحب حقًّا فتاةً من قبلُ!»

اعترَفَ لها بأنه لم يُحب فتاةً من قبلُ. قالت: «لطالما عرفتُ أنك فتًى غريب الأطوار. ما خطبُك؟» أجاب باني أنه ليس لديه فكرة، وكان يرتجف بشدة؛ لأنه لم يكن قد اختبر هذا الشعور من قبلُ، واندلعَت بداخله عدةُ مشاعرَ مختلفةٍ في الوقت ذاته، ولم يكن يعلم أي واحد منها عليه أن يتبعه. همسَت الفتاة: «دعني أعلمك يا باني»، وعندما لم يرُدَّ عليها على الفور، وضعَت شفتَيها على شفتَيه وقبَّلَته قبلةً طويلةً أصابَتْه بالدُّوار. تمتم بصوتٍ خافت أن شيئًا ما قد يحدث، وأنها قد تقع في مشكلة، لكنها أخبرته ألا يقلق بشأن ذلك؛ فهي على علم بهذه الأشياء واتخذَت الاحتياطات اللازمة.

٢

هكذا بدأ باني رحلته في حياة الكبار. لقد ولت أيام البراءة السعيدة، عندما كان من الممكن أن يكتفي بالجلوس ممسكًا بيد روزي تينتور. كان «مسك الأيدي» الآن يشبه السير على حافةٍ زلقة، فوق هاويةٍ مظلمة اختلطَت فيها المتعة مع الألم، وأصبح من الصعب التمييز

بينهما. كان باني خائفًا من العواطف الجيَّاشة التي استولت عليه، ومرعوبًا من سلوك الفتاة التي بين ذراعَيه؛ فقد كانت تهتز كما لو كانت تُعاني من نوبة جنون، وتتشبث به وهي تتشنَّج من الإثارة، تتداخل أصواتُ بكائها مع ضحكاتها، وتطلق صيحاتٍ قليلة تشبه صيحات حيوانٍ يتألم. وكان على باني مشاركتُها في هذا الهذيان؛ فما كانت لتقبل بغير ذلك، وكانت تغضب بشدةٍ عندما لا تحصُل على ما تريد؛ فقد كانت سيدةَ هذه الطقوس الشيطانية، وكان عليه أن يطيع أوامرها. في المرة الأولى، كان الصبي مرتاعًا عندما أدركَ ما فعله، لكنها تعلَّقَت به، وهمسَت قائلةً: «أوه، لا تخجل يا باني! لا تخجل! لن أدعك تشعُر بالخجل! لماذا لا يحق لنا أن نكون سعداء؟ أوه، من فضلك، من فضلك، كن سعيدًا!» لذلك كان عليه أن يَعِدها، ويبذل قُصارى جهده.

«أوه، يا باني، يا لك من حبيبٍ رائع! سوف نحظى بأوقاتٍ طيبة.» كانت هذه هي تهويدتها التي هدَّأَت بها من روعه، وهي بين ذراعَيه، تحت قمر الربيع، الذي يُطِل على كاليفورنيا وعلى العالم أجمع. وعندما بدأ برد ليالي كاليفورنيا يتسلل إلى عظامهما، لم يتمكَّنا من أن ينفصل أحدهما عن الآخر، وعلى طول الطريق عَبْر الكثبان الرملية كانا يسيران ويتأبط أحدهما ذراع الآخر، ويتبادلان القبلات. «أوه، باني، لقد كنتُ جريئة وسيئة، ولكن أخبرني أنك سامحتَني، أخبرني أنك مسرور بما فعلتَه!» بدا أنه كان من واجبه طمأنتُها.

في طريق العودة إلى بيتش سيتي، تحدثا عن هذه المغامرة. لم يكن باني قبل ذلك قد فكَّر كثيرًا في الجنس، ولم يكن لديه فلسفةٌ جاهزة، لكن يونيس كانت لديها فلسفتُها، وأخبرَتْه بها ببساطة وبصراحة. كان الكبار يملئون رأسك بالكثير من الحماقات حول هذا الموضوع، وبعدها كانوا يتسللون ويعيشون حياتهم بطريقة مختلفة، فلماذا تترك نفسك تنخدع «بنواهٍ» سخيفة؟ لم يكن الحب مشكلةً ما دمتَ تتصرف بطريقةٍ مقبولةٍ اجتماعيًّا، وعندما تكتشف أنه ليس عليك إنجابُ أطفال، فلماذا تكلِّف نفسك عناء الزواج؟ كان معظم المتزوجين بائسين على أي حال، وإذا تمكَّن الشباب من أن يجدوا طريقةً يكونون بها سعداء، فالأمر بيدهم، وما لا يعرفه الكبار لن يضُرَّهم في شيء.

هل رأى باني أي خطأ في ذلك؟ أجاب باني بالنفي، وقال إن السبب في كونه «شديد التحفُّظ» هو أنه لم يكن يعرف يونيس حق المعرفة. قالت إنه من المفترض أن الرجال لا يهتمون بالفتاة التي تتودَّد إليهم، وأضافت بغنج، أنه لذلك من الآن فصاعدًا سيتولَّى باني أمر محاولات التودُّد إليها. أبدى موافقتَه على اقتراحها، وقال إنه كان على استعدادٍ للتنفيذ

على الفور، لولا أن يونيس كانت تقود السيارة بسرعة ٤٠ ميلًا في الساعة؛ ولذا كان إيذاء مشاعرها أفضل من إلحاق الضرر بالسيارة.

أراد باني أن يعرف ما إذا كانت هناك فتياتٌ أخريات مثل يونيس، أخبرَتْه أن هناك الكثيرات، وذكرَت أسماء بعضهن، وفوجئ باني وكان مصدومًا قليلًا؛ فبعضهن كان لهن دورٌ بارز في شئون الفصل، وكن يبدون محترمات. أخبرَتْه يونيس عن طرقهن، وكان الأمر يشبه إلى حدٍّ كبير مجتمعًا سريًّا، مع عدم وجود أي مديرين أو طقوسٍ رسمية، ولكن كانت هناك قوانينُ صارمة. أطلقن على أنفسهن اسم «الزولو»؛ حيث تجرَّأن على فعل ما يحلو لهن، واحتفظن بأسرار بعضهن بكل إخلاص، وساعدن الفتيات الأصغر على تعلم ما كان ضروريًّا لسعادتهن. كانت الكبيرات يحرصْنَ على الحفاظ على هذه المعلومات، على سبيل المثال كيف تتجنَّبين إنجاب الأطفال، وماذا تفعلين إذا «افتُضِح أمركِ». كانت هناك معرفةٌ سرية عن فن الحب، في كتب تُباع في متاجرَ معيَّنة، أو مخبَّأة وراء كتبٍ أخرى في غرفة مكتب والدك. وستنتشر هذه الكتب ويقرؤها الكثيرون.

كان هؤلاء الشباب يُعِدُّون لأنفسهم نظامًا أخلاقيًّا جديدًا، دون أي مساعدة من ذويهم. وبالطبع لم تكن يونيس على دراية بأنها كانت تفعل شيئًا جليلًا كهذا؛ كانت تتحدث فقط عن مشاعرها، والأشياء التي كانت تُحبها والأشياء التي كانت تخاف منها. وكانت تتساءل: هل من الصواب أن تُحب بهذه الطريقة أم بتلك؟ وماذا كان رأي باني في إمكانية حب فتاتَين في الوقت ذاته؟ كانت كلير رينولدز ترى أنه لا يمكنك فعل ذلك، لكن بيلي روزين كان لها رأيٌ آخر، وكانتا تتشاجران طَوال الوقت. لكن ماري بليك كانت سعيدةً جدًّا بارتباطها بصبيَّين أحبَّاها واتفقا على ألَّا يشعُرا بالغيرة. كان باني يخطو خطواته الأولى في هذا العالم الجديد؛ ولذا كان يطرح الكثير من الأسئلة، ولم يستطع منع نفسه من الشعور بالخجل عند سماع بعض ردود يونيس التقريرية.

تسلَّل باني إلى المنزل في الساعة الثانية صباحًا، دون أن يلاحظه أي فردٍ من أفراد الأسرة. لكنه تأخر بالقَدْر نفسه في الليلة التالية، وفي الليلة التي تليها، ألم يَعِد يونيس «بتولي أمر محاولات التودُّد»؟ عندها، بالطبع، أدركَت العائلة أن ثمَّة خطبًا ما، وكان من المثير للاهتمام رؤية ردود أفعالهم. كانت العمة إيما والجدة في «حالة» يُرثى لها، لكنهما لم تستطيعا تحديد السبب، وكان هذا هو العائق الذي فرضَه الجيل القديم على نفسه. ذهبَت كلتاهما إلى الأب، لكنهما لم تتحدثا إلا عن رجوع الصبي في وقتٍ متأخر وتأثير ذلك على صحَّته. وحتى الأب نفسه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك بكثير. فعندما قال باني إنه كان يتجول بالسيارة برفقة يونيس هويت، سأله الأب عما إذا كانت فتاةً

«لطيفة». أجاب باني أنها كانت أمينةَ صندوقِ فريق كرة السلة للفتيات، وأن والدها هو السيد هويت، الذي كان الأب يعرفه، ولديها سيارتها الخاصة، وأنها حتى عرضَت دفع ثمَن العَشاء. ولذلك استبعد الأب فكرة أن يتعرض باني لأي «إغراءات»، وقال له: «على رِسلِك، يا بني، لا تحاول أن تعيش حياتك كلها خلال بضعة أسابيع.»

أيضًا كان رد فعل أخت باني مثيرًا للفضول. مما جعل باني يتساءل عما إذا كان قد وصلَت إلى بيرتي بعض الرسائل السرية، من خلال علاقاتها مع فتيات «الزولو». فهي لم تزِد عن أن قالت له: «أنا سعيدة لأنكَ وافقتَ على الاهتمام بشيءٍ ما بجانب النفط والعمال المضربين على سبيل التغيير.» لكن خلف هذه الجملة كان يكمُن بحر من المعرفة الأنثوية الهادئة! وبدأ يتوالى على عقل باني سيلٌ من الأفكار الجديدة. هل من الممكن أن يكون سببُ تأخر أخته ليلًا هو نفس سبب تأخره؟ كان من المفترض أن تكون بيرتي في إحدى حفلات الرقص، فهل كانت تعود دائمًا إلى المنزل مباشرةً، أم أنها أيضًا كانت تُوقِف سيارتها على جانب الطريق؟ كان باني قد تجاوَز صدمة وقوف سيارة يونيس على جانب الطريق، لكن الأمر استغرق وقتًا أطول ليعتاد فكرة أن أخته كانت تُوقِف سيارتها على جانب الطريق. وبدأ يلاحظ، وهو يقود سيارته على طول الطرق السريعة في المساء، أن هناك عددًا كبيرًا من السيارات الواقفة هناك!

٣

حدَث كل هذا قرب نهاية الإضراب، وتزامن أيضًا مع خوض أمريكا للحرب. لذلك اختلطَت الإثارة الجنسية في ذهن باني بحماسته الوطنية. كان الأمران مرتبطَين أكثر مما تظن؛ فالشباب كانوا يستعدون للتوجه إلى المعركة، مما أدى إلى تخفيف المعايير المفروضة على السلوك الجنسي. وتسبَّبَت احتمالية عدم رجوع الشباب في التقليل من أهمية أفعالهم في هذه الأثناء. مما أدى إلى تعاطُف الفتيات مع الفتيان الذين كانوا على استعدادٍ لاقتناص القليل من المتعة قبل فوات الأوان.

كان باني صغيرًا جدًّا على الانضمام للجيش في مرحلة التجنيد الأولى، لكنه انضم إلى التدريب العسكري في المدرسة، مما أسبغ عليه إحساسًا بالهيبة العسكرية. كان هناك فيلقٌ في المدرسة الثانوية مزوَّد ببنادقَ قديمةٍ خاصة بميليشياتٍ تابعة للدولة، وكان ملعب المدرسة ممتلئًا بمجموعات من الفتيان يسيرون وهم يردِّدون: «هوب، هوب! هوب، هوب! إلى اليمين دُر! إلى اليسار دُر!» وبالرغم من أنهم كانوا يتعثَّرون ويدوسون بعضُهم على

أقدام بعض، كانوا يحافظون على تلك النظرة المتجهِّمة على وجوههم الشابة. وسرعان ما حصَلوا على الزي العسكري، وانطبق الأمر كذلك على الفتيات اللواتي انضمَمن إلى فيلق تدريب الممرِّضات. وكان الفتيان والفتيات يلتقون في اجتماعات المدرسة ويُغنُّون الأغاني الوطنية بحماسة.

أجل، كانت حربًا حقيقية! كانت أساطيل كاملة من سفن الشحن تنقل الإمدادات إلى إنجلترا وفرنسا، وفرقًا من المهندسين والعمال لتمهيد الطريق للجيش. وكان الرئيس يلقي خطبًا رائعة، تتسم بالحماس والبلاغة. ظهرَت جماعة من الرجال الأشرار، يُدعَون الهون، وكانوا يهدِّدون الحضارة؛ ولذا كان على أمريكا الديمقراطية استخدام قوَّتها للقضاء عليهم. وبمجرد إنجاز هذه المهمة، ستنتهي جميع مشاكل العالم؛ لذلك كان واجبًا على كل وطني أن يشارك في هذه الحرب التي ستكون آخر الحروب، الحرب التي كانت تهدف إلى الدفاع عن الديمقراطية وإنهاء الحرب الدائرة. ردَّد السياسيون المخضرمون وقليلو الخبرة هذه الفكرة، ونشرَتْها الصحف في ملايين من النسخ كل ساعة، وتدرَّب العديد من «الرجال المتطوعين لإلقاء خطبٍ قصيرة لا تتعدى الدقائق الأربع» على الذهاب إلى المصانع والمسارح، وحيثما كانت الحشود تتجمع، لحثِّ أمريكا على خوض هذه الحرب الهادفة.

قرأ أفراد عائلة روس، مثل جميع العائلات الأخرى، ما يُكتب حول هذا الأمر واستمعوا إلى ما يُقال وتجادلوا بشأنه. وكان باني، الشاب المثالي، يصدِّق كل ما تنشُره هذه الدعاية؛ فقد كان هذا بالضبط ما أراد تصديقه؛ لأنه كان يتماشى مع أفكاره. ودارت المناقشات بينه وبين والده اللطيف المتأني الشكَّاك بحذَر. وكان الأب يرى أن الفوز بالحرب أمرٌ حتمي، طالما أصبحنا طرفًا فيها. ولكن فيما يتعلق بالمستقبل، فليس علينا أن نشغل بالنا بالتفكير فيه الآن. فقد كان الأب منشغلًا أولًا بتسوية الإضراب، وبعد ذلك ببيع النفط في سوقٍ ترتفع فيها الأسعار باستمرار. فلم يكن هناك أي معنًى لبيع النفط بثمنٍ بخس، في الوقت الذي أرادت فيه الحكومة حفر المزيد من الآبار؛ فكيف سيحصلون على التمويل اللازم، ما لم يُبَع المنتج؟ كانت الحكومة تدفع بسخاء، واعتبر الأب ذلك الفعل أمرًا في غاية الوطنية؛ ولذا كان يهتم بحفر آباره، ويترك الخطب الحماسية للسياسيين.

اعتبرَت العمة إيما التحدُّث مع صبي بهذه الطريقة أمرًا مخزيًا، ووبَّخَت الأب بشدة، مستغلةً كونها «زوجة أخيه». فقد كانت العمة إيما تذهب إلى النوادي، وتستمع إلى النساء الوطنيات اللاتي كن يلقين خطبًا عن الأطفال البلجيكيين الذين قُطِّعَت أيديهم، وعن مستودعات الذخيرة التي فجَّرها الجواسيس الألمان، وكانت تعود إلى المنزل وهي تشعر

بحميةٍ عسكرية. ولم تكن بيرتي أفضل حالًا؛ لأن صديقها الذي كان يصطحبها إلى حفلات الجاز كان عضوًا نشطًا في إحدى جمعيات الدفاع، وكان على درايةٍ بأسماء جميع العملاء الألمان في جنوب كاليفورنيا، وبمخطَّطاتهم الشريرة؛ لذلك كانت بيرتي مفعمةً بالكثير من التلميحات المبهَمة، وبشعور بمسئوليةٍ رهيبة.

لا يمكنك مطلقًا توقُّع كيفية تأثير هذا الحماس للحرب على كل شخص. على سبيل المثال، هل يمكن أن تتخيل أن سيدةً عجوزًا راقية تجاوزَت السبعين من العمر، نشأَت في مزرعة، ومعروفًا عنها عشقها للرسم بالزيت، تُفصِح بشكلٍ غير متوقع عن تعاطُفها مع جماعة الهون؟ هذا بالضبط ما حدث مع الجدَّة، التي أعلنَت أنها غير مهتمة على الإطلاق بهذه الحرب؛ فالألمان ليسوا أسوأ من أي طرفٍ آخر معني؛ فقد كانوا جميعًا ملطَّخين بالدماء، وكان الهدف من كل قصص الفظائع هذه ومن هُراء التجسس جَعْل الناس يكرهون العدو. لكن الجدة لن تضمر أي كراهية لأي شخص، بغَض النظر عن مدى غضب إيما وبيرتي وبقية أفراد العائلة؛ ولذا شرعَت في إظهار تحديها من خلال رسم لوحة لبعض الألمان يرتدون أزياءً تقليديةً قديمة، ويشربون الجعة من أقداحٍ كبيرةٍ ملوَّنة. وأرادت تعليق هذه اللوحة في غرفة الطعام، ونشب خلافٌ كبير، حيث حاولَت العمة إيما وبيرتي إقناع الأب بالحيلولة دون حدوث ذلك!

شكَّل كل هذا جزءًا من عملية تعليم باني؛ حيث كان يستمع ويتعلم. فقد تعلم من والده المسن الهادئ الحازم أن يبتسم بودٍّ ردًّا على نواقص الطبيعة البشرية، وأن يستمر في جمع الدولارات. كان لا بأس من خوض تلك المناقشات، ولكن في نهاية المطاف، ما كان سيضمن الانتصار في الحرب هو الرصاص والقذائف، التي لن تصل إلى ساحة المعركة إلا عن طريق وسائل النقل. وكان النفط الذي يخرجه الأب من الأرض يُستخدم في سير شاحناتٍ كبيرة تنقل الذخائر إلى الجبهة، وكان يُستخدم في سير أكبر وأسرع سفن شحن والمدمِّرات السريعة التي كانت تحميها، إلى جانب استخدامه في تشحيم الآلات في المصانع، وكان الطلب عليه في ازديادٍ مستمر. وبمجرد انتهاء الإضراب، شرع الأب في توقيع عقودٍ مع الحكومة، لحفر عشرات الآبار الجديدة في حقل بارادايس. الشيء الوحيد الذي كان يُزعجُه هو أنه لم يستطع مضاعفة عدد العقود والآبار إلى ثلاثة أمثال، وأن كبار التجار، الذين كانوا يسيطرون على البنوك، لن يسمحوا له بالحصول على ما يكفي من المال، على الأقل إذا لم يشاركهم ويتركهم يَجْنون معظم الأرباح. كانت تلك حربًا من نوعٍ مختلف،

حربًا تحدث في الديار، ولم يكن من المتوقع أن تنتهي بخطبٍ رئاسية. كان الأب يشرح ذلك لباني، باعتباره أحد الأسباب التي تحدُّ من «مثالية» رجل الأعمال!

٤

كانت الأوضاع آخذة في الانتعاش في بارادايس. وعاد جميع الرجال إلى العمل، حتى المدرَجون على القائمة السوداء، وحصَلوا على دولارٍ إضافي في اليوم ووُعِدوا بالحصول على زيادةٍ أخرى؛ فعامل الحفر الجيد كان يستحق وزنه ذهبًا. وعاد أيضًا «خطباء الدقائق الأربع» الذين كان يسعَد الجميع بالإصغاء إليهم؛ فقد كان عمال النفط وطنيين، وكانوا مستعدين للانضمام إلى الجيش، لولا أن الحاجة كانت ماسةً إليهم في هذه الوظيفة؛ فقد أصبح إنتاج النفط أهم شيء على الإطلاق، وكانت أفضل طريقة يمكنهم بها خدمة بلدهم هي الحفاظ على تدفُّقه، وتوخِّي الحذر من الحرائق والعوائق التي تسقُط في الآبار، وأعمال التخريب الأخرى التي تُنفذ على يد عملاء العدو.

عاد بول ليعمل رئيس البنَّائين لدى الأب. ولكن بعد ذلك جاءت مرحلة التجنيد الأولى، وكان بول من ضمن المختارين. عرض الأب عليه أن يجعله يحصُل على إعفاء من الخدمة؛ لأنه كان يحتاجه في بناء أكواخ لإيواء الرجال الذين كانوا سيحفرون الآبار الجديدة ويُشغِّلونها. وكان الأب يملك النفوذ لتدبُّر هذه الأمور، ويمكنك فهم ما يعنيه ذلك عندما تعلم أن رئيس مجلس الإعفاء كان السيد كاري، صاحب المزرعة الذي قَبِل المال من الأب لبناء الطريق لبدء الحفر. لكن بول رفض ذلك؛ فقد كان هناك رجالٌ متزوجون ولديهم عائلات يعرفون الكثير عن بناء المنازل مثله؛ ولذلك كان على بول القيام بدوره في هذه الحرب.

استعاد بول وباني صداقتَهما، ومناقشاتِهما التي لا تنتهي. لم يكن بول متحمسًا للحرب بقَدْر ما كان باني، ومع اتفاقه معه على مبدأ ضرورة الانتصار في الحرب ما دمنا قد أصبحنا طرفًا فيها، لم يكن واثقًا من ضرورة المشاركة في هذه الحرب؛ ولذلك كان على باني أن يعيد سرد النقاشات التي سمعها من الخطباء في المدرسة. خلق ذلك أجواءً مفعمة بالحيوية في كابينة آل راسكوم؛ لأن روث، وهو أمر قد يبدو غريبًا، كانت تتبنَّى نفس موقف الجدة من الحرب، على الرغم من أنهما لم تتقابلا مطلقًا. وأعلنَت روث أن جميع الحروب شر، وأنها لن يكون لها أيُّ دور في أيٍّ منها. لكن بالطبع كان يمكن فهم ما كانت حقًّا تعنيه؛ فهي لم تكن تريد بول أن يذهب إلى أرض المعركة ويلقى حتفه!

فعندما علم بول أنه من ضمن المُستدعَين في قائمة مرحلة التجنيد الأولى، أصاب روث فزعٌ شديد، ولم يفلح شيءٌ في تهدئتها. وكانت تتشبث ببول، وتطلب منه عدم الذهاب وإلا فستموت من الحزن إن فعل، وعندما أدركت أنه ذاهبٌ لا محالة، عادت إلى مهامها، بوجهٍ شاحبٍ وفمٍ مُطبَق.

غادر بول إلى أحد معسكَرات التدريب، ومنذ ذلك الحين أصبح الشحوب والصمت مهيمنَين على شخصية روث. وعادت إلى منزل والدها لتبيت تلك الليلة، وهو ما كان يعني أن عليها أن تذهب إلى الكنيسة معهم يوم الأحد، وتجلس وتستمع رغمًا عنها إلى عظاتِ إيلاي. فإيلاي كان نبيًّا على نهج أنبياء العهد القديم، وكان يدين أعداء الرب ويدعو إلى ضربهم على سيقانهم وأفخاذهم، وألَّا يُترك أحدٌ من «أبناء الشيطان» على قيد الحياة، ولا حتى صغارهم. ولم يكن على إيلاي، كونه واعظًا، تولِّي عملية القَتْل هذه بنفسه، وكذلك كان الحال مع أخته ميلي، التي حلَّت مشكلة الحرب فيما يخُصُّها بأن تزوَّجَت من شاب يعمل في أحد أبراج الحفر، وطلبَت من الأب أن يجعله رئيس عمالٍ ليكون لزامًا أن يبقى في الديار. وأخبرَت ميلي، تلك الفتاة الشابة الثرثارة المفعمة بالطاقة، باني أن روث ينبغي عليها أن تبحث عن زوجٍ لها بدلًا من الحزن على بول، وربما سيأتي اليوم الذي يرغب فيه باني في أن يُعفى من التجنيد في الجيش، وقد يحلُّ كلاهما المشكلة في الوقت ذاته!

٥

كان ذلك الصيف مليئًا بالأحداث المثيرة في حياة باني، بين حماسه للحرب والنشوة التي كان يشعر بها مع يونيس. وقضى وقتًا طويلًا في بيتش سيتي متعللًا بالعمل العسكري، وبسبب إلحاح يونيس الشديد على تنفيذ مطالبها. وبالفعل، حدث أول خلافٍ في علاقتهما السعيدة بسبب إصراره على زيارة بارادايس؛ حيث لم يكن بوسع يونيس الذهاب معه. واستعارت عبارة بيرتي وأطلقَت على باني لقب «صبي النفط الصغير». وكانت تُجادله قائلة: «لماذا تريد هذا القَدْر من المال؟ يا إلهي، دعني أحصل على بعض المال من أبي، إذا كنتَ بحاجةٍ إليه!» يبدو أن تومي هويت كان قد حقَّق أرباحًا كبيرة، بشراء سفنِ شحنٍ قديمة في المرفأ قبل دخول البلاد الحرب، وذُكِر أن صافي أرباحه وصل إلى ثلاثة ملايين دولار. نشرَت الصحف الكثير من الأخبار حول هذا الموضوع، من منطلَق الإطراء على هذا النجاح، حيث كان الجميع يتطلع إلى تحقيق هذا المجد.

كيف يمكن لباني أن يشرح أن الأمر لم يكن متعلقًا بالمال، ولكن بأن البلاد كانت بحاجة إلى النفط، وأنه يريد أن يؤدي دوره، كان هذا الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا يتمتع بجديةٍ خارقة للطبيعة. ولذا تحجَّج بالأب، وقال إنه لم يكن على ما يُرام وكان بحاجة إلى ابنه، وهكذا تطوَّر الأمر إلى المعضلة التالية: من الذي كان يحظى باهتمام باني أكثر من غيره، والده أم حبيبته؟ أمسكَت يونيس بكتفَيه وهزَّتْه؛ فقد كانت بحاجة إلى شخصٍ ما ليصطحبها إلى حفلة رقص، وإذا ذهب ودفن نفسه في الصحراء، فستحصل على رفيقٍ آخر.

كانت لا تكُف عن البحث بشراهة عن المتعة، وكانت تفتقر إلى معرفة متى عليها أن تتوقف، مهما كان الأمر المَعني. فكانت تطلب متوسلة: «فلنحظَ برقصةٍ أخرى! واحدة فقط!» وبعد ذلك تكون قبلة واحدة أو شراب واحد. كانت تستجدي باني دائمًا ليشرب، وتتجرح مشاعرها إذا رفض. كان وعدُه لوالده أهمَّ عنده بكثير من وعده بأن يكون رفيقها. وكذلك لم يكن يستمتع بالخروج مع رفاقِها؛ لأنه كان يشعر بأنه يفسد عليهم مُتعتَهم.

وسرعان ما سئمَت يونيس من التواجد بين الكثبان الرملية ومشاركة علاقتهما السرية مع القمر. وانجذبَت إلى الأضواء الساطعة وإنفاق ثروة والدها المفاجئة ببذخ واستهتار. فكانا ينطلقان إلى مدينة إنجِل سيتي؛ حيث الفنادق العصرية وغرف الطعام الفخمة، وعازفو موسيقى الجاز، وحشودٌ من المعربدين الذين كانوا يحتفلون بتوقيع عقودٍ جديدة، وتحقيق إنجازاتٍ ماليةٍ جديدة. كانت الغرف مزينةً بأعلام جميع الحلفاء، وكان الرجال يرتدون أزياءً عسكرية مختلفة. كان هذا ما تعنيه الحرب ليونيس، أن تكون وسط هذه الحشود المبهِرة، وتقف أثناء عزف الفرقة الموسيقية للنشيد الوطني الأمريكي، وبعد ذلك ترقص طوال الليل على أغنية «قبلني، حبيبي»، أو أي ألحانٍ رومانسية قد يعزفها الساكسفون بشكلٍ ارتجالي. كانت ترقص بحيوية، وتتشبَّث بشريكها، حتى يصبحا جسدًا واحدًا. لم يكن باني يرى أن من اللائق التصرُّف بهذا الشكل في الأماكن العامة، لكن كان هذا هو السلوك السائد في ذلك الوقت، ولم ينتبه أحدٌ إليهما، خاصةً مع مرور الوقت وبَدْء ظهور تأثير الخمور.

كان إخراج يونيس من هذه الأماكن وما فيها من إثارةٍ يشكل مشكلةً دائمًا. فهي لم ترغب مطلقًا في الرحيل، حتى عندما كانت منهكة؛ ولذا كان يجعلها تتكئ عليه وتنام على كتفه في طريقهما إلى المنزل، وكان هذا كل ما يمكنه فعله لمنع نفسه من النوم

أثناء القيادة. فقد كان هناك صبيٌّ في جماعتهم سيُضطَر إلى العيش بأنفٍ مكسور طوال حياته؛ لأنه غفا على عجلة القيادة في شارعٍ مزدحم، وكان آخَر قد أمضى عشرة أيام في السجن؛ لأن الشرطة شمَّت رائحة خمور في أنفاسه بعد تعرُّضه لحادث. وكان من آداب الحفلات أن على الرجل الذي يقود سيارته أن يشرب الجن فقط، ليس لأنه لن يجعلَه يثمل، ولكن لأنه لم يكن يترك رائحةً في أنفاسه!

جاء الوقت الذي قرَّرَت فيه يونيس أن من السخف القيادة لكل هذه المسافة الطويلة إلى بيتش سيتي بعد الرقص. وعثَرَت على فندقٍ يمكن الحجز فيه باسم السيد والسيدة سميث من سان فرانسيسكو، دون أن يسأل أَحدٌ أي أسئلة، وكان الدفع مقدمًا؛ بسبب عدم وجود أمتعة، وفي الصباح كانا يتسللان إلى خارج الفندق، كلٌّ على حدة، دون أن يلاحظهما أحد. كل ما كان عليهما فعله هو إخبار أهلهما في المنزل أنهما قد قضيا الليلة مع أحد الأصدقاء؛ ولن يتحقَّقوا من صحة هذا الأمر؛ خوفًا مما قد يكتشفونه.

أحدث كل هذا تغييرًا كبيرًا في حياة باني، وسرعان ما بدأ يظهر ذلك على مظهره؛ فلم يعد خداه متوردَين، وقد لاحظ الأب ذلك، وعلى الفور تخلص من شعوره بالحرج من التحدُّث معه في هذا الشأن. وقال: «أنت تتصرف برعونة، يا بني، يجب أن تتوقف عن الرجوع إلى المنزل في هذه الساعات المتأخرة.» لذلك كان باني يحاول التهرُّب من الذهاب إلى بعض حفلات الرقص، وكانت يونيس تندفع بين ذراعَيه، وتبكي، وتتشبث به، وتحتضنه بتلك الطريقة الرهيبة، المذهلة التي كانت تتميز بها؛ حيث كانت تجعل كل حواس باني تشعر بها، وبرائحة العطر الهادئ الذي كانت تضعه، وملمس الملابس الرقيقة التي كانت ترتديها، وشعرها المسترسل، وقُبلاتها المثيرة السريعة المتواصلة. وكان عليه أن يُجادلها ويتوسَّل إليها، محاولًا الحفاظ على صوابه بالرغم من اضطراب مشاعره.

أحيانًا كان الشعور بالحرج يختلط بمشاعرَ أخرى؛ لأن هذه المواقف كانت تحدث في قاعة الاستقبال بمنزل آل هويت، بحضور أيٍّ من الوالدين. ولكن ماذا يمكن أن يفعلا؟ فقد ساعدا في تنشئة هذه الفتاة الجامحة، موفرَين لها كل شيء في العالم، وحاشية من الخدم للسهر على راحتها، وتلبية كل نزواتها. كانت دائمًا تحصل على ما تريده، والآن تريد حبيبها، ولم تجرؤ السيدة هويت المسكينة على قول شيءٍ سوى «لا تكن قاسيَ القلب يا باني»، وكأنها كانت تلومُه على نوبات الغضب التي كانت تنتاب ابنتَها في حضورها! أما «تومي» المسكين، فعندما شهد واحدةً من نوبات الغضب، ظهَر الذعر على وجهه الوردي ذي الملامح الطفولية، واستدار ورحل مسرعًا. فقد كان لديه ما يكفيه من مشاكله

الخاصة، وفي المرة التالية التي التقى فيها باني، أوضح له وجهة نظره في جملةٍ واحدة قائلًا: «لا تُوجَد في العالم كله امرأةٌ عادية!»

٦

قبل استئناف الدراسة بقليل، انتهز باني الفرصة وذهب إلى بارادايس لقضاء أسبوع مع والده، ووجد بول هناك يقضي هو الآخر إجازة لمدة ثلاثة أيام. يبدو أن بول لن يُرسل إلى خارج البلاد؛ فقد جعله الجيش يعمل بوظيفته القديمة وأصبح مسئولًا عن بناء الثكنات، الآن فقط، وبدلًا من الحصول على عشرة دولارات في اليوم، كان يحصل على ثلاثين دولارًا شهريًّا بالإضافة إلى «الفاصوليا». كان هذا هو ثمَن الوطنية الذي كان على العامل دفعه! وكان هذا الثمن يتناقض تناقُضًا كبيرًا مع الـ «ثلاثة ملايين» دولار التي حصَل عليها تومي هويت، والمائة والعشرين ألفًا التي كان الأب يحصل عليها أسبوعيًّا من عقود النفط! لكن لم يفكِّر أحد في ذلك، بسبب بلاغة خُطب الرئيس، والحماسة الشديدة لخطباء الدقائق الأربع.

بدا بول ضخمًا وقويًّا بزيه الكاكي، وكانت روث سعيدة، لأنه لن يُقتَل. وكانت ميلي فرحة بحملها، وسادي مغتبطة «لمرافقتها» صاحب مزرعةٍ شابًّا. وكان الأب مسرورًا، لأنه حفر بئرًا أخرى غزيرة الإنتاج، وأثبت أن هناك نفطًا في منحدر جديد تمامًا بأرض بارادايس، وكان بصدد بناء خطوط أنابيب والاستعداد لتحقيق تطور هائل، ولم يتمكن المصرفيون من منعه؛ لأنه كان يستخدم أمواله الخاصة لتنفيذ هذا الأمر!

كان الجميع سعداء باستثناء باني، الذي لم يكن يفكِّر إلا في أن يونيس كانت غاضبة، وأنه كان يُخاطِر بخسارتها. لقد حذَّرَته من التخلي عنها، وإن هجرها فستنتقم منه. كان يعلم أنها تعني كل كلمة تقولها؛ فقد كان لها عشَّاقٌ قبله، وستحظى بآخرين بعده. كانت هذه «الملاطفة» ضرورةً يومية لها، ولم تستطِع الفتاة الحصول عليها إلا إذا كانت على استعداد لـ «تجاوز الحد». كانت تلك هي القواعد المتعارف عليها بين هذه الفئة من الشباب المتميزين بالأناقة والروعة؛ حيث كان يخرج شبان المدارس الثانوية الأثرياء في ثنائيات في سياراتهم الرياضية الفاخرة، للتعرف على الفتيات وتوصيلهن بالسيارة، وإذا لم تذعن الفتيات لرغباتهم، يتركونهن على الطريق، في أي مكان، على بعد عشرات الأميال من البلدة. وكانت هناك صيغةٌ قصيرة ومقتضَبة تعبِّر عن هذا الأمر؛ هي «الملاطفة أو السير!»

خرج باني للسير لمسافةٍ طويلة، محاولًا التخلص مما كان يشعُر به من اضطراباتٍ قاسية. كان من المفترض أن يخلُد للنوم بمجرد عودته، لكنه كان يفكِّر في يونيس، وكانت حواسُّه تستعيد مشاعر النشوة المتعددة؛ فقد كان فكره مشغولًا بكل محاولاتها لإغرائه وهجرانه. ولأكثر من مرة حاول باني بتردُّد أن يخبر بول بالأمر؛ فبول كان عنده في منزلة إله، بما يمثِّله من قوةٍ أخلاقيةٍ راسخةٍ جديرة بالثقة، يمكن للمرء الفِرار إليها. تذكَّر باني حديث بول بازدراء عن «الزنا»؛ لم يكن باني حينئذٍ يعرف تمامًا ما كان يقصده، لكنه، للأسف، كان الآن يعي كل شيء جيدًا. وحاول الاعتراف لكنه خجِل ولم يستطع كسر الحواجز. وبدلًا من ذلك، اختلق الأعذار لوالده وعاد إلى بيتش سيتي، قبل ثلاثة أيام من الموعد الذي كان ينوي العودة فيه، وطوال الطريق كان يسمع صوت بول وهو يقول له تلك الكلمات القاسية التي قالها له في أيام الإضراب: «أنت ليِّن العريكة، يا باني، ليِّن العريكة.»

٧

تساقَط المطر للمرة الأولى في هذا الموسم، مما جعل باني يصل متأخرًا إلى حدٍّ ما، ووجد أن يونيس كانت في المنزل، ولم تكن قد نفَّذَت تهديدَها بالحصول على حبيبٍ آخر. بل كانت تُحاوِل إجراء تجربةٍ قرأَت عنها في أحد كتب والدتها، شيء يسمى «التخاطر الذهني»؛ حيث تجلس وتُغمِض عينَيك و«تركِّز» «راغبًا» في أن يفعل شخصٌ ما شيئًا ما، وعندئذٍ ينفِّذ الشخص هذا الأمر، فتثبت صحة مبدأ «الفكر الجديد». كانت يونيس تُحاوِل فعل ذلك، وعندما سمعَت وقع خطوات باني على الشرفة، نهضَت وهي تصرخ في فرح واندفعَت بين ذراعَيه، وبينما كانت تخنقه بقبلاتها، أخبرَتْه عن هذا الانتصار الرائع لعلم النفس التجريبي. «باني، كنتُ أعرف أنك لا يمكن أن تكون شديد القسوة معي! كنتُ أعلم أنك ستأتي؛ لأنني بمفردي تمامًا؛ فقد ذهبَت أمي لجمع الأموال لأيتام صربيا. أوه، تعالَ يا باني!» وبدأَت تجذبه نحو الدَّرَج.

لم يَرَ باني أن هذا أمرٌ مقبول، وحاول التراجع، لكنها قابلَت مقاومته بمزيد من القبلات الخانقة. «أيها الفتى السخيف، هل تريد الخروج وإيقاف السيارة تحت المطر؟ أم تريد الذهاب إلى أحد الفنادق هنا في البلدة، حيث يعرفنا الجميع؟»

«ولكن، والدتك، يا يونيس ...»

قالت يونيس: «والدتي، هُراء! والدتي لها عشيق وأنا أعلم ذلك، وهي تعلم أنني أعلم. وإذا لم تكن تعلم بأمر علاقتنا، فقد حان الوقت لأن تبدأ في الشك. لذلك تعالَ معي إلى غرفتي.»

«ولكن كيف سأخرج يا يونيس؟»

«ستخرج عندما أسمح لك بذلك، وربما يكون ذلك في الصباح، وحينئذٍ ستحظى بكرم الضيافة.»

«لكن، يا يونيس، لم أسمع بشيءٍ من هذا القبيل!»

«باني، أنت تتحدث مثل جدتك!»

«ولكن ماذا عن الخدَم يا عزيزتي؟»

قالت يونيس: «الخدم، فليذهبوا إلى الجحيم! يمكنك إدارة أمور منزلك بالطريقة التي تُرضي بها الخدم، ولكن هذا ليس نهجنا، على الأقل، ليس الليلة!» وأثناء نقل يونيس الخبر إلى والدتها، أبقت باني في غرفتها في الصباح حتى لا يشعُر بأي إحراج، وحتى لا يطلع على أي آلامٍ نفسية قد تتعرض لها يونيس؛ فنصيرة الأيتام الصربيين كانت تُفطر في السرير، وتقرأ في صحيفة الصباح خبرًا عن أعمالها الخيرية الذائعة الصيت.

بعد ذلك، توطَّدَت العلاقة؛ فكما يقول الفرنسيون، الخطوة الأولى هي أهم خطوة، بالرغم من أنه من غير المؤكد أن يُضطَر أي ولي أمر في المجتمع الفرنسي المحافظ إلى اتخاذ خطوةٍ كبيرة جدًّا كهذه. استمر موسم الأمطار، مما جعل نزهات الملاطفة في الهواء الطلق غير مريحة؛ لذلك كان باني يبقى في منزل يونيس كلما أمرَتْه بذلك، وكان كل شيءٍ مألوفًا وعاديًّا وفقًا للمعايير الحديثة المتقدمة. في الواقع، لم يتبقَّ سوى تفصيلةٍ واحدة، وبالفعل اقترحَها باني قائلًا: «يونيس، ما الذي يمنعنا من الزواج وإنهاء هذا الأمر؟»

فوجئ بشدة من رد فعل الفتاة. «أوه، باني، نحن نستمتع بوقتنا، لماذا تريد أن تُدمِّر سعادتنا؟»

«لكن لماذا سيُدمِّر الزواج سعادتنا؟»

«كل المتزوجين بائسون. أعرف ذلك من ملاحظتي لهم. إن أمي وأبي مستعدان لدفع مليون دولار — حسنًا، ربما ليس كل هذا المبلغ ولكن بالتأكيد بضع مئات من آلاف الدولارات — إن استطاعا أن ينفصلا دون الاضطرار إلى خوض نزاعاتٍ قضائية، ودون الأشياء الفظيعة التي ستنشُرها الصحف عنهما، بالإضافة إلى صورهما وكل شيء.»

«لكننا لن نُضطَر إلى فعل ذلك يا عزيزتي.»

«كيف تعرف أننا لن نفعل ذلك؟ إذا تزوجنا، فستشعُر أنكَ تمتلكُني، وحينئذٍ لن تفعل ما أطلبه منك بعد الآن؛ الأمر الذي سيتسبَّب في تعاستي. أوه، دعنا نفعل ما نريد، وليس ما يُحاوِل الآخرون إجبارنا على فعله. فطَوال حياتي، كان الناس يُجبرونني على فعل أشياء، وكنتُ أقاومهم، حتى أنت، يا باني-الحنون.» كانت تُطلِق عليه العديد من الأسماء، لأن اسمه، كما يمكنك أن تلاحظ، كان يتكيف مع أغراض نزهات الملاطفة، وكانت هناك رقصةٌ شائعة في ذلك الوقت اسمها «باني هج» (أي حضن الأرنب).

عندما تتجول في هذا المجتمع المزدهر العصري، سيبدو كل شيء ظاهريًّا لائقًا وسليمًا، ومتناسبًا مع أعراف الزواج المنصوص عليها في القوانين وتدعو إليها الكنائس. ولكن عند تخطِّي هذه المظاهر والغوص في أعماق المجتمع، سواء الغني أو الفقير، ستجد أن البشر قد توصَّلوا إلى مفاهيمَ خاصة، بسبب شعورهم بالتعاسة. فالأزواج والزوجات انفصلوا بعضُهم عن بعض، وتبادَلوا الشركاء، وجلبوا إلى منازلهم أصدقاءهم، الذين حلُّوا في الواقع محل الأزواج أو الزوجات، وكان هناك رفقاء وسكرتيرات ومربيات وبنات عمومة يلعبن هذه الأدوار، وعندما كان الأطفال يكتشفون ذلك، كانوا في وضع يسمح لهم بالضغط على والدَيهم، وهو نوع من الابتزاز العائلي غير الرسمي، وهو أمرٌ جيد للحصول على سيارات ومعاطف فرو وسلاسل من اللؤلؤ، والأهم من ذلك كله، أن يكون لك الحق في التصرُّف وفقًا لطريقتك الخاصة.

٨

في بداية العام، بينما كانت أمريكا تدخل الحرب، أطاح الروس بقيصرهم وأقاموا جمهورية. وقد أسعد ذلك الخبر معظم الناس في أمريكا؛ فقد كان من الأفضل بكثير التحالف مع جمهورية. لكن الآن، في الخريف، وقع حدثٌ مرعب؛ فقد اندلعَت ثورةٌ أخرى، ولكن هذه المرة لم تكن من صنع العلماء المحترمين ورجال الأعمال، بل المتعصبين الهائجين الذين يُطلق عليهم اسم «البلاشفة»، الذين شرَعُوا في مصادرة الممتلكات وتحطيم كل ما يقابلهم. وعلى الفور اتضَح للحلفاء مدى جسامة الكارثة التي سيتسبَّب هذا الموقف في حدوثها؛ فقد كانت روسيا على وشك التخلي عنهم، مما سيهيِّئ الظروف لاندفاع القوات الألمانية في الشرق لمواجهة الجبهة الغربية شبه المُستنزَفة. وبالفعل كانت الجيوش الروسية تتفكَّك، وكان الجنود يفرُّون بالجملة ويعودون إلى مدنهم أو قراهم، وفي الوقت ذاته بدأ قادة الحكومة الجديدة في تنفيذ دعايةٍ عالمية تهاجم الحلفاء وأهدافهم من هذه الحرب.

من كان هؤلاء القادة؟ كان يكفي أمريكا ملاحظة أن الحكومة الألمانية قد نقلَت مجموعة منهم، كانت مختبئةً في سويسرا، في قطارٍ مغلق عَبْر ألمانيا حتى وصلَت إلى روسيا بهدف إثارة كل ما في وسعها من مشاكل. كان هذا يعني أن لينين وجماعته كانوا عملاء مستأجرين للهون، وعندما شرعوا في مهاجمة ما أطلقوا عليه اسم «إمبريالية الحلفاء»، كان الأمر كما لو كانوا يتبنَّون نفس أفكار الإمبراطور الألماني القيصر فيلهلم الثاني، وعندما نشَروا المعاهدات السرية للحلفاء، المأخوذة من سِجلات القيصر، رفضَت الصحف في أمريكا الوثائق باعتبارها مزورة تزويرًا واضحًا.

صدق الأب، بوصفه مواطنًا أمريكيًّا صالحًا، ما تقوله صحفه. واعتبر أن هذه «الثورة البلشفية» كانت أفظع حدثٍ وقع في العالم طَوال حياته، وكان وجهُه يصبح شاحبًا وهو يتحدث إلى باني عنها. لم تتمكن أمريكا من إرسال أي جيوشٍ إلى فرنسا حتى الربيع المقبل، وربما حتى الخريف، وفي غضون ذلك كان لدى الألمان مليون رجلٍ يمكنهم نقلهم بضعَ مئاتٍ من الأميال فقط عَبْر بلادهم إلى الجبهة الغربية، وكانوا سيقضون على القوات البريطانية والفرنسية، ويستولون على باريس، وربما فرنسا بأكملها، حينئذٍ سيتعيَّن أن نتولَّى مهمة طردهم مرةً أخرى. كان عبء الحرب يقع كله الآن على عاتق أمريكا، وسيستمر ذلك الوضع لسنواتٍ طِوال، ولن يعيش أيٌّ من الأب أو باني حتى يرى نهاية هذه الحرب.

كان الأب يقرأ فقراتٍ من الصحف، وتفاصيلَ عن الفظائع التي كانت تحدث في روسيا؛ حيث ذُبِح حرفيًّا ملايين الأشخاص، الذين كانوا جميعًا من المتعلمين والمستنيرين، وتعرَّضوا لأبشع أنواع التعذيب، وأعمالٍ شائنة لا يمكن ذكرها في الصحف. وسرعان ما بدءوا في تطبيق نظرياتهم الشيوعية على نساء البلد، اللائي وقعْنَ تحت وطأة «التأميم» وتحوَّلْنَ إلى ملكيةٍ عامةٍ بموجب مرسومٍ رسمي، وكان «المفوَّضون» يغتصبونهن بالجملة. كان لينين يدبِّر لمقتل تروتسكي، بينما كان تروتسكي يحتجز لينين في السجن. لقد كان غليانًا يندلع من أعماق المجتمع، وحشية لم نكن نحلم يومًا بوجودها في الطبيعة البشرية. استطاع باني الآن أن يرى مدى حماقة تلك «المثالية» التي كان يثرثر بها، وفكرته عن تحقيق مطالب المضربين، وتولية مجموعة من الغوغاء شئون العمل. كان الآن يشهد نتيجةَ تجربةِ هذا الاقتراح عمليًّا، وبإمكانه أن يقرِّر مدى إعجابه بالنتيجة. تعيَّن على باني أن يعترف بأنه لم يعجب بالنتيجة على الإطلاق، وأنه قد أفاق من أحلامه التي تحطمت.

كان باني يشعر بتحدٍّ داخلي؛ لأنه كان عليه أن يؤدي واجبه في هذه الأزمة العالمية. كانت هذه هي سنته الأخيرة في المدرسة، وبعدها سيصبح عمره مناسبًا للتجنيد؛ فماذا

سيفعل؟ أجرى مع والده محادثةً جادةً لمناقشة هذا الأمر. وارتأى الأب أن لديه ما يكفي من المسئوليات التي تُعطيه الحق في تلقي المساعدة من ابنه الوحيد، وكان يرى أنه لن يكون متقاعسًا عن تأدية الواجب، إذا طلب من السيد كاري إعفاء باني من الجيش للعمل في مجال النفط. لكن باني أصَر على أنه يجب أن يذهب إلى الجبهة، حتى إنه تحدَّث عن ترك المدرسة في الحال والتطوع في الجيش، كما فعل عددٌ من الفتيان الآخرين. اتفقا أخيرًا على حلٍّ وسط؛ هو الانتظار حتى يُكمِل باني دراسته، ثم يقرِّرا وفقًا لتطوُّر الأحداث. لكن في غضون ذلك، كان على باني الالتزام بواجبه تجاه بلده، وكذلك تجاه نفسه؛ حيث كان ينبغي أن يُوليَ دراسته مزيدًا من الوقت، وأن يقلِّل من وقت اللهو. فإذا كان الشاب يعي حقًّا هذه الأزمة العالمية، فإنه بالتأكيد سيتفانى في أي عملٍ كان يؤديه، ولن يُضيع نفسه بالانغماس في الملذات. احمرَّ وجه باني وأطرَق خجلًا، وقال إنه يرى أن هذا صحيح، وأنه سيُقوِّم سلوكه في المستقبل.

٩

ذهب إلى يونيس وهو في غاية الجدية، ليشرح لها أن عبء مهمة إنقاذ الحضارة قد وقَع على عاتقهم. وافقَته الرأي، وأخبرته أنها تدرك ذلك؛ فقد حظيَت بمحادثةٍ جادة مع والدتها، التي أوضحَت أنه في الفترة القادمة سيكون هناك نقصٌ في الطعام وجميع الأشياء الأخرى؛ نتيجةً للحرب واحتياجات حلفائنا. وقرَّرَت سيدات النادي القيام بواجبهن، فلن يشترين إلا أغلى أنواع الطعام؛ بحيث يتركْنَ الشحم والملفوف والبطاطس للفقراء، وتبرَّعَت السيدة هويت بكل ملابسها لمنظمة جيش الخلاص، وأنفقَت مبلغًا كبيرًا لشراء مجموعةٍ كاملة من أغلى الملابس التي تمكَّنَت من العثور عليها. كانت يونيس بالطبع مستعدةً تمامًا لاستخدام الكماليات الغالية الثمن فقط، لكنها وجدَت الأمر محيرًا بعض الشيء؛ لأن عمتها أليس اتخذَت موقفًا معاكسًا تمامًا، واشتَرَت الكثير من الأشياء الرخيصة، من أجل أن تكون قدوةً للطبقات العاملة. فيا ترى أي نهجٍ كان باني يراه صائبًا؟

لكن هذه الجدية لم تدُم طويلًا مع يونيس. فبعد يومَين دُعِيَت لحفلٍ من أجل الأيتام البلجيكيين، وعندما أصَر باني على أنه بحاجةٍ إلى التركيز على دراسته، هدَّدَت بالذهاب مع بيلي تشالمرز، القائد الوسيم لفريق كرة القدم العام الماضي؛ حيث لم يكن هناك فريقٌ هذا العام. لم يُعارِضها باني، وهكذا تباهَت يونيس ببيلي أمام المدرسة بأكملها، وسرَت شائعاتٌ بأنه كان يُوقِف سيارته وهي بصحبته، مما جعل باني يشعر بإهانةٍ شديدة.

استمر هذا الوضع لأسبوعٍ أو اثنَين، حتى فاقت آلامُ قلب باني تحمُّلَه. جاءت إحدى ليالي السبت، وكان الأب قد اتفق معه على أنه لا ضير من الذهاب إلى الرقص مرةً واحدة في الأسبوع؛ لذلك اتصل بيونيس هاتفيًّا، و«تصالحا» وسط نوبةٍ من العواطف الجيَّاشة والدموع، واعترفَت له أنها لم تحبَّ أي شخصٍ حقًّا سوى باني الحنون، وسألَته كيف أمكَنه أن يكون لئيمًا جدًّا لدرجة رفضِ تلبيةِ رغباتها.

ولكن بعد ذلك جاء عيد الميلاد، ورتَّب الأب الداهية المثابر سلسلةً من الإغراءات، تتضمَّن ديكًا روميًّا كبيرًا، ستتولى روث طَهْوه، وحفر بئرَين جديدتَين، فضلًا عن صيد السُّمانى فوق التلال عند غروب الشمس. وعده باني بالذهاب، وكان عليه الوفاء بوعده، وعندما علمَت يونيس بذلك الأمر، انتابَتْها واحدةٌ من أفظع نوبات غضبها، وأمسكَت بشعر باني وجرَّتْه عَبْر قاعة الاستقبال بمنزل والدتها؛ حيث كانت والدتُها تقف بلا حول ولا قوة، وأقسمَت بأن باني كان مخادعًا، وبائسًا، وأنها ستتصل ببيلي تشالمرز، وسينطلقان في رحلةٍ ممتعة بالسيارة في تلك الليلة بالذات، ولن يعودا حتى تنتهي عطلة عيد الميلاد وربما بعد ذلك.

ذهب باني إلى بارادايس، وفحَص البئرَين الجديدتَين، ورسومات خطوط الأنابيب الجديدة، و«تجهيزات» معمل التكرير المقترح، وتجوَّل فوق التلال مع الأب، واصطاد السُّمانى، وفي الليل رقد وحيدًا في سريره يتلوى في بؤس. بدا له أنه يتحول إلى رجلٍ كهل، بالتأكيد سيجد الشَّيب قد دبَّ في شعره في الصباح! كان يُعاني من اضطراباتٍ في النوم أكثر من الاضطرابات التي كان سيعاني منها لو كان قد اصطحَب يونيس إلى حفلات الرقص، ولم يعلم السبب وراء ذلك. كانوا يُعلِّمونه في المدرسة عن علم الأحياء وعن شعراء القرن التاسع عشر الإنجليز، ولكن كيف سيُساعِد ذلك في طرد الألمان من فرنسا؟ كانت يونيس ضعيفةً جدًّا وجميلة جدًّا، ولا بد أنها ستشعر بحزنٍ شديد! كانت مختلفةً عن الفتيات الأخريات، يصعب فهمها، ولن يعاملها الرفيق التالي جيدًا كما كان يفعل باني! علاوة على ذلك، فالعالم الذي كان يحاول التفريق بينهما هو نفس العالم الأعمى الغبي الذي كان يقتل ملايين البشر، ربما كانت الجدة على حق؛ فقد كان الأمر برمته مليئًا بالقسوة والفوضى، ولا يهمُّ ما تفعله ولا أي فريق يفوز.

في الصباح كان الأب يشرف على أعماله اليومية المضنية. كان الأب على الأقل جديرًا بالثقة، وكان لديه هدفٌ واضح. وإضافةً إلى ذلك، بدا أنه يعرف كل شيء عن باني دون إخباره بشيء؛ فقد كان لطيفًا ومتعاطفًا بطريقةٍ لبقة، دون أن يقول كلمةً واحدة، بل

كان يحاول الترفيه عن باني، واقتراح أنشطة يمكنهما ممارستها معًا. وعند التفكير في الأمر، ستجد أن الأب نفسه قد مرَّ بمواقف مثل هذه! وكان من شأن التحدث معه مباشرةً أن يكون ممتعًا، لكن كان من الممكن أن يتسبب ذلك في شعوره بالحرج. فكَّر باني في «الأم الصغيرة» التي لم يَرَها منذ أكثر من عام؛ حيث كانت قد ذهبَت إلى نيويورك، وكان باني يشُك في أن الأب قد وافق على زيادة المبلغ المخصَّص لها بشرط أن تبقى هناك. تمنَّى باني أن يتحدَّث معها عن يونيس، وأن يسألها عن رأيها في موضوع العشَّاق القابلين للمبادلة.

ثبت باني على موقفه، وعندما عاد إلى الديار، لم يذهب لمقابلة يونيس. فكلما كان يقابلها، كان قلبه ينبض بشدةٍ مؤلمة، لكنه كان يدور على عقبَيه ويمشي بضعة أميال لتجاوز الأمر. انتشر خبر انفصالهما للأبد بين فتيات «الزولو»، وبدأ العديد من الشابات الصغيرات المفعمات بالحيوية في التقرُّب من أمير النفط الشاب. لكن باني لم يلاحظهن؛ فقد كان قلبه ميتًا بداخله، وعاهَد نفسه على أنه لن ينظر إلى فتاةٍ أخرى أبدًا. كان بايرون أحد شعراء القرن التاسع عشر، وقد عثَر باني في قصائده الرومانسية على حالة انكسار القلب بالضبط التي تحدُث بين أفراد الطبقة الأرستقراطية، تلك الحالة التي تردَّد صداها بداخله. أما يونيس، فقد استمرَّت في الخروج في نزهات الملاطفة مع قائد فريق كرة القدم السابق، ويبدو أنها تمكَّنَت من الهروب من كل المصائب التي كان باني يخشى منها عليها.

الفصل التاسع

النصر

١

انتهى الفصل الدراسي الأول في فبراير، وأحرز باني نجاحًا معقولًا في امتحاناته، وجاءت بعد ذلك عطلةٌ قصيرة، وضع الأب خطةً رائعة لقضائها. لم يستطع منع نفسه من الشعور ببعض الضيق، خاصة مع وجود عائلة واتكينز في الأرض التي كان يكسب منها ملايين الدولارات، بالرغم من أنه لم يدفع مقابلها سوى ثلاثة آلاف وسبعمائة دولار. كان الأب يريد فعل شيءٍ حيال ذلك الأمر، لكنه كان يخشى من المبالغة؛ خوفًا من أنه قد «يُفسِدهم»، ويوحي لهم بفكرة أنه يدين لهم بالمزيد. ولذا اقترح الأب رحلةً عائلية؛ حيث كان سيصطحب باني وروث وميلي وسادي معه في السيارة الليموزين الكبيرة، ويستأجر سيارةً أخرى للسيد واتكينز العجوز وزوجته، وينطلق إلى المعسكر الذي كان يعمل فيه بول، لزيارته ورؤية الجيش الجديد قيد الإعداد. كانوا سيمكثون يومَين في فندقٍ قريب، لمشاهدة جميع المعالم، بما في ذلك اجتماعات إحياء الروح الدينية التي كان إيلاي يعقدها في خيمةٍ كبيرة بالقرب من المعسكر.

كانت الفتيات بالطبع متحمسات، ويشعُرْنَ بالسعادة. فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يقمْنَ فيها برحلةٍ طويلة بالسيارة طوال حياتهنَّ البسيطة. تحدَّث باني إلى روث، وطلب منها إقناع والدتها بأن تتحدث إلى زوجها، وتطلب منه أن يعدها ببذل قصارى جهده لإقناع الروح القدس بألَّا يرسل لهم أي رؤًى، أو يلهمهم بالدحرجة أو التحدُّث بألسنة حتى يصلوا إلى اجتماع المعسكر. في واقع الأمر، أعلن الروح القدس أخيرًا، من خلال إيلاي باعتباره نبيًّا للوحي الثالث، أن هذه الحركات الرياضية الملهَمة قد أدَّت الغرض منها ويتعيَّن وقفها. لم يُعطِهم أي مبرِّر لذلك، ولكن كانت هناك شائعاتٌ بأن الأثرياء الذين كانوا يدعمون إيلاي في حملاته الإنجيلية كانوا يحتجُّون على التدحرج، ولم

يرَوا لسماع خطاب رؤساء الملائكة أي معنًى للأذن البشرية. وكان من ضمن هؤلاء الأتباع قاضٍ بارز، وكان آخر مالكًا لسلسلة متاجر بقالة، وتولت زوجتاهما مسئولية تحسين آداب التعامل وقواعد اللغة لدى إيلاي، بإيضاح الفوارق البسيطة بين النطق الصحيح للمفردات، كما علمتاه كيفية ارتداء ملابسَ مناسبة وتناوُل الطعام بالشوكة والسكين؛ ولذلك كان إيلاي يتحول إلى رمزٍ ناجح في المجتمع.

كان الأمر أشبه بالذهاب لمشاهدة الحرب؛ حيث انتشرَت في هذه المدينة الرائعة المعسكرات المبنية من القماش والحديد المموَّج وألواح من الخشب الأحمر، تلك المعسكرات التي يبدو أنها بُنيَت بفعل تعويذة من كتاب ألف ليلة وليلة، وكانت المدينة تعجُّ بشبانٍ متحمسين يرتدون ملابس باللون الكاكي، وكانوا جميعًا يعملون بنشاط وكأنهم خليةَ نحل، ولكن هذا لم يمنعهم من ملاحظة وجود ثلاث فتياتٍ جميلات! كان من الممكن المرور عَبْر هذه المدينة في ساعاتٍ معينة ومشاهدة بعض التدريبات، إذا حصلتَ على التصريح اللازم، وفي ساعاتٍ معينةٍ أخرى، كان بإمكان بول الخروج من المعسكر، وبينما ذهب السيد واتكينز وزوجته والفتيات للاستماع إلى إيلاي، جلس الأب وباني وبول في شرفة الفندق وتحدَّثوا عن الوضع العالمي.

كان الروس قد أبرموا للتو معاهدة سلام مع ألمانيا، وانسحبوا تمامًا من الحرب، وتنازلوا عن الكثير من الأراضي للعدو. تناول الأب هذا الحدث، وأعرب مجددًا عن رأيه في «البلاشفة» الخائنين. أخبرهما بول بوجهة نظره، ورأى باني أنه حتى هنا، مع كل العمل الذي كان عليه أن يؤدِّيه بول، قد تمكَّن من أن يجد وقتًا للقراءة والتأمل في أفكاره الخاصة. وقال: «باني، هل تتذكَّر إضراب النفط الذي حدث عندنا، وما قرأناه عنه في الصحف؟ لنفترض أنك لم تذهب إلى بارادايس من قبلُ، وأنك لم تكن تعرف المضربين، وحصلتَ على كل انطباعاتك من صحف إنجِل سيتي! هكذا أرى الوضع في روسيا؛ فهذا أكبر إضرابٍ في التاريخ وقد انتصر المضربون، واستولَوا على آبار النفط. ويومًا ما، ربما سنعرف حقيقة أفعالهم، لكن لن يكون ذلك من القصص المنشورة بالصحف التي ألَّفَها دبلوماسيو الحلفاء وكبار الدوقات المنفيين.»

شَعر الأب ببعض الحنق عند سماع هذا الكلام؛ لأنه كان يقرأ هذه الأخبار لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، ويصدِّق كل كلمة فيها. وكان يريد أن يعرف رأي بول في وقوع عمليات اغتيالٍ للطبقات الغنية في روسيا. قال بول إنه وفقًا لما قرأه عن الثورة الفرنسية، فهو لا يشك في احتمالية حدوث بعضٍ من هذه الاغتيالات. كل ما كان يتعيَّن تذكُّره هو الطريقة

التي كانت الطبقات الحاكمة تعامل بها الشعب الروسي، وطبيعة الحكومة التي كانوا عليها، كان يتعيَّن الحكم على ثورتهم بمعاييرهم وليس بمعاييرنا. ابتسم بول وأضاف أنه من الخطأ أن يقارِن صاحبُ عملٍ أمريكي، حاول أن يوفِّر لعماله صفقةً عادلة، نفسه بهؤلاء السادة الروس الذين كانوا يضربون رجالهم بالسياط، ويسلمونهم للقوزاق إذا حاولوا الاعتراض.

هدأ الأب بعض الشيء عندما سمع هذا، لكنه قال إن الوضع بدا له كما لو كان هؤلاء البلاشفة مجرد الكثير من العملاء الألمان. وتحدَّث عن القطار الذي نقل لينين عَبْر ألمانيا، وكان الأب ينطق اسمه بشكلٍ مختلف مقسمًا إياه إلى جزأَين «لي-نين». سأله بول عما إذا كان قد اطلع على الأخبار التي جاءت عن مفاوضات السلام؛ فعلى ما يبدو كان الألمان يخافون من الروس مثلنا. وكان هؤلاء البلاشفة يقاتلون الطبقات الحاكمة في كلا الجانبَين، وربما يجد الألمان السلام الذي حقَّقوه أكثر خطورة عليهم من القتال، وقد تنتشر الدعاية الثورية في جيوشهم حتى تصل إلى الجبهة الغربية.

لم تكن هناك فائدةٌ من توقع أن يستوعب الأب شيئًا في غاية التعقيد مثل هذا. وأوضح أنه لو كان الروس قد أرادوا حقًّا مساعدة قضية السلام والعدالة، لكان عليهم مساندة الحلفاء حتى الإطاحة بحكم القيصر. ثم تساءل بول عما إذا كان السيد روس قد قرأ معاهدات الحلفاء السرية، واضطُر الأب للاعتراف بأنه لم يسمع بها من قبلُ. شرح له بول أن السوفييت، بعد مطالبتهم للحلفاء بالإفصاح عن أهدافهم الحربية وعدم اهتمام الحلفاء بذلك الطلب، كشَفوا للعالم عن جميع الاتفاقات السرية التي أبرمها الحلفاء مع القيصر، لتقسيم الأراضي التي كانوا ينوون الاستيلاء عليها من الألمان والنمساويين والأتراك. وأوضح بول أن الصحف الأمريكية قد حجبَت نص هذه المعاهدات، التي تُعتبَر أهم الأخبار في هذه الفترة. فإذا كنا سنخوض هذه الحرب ونحن معصوبو الأعين لمساعدة بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا واليابان في تحقيق أهدافهم الإمبريالية، فهذا يعني أن شعبنا يتعرَّض للخداع، ويومًا ما ستحدث صحوةٌ مريرة.

كان رد الأب على ذلك بسيطًا؛ فقد أخبر بول أن البلاشفة بكل تأكيد هم من زيَّفوا تلك المعاهدات السرية. ألم تقدِّم حكومتنا بالفعل الكثير من الوثائق التي حصلَت عليها في روسيا، والتي تثبت أن قادة البلاشفة عملاءُ ألمان؟ كانت تلك هي الوثائق الحقيقية، وسوف يكتشف بول ذلك يومًا ما، ويخجل من الشك في حلفائنا. أنَّى له أن يفترض أن الرئيس ويلسون سيسمح بتعرُّضنا للخداع؟

كان باني يجلس منصتًا لكل كلمةٍ في هذه المناقشة. كان الأمر محيرًا، ويصعُب التأكد منه، لكن بدا له أن الأب كان على حق، فما الذي يمكن أن يفعله المواطن الأمريكي الصالح، في وقت حربٍ مثل هذا، سوى الوثوق في حكومته؟ صُدم باني عندما سمع أن رجلًا يرتدي زي الجيش يُعبِّر عن شكوكه بشأن رؤسائه، واعتَبر أن من واجبه إجراء محادثةٍ خاصة مع بول، وإخباره ببعض الأشياء التي قالها خطباء الدقائق الأربع في المدرسة، وأن يحاول أن يبث فيه روحًا وطنية أقوى. لكن بول ضحك، وربَّت على ظهر باني، قائلًا إنهم يحصلون على ما يكفي من التحفيز هنا في معسكر التدريب.

٢

في إحدى الأمسيات ذهبوا جميعًا لسماع إحدى خطب إيلاي، في خيمةٍ كبيرة كان يمكن أن تضُم سيركًا بثلاث حلبات، وكانت هناك آلاف السيارات الواقفة في الحقول التي تحيط بها، وتناثَرَت في الممرات نشارة الخشب، وكانت هناك مئات من المقاعد الخشبية التي كانت تعجُّ بالجنود الشباب وأصحاب المزارع وزوجاتهم وأطفالهم. كانت هناك منصةٌ يقف عليها المبشِّر، مرتديًا رداءً أبيض وعلى صدره نجمةٌ ذهبية، وكأنه ساحرٌ فارسي، وكانت هناك «فرقةٌ موسيقيةٌ متألقة»، تحمل أبواقًا مختلفة الأحجام، تُصدِر أصواتًا جهيرة وتبهر العين من شدة بريقها. عندما بدأَت تلك الأبواق الكبيرة في عزف ترنيمة المجد، وبدأ الجمهور في الاهتزاز والصراخ قائلين «سبِّحوا الرب!» كان الجزء العلوي من تلك الخيمة يرتفع لأعلى!

ألقى إيلاي عظة يندد فيها بالهون، مدعيًا أن الروح القدس قد أفصَح له عن أن العدو سيُهزم قبل نهاية هذا العام، مبشرًا بالخلاص الأبدي لكل من ماتوا في سبيل الرب، شريطة إيمانهم، بالطبع، بتعاليم إيلاي. كان هناك خزَّان في منتصف المسرح، ودَرَج للنزول إليه، وكان الأتباع الجدد يجلسون في صفوفٍ على المنصة، مرتدين مناماتٍ بيضاء، وعندما حانت هذه الفقرة من الاحتفالات، نزل إيلاي إلى الماء بنفسه، وأمسك بضحاياه واحدًا تلو الآخر من مؤخرة أعناقهم، وباسم الآب والابن والروح القدس دفعهم إلى الأمام، وغطَّسهم في الماء. وهكذا تخلَّصوا من جميع خطاياهم، وفي حالةِ ما نقَل لهم الماءُ المقدَّس أيًّا من تلك الأمراض التي تُعتبر عقابًا على خطاياهم، حتى لو كانوا ضمن صفوف القوات العسكرية، كل ما كان عليهم فعلُه هو القدوم مرةً أخرى «ليشفيَهم» نبي الوحي الثالث.

في اليوم التالي، عادَت العائلة إلى البيت، وكان لديهم الكثير من المواضيع التي تحدثوا بشأنها في الطريق، ولأسابيعَ قادمة! كان باني يتطلع إلى خوض تجربة الانضمام إلى هذا المعسكر في الصيف القادم، إلا أنه، بسبب التدريبات التي كان يحصُل عليها في المدرسة، بالإضافة إلى تأثير الأب، كان من المقرَّر أن ينضم إلى معسكر تدريب للضباط. وكان يتفانى في عمله، ويؤدي مهامه بجدٍّ أكثر من أي وقتٍ مضى.

في أواخر شهر مارس بدأ ذلك الهجوم المروِّع المنتظَر منذ وقتٍ طويل على الجبهة الغربية؛ واحدة من تلك المعارك التي أصبح العالم معتادًا عليها؛ حيث امتدَّت على أكثر من مائة ميل من الجبهة، واستمرَّت طوال النهار والليل لعدة أسابيع. لم تُسمَّ هذه المعركة على اسم بلدة أو مدينة، ولكن على اسم مقاطعة؛ حيث أُطلِق عليها اسم معركة بيكاردي. اخترقَت القوات الألمانية صفوف الجيش البريطاني، وألحقَت به هزيمةً نكراء، وجعلَته يتراجع ثلاثين أو أربعين ميلًا، وأسرَت مائة ألف رجل، وبدا أن أسوأ مخاوف الأب كانت تتحقق.

لكن لم يكن الألمان ولا الحلفاء يعرفون أنه في قريةٍ مغمورة وسط بساتين الفاكهة في كاليفورنيا، كان هناك نبيٌّ عظيم يمارس سحره من أجلهم. فبالمصادفة قرأ إيلاي واتكينز خبرًا من الجبهة، يعلن عن أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ الجيوش البريطانية هو المطر، وعلى الفور جمع العديد من أتباعه المصلين، وظلوا يهتزُّون طَوال الليل وهم جاثُون على ركبهم، ضامُّون أيديهم، يتضرَّعون للرب أن تحدُث عواصف في بيكاردي؛ وبالفعل استجاب لهم الرب ففُتِحَت أبواب السماء ونزل المطر وسرعان ما علِقَت أقدام الهون، وعَجلات مركباتهم، وغرق جنودهم العظام في الوحل، ولكن على الجانب الذي كان يقاتل فيه جنود الرب، لم تسقُط الأمطار، وكانت الأرض نظيفة، وجاءت التعزيزات، وأُنقِذ خط دفاع الجيش البريطاني، ووسط بساتين كاليفورنيا، هزَّت صيحاتُ تهليل المؤمنين المخلصين الأرجاءَ حتى تساقطَت الأزهار من أشجار البرقوق.

٣

حتى في خِضَم هذه الأحداث المؤلمة والمثيرة، كان باني لا يزال يستمتع بشبابه. ففي طريقه إلى المنزل بعد التدريب، التقى مصادفة بنينا جودريتش، إحدى زميلاته في الدراسة، وهي تنعطف بسيارتها، مرتديةً ملابس السباحة ومن فوقها حَرْملة. من المدهش اعتماد مصائر حياة المرء على هذه الأحداث الصغيرة! أبطأَت سيارتها وصاحت: «تعالَ، اسبَح معي!» قفز

إلى داخل سيارتها، ولم يستغرقا سوى دقيقتَين للوصول إلى الشاطئ، وفي غضون خمسِ دقائق، كان قد استأجر ملابسَ سباحة وارتداها، وكان الاثنان يتسابقان على الرمال.

كانت نينا جودريتش واحدةً من تلك الفتيات الفاتنات، اللائي تُنتِج منهن كاليفورنيا عدة آلاف كل عام. فقد كانت ساقاها وذراعاها تتميز بالقوة، وكان فخذاها ونهداها مجهَّزة لحمل عشرات الأطفال وتغذيتهم على التوالي. كان شعرُها أشقر وبشرتها ذات لونٍ برونزي طبيعي ناتج عن السباحة في البحر لساعات، مرتديةً ملابس سباحة الفتيات الرقيقة المكوَّنة من قطعةٍ واحدة، والتي كانت تكشف بصورةٍ ملحوظة عما يزيد عن خمسين بالمائة من مفاتنهن الطبيعية. فلا يمكن لرجل اتخذ لنفسه زوجةً من جنوب كاليفورنيا أن يشتكي من عدم اطِّلاعه على الصفات الجسدية لزوجته المستقبلية!

سبَح الاثنان بحذاء الشاطئ لمسافةٍ طويلة ولم تزعجهما برودة الماء، وركضا على الشاطئ متشابكي الأيدي، وعندما عادا إلى مكان الاستحمام، قالت نينا: «تعالَ وتناول العشاء معي، يا باني؛ لقد مللتُ من المكوث في المنزل.» لذا انزلق باني في ملابسه، وتوجَّهَت إلى منزلها لتغيير ملابسها، وأثناء ذلك جلس في السيارة وبدأ يقرأ درسه القادم في الشعر الإنجليزي في القرن التاسع عشر. سلَّط الشاعر الضوء على سلسلة من الظواهر الطبيعية:

ضوءُ الشمس يعانقُ الأرض
وأشعة القمر تُقبِّل البحر!
ماذا تُساوي كل هذه القُبلات،
إن لم تُقَبِّليني أنت؟

توجَّها إلى كافتيريا، وهو مكانٌ يقدم أسماك كاليفورنيا وفواكه كاليفورنيا وسلَطات كاليفورنيا، بوفرةٍ مزعجة لفاتنة في التاسعة عشرة من عمرها تعاني بالفعل من أجل «تقليل وزنها». قالت نينا إنه لا يُوجد طعامٌ آمن مثل الكرفس؛ فهو يشغل الحيز ذاته في المعدة ويستغرق الوقت ذاته في المضغ، وبينما كانت تمضغ الكرفس بصوتٍ عالٍ، جلسا بجانب النافذة، وشاهدا غروب الشمس فوق المحيط الأرجواني، وتسلل الضباب ببطء من البحر. ركبا السيارة، ودون أن تنبس ببنت شفة، اتجهَت إلى خارج البلدة على طول الطريق الساحلي السريع، كانت إحدى يدَيها تُمسِك بيد باني، الذي تذكَّر، بعد البحث في مغارات ذاكرته، أنه سمع يونيس تقول إن نينا كانت على علاقةٍ يائسة ببارني لي، الذي كان قد التحَق بالجيش منذ عام، وهو الآن في فرنسا.

توقَّفا في مكانٍ منعزل، وكان هناك بساطٌ في السيارة؛ لذا سرعان ما كانا جالسين بجوار الأمواج الصاخبة، استكانت نينا بالقرب من باني وهمسَت قائلة: «هل تهتم لأمري ولو قليلًا؟» وعندما أجاب بالإيجاب، قالت: «إذن، فلماذا لا تُلاطِفني؟» وعندما بدأ في الامتثال لطلبها، وجد شفتَيه تُقبِّلانها قبلةً طويلةً وبطيئةً تُشبِه تلك القُبلات المؤثِّرة في الأفلام التي تخضع للرقابة، وتتفاوت مدة عرضها وفقًا للبلد الذي تُعرَض فيه، فتُحذف تمامًا في اليابان وتستمر لمدة ٨٠٠٠ ثانية في الجزائر والأرجنتين.

كان من الواضح أن تلك الفتاة الفائقة الجمال البالغة من العمر تسعة عشر عامًا أصبحَت طوع يدَيه على الفور، وبدأ رأس باني يسبح في مخاوفه المعهودة. فلم يكن قد شُفي بعدُ من الألم النفسي الذي شعَر به بعد ترك يونيس، وكانت هذه العلاقة بمثابة الخلاص له! لكنه كان مترددًا؛ لأنه كان قد تعهَّد لنفسه بأنه لن يدخل في أي علاقة مرةً أخرى. وكان أيضًا قد بدأ يسمع عن نوعٍ مختلف من الحب في قصائد بعض الشعراء الإنجليز. ففي قرارة نفسه كان يعلم أنه لم يُحب نينا جودريتش حقًّا، فقد كانت غريبةً عنه تمامًا؛ ولذلك تردَّد، وقلَّت حدة قبلاته، مما جعلها تهمس له قائلة: «ما الأمر يا باني؟»

ارتبك، لكن جاءه إلهامٌ مفاجئ. وقال: «نينا، هذا يبدو مجحفًا.»

«لمن؟»

«لبارني.»

شعَر بها تجفل وهي مستلقيةٌ بين ذراعَيه. «لكن بارني رحل يا عزيزي.»

«أعلم ذلك، لكنه سيعود.»

«نعم، ولكن هذا بعيد المنال، وأظنه على علاقة بفتاة في فرنسا الآن.»

«ربما يكون الأمر كذلك، لكن لا يمكنكِ التأكد، ويبدو من الخطأ أن يخاطر أحد الرفاق بحياته من أجل بلده، ويسرق شخصٌ آخر فتاتَه أثناء غيابه.»

وهكذا بدأ باني يتحدث عن الجبهة، وما كان يحدُث هناك، وعن مدى سرعة دخول الأمريكيين في الحرب، وكيف كان يأمل أن ينضَم للجيش بعد التخرج مباشرةً، وعن بول ومعتقداته عن روسيا، ورأي الأب في بول، وظلت الشابة الفاتنة بين ذراعَيه، ولكن انجذابها إليه تحول إلى محبةٍ أخوية، حتى بدأَت برودة الضباب تدبُّ في جسدَيهما الشابَّين؛ ولذا كان عليهما الرحيل، ووضعَت الفتاة البالغة من العمر تسعة عشر عامًا ذات الجمال الأخاذ ذراعَيها حول رفيقها وقبَّلَته بعنف، وأخبرَتْه: «باني، أنت غريب الأطوار، لكنني معجبةٌ بك بشدة!»

٤

شن الألمان هجومًا هائلًا آخر على البريطانيين، أُطلِق عليه هذه المرة اسم معركة فلاندرز. واحتلوا جزءًا كبيرًا من خطوط الدفاع البريطانية، ولولا صمود العمال والسائقين وكلِّ من كان موجودًا خلف خطوط الدفاع لمدة ستة أيام؛ حيث اختبأ كل رجل في حفرة وقاتل دفاعًا عن نفسه بأي سلاح عثَر عليه، لكان الألمان استولَوا على السكك الحديدية بأكملها في فلاندرز. وبعد شهر أو نحو ذلك، حدث هجومٌ آخر، وكان هذه المرة ناحية الجنوب، ضد الفرنسيين، معركة نهر أن والواز، بدا وكأن باريس محكومٌ عليها بالهلاك، وحبَس الناس في أمريكا أنفاسهم وهم يقرءون النشرات في الصحف.

في خِضَم تلك المعركة، التي امتدَّت على ما يقرُب من مائتَي ميل من الجبهة، حدث شيءٌ غيَّر مجرى التاريخ؛ حيث أمر القائد الفرنسي الذي كان يتعرض لضغوطٍ شديدة بنشر أولى القوات الأمريكية التي وصلَت حديثًا على الجبهة. كان هؤلاء الصبية قد حصَلوا على تدريبٍ لبضعة أشهر فقط، ولم يظن الفرنسيون أنهم سيصمُدون، لكن بدلًا من الانسحاب مثل بقية الجيوش، اخترقوا الخط الألماني وتقدَّموا لبضعة أميال في جبهةٍ تمتد لمسافة ثلاثة أميال. لذلك دُفع بالمزيد منهم، وبعد أيامٍ قليلة حدثت معركة بيلو وود، وسرَت في جميع أنحاء أمريكا حالةٌ من الغبطة. لم يشعر الرجال بمجرد فخرٍ وطني، بل ما هو أكثر من ذلك؛ فقد كان الأمر أشبه بانتصار للمؤسسات الحرة. وعند الاطلاع على قوائم القتلى والجرحى في هذه المعارك، كان بإمكانك العثور على أسماء مثل هورويتز وشنييرو وسامرجيان وسامانيجو، وكونستانتينوبولوس وتوبليتسكي وكونج لينج، لكنهم قاتلوا جميعًا جنبًا إلى جنب، وكان ذلك انتصارًا لطوفان الخطب الرنَّانة المؤثِّرة الذي كان يتدفَّق من البيت الأبيض.

في خِضَم هذه الإثارة جاء وقت تخرُّج باني، وكان عليه اتخاذ القرار العظيم. دارت بينه وبين والده محادثةٌ جادة لم تحدُث مثلها في حياتهما؛ فباني لم يرَ والده متأثرًا بشدة هكذا من قبلُ. قال له الأب: «يا بني، ألا يمكنك البقاء ومساعدتي في أعمالنا؟» أجابه باني: «أبي، إن لم ألتحِق بالجيش، فلن أشعر بالراحة أبدًا بقية حياتي.»

أوضح له الأب تداعيات هذا القرار عليه شخصيًّا. فهو لم يعُد قادرًا على حمل هذا العبء بمفرده. وكان لا بد من حفر المزيد من الآبار، وكانت كل بئر تعني مسئوليةً إضافية. أصبح من الضروري إنشاء معملِ تكريرٍ كبير، وكان هذا يعني أيضًا سلسلة من محطات الخدمة؛ فلا يمكنك الاعتماد على العقود الحكومية إلى الأبد. كانت الأرض

ببارادايس ملكًا لباني، ولكن إذا كان يريد التخلي عنها، فسيتعيَّن على الأب أن يتفاوض مع بعض الأشخاص المهمين الذين كانوا يطلبون مشاركته. ففي حالة انضمام باني للجيش، لن تكون هناك فائدةٌ من الاعتماد عليه؛ لأن الأب كان متأكدًا من أن هذه الحرب لن تنتهي قريبًا. عبَّر عن ذلك الأمر قائلًا بصوتٍ مرتعش: «أولئك الذين يذهبون للحرب الآن لن يعود الكثير منهم»، ولو كان الحديث استمَر لأكثر من ذلك، لاضطُر كلاهما لإخراج مناديل الجيب لمسح دموعهما، وهو ما كان سيتسبَّب في شعور كلٍّ منهما بالإحراج بالقدر نفسه. لم يتمكَّن باني من فعل شيء سوى قول: «يجب عليَّ الذهاب يا أبي؛ يجب عليَّ الذهاب.»

لذا استسلم الأب، وبعد أسبوعَين تلقى باني إخطارًا بالتوجه إلى معسكر تدريبه. ذرفَت العمة إيما الدموع من أجله، بينما أطبقَت الجدة شفتَيها الذابلتَين على طقم أسنانها غير المتطابق، وقالت إن هذه جريمة، وإن الحياة لم يعُد لها معنًى. اتخذَت بيرتي الترتيبات لإقامة حفل وداع، وأفاد الأب أنه بدأ بإجراء مفاوضات مع فيرنون روسكو، أكبرِ منقِّب نفطٍ مستقل على الساحل، ورئيس فلورا-ميكس وميد-سنترال بيت، الذي طرح عليه عدة مراتٍ فكرةَ إنشاء مشروعٍ كبير يُسمَّى «روس كونسوليديتد» (أي مجموعة شركات روس).

٥

توجَّها إلى بارادايس، ليُلقيَ باني نظرة وداع على الأشياء هناك، وهناك وجدا أنه كان من المتوقع أن يأتي بول لقضاء إجازة، تمهيدًا للقيام برحلة عَبْر المحيط الهادي. قال الأب إن هذه الحرب كانت مثل حريق في «مُستودَع صهاريج»، لا يمكنك أبدًا معرفة الطريقة التي ستنفجر بها، أو ما الذي سيحدُث لاحقًا. فقد تلقَّى بول ومجموعةٌ من النجَّارين الذين كان يشرف على تدريبهم أوامرَ بالسفر على متن سفينة إلى فلاديفوستوك في سيبيريا، من بين كل الأماكن في العالم!

يبدو أنه عندما فرض البلاشفة سيطرتهم على روسيا، وجدوا أن لديهم عددًا كبيرًا من أسرى الحرب، من بينهم مائة ألف من التشيكوسلوفاكيين. كان هذا اسمًا جديدًا، إذا بحثتَ عنه في الموسوعات فلن تعثُر عليه، وكان لا بد من توضيح أنهم كانوا بوهيميين، ولكن كانت هذه كلمةً ألمانية، وكما غيَّرنا كلمة هامبرجر إلى ليبرتي ستيك (أي شريحة لحم الحرية) وساوركراوت إلى ليبرتي كابدج (أي ملفوف الحرية)، أصبح البوهيميون تشيكوسلوفاكيين، ولكن لم يعرف أحدٌ كيفية تهجئة هذه الكلمة عند سماعها، أو

نطقها عند رؤيتها. كان أفرادُ هذا العِرق يثورون ضد ألمانيا، ووافق البلاشفة على أن يُنقَل سجناؤهم من التشيكوسلوفاكيين إلى فلاديفوستوك؛ حيث يمكن أن يتولى الحلفاء مسئوليتَهم، واستخدامهم في جبهة القتال إذا رأَوا ذلك مناسبًا. لكن في الطريق عَبْر سيبيريا، تقاتَل التشيكوسلوفاكيون مع البلاشفة وأسرى الحرب الألمان المفرَج عنهم، واستولَوا على قسمٍ كبير من السكة الحديدية.

ولذلك كان لا بد من تدخُّل فوري للحلفاء في خِضَم هذه الفوضى الغريبة. وأوضحَت الصحف الأمر؛ فقد كانت الحركة البلشفية ثورةً للمتطرفين، فُرضَت على الشعب الروسي بأسلحة المرتزقة المأجورين، الصينيين والمنغوليين والقوزاق والمجرمين الهاربين وحثالة القوم بصفةٍ عامة، لم يكن من الممكن أن يستمر الوضع طويلًا، بضعة أسابيع أو أشهر على الأكثر، وما كان مطلوبًا هو توفير نواة يمكن أن يتجمَّع حولها المواطنون الروس المحترمون. أخذ الحلفاء على عاتقهم مسئولية الاضطلاع بهذه المهمة، وكان على القوات الأمريكية واليابانية مساعدة التشيكوسلوفاكيين في سيبيريا، وعلى القوات الأمريكية والبريطانية تنظيم شئون اللاجئين الروس في أرخانجيلسك في أقصى الشمال. ولذلك كان بول ذاهبًا لبناء ثكنات وأكواخ جمعية الشبان المسيحيين، على طول السكك الحديدية العابرة لسيبيريا الشهيرة، وليشهَد بنفسه تلك الأحداث المثيرة التي كان يتناقش مع الأب بشأنها. كان باني ذاهبًا إلى معسكر تدريب، وربما عندما يجتاز التدريب، سيُرسِلونه إلى الجبهة ذاتها، كان هذا هو الأمر الوحيد الذي من الممكن أن يسمح لوالده باستخدام نفوذه فيه! فقد كان باني ينوي أن يكدَّ في تدريبه وأن يترقَّى في الخدمة، وربما يصل إلى منصب يكون فيه بول ونجَّاروه تحت إمرته!

لقد واجهوا صعوبةً في الحفاظ على روحهم المعنوية بسبب روث، التي كانت تشعر بحزنٍ شديد، لم يتمكَّن أحد من التخفيف من حدَّته. فقد كانت تتجول في المكان والدموع تنهمرُ على خدَّيها، وبين الحين والآخر كانت تُهرَع مسرعةً إلى خارج الغرفة. وعندما حان الوقت لكي يودِّعهم بول، كادت روث أن تفقد عقلها، ولفَّت ذراعَيها بقوة حول رقبته، مما جعله يسحب أصابعها بعيدًا. كان من المحزن أن يرحل أخٌ بينما أخته مستلقية على كرسي مغشيًّا عليها. جاء السيد واتكينز العجوز ليأخذها إلى المنزل، وأرسل سادي لأداء الأعمال المنزلية من أجل الأب. يا للهول، كانت هذه الأحداث هي التي تجعلك تدرك حقيقة الحروب!

٦

عاد باني إلى بيتش سيتي، ليواجه المحنة ذاتها. لم تصرخ الجدة أو تفقد وعيها، بل صعدَت إلى مرسمها الخاص، وأغلقَت الباب عليها، ولم تخرج حتى لتناول الطعام. وعندما كان باني مستعدًّا للرحيل، ذهب إليها وطرق الباب، وسمحَت له الجدة بالدخول إلى مُختبَر الطلاءات والزيوت والفن الراقي. كان وجهها شاحبًا ومتجهمًا، لكنَّ جفنَيها الحمراوَين الذابلَين كشَفا أمرها. قالت له: «أيها الولد الصغير» — فهكذا كانت تراه، ولدًا صغيرًا لن يكبر أبدًا — «أيها الولد الصغير، أنت ضحية لجرائم الكهول. ربما لا تفهم معنى ذلك الآن، ولكن تذكَّر، يومًا ما، بعد وقتٍ طويل من رحيلي، ستفهم ما أعنيه.»

قبَّلَته في صمت، وانسل خارجًا من الغرفة، والدموع تنهمر على خدَّيه، شاعرًا كما لو كان هو نفسه يرتكب جريمة. زاد لديه هذا الشعور عندما تلقى، بعد أسبوع، برقيةً تفيد بأن الجدة روس قد وافَتْها المنية على فراشها. حصل على إجازة لمدة ثلاثة أيام للعودة إلى الديار وحضور الجنازة، وكان عليه أن يودع بقية أفراد الأسرة مرةً أخرى.

كان موقع معسكر التدريب في الجنوب، مكان يتسم بأشعة الشمس الحارقة والعَرَق الشديد. كان يعجُّ بالفتية القادمين من جميع أنحاء الولاية، معظمهم من طلاب المدارس الثانوية والجامعات، بالإضافة إلى قلةٍ ممن انضموا إلى صفوف الضباط بسبب ما لديهم من خبرةٍ عسكرية. وانضَم إليهم أبناء مزارعي العنب والبرتقال والجوز والخوخ والبرقوق، ورعاة البقر والحطَّابين، ورجال الأعمال والمهنيِّين في المدن، أراد باني أن يتعرف عليهم، وأن يعرف طبيعة أفكارهم بشأن الحياة والحب والحرب. كان يتدرَّب حتى يشعر بألم في ظهره، ويدرُس، كما كان يفعل في المدرسة، لكنه كان يسكُن في خيمة، ويأكل بنهَم، وينمو جسديًّا وفكريًّا.

بين الحين والآخر كان يستكشف البلد مع أحد الرفاق، لكنه كان يبتعد عن المغامرات الجنسية التي شغلَت معظم أوقات فراغ جنود الجيش. فهنا كان يمكنهم التحدُّث بجرأة عن هذه الأمور؛ فرؤساؤهم كانوا يعتبرون البحث عن امرأة عند الخروج من المعسكر أمرًا مسلمًا به، وكانوا يُخبرونهم بما يجب عليهم فعله عند عودتهم، وكان هناك مركز علاج يصطَف فيه الجندي مع زملائه الآخرين، ويُلقون نكاتًا حول الأماكن التي ذهبوا إليها والتكاليف التي تكبَّدوها. كان باني يعرف ما يكفي ليدرك أن النساء، في الحي الذي يقع فيه هذا المخيَّم، اللواتي كن منفتحاتٍ لخوض تلك المغامرات؛ لا بد أنهن سينغمسْنَ في حب الملذات بعد عام؛ لذلك لم يكن مهتمًّا بنظراتهن أو بكواحلهن المزيَّنة بالجوارب الحريرية المزركشة التي كن يتباهَين بها.

كان قد تقدَّم بطلب للالتحاق بسلاح المدفعية، لكنهم كلَّفوه بدراسة «النقل العسكري»، بسبب معرفته بالنفط. تقبل هذا الأمر بسذاجةٍ تامة، ولم يدرك مطلقًا أن الأب بنفوذه الكبير ربما كانت له يدٌ في ذلك. عقد الأب العزم خُفيةً على ألَّا يسافر باني خارج البلاد، حتى ولو استمرَّت هذه الحرب لعشر سنواتٍ أخرى. كان من المقرَّر أن يكون باني من ضمن أولئك المسئولين عن إمدادات الجيش من البنزين والنفط؛ حيث يتأكد من مطابقة المنتجات المختلفة للمواصفات القياسية وشحنها بكفاءة وسرعة. من يعلم، ربما يصبح ضمن أولئك المسئولين عن إبرام العقود، وقد يكون قادرًا بين الحين والآخر على التوصية بروس كونسوليديتد!

٧

كانت الصفقة الجديدة قيد التنفيذ، وأرسل الأب خطاباتٍ طويلة تتحدث عن التقدُّم المُحرَز، وكان على باني إعادة إرسال هذه الرسائل بعد قراءتها، وعدم تركها في الخيمة. انتشرَت أيضًا الشائعات في الصحف، وتبعَتْها روايات أكثر تفصيلًا، مصمَّمة لتهيئة الناس لإطلاق مشروعٍ ضخم. وفي أواخر الصيف، حصل باني على إجازة، وعاد إلى الديار لتلقي آخر الأخبار.

لم تعُد «الديار» تعني بيتش سيتي؛ لأن الأب كان ينتظر فقط حتى يكمل باني دراسته للانتقال إلى منزلٍ آخر. كان قصرًا في الجزء العصري من إنجِل سيتي، كان قد استأجره من خلال وكيل عقارات مقابل خمسة عشر ألف دولار سنويًّا. كان كل شيء من الخارج مصنوعًا من الجص الوردي، وكانت النباتات المحيطة بالمنزل مُقلَّمة على شكل أجراس وكراتٍ تشبه الكرات التي تُوضع فوق لافتات مكاتب الرهن. وكانت هناك شرفةٌ كبيرة بها أراجيحُ معلَّقة بسلاسلَ نحاسية، وسراخسُ مزروعة في صف من أصدافٍ بحريةٍ ضخمة، ونوافذُ زجاجيةٌ كبيرة لا يمكن أن تُفتَح من تلقاء نفسها. وفي الداخل، كان الأثاث على طراز «ميشن أوك» (وهو أثاثٌ عتيق متين، خالٍ من الزخارف، ومصنوعٌ من خشب البلوط)، وكان ثقيلًا جدًّا بحيث يصعب تحريكه، لكن لم يمثل هذا الأمر مشكلةً للأب لأنه لم يكن يرغب في تحريكه؛ فقد كان يجلس على أي مقعد، في أي مكان، وكان المكان الوحيد الذي توقَّع أن يحصُل فيه على الراحة هو غرفة مكتبه؛ حيث كان لديه مقعدُ جلدٍ قديم ضخم، ومخزن للسيجار وخريطة لأراضي بارادايس تُغَطي جدارًا كاملًا. اهتم الأب بشيءٍ آخر؛ هو تعليق أكبر لَوحات الجَدَّة في غرفة الطعام، بما في ذلك تلك اللوحة المخزية

للألمان وهم يُمسِكون بأقداح الجعة الكبيرة! أما بقية أغراض السيدة العجوز، مثل حاملِ اللوحات ودهاناتها ومجموعة كبيرة من أعمالها الأصغر حجمًا، فقد وُضعَت في صناديق وخُزِّنَت في القبو. أصبحَت العمة إيما الآن سيدة المنزل، وكانت بيرتي الناقدة الرئيسية عند وجودها بالمنزل.

على مكتب الأب، كانت هناك كومة من الأوراق بارتفاع قدم، تتعلق بالمشروع الجديد. درس كلًّا منها بعناية واحدةً تلو الأخرى موضحًا التفاصيل. كانت روس كونسوليديتد ستصبح مؤسسةً برأس مال سبعين مليون دولار، وكانت حصة الأب عشرة ملايين في شكل سندات وأسهم ممتازة، وعشرة ملايين أخرى في شكل أسهم عادية. كان من المقرر أن يحصل السيد روسكو على المبلغ ذاته مقابل أراضي حقل بروسبكت هيل وتلك الموجودة على نهر لوبوس، بينما يحصُل المصرفيون الآخرون على خمسة ملايين لتمويلهم للمشروع. وكان من المقرَّر أن يتحول الرصيد المتبقي إلى أسهم من فئةٍ خاصة، بقيمة خمسة وعشرين مليونًا تُطرح للجمهور، لتمويل المشروع الجديد، وهو إنشاء أحد أكبر معامل التكرير في الولاية، وصهاريج تخزين، وخطوط أنابيبَ جديدة، وسلسلة كاملة من محطات الخدمات في جميع أنحاء جنوب كاليفورنيا. وكان من المقرَّر ألَّا تتمتَّع هذه الأسهم بحق التصويت، وهي خطةٌ جديدةٌ رائعة شرحها الأب لباني؛ حيث كان على الجمهور المساهمة بأمواله والحصول على حصة من الأرباح، ولكن لم يكن له الحق في التدخل في كيفية إدارة الشركة. وأضاف الأب معلقًا: «وبهذا لن يتدخل في شئوننا حفنةٌ من المغفَّلين، ولن يتمكَّن أحدٌ من التلاعب بالسوق وسَلْب السيطرة منا.»

بعد تعمُّق باني أكثر في هذه التوضيحات، بدأ يفهم الهدف من ذلك التحكم الدائم والحازم الذي كان الأب والسيد روسكو يمنحانه لنفسَيهما. ففي النشرات والإعلانات الخاصة بروس كونسوليديتد، سيطلع الجمهور على كل شيء عن موارد النفط الهائلة في منطقة روس الابن في بارادايس، ولكن كان من المقرر ألَّا تعمل روس كونسوليديتد في هذه المنطقة، بل ستؤجرها لشركةٍ خاصة، ألا وهي شركة روس الابن، ولن يمتلك أحدٌ فيها أسهمًا سوى الأب والسيد روسكو والمصرفيين! كانت هناك مجموعةٌ كاملة من تلك المصطلحات المعقَّدة، من عينة الشركات القابضة وشركات التأجير وإصدارات الأسهم المنفصلة، وكان من المقرَّر أن يدخل بعضٌ من هذه الأمور حيز التنفيذ في الحال، والبعض الآخر في وقت لاحق، بعد أن يساهم الجمهور بأمواله!

عندما بدأ باني، «المثالي الصغير»، في الاعتراض على ذلك، وجد أنه يجرح مشاعر والده. وقال الأب إن هذه هي الطريقة المعتادة لعَقْد الصفقات المالية الضخمة؛ فهم لا

يديرون مطعمًا خيريًّا. وسيحصُل الجمهور على حصته وأكثر؛ حيث ستصل قيمة ذلك السهم إلى مائتَين في السنة الأولى، فقط انتظر وسترى! لكن كان الأب وابنه هما مَن قاما بالعمل الشاقِّ في أراضي بارادايس، وفي بروسبكت هيل ونهر لوبوس أيضًا؛ وأرادَت الحكومة منهما المضي قدمًا وإنجاز المزيد من العمل، بحفر مائة بئرٍ جديدة والمساعدة في الانتصار بالحرب، لكن كيف يمكنهما فعل ذلك إذا وزَّعا الأموال على الناس ليضيعوها في حفلات الجاز؟ فقط انظر إلى هؤلاء «الأطفال الذين وُلدوا أثناء الحرب»، والإنفاق الطائش للنقود في نيويورك! كان الأب يعتني بأمواله ويستخدمها بحكمة، في مجال النفط، حيث تنتمي، لقد كان صادقًا، وصارمًا، في اقتناعه بأنه الشخص الذي يجب أن يستفيد بالأرباح. فقد حارب هو والسيد روسكو بمفردهما الشركات الكبيرة وتغلَّبا على جميع التحديات؛ والآن كانا يشكِّلان شراكةً راسخة، وبالتأكيد سيحقِّقان مكاسبَ كبيرة منها!

٨

في غضون ذلك، كان الألمان قد بدءوا هجومًا آخر على الفرنسيين، وكان الأكثر ضخامةً حتى ذلك الوقت؛ كان معركة المارن الثانية، وأطلقوا عليها اسم «فريدنستورم» (التي تعني بالألمانية هجوم السلام)؛ لأنهم أرادوا الاستيلاء على باريس وتحقيق السلام. ولكن كانت هناك قطاعاتٌ كبيرة تحتلها القوات الأمريكية؛ حيث كان هناك مليون جندي في فرنسا، وثلاثمائة ألف يأتون كل شهر، بكل مؤنهم، على الرغم من التهديد الذي كانت تشكِّله الغواصات. كانت هذه القوات مفعمةً بالنشاط، بينما كانت القوات الأخرى منهكة؛ ولذلك حيثما وُجدوا، لم يَنهَر خط دفاعهم، وصدُّوا القوات الألمانية ومنَعوا تقدُّمها، وأوقفوا الهجوم الكبير.

بعد ذلك بأسبوع أو اثنَين، حدث أمرٌ أثار الحماس في العالم أجمع؛ بدأَت قوات الحلفاء في التقدم! وشنَّت الهجمات في أماكنَ مختلفة، واستحوذَت على الأراضي، وطردَت الأعداء من الحصون التي استغرق بناؤها سنوات، وكانوا يعتبرونها منيعة. بدأ خط هيندنبيرج العظيم في الانهيار، وتبعه خط سيجفريد وخط هنדينج، وجميع المنشآت الأسطورية الأخرى. اعتبر الناس في أمريكا أن ذلك بمثابة تسلل أشعة الشمس الأولى عَبْر غيوم العاصفة. كان «اليانكي» يكتسحون ثغرة سان ميهيل، ويأسرون عشرات الآلاف من جنود العدو، والأهم من ذلك، أنهم كانوا يستولون على الرشاشات والمدافع التي لم يستطع

الألمان الحصول على غيرها. استمر هذا حتى أوائل الخريف؛ حتى بدأ الضباط الشباب المستقبليون في معسكر تدريب باني في القلق لأن هذه الحرب الجارية، التي وصلَت إلى مرحلة حاسمة، كانت ستنتهي قبل أن يشاركوا فيها.

لكن طَوال هذا الوقت، لم تأتِ لهم أي أخبار عن بول! وتلقَّى باني رسائلَ مفعَمة بالحزن من روث تسأله فيها: «ماذا في ظنك يمكن أن يكون قد حدث له؟ أُرسِل له خطاباتٍ كل أسبوع على العنوان الذي أعطاني إياه، وأعلم أنه سيرُدُّ عليَّ إن كان على قيد الحياة.» أوضَح باني أن البريد يستغرق ستة أسابيع حتى يصل إلى فلاديفوستوك ويعود إلى هنا؛ ولا يمكن لأحد أن يقدِّر الوقت الذي يستغرقه على خط السكة الحديدية، وإلى جانب ذلك، كانت هناك رقابة، وقد تحدُث أشياءُ كثيرة للرسائل أثناء الحرب. لو كان بول قد قُتل أو جُرح، لكان الجيش بالتأكيد بلَّغ والدَيه؛ لذا عدم تلقِّي أي أخبار عنه يعني أنه على ما يُرام. فعليًّا، لم يكن هناك أي قتالٍ تقريبًا، كما استطاعت روث أن ترى من قُصاصات الصحف التي أرسلها إليها باني بكل أمانة. كانت التقارير مقتضَبة، ولكن كان ذلك بسبب عدم حدوث أي تطوراتٍ كبيرة؛ فلو كان هناك قتالٌ حقيقي، أو خسائرُ للقوات، كانت الصحف ستُعلِن عنها بكل تأكيد.

في شهر يوليو من عام ١٩١٨، هبطت القوات الأمريكية واليابانية في فلاديفوستوك، دون مقاومة تُذكَر، وانتشرَت على طول السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، التي سيطرَت عليها، بل وتولَّت إدارتها، على طول الطريق إلى بحيرة بايكال حيث التقت بالتشيكوسلوفاكيين. وبمساعدة هؤلاء الرجال الأذكياء، فرَض الحلفاء سيطرتهم على البلد بأكملها حتى نهر الفولجا؛ مما أجبر البلاشفة على البقاء بالداخل. بين الحين والآخر كانت الصحف تنقل أخبارًا عن هذا الأدميرال أو ذاك الجنرال الذي كان يؤسِّس حكومةً روسيةً مستقرة، وبالطبع بمساعدة أموال الحلفاء وإمداداتهم. في الطرف الغربي من خط الدفاع، كان هناك قائدٌ من القوزاق وفي الطرف الشرقي كان هناك قائدٌ صيني أو منغولي أو أي قائدٍ وحشيٍّ آخر، وهكذا تحرَّرَت مساحاتٌ جديدة من الأرض من شر البلشفية. وفي مكانٍ ما وسط هذه الأحداث الرائعة والمثيرة، كان بول واتكينز من بارادايس، كاليفورنيا، يبني ثكناتٍ للجيش وأكواخَ «جمعية الشبان المسيحيين»، ويومًا ما سيعود للديار بقصةٍ رائعة ليرويها! وهكذا أرسل باني خطابًا لروث يطلب منها أن تُحافِظ على معنوياتها، وأن تثق في لطف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية.

٩

زادت برودة الليالي في معسكر باني، واستمرَّت الأخبار المثيرة في التدفق من أوروبا، وانتشرَت عَبْر الصفحات الأولى من الصحف التي كانت تصدر ست طبعات أو ثمانيًا كل يوم. كان تقدُّم الحلفاء يتحوَّل إلى مسيرة، تلك المسيرة المتجهة إلى برلين التي طال انتظارها! وكانت هناك مسيرةٌ أخرى متجهة إلى فيينا وصوفيا والقسطنطينية، حيث كانت القوى المركزية في كل مكانٍ تضعُف وتنهار وتستسلم. أصدر الرئيس ويلسون «النقاط الأربع عشرة» التي على أساسها دُعي الألمان إلى الاستسلام. كانت هناك شائعاتٌ بشأن إجراء مفاوضات، وأن القادة الألمان يقترحون هدنة! واستمرَّت حالة التشويق هذه ليومين أو ثلاثة أيام، حتى جاءت الإجابة: لن تكون هناك هدنة، فقط استسلام؛ واستمرت المسيرة إلى برلين!

ثم في أحد الأيام نُشِر تقريرٌ رائعٌ يعلن عن توقف العدو عن المقاومة وتوقيع اتفاقية الاستسلام! في واقع الأمر، كان إعلانًا زائفًا، بسبب تعوُّد الأمريكيين على استباق الأحداث. تريد كل صحيفة أن تتغلب على الصحف الأخرى؛ لذا كان القائمون على الصحف يجهِّزون كل شيء مقدمًا، بدءًا من الخطب التي لم تُلقَ بعدُ، وصولًا إلى المراسم التي لم تحدث بعدُ. تحمَّس أحد الصحفيين، ونشر قبل الأوان الرسالة التي جعلَت أمريكا كلها تشعر بحالةٍ من الإثارة الجامحة. لم يسبق لهذا المشهد مثيلٌ منذ بدء الخليقة؛ انبعثَت الأصوات من كل أدوات إصدار الضجيج، وخرج الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع، ورقصوا وغنَّوا وصرخوا حتى استُنفِدَت طاقتهم، وأُطلقَت الرصاصات من المسدَّسات، وانطلقَت السيارات بأقصى سرعة وهي تجرُّ خلفها عُلَب صفيح تتقافز، وبكى الصبية بائعو الصحف وسماسرة الأوراق المالية على أكتاف بعضهم، ورقص رؤساء البنوك المحافظون المسنُّون رقصة الكان كان مع كاتبات الآلة الكاتبة وعاملات الهاتف. وبعد يوم أو اثنَين، عندما جاءت الأخبار الحقيقية، خرجوا ليكرِّروا مراسم احتفالاتهم، لكنهم لم يتمكَّنوا مطلقًا من استعادة نشوتهم الأولى الطائشة.

بعد ذلك، بالطبع، قلَّت متعة التدريب العسكري، وأراد جميع الضباط الشباب المستقبليين العودة إلى منازلهم، أو الذهاب إلى الكلية أو تولي وظائفهم، وسرعان ما حصل كلٌّ مَن له نفوذ على إجازاتٍ كان مفهومًا ضمنيًّا أنها غير محدَّدة المدة. وعلى غير المتوقع حظي باني بهذه الإجازة؛ حيث استخدم الأب نفوذه الغامض، وعاد باني إلى المنزل ليراقب عن كثَبٍ الأنشطة والتطورات المتعلقة بشركة «روس كونسوليديتد»، التي كانت قد طُرحَت

أسهمها بسعر افتتاح قدره ١٠٨ دولاراتٍ للحصة «للسهم من الفئة ب»، وبِيعت بالكامل في غضون يومَين، ووصل سعرها الآن في السوق إلى ١٤٧ وثلاثة أرباع. كانت الشركة قد طرحَت الأسهم «دون قيمةٍ اسمية»، وهو مصطلحٌ جديدٌ آخر أوصى به محامو فيرنون روسكو الرائعون؛ فقد كان من الممكن التهرُّب من بعض الضرائب الحكومية والفيدرالية بهذه الطريقة، وعلاوةً على ذلك لن تكون هناك أي حاجة لإصدار «أرباح الأسهم» لإخفاء مبلغ الربح. كان السيد روسكو بالتأكيد خبيرًا في الأمور المالية، وربما يكون أذكى رجل قابله الأب في مجال النفط.

انزاح عن كتفَي الأب حملٌ هائل؛ إذ ستتولى مؤسسة روسكو الهائلة مسئولية تسويق النفط وجمع الأموال. وكان الأب مسئولًا عن عمليات التطوير الجديدة، وهي أكثر ما يُحبه الأب في هذا المجال. فقد كان عضوًا في مجلس إدارة الشركة الجديدة، وكذلك نائبًا للرئيس، براتب مائة ألف دولار سنويًّا، بالإضافة إلى تكليفه بعمليات التنقيب والحفر، وكان يُسافر في كل مكان ويُعاين الأراضي ويحدِّد مواقع الحفر، ويتأكد من حفر كل بئر على النحو الصحيح، قبل تسليمها إلى مسئولٍ تنفيذيٍّ آخر، المشرف على عملية الحفر. اقترح الأب أن يتولى باني منصبًا تحت رئاسة والده، ليبدأ براتب ستة آلاف في السنة، وسيستمر هذا الوضع حتى يشعُر الجميع بالرضا عن مدى معرفته بالعمل؛ سيستمع الاثنان بقضاء الوقت معًا، حيث سيجوبان بالسيارة جميع أنحاء جنوب كاليفورنيا، ويستكشفان الأماكن التي تحتوي على نفط، تمامًا مثلما حدث في بارادايس! أعجِب باني بالفكرة، لكنه كان يريد بعض الوقت للتفكير في الأمر، والتعوُّد على فكرة أنه لن يذهب إلى سيبيريا أو فرنسا. وافقه الأب؛ فبالطبع، لا ينبغي أن يتسرَّع في اتخاذ هذا القرار، ولكن كان بوسع باني أن يرى أنه كان متألمًا قليلًا؛ لأن ابنه الذي كان يحمل اسمه لم يكن يعمل في مجال النفط!

١٠

توجَّها إلى بارادايس ليطَّلعا على التطورات، وكان من ضمن التطورات الأولى التي شهداها هي روث، التي أعدَّت لهما الغَداء في كابينة آل راسكوم. صُدم باني من مظهرها؛ فقد بدت أكبر بعشر سنوات مما كانت عليه عندما رآها آخر مرة، وكان وجهها شاحبًا، وابتسامتُها مصطنعة. كانت قد تخلَّت عن كل مظاهر الأنوثة، وكان شعرها مشدودًا إلى الخلف وملفوفًا في عقدة أعلى رأسها، وتنانيرها تصل إلى كاحلَيها؛ أي أطول من المعتاد في الموضة بمقدار نصف ساق. قالت ميلي إن روث كانت على وشك أن تصبح خادمةً عجوزًا، وكل ذلك بسبب حزنها البالغ على بول.

قالت روث: «أعلم أنه مات! فكِّر في الأمر، لقد مرت خمسة أشهر منذ رحيله، ألا تعلم أن بول كان سيُرسِل لي الكثير من الرسائل في ذلك الوقت؟»

بدا الأمر غريبًا بالفعل، وفكَّر الأب قليلًا وقال: «نعم، لقد انتظرنا طويلًا بما يكفي، والآن علينا أن نكتشف الأمر.»

صرخَت روث وهي تعقد يديها معًا: «أوه، سيد روس، ماذا تقصد؟».

«حسنًا، إن هذا الجيش ليس مفقودًا تمامًا في سيبيريا، وأظن أن هناك طريقةً ما للتواصل معه.»

ازداد شحوب روث أكثر من أي وقتٍ مضى. «يا إلهي، لا أعرف ما إذا كنتُ سأجرؤ على اكتشاف ذلك! إذا أبلغونا أنه لقي حتفه، إذا كنتُ سأعرف ذلك حقًّا ...»

قال الأب: «اسمعي، يا طفلتي، المشاكل التي تتخيلينها تكون دائمًا أسوأ بكثير من المشاكل الحقيقية. أريد أن أعرف ما حدث لرئيس النجَّارين لديَّ، وهذا ما سأفعله!»

وهكذا توجَّه الأب إلى الهاتف، واتصل بمخزن التبن والأعلاف المملوك للسيد جيك كوفي في سان إليدو. «مرحبًا يا جيك. نعم، كلنا بخير هنا، كيف حال والدك؟ أعلم أن لديك مرشحًا ... لقد نسيتُ اسم الرجل، إنه عضو الكونجرس من هذه المنطقة. حسنًا، لم أطلب منه معروفًا من قبلُ، لكنني أعتقد أن لديَّ الحق في أن أطلب منه معروفًا، نظرًا لكل ما قدمتُه لانتخابه. حسنًا، أريدك أن ترسل له برقية وتطلب منه الذهاب إلى وزارة الحرب والاستفسار عن مكان بول واتكينز وصحته. هل لديك قلم رصاص؟»

التفت الأب إلى روث، قائلًا: «حسنًا أخبريني. السرية ب، فوج كاليفورنيا السابع والأربعون، قوات المشاة الأمريكية المتجهة إلى روسيا. أريد من وزارة الحرب أن ترسل برقية استفسار وبرقية الرد، وأرسل خمسةً وعشرين دولارًا لعضو الكونجرس لتغطية التكلفة، وإذا كان هناك أي شيءٍ متبقٍّ يمكنه الاحتفاظ بالباقي. سأرسل لك الشيك بالبريد اليوم. يمكنك أن توضِّح، إذا كنت ترغب في ذلك، أن أحد أفراد الأسرة مريض، وأن الحصول على أي معلومات في الحال مسألة حياة أو موت. أنا ممتنٌّ لك، يا جيك، وإذا كنتَ بحاجة إلى أي بنزين لسيارتك، فقط مُر علينا عندما يبدأ معمل التكرير الجديد في العمل. بالمناسبة، ما رأيك في شيك توزيعات الأرباح الأخير من الشركة؟ ها ها! حسنًا، إلى اللقاء.»

انتظرَت روث لمدة يومَين على أحرَّ من الجمر، وكانت تحبس أنفاسها في كل مرة يرن فيها الهاتف، وأخيرًا اتصل جيك كوفي، أجاب باني، وعلى الفور ترك سماعة الهاتف

وقال: «هناك برقية من عضو الكونجرس ليذرز؛ تفيد وزارة الحرب أن بول موجود في إيركوتسك وأنه بصحةٍ جيدة.» صرخَت روث وترنَّحَت، وحاولَت الإمساك بطاولة الطعام التي كانت تقف بجانبها، لكنها أخفقَت، واضطُر باني إلى ترك السماعة والإمساك بها. فقدَت الوعي وكان وجهها في غاية الشحوب وجسدها باردًا، فوضعوها على الأرض ورشُّوا الماء على وجهِها. وعندما استعادت وعيَها، كان كل ما أمكنَها فعلُه هو البكاء مثل الأطفال. بعد قليل، تذكَّر باني سماعة الهاتف المعلَّقة، وذهب واعتذر للسيد كوفي وشكَره، وكان هذا كل ما تمكَّن باني من فعله للحفاظ على صوته ثابتًا؛ ففي الحقيقة كان هو والأب قلقَين بشأن بول أكثر مما أظهَرا.

بعد أن تمكَّنَت روث من الاعتدال في جلستها والابتسام، قال الأب: «إيركوتسك، أين تقع هذه المدينة؟» فقالت الفتاة على الفور: «إنها على بحيرة بايكال، في وسط سيبيريا.» قال الأب: «يا إلهي، من أين حصلتِ على هذه المعلومات الجغرافية؟» اتضح أنه كان هناك أطلسٌ قديم بين كتب بول، وكانت روث قد حفظَت عن ظهر قلب الجزء الخاص بسيبيريا، بما في ذلك أسماء كل محطة على السكك الحديدية العابرة لسيبيريا — أومسك، وتومسك، وتوبولسك — ووجد الأب هذا الأمر مسليًا، وجعلها تسردُها جميعًا؛ ربَّاه، لو كان هناك جدولٌ زمنيٌّ مرفق، لكانت قد عرفت موعد وصول قطار الشحن الليلي لفلاديفوستوك! كانت تعرف الطبيعة الجغرافية للبلد، والأعراقَ التي تسكنها، وما بها من نباتات وحيوانات ومصالحَ تجاريةٍ رئيسية، وما تتمتع به من فراء، وخشب، وقمح، ومنتجات ألبان.

كانت المشكلة الوحيدة أن معلوماتها كانت قديمة تعود إلى عشرين عامًا مضت! ولذا لم يكن أمامها سوى التوجُّه إلى روزفيل بالعربة عصر ذلك اليوم، وفي المكتبة ستجد أطلسًا جديدًا كبيرًا، وربما بعض الكتب حول هذا الموضوع. قال باني إنه سيُوصلها بالسيارة، وبالفعل ذهبا، ووجدا أطلسًا به صورة لإركوتسك، ميدان عام به بعض المباني أو الكنائس أو المساجد أو أيًّا كان اسمها، تعلوها قبابٌ مستديرة بها طرفٌ مستدق يمتد إلى نقطة بالأعلى، وكان هناك ثلج على الأرض، وزلاجاتٌ ذات أحزمةٍ كبيرة تصل إلى أعناق الخيول وتلتف حولها. قالت روث إن الجو كان باردًا بشدة هناك، وإن بول لم يكن معتادًا على مثل هذا الطقس، لكن باني ضحك وأخبرها ألَّا تقلق بهذا الشأن؛ فبول سيحظى بالكثير من الملابس ليرتديها؛ فقد كان الجيش يوفر أفضل رعايةٍ في التاريخ، وما دام خط السكة الحديد يعمل، فلن يعاني أحد.

لكن هذا لم يكن كافيًا لروث، فما أرادته هو عودة بول إلى المنزل. بالتأكيد، كان من المفترض أن يكون في طريقه للعودة الآن بعدما انتهت الحرب! لكن باني قال إنه سيتعيَّن عليها الانتظار؛ لأن الهدنة لم تكن مثل السلام؛ فقد كان هناك الكثير من المفاوضات التي يتعيَّن إجراؤها، وسيظل الجيش ملتزمًا مواقعه في هذه الأثناء. ولكن عندما يُعلن السلام، سيعود بول بالتأكيد؛ لأننا بالتأكيد لن نواصل تشغيل السكة الحديدية العابرة لسيبيريا بعد انتهاء الحرب. قال باني ذلك وهو يضحك، متعمدًا أن يكون مضحكًا، وابتسمَت روث؛ لأن الفكرة بدت مضحكة لها، كانا في غاية البراءة وبعيدَين كل البعد عن تعقيدات الدبلوماسية العالمية، كانا غرَّين، من السهل خداعهما!

١١

قضى باني أسبوعًا في صيد السُّمانى مع الأب، أو في التجوُّل بمفرده فوق التلال، مفكرًا في بعض الأمور. في النهاية جلس مع والده لمناقشة ما يدور في خاطره. «أبي، أخشى أنني سأخيِّب ظنك، ولكن هذه هي الحقيقة؛ أريد أن أذهب إلى الكلية.»

«الكلية! يا إلهي، لماذا يا بني؟» علت نظرة دهشة وجه الأب، لكنه كان يتظاهر بذلك؛ فقد كان يعلم جيدًا أن باني كان يفكِّر في الالتحاق بالكلية، وقد فكَّر في الأمر كثيرًا.

«أنا فقط أشعر أنني لم أتلقَّ تعليمًا كافيًا يا أبي.»

«ما الذي تريد معرفته؟»

«إنه شيءٌ لا يمكن تحديده؛ فأنت لا تعرف بالضبط ما ستحصُل عليه حتى تحصُل عليه. لكنَّ لديَّ شعورًا أنني أريد معرفة المزيد عن الأشياء.»

بدا الأب محبطًا بشكلٍ مثير للشفقة، لكن هذه المرة كان شعوره صادقًا وغير متعمَّد. «هذا يعني أنك لست مهتمًّا بالنفط.»

«في الواقع يا أبي، هذا ليس صحيحًا تمامًا. يمكنني الدراسة لفترة ثم العودة إلى العمل.»

لكن الأب كان يفهم الوضع بصورةٍ أشمل. «لا، يا بني، إذا ذهبتَ إلى الكلية، فستشعر أنك أعلى مكانةً منا، نحن العاملين في مجال النفط، ولن تلاحظ حتى وجودنا. إذا كان هدفك أن تصبح خبيرًا في النفط، يجب أن يكون مجال دراستك هو النفط.»

«في الواقع يا أبي، حقيقة الأمر هي أنني صغيرٌ جدًّا على معرفة ما أريد أن أكون. وإذا أردتُ أن أفعل شيئًا آخر، فبالتأكيد لدينا ما يكفي من المال …»

«الأمر لا يتعلق بالمال، يا بني، إنها الوظيفة. أنت تعرف ما أشعُر به؛ أحب وجودك بجانبي ...»

قاطعه باني على الفور: «أنا لا أنوي الذهاب بعيدًا؛ فهناك الكثير من الكليات هنا، ويمكنني العيش في البيت. ويمكننا أن نتقابل في عطلات نهاية الأسبوع والعطلات الرسمية، كما هو الحال دائمًا. لن أفقد اهتمامي ببارادايس يا أبي، لكنني حقًّا لن أكون سعيدًا بالعمل بجد حتى يتسنَّى لي معرفة المزيد.»

كان على الأب أن يفسح له المجال لتنفيذ هذه الخطوة. فقد كان يدور في ذهنه تلك الحرب الغريبة؛ حيث يختلط احترام المعرفة، بالرهبة في حضور المثقفين، إلى جانب الخوف من «الأفكار» التي قد يحصُل عليها باني، وتطلُّعاته الغريبة إلى «المثالية» التي ستتسبَّب في جعله غير مناسب ليكون الوريث والوصي على روس كونسوليديتد التي تصل قيمتها إلى عشرين مليون دولار!

الفصل العاشر

الجامعة

١

أنشأ أحد كبار مُلَّاك الأراضي في كاليفورنيا جامعة جنوب المحيط الهادي، باعتبارها مدرسةً دينيةً ميثودية تضُم عشرات المقررات الدينية، واستلزم أن يكون أساتذتها جميعًا من الميثوديِّين. وقد اعتمدَت في تطوُّرها الهائل على أموال قطب من أقطاب النفط الذي كان يدفع الرشاوى للعديد من الحكومات المتتالية في المكسيك والولايات المتحدة، وللحد من شعوره بالذنب والحفاظ على سلامه الداخلي، كان يمنح المستشارين الروحانيين المحترفين مبالغَ طائلة. وعلى ما يبدو أنه لم يكن متأكدًا أي جماعة تملك «العقيدة» الصحيحة للخلاص؛ ولذا قدَّم مبالغَ متساويةً لكلٍّ من الكاثوليك والبروتستانت، الذين استخدموا المال لتقبيح وتقويض بعضهم بعضًا.

لو أن الأب كان يعلم أن ابنه سيتلقَّى تعليمه من تبرُّعات بيت أورايلي، لشعَر بالمتعة والاطمئنان في الحال. ومع عدم معرفته بذلك، ذهب لزيارة المكان، ليرى على الأقل بيئة باني المستقبلية من الخارج. كانت الجامعة قد أُنشِئَت بعيدًا في ضواحي مدينة إنجِل سيتي، لكن المجتمع كان قد نما الآن من حولها؛ مما يعني مساهمة جميع دافعي الإيجارات في المدينة بمزيد من الهبات الكبيرة. كانت مبانيها تتسم بالفخامة، مما أثار إعجاب الأب، لكن ما أذهله أكثر هو أن هذه المباني كانت تعجُّ بخمسة آلاف شاب وشابة؛ فعندما رأى الأب أن هناك عددًا كبيرًا من الأشخاص يفعلون الشيء ذاته، استنتج أنه شيءٌ طبيعي وآمن.

وما زاد من طمأنينته اجتماعه برئيس الجامعة ألونزو تي كوبر، الحاصل على دكتوراه في علم اللاهوت ودكتوراه في الفلسفة ودكتوراه في القانون. كان الدكتور كوبر هو المسئول عن إجراء المقابلات مع الآباء؛ حيث اختاره الأمناء الأثرياء بسبب مهارته

الملحوظة في إجراء المقابلات معهم. كان الدكتور كوبر يعلم كيف يمكن للعالِم أن يحظى بالاحترام ويحترم الآخرين في الوقت ذاته. ولوعي الأب التام بالأمور المالية، قرأ الأفكار التي كانت تدور بعقل الدكتور تمامًا كما لو كان بداخله، فإذا كان مؤسس روس كونسوليديتد سعيدًا بالتعليم الذي يتلقاه ابنه، فقد يتبرَّع يومًا ما بمبنًى لتدريس كيمياء النفط، أو على الأقل يخصِّص منحة لأستاذ في أبحاث جيولوجيا النفط. وبدا هذا التصرف للأب هو المسلك المناسب تمامًا لرجل دين وعلم؛ فقد كان كل شخص في العالم يعمل لجني المال، وكانت هذه الطريقة في غاية الرقي.

وكما هو متوقع، أخذ كلٌّ من الأب وباني الجامعة على محمل الجد. ولم يشُكَّ أيٌّ منهما في أن الأموال المكتسَبة من خلال دعم الأحزاب السياسية، ورشوة المشرِّعين والمسئولين التنفيذيين والقضاة والمحلَّفين يمكن تحويلها، على نطاقٍ واسع، إلى أرقى أشكال التعليم، بموجب قرارٍ تنفيذي. انغمس باني بحماس في المقرَّرات والدرجات، وكان يتنقَّل بسرعة بين صف اللغة الإنجليزية ٥أ إلى الإسبانية ٢، ومن هناك إلى علم الاجتماع ٧ والتاريخ الحديث ١٤، وجمَع كومةً من الكتب المدرسية، واستمَع إلى المحاضرات، وكتَب الملاحظات، وخزَّن في عقله الكثير من التواريخ والتفاصيل الأخرى.

استغرق باني وقتًا طويلًا ليدرك أن «اللغة الإنجليزية» كانت مملةً للغاية، وأن المدرس الشاب الذي كان يدرِّسها كان يشعُر بضَجرٍ شديد من وظيفته، وأن «الإسبانية» كانت تُنطَق بلكنة فرنسية، وكان مدرِّسها يتردَّد سرًّا على مهربي الكحول ليواسي نفسه على اضطراره للعيش فيما اعتبره موطنًا للبرابرة، وأن «علم الاجتماع» كان مجموعةً معقدة من التصنيفات، المصطنَعة بالكامل، ابتكرها السادة المثقفون بحثًا عن شيءٍ يمكن تعلُّمه، وأن التاريخ الحديث كان يُدرَّس من الكتب المدرسية التي خضعَت لتدقيق الآلاف من العيون الثاقبة؛ وذلك لحذف المواضيع التي تثير حفيظة السيد بيت أورايلي، وتجنب إعطاء أي طالبٍ أدنى قَدْر من المعلومات بشأن القوى التي تتحكم في العالم الحديث.

٢

وبالقَدْر ذاته من الجدية، تعامل باني مع الحياة الاجتماعية في هذه المُنشَأة الكبيرة. لقد كان ذلك هو الهدف الرائع البعيد المنال الذي أمَل في تحقيقه جميع طلاب المدارس الثانوية، وبالفعل نجح في ذلك بعض المحظوظين القلائل، وكان باني واحدًا منهم. فقد كان لصديق أخته المقرَّب أخٌ في السنة النهائية، وكان عضوًا في أفضل أخويةٍ على

الإطلاق؛ لذلك صدر قرارٌ بقبول انضمام باني للأخوية على الفور. كانوا حشدًا مفعمًا بالحيوية، ينفقون ببذخ، ويتسمون بحدة الطباع والثقة بالنفس واستخدام المفردات العامية، ويهتمون بشدة بإمكانات فريق العَدْو لهذا العام. كان باني عدَّاءً؛ ولذلك كان لديهم سببٌ للترحيب به أفضل من نفط والده.

مثل جميع الجامعات الغربية، كانت جامعة جنوب المحيط الهادي مختلطة؛ مما جعل باني محاطًا بعددٍ كبير من الفتيات، اللاتي كن يمثلن له جوهر الإغراء المكثَّف والمركَّز. كان هناك العديد من الأجساد الممشوقة، التي تتميز بكواحلَ رشيقة، وأذرعٍ بيضاءَ وسمراء ممتلئة، وملابس بألوان الفراشات البرازيلية، ومجموعة مختلفة من الابتسامات والعيون البرَّاقة، ونسيم دائم من الروائح الناعمة تُشبه تلك التي تنبعث من شجيرات الليلك وكروم الياسمين، وأميال مترامية الأطراف من بساتين البرتقال والليمون في كاليفورنيا. في بيئة كهذه، كان لا بد من حدوث شيءٍ ما لشابٍّ مثالي، خاصةً في ظل أنه كان قد أمضى لتوِّه الصيف في معسكر تدريب للرجال فقط!

لم تعتَد هذه الفتيات ذوات الجمال الساحر على متابعة تقارير السوق الخاصة بروس كونسوليديتد، ومع ذلك فقد تمكَّنَّ بطريقةٍ ما من معرفة مكتشف حقل نفط باراديس والوريث الوحيد له. وتجمَّعَت حوله مجموعاتٌ عديدة من الفتيات الحاضِرات الذِّهْن، ودُعي إلى عشرات من حفلات الرقص، ومئاتٍ من حفلات تناول الحلوى، وآلاف من نزهات السيارات. ثم انتشرت شائعةٌ غريبة، ظاهرة لا يمكن تصوُّرها، مليونير شاب لا يودُّ «ملاطفة» الفتيات! وعبثًا ألقت ساحرات جامعة جنوب المحيط الهادي الماهرات واحدةً تلو الأخرى تعاويذهن، وعلى الفور بدأَت تنتشر التوقعات، والمراهنات على من ستكون الفتاة الأولى التي سيقبِّلها باني روس! تحرَّوا عنه في مدرسة بيتش سيتي الثانوية، وكانت النتيجة أن أمير النفط الشاب كان يحمل بين ضلوعه قلبًا كسيرًا؛ مما جعله بالطبع شخصيةً رومانسية، وأضاف بقَدْرٍ هائل إلى مكانته.

عادةً ما تلعب المفارقات دورًا كبيرًا في هذه الأمور؛ حيث لم يلفت انتباه باني سوى فتاةٍ لم تحاول ملاحقته. وقد تمتَّعَت عائلة هنريتا أشلي بالثروة لأجيال، مما جعل تلك العائلة تنظر بازدراء للمال، ولكل من كان يسعى إليه. أثار هذا المسلك إعجاب باني، الذي كان يدرك أنه حديث العهد باقتناء الثروات. فهو لن يصل أبدًا إلى الثقة بالنفس الاستفزازية التي تتمتَّع بها أخته، كان يبحث عن شيءٍ أفضل مما لديه، ولفترةٍ وجده في آل آشلي، بسلوكياتهم الممتازة، وخدَمِهم المتمرسين، وقصرهم المليء بالأعمال الفنية التي تعكس ذوقهم الثقافي ورقيهم.

كانت هنريتا هيفاء ونحيفة، ولطيفة، وذات صوتٍ رقيق، ومتحفظة لدرجة تقترب من التزمُّت. كانت والدتها قد تُوفِّيَت مؤخرًا، وارتدَت ملابس الحداد السوداء طيلة عام، الأمر الذي كان بالطبع لافتًا للأنظار للغاية. كانت من أتباع الكنيسة الأسقفية المتدينين، وفي صباح أيام الأحد كانت ترتدي قفازاتٍ طويلة خاصة بالأطفال، وتحمل كتاب صلواتٍ صغيرًا وكتاب ترانيم، مجلدَين معًا بجلدٍ أسودَ مزيَّن بإطارٍ ذهبي. اصطحبَت باني إلى الكنيسة حيث تَعَلَّم أنه لا يتعيَّن على المرء أن يفسِّر الأساطير العبرية القديمة بحرفيةٍ مبتذلة؛ فقد تحمل معانيَ رمزيةً يشرحها رجلٌ مسن ذو شعرٍ أبيض يتحدث بلكنةٍ بريطانية.

كانت هنريتا تمثِّل لباني ملاذًا من كرب وصخب الرغبة غير المشروعة. كان يهرُب إليها وكأنه يهرُب إلى قديسة، تجسيد حي ومرئي للسيدة العذراء في حرم الجامعة. كانت بعيدةً كل البعد عن الفظاظة الصارخة لمجموعة الفتيات الذكيات؛ فلم تكن تستخدم مساحيق التجميل، وحتى العرَق لم يجرؤ على الظهور على أنفها المنحوت بدقة. قد يحلُم المرء بتقبيلها، لكنه سيبقى حلمًا، كانت تناديه «السيد روس» في الأشهر الستة الأولى من تعارُفهما، وبعد ذلك كانت تدعوه «أرنولد»، الذي كانت تعتبره اسمًا مبجلًا، ربما لارتباطه باسم الشاعر «ماثيو أرنولد». وإذا كنتَ، كطالب، تفهم هنريتا وتقدِّرها حقًّا، من حيث شخصيتها وأهميتها، فسوف تتفوق أكاديميًّا. وكما جاء في كتاب الصلاة الصغير ذي اللونَين الأسود والذهبي: «أكرموا السلطان وأطيعُوه، واخضَعوا لجميع الولاة والمعلمين والرعاة الروحيين والسادة.»

٣

توجَّه باني إلى بارادايس لقضاء عطلة عيد الميلاد، وهناك وجد أول رسالةٍ أرسلها بول، كانت مكتوبة على بطاقةٍ عادية تحمل ختم قوات المشاة الأمريكية، لكن دون ذكر المكان، ولم يكن هناك طابع بريدٍ يحتوي على «مناظرَ طبيعيةٍ من إيركوتسك» أو «زلاجة يجرُّها جِمال على نهر الفولجا» أو أي شيء من هذا القبيل! جاء بالرسالة: «عزيزتي روث»: «هذه مجرد رسالةٍ قصيرة لإعلامكِ بأنني بخير، وأن كل شيء على ما يُرام. لقد تلقَّيتُ ثلاث رسائل منك. أرجو أن تكتبي لي بانتظام. نحن مشغولون وأنا أستمتع بوقتي. أبلغي حبي لجميع أفراد العائلة ولباني والسيد روس. مع حبي، بول.»

احتفظَت روث بهذا الكنز لعدة أيام، وكان من المستحيل إحصاء عدد المرات التي قرأَته فيها، ودرَسَت كل علامة فيه على كلا الجانبَين. بدت لباني الرسالة مجرد رسالةٍ قصيرةٍ خالية من المشاعر وغير مُرضية، لكنه لم يقُل ذلك لروث، وسأل الأب عن ذلك، فقال الأب إنه لا بد من فرض قَدْر كبير من الرقابة على بريد الجنود، وربما كتب بول هذه الرسالة المجرَّدة للتأكد من تمريرها. سأله باني عن سبب فرض قَدْر كبير من الرقابة، فأجاب الأب بأن هذه أوقاتٌ عصيبة، وكان على الجيش أن يحمي نفسه من دعاية العدو.

كان الأب قد قرأ مقالًا في إحدى المجلات يشرح ما كان يحدث في العالم. فقد انهارت الإمبراطوريتان الألمانية والنمساوية، وكان ذلك انتصارًا كبيرًا للديمقراطية. ولكن الآن كان أمام أنصار الديمقراطية مهمةٌ كبيرةٌ ثانية، وهي القضاء على وحش البلشفية الجامح. فرضوا عليها حصارًا على كل جبهة لتجفيف منابعها، وحيثما شكل الروس المهذبون والمحترمون حكومةً على الحدود، كان الحلفاء يساعدونهم بالمال والإمدادات. استولى الجنرال دنيكين على جنوب روسيا، وأُنشئَ الكثير من الولايات الجديدة في الغرب، وفي الشمال، في أرخانجيلسك، أحرزَت مجموعةٌ مناهضة للبلاشفة تقدمًا في ظل حماية الجيش البريطاني والأمريكي. أما في سيبيريا، فقد كانت هناك حكومةٌ اشتراكية، باقية من أيام كيرينسكي، لكنَّ هؤلاء الاشتراكيين كانوا يتحدثون كثيرًا دون القيام بأي أفعال؛ ولذا طُردوا وحل محلَّهم رجلٌ مقاتلٌ حقيقي، الأدميرال كولتشاك، الذي كان يقود أسطول القيصر فيما مضى. كان الحلفاء يدعمون هذا الأدميرال لإدارة سيبيريا، وكانت قواتُنا هناك لإبقاء السكك الحديدية مفتوحة أمامه. بالطبع، كان البلاشفة والمتعاطفون معهم في هذا البلد يثيرون ضجة حول هذا الموضوع، وينشرون كل الأكاذيب التي استطاعوا ادِّعاءها، وأضاف الأب قائلًا إن هذا هو السبب في ضرورة وجود رقابة.

قبل باني بهذا التفسير دون مناقشة. لقد كان في معسكر تدريب لمدة سبعة أشهر، واكتسب وجهة النظر العسكرية. وكان متيقظًا بشدة لخطر الدعاية البلشفية، وقرَّر أنه إذا واجه أيًّا منها، فسوف يُسارِع إلى إدانتها وشجبها. كان ساذجًا جدًّا، غير مدرك لدهاء العدو، لم يخطر بباله أنه كان في هذا الوقت يمتَص السم، والأدهى والأمَر أن هذا كان يحدث، من بين جميع الأماكن في العالم، في إحدى قاعات الدراسة في جامعته المسيحية المحافظة!

كان الأمر صعبًا على رئيسِ جامعةٍ مسكين يعمل فوق طاقته. كان العميد الأكثر ثقةً لدى الدكتور كوبر قد عيَّن هذا المدرس الشاب، بناءً على توصية من مسئولين رفيعي

المستوى في جمعية الشبان المسيحية. كان الشاب دانيال ويبستر إيرفينج فيما مضى يقوم بأعمال إغاثة في سالونيك، وهو ابن قسٍّ ميثوديٍّ بارز؛ ولذا كان من المستحيل أن يتخيل أي شخص أن رجلًا مثل هذا قد يعاني من تأثيراتٍ نفسيةٍ ناجمة عن صدمةٍ سياسية.

كانت طريقة هذا المدرس الشاب في غاية الدهاء؛ فهو لم يقُل أي شيء يمكن أن يُؤخذ عليه، لكنه كان يزرع بذور الشك من خلال طرح الأسئلة، ونصح الطلاب «بالتفكير في الإجابات». يُوجد دائمًا في كل فصلٍ جامعي واحدٌ أو أكثر من «المحتجين»، أبناء الآباء غير التقليديين؛ كان أحدهم في فصل باني قد صرَّح أنه «عقلاني»، وآخر كان يحمل اسمًا روسيًّا. كل ما كان على المعلم فعله هو السماح لهذَين الطالبين بطرح الأسئلة، وسرعان ما كانت المجموعة بأكملها تجد نفسها في متاهة، وتشعُر بالإحباط بسبب ما تصفه الحكومة اليابانية في عملية مراقبتها للتعليم بأنه «أفكارٌ خطيرة».

كان الرئيس ويلسون قد ذهب إلى أوروبا لتحقيق العدالة التي وعَد بها. وكان يحقق تقدمًا رائعًا عَبْر إنجلترا وفرنسا، وكانت صحفُنا مليئةً بأخبارٍ عن المعجزات التي كان على وشك تحقيقها. ولكن في فصل السيد إيرفينج، سمع باني أن الرئيس حذف أهم نقطةٍ من «نقاطه الأربع عشرة»، وهي المطالبة بـ «حرية البحار». هل يمكن أن يكون هذا هو ثمن الدعم البريطاني لبرنامجه؟ الأكثر إثارةً للدهشة هو أن باني اكتشف أن المعاهدات السرية التي وقَّعها الحلفاء فيما بينهم في بداية الحرب قد وُضعَت الآن على طاولة السلام، وكانت أساس المشاحَنَات المحتدمة. لم ينسَ باني قطُّ تلك المعاهدات، وكيف طمأن الأب بول أنه سيتبيَّن أن البلاشفة هم من قاموا بتزييفها. لكن ها هم الحلفاء يعترفون بأنها حقيقية، وعلاوةً على ذلك، كانوا يخطِّطون لتطبيقها، بغض النظر عن أي وعودٍ بالعدالة كان الرئيس ويلسون قد قدَّمها للألمان!

نقل باني هذه الأخبار الرائعة معه إلى الأب، على ما يبدو أن بول كان على حق، وكان البلاشفة الأشرار يقولون الحقيقة! ماذا كان رد فعل الأب؟ لم يستطع الأب استيعاب هذا الأمر، وكان منزعجًا جدًّا، ولم يكن بإمكانه إلا أن يقول إننا لا نستطيع إصدار الأحكام الآن، وعلينا الانتظار. لكن المشكلة كانت أنه كلما طال الانتظار، كانت الأمور على ما يبدو تزداد سوءًا، وأصبح من الواضح أن رئيسنا قد فعل الشيء الذي كان الأب واثقًا من أنه لن يفعله أبدًا؛ فقد سمَح لنفسه بالتعرُّض لـ «الخداع». ومثل المياه التي تتسرَّب من تحت سد، كان هناك تيارٌ خفيٌّ من الشك يتسلَّل عَبْر فصول الطلاب الجدد في جامعة جنوب المحيط الهادي التي كانت تدرِّس مادة «التاريخ الحديث ١٤».

لم يكن من المفترض أن يناقش السيد إيرفينج مؤتمر السلام على الإطلاق، وكان من المفترض أن يتأكَّد من أن طلابه يحفظون أسماء المعارك والجنرالات القادة في الحرب الفرنسية البروسية. لكن أحد الموضوعات كان يؤدي بسهولة إلى الآخر، وكان من الصعب للغاية الحفاظ على هدوء «المحتجِّين»! كان هذا الأمر يتكرَّر في الفصول الدراسية الأخرى، وفي أجزاءٍ أخرى من الولايات المتحدة حيث كان الرجال يلتقون برفاقهم؛ ومن ثَمَّ كانوا يتعرضون لـ «الأفكار الخطيرة». لم يمضِ وقتٌ طويل حتى عُرضَت الأفكار المحظورة في الكونجرس، وبعد ذلك لم يكن من الممكن إبعادها عن الصحف. كان الأمر أشبه بعاصفةٍ اجتاحت البلاد كلها. وحدثَت صحوةٌ جماعية لمليون مثالي مثل باني، على حقيقةٍ قاسية مفادُها أن مبادئهم السامية لم تكن سوى سراب.

٤

نعم، لقد كان وقتًا عصيبًا لكل من كان يعيش في هذا العالم. فكل تلك الوعود الذهبية التي كنا قد وُعدنا بها، وتلك الآمال المُشرِقة التي كنا نعتز بها أصبحَت سرابًا! وكل دماء الشباب التي أُريقت، ثلاثمائة ألفٍ منهم بين قتيل وجريح في فرنسا، ذهبَت هباءً، وها هم السياسيون المتحالفون، هؤلاء العجزة المتجهِّمون القساة، جالسون على طاولة المشاورات ويعيدون العالم إلى ما كان عليه من قبل! وبذلك كانوا يخلِّدون كل الأحقاد والمظالم القديمة، ويضيفون عليها العديد من الأحقاد والمظالم الجديدة لتشويه المستقبل! كانوا يطردون الألمان بعيدًا عن أرضهم ويمنحونها للفرنسيين، ويسلِّمون النمساويين للإيطاليين والروس للبولنديين، وقائمة طويلة من الأخطاء الفادحة، والنتيجة الحكم على ملايينَ من الناس بالعيش في ظل حكوماتٍ يخشَونها ويحتقرونها، وبذلك يتأكَّدون من قيام ثورات، ويدفعون بأوروبا إلى الفوضى مرةً أخرى!

لم يستطع الناس إدراك هذه الأشياء دفعةً واحدة، فكانوا يستوعبونها شيئًا فشيئًا، مع تسرُّب تفاصيل المفاوضات. كانت كل دولة في العالم تقوم بدعايةٍ خاصة بها، وتفكِّر بأنانية في مصالحها الخاصة، وكان الرئيس ويلسون وسط هذه الفوضى يتعرض لضغوطٍ متضاربة من كل اتجاه، عاجزًا تمامًا عن تحقيق الأهداف الطيبة التي كان قد أعلن عنها. وعندما وصلَت هذه الصورة إلى أمريكا، انتشَرَت موجة من الاشمئزاز لم تكن معروفةً من قبلُ.

ثم عاد الرئيس نفسُه إلى الوطن ليُعلِن أنه قد حقَّق نصرًا كاملًا. وباسم «تقرير المصير لجميع الشعوب» أعطى راينلاند الألمانية لفرنسا، والمستعمرات الألمانية في أفريقيا لبريطانيا، وتيرول الألمانية لإيطاليا، ومقاطعةً صينية لليابان، ومنح الولايات المتحدة الأمريكية حق الانتداب على أرمينيا! كما أقام تحالفًا دائمًا مع فرنسا وبريطانيا، ألزمنا أنفسنا بموجبه بالحفاظ على قرارات تقرير المصير هذا إلى الأبد! وعندما نُفِّذ هذا البرنامج بشكلٍ كامل، سادت أجواءٌ من الاستخفاف المرح بين المثقَّفين الشبان في أمريكا؛ حيث بدأَت الأمهاتُ الصغيراتُ العصريات يخدعْنَ أزواجهن باسم العفة، وبدأ الطلاب الجامعيون في حمل قَنَانيِّ الخمر بجيوب سراويلهم بدافع مناصرة قرار حظر شرب الخمر.

كان الأمر صعبًا جدًّا على باني؛ لأنه كان عليه الذهاب إلى بارادايس من حين لآخر، والالتقاء بروث وجهًا لوجه، وشرح أن تقرير المصير لشعب سيبيريا كان يعني أن شقيقها يجب أن يبقى هناك في وقت السلم، موجهًا سلاحه لأعناق الناس هناك. ولتوضيح هذا الموقف الفريد، أصبح باني محتالًا ماهرًا كما لو كانت لديه وظيفةٌ دبلوماسيةٌ منتظمة بحصانة تتجاوز الحدود الإقليمية. تمكَّن من فعل ذلك لمدة شهر أو شهرَين، وفي غضون تلك الفترة أُجبِر الألمان على الذهاب إلى فرساي، والتوقيع على اتفاق لدفع تعويضٍ ضخم للغاية.

ثم جاءته ذات يوم رسالةٌ جعلَت مهمَّتَه شبهَ مستحيلة. لقد كانت رسالةً بسيطةَ المظهر، مكتوبة بخط يدٍ سيئ على بعض الأوراق الرخيصة، ومختومة بختم بريد سياتل، وموجهة إلى «السيد باني روس، بارادايس، كاليفورنيا.» كان نصها:

«عزيزي السيد باني: أنت لا تعرفني لكنني جندي مُسرَّح من الجيش كنتُ أرعى الماشية في وادي ساليناس. طلب مني بول واتكينز أن أرسل لك خطابًا لأنه لا يمكنه الحصول على أي أخبار بسبب الرقابة. لقد سُرِّحتُ من الجيش بسبب إصابتي بالزحار الآسيوي؛ فأمعائي تنزف منذ ثلاثة أشهر، وعليك أن تغسل يديك جيدًا بعد قراءة هذه الرسالة؛ لأن من السهل التقاط عدوى هذا المرض. أنا في عزلة وهذه الرسالة ستُرسَل في سرية، وأستحلفك بالرب ألَّا تُخبر أحدًا أنني أنا من أرسلَها؛ فمن المؤكد أنهم سيزجُّون بي في السجن. لكن بول قال إن والدك قد يفعل شيئًا لإخراجنا من هذا الجحيم إذا علم بالأمر. سيد باني ماذا نفعل في ذلك المكان ولماذا علينا البقاء هناك؟ درجة الحرارة أربعون تحت الصفر معظم الشتاء، وتهبُّ عواصفُ شديدة في كثير من الأحيان، وبالرغم من ذلك علينا الاضطلاع بمهام الحراسة، وفي الصيف يكون البعوض كبيرًا في حجم الذباب ولا

يلدغ دون أن يمصَّ دمًا. واليابانيون يطلقون النار علينا، من المفترض أنهم حلفاءُ لنا، لكنهم بالتأكيد يحاولون الاستيلاء على هذا البلد، من المفترض ألَّا يزيدَ عدَدُهم عن سبعة آلاف، ولكن يُوجَد سبعون ألفًا، والسؤال لماذا أدخلناهم إلى هناك؟ لا يُسمح لجنودنا بحمل أسلحةٍ شخصية؛ ولذا بينما يحمل اليابانيون حِرابًا، لا نملك سوى قبضاتنا. لدينا مناطقُ من المفترض أن نسيطر عليها، لكن اليابانيين لن يكُفُّوا عن انتهاكها، وقد رأيتُهم يصطفُّون حاملين الرشاشات، وإذا اضطُرِرنا إلى محاربتهم على سيبيريا، فسيُقتل بالتأكيد الكثير من جنودنا بمجرد البدء. ولقد سمعتُ عقيدنا يقول إن اللاجئين والضباط الروس الذين لدينا أوامر بمساعدتهم، يضيِّعون ما نمنحهم من مال لإنشاء حكومة على العربدة، وفي تلك الليلة عليك إخراجهم من بيوت الدعارة. لديهم فكرةٌ واحدة فقط وهي إطلاق النار على جميع العمال الذين يمكنهم أَسْرهم وكذلك العاملات وتعذيبهم، سيد باني، لقد رأيتُ أشياء قد تشعُر بالغثيان من مجرد قراءتها. إن الجميع يعاني من هذه المهمة، بدءًا من الجنرال جريفز حتى جنود الجيش، وأصيب بعضهم بالجنون؛ فقد كان هناك أكثر من عشرين جنديًّا في فوجنا، وأُعيد بعضهم إلى الوطن مرتديًا سترة المجانين. لكن لا يُسمح للناس في الوطن بمعرفة أي شيء؛ فهناك شبانٌ في فوجنا لم يصلهم سطرٌ واحد من عائلاتهم خلال ستة أشهر؛ ولذا أصابهم الجنون من شدة القلق. لماذا يجب أن نظل هناك رغم انتهاء الحرب، أتمنى أن تخبرني إذا كنتَ تعلم السبب. لكن بول أوصاني بعدم إخبار أخته؛ لأن الأمور ليست بغاية السوء معه؛ فقد كانوا ينقلونه كثيرًا من موقع لآخر وكان دائم الانشغال، يكون الأمر سهلًا عندما يكون لديك الكثير من أعمال النجارة، ولكنني رأيتُ بعض الرفاق يحملون كومةً من دعامات قضبان السكك الحديدية مائة ياردة، ثم يعيدونها إلى المكان القديم فقط لإبقائنا مشغولين بالعمل. من فضلك أرسِل لي بعض السجائر كوسيلة لإثبات أنك تلقيتَ هذا الخطاب، وإذا أرسلتَ عُلبتَين، فسأعلم أنك تريد مني أن أرسل لك مزيدًا من الرسائل. مع فائق احترامي، جيف كوربيتي.»

٥

أخذ باني هذه الرسالة إلى الأب، وبالطبع جعلَته يشعر بالقلق الشديد، لكن ماذا يمكن للأب أن يفعل حيال ذلك الأمر؟ كان عليه حفر ثلاثِ آبار في ذلك الأسبوع، وانفجَرَت إحداها ولطَّخَت بضع مئات من الأفدنة من الصخور. كما كان عليه هو والسيد روسكو التعامل مع التقلبات المذهلة في سوق النفط. بدا كما لو أن كل دول العالم قد شرعَت

فجأة في شراء البنزين، ربما كانت تعوِّض النقص الذي حدث أثناء الحرب، أو ربما كانت تستعد لحربٍ أخرى؛ على أية حال، كان السعر مرتفعًا للغاية، وكانت منطقة جنوب كاليفورنيا تنضب. وكان من المدهش حقًّا أن محطات الوقود كانت ترفض البيع لأي شخصٍ باستثناء زبائنها المعتادين، وكانت الكمية لا تزيد عن خمسة جالونات فقط في المرة الواحدة، وكانت المحطات الأخرى خالية من الوقود، وتوقفَت السيارات لأيام. كان الأب والسيد روسكو يحققان أرباحًا هائلةً من هذا الوضع، قال الأب ضاحكًا إنهم كانوا يحصلون على أموالٍ حقيقية أيضًا، وليس هذه السندات الأجنبية!

أرسل باني دزينة من خراطيش السجائر إلى جيف كوربيتي، وليلًا ونهارًا كان عقله منشغلًا بمشكلة بول. بطريقةٍ ما، اتخذ قمع البلشفية جانبًا مختلفًا تمامًا عندما صار يعني بقاء بول في سيبيريا! وكذلك، بدَت الدعاية البلشفية مختلفةً عندما عبَّر عنها راعي ماشية سابق من وادي ساليناس! ببساطة كان على باني أن يفعل شيئًا، وفي النهاية جلس في يأس وكتب رسالة إلى عضو الكونجرس، السيد ليذرز، يخبره فيها بما سمعه عن الظروف في سيبيريا، ويطلب من ذلك الموظف المسئول التحقُّق من أسباب فرض وزارة الحرب الرقابة على بريد الجنود في وقت السلم، وكذلك لحث الكونجرس على إجراء تحقيق في أسباب بقاء القوات الأمريكية في سيبيريا.

كان من المقرر أن تصل تلك الرسالة إلى عضو الكونجرس بعد خمسة أيام. بعد سبعة أيام من إرسال باني لهذه الرسالة، جاء سيدٌ محترمٌ أنيق ولطيف إلى منزل آل روس في مدينة إنجِل سيتي، موضحًا أنه كان صاحب امتيازٍ نفطي في سيبيريا وأراد أن يقنع السيد روس بمشاركته. كان الأب في بارادايس؛ لذلك تحدث باني مع السيد المحترم، وبعدما وجده باني رحيمًا وكاثوليكيًّا، أخبره بكل شيء عن بول، وأراه رسالة جيف كوربيتي. ناقشا الوضع في سيبيريا، وقال السيد المحترم إنه لم يكن هناك إعلان للحرب على الروس؛ ولذا فبأي حق نقاتلهم؟ قال باني إن الأمر بدا له كذلك أيضًا، ثم غادر السيد المحترم، ولم يكن هناك أي أخبار عن امتياز النفط، ولكن بعد بضعة أسابيع، تلقى باني رسالةً ثانية من الجندي الراعي البقر السابق، يلومه بمرارة لأنه «خذَله»، ولا بد أن يكون هو من فعل ذلك؛ فجيف لم يكن قد أرسل أي رسائل لأي شخصٍ آخر، ومع ذلك علم الجيش بأمره، وأُلقي به في السجن تمامًا كما سبق أن قال، وكان يُهرِّب هذه الرسالة ليلعن باني متمنيًا له أن يُخَلَّد في الجحيم. كان هذا الموقف خطوةً جديدة في مرحلة تعليم ذلك الصبي المثالي الصغير!

كان على باني بكل تأكيدٍ التحدُّث إلى شخصٍ ما بشأن ما حدث. وفي اليوم التالي، بينما كان يقود سيارته الرياضية الجديدة بعيدًا عن الجامعة، لاحظ شابًّا يسير بعرجٍ طفيف، وظن أنه من غير اللائق أن يقود طالب بالجامعة سيارةً رياضيةً جديدة، بينما يسير مدرس بالجامعة وهو يعرج هكذا. أبطأ باني من سرعة السيارة، وسأل الشاب: «هل تريد توصيلة، سيد إيرفينج؟»

قال الآخر: «إذا كانت وجهتُنا واحدة.»

كان رد باني: «سأتجه إلى الوجهة التي تريدها. في واقع الأمر، كنتُ آمل أن أحظى بفرصةٍ للتحدث معك، وسيكون ذلك بمثابة معروفٍ لي.»

ركب الشاب السيارة، وأخبره بالعنوان الذي يريد الذهاب إليه، ثم قال: «ما الذي يجول بخاطرك؟»

«أريد أن أسألك لماذا في ظنك نحتفظ بجيش في سيبيريا.»

كان السيد دانيال ويبستر إيرفينج شخصًا غريب المظهر؛ فقد كان رأسُه يبرز من ياقة ملابسه على نحوٍ ملحوظ، وكانت حركات رأسه المتأهبة السريعة تجعلك تفكِّر في طائر سُمانى يجلس على شجرة، يراقبك ويراقب بندقيتك. كان لديه شاربٌ بني، كث وأشعث، وعينان رماديتان يُثبِّتُهما بحدةٍ عليك عندما تقول شيئًا غبيًّا في قاعة الدراسة. كان يحدِّق الآن في باني، متسائلًا: «ما الذي يجعلك مهتمًّا بذلك الأمر؟»

«لديَّ صديق مع القوات هناك، منذ ما يقرُب من عام، ولديَّ بعض الأخبار التي تقلقني. أنا لا أفهم ما يحدث.»

قال السيد إيرفينج: «هل تسألني بصفتك طالبًا أم بصفتك صديقًا؟»

أجاب باني وهو يشعُر ببعض الحيرة: «عجبًا. يسُرني أن أكون صديقك، إذا سمحتَ لي بذلك. لكن ما الفرق؟»

قال الرجل الآخر: «الفرق قد يكون فقداني لمنصبي في الجامعة.»

احمرَّ وجه باني خجلًا. «لم أفكِّر في أي شيء من هذا القبيل، سيد إيرفينج.»

«دعني أحدثك بصراحة، يا روس. لقد أنفقتُ كل مدخراتي على أعمال الإغاثة في أوروبا وعدتُ إلى الوطن مفلسًا. والآن أتولى مسئولية تعليم أختي الصغيرة، وأتلقى أجرًا سخيًّا من الجامعة يبلغ ألفًا وثلاثمائة دولار سنويًّا. ومن المقرَّر أن أحصل على زيادة بمقدار مائتَي دولار العام المقبل، وستُناقش مسألة العقود هذا الشهر. ولذلك إذا أُبلغ عن دفاعي عن البلشفية أمام طلابي، فلن أحصُل على عقد، سواء هنا أو في أي مكانٍ آخر.»

«يا إلهي، لكن سيد إيرفينج، أنا لن أفكر حتى في الإبلاغ عنك!»

«لن تحتاج إلى ذلك. ما عليك سوى إخبار والديك أو أصدقائك بما أظن أنه في رأيي سببُ وجود قواتنا في سيبيريا، وسيعتبرون أن من واجبهم الأخلاقي الإبلاغ عني.»

قال باني: «هل الوضع بهذا السوء؟».

قال السيد إيرفينج: «الوضع سيئ للغاية لدرجة أنني لا أستطيع تخيُّل كيف يمكن أن يصبح أسوأ من ذلك. سأجيب عن سؤالك بشرط أن توافق على أنني أتحدَّث كصديق، وأنك لن تذكُر المحادثة لأي شخصٍ آخر.» كان بالإمكان رؤية مدى عمق سقوط باني في أَشْرَاك البلشفية، عندما كان على استعداد للموافقة على اقتراح مثل هذا!

٦

ما قاله السيد إيرفينج هو أن قواتنا كانت في سيبيريا؛ لأن المصرفيين الأمريكيين ورجال الأعمال الكبار كانوا قد أقرضوا حكومة القيصر مبالغَ ضخمةً من المال، قبل الحرب وخلالها، ولقد تنصَّلَت الحكومة البلشفية من هذه الديون؛ ولذلك صمَّم المصرفيون ورجال الأعمال لدينا على تدميرها. لم يكن الأمر متعلقًا بالمال فحسب، ولكنها مسألة مبدأ يتجاوز القضية التي كانت على المحك، فإذا كان بإمكان حكومة أي بلد التنصل من التزامات حكومةٍ سابقة، فماذا عن القروض الدولية؟ أصرَّت الدول الدائنة، أي أمريكا وبريطانيا وفرنسا، أن الدَّين الحكومي هو حقٌّ قانوني، ليس على الحكومة، ولكن على الدولة ومواردها. كان المبلغ الإجمالي للقروض الدولية مائة أو مائتَي مليار دولار، وكانت الدول الدائنة تهدف إلى جعل روسيا السوفييتية عبرةً لمن لا يعتبر، وإرساء القاعدة التي تنُص على أن الحكومة التي تتنصَّل من ديونها ستُقال من منصبها.

وجد باني وجهة النظر هذه جديدة؛ ولذلك طرح العديد من الأسئلة. قال السيد إيرفينج إنه في وقت الحرب كان هناك سفيرٌ روسي في واشنطن، وبسبب منصبه كان هو المسئول عن إدارة الأموال التي أقرضَتها لهم حكومتنا، واستُخدمَت في شراء الأسلحة والقذائف لروسيا. في وقت الثورة البلشفية، كان هذا السفير قد حصل على ما يقرب من مائة مليون دولار، وكانت حكومتُنا تسمح له باستخدامها لإنشاء جهاز دعاية ضد الحكومة السوفييتية، بالإضافة إلى نظام تجسُّسٍ متطور يضاهي نظام التجسس الذي كان قائمًا في فترة حكم القيصر. وكان كلٌّ من الصحف والصحفيين والمسئولين الحكوميين والمشرِّعين في قائمة الرواتب التي يدفعها هذا السفير. علاوةً على ذلك، كان لدينا مسئولون

في وزارة الخارجية تزوَّجوا زوجاتٍ روسيات من طبقة النبلاء البائدة، وهؤلاء الزوجات فقدْنَ كل شيءٍ في الثورة، وكان من الطبيعي أن يكرهْنَ النظام الجديد. وكان أحد المسئولين عضوًا في المؤسسة المصرفية التي كانت تدير مسألة القروض وتكبَّدَت خسارة فادحة، وكان مسئولون آخرون مرتبطين بالبنوك والشركات التي كانت جازفَت بمبالغَ ضخمة. لذلك، دخلَت أمريكا في حالة حرب مع روسيا السوفييتية، امتدَّت لجميع أنحاء تلك الجمهورية الشاسعة؛ ولذلك لم يستطع مدرس في إحدى الجامعات الأمريكية مناقشة الأمر مع أحد طلابه، حتى خارج حجرة الدراسة، دون أن يخاف من فقدان منصبه.

نفى السيد دانيال ويبستر إيرفينج أن لديه أيَّ تعاطُف مع البلشفية، أو أنه كان يرغب في تدريس هذه المذاهب في أمريكا، وصدَّق باني، بروحه البريئة، هذا التصريح، غير مدرك أن جميع عملاء البلاشفة يقولون ذلك، حتى تتسمَّم عقول ضحاياهم تمامًا. وأعرب السيد إيرفينج عن رأيٍ مفادُه أن ما يحدُث في روسيا كان تجربةً اجتماعيةً عظيمة. وسأل: هل يمكن أن تنجح حكومةٌ من الطبقة العاملة؟ هل الديمقراطية في الصناعة ممكنة أم مجرد حُلم لدى أحد المتعصبين؟ يجب أن نرسل أشخاصًا غير متحيزين، خبراء من جميع المجالات إلى روسيا، لرؤية ما كان يحدث والإبلاغ عنه. لكننا، بدلًا من ذلك، كنا نساعد فرنسا وبريطانيا على تجويع الروس، وكنا نُجبِرهم على بذل كل طاقاتهم في مقاومة جيوشنا، والجيوش التي كنا ندعمها، وبذلك كنا نجعل نجاح التجربة أمرًا مستحيلًا؛ ومن ثَمَّ، بالطبع، لن يثبت فشلها شيئًا.

أما باني، ضحية الدعاية الصغير المسكين، فقال إنه بدأ يغيِّر رأيه بشأن هذه الأمور. نعم، من المؤكد أن للروس الحق في حل مشكلتهم بطريقتهم، وبالتأكيد يجب أن نعرف حقيقة ما كان يحدث، وتمنى أن تكون هناك طريقةٌ ما لمعرفة ذلك. وبناءً على ذلك، أعطاه السيد إيرفينج اسم مجلتَين أسبوعيتَين، تصادف أنهما قد استُبعِدتا للتو من مكتبة الجامعة، ومن جميع المدارس الثانوية في مدينة إنجِل سيتي، بسبب ما تحتويانه من «أفكارٍ خطيرة».

يمكنك تخيُّل ما حدث بعد ذلك. عندما تخبر فتًى مفعمًا بالحيوية أنه يجب ألَّا يقرأ منشوراتٍ معينة، يملؤه الفضول على الفور لمعرفة ما تحتويه هذه المنشورات. عاد باني إلى المنزل واشترك في هاتَين المجلتَين، مستخدمًا اسمه الحقيقي. وبذلك أُضيف اسمٌ جديد في فهارس البطاقات الخاصة بإدارة الاستخبارات العسكرية وإدارة الاستخبارات البحرية وجهاز المخابرات، فضلًا عن العديد من المنظمات التي كانت تستخدم فهارس

البطاقات هذه باعتبارها ملكًا لها، مثل العديد من الجمعيات الوطنية، والعديد من الصحف المتشددة، والعديد من وكالات المباحث الخاصة الكبيرة، بما في ذلك، بالطبع، إدارة الاستعلامات الخاصة بسفيرٍ سابق من حكومةٍ روسية لم تعُد موجودة.

قرَّر باني، متلمسًا طريقة للبحث عن طريقةٍ ما لمساعدة بول، إرسال رسالة إلى صحيفة جامعة جنوب المحيط الهادي «ستود»، يعبِّر فيها عن رأيه بشأن الوضع في سيبيريا، وبالطبع، كان حريصًا على عدم الإشارة إلى السيد إيرفينج، أو ذكر اسم بول أو جيف كوربيتي. أعاد الطالب الذي يتولى منصب رئيس التحرير رسالتَه إليه، مرفقًا معها ملاحظةً يحتج فيها على تقديم رجل بشهرته في الجامعة مثل هذه المساعدة لأعداء بلاده. وانتشَر خبر هذه الواقعة، وذاعت الشائعات المبالغ فيها، ووجد باني نفسه محاصرًا بين الأصدقاء وغيرهم ممن أرادوا قراءة الرسالة، ثم الدخول في جدال معه.

أعلن أحد طلاب السنة النهائية أنه يتفق مع باني؛ فبالتأكيد كان من حق الروس إدارة بلدهم. كان اسم هذا الفتى بيلي جورج، وكان والده ثريًّا يعمل في مجال تصنيع الأنابيب الحديدية. وغنيٌّ عن القول، أن باني كان سعيدًا بهذا القَدْر القليل من التعاطُف، وسمح لصديقه الجديد أن يقرأ رسالته إلى «ستود»، ورسالة جيف كوربيتي إليه، وأخبره بكل أفكاره ومشاكله، وبذلك أُثريت فهارس البطاقات في إنجِل سيتي ونيويورك وواشنطن بمزيد من المعلومات. ونظرًا للسماح للعديد من الأشخاص الآخرين بفحص هذه الفهارس، فمن المؤكد أن إلقاء نظرة على الملف لن يكون أمرًا غير وطني في حالتنا. كانت البطاقات بحجم ستة في ثمانية، مكتوبًا على كلا جانبَيها بخطٍّ منمق، وعندما كانت تمتلئ إحداها، تُبدأ الكتابة على أخرى. وكانت تفاصيل شابنا المثالي تبدو الآن على النحو التالي:

«روس، جيمس أرنولد، طالب في السنة الأولى، معروف باسم باني، يسكن في ٦٧٩ شارع إس ميندوسينو، إنجِل سيتي، كاليفورنيا، وكذلك في بارادايس، مقاطعة سان إليدو، كاليفورنيا، العمر ٢٠ عامًا، الطول خمس أقدام وتسع بوصات ونصف، شعرٌ بني، عينان بنيتان، ملامحُ عادية، مرفق صورة. ابن جيه أرنولد روس، نائب رئيس شركة روس كونسوليديتد أويل، بناية فيرنون روسكو، إنجِل سيتي، كذلك له مصالحُ نفطيةٌ مستقلة، تقدَّر قيمتها بنحو ٢٥ مليون دولار. خريج مدرسة بيتش سيتي (كاليفورنيا) الثانوية، عام ١٩١٨، تقارير المدرسة جيدة، له علاقاتٌ جنسية، مرفق تقرير العميل ١١٤٩٧. متعاطفٌ نشط مع إضراب النفط ببارادايس ١٩١٦–١٧، صديقٌ حميم لبول واتكينز، قائد الإضراب، الملف ١٢٧٢دابليو١٧. يُشتبه أن يكون بينه وبين روز واتكينز،

أخت بول، علاقةٌ حميمية. تلقى تدريبًا في معسكر آرثر، ١٩١٧–١٨، سجلٌّ مُرضٍ. أرسل رسالة إلى السيد إتش جي ليذرز، ممثل مقاطعة كاليفورنيا رقم ٤٩، مدفوعًا من الجندي المُسرَّح جيف كوربيتي، ملف رقم ٩٦٧٨كيه٣٠؛ انظر الرسالة المرفقة، وكذلك تقرير العميل ٢٣٦٧٢ المرفق. فصل عام ١٩٢٣، جامعة جنوب المحيط الهادي، أخوية كابا جاما تاو، عدَّاء، تلميذ دانيال واشنطن إيرفينج، ملف رقم ٣٢٧١١٨. متعاطف مع البلاشفة. مشترك في مجلتَي نيشن، ونيو ريبابليك. تقاريرُ أخرى من العميل ١١٤٩٧، طالب زميل، وكذلك ٩٦٢١، الصديق الحميم لأخت الهدف، المعروفة باسم بيردي روس.»

٧

كان لدى روس الأكبر مصدرٌ آخر للمعلومات المتعلقة بالشئون العالمية، إلى جانب صحيفته الصباحية والمسائية وابنه المثالي. فقد كان زملاؤه في مجال النفط يفكرون بشدة في هذا الموضوع، وعقدوا مؤتمراتٍ طويلة ودرَسوا تقاريرَ مفصلة. كما أنهم كانوا غير راضين عن دبلوماسية الرئيس ويلسون، ليس لأنه لم يجعل العالم آمنًا للديمقراطية، ولكن لأنه لم يجعله آمنًا للمنقبين عن النفط. ففي الأراضي التي أُخذَت من الأعداء كانت هناك مناطقُ غنية بالنفط بها ثروات لا تُعَد ولا تُحصى، ولكن، باسم المثالية الحمقاء، كنا نسمح لفرنسا وبريطانيا بالاستيلاء على هذا الكنز، بينما كنا نتولَّى مسئولية إبعاد الأتراك عن الأرمن!

فيما يتعلق باهتمامات الأب الشخصية، ظل تركيزُه على الديار. وكانت إكسلسيور بيت وفيكتور أويل وبقية «الخمسة الكبار» هم الذين يسعَون للحصول على امتيازاتٍ أجنبية، وإذا تمكَّنوا من الحصول عليها، فقد ينخفض سعر النفط في الوطن، الأمر الذي سيكلف الأب خسارة مبلغٍ كبير من المال. ومع ذلك، فقد تبنَّى ذلك الموقف الوطني؛ فالبلاد بحاجة إلى النفط، ودورنا توفيره. كما ترى، كان الأب أيضًا مثاليًّا، وقد أزعجه أن هذا النوع من المثالية لم يكن موضع تقدير من ابنه.

بدأ يقتنع بأن اللوم يقع على الجامعة. وبغَض النظر عما قد يقوله باني، فقد كان هذا «التعليم» هو الذي يشوِّش على عقله، ويُفسِد قدرته على التعامل مع الأمور العملية. أدرك باني عدة مرات أن الأب الداهية كان يتفحَّص عقله؛ لا بد أن شخصًا أكبر سنًّا من باني يؤثِّر على تفكيره، والحقيقة الأكثر إثارةً للريبة هي عدم ذكر باني لهذا الشخص. أدرك باني أن اسم دانيال ويبستر إيرفينج، المعروف بدانييل واشنطن إيرفينج، كان

سيظهر حتمًا للعلن، عاجلًا أم آجلًا؛ لذلك خطرَت له فكرةٌ ذكية، كان سيطلب من الأب مقابلة صديقه المدرس! فمن المستحيل أن يبلغ الأب عن رجل استقبلَه في بيته!

«أبي، أريد أن أحضِر أحد أساتذتي ليرى الحقل.» وبالطبع كان الأب مسرورًا؛ فهذا الأمر من شأنه أن يجلب القليل من الثقافة إلى عالمه، ويمنحَه فرصة لإلقاء النظر على حياة ابنه العقلية. فقد كانت إحدى المخاوف التي تطارد الأب هو أن هذا «التعليم» قد يجعل باني يخجل من والده العجوز الجاهل. كان الأب يعلم أن هناك «رجالًا مثقفين»، مصابين بدرجةٍ من الجنون كافية لتجعلهم ينظرون بازدراء لخمسة وعشرين مليون دولار، أو على الأقل يتظاهرون بذلك!

كان من المقرَّر أن يُدرِّس السيد إيرفينج في المدرسة الصيفية، ولكن كان أمامه عشرة أيام قبل البدء، واقترح باني أنه قد يرغب في الذهاب بالسيارة إلى بارادايس لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وقَبِل المدرس الشاب في دهشةٍ ممتزجة بالسعادة. وهكذا انطلقا، في صباح أحد أيام شهر يونيو، في ذلك الطقس المشمس الشائع في جنوب كاليفورنيا، القادر على أن يجعلك تنسى كل مشاكل العالم. وفي الطريق تحدَّثا عما يحدُث في روسيا وسيبيريا، والتقدُّم الذي أحرزه الجنرال دينيكين والأدميرال كولتشاك، والجهود اليائسة للبلاشفة لتنظيم «جيشٍ أحمر»، وأمل الطبقة الحاكمة الألمانية في استعادة جدارتها بالاحترام من خلال مساعدة الحلفاء ضد الثورة الروسية. كما أخبر باني السيد إيرفينج بفكرته عن هذه الزيارة؛ فعلى السيد إيرفينج أن يسمح للأب بأن يتولى دفة الحديث معظم الوقت، ويجب ألَّا يعبِّر السيد إيرفينج إلا عن الآراء التي كان من المناسب أن يسمعها منقِّبٌ عن النفط كبيرٌ في السن.

٨

وصلا إلى بارادايس، ورُحِّب بالمدرس على النحو الواجب في «بيت المزرعة» ذي الطراز الإسباني الجديد الرائع، الذي بناه الأب على قطعة الأرض ليستخدمه هو وضيوفه. كان هناك فناءٌ في وسط المنزل، في منتصفه نافورة يتناثر منها الماء، وأشجار النخيل ونباتات الموز وبراعمُ كبيرة من عريشة الجهنمية بدأَت تتسلق الجدران الجصية. وكان هناك رجلٌ ياباني يؤدي وظيفتَين، رئيس الخدم والطباخ، وصبيٌّ يجمع بين البستنة وغسل الصحون، بينما ترقَّت روث في منصبها وأصبحَت مدبرة المنزل والمشرفة العامة. كان هناك ستُّ غرف للضيوف، وعندما كان يأتي المديرون التنفيذيون والمديرون والجيولوجيون

والمهندسون بشركة روس كونسوليديتد إلى المنطقة، كان الأب يستضيفهم دائمًا؛ فقد كانوا عائلةً واحدةً كبيرةً سعيدة. كانوا يجلسون حول طاولة مكسوَّة بالجوخ الأخضر في غرفة المعيشة بعد العَشاء مباشرة، ويشرعون في لعب البوكر، وكانوا يخلعون معاطفهم ويفكُّون حمالاتهم، ويستدعون الخادم الياباني ليُحضِر لهم المزيد من السيجار والويسكي والصودا، ويملَئون الغرفة بالدخان، ويمكثون حتى الساعات الأولى من الصباح. وكان هذا مثالًا توضيحيًّا مثيرًا للاهتمام على ازدواجية المعايير الأخلاقية لدى الأب، الذي كان يسعد بأن ابنه كان يفضِّل البقاء في غرفته الخاصة والقراءة، وعدم سماع القصص التي كان يرويها رجال النفط عندما يبدأ تأثير الشراب في الظهور.

لكن لم تكن هناك مقامرةٌ هذه المرة؛ فقد كان من المفترض أن تكون عطلة نهاية الأسبوع ثقافية، تكريمًا لـ «البروفيسور»، كما أصر الأب على الإشارة إلى ضيفه. كان روس الأكبر فخورًا بسذاجة بزيارة «البروفيسور»، واطِّلاعه على البئر التي كانت تُجرى بها عملية الحفر الأوَّلي، وبئرٍ أخرى حيث كانت عملية نزح الماء قيد العمل، وعشرات الآبار قيد الحفر. عاينوا معمل التكرير الجديد المميز حقًّا، الذي قالت عنه الصحف إنه أحدثَ معجزةً في هندسة البترول، وبالفعل، كان تحفةً فنية؛ حيث كان يتكوَّن من مبانٍ خرسانية، ومعدنيةٍ لامعةٍ مطلية حديثًا، وتُحيط به حديقةٌ لطيفة. كانت آبار النفط سوداء ومشحَّمة، على نحوٍ يستعصي تنظيفه، لكن معمل التكرير مختلف؛ فالنفط يأتي في أنابيب تحت الأرض، ويخرج معظمه بالطريقة ذاتها؛ لذلك يمكن أن يُصمم معمل التكرير وفقًا لذوق شابٍّ مثالي، حيث تحيط به أسوارٌ جميلة من شبكاتٍ فولاذية مغطَّاة بكروم الورد، وقِطع من العشب تتعرَّج بينها طرقٌ مكسوَّة بالحصى. كان معمل تكرير روس بحجم قرية كبيرة، معظم منازلها على شكل خزانات؛ خزانات كبيرة وصغيرة، وخزانات طويلة وقصيرة، وخزانات مستديرة ومستطيلة ومربعة، وخزانات سوداء وحمراء، وخزانات ذات ألوانٍ متنوعة من الداخل، لا يمكن رؤيتها من الخارج.

كان أكثر ما يميِّز معمل التكرير هو وجود مجموعةٍ ضخمة من وحدات التقطير، موضوعة في صفٍّ واحد ومتصلة بعضها ببعض بمجموعةٍ متشابكة من الأنابيب، وكان كلٌّ منها كبيرًا بما يكفي لخدمة أغراض جميع المهرِّبين في الولايات المتحدة. في وحدة التقطير الأولى، كان النفط الخام يُسخَّن إلى درجةِ حرارةٍ معينة، حتى ينبعث أحد منتجاته، وكانت هذه العملية تُسمَّى بعملية «التكسير». وكان الباقي من النفط ينتقل إلى وحدة التقطير التالية، حيث تزداد درجة الحرارة قليلًا، وينبعث منتجٌ آخر. وبهذا كان النفط ينتقل من

وحدة تقطير إلى أخرى، وتُسمَّى هذه العملية بالتقطير «المستمر». وكان المنتج من كل وحدة تقطير ينتقل إلى مكثفٍ كبير، ومن هناك إلى خزانه الخاص؛ وبهذا تحصُل على جازولين متعدد الصفات، وكيروسين وبنزين ونفط، وزيوت تشحيم مختلفة الدرجات، وبترول، وقطرانٍ سميكٍ أسود، وعددٍ لا نهائي من أحواض شمع البارافين الأبيض الناعم.

يمكنك أن ترى كيف تتطلب هذه العمليات قَدرًا هائلًا من الإشراف، واكتشاف طرقٍ جديدة. كان الأب مولعًا بالحديث عن كيميائي يعمل لديه؛ فهذا الرجل كان أعجوبة بكل المقاييس! كان الأب يدفع له ستة آلاف في السنة، وفي المقابل كان يحصُل على كل ما يكتشفه، مما ساعد في توفير عدة ملايين للشركة منذ بداية إنشائها. عاش ماكينيس على حلقات وسلاسل الكربون؛ حيث كان يرسم المخطَّطات على السبورة، التي كانت تبدأ بصبغةٍ أرجوانية، ثم يضيف ذرة كربون أخرى، ويا للهول، تتحول إلى مادةٍ خضراء يمكنها أن تعالج الديدان الشريطية، وكان اسمها أطول من أي دودةٍ شريطية قيست على الإطلاق.

كان لا بد من مقابلة هذا الساحر؛ لذلك ذهبوا إلى المختبر، الذي كان يقع منفردًا على قمة تلٍّ صغيرٍ ناءٍ، حتى يتسنى لساكنه إمكانية تفجير نفسه مراتٍ عديدة بقَدْر ما يشاء. كان ماكينيس شاحبًا، منحني الكتفَين وأصلع جزئيًّا، وكان يحدِّق فيك من خلال نظارةٍ كبيرة. كان الأب فخورًا بتقديم «البروفيسور» إيرفينج، وعرض عليهم الكيميائي صفًّا من أنابيب الاختبار ومعوجات التقطير، وأوضح أنه كان يحاول التحقق من أسباب انخفاض استقرار الهكسان العادي والميثيل الحلقي البنتان الأكثر استقرارًا في الحرارة مقارنة بالهيدروكربونات المشبعة من نفس الوزن الجزيئي. كانت هناك فرصةٌ لإحداث أكبر توفير في تاريخ التكرير، ولكن المشكلة كانت أن النسبة المئوية القصوى للتعريفات التي تتطلبها المعادلة العامة البسيطة، وهنا بدأ الكيميائي بكتابة المعادلة التالية على السبورة: $RCH_2 - CH_2 - CH_2R_1 \rightarrow RCH_3 + CH_3 = CH \cdot R_1$، نادرًا ما تحقَّقَت بسبب بلمرة الأوليفينات وتكوين النفثينات.

بعد معرفة تلك المعلومة، عادوا إلى «بيت المزرعة» لتناول عَشاءٍ من الدجاج المقلي مع الذرة الخضراء الطازجة وشمام من وادي إمبريال، ثم جلسوا للدردشة. كان السيد إيرفينج لطيفًا، وتحدَّثوا حتى منتصف الليل، وأجاب على أسئلة الأب العديدة حول شئون العالم، وأخبره عما رآه في أعمال الإغاثة في اليونان والعمل الدبلوماسي في فرنسا.

كان للمدرس الشاب بعض الأقارب الذين يشغلون مناصب عليا؛ لذلك كان يعرف معلوماتٍ خاصة تتلاءم مع ما كان الأب يعرفه، كان الوضع فظيعًا؛ حيث كانت كل الجهود تبوء بالفشل. يا إلهي، فها نحن نطلب من اليابانيين أن يسيطروا على جزيرة سخالين، التي ربما كانت تحتوي على نفطٍ أكثر من بقية العالم، وكان البريطانيون بالطبع يعملون على إصلاح خطوط الأنابيب في باكو، وفي الموصل كانوا يسيطرون على جميع حقول النفط، وكان الفرنسيون يدخلون بلاد فارس وسوريا مع البريطانيين؛ السؤال هنا أين كانت الحكومة الأمريكية؟ كان فيرنون روسكو يشتاط غضبًا؛ لأنه كان لديه بعض العقود في باكو، فما الفائدة من طرد البلاشفة ووضع الإنجليز والهولنديين؟ قال روسكو إن هذا البلد بحاجةٍ إلى رجلٍ عملي لمنصب الرئيس وليس إلى أستاذٍ جامعي …

توقَّف الأب؛ خوفًا من أن يكون قد قال شيئًا غير ملائم، لكن السيد إيرفينج ضحك وقال: «لا تقلق، سيد روس؛ فأنا لستُ أهلًا لهذا الشرف الرفيع، ولا أتوقع أن أصل إليه أبدًا.» لذا استمر الأب في خطبته العصماء عن روسكو؛ فقد كان رجال النفط قد تعلَّموا الدرس، وكانوا سيجتمعون معًا لمناقشة الانتخابات القادمة؛ فقد كانوا ينوون ترشيح رجل أعمالٍ لمنصب الرئيس. تبادَل باني ومعلمه البلشفي نظرةً خاطفة، لكن الأب لم يشُكَّ في شيء. بعد ذلك، عندما كان الأب بمفرده مع باني، قال: «يا بني، إنه شابٌّ ذكي. ومن دواعي سروري التحدث مع رجل يفهم الأمور مثله.» وهكذا كانت تنتشر الدعاية البلشفية!

٩

قضى باني ذلك الصيف في ممارسة بعض «الأنشطة الترفيهية»، كما يُقال عادة؛ حيث قرأ بعض الكتب عن الوضع الدولي، ودرس بعض التقارير السرية لعملاء فيرنون روسكو الأجانب، وشاهد بناء أبراج الحفر فوق تلالٍ أخرى في أرض روس الابن. هاتفَته بيرتي، وأصرَّت على أنه يجب عليه أن ينخرط في المجتمع ويلتقي ببعض الفتيات «المؤهلات»؛ لذلك ذهب معها لقضاء أسبوع في مخيم آل وودبريدج رايلي العصريين، الواقع في أعالي الجبال، في «نادٍ» لا يدخله سوى النخبة. في هذا المكان، كان الناس يركبون القوارب ويسبحون، ولكنهم كانوا يعيشون حياةً معقدة كما هو الحال في المدينة، عالقين في نفس الشبكة من الواجبات والارتباطات الاجتماعية، وتغيير الملابس عدة مرات في اليوم. كانوا يشربون الكثير من الخمر على العَشاء، ويرقصون حتى انبلاج الفجر على أنغام موسيقى الجاز

التي تعزفها فرقةٌ موسيقية من الزنوج، وبعد ذلك كان الشباب يذهبون لركوب الخيل، ويتناولون إفطارًا متأخرًا، وينامون بضعَ ساعاتٍ قبل الذهاب إلى مأدبة الغداء.

هناك تعرَّف باني على إلدون بورديك، عاشق أخته المفضَّل منذ بضع سنوات. لكن باني لم يكن متأكدًا من طبيعة علاقتهما. وكان الأب قد غامر بإلقاء مزحة عن اقتراب موعد حفل زفافهما، لكن بيرتي أوقفته، وأخبرَتْه أنها ستتولى أمور ارتباطاتها الخاصة دون تدخُّل أبوي. اكتشف باني أنهما كانا يتشاجران، ولم يستطع منع نفسه من أن يتسمع حديثهما، ولاحظ الدموع في عينَي أخته. كانت غاضبة لأن إلدون كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع فقط في المخيم، وكان هو غاضبًا لأنها عاقبَتْه بالرقص عدة مرات مع رجلٍ آخر. لكن لم يتحدث أيٌّ منهما عن هذا الأمر مع باني، ولم يتدخل باني في شئونهما.

كان إلدون بورديك الابن الأصغر لعائلةٍ من مُلَّاك الأراضي العريقين في كاليفورنيا. تقع ممتلكاتهم في ضواحي مدينة إنجِل سيتي، وكل عشر سنوات أو نحو ذلك كانوا يبيعون جزءًا كبيرًا من أراضيهم ويخصِّصونه لبناء المنازل، ويؤدي هذا التطوير إلى زيادة قيمة باقي الأراضي، وبذلك كانت الأسرة تزداد ثراءً طَوال الوقت، على الرغم من وجود أربعين شخصًا، صغارًا وكبارًا، ينفقون الأموال على كل ما يخطر ببالهم. كان إلدون رجلًا رياضيًّا وسيمًا وأنيقًا، لديه شاربٌ أسودُ صغير، على غرار ضباط الجيش البريطاني، وكانت وقفتُه مستقيمة ومتخشبة، واكتشف باني أن لديه عقلًا عسكريًّا. لا بد أن بيرتي قد ذكَرَت أفكار أخيها الخطيرة؛ لأن إلدون دعا الشاب الأصغر لركوب الخيل، وشرع في سؤاله عن آرائه. كان إلدون وطنيًّا هاويًا، مجسدًا المعاني الأصيلة التي تحملها كلمة هاوٍ غير الملائمة لوصف الوطنية؛ فهو لم يجعل خيوله تشارك في مباريات البولو طوال الصيف، وذلك لانشغاله في تأدية دوره لإنقاذ المجتمع.

لم يستغرق وقتًا طويلًا ليكتشف عمق الخطر الذي كان يُحدِق بباني. كان الصبي قد حفظ عن ظهرِ قلبٍ كلَّ مبدأ من مبادئ البلشفية، مثل: إن للشعب الروسي الحق في إدارة بلده بطريقته الخاصة، وإن قواتنا ليس لديها الحق في إطلاق النار عليهم وقتلهم دون إعلان الكونجرس للحرب، وإن الناس في هذا البلد لديهم الحق في التعبير عن الإدانات المذكورة أعلاه، دون التعرُّض للضرب أو تلطيخهم بالقير وتغطيتهم بالريش، أو إرسالهم إلى السجن أو ترحيلهم. أوضح له إلدون أن كل هذا كان مجرد تمويه؛ فقد استغل المتآمرون المجرمون هذه المبادئ الجيدة؛ للاختباء تحت عباءةٍ من الشرعية و«حرية التعبير» و«الحقوق المدنية» وغيرها من المفاهيم المشابهة. لكن السوفييت الهمجيين تنصَّلوا من كل هذه المبادئ، وكان من واجبنا أن نحاربهم بأسلحتهم.

استمع باني بأدب إلى شرح رفيقه لتداعيات مؤامرة البلاشفة. فهؤلاء الخونة لم يسعَوا فقط لمنح النصر لألمانيا، بل كانوا الآن ينظِّمون جهاز دعاية للإطاحة بالحكومات المدنية في جميع أنحاء العالم، وكانوا يحرِّضون الزنوج والهندوس والصينيين والمسلمين على الوقوف في وجه العِرْق الأبيض والقضاء عليه. ويتبع مئاتُ الآلاف في هذا البلد منظَّماتهم السرية، وكانوا ينشُرون ويَدعَمون ما يقرُب من ثمانمائة صحيفة، تدعو جميعها إلى الحقد الطبقي. كيف يمكن لأي رجلٍ ذي فطرةٍ سوية أن يعقد هدنة مع هذه الوحشية؟

لقد كان أمرًا مرعبًا حقًّا ويصعُب الردُّ عليه، ومع ذلك، أصَر باني على رأيه، وأنْ ليس من حقنا التدخُّل في شئون روسيا أو سيبيريا، وإذا تركنا البلاشفة وشأنهم، فلن يتمكَّنوا من إيذائنا. فعندما قمَعْنا أفكار الناس، جعلنا الأمر يبدو كأننا لا نستطيع تقديم إجابات لهم، وعند تفريق التجمُّعات وإلقاء مئات الأشخاص في السجن لمحاولتهم حضور هذه التجمُّعات، كانت النتيجة هي الترويج للأفكار التي كنا نحاول قمعها، وجعل الكثير من الأشخاص الآخرين يتعاطفون مع الضحايا. انظر إلى هؤلاء الفتيان والفتيات اليهود الروس الذين اعتُقلوا في نيويورك، وكانوا جميعًا دون العشرين من عمرهم، لم يفعلوا شيئًا سوى توزيع منشور يناشد الشعب الأمريكي بعدم شن حرب على روسيا، ومع ذلك فقد تعرَّضوا للتعذيب في السجن حتى مات أحدهم، وحُكم على الباقين بالسجن لمدة عشرين عامًا! عندما اكتشف إلدون بورديك أن باني كان يدافع عن أشخاصٍ محتقرين مثل هؤلاء، شعَر بالغضب أولًا، وبعد ذلك تعامل معه بتحفُّظ، وسرعان ما لاحظ باني أن بقية الضيوف كانوا يتعاملون معه بتحفُّظ، فجاءت إليه أخته بعينَين متأججتَين معلنةً أنه قد دمر حياتها الاجتماعية.

١٠

وهكذا ذهب باني لزيارة هنريتا أشلي في منزل عائلتها الشاطئي، الواقع على بحيرةٍ زرقاءَ جميلة، تنتشر فوقها قواربُ شراعيةٌ بيضاءُ صغيرة، وتُحيط بها منحدراتٌ صفراء ورمادية مغطَّاة ببيوتٍ مبنية على الطراز الإسباني من الجص المتعدد الألوان. وأثناء الإبحار بقارب الكانو، حاول باني تبرير أفكاره، لكنه لم ينجح في ذلك. فقد كان لدى هنريتا تحيُّز لا يُقهر ضد البلاشفة، وكان باني يشُك في أن السبب وراء ذلك أنها قد سمعَت عن تأميم

النساء. كان يودُّ أن يلمح لها إلى أنه يشك في حقيقة هذه الأخبار، ولكن لو كان من الممكن ذكر موضوع مثل هذا لهنريتا، لما كانت نموذجه المثالي للنقاء الأنثوي.

لذلك كان على باني التوجه بالسيارة إلى مدينة إنجِل سيتي واصطحاب السيد إيرفينج لتناول الغداء؛ من أجل أن يجد شخصًا يخبره بمشاكله. لكن السيد إيرفينج زاد الطين بلةً بإطلاعه على مقال من صحيفةٍ اشتراكية، كتبه صحفيٌّ إنجليزي جاء لتوِّه من روسيا، يحكي فيه عن الجهود اليائسة التي يبذلها الشيوعيون للدفاع عن قضيتهم. جنَّد الحزب خمسين بالمائة من أعضائه للذهاب إلى الجبهة والموت، فهذا ما كانت تئول إليه كل الأحداث، فحتى الجرح الطفيف كان مميتًا في كثير من الأحيان؛ إذ لم يكن هناك مطهراتٌ في أي مكان في بلد يزيد عدد سكانه عن مائة مليون شخص. كان العمال الروس يخوضون معاركَ ضد مجموعة من الأعداء على ست وعشرين جبهة. في فنلندا وحدها كان الجنرال مانرهايم المعادي للثورة قد ذبَح مائة ألف شخصٍ مشتبه في تعاطفهم مع البلشفية، لقد فعل ذلك باستخدام البنادق الأمريكية والذخيرة الأمريكية، وكان العديد من قواته يرتدون الزي العسكري الأمريكي. في الحالات التي هُزمَت فيها القوات على يد البلاشفة وأُجبرَت على التراجع، أحرق الصليب الأحمر الأمريكي إمداداتٍ طبية تصل قيمتها إلى ملايين الدولارات؛ خوفًا من استخدامها لإنقاذ الجنود البلاشفة الجرحى والنساء البلاشفة أثناء المخاض. بطريقةٍ ما، عندما تكون على دراية بأن مثل هذه الأشياء كانت تحدث في العالم، لن تستمتع بالانجراف على سطح بحيرةٍ زرقاءَ جميلة على متن قارب كانو!

عاد باني إلى بارادايس ودرس الأمور وفكَّر فيها وانتظر. أرسل بول بطاقةً بريدية أخرى، تمامًا مثل البطاقة السابقة، واقعية وخالية من المشاعر، كان بول بصحةٍ جيدة ومشغولًا، وكان يحظى بعنايةٍ جيدة، أخبرَهم أنه استلم رسالةً أخرى من روث، وأنه كان يتمنى أن تكون الأسرة بصحةٍ جيدة، وكذلك آل روس. كان لدى باني ما يكفي من المعلومات عن الوضع العالمي الحالي لفهم سبب كتابة بول لهذه البطاقة، وحتى لتخيُّل المرارة التي لا بد أن بول كان يشعر بها حتى يُضطَر لكتابتها.

فكَّر باني في أن يرسل له هو أيضًا بطاقة. ولذا أحضر بطاقةً عادية، وأخبر بول أنهم جميعًا بخير ومشغولون بإنتاج الكثير من النفط للمساعدة في هزيمة أعداء أمريكا. وأضاف باني جملة: «يراودني الكثير من الأفكار»، ولكن بعد ذلك خطر له أن هذه الجملة قد توحي بإجراءٍ محظور على القوات؛ لذلك أحضر بطاقة أخرى وأخبره عن مدى سعادة

الجميع وكيف كانت الأمور تسير على ما يُرام، ثم أضاف: «لقد أصبحتُ متفقًا مع توم أكستون في كل شيء.» خَمَّن باني أن المسئول عن الرقابة في سيبيريا لن يعلم كيف نظَّم توم أكستون صفوفَ عمال النفط في حقل بارادايس!

طَوال هذا الوقت، كان باني يتخبَّط بين مجموعتَين من المشاعر القوية والمتناقضة تمامًا. لقد كان ضابطًا محتملًا في الجيش وكان يشعر بولاءٍ شديد لوطنه، ولكن الآن، بعد سبعة أشهر فقط، كان يرغب في «دعم» أعداء بلاده، والهتاف فرحًا عندما يتعين الانسحاب! نعم، لقد كان بالفعل يشعُر بالسعادة عندما قرأ أن القوات الأمريكية في أرخانجيلسك قد توقفَت عن التقدم، وأن قادتها البريطانيين أخفَقوا في تحقيق أهدافهم! لقد تذكَّر الحماسة التي أثارت روحه في معسكر التدريب، عندما كان يقفز من خيمته على صوت بوق الاستيقاظ، ويشاهد «العلم الأمريكي» يرفرف في نسيم الفجر، لو كان من الممكن أن يُلقي باني في تلك الأيام نظرةً على نفسه الآن، لاعتبر نفسه خائنًا أسود القلب!

١١

كان هناك عددٌ قليل جدًّا من الأشخاص في العالم، ممن اعتقدوا أن الروس سيكونون قادرين على الدفاع عن أنفسهم في مواجهة جيوش العالم أجمع. لكنهم بطريقةٍ ما تمكَّنوا من ذلك. كان هناك شيءٌ غريب يمكن ملاحظتُه في تقارير الصحف من مختلف الجبهات المناهضة للبلشفية. فقد أفادت التقارير أن قوات التحالف كانت تحقِّق انتصاراتٍ عظيمة؛ حيث استولت على بيرم، أو أوفا، أو أي مدينةٍ أخرى، وأسرَت الآلاف من جنود الأعداء. وبعد شهر أو شهرَين، احتفلوا بانتصارٍ آخر، ومرةً أخرى كان الوطنيون يهتفون، حتى خطر ببالهم مراجعة الخريطة، ومقارنة موقع المكانَين، حينئذٍ اكتشفوا أن المكان الثاني كان أبعد من المكان الأول بمقدار مائة أو مائتَي ميل!

في وقتٍ لاحق اكتشف باني ما يعنيه هذا الأمر. فقد كان لدى الفلاحين طريقة للحفاظ على هدوئهم أثناء تقدُّم قوات التحالف، ثم الانقضاض من خلف خطوطهم ليُجبروهم على التراجع. وكانت الدعاية البلشفية في غاية القوة؛ حيث كانت تعمل في أرخانجيلسك، وعلى طول الجبهة الغربية من بحر البلطيق إلى شبه جزيرة القرم، وفي جميع أنحاء سيبيريا؛ ولذلك لم يدُم أي نصر على الإطلاق. قطع الأدميرال كولتشاك المسافة عبر سيبيريا كلها، ووصل الجنرال دينيكين في أوكرانيا إلى مسافة مائة وخمسة وعشرين ميلًا من موسكو، لكن لم يسفر كل ذلك عن شيء.

ثم، مع تحول الصيف إلى خريف، والخريف إلى شتاء، بدأ يحدث شيءٌ أكثر رعبًا. بدأَت جيوش القوى العظمى تظهر عليها علامات الاستسلام لسم الدعاية القاتل! كانت تلك الجيوش وقتئذٍ في الشتاء الثاني منذ الهدنة، وظن الجنود أن الحرب قد انتهت، إذن فلماذا لا يستطيعون العودة إلى ديارهم؟ بدأَ أسوأ نبوءات إلدون بورديك يتحقق فجأة. وانتفض بحارة الأسطول الفرنسي في البحر الأسود، وأطاحوا بضباطهم واستولوا على عدة بوارجَ قتالية! ورفضَت القوات الألمانية استعادة احترامها من خلال قمع الحركة البلشفية من أجل الحلفاء! ورفَض الجنود البريطانيون في فولكستون الصعود على متن السفن التي كانت ستأخذهم إلى أرخانجيلسك!

كان الأمر الأكثر فظاعة على الإطلاق هو حدوث تمرد في الجيش الأمريكي! كان ذلك هو التمرُّد الأول في تاريخ الولايات المتحدة كله! فقد نُقل الحطابون والمزارعون الشباب من ميشيجان إلى هناك أسفل الدائرة القطبية الشمالية، ووُضعوا تحت إمرة ضباطٍ بريطانيين، وأُمروا بالخروج لإطلاق النار على العمال الروس الجوعى ذوي الملابس البالية في درجة حرارة خمسين تحت الصفر، لكن هؤلاء الفتيان ألقَوا أسلحتهم! وتكتَّمَت الصحف هذه الحقائق، لكنها انتشرَت في الدوائر العليا للجيش والدبلوماسية العالمية، والمباني الإدارية؛ حيث كان النبلاء والسيدات الوطنيات يخططون لمستقبل العالم!

في شهر أكتوبر، بذل الحلفاء آخر جهودهم العسكرية. وطلبوا من الجنرال يودنيتش الموالي للقيصر الاستيلاء على بتروجراد، وأمدُّوه بجميع الإمدادات التي يمكنه استخدامها، وقواتٍ من العديد من الدول، وتقدم مسافة أميالٍ قليلة من المدينة، مما اضطر السوفييت إلى نقل عاصمتهم إلى موسكو. لكنَّ الشيوعيين الذين كانوا يعانون من الجوع والملابس الرثة أجبَروا أعداءهم على التقهقُر، وشرعَت الدعاية البلشفية في إحداث ثورة في المجر وثورةٍ أخرى في بافاريا!

أيضًا بدأ يظهر في الوطن دلالاتٌ على ما كان يحدُث. فعلى الرغم من كل عمليات المداهمة والسجن والترحيل، لم يكن بالإمكان منع أعدادٍ كبيرة من الناس من أن تقول علنًا وجهرًا إنه لم يكُن من حقِّنا شن حربٍ على شعبٍ مسالم. وزاد الاستياء من خطة إبقاء جنودنا في الخارج بعد انتهاء الحرب. واستمر تداول الصحف والمجلات «الراديكالية»، وبأي حال من الأحوال، لم يكن من الممكن منع التجمُّعات الجماهيرية في المدن الكبرى.

لم يكن من الصعب جدًّا جَعْل أي احتجاجٍ فعَّالًا، بسبب الظروف الغريبة التي كانت الحكومة قد وقعَت فيها. ولذلك انطلَق الرئيس في جولة لإقناع الناس بضرورة رضاهم

عن التسوية السلمية. وجاء إلى إنجِل سيتي، وذهب الأب وباني لسماعه، في قاعةٍ واسعة حيث نُظم عشرة آلاف شخص، وتلقَّوا تعليمات بالوقوف والجلوس، والهتاف عند رؤية الإشارة، كل ذلك بوقارٍ شديد، تمامًا مثل حفلات الملوك. كان صوت الرجل العظيم متوترًا، وكان وجهه محمرًّا بشكلٍ بغيض، وحُجَجه واهنة مثل مظهره. بعد أيامٍ قليلة وردَت أنباءٌ تفيد بأن حالته الصحية قد ساءت، ونُقل بسرعة إلى واشنطن؛ حيث أُصيب بسكتةٍ دماغية. وكان الآن يرقد عاجزًا، قعيدًا شبهَ واعٍ، وتولى حكم البلاد ثلاثيٌّ غريب؛ سكرتير خاص كاثوليكي، وطبيب في الجيش، وواحدة من أكثر سيدات مجتمع واشنطن أناقة.

لكن في مكانٍ ما، ربما في مجلس الوزراء، كان هناك قَدرٌ قليل من الذكاء تمكَّنوا من خلاله من إدراك المخاطر المتزايدة في الخارج والداخل. وفي وقت عيد الميلاد، أثناء وجود باني في بارادايس، لصيد السُّمَانى ومشاهدة تقدُّم روس كونسوليديتد، خرج ذات صباح للحاق بالسيارة الفورد التي كانت تجلب البريد إلى المنطقة. وحصَل على جريدته الصباحية وفتحها، وظهر في الصفحة الأولى تقرير من واشنطن يعلن أن سلطات الجيش قد قرَّرَت أنه لم يعُد ضروريًّا لها تولي إدارة السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، وأننا سنترك هذه المسئولية لليابانيين، ونعود إلى الوطن. صاح باني واندفع إلى المنزل مناديًا روث. «بول سيعود! بول سيعود!» وبعدها كان عليه أن يركض بسرعة ليمسك بها من ذراعها ليسندها ويساعدها على الجلوس!

الفصل الحادي عشر

التمرد

١

في جامعة جنوب المحيط الهادي، حُدِّدَت الفروق الطبقية ضمنيًّا ولكن بشكلٍ فعَّال، وفي ظل الظروف العادية، كان رجل بثروة باني، ومظهره الجيد وأخلاقه الحميدة، لا يرتبط إلا بأعضاء الأخويات ونوادي الفتيات. فإذا تمكَّن صبيٌّ أسود من تطوير فصاحته في النقاش، أو إذا تمتَّع شخصٌ يدرُس تصميم قبَّعات النساء، أو السباكة بخفة الحركة في الوثب من فوق الحواجز؛ فقد يشارك الأول في المناظرات ويشارك الثاني في السباقات، لكن لن تُوجَّه لهما دعوة لحضور حفلات الشاي أو حفلات الرقص، ولن يُنتَخَبا لشغل مناصبَ بارزة في المنظمات الطلابية؛ فمثل هذه الامتيازات مخصَّصة للأنجلوسكسونيين الطوال القامة ذوي الملامح المتناسقة، والشعر المصفَّف للخلف، والسراويل المكوية بعناية، ولا يتكرَّر ارتداؤها أبدًا ليومَين متتاليَين.

لكن باني روس كان مُصرًّا على الانخداع بـ «الأفكار الخطيرة» التي أثارت غضب أصدقائه. وبطبيعة الحال، كما كان سيتوقع أي أحد، كان هناك «متطفلون» و«فضوليون»، حريصون على التدخل فيما لا يعنيهم، وعلى استعدادٍ تام للتظاهُر بأنهم يظنون أن بلادنا ينبغي ألَّا تتدخَّل في روسيا، إذا مكَّنهم ذلك الرأي من التعرُّف على واحدٍ من أفراد النخبة الاجتماعية. لذلك وجد باني نفسه يتحدث مع العديد من الأشخاص الغريبي الأطوار. على سبيل المثال، كان هناك بيتر نيجل، الذي كان والده رئيسًا لـ «جماعة عقلانية»، والذي بدا أنه تُهيمِن عليه رغبةٌ واحدة في الحياة؛ وهي أن يصرِّح في قاعة الدراسة بأن مشكلة العالم هي الخرافة، وأن البشرية لا يمكن لها أن تتقدَّم على الإطلاق حتى تتوقَّف عن الإيمان بالله. يمكنك أن تتخيل مدى الشعبية التي حظي بها هذا الشاب في إحدى الجامعات، التي طُلب فيها من جميع أعضاء هيئة التدريس أن يكونوا ميثوديِّين مخلصين. كان بيتر

يتسم بالمظهر المتوقَّع للشخص الفظ؛ حيث كان له رأسٌ مربعٌ كبير وفمٌ عريض تبرُز منه الأسنان، وشعرٌ أصفرُ كثٌّ يتطاير حول أذنَيه مما تسبب في تساقط قشرة رأسه على ياقة معطفه الذي لم يكن يتماشى مع بنطاله، وكان يُحضِر غداءه إلى الجامعة ملفوفًا برباط!

وكان هناك جريجور نيكولاييف. عندما تعرف جريجور حق المعرفة، ستجد أنه كان لا بأس به، لكن المشكلة كانت أن معرفته كانت صعبة؛ لأن لهجته كانت غريبة، وفي اللحظات الحرجة من حديثه كان ينسى الكلمات الإنجليزية. كان لديه شعرٌ أسودُ قاتم، وعينان سوداوان يعلوهما حاجبان متجهمان، باختصار، كان يمثِّل الصورة النمطية لما أطلَق عليه الطلاب اسم «البلشفي». وبالمصادفة كان والد جريجور ينتمي إلى أحد الأحزاب الثورية التي كان البلاشفة يرسلونها الآن إلى السجن، لكن كيف يمكنك تفسير ذلك لهيئةٍ طلابية ألقَت في سلةِ مهملاتٍ واحدة الاشتراكيين والشيوعيين والنقابيين والفوضويين، والفوضويين الشيوعيين والنقابيين الفوضويين، والثوريين الاشتراكيين والديمقراطيين الاشتراكيين، والشعبويين، والتقدميين، وفارضي الضرائب الموحَّدة، والأعضاء غير الحزبيين، ودعاة السلام، والبراجماتيين، والإيثاريين، والنباتيين، ومناهضي تشريح الكائنات الحية، ومعارضي عقوبة الإعدام.

وكانت هناك أيضًا رايتشل مينزيس، التي كانت تنتمي إلى الشعب الذي اختاره الرب، ولكن لم تختَره الهيئة الطلابية المذكورة سابقًا. كانت رايتشل جميلة المظهر، ولكن بطريقةٍ غريبة وغامضة؛ حيث كانت قصيرة القامة — وهو ما كان يُطلِق عليه أعداء المرأة اسم «غير ممشوقة القوام» — ولم تكن تهتم بارتداء الملابس المُبهرَجة؛ حيث كانت تأتي إلى الجامعة مرتديةً جواربَ قطنيةً سوداء وبلوزة لا تتناسب مع تنورتها. انتشرَت شائعة مفادها أن والدها كان يعمل في مصنع للملابس، وأن شقيقها كان يكوي سراويل الطلاب لدفع تكاليف تعليمه.

وها هو مكتشف حقل نفط روس الابن والوريث الوحيد له، يسمح لنفسه بالوجود في العلن مع هؤلاء الأشخاص، بل يحاول تقديمهم لرفاقه في الأخوية، مبررًا ذلك بقوله إنهم كانوا يؤمنون بـ «حرية التعبير». وكأنه لم يكن واضحًا أنهم يؤمنون بها؛ نظرًا لأنهم يمتلكون كل شيء ولا يخافون من خسارة شيء. وبهذا يتحد أفراد الطبقة العاملة من جميع الجامعات.

وجد باني المسكين نفسه عالقًا بين آراءٍ متضاربة. فقد أخبره دونالد بيرنز، رئيس فصل الفرقة الثانية: «اسمع، لا تعرِّفني على أيٍّ من جنياتك اليهوديات.» وبعد ذلك، أخبرَتْه

رايتشل مينزيس: «اسمع، لا تعرِّفني على أيٍّ من أصدقائك عارضي الأزياء الرجالية.» اعترض باني على هذَين الطلبَين؛ فقد كان يؤمن بفكرة أن جميع أنواع البشر يجب أن يتعارفوا، لكن رايتشل أخبرَتْه أنها تقدِّر نفسها كثيرًا. «ربما لم تُعامَل بازدراءٍ قَط في حياتك يا سيد روس، لكننا نحن اليهود تعلمنا الدرس مبكرًا في حياتنا؛ فنحن لا نذهب إلى الأماكن غير المرحَّب بنا فيها.»

قال باني: «لكن يا آنسة مينزيس، إذا كنتِ تؤمنين بالأفكار، فعليكِ تعليم الناس ...»

قاطعَتْه قائلة: «شكرًا لك، أنا أُومِن بأفكاري، ولكن ليس بما يكفي لتعليم دونالد بيرنز.»

احتَج باني: «ولكن كيف يمكنكِ معرفة ذلك؟ أنت تعلِّمينني، بالرغم من عدم انتمائي إلى الطبقة العاملة.» كان قد علم أن هذه الفتاة كانت عضوةً في الحزب الاشتراكي؛ ولذلك فقد كانت تتمتع بـ «وعيٍ طبقي» ووعيٍ يهودي.

أصرَّت رايتشل على أن باني كان شخصًا نادر الوجود، لديه القدرة على الإيمان بما كان يتعارض مع مصالحه الاقتصادية. لكن باني لم يكن يدرك وجود أي شيءٍ استثنائي فيه. فبدلًا من أن يكون قائدًا بارزًا ومؤثِّرًا، كما وجَّهه قدره العظيم، كان يبحث دائمًا عن شخص يمكنه الاعتماد عليه، شخصٍ إيجابي، جدير بثقته. وجد بعضًا من هذه الصفات في هنريتا أشلي، التي كانت تعرف بالضبط ما هو صائب، ووجد المزيد من هذه الصفات في رايتشل مينزيس، التي كانت تتمتع بفهمٍ دقيق للحقيقة، وتعبِّر عنها بحيوية وصراحة وكأنها ومضاتٌ من البرق تُنير سماء جامعة جنوب المحيط الهادي المظلمة.

كانت المشكلة الوحيدة هي التناقُض بين هاتَين السلطتَين؛ فقد بدا الأمر كما لو أن ما هو حقيقي ليس صحيحًا وما هو صحيح ليس حقيقيًّا! وكانت هنريتا تعتبر رايتشل شخصًا لا يُطاق، وكانت في غاية التحفُّظ في حضورها؛ في حين أن فكرة رايتشل عن الإهانة كانت تتمثل في إخبار باني أن هنريتا هي من كان ينتمي إليها حقًّا، وأن خالقه خلقه ليأخذها إلى الكنيسة.

٢

وفي خِضَم هذه الحيرة، وجد باني عزاءه في دعم بيلي جورج، الذي كان أنجلوسكسونيًّا، عريض المَنكبَين، وبالإضافة إلى ذلك كان من طلاب السنة النهائية. وأكَّد له بيلي أنه على

حق، واقترح عليه اتخاذ بعض الخطوات لجعل أفكارهما مفهومةً لبقية الهيئة الطلابية. وعرض عليه تنظيم جماعةٍ صغيرة، «جماعة دراسة المسائل الروسية»، أو شيء من هذا القبيل. وعلى باني أن يطلب من السيد إيرفينج تقديم المشورة لهم، وربما الانضمام إليهم؛ فمن الأفضل بكثير أن يحصلوا على دعم أحد المعلمين. لذلك ذهب باني إلى السيد إيرفينج، الذي قال على الفور إنه لا يستطيع إسداء أي نصيحةٍ حول هذا الموضوع؛ لأنه سيُعرِّض منصبه للخطر، وعلى الطلاب اتباعُ تقديرهم الشخصي للأمور. لكن المدرِّس الشاب أخبرهم أنه من الأفضل بالتأكيد عدم استخدام كلمة «الروسية»، واستخدام كلماتٍ غير مثيرة للنزاع مثل «النادي الليبرالي» أو «جماعة مناقشة المسائل الاجتماعية».

نقل باني هذه النصيحة للآخرين، واجتمع بهم في أحد الفصول بعد ساعات الدراسة. وقال بيلي جورج إن السيد إيرفينج يبدو «جبانًا» جدًّا؛ حينئذٍ احتدم غضب رايتشل مينزيس وقالت إنه ليس من حقه التلميح إلى شيء من هذا القبيل؛ فقد كانوا جميعًا على دراية بوضع المعلم، وكان لديه كل الحق في الابتعاد عن المشاكل. وتساءلَت عن سبب انتقاد السيد جورج للآخرين، في الوقت الذي لم يفعل فيه شيئًا علانية.

طالبها جورج أن تُعَرِّفه ما يمكنه فعله، ولم تتردَّد الفتاة في عرض اقتراحاتها. وقالت لماذا لا نبدأ بإصدار صحيفةٍ صغيرة للطلاب، مكوَّنة من أربعِ صفحات، مرةً واحدة في الأسبوع أو حتى مرةً واحدة في الشهر؟ ستكون تكلفتُها زهيدة، وستُحقِّق نجاحًا كبيرًا بالتأكيد؛ فقد كان هناك عددٌ كبير من الطلاب الذين أرادوا قراءة رسالة السيد روس عن سيبيريا! وإذا طبعوا تلك الرسالة، فستحدث ضجة كبيرة في الحرم الجامعي. يمكن أن يحظى السيد جورج بشرف تولي منصب رئيس التحرير، وستُسهِم رايتشل بنصيبها من التكلفة. كانت هناك سخريةٌ واضحة في ذلك، بالنظر إلى كمية الأنابيب الحديدية التي كان من المعروف أن والد بيلي يُسوِّقها في إنجِل سيتي. لكنهم ناقشوا الأمر بجدية، وأخبرهم بيلي أنه لا يستطيع تحمل أي مسئولية؛ فقد يُخرِجه والده من الكلية، ويكلِّفه بالعمل محاسبًا.

حينئذٍ، اتجهت أعين المجموعة تلقائيًّا إلى باني. ماذا كان رأيه؟ تورَّدَت وجنتا باني. لقد أراد أن يشرح أفكاره للآخرين، لكنه فكَّر في القيام بذلك بطريقةٍ لائقة، سرًّا وفي هدوء. فالصحيفة قد تتسبَّب في إحداث ضجة! كان من الواضح أن رايتشل مينزيس لم تكن تمانع في إحداث ضجة، على النقيض من هنريتا التي كانت ستشعُر بالرعب من مجرد التفكير في الأمر. وكان هناك أيضًا الأب، الذي كان سيلعن «التعليم» إلى الأبد بسبب

هذا المشروع. لذلك كان على باني أن يرفض، ولم تلُمْه رايتشل مينزيس وأخبرَتْه أنه لا بأس في ذلك؛ فهناك الكثير من الأعذار، وليس عليه أن يخبرها بعذرٍ جيد، لكن عليهم على الأقل ألَّا يُعطوا أنفسهم الحق في انتقاد السيد إيرفينج بسبب افتقاره إلى الشجاعة!

٣

بعد فترةٍ وجيزة، قرأ باني في الصحيفة أن السفينة «بينينجتون» قد وصلَت إلى سان فرانسيسكو، وعلى متنها ألفَا جنديٍّ من سيبيريا. كانت وحدة بول من ضمن القوات المدرَجة على متن السفينة؛ ولذلك اتصل باني هاتفيًّا بروث ونقل لها الأخبار، وطلب منها إطلاعه على أي أخبارٍ جديدة قد تَرِد إلى مسامعها. وبعد يومَين اتصلت به روث، وأخبرَتْه أن بول قد وصل إلى بارادايس. كان يوم جمعة؛ لذلك «فوَّت» باني صفوف الدراسة بعد الظهر، وقفز إلى سيارته. كان الأب قد ذهب إلى نهر لوبوس للاهتمام بمهمة «اصطياد» أدواتٍ عالقة؛ لذا فاته اللقاء الأول.

كان قد مر قرابة عشرين شهرًا على غياب بول، وكان باني مفعمًا بالحماسة. لكنه صُدم عندما رأى بول؛ حيث بدا في حالةٍ مزرية، كان هزيلًا وشاحبًا، لدرجة أن سُترته الكاكي كانت فضفاضةً عليه. صاح باني: «هل أنت مريض؟»

قال بول: «نعم، لكنني أتحسَّن الآن.»

«بول، أخبرني ماذا حدث!»

«حسنًا، لم تكن الحرب نزهة.» وبدا أنه يظُن أن ذلك الرد سوف يُرضي أخته وصديقه بعد عام ونصف من الغياب!

كانوا في الكابينة الواقعة في أرض آل راسكوم؛ حيث كان روث وبول قد توليا مهام العناية بالمنزل لأول مرة. حان وقت العَشاء، وأعدت الفتاةُ مأدبةً متنوعة الأصناف، لكن بول لم يرغب في تناول الكثير من الطعام الآن، حسبما قال، خوفًا من الانغماس في هذا الطعام الجيد. وأثناء جلوسهم على الطاولة، أخبرهما عن مانيلا؛ حيث كانوا قد توقفوا، وعن تعرُّضهم لعاصفةٍ في المحيط الهادي، ولكنه لم يقل كلمة واحدة عن سيبيريا!

بالطبع هذا لم يكن كافيًا لهما. ولذلك بعد تناول الطعام، جعلا بول يجلس على كرسيٍّ بذراعَين، وقال له باني: «اسمع يا بول، لقد كنتُ أحاول فهم ما يحدُث في روسيا. وتسبَّب ذلك الأمر في حدوث مشاجرات مع معظم الأشخاص الذين أعرفهم، واعتمدتُ عليك لمعرفة الحقيقة. لذا من فضلك أخبرنا على الأقل بما حدث لك.»

جلس بول ورأسُه مستلقٍ إلى الخلف. أصبحَت الكآبة لا تغادر وجهه، بالإضافة إلى أنفه البارز وفمه العريض الذي كان يميل إلى التهدُّل من الجانبَين، وبرز هذا التهدُّل أكثر بسبب شعوره بالإرهاق، وبدا وكأنه يضع قناعًا حزينًا. تساءل بصوته البطيء: «ماذا حدث لي؟» وبعد ذلك بدا وكأنه يحاول أن يستجمع قواه لتذكُّر ما حدث له. «سأخبرك بما حدث يا بني، لقد خُطِفت.»

«خُطِفت!» ردَّد الاثنان الكلمة معًا.

«نعم، هذا كل ما في الأمر. لقد ظننتُ أنني التحقت بالجيش لإسقاط القيصر، لكنني خُطِفتُ على يد بعض من مصرفيِّي وول ستريت، وكُلِّفتُ بالعمل في فض الإضرابات.»

لم يكن بإمكان روث وباني سوى الجلوس والتحديق في بول، وانتظار أن يفصح عما يعنيه بهذا الكلام الغريب.

«هل تتذكر إضراب عمال النفط يا باني؟ وهؤلاء الحراس الأقوياء الذين أرسلَهم اتحاد أرباب العمل إلى هنا، ومعهم الكثير من الأسلحة، والملابس الثقيلة الجيدة، ومعاطف المطر، والقبعات المقاومة للماء وكل ما يحتاجونه. حسنًا، هذا ما كنتُ أفعله لمدة عام ونصف؛ قمع الإضرابات من أجل مصرفيِّي وول ستريت. كان الحراس هنا في بارادايس يحصلون على عشرة دولارات في اليوم، وإذا لم يعجبهم ذلك، كان بإمكانهم الاستقالة من عملهم، لكنني كنتُ أحصل على ثلاثين دولارًا في الشهر وفاصوليا، ولو كنتُ قد حاولتُ الاستقالة كانوا سيُطلقون عليَّ النار. هكذا كان المصرفيون يضيِّقون الخناق علينا.»

ساد الصمت مرةً أخرى. كان بول قد أغمض عينَيه، وروى جزءًا من قصته وهو على هذا الوضع، وكأنه كان يسترجع داخل ذهنه الأحداث التي شهدها.

«كان أول ما حدث هو استيلاء الحلفاء على مدينة فلاديفوستوك. فقد كان المضربون يفرضون سيطرتهم على تلك المدينة، وكانوا قد أنشَئوا حكومةً رائعة، وكل شيء كان يسير بنظام وسلاسة. لم يُبدوا قدْرًا كبيرًا من المقاومة؛ وذلك لاندهاشهم الشديد من سلوكنا. أطلقنا النار على بعضٍ من عمال الميناء الذين حاولوا الدفاع عن أحد المباني، وأقام المضربون جنازةً كبيرة ومسيرة، وأحضروا التوابيت الحمراء أمام القنصلية الأمريكية، بالإضافة إلى لافتاتٍ تسألنا عن سبب إطلاقنا النار على شعبهم. كان ذلك في الرابع من يوليو، وكنا نحتفل بثورتنا، فلماذا أطحنا بثورتهم؟ بالطبع لم نتمكَّن من الإجابة عن ذلك السؤال، ولم يعرف أيٌّ منا لماذا فعلنا ذلك، ولكن شيئًا فشيئًا بدأنا نكتشف السبب.»

سكت بول، وانتظر طويلًا حتى ظن باني أنه لن يكمل حديثه. «ماذا كان السبب يا بول؟»

«في الواقع، خارج تلك المدينة مباشرةً، على طول خط السكة الحديدية، كانت هناك حقول، أظن أنها كانت تمتد لمسافة عشرة أو عشرين هكتارًا، تتكدَّس فيها حتى ارتفاع عشرين قدمًا بنادق وقذائف، وقاطرات سككٍ حديدية، وقضبان ومعدات، وشاحنات، وكل ما يمكن أن يخطر ببالك للمساعدة في كسب الحرب. كان بعضها في صناديق، والبعض الآخر يغرق ببطء في المطر دون حتى غطاء من القماش المشمع، وانزلقَت بعض الأشياء الثقيلة في الوحل مسافة قدمين. وصلت قيمة هذه الأشياء إلى مائة مليون دولار، وقد فُرِّغَت من البواخر التي كان من المقرَّر توجُّهها إلى روسيا، ولكن بعد ذلك وقعَت الثورة، وتُركَت هناك. وكان من ضمن مهامنا حراستُها. في البداية، ظننا، بالطبع، أنها تابعة للحكومة، ولكن بعد ذلك تكشَّفَت لنا القصة شيئًا فشيئًا. في الأصل كانت الحكومة البريطانية قد اشترتها لصالح حكومة القيصر، وأخذَت سنداتٍ مقابلها. لاحقًا، عندما دخلنا الحرب، استحوذت شركة مورجان وشركاه على السندات من الحكومة البريطانية، وكانت هذه الإمدادات بمثابة ضمانة مورجان، وقد أطحنا بحكومة فلاديفوستوك لحمايتها له.»

ساد الصمت مرةً أخرى. قال باني بقلق: «بول، هل أنت متأكد حقًّا مما تقول؟»

ضحك بول، ولكن دون أي سعادة. وقال متسائلًا: «متأكد؟ اسمع يا بني. لقد أرسلوا بعثةً مكوَّنة من مائتَين وثمانين رجلًا لإدارة السكك الحديدية، وضمَّت هذه البعثة كل أنواع الخبراء، بمن فيهم رجال مرور، وعمال تلغراف، وعمال كهرباء، ومهندسون. كانوا جميعًا يرتدون الزي العسكري، وكانت أقل رتبة فيهم هي ملازم ثانٍ، بالطبع كنا نظن أنهم جزء من الجيش، مثلنا جميعًا. لكنهم كانوا يحصلون على رواتبَ خيالية، وبحق الرب، لم تكن هذه الرواتب من الجيش، بل كانت شيكاتٍ من أحد بنوك وول ستريت! لقد رأيتُ العشرات من تلك الشيكات. لقد كانت بعثةً خاصة، أُرسلت لإدارة السكك الحديدية لصالح المصرفيين.»

«ولكن لماذا يا بول؟»

«لقمع الإضراب، كما قلتُ لك. فقد كان هذا أكبر إضراب في التاريخ، العمال الروس ضد مُلَّاك العقارات والمصرفيين، وكان علينا أن نقمع العمال، ونساند ملاك العقارات والمصرفيين! انتشرت في كل مكانٍ مجموعاتٌ من اللاجئين، مكوَّنة من ضباطٍ سابقين

في جيش القيصر، ودوقات كبار وعشيقاتهم، وأصحاب أراضٍ وعائلاتهم، وعقدت تلك المجموعات الاجتماعات حتى أعلنت عن تشكيل حكومة لها، وكانت مهمتنا هي توفير الإمدادات لها بسرعة، وكانت تطبع النقود الورقية، وتستأجر بعض المرتزقة، و«تجند» مجموعة من الفلاحين لتكوين جيش، وكان علينا نقل هؤلاء الجنود بالقطار؛ ليطيحوا بحكومة سوفييتية أخرى، ويذبحوا بضعة مئات أو آلاف من العمال. لقد كانت هذه وظيفتي طوال السنة والنصف الماضية؛ هل ما زلت تتساءل عما إذا كنتُ مريضًا أم لا؟»

قالت روث بصوت يملؤه الرعب: «بول، هل اضطررت إلى قتل الناس؟».

«لا، لا أظن أنني قتلت أحدًا. كنت نجارًا، وكانت معاركي الوحيدة مع اليابانيين، الذين كان من المفترض أن يكونوا حلفاء لنا. كما تريان، كان اليابانيون هناك للاستيلاء على البلد؛ لذلك لم يرغبوا في نجاح أيٍّ من الروس «البيض» أو «الحمر». وكان أول ما فعلوه هو تزوير أموال الحكومة «البيضاء»؛ حيث زيفوا مليارات الروبلات، واشتروا كل شيء — البنوك والفنادق والمتاجر والعقارات — وجعلوا من أنفسهم رأسماليين، وحطموا الحكومة «البيضاء» بأموالهم المزيفة. كانوا مستائين من وجودنا هناك، ومن حقيقة أننا كنا نحاول بجدٍّ مساعدة «البيض»؛ ولذا كانوا يتدخَّلون في مهامنا، ووصل الأمر في أوقاتٍ إلى اصطفاف قواتنا والتهديد بإطلاق النار خلال خمس دقائق إذا لم يتنحوا عن طريقنا. لقد كانوا دائمًا يضايقون رجالنا، وأُطلق النار عليَّ ثلاث مرات في الظلام، واخترقت رصاصة قبعتي وأخرى قميصي.»

جلست روث بيدَين مضمومتَين ووجه شاحب. كان بإمكانها في تلك اللحظة أن تتخيَّل تلك الرصاصات وهي تخترق ملابس بول! وبالتأكيد لم يساعد هذا في تخلِّيها عن كراهيتها للحرب!

قال بول: «كره الكثير من رفاقنا اليابانيين، لكنني لم أفعل. وكان الشيء الوحيد الذي تعلمته من هذا الأمر هو الفلسفة التالية. كانت الطبقات الحاكمة في اليابان تستولي على نصف قارة، لكن الجنود المساكين جميعهم كانوا يحصلون على رواتب أقل من راتبي. لم يكن لديهم فكرة عن سبب وجودهم هناك؛ فقد كانوا أيضًا مختطَفين، مثلي. سبق لبعضهم الذهاب إلى أمريكا؛ ولذا تمكَّنت من التحدث معهم، ولم نواجه أي مشكلةٍ في التفاهم. وانطبق الأمر كذلك على التشيكوسلوفاكيين والألمان، وكل جنود الدول الأخرى الذين التقيت بهم. ما أريد قوله يا باني أنه لو كان من الممكن إجراء نقاشات مع الجنود العاديين، لما قامت أي حرب. لكن هذه النقاشات تعتبر خيانة، وإذا حاولت الانخراط فيها فسيطلقون النار عليك.»

٤

تحدث بول وباني معًا في تلك الليلة، وأكملا حديثهما يومَي السبت والأحد؛ حيث شرح له بول أبعاد الثورة الروسية. قال بول إن هناك طريقةً سهلة يمكن أن يستوعب بها باني الموضوع، إذا كان هناك أي شيء يحيره، فكل ما عليه فعلُه هو أن يتذكر إضراب عمال النفط. «اسأل نفسك كيف كان من الممكن أن يكون الوضع في بارادايس، حينئذٍ ستعرف كل شيء عن روسيا وسيبيريا، وكذلك واشنطن ونيويورك وإنجِل سيتي. فأعضاء اتحاد أرباب العمل، الذين قاوموا إضرابنا، هم بالضبط من نوعية الرجال الذين أرسلوا جيشنا إلى سيبيريا، وغالبًا هم نفس الأفراد. قرأتُ في الصحيفة أمسِ كيف حصلَت مجموعة من المنقبين عن النفط في إنجِل سيتي على بعض حقوق امتيازٍ في سخالين. أتذكَّر اسمًا واحدًا، فيرنون روسكو. إنه واحد من كبار المنقبين، أليس كذلك؟»

قال بول هذا بجدية، لكن باني وروث تبادلا الابتسام. لقد كان بول بعيدًا لفترةٍ طويلة، لدرجة أنه نسي تمامًا كيف تُدار الأمور في مجال النفط!

استطرد بول قائلًا: «لم يتغيَّر شيء؛ فأرباب العمل كما هم، وكذلك المضربون. هل تتذكر ذلك اليهودي الروسي القصير ماندل، عامل الحفر الذي كان يشارك في الإضراب؟ كان يعزف على آلة البالالايكا، ويُغَني لنا أغاني عن روسيا، لكننا لم نكن نسمح له بإلقاء الخطب؛ لأنه كان يساند «الجيش الأحمر». شاء القدَر أن ألتقي به في مانيلا، أثناء خروجي من هناك. كان مسافرًا على متن باخرة، في طريقه إلى روسيا، واكتشفوا أنه بلشفي، وألقَوه على الشاطئ وأخذوا كل ما كان لديه، حتى البالالايكا. أقرضتُه خمسة دولارات، وبعد ستة أشهر ظهر في إيركوتسك في أحد أكواخ جمعية الشبان المسيحيين. كانت هناك بالالايكا ملقاةً على رف، فقال: «يا إلهي، هذه ملكي! كيف وصلَت إلى هنا؟» قالوا له إن جنديًّا قد أحضرها، لكنه لم يعرف كيفية العزف بها. وأخبروه: «يمكنكَ الحصول عليها إذا كنتَ تستطيع العزف بها»، فعزف عليها بمهارة، وغنَّى لنا أغنية «مراكبي نهر الفولجا» (فولجا بوتمان)، ثم النشيد الوطني، ولكن بالطبع لم يكن أحدٌ يعرفه. وبعد بضعة أيام صدرَت أوامر باعتقاله، لكنني ساعدتُه على الهرب. بعد أشهر، قابلناه مصادفةً في الريف، ليس بعيدًا عن أومسك، كان يعمل مفوضًا سوفييتيًّا، لكن أتباع كولتشاك أسروه ودفنوه حيًّا دون تغطية أنفه ليتمكَّن من التنفس. عندما وجدناه كان النمل قد أكل معظم عينَيه، لكنه كان لا يزال على قيد الحياة، والتجاعيد تعلو جبهته.»

أخبر بول باني بهذا الأمر عندما كانا بمفردهما، حينئذٍ تجمَّد باني في مكانه، عاجزًا عن الكلام من الرعب. قال بول: «نعم؛ هذه هي نوعية الأمور التي كان علينا أن نشهدَها

ونعلم أننا مسئولون عنها. يمكنني أن أخبرك بأشياءَ أسوأ بكثير؛ فقد ساعدتُ في دفن مئات الجثث من الأشخاص، رجال ونساء وأطفال، وحتى رضَّع، ممن قُتلوا بلا رحمة، بعيدًا عن المعارك. لقد رأيتُ ضابطًا من «الجيش الأبيض» يُطلِق النار على رءوس النساء، واحدةً تلو الأخرى، برصاصنا الذي جلَبه رجال السكك الحديدية إلى هناك، أعني رجال السكك الحديدية الذين أحضرهم المصرفيون. لقد أصيب الكثير من رفاقنا بالجنون بسبب ذلك. فمن بين الألفَين الذين جاءوا على متن السفينة التي نقلَتنا، أشك في حفاظ عشرة بالمائة منهم على كامل قواهم العقلية. وقد أبلغتُ جرَّاحنا بذلك، ووافقَني الرأي.»

٥

كان كل هذا مختلفًا تمامًا عما تعلَّمه باني؛ ولذلك كان من الصعب عليه تعديل أفكاره حسبه. كان يطلق العنان لنفسه ويفكِّر في الأمر مليًّا، ثم يعود بمجموعةٍ أخرى من الأسئلة. «إذن يا بول، أنت تقصد أن البلاشفة ليسوا أناسًا سيئين على الإطلاق!»

أجاب بول: «فقط طبِّق قاعدة «تذكَّر إضراب بارادايس»! لقد كانوا عمالًا، مثل أي عمالٍ مضربين آخرين. وقد جاء كثيرون منهم من أمريكا، وتلقَّوا تعليمهم هنا. ولقد اعتدتُ الاجتماع بهم وإجراء محادثاتٍ طويلةٍ معهم، واكتشفتُ أنهم يتمتعون بشخصيات وخلفياتٍ متنوعة. وكان لديهم أفكارٌ حديثة، ويحاولون انتشال الروس من جهلهم وخرافاتهم. فهم يؤمنون بالتعليم، ولم أرَ قَط أشخاصًا يهتمون بالتعليم مثلهم؛ ففي كل مكان، مهما كانوا يفعلون، كانوا دائمًا يعظون، ويُلقون المحاضرات، ويطبعون المنشورات، عجبًا يا بني، لقد رأيتُ صحفًا مطبوعة على قصاصاتٍ قديمة من الورق البني الذي يستخدمه الجزار في تغليف اللحوم، أو الأغلفة التي كان يتخلَّص منها جيشنا. لقد تعلَّمتُ اللغة الروسية جيدًا، وكانت الأشياء التي يطبعونها تشبه ما كان يطبَعه المضربون في بارادايس، ولكن بالطبع هؤلاء الأشخاص قطعوا شوطًا أطول في صراعهم مع الرؤساء؛ فهم يرَون الأمور بشكلٍ أوضحَ مما نراها به.»

كان باني يُحدِّق فيه، وعلى وجهه شيء من الخوف. «بول! هل تتفق مع البلاشفة؟»

ضحك بول، ضحكة محبطة. «اذهب إلى سان فرانسيسكو وتحدث مع الرجال القادمين على متن تلك السفينة! لقد كان هذا الجيش مواليًا للبلاشفة، بدءًا من الجنود حتى الضباط. وأعتقد أن هذا هو سببُ إعادتنا إلى الوطن. هل علمتَ بشأن التمرد الذي حدث في أرخانجيلسك؟»

«لقد سمعتُ شيئًا عن ...»

«دعني أخبرك يا باني، لقد كنتُ هناك، وأعلم ما حدث. البلاشفة هم الشعب الوحيد في ذلك البلد الذي يتمتع بأي قدْرٍ من الإيمان والتضافُر، وسيتولَّون إدارة البلد أيضًا، تذكَّر كلامي، سيخرج اليابانيون كما فعَلنا. لا يمكنكَ التغلُّب على الأشخاص المستعدين للتضحية بأرواحهم من أجل قضيتهم، حتى آخر رجل وآخر امرأة.»

قال باني بخجل: «إذن ليس صحيحًا ما قيل لنا، أعني عن تأميم النساء؟»

قال بول: «يا إلهي! أهذا هو الهُراء الذي كنت تُصدِّقه؟»

«حسنًا، أنَّى لنا معرفة ما نُصدِّقه؟»

ضحك بول. وقال: «دَعْني أفكِّر في الأمر؛ لقد التقيتُ ببعض النساء اللاتي أمَّمهُن البلاشفة، بوصفهنَّ معلماتٍ في المدارس. وعلَّمْنَ الرجال في جيوشهم القراءة والكتابة، وجعلْنَ كل رجل يتعهد بتعليم عشرةٍ آخرين ما تعلَّمه. ورأيتُ حواليَ عشرين من هؤلاء النساء في عربةٍ لنقل الماشية على خط السكة الحديدية العابر لسيبيريا، دون بطانيةٍ واحدة، ولا حتى دلو لاستخدامه كمرحاض، لا شيء سوى قطعٍ من الخشب يستعملونها كوسائد. وكان بينهن العديد من الحالات المصابة بالكوليرا الآسيوية، وظلِلْنَ على هذا الحال لمدة عشرة أو اثنَي عشر يومًا؛ لقد كُن أسرى حرب، كما تفهم، ينتظرْنَ حتى وصولهن إلى إيركوتسك؛ حيث كن سيُعدَمْنَ رميًا بالرصاص دون محاكمة. ومن ناحيةٍ أخرى، دعني أقُل لك الحقيقة، يا باني؛ لقد قضيتُ ثمانية عشر شهرًا في سيبيريا، ولم أشهد أيَّ بلشفيٍّ يرتكب أي أعمالٍ وحشية، ولم أقابل أي رجلٍ في جيشنا شَهِد ذلك. لا أقول إنه لم تكن هناك أي أعمالٍ وحشية؛ كل ما أقوله هو أنني التقيتُ برجالٍ جابوا روسيا طولًا وعرضًا، سواء من جنودنا أو من المواطنين الأصليين، وكانت الأعمال الوحشية البلشفية الوحيدة التي شَهِدها أي شخصٍ هي مهمتهم الأساسية المتمثلة في تعليم العمال أن لهم الحق في حكم العالم. ويُعزَى ذلك إلى حقيقةٍ تتعلق بالثورة الروسية، التي امتدت من فلاديفوستوك حتى أوديسا وأرخانجيلسك؛ فحيثما كان «الحمر» يرتكبون أي جريمة قتل أو إعدام، كان «البيض» يرتكبون عشر جرائم، وربما مائة جريمة. لكنك لن تسمع أبدًا عن الأعمال الوحشية التي كان يرتكبها «البيض»؛ لأن الصحف لا تنشُرها؛ فهي مشغولة جدًّا بسرد كيف قتل لينين تروتسكي، وكيف ألقى تروتسكي بلينين في السجن.»

٦

كان هذا اللقاء مع بول الحدث الأكثر إثارةً في حياة باني. فقد جعله يعيد تقييم كل مبادئه؛ فالأشياء التي كان يعتبرها سيئة أصبحَت فجأةً بطولية، في حين أن الأشياء التي كان يعتبرها جديرةً بالاحترام أصبحَت مملة فجأة. شعَر باني، الذي كان يُواجِه العالم الصناعي الحديث بمظالمه المتعددة، بأنه تائهٌ في غابةٍ متشابكة الأشجار. ولكن في تلك اللحظة بدا كما لو أنه استقل منطادًا، ورأى طريق الخروج من تلك الغابة الكثيفة يتضح له. أصبح كل شيء الآن بسيطًا وواضحًا مثل الخريطة. كان على العمال السيطرة على قطاعات الصناعة، وإدارتها لأنفسهم، بدلًا من سادَتِهم. وهكذا بإجراءٍ واحد، تُحل مشكلة الظلم الاجتماعي!

لقد سمع باني عن هذه الفكرة من قبلُ، وبدت له خياليةً وغير معقولة. ولكن ها هو بول يخبره أن هذه الفكرة قيد التنفيذ الآن! فقد أحكم مائة مليون شخص، يشغلون سدس مساحة الكرة الأرضية، قبضتَهم على قطاعات الصناعة، وتولَّوا إدارتها، ويمكن لهذا الأمر أن يُكلَّل بالنجاح لو أن منظمات العالم الجشعة تراجعَت وتركتهم وشأنهم!

ركب بول في سيارة باني ليُريَه الأخير الحقل كله. وعاينَا معمل التكرير الجديد، الذي يُعتبَر تحفةً فنيةً رائعة. ارتفع أمامهما مبنًى عظيم، مصنوع بالكامل من كومة من أوعيةِ خبزٍ ضخمة متداخلة، وتشُق طريقها نحو السماء، وكأن الملائكة كانت تصنع قطعًا من حلوى الكراميل للعالم أجمع، وأطعمةً لذيذة بنكهةٍ جديدة، وروائح ذكية قوية تنتشر فوق التلال لأميال مما تسبَّب في تخويف طيور السُّمَانى وإبعادها!

حان وقت الشفق، وكان البخار الأبيض المتصاعد من هذه الأوعية المعدنية يشوبه لونٌ أرجوانيٌّ باهت عندما اندمج مع السماء. أُضيئَت الأضواء الكهربائية البيضاء والصفراء والحمراء، حتى بدا المكان وكأنه جزءٌ من متنزه جزيرة كوني. وكان هذا التشابه يتزايد كلما ابتعدَت بالسيارة، ووصلت إلى مبنًى قصير يمتد على مسافةٍ طويلة، يختبئ فيه أربعة وأربعون هولنديًّا ينفثون دخان أربعة وأربعين غليونًا، ويفعلون كل ذلك في انسجامٍ تام، مثل الأوركسترا، كان ذلك هو أكثر مشهدٍ هزلي يمكنك تخيله؛ أربعة وأربعون أنبوبًا تنفث العوادم على نحوٍ متزامن وبوتيرةٍ واحدة!

عاود باني شعوره بالإحراج فيما يتعلق بأراضي بارادايس؛ فحقه في امتلاك كل هذه المساحات الشاسعة من الأراضي لم يكن واضحًا، وكان من المحتَّم أن يشعر بول بالغضب، بعدما يدرك كيف خُدعت عائلته. ولكن بعد ذلك، تكشفَت لباني ومضاتٌ

سريعة من الوحي، واكتشَف أن هذه المشاعر القديمة صارت في طي النسيان. فبول لن يغضب أبدًا على إرثه الضائع، ولن يأخذ في الاعتبار ادعاءاتِ عائلة واتكينز، مثلما هو الحال مع ادعاءاتِ عائلة روس! فأراضي باراديس كانت تخص عمال باراديس، وكان معمل التكرير الجديد الرائع عبارة عن خوخةٍ ناضجة، معلقة على شجرة في انتظار أن يقطفها أحد! لم يكن ينقص الرجال سوى أن يوضح لهم أحدٌ ذلك. ولو لم يكن بول ضعيفًا ومنهكًا، لكان من الممكن أن يوضِّح لهم تلك الأمور في تلك الليلة، وكان بإمكانهم الاستيلاء على المعمل، وجعله جاهزًا للعمل تحت الإدارة الجديدة بحلول الصباح! تطبيقًا لشعار «كل السلطة للسوفييت!»

٧

عاد باني إلى الجامعة مشحونًا بهذه الأفكار الحماسية الجديدة؛ فتارة كان يرتجف من الإثارة، وتارة يخاف من إدراك ما كان يفكر فيه. حذَّره إحساسُه الداخلي من أن فكرة نزع ملكية الصناعات في جنوب كاليفورنيا لن تحظى بإعجاب زملائه في الدراسة؛ ولذلك اكتفى بنقل الأخبار السارة، وإخبارهم أن الثورة بروسيا لم تكن هياجًا وحشيًّا أعمى، بل كانت ميلادًا لنظامٍ اجتماعيٍّ جديد. استقبل بيتر نيجل كلام باني بفمٍ مفتوح عن آخره، بينما وافقَه جريجور نيكولاييف الرأي، لكنه تساءل عن سبب الزج بابن عمه في السجن، وقالت رايتشل مينزيس إنهم زجُّوا بآلافٍ من الاشتراكيين في السجن، واقترح بيلي جورج، قائلًا: «دعونا نجتمع بمجموعة من الزملاء وندَع بول يأتي ويتحدث معهم.»

انتشرَت الشائعات بسرعةٍ سحرية في جميع أنحاء الجامعة، وأكملَت خيالاتُ أصدقاء باني الخصبة كل تلك التفاصيل التي لم يبُح بها. وتداول الجميع أن باني روس كان يعرف عاملًا بلشفيًّا حتى النخاع، جعل باني بلشفيًّا قلبًا وقالبًا، وأصبح «المليونير الأحمر» هو لقبه المستقبلي. احتشَد الفتيان والفتيات حوله ليطرحوا عليه الأسئلة وليتجادلوا معه، وغالبًا ما كان يتخلل النقاشات بعضُ المشادات الكلامية الغاضبة، ومع ذلك كان الأمر مثيرًا للاهتمام، وكانوا يعيدون الكَرَّة للحصول على مزيد من المعلومات. تحوَّل باني إلى مركز للدعاية السوفييتية؛ لأنه عندما كان يعجز عن الرد على حُجَجهم، لم يكن بوسعه سوى الذهاب إلى بول للحصول على مزيد من الحقائق، ثم يعود ويلقيها على رءوس خصومه. مكث معه أعضاء الأخوية حتى ساعاتٍ متأخرة من الليل، يتجادلون بشأن تحدِّيه لكل ما كانوا يعتبرونه حسنًا.

مع الراحة والأكل المنزلي، استعاد بول صحته بقَدرٍ كبير، وبعد أسبوعَين ذهب إلى إنجِل سيتي للقاء صديق له. انضم إليه باني وخاض مغامرةً أخرى بمقابلة هاري سيجر. كان هذا الرجل، الذي يكبر بول بعشر سنوات، رئيسًا لمؤسسةٍ تعليميةٍ صغيرةٍ متخصصة في مجال الأعمال، ولكنه أثناء الحرب ترك تلك المسئولية لشريكٍ له وتوجَّه إلى العمل مع جمعية الشبان المسيحيين». كان قد أُرسِل إلى سيبيريا لمساعدة عمال السكك الحديدية، البالغ عددهم مائتَين وثمانين عاملًا، وكانوا يتلقَّون أجورهم من المصرفيين. لقد سافر ذهابًا وإيابًا على طول الخط، ورأى كل ما يمكن رؤيتُه، والآن كان «يتحدى كل القيود»، ويكشف عن حقيقة الوضع، على الرغم من احتجاجات سلطات «جمعية الشبان المسيحيين»، والجيش، ووزارة الخارجية، ورابطة التجار وأصحاب المصانع، وكل مَن يستطيع الضغط على رئيس مؤسسةٍ تعليميةٍ صغيرةٍ متخصصة في مجال الأعمال في إنجِل سيتي.

في غضون ذلك، كان الأب مشغولًا جدًّا في العمل؛ بسبب بعض عمليات التنقيب عن النفط التي كانوا يخطِّطون لتنفيذها في أرض السيد باندي. لكن باني أصر على ضرورة مقابلته لهاري سيجر، واستدرج الاثنين لتناول الغداء، وكذلك بول، وقبل تناول الحَسَاء، كانوا قد أثاروا استياء الأب لدرجة أنه لم يكمل طعامه. بالطبع كان هلِعًا من قصتهما، ولكن لم تكن هناك فائدةٌ من توقُّع أن يعمل عقله بنفس الطريقة التي كان يعمل بها عقل باني. ولم يتمكَّن الأب من فك كل التشابكات في العالم، ولم يشعر بالرغبة في المحاولة. ما أثار قلقه هو وجود اليابانيين في سيبيريا، وأن دبلوماسيِّينا لم يكونوا على درايةٍ بوجود نفط هناك، والأهم من ذلك كله أن ابنه كان واقعًا تحت تأثير أفكارٍ جامحة وخطيرة.

كان هذا المدعو سيجر رجلًا غربيًّا ضخمًا يبلغ طوله ست أقدام، وسيمًا وكأنه من الفايكنج، وما زاد من جاذبيته هو تحوُّل شعره إلى اللون الرمادي قبل الأوان بسبب كدِّه في العمل؛ لا يمكنك إنكار الحقائق التي يرويها الرجل، وفي الوقت ذاته لا يمكنك أن تظن أنه كان يكذب، لكن لم يكن هناك أيُّ فائدة من التجوُّل في البلاد بعد طردكَ من قاعدتك العسكرية؛ لإثارة حالة من الاضطراب العام، ومهاجمة الحكومة لارتكابها خطأً فادحًا أثناء الفوضى التي كانت تسود وقت الحرب، دون معرفة كيفية تصحيح هذه الأخطاء.

أخذ باني والده رغمًا عنه إلى اجتماع للاشتراكيين، كان من المقرَّر أن يتحدث فيه هاري سيجر. أُقيم الاجتماع في قاعةٍ كبيرة، اكتظت بألفَين أو ثلاثة آلاف شخص، وظن الأب أنه لم يرَ هذا العدد الكبير من الأشخاص الخطرين في حياته كلها من قبلُ؛ أناس

فظيعين بملامحَ غريبةٍ متجهمة وشريرة، مثقفين ذوي مظهرٍ متوتر، وشَعرٍ يغطي ياقات ملابسهم، ونساء ذوات شَعرٍ قصير ونظاراتٍ كبيرة، وعمال عابسين ومتبلِّدي الحس، أو ذوي وجوهٍ حادة تبدو عليها المرارة! وكان هذا الرجل سيجر يثير جنونهم بكلامه! فقد تحدث عن «قطار الموت» الذي رآه على خط السكة الحديدية العابر لسيبيريا، ينقل أكثر من ألفَي رجل وامرأة محشورين في عربات نقل الماشية، أسرى عند «البيض»، الذين لم يعرفوا ماذا يفعلون بهم، لكنهم انطلقوا بالقطار، وتنقلوا بين مسارات القطارات لأسابيع، بينما كان الضحايا يموتون من الجوع والعطش والمرض. وكانت القوات الأمريكية تقف متفرجة، وتُطعِم هؤلاء القتلة، وتُمدهم بالمال، وتحميهم بالسلاح! ولا يزال هذا الأمر مستمرًّا! ففي تلك اللحظة، كانت القوات البولندية تغزو روسيا، مرتدية الزي الأمريكي، وتقتل العمال الروس بالذخيرة الأمريكية! فما رأي الشعب الأمريكي فيما يحدث؟

أطلق الشعب الأمريكي صرخةً مدوية، جعلَت جيه أرنولد روس يشعُر بقشعريرة تسري في عموده الفقري. نظر حوله إلى هذا المحيط البشري الذي تتلاطم أمواجه بسبب هبوب عاصفة؛ فقد كان الحاضرون يلوِّحون بأيديهم، ويضمُّون قبضات أيديهم، ويُومِئون برءوسهم لأعلى ولأسفل بحماس، وكان يعي ما يعنيه ذلك؛ فلا يمكن لأحدٍ أن يخدعه. وعلى الفور بدأ الحشد في الهتاف باسم لينين، ولكنه لم يكن يهتفُ لما فعله لينين الروسي، بل لما كان ينوي لينين الأمريكي أن يفعله. وكان شعار «كفُّوا أيديكم عن روسيا!» مجرد تمويه، فما كانوا يقصدونه حقًّا هو «استولوا على روس كونسوليديتد!»

وبعد ذلك، لمح الأب ابنه بطرف عينه. يبدو أن باني لم يشعر بذرةٍ واحدةٍ من خوف والده! بل كان وجهه يتألَّق من الإثارة مثل بقية الغوغاء. وكان يصرخ مطالبًا: «كفُّوا أيديكم عن روسيا!» وإما أنه لم يكن يعرف ما الذي كان ينوي هؤلاء الغوغاء فعله بشركة روس كونسوليديتد، أو الأسوأ من ذلك أنه لم يكن مهتمًّا!

٨

حضَرَت مجموعةٌ صغيرة من طلاب الجامعة المساندين لـ «الحمر» اجتماع سيجر هذا، وفي اليوم التالي كانوا متحمِّسين لما سمعوه. ورفَض معظم أعضاء أخوية باني الذهاب، وبدءوا ينتقدون مناقشةً لم يسمعوها! تأجَّجَت مشاعر الغضب لدى باني عندما استمع لهم. كانت آراؤهم حول تأميم النساء، والأرقام المزيفة المتعلقة بملايين الضحايا من

البلاشفة، مجرَّد هُراء! وكان من العار أن تسمح جامعة بانتشار مثل هذه الأكاذيب على أنها معلوماتٌ مؤكَّدة، ولا يُبذل أي جهد لدحضها. شارك باني هذه الفكرة مع بيتر نيجل، الذي عاد إلى منزله وتحدَّث مع والده حول هذا الموضوع، ثم عاد معلنًا أنه على استعداد للعمل محررًا لصحيفةٍ طلابية لعرض الحقيقة.

عقد المتآمرون اجتماعًا آخر، وسرعان ما حدَّدوا تكلفة الاشتراك بثلاثين دولارًا، وصوَّتوا على نَشْر صحيفة أسبوعية تحمل اسم «ذا إنفيستيجاتور»، تتكوَّن من أربع صفحات، وتحتوي على جميع أشكال الحقيقة. واتفقوا على أنَّ أفضل من يناقش المسألة الروسية هو هاري سيجر؛ لأنه كان عاملًا في «جمعية الشبان المسيحيين» ويتمتع بسُمعةٍ طيبة؛ لذلك طُلب من رايتشل مينزيس أن تكتب مقابلةً مكوَّنة من ألفَي كلمة مع السيد سيجر. كان على متمردٍ شابٍّ آخر أن يجمع الحقائق والشائعات المتعلقة بالمبالغ المدفوعة سرًّا من صندوق الخريجين؛ لجلب الرياضيين الواعدين إلى جامعة جنوب المحيط الهادي. كُلِّف باني، باعتباره شخصيةً اجتماعية، بموضوع النخبوية في الكلية؛ وذلك بسبب رفض انضمام طالبٍ هندوسي صاحب أداءٍ دراسيٍّ متميز إلى «اللجنة الأدبية».

ثم أطلق بيتر نيجل العِنان لهوايته المفضَّلة في شكل قصيدة تسخر من الإله بشكلٍ غير مبالغ فيه. كان هناك بعض التساؤلات حول الحكمة من ضم موضوعٍ ديني، لكن بيتر أكَّد على صلاحياته كمحرر، وسواء أكان محررًا أم غير ذلك؛ فقد أكد تأييده للمقولة الروسية «الدين أفيون الشعوب». وقد أيَّده بيلي جورج في ذلك، وأصَر على ضرورة أن تُغَطي الصحيفة الجديدة جميع مجالات الفكر الحديث.

كُتبَت مقالات «ذا إنفيستيجاتور» وحُررت، ووُضعَت في ألواح الطباعة ولُصقَت على «نموذج الطباعة»، ثم قُطعَت ولُصقَت بشكلٍ مختلف. وأخيرًا طُبعَت، وأصبحَت بين أيديهم الصفحات المطبوعة حديثًا، الناعمة الرطبة، وكأنها جرادة خرجَت حديثًا من شرنقتها. ستُصبِح جافةً في اليوم التالي، وحتى ذلك الحين، عليهم عدم البوح بشيء.

كيف ستُوزَّع الصحف؟ دار نقاشٌ كثير حول هذا الموضوع. اقترح باني فكرةً من أفكاره النبيلة وهي أن تُوزَّع مجانًا. لكن رايتشل جلبَت رسالةً من والدها، الخياط، الذي كان أيضًا وكيلًا للأعمال الأدبية في الحزب الاشتراكي المحلي بمدينة إنجِل سيتي، مفادُها أنه يجب بيع الصحف، وإلا فلن تحظى باحترام الناس. قال الأب مينزيس، ببصيرةٍ يهوديةٍ سليمة: «الناس يقرءون ما يدفعون مقابله مبلغًا جيدًا من المال»، وأضافت ابنته بحماسةٍ اشتراكيةٍ ملائمة: «إذا كنا نؤمن حقًّا بقضيتنا، فلن نمانع في التعرُّض للقليل من

السخرية.» لقد كانت دعوةً للتضحية بالنفس، واستجابوا لها واحدًا تلو الآخر، ولكن كان يشوب هذه الموافقة بعضُ الهواجس.

لذا، في تمام الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي، شَهِد الحرم الجامعي أمام مبنى الاجتماعات مشهدًا لم يسبق أن أثار مشهدٌ مثلُه الهيئة الطلابية في جامعة جنوب المحيط الهادي، منذ الأيام الأولى لتلك الكلية الدينية الميثودية. لقد تحوَّل مكتشف حقل نفط روس الابن والوريث الوحيد له إلى بائع صحف! ووقف على أحد المقاعد حاملًا بين ذراعَيه مجموعةً من الصحف وصاح بمرح: «ذا إنفيستيجاتور! العدد الأول من صحيفة «ذا إنفيستيجاتور»! النسخة بخمسة سنتات!»

هل اشتراها أحد؟ يا له من سؤال! احتشد حول باني ثلاثة صفوف، ولم يتمكن من إعطائهم الباقي بالسرعة الكافية، ومع انتشار الإثارة، زاد الحشد إلى ستة صفوف، ثم عشرة صفوف، وتحول الوضع إلى تجمهر! ومع ملاحظة الازدحام، جاء رجال ونساء يركضون من جميع أنحاء الحرم الجامعي. وكانوا يتساءلون: هل هناك حادث؟ قتال؟ ما الأمر؟ وشكَّل الأشخاص الذين حصَلوا على نسخهم وخرجوا من بين الحشود بؤرًا فرعية للاضطراب؛ حيث حاول الآخرون اختلاس النظر من فوق أكتافهم، وطرح الأسئلة.

استمر هذا الوضع لمدة عشر دقائق فقط، حتى خرج من مبنى الإدارة عميد الطلاب، السيد ريجنالد تي سكويرج، الحاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة؛ كان مهيبًا وبدينًا، يضع نظارةً ذهبية على أنفه وتتهدل من رقبته طيَّاتٌ من الدهون، ويشبه تمامًا أي شخص يمكن أن تقابله في مكتبِ عقاراتٍ كبير أو بنك في المدينة. بهدوء وبراعة اخترق الحشد، وبهدوء وبراعة أمسك بذراع بائع الصحف المليونير، واقتاده إلى مكتبه، وهو لا يزال ممسكًا بين ذراعَيه بمجموعة من الصحف. أمره قائلًا: «انتظر هنا»، ثم خرج مرةً أخرى وعاد ومعه بيتر نيجل، وخرج للمرة الثالثة، وكانت فريسته جريجور نيكولاييف؛ ومن ورائه جاء نواب العمداء المعيَّنون خصوصًا لهذا الغرض، بصحبة المجرمين الآخرين.

لم يستطع أحدٌ معرفة عدد النسخ التي بيعت، ولم يُكشف عن عدد النسخ غير المباعة المكدَّسة في إحدى زاويا مكتب العميد. ولكن وُزِّع ما يكفي من النسخ لتأجيج الحرم الجامعي. وكان كل ما سمعه المرء في ذلك اليوم هو «هل قرأتَها؟»، «هل حصلتَ على نسخة؟». وقفز سعر «ذا إنفيستيجاتور» إلى دولار واحد، وقبل حلول الليل بِيع بعضُها مقابل ضعف أو ثلاثة أمثال هذا السعر.

كان أحد الأسباب وراء ذلك هو وصول نسخة إلى صحيفة إنجِل سيتي الأكثر شهرة، «إيفينينج بوستر»، التي كانت تُصدِر خمس طبعاتٍ في اليوم مطبوعة باللون الأخضر.

وظهر على كامل الصفحة الأولى من الطبعة الثانية، التي توفَّرَت في الشوارع في وقت الظهيرة، «العنوان الرئيسي البارز»:

وكر للجيش الأحمر في الجامعة!
الدعاية البلشفية في جامعة جنوب المحيط الهادي.

تلا ذلك خبرٌ من عمودَين، امتد حتى الصفحة الرابعة عشرة، به تقريرٌ صارخ عن محتويات صحيفة «ذا إنفيستيجاتور»، بما في ذلك الحقائق الأكثر إثارةً للدهشة حول توظيف الرياضيين في الجامعة، والنص الكامل للقصيدة الساخرة عن الإله، ولكن للأسف، لم يُذكر سوى مجرد تلميحٍ مختصر جدًّا عما قاله هاري سيجر عن سيبيريا. وفي وقتٍ لاحق من اليوم ظهرَت الصحف المنافسة «إيفينينج بوستر» و«إيفينينج رورر» و«إيفينينج هاولر»، وبالرغم من انفراد «إيفينينج بوستر» بنشر طبعةٍ كاملة قبل منافسيها، عوَّضَت الصحف الأخرى عن ذلك بذكر كميةٍ كبيرة من التفاصيل الجديدة، جُمع بعضها عبر الهاتف، وأُلِّف الباقي في مكاتب التحرير. وكان عنوان الخبر في صحيفة «إيفينينج رورر»:

اكتشاف مؤامرة للجيش الأحمر داخل الكلية

واستطردَت في ذكر كيف كانت الشرطة تُلاحِق عملاء روسيين، استغلوا طلاب جامعة جنوب المحيط الهادي لنشر دعايتهم في الصحف. أما صحيفة «إيفينينج هاولر»، التي كان ولعُها الأكبر هو «الأخبار التي تجذب اهتمام الناس»، فقد ركَّزَت على زعيم المؤامرة، وجاء عنوان خبرها كما يلي:

مليونير أحمر في الكلية!
ابن أحد أقطاب النفط يدعم السوفييت!

وقد حقَّقَت سبقًا على منافسيها بالحصول على صورة لباني، والتي حصلَت عليها عن طريق إرسال رجل إلى منزل آل روس، وإبلاغ العمة إيما بأن باني قد حصل للتوِّ على جائزة لتحقيقه أفضل أداءٍ دراسي منذ عشر سنوات. كانت السيدة حسنةَ النية متحمِّسةً للغاية، لدرجة أنها أرسلَت كبير الخدم إلى المتجر على ناصية الشارع ثلاث مرات، لترى ما إذا كانت صحيفة «إيفينينج هاولر» التي نشرَت خبر تلك الجائزة قد وصلَت!

٩

في ظل الظروف العادية، كان من الممكن أن تستمر هذه الإثارة الصحفية لمدة اثنتَين وثلاثين ساعة. وكانت صحف بعد ظهر اليوم التالي ستنقل حقيقة أن سلطات الجامعة قد حظرَت «ذا إنفيستيجاتور»، وفي اليوم التالي كانت عناوينُ الصحف ستصبح «طلاق نجمة أفلام من بطل» أو «هروب زوجة رجل أعمالٍ كبير مع شرطي».

لكن القدَر كان قد أعد أزمةً مدهشة لـ «داعمي الجيش الأحمر» في جامعة جنوب المحيط الهادي. ففي صباح اليوم التالي لنشر صحيفتهم، تصادف أن تعرَّضَت عربةٌ محملة بالمواد المتفجرة، كانت تشُق طريقها عَبْر وول ستريت دون الاكتراث بقوانين البلدية، لتصادُمٍ شديد وانفجرَت. وقع الحادث أمام المكاتب المصرفية لشركة مورجان وشركاه، وأدى إلى مقتل نحو عشرة أشخاص. وبعد دقائقَ قليلةٍ من وقوع الحادث، استدعى المصرفيون أشهر محقِّقي أمريكا لحل اللغز، وكان هذا المحقق رجل أعمالٍ فطنًا، استوعب أنه إذا أعلن أنه كان حادثًا عاديًّا فلن يحصل على شيء، بينما إذا أعلن أنه مؤامرةٌ بلشفية فسيحصل على عدة مئات الآلاف من الدولارات؛ ولذا لم يستغرق سوى ثلاثِ دقائقَ للنظر حوله، ثم أعلن أن الأمر كان مؤامرة.

وعلى الفور، انطلق من كل مكانٍ حشدٌ من الجواسيس والمخبرين للعمل على هذا الحادث، مدركين أنهم إذا تمكَّنوا من العثور على دليل أو تلفيقه، فسيُحقِّقون شهرةً ومالًا. واجتاحت البلد والبلدان الأخرى موجةٌ شبيهة بموجة مطاردة الساحرات، ولمدة سنتَين أو ثلاث سنوات بعد ذلك، أُعلن عن اكتشافاتٍ جديدة، وكُشفَت «أسرار» جديدة، وكان المساكين في الزنازين البولندية والرومانية يتعرَّضون لأقسى أنواع التعذيب، من خلع لأذرعهم من مفاصلها وإخصائهم، بينما ينتظر قرَّاءُ الصحف المتلهِّفون في نيويورك وشيكاغو وإنجِل سيتي بفارغ الصبر؛ الإثارةَ الموعودة.

أما في صحف إنجِل سيتي «إيفينينج بوستر» و«إيفينينج رورر» و«إيفينينج هاولر»، فكان الوضع الذي يواجهها كما يلي: إذا تمكَّنت من ربط المؤامرة البلشفية في جامعة جنوب المحيط الهادي بانفجار القنبلة في وول ستريت، فستحصُل على مبيعاتٍ إضافية تصل إلى عدة مئاتٍ من الدولارات، بينما إذا أخفقت في إثبات هذه الصلة، فسيستفيد بهذه الزيادة منافسٌ أذكى. ولما كان الأمر كذلك، استغرق الأمر من صحيفة «إيفينينج هاولر» حوالَي ساعةٍ واحدة لتتذكَّر أن هاري سيجر قد ظهر في «ذا إنفيستيجاتور»، ولتتأكَّد من

عملاء رابطة الدفاع الأمريكية أن هذا المدعُو سيجر قد أدان بشدة، في اجتماعٍ جماهيري عُقِد مؤخرًا، شركةَ مورجان وشركاه، وتوقَّع لهم مصيرًا رهيبًا. ولذلك، في طبعتها الثالثة، التي كانت في الشوارع حوالي الساعة الواحدة ظهرًا، أعلنَت صحيفة «إيفينينج هاولر» للعالم الخبر التالي:

قنبلة تنبَّأ بها معاونو الجيش الأحمر
الشرطة تبحث عن العميل السوفييتي بيننا

اعترف كاتب العناوين الرئيسية بصحيفة «إيفينينج هاولر» مبتسمًا أن هذا الفعل كان ينطوي على مخاطرةٍ كبيرة، لكنه كان على دراية بعمله، وبالفعل قبل انتهاء اليوم، جاء أحد المحاربين القدامى إلى مكتب التحرير ليؤكِّد الخبر. فقبل يومَين كان قد استقل مركبةً عامة مع هاري سيجر، وتبادلا الحديث، وسمعَه يقول: «تذكَّر كلامي وتابِع الصحف؛ ففي غضون ثلاثة أيام ستقرأ أن آل مورجان قد دفعوا ثمن جرائمهم في هذه الحرب.» وجدير بالذكر إضافة أن الجندي المصاب باضطرابٍ عصبي كان يؤمن بما يقول؛ إذ تصادَف أن تطرَّق الرجلان في حديثهما إلى الغزو البولندي لروسيا، الذي كان آنذاك في أوجِه، وقال سيجر: «تذكَّر كلامي وتابِع الصحف، في غضون ثلاثة أيام ستقرأ أن البولنديين قد تقهقَروا وتخلَّوا عن موقعهم الحالي.»

قبل هذه الواقعة، كان باب مكتب مؤسسة سيجر المتخصصة في مجال الأعمال قد تضرَّر بشكلٍ كبير؛ حيث استخدم المحققون وغيرهم من الوطنيين الأزاميل لاقتحام المكان ليلًا، ولكن في الليلة التي أعقبَت «اكتشاف القنبلة» استخدموا فأسًا، وعندما وصل سيجر في الصباح وجد أن جميع أدراج المكاتب في المكان، ليس فقط أدراجه الخاصة، بل أدراج الطلاب أيضًا، قد أُفرغَت محتوياتُها على الأرض، وداست عليها أحذية الوطنيين ذات المسامير في نعالها. وقد استولَوا كذلك على ملاحظات سيجر لخطبه، بالإضافة إلى تدريبات الكتابة على الآلة الكاتبة الخاصة بطلابه، التي كانت تُعتبَر أدلةً قوية لإدانته؛ فسيجر لم يجعل طلابه يكتبون «الثعلب البني السريع يقفز فوق الكلب الكسول»، لا يا سيدي، لقد أعطاهم دعايةً ثورية من شأنها أن تثير شكوك أي وطني، ومن ذلك على سبيل المثال: «لقد خُلق جميع الناس أحرارًا ومتساوِين»، أو ما يحمل رسائلَ متهورة مثل: «إما الحرية وإما الموت!»

١٠

لم يعتقد الكثيرون في جامعة جنوب المحيط الهادي جديًّا أن «الطلاب الداعمين للجيش الأحمر» مسئولون بأي شكلٍ عن انفجار قنبلة وول ستريت، أو حتى كانوا على دراية بحدوثه. لكنهم كانوا يعلمون أن هؤلاء الحمقى السذَّج قد تعرَّضوا للتضليل، على يد رجالٍ أشرار من المحتمل جدًّا أن يكونوا قد شاركوا في المؤامرة، أو كانوا فاسدين بما يكفي لتكون لهم صلة بالموضوع. وكانوا يعلمون أيضًا أن هؤلاء الحمقى قد تسبَّبوا في الإساءة إلى شعبية الجامعة. ولذلك تعرَّض هؤلاء الحمقى للمضايقات والتهديد من قِبل الجميع، واستُدعوا إلى مكتب العميد واحدًا تلو الآخر، وهناك حقَّق معهم واستجوبَهم، فضلًا عن الرئيس كوبر والعميد سكويرج، العديدُ من السادة الصارمين الذين يمثِّلون المدعي العام للمنطقة، ووكيل نيابة المدينة والمخابرات الفيدرالية، والصحف الوطنية وجمعيات الدفاع، وإدارة استعلامات خاصة بسفيرٍ سابق من حكومةٍ روسية لم تعُد موجودة.

ثار باني روس عندما أدرك حدوث ذلك. ولكونه ابن رجلٍ ثري، فقد اعتاد أن يحصل على حقوقه، وأكثر. ولذلك كان ردُّه على أول مستجوبيه هو أن سأل بحدة: «من أنت وما دخلك بهذا الأمر؟»

قال دين سكويرج: «حسنًا يا روس، إذا كان هناك رجالٌ أشرار يهدِّدون أمن بلادنا، فأنت بالتأكيد لا ترغب في حمايتهم.»

ردَّ باني قائلًا: «الأمر يعتمد على ما تعنيه بكلمة أشرار. فإذا كنتَ تقصد الرجال الذين يحاولون قول الحقيقة، فأودُّ حمايتهم بكل ما في وسعي.»

«كل ما نريد معرفته هو ما تعرفه عن رجل يُدعى بول واتكينز.»

هكذا كان الوضع؛ إما أن يخضع باني للاستجواب على يد المحقِّقين، وإلا فسيظن الجميع أنه كان يُخفي بعض الأسرار الغامضة بشأن بول. ولذلك قال: «بول واتكينز صديقي المفضَّل. أعرفه منذ سبع أو ثماني سنوات. إنه أكثر رجل يتمتع بسلوكٍ قويم عرفتُه على الإطلاق. لقد عاد إلى الوطن مريضًا، بعدما قضى عامًا ونصفًا في الجيش في سيبيريا. كان بإمكانه مطالبة الحكومة بدفع تعويضٍ له لكنه عزيز النفس. كل ما في الأمر أنه أخبرني بما رآه بأم عينَيه، وأنا أصدِّق كل كلمة مما أخبرني به. وسوف أنقل كلامه لأشخاصٍ آخرين، داخل الجامعة وخارجها، ولن يستطيع أحدٌ أن يمنعني من فعل ذلك.»

وهكذا انتهى الأمر، وأُفرج عن باني في الوقت الحاضر. وقرَّروا أن يتعاملوا مع المتآمرين الأقل ثراءً، بدءًا من بيتر نيجل، الذي كان يتحمَّل الجزء الأكبر من الإدانة؛ لأن اسمه ظهر على الصحيفة بوصفه محررًا. أُمر بيتر على الفور بأن يتراجع عن سوء أدبه مع الرب، لكنه أقسم أنه لن يفعل ذلك؛ لذلك نشرَت صحيفة «إيفينينج هاولر» خبرًا من عمودَين بعنوان:

فصل أحد طلاب الجيش الأحمر من الجامعة

ابتسم بيتر وقال لبقية أفراد المجموعة ألا يقلقوا؛ فهو ينوي العمل في مجال الأنابيب، وسينتقم من المجتمع، وعندما يجني بعض المال سينشر صحيفةً خاصة به، ويسخر فيها من الرب كل أسبوع.

ثم جاء دور رايتشل مينزيس. كان باني قد حذَّرها من العملاء السريين، ووعدَته بأن تتحدث معهم بحدة، لكنهم استخدموا معها أسلوبًا أفقدها رباطة جأشها. فقد سألوها عن دور والدها في هذه المؤامرة. وأخبروها أنهم تأكَّدوا من أن الأب مينزيس وُلد في بولندا، وبموجب قوانين الترحيل الجديدة، بإمكانهم إلغاء أوراق تجنيسك، دون النظر إلى ما تؤمن به أو ما فعلته؛ حيث سيلقون القبض عليك ويرحِّلونك في سفينة، تاركين عائلتك وراءك لتجوع. لم يكن من حقك اللجوء إلى القضاء، ولا اللجوء إلى أي أحد. علاوةً على ذلك، إذا رُحِّل رجلٌ داعم للجيش الأحمر إلى بولندا في هذه الأيام، فلن يُحاكم ولن يُطرح عليه أي أسئلة، فقط سيقف أمام الحائط ويُعدَم رميًا بالرصاص.

وهكذا انفجرَت رايتشل في البكاء أمام هؤلاء الغرباء، وأعلنَت أن والدها كان اشتراكيًّا وليس شيوعيًّا، كما لو أن ذلك سيعني شيئًا لأي وطني! ألم يكن الاشتراكيون يعارضون الحرب منذ البداية؟ ألم يكن المدعي العام في واقع الأمر يتآمر للترشُّح لمنصب الرئيس في المؤتمر الديمقراطي القادم، وكان يستند في مطالبته بهذا الامتياز إلى حملته الشجاعة للقضاء على خطر الجيش الأحمر؟

اتصلت رايتشل هاتفيًّا بباني، فقفز في سيارته وذهب لزيارة الرئيس ألونزو تي كوبر، الحاصل على دكتوراه في علم اللاهوت والفلسفة والقانون، في المساء في المسكن الخاص بذلك الشخص الجليل، مخالفًا آداب السلوك المعمول بها في الجامعة. وبدأ حديثَه بالإعلان عن قراره الخاص، الذي يتمثل في استعداده للموافقة على عدم القيام بمزيد من «الدعاية» العامة أثناء فترة دراسته في الجامعة، لكنه أراد أن يضيف أنه إذا سمحَت

السلطات بترحيل السيد مينزيس عقابًا على كتابة ابنته لمقالةٍ نقدية عن محاضرة، فهذا يعني أن باني روس سيشن الحرب عليهم، مستخدمًا بعضًا من أموال والده للكشف عن أمورٍ مهمة، قبل أن يغادر جامعة جنوب المحيط الهادي.

احمرَّ الوجه المستدير للدكتور المبجل حتى جذور شعره الأبيض الثلجي، وهو يستمع إلى هذا الابتزاز الصريح. وقال: «أيها الشاب، يبدو أنك تُغفِل حقيقة أن سلطات الجامعة لا علاقة لها بقرارات حكومة الولايات المتحدة.»

أجاب الشاب: «دكتور كوبر، تعلمتُ من والدي أن أذهب إلى مقر القيادة عندما أريد إنجاز الأمور. أعلم أنك إذا أخبرتَ هؤلاء الحمقى في الدفاع أنك تريد تسوية هذه المسألة، فسيمتثلون لطلبك. وأودُّ أن أضيف أنه على الرغم من أنني لم أقابل السيد مينزيس مطلقًا، فأنا أعرف ابنته، وقد قدَّمَت لنا أفكاره عدة مرات، وهو يؤمن بالديمقراطية وتثقيف الناس، وكانت كل نصيحة من النصائح التي أرسلَها لنا تتماشى مع هذَين المبدأَين. وهو ينتمي إلى مجموعة الاشتراكيين اليمينيين، ويُعارِض حركة البلاشفة. وبالتأكيد أنت تعرف ما يكفي عن الوضع لتُدرِك أن هذا ليس نوع الأشخاص الذين من المفترض أن نُرحِّلَهم.»

تبيَّن أن الدكتور كوبر لم يكن يعرف الكثير حقًّا، لكنه كان على استعداد للتعلم. لقد كان الأمر هزليًّا إلى حدٍّ ما؛ ففي ظل السخط الذي كان يتعيَّن عليه أن يشعر به رسميًّا، كان لدى السيد العجوز فضولٌ غير منطقي بشأن هذه الأفكار الجديدة الغريبة، التي أغرت طالب الفرقة الثانية المليونير المميَّز. وبدأ باني يخبره عن بول واتكينز، وعن هاري سيجر، وعن خلفياتهما وما شهداه في سيبيريا ورأيهما في هذا الشأن، ورأي باني في كل ذلك. سأل الدكتور أسئلةً ساذجة وطفولية، لكنه حاول أن يفهم، وأعطاه باني محاضرةً كاملة استمرَّت ساعتَين عن البلشفية مقابل الاشتراكية. في النهاية، ربَّت على ظهر طالب الفرقة الثانية المليونير المميَّز وتركه يرحل، وأكَّد له أن الأب مينزيس لن يُرحَّل ما دام يُحسِن التصرف، وحذَّره تحذيرًا رصينًا مفاده أنه في حين أن العقول الناضجة، مثل عقول الدكتور كوبر، كانت مجهَّزةً للتعامل مع هذه الأفكار الجديدة الخطيرة، لا يمكن الوثوق في عقول الطلاب غير الناضجة!

١١

كان من المقرَّر أن يتقابل باني مع هنريتا أشلي. لم يكن الأمر شاقًّا كما خشي باني؛ لأنها أخفت حزنها تحت عباءة الكرامة. وأخبرَتْه: «أنا آسفة يا أرنولد، لكنني بدأتُ أخشى من

أن هناك شيئًا بداخلك يستمتع بهذه السمعة السيئة.» حاول باني أن يكون متواضعًا ويقبل هذا التوبيخ، لكنه لم يستطع؛ فقد كان يشعُر بالملل من أفكار هنريتا، وعندما تشعُر بالملل، يصعب عليك الحفاظ على تخيلاتك الرومانسية عن فتاة.

وبعد ذلك حان وقتُ التعامل مع الأهل! وأوَّلهم العمة إيما التي كانت تبكي في ذعر وتشوُّشٍ شديدَين. فباني لم يحصل على تلك الجائزة! وقد ثبت في ذهن العمة إيما بطريقةٍ ما فكرة وجود جائزة، وأن باني كان من الممكن أن يحصل عليها لولا الجيش الأحمر. فقد كان العملاء البلاشفة يشكِّلون خطرًا فظيعًا وصل حتى بيتها! لقد سمعَت العمة إيما قصصًا مروِّعة من المحاضرين في نادي السيدات الذي ترتاده، لكنها لم تتخيل قطُّ أن مبعوثي الشيطان هؤلاء قد يُغْوون ابن صهرها العزيز! قال ابن صهرها: «انتبهي يا عمتي! قد تكونين التالية!»

ثم بيرتي. تلك الفتاة الجامحة! فقد دُعيَت إلى حفلة بمنزل آل أثرتون ستيوارت الموقرين، لكنها أصبحَت تخجل من الوجود بين الأشخاص المحترمين. كان هذا ما يحدث في كل مرة، فما إن تحقق انتصارًا اجتماعيًّا، حتى كان باني يأتي ويحطِّم ما حقَّقَته. لقد كان الأمر الأكثر إثارة للاشمئزاز على الإطلاق، وكان يُظهِر أنه لا يتمتع بذوقٍ راقٍ. كانت بيرتي وباني يُحب أحدهما الآخر، وكان أحدهما يُطلِق على الآخر أسماءً بشعة في صراحةٍ أخويةٍ حقيقية.

أخيرًا جاء دور الأب، الداعم المثالي، الذي لم يكن يتفوَّه بكلمةٍ واحدة ولا يطرح سؤالًا، وعندما بدأ باني في شرح الوضع، قال: «لا بأس يا بني، أعرف كيف حدث ذلك.» وكان بالفعل محقًّا في ذلك؛ فقد كان يعرف بول وهاري سيجر، وكان على دراية بطريقة تفكير ابنه. وكان يعلم طبيعة الحياة المأساوية؛ حيث يجب على كل جيل أن يتعلم من أخطائه.

سرعان ما تلاشت الضجة بشكلٍ مفاجئ. وفي غضون أيامٍ قليلة، كان زملاء باني «يسخرون» منه، وتحوَّل الأمر كله إلى مزحة. ولم يكن هناك سوى عاقبةٍ وخيمةٍ واحدة، وهي تلقي السيد دانييل ويبستر إيرفينج رسالة من الرئيس كوبر، يُخبره فيها مسبقًا، من باب اللياقة، بأن عقده مع جامعة جنوب المحيط الهادي لن يُجدَّد للعام المقبل. أراها المدرس لباني وهو يبتسم ابتسامةً جافة، وكان باني غاضبًا وأراد ابتزاز الدكتور المبجَّل مرةً ثانية. لكن السيد إيرفينج أخبره أن ينسى الأمر؛ فهناك طرقٌ كثيرة جدًّا لجعل حياة معلمٍ غيرِ مرغوب فيه بائسة. أما هو فسيُقدِّم أوراق اعتماده في وكالات التوظيف، ويُرسِل الكثير من الرسائل، وسينتقل إلى مكانٍ جديد. وأضاف قائلًا: «هذا على افتراض أنني

سأتمكن من الحصول على وظيفةٍ جديدة. فلديهم تنظيمٌ محكَم للغاية، وقد أجد نفسي مدرجًا في القائمة السوداء للأبد.»

«برأيك، كيف تمكَّنوا من الوصول إليك يا سيد إيرفينج؟»

قال الآخر: «كان لا بد من حدوث ذلك. فلديهم جواسيسُ كثيرون.»

«لكننا كنا حذرين للغاية! ولم نذكُر اسمك قطُّ، إلا في مجموعتنا الصغيرة!»

«من المحتمل أن يكون لديهم جاسوسٌ بينكم.»

«أتقصد طالبًا؟»

«بالطبع.» وابتسم السيد إيرفينج لعدم تصديق باني، ومد يده إلى مكتبه وسحب ورقةً منسوخة. وقال: «لقد سلَّمني هذه صديقٌ لي في العمل.»

لقد كانت إحدى النشرات الأسبوعية الخاصة ﺑ «رابطة تحسين أمريكا»، وهي منظمةٌ دعائية لرجال الأعمال في إنجِل سيتي. وكانت توضِّح كيف كان لديهم عملاءُ في الكليات والمدارس الثانوية، لتدريب الطلاب على مراقبة معلميهم وزملائهم الطلاب، والإبلاغ عن أي علاماتٍ تشير إلى خطر وجود الجيش الأحمر. وتفاخرَت الرابطة بتمويلها الذي سيصل إلى مائة وستين ألف دولار سنويًّا على مدى السنوات الخمس المقبلة. تلقَّى الشاب المثالي ضربةً جديدة على رأسه بسبب اصطدامه بالواقع الأليم! جلس باني يفكِّر في أعضاء المجموعة الصغيرة. «مَن يا ترى؟»

قال السيد إيرفينج: «لا بد أن يكون شخصًا يساند الجيش الأحمر بشدة. فهكذا تسير الأمور؛ حيث يبحثُ الرجل عن شيءٍ ما للإبلاغ عنه، وعندما لا يجد شيئًا، يميل إلى إثارة المشاكل. لذلك دائمًا ما يصبح الجاسوس محرضًا. يمكنك اكتشافُه من خلال حقيقة أنه يتحدث كثيرًا ولا يفعل شيئًا؛ فهو لا يستطيع تحمل مسئولية اعتباره قائدًا.»

صاح باني: «يا إلهي! لقد وعدَنا بمساعدتنا في بيع تلك الصحف، لكنه لم يأتِ!»

«من؟»

«بيلي جورج. فهو لم يرضَ قطُّ عن مجهوداتنا لمساندة الجيش الأحمر! وكان السبب وراء ظهور تلك القصيدة الحمقاء لبيتر نيجل في الصحيفة. والآن نأى بنفسه عنا، ولم يُذكر اسمُه في الفضيحة.»

ابتسم السيد إيرفينج. «حسنًا يا روس، لقد شهدتَ بعينَيك أفعال الجيش الأبيض المرعبة! وستجد أن هذا سيساعدك على فهم تاريخ العالم. ولحسن الحظ، أنت غني؛ ولذلك لم يكن الأمر سوى مجرَّد مزحةٍ بالنسبة لك. لكن لا تنسَ أنك لو كنت يهوديًّا روسيًّا

فقيرًا تعيش في الأحياء الفقيرة، لكنتَ الآن في السجن، بكفالةٍ قدرها عشرة آلاف دولار، ومحكومًا عليك بعشرة أو عشرين عامًا في سجن الدولة. ولو كنتَ تعيش في بولندا أو فنلندا أو رومانيا، لكنتَ أنت وكل أفراد مجموعتك الصغيرة مدفونين في خندقٍ موحل منذ أسبوع!»

الفصل الثاني عشر

يخت «السيرانة»

١

أتى فصل الربيع مجددًا، وكان باني ينهي عامه الثاني في جامعة جنوب المحيط الهادي. لكن سحر المؤسسة العظيمة كان الآن قد تلاشى، ولم يعُد باني يُقدِّرها كما كان يفعل سابقًا. وبدأ يدرك أن المواد الدراسية مملة، وأنها تُعلِّمك الكثير من الحقائق القليلة الأهمية، ولا تُشجِّع على التفكير الجديد والمبتكر. كان الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو اقتراحات لبعض الكتب القيِّمة التي نوى أن يقرأها، ولكنه وجد أنه من الأفضل فعل ذلك في الديار. وبدأ يفكِّر فيما إذا كان سيعود للجامعة في العام المقبل أم لا.

بدا أن الأمور كانت أكثر استرخاءً في بارادايس. فقد عاد بول للعمل رئيسًا للنجَّارين في الشركة، واستعاد جزءًا من عافيته، وبدأ يجني مالًا وفيرًا، وذلك لزيادة الطلب على عمال البناء؛ إذ توجَّهَت البلاد إلى تعويضِ ما خسرَتْه من منشآتٍ في فترة الحرب. كانت روث سعيدة مجددًا، وبالرغم من إعجاب ثلاثة على الأقل من عمال النفط بها، لم تكن تفكِّر في أحدٍ سوى أخيها الرائع. عاود بول الدراسة، ولكنه لم يعُد يهتم بكتب علم الأحياء؛ فقد كان ينفق كل أمواله على المجلات والكتيبات والكتب التي تتناول موضوع نضال العمال. وكان يعمل في الشركة عددٌ لا بأس به من الجنود العائدين من الحرب، وكان بعضهم يُفكِّر فيما حدَث في الحرب تمامًا مثل بول؛ ولذلك كانوا يجتمعون بانتظامٍ مرتَين في الأسبوع، ويقرءون بصوتٍ عالٍ فصلًا من أحد الكتب ويناقشونه.

وهكذا تحوَّلَت كابينة آل راسكوم إلى ما اعتادت صحف إنجِل سيتي وَصْفَه بـ «الوكر البلشفي». وبالرغم من اختلاف هؤلاء العمال في نهج تفكيرهم، فقد كانوا متحدين في اعتقادهم بأن أصحاب رأس المال والعمال على طرفَي نقيض ولا يجمع بينهم سوى

النضال. ولم يتردَّدوا في البوح بذلك؛ حيث كانوا يبدءون النقاش أثناء العمل، أو أثناء تناول مجموعة من الرجال طعام الغداء، حتى تتردَّد أصداء أصواتهم في كل مكان. كان يعمل في الحقل أيضًا «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين في العالم»؛ حيث كان من الممكن العثور على منشوراتهم في استراحات العمال. لا بد أن الأب كان على علمٍ بهذا الأمر، لكنه لم يفعل شيئًا حياله؛ فقد كان رجاله دائمًا يتمتَّعون بحرية التعبير عما يحلو لهم، وكان مستعدًّا لتحمُّل المخاطر الناجمة عن ذلك. وبالفعل، لم يكن بإمكانه فعل أي شيءٍ آخر، في الوقت الذي كان يعلم كل رجل في المكان أن مكتشف الحقل ووريثه الوحيد كان من «أكثر داعمي الجيش الأحمر» في المجموعة!

منذ الحرب، أصدرَت الحكومة مرسومًا للاعتراف باتحاد عمال النفط والتعامل معه. ولكن الآن بدأَت قبضة الحكومة الأمريكية في التراخي، وكان الرئيس المحب للمثالية شبه عاجزٍ في واشنطن، وفي إنجِل سيتي كان الحشد المعاضد لـ «الجماعة المناهضة لفكرة الاتحادات» يستعد لاستعادة الأيام الخوالي. على الأقل كانت هذه هي الشائعة التي انتشرَت بين مسئولي الاتحاد، الذين كانوا يفكِّرون في كيفية التصدي لتحركات أصحاب الأعمال. انتهَت اتفاقات الأجور قرب نهاية العام، وسيطر هذا الموضوع على جميع نقاشات عُمال النفط، سواء العُمال «المساندون للجيش الأحمر» في كابينة بول، أو العمال العاديُّون. وكان يلُوح فوق رأس باني شبَح احتمالٍ كان ينظر إليه بقَدْرٍ كبيرٍ من الهلع والخوف، وهو احتمال وقوع إضرابٍ آخر.

لم يتخلَّ الأب قطُّ عن رغبته في أن يهتمَّ ابنُه بالشركة وأنشطتها المتنامية. وكان باني، الذي كان مدركًا دائمًا لرابطة الحب هذه، يدرُس تقارير الإنتاج الشهرية، وقوائم التكاليف والأسعار، ويُعاين الآبار قيد الحفر، ويُشارِك في مشاوراتٍ طويلة مع رؤساء العُمال. قبل بضع سنواتٍ فقط، كانت آبار النفط بالنسبة له الشيء الأكثر إثارةً للاهتمام في العالم، لكن القدَر القاسي أفقد آبار النفط متعتَها وجعلها تشبه بعضها! فبالنسبة له أصبح الأمر مقتصرًا على أن البئر رقم ١٤٢ حقَّقَت ستمائة ألف دولار، في حين حقَّقت البئر رقم ١٤٣ أربعمائة وخمسين ألف دولار فقط. وكذلك لم يحدث هذا الاختلاف في الأرباح فارقًا؛ فكل ما كان بإمكانك فعلُه بالمائة والخمسين ألفًا الإضافية هو حفرُ بئرٍ أخرى.

كان لدى الأب إجابةٌ واحدةٌ مخزَّنة داخل عقله: «يحتاج العالم إلى النفط.» حينئذٍ ستنظر إلى العالم، وسترى حشودًا هائلة من الناس يقودون سياراتهم إلى أماكن لم يكونوا

فيها أفضل حالًا من أوطانهم! لكنك إذا أخبرتَ الأب بذلك، فسينزعج لأن هذا يتعدَّى نطاق تفكيره. بدا الأب لباني وكأنه حصانٌ عجوزٌ مربوط في طاحونة، يستمر في السير طوال النهار، ويكمل السير ليلًا في أحلامه. إذا أبعدتَه عن الطاحونة، فسوف يموت؛ لأنه لم يعُد لديه سببٌ يعيش من أجله.

تعلَّم باني أن يحتفظ لنفسه بشكوكه الخائنة، ونظريات «الصراع الطبقي» التي تعلمها من بول وزملائه، وشائعات الإضراب التي قرأ عنها في جريدة عمال النفط. وبدلًا من ذلك، كان يصطحب الأب لصيد الأسماك، وكانا يتظاهران بأنهما يشعُران بالسعادة التي كانا يشعران بها فيما مضى في حضن الطبيعة الأم، على الرغم من أن الحقيقة المُرة كانت زيادة وزن الأب وتصلُّب مفاصله، لدرجة أنه لم يعُد يستمتع بتسلق الصخور.

٢

قضى باني إجازة عيد الفصح في بارادايس، وتصادف حدوث ذلك مع زيارة فيرنون روسكو للمنطقة. كان قد سبق له زيارة المكان، ولكن حدث ذلك في فترة غياب باني، وكانوا يعقدون اجتماعاتٍ قصيرة في المكتب، وسط ضغوط العمل. كان لدى باني انطباعٌ عام عن وجه فيرنون الكبير وجسده الضخم وصوته الجَهْوري. قال الأب إن «فيرن» كان يتمتع أيضًا بقلبٍ كبير؛ كان دليل باني الوحيد على ذلك هو أن السيد روسكو قد ربَّت على ظهره، ودعاه «جيم الابن» بحماسٍ كبير.

ها قد وصل إلى بارادايس، وتصادف أن هبَّت مع وصوله ريحٌ صحراوية، تسبَّبَت في صنع مزيجٍ غريب. عادةً ما كانت حرارة النهار محتملةً في بارادايس، ولطالما كانت الليالي باردةً ومنعشة، ولكن كانت تهبُّ رياحٌ آتية من الصحراء ثلاث مرات أو أربعًا في السنة، ويصبح الطقس كما لو أن يدًا حارقةً تلتف حول حلقك. «درجة الحرارة مائة وأربعة عشر فهرنهايت في الظل، وليس هناك أي ظل»، هكذا عبَّر عُمال النفط عن الوضع، وهم يواصلون العمل في الشمس، ويتجرَّعون كمياتٍ كبيرة من ماء الشعير. أسوأ ما في الأمر هو أن الرياح الساخنة كانت تهبُّ طَوال الليل؛ ولذلك كانت المنازل، التي كانت تسخن مثل الأفران، تظل محتفظة بهذه الحرارة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام.

غادر «قطب النفط»، كما أطلقَت الصحف على فيرنون روسكو، إنجِل سيتي بعد العشاء، ووصل إلى الكابينة قبل منتصف الليل بقليل. كان الأب وباني ينتظرانه، جالسَين

في الشرفة، وعندما رآهما، بدأ يتحدث قبل حتى أن يتوقف محرك سيارته. «مرحبا يا جيم! مرحبًا يا جيم الابن! يا إلهي، ما هذا الطقس! بحق السماء، لم أشعر قَط بمثل هذه الحرارة. هل سيكون الوضع هكذا غدًا؟ يا للهول، أعتقد أنني سأستدير وأهرب!»

خرج من السيارة، وتوجَّه إليهما؛ كان وجهُه مستديرًا مثل القمر الذي كان يسطع فوق رأسه نصف الأصلع. كان قد خلع معطفَه وقميصَه، وكان يرتدي قميصًا داخليًّا من الحرير الوردي، وبالطبع، لم يكن هناك عَرقٌ لأنك عندما تقود سيارتك في حرارة الصحراء هذه تظل جافًّا طوال الوقت، قد تتوقف عند محطة وقود وتقف تحت خرطوم ماء، لكن في غضون بضع دقائق ستجفِّف الرياح كل شيء ما عدا مكان جلوسك.

قال الأب: «مرحبًا يا فيرن»، وقال باني: «كيف حالك يا سيد روسكو؟» كان باني حريصًا على جذب يده بعد مصافحة رجل الأعمال قبل أن يقبض رجل الأعمال على يده؛ لأنه كان سيسحق عظامه بقبضته القوية. كان يعمل في السابق راعي بقر في أوكلاهوما، وقيل إنه أمسك بسارق خيول مكسيكي بيدَيه وثناه إلى الخلف حتى انكسر عموده الفقري. كان لا يزال يتمتع بهذه القوة، على الرغم من طيات الدهون.

قال ردًّا على سؤال باني المهذَّب: «أشعُر بحرٍّ شديد. هل تعتقد يا جيم أنه من الأفضل أن أبقى؟»

قال الأب: «عليك أن تبقى. فأنا لن أستمر في تطوير أرض باندي حتى تُلقيَ نظرة على الحقل. لا تقلق، سنُوفر لك سبل الراحة.»

«هل وصلَت الجعة الخاصة بي؟ مرحبًا، يا كونو» وجَّه هذه التحية للياباني الذي كان يقف مبتسمًا ابتسامةً عريضة عند مدخل المنزل. «أحضر لي بعضًا من الجعة الخاصة بي! أحضر لي دلوًا، أو ربما برميلًا. يا إلهي، أحضرتُ بعضًا منها في سيارتي؛ فأنا لن أجازف بنفادها. هل سمعتَ ما حدث لبيت أورايلي؟ حاول الأحمق عبور الحدود ومعه صندوق من الويسكي في سيارته، لقد أخبرني أن ربع الجالون كلفه مائة دولار قبل أن ينجح في المرور! بحق السماء، كيف تتحمَّل هذا الطقس؟»

«حسنًا، السبب الأول هو أنني أشرب عصير الليمون بدلًا من الجعة.» كان هذا أحد التغييرات التي فرضَها باني على والده، وكان الأب فخورًا جدًّا به.

قال فيرن: «إذن لا تُحضِر لي جعة! سأشربها في حوض الاستحمام. هل هناك أي نساء في الجوار؟» خلع السيد روسكو حذاءه وسرواله، وجلس تحت مروحةٍ كهربائية.

وقال: «المروحة اللعينة تنفث هواءً ساخنًا!» ثم نظر إلى باني. وقال: «حسنًا، ها هو ولدنا البلشفي! أين تحتفظ بالعلم الأحمر؟»

كاد باني يبلغ سن الحادية والعشرين الرائعة في غضون شهر أو شهرَين، وكان قد سمع كل النكات المختلفة الممكنة عن «البلاشفة». لكنه كان المضيف، وكان عليه أن يبتسم. قال: «أرى أنك تقرأ الصحف.»

«بالتأكيد يا صغيري؛ فأخبارك وصلَت إلى الصفحة الأولى! ولقد ساعدَني ذلك كثيرًا في بعض المفاوضات. تعالَ إلى المكتب وسأقدمك إلى مفوِّضٍ سوفييتيٍّ متخفٍّ؛ فهم يحاولون أن يبيعوا لي حق امتياز في جبال الأورال. لكنني لا أعلم أين يقع هذا بحق الجحيم. ولكن يبدو أن هناك بالفعل مكانًا كهذا، إلا إذا كانوا قد زوَّروا بعض الأطالس. فقد بدأ الرجل يتحدث عن أن جميع البشر إخوة، فقلتُ له بالتأكيد، أنا على دراية بهذا الموضوع. فالعضو الأصغر في شركتنا يعمل في هذا المجال. انظر إلى هذا، وأريتُه الصحيفة، ولقَّبني منذ ذلك الحين بلقب «توفاريش» (كلمة روسية تعني الرفيق)!»

٣

ذهب التوفاريش روسكو للنوم على فراشٍ صغير قابل للطي في الفِناء بجوار النافورة، مرتديًا منامة من الحرير الأخضر النيلي، وفي الخامسة صباحًا أيقظوه، ليُرافق الأب والجيولوجي والمهندس، للموافقة على خطط أرض باندي. عند عودته كانت أشعة الشمس ساطعة؛ ولذا كان ينفُخ ويتذمر، ويصرُخ طالبًا الجعة بدلًا من الإفطار، ويتساءل كيف سيتمكن من الحصول على المزيد منها عندما تنفَد. لقد أقنعوه بعدم عبور الصحراء حتى تغرب الشمس؛ ولذلك مكث هو والأب وباني في غرفة المعيشة، وأغلقوا جميع الأبواب والنوافذ، للحد من شدة الحرارة قَدْر استطاعتهم.

كانت الشمس تركِّز أشعتها على سطح ذلك المنزل وجدرانه، وكان الرجل العظيم ينهض وينظر إلى مقياس الحرارة كل عشر دقائق، ويطلق مجموعة من مصطلحات سائقي البغال. بحلول منتصف الصباح ثار هياجه، وأصَر على وجود طريقةٍ ما لتبريد درجة حرارة المنزل. واقترح أن يُحضِروا خرطومًا ويغرقوا هذه الغرفة بالماء! لكن باني، الذي درس الفيزياء، قال إن ذلك لن يؤدي إلا إلى تحويل المُناخ من مناخٍ صحراوي إلى مُناخٍ عالي الرطوبة، يشبه مُناخ منطقة نهر الكونغو. حينئذٍ اقترح السيد روسكو وضع الخرطوم على الشرفة والسقف، واستدعى باني الصبي البستاني، وسرعان ما بدأَت ستة

رشاشات مياه في رش الماء في كل مكان، كأنما كانت هناك عاصفةٌ مطرية منتظمة تضرب أبواب غرفة المعيشة ونوافذها.

لكن ذلك لم يكن كافيًا؛ ولذا توجَّه الأب إلى الهاتف واتصل برئيس العمال في متجر الصفائح المعدنية، وسأله عما إذا كان بإمكانه تصميم ثلاجة وأجابه الرجل بأنه يستطيع، طلب منه الأب ترك كل شيءٍ آخر وبناء واحدة، وسيدفع للرجال دولارًا إضافيًّا إذا انتهوا من العمل خلال ساعة. وهكذا جاء أربعة رفاقٍ بشاحنة عليها صندوقٌ معدنيٌّ كبير بجدرانٍ مزدوجة من الأرض حتى السقف، وفتحوا فتحة في الأرض لأنبوب التهوية، وأحضَروا حوالَي نصف طن من الجليد المتشقق من مصنع الثلج، بالإضافة إلى بضعة أكياس من الملح، وفي دقائقَ قليلة أظهر مقياس الحرارة أن درجة حرارة الرياح الخارجة من الجزء السفلي من هذا الصندوق هي صفر. اقترب الرجل العظيم منه، وبعد قليل بدأ يتنهَّد في رضًا، وبعد نصف ساعة عطس بصوتٍ عالٍ، ودوَّت أصوات ضحكاتهم. بعد ذلك، شعَر بالنعاس؛ بسبب كل ما شربه من الجعة، ونام في حجرة الجلوس، بينما خرج الأب ليراقب عملية الحفر. بعدئذٍ تناولوا الغَداء، وحصل السيد روسكو على قيلولةٍ أخرى، شعَر بعدها بأنه بخير، وتحدَّث كثيرًا، وتعلَّم باني المزيد عن العالم الذي كان يعيش فيه. قال «قطب النفط»: «جيم، أريد مائتي ألف دولار من أموالك.»

قال الأب، بودٍّ: «أين بندقيتك؟».

«سوف تسترد المبلغ أضعافًا مضاعفة. فأنا وبيت أورايلي وفريد أوربان نجمع بعض التبرُّعات. لا يمكننا أن نُخبر سوى عددٍ محدود من الأشخاص.»

«ماذا هناك يا فيرن؟»

«حسنًا، نحن نستعد لمؤتمر الحزب الجمهوري، ولا نريد أستاذًا جامعيًّا لعينًا متذمرًا كئيب الوجه! نريد رجلًا بشوش الوجه، مثلي ومثلك، يا جيم! سأذهب إلى شيكاجو وأختاره.»

«هل تفكِّر في شخصٍ بعينه؟»

«أنا أتفاوض مع رجل من ولاية أوهايو، يُدعى بارني بروكواي، يتولى شئون الحزب هناك. يريد منا أن ندعم السيناتور هاردينج؛ فهو رجلٌ كبيرٌ ذو حضورٍ رائع، ويجيد إلقاء الخطب وما إلى ذلك، ويمكن الوثوق به، وقد كان حاكمًا هناك، ويفعل ما يُطلب منه. يعتقد بروكواي أن بإمكانه دعمه بمليونَين أو ثلاثة ملايين، ويعدُنا بمنصب وزير الداخلية.»

قال الأب: «حسنًا»، دون أن يُضطَر إلى السؤال عما يعنيه ذلك.

«كنت أراقب قطعة أرضٍ رائعة طوال السنوات العشر الماضية. حفرَت بها إكسلسيور بيت بئرَين اختباريتَين، ثم غطَّتْهما وتكتَّمت على الأمر. ذُكر ذلك في تقريرٍ حكومي، لكنها أخفَته ولم يعُد من الممكن الحصول على نسخةٍ منه من أي مكان، لكنَّني حصلتُ على واحدةٍ سُرقَت من أجلي. هناك حوالَي أربعين ألف فدان تحتوي جميعها على نفط.»

«ولكن كيف يمكنك أخذها من إكسلسيور؟»

«لقد استولت الحكومة على كامل قطعة الأرض، التي من المفترض أن تكون احتياطيًّا نفطيًّا للبحرية. ولكن كيف ستستفيد منها البحرية، دون أي تطوُّرات؟ يعتقد الحمقى أن بإمكانك حفر الآبار وبناء خطوط الأنابيب وصهاريج التخزين، أثناء تصويت الكونجرس على إعلان الحرب. دعنا نستولِ على الأرض ونستخرج النفط، ونَبِع للبحرية كل ما تريد.»

توافَق هذا الاقتراح مع طريقة الأب في إتمام الأعمال؛ لذلك لم يكن هناك داعٍ لمناقشته. ولذلك قال ضاحكًا: «من الأفضل أن تبتعد عن المخاطر يا فين، وأن تؤمِّن منصب المدعي العام إلى جانب منصب وزير الداخلية.»

قال الآخر دون أن يلاحظ الضحكة: «لقد فكَّرتُ في ذلك الأمر. سيكون بارني بروكواي هو المدعي العام نفسه. هذا جزء من صفقته مع هاردينج.»

عندئذٍ، تذكَّر السيد روسكو فجأة أن باني كان يجلس بجوار النافذة، ومن المفترض أنه كان يقرأ كتابًا. «أعتقد أن ولدنا البلشفي سيفهم أن هذا الموضوع ليس محل نقاش في الخطابات العامة.»

أجاب الأب على الفور: «إن باني على دراية بشئوني منذ أن كان طفلًا صغيرًا. حسنًا يا فين، سأرسل لك شيگًا عندما تكون مستعدًّا.»

٤

غربَت الشمس، وحان وقت رحيل السيد روسكو. ولكنه تناول العشاء أولًا، وعندما انتهى من تناول الآيس كريم والقهوة، أبعَد طبقَه، وأزال فوطة المائدة المُعلَّقة في رقبته، واستند إلى كرسيه وهو يتنهَّد تنهيدةَ رضًا، وبينما كان يُخرِج سيجاره من ورق القصدير الذهبي، ثبَّت عينَيه الثاقبتَين على باني الجالس على الطرف الآخر من الطاولة، وقال: «يا جيم الابن، سأخبرك ما خطبك.»

قال جيم الابن بتقبُّل: «حسنًا.»

«أنت فتًى لطيف، ولكنك جاد للغاية. أنت تأخذ الحياة بجديةٍ بالغة، تمامًا مثل والدك. عليك أن تحصُل على القليل من المرح، أنا أعرف ما تحتاج إليه. هل تُواعِد فتاةً أيها الفتى؟»

قال باني وهو يشعر بقليل من الخجل: «ليس في الوقت الحاضر.»

«هذا ما اعتقَدتُه. أنت بحاجة إلى فتاة، لتُخرجكَ مما أنت فيه وتسعدك. لكن انتبه، أنا لا أقصد واحدةً من هؤلاء الفتيات المُحبَّات للجاز، ابحث عن فتاةٍ لديها بعض المنطق، مثل آنابيل. هل تعرف آنابيل إيمز؟»

«لم أقابلها قَط. لكنني رأيتُها بالطبع.»

«هل رأيتَها في فيلم «مدام تي-زي»؟ يا إلهي، هذا ما أسميه فيلمًا سينمائيًّا، بالمناسبة هذا هو الفيلم الوحيد الذي استطعتُ أن أجني منه أرباحًا! تلك الفتاة تعتني بي وكأنها أمي، أراهنك أنها لو كانت هنا، لما شربتُ كل تلك الجِعَة! تعالَ إلى منزلي في أي وقت، وستعثُر لك آنابيل على فتاة؛ فهناك الكثيراتُ منهن اللاتي يتمتعْنَ بالحيوية أيضًا، ودائمًا ما تلعب دور إله الحب بين الفتيان والفتيات، وتشعر بسعادة غامرة عندما تكون سببًا في تطوُّر العلاقة بين اثنَين، وكأنهما زوجٌ من طيور الحب في قفصٍ واحد. لماذا لا تأتي معي الآن؟»

قال باني: «يجب أن أذهب إلى الكلية بعد غد.»

«حسنًا، تعالَ في أي وقت، وأحضِر أباك معك. فهو أيضًا يحتاج إلى امرأة، لقد أخبرتُه بذلك عشرات المرات. هل واعدتَ أحدًا بعدُ يا جيم؟ يا إلهي، انظر إليه وهو يَحمَر خجلًا، وكأنه عزباء عجوزٌ ترتدي سروالًا! يمكنني أن أخبر الفتى بأشياءَ عنك من شأنها أن تجعل وجنتَيك حمراوَين وكأنهما مخضَّبتان بحمرة التجميل، أوه يا لك من محتالٍ عجوز!» ووكز الرجل العظيم، الذي كان ينهض من كرسيه وهو يتحدث بحماس، الأب بضعَ وكزاتٍ على ظهره، وانفجر في الضحك بصوتٍ عالٍ.

كانت أشياء كهذه هي التي تجعلك تعلم أن فيرنون روسكو يتمتع بـ «قلبٍ كبير». يبدو أنه كان معجبًا بباني حقًّا، وكان قلقًا بشأن تعلُّمه كيفية الاستمتاع بالحياة. قال وهو يستقل سيارته الليموزين الكبيرة: «تعالَ لزيارتي في أي وقتٍ أيها الفتى. لا تنسَ، أعني ما أقوله. سأريك كيف يكون المنزل الريفي، وأنت اجعل والدك يحصُل على واحد أيضًا.» وعدَه باني بأنه سيأتي، وبدأ المحرك يصدر خرخرة، وانطلقَت السيارة في ضوء القمر، وتلاشى الصوتُ الضاحك المدوِّي بين التلال. «إلى اللقاء أيها الفتى!»

٥

عاد باني إلى المنزل، وتبع الأب إلى مكتبه وأغلق الباب. «أبي، هل ستدفع هذا المبلغ حقًّا للسيد روسكو؟»

«عجبًا، بالتأكيد يا بني، عليَّ أن أفعلَ ذلك، ولم لا؟» بدا الأب مندهشًا حقًّا، كما كان يفعل دائمًا في هذه المواقف. كان من الصعب التأكُّد من مدى مصداقية أدائه؛ لأنه كان ماكرًا كالشيطان، ولم يكن يتردد في استخدام مهاراته في التمثيل مع من يُحبهم.

«هل تقترح يا أبي شراء رئاسة الولايات المتحدة؟»

«حسنًا يا بني، يمكنك التعبير عن الأمر بهذه الطريقة ...»

«ولكن هذه هي حقيقة الأمر يا أبي!»

«حسنًا، هذه إحدى الطرائق لوصف الموقف. الطريقة الأخرى هي أننا نحمي أنفسنا من المنافسين الذين يريدون إيقاف أعمالنا. وإذا لم نهتَم بالسياسة، فسوف نستيقظ بعد الانتخابات ونكتشفُ أننا قد انتهينا. هناك مجموعةٌ من كبار الرفاق في الشرق دفعوا بضعة ملايين من الدولارات لدعم الجنرال ليونارد وود. ماذا عنك، هل تدعمه؟»

أدرك باني أن هذا سؤالٌ بلاغي، ولم يُجب عليه. «إنها لعبةٌ قذرة يا أبي!»

«أعلم، لكنها اللعبة الوحيدة الموجودة. بالطبع، يمكنني الابتعاد عن كل هذا، فأنا لديَّ ما يكفي للعيش، لكنني لا أشعُر برغبة في أن أصبح بلا جدوى، يا بني.»

«ألا يمكننا أن نُدير أعمالنا الخاصة يا أبي؟» ربما تتذكَّر أن باني قد طرح هذا السؤال من قبلُ.

«لا يُوجَد شيء من هذا القبيل يا بني؛ فبإمكانهم تضييقُ الخناق عليك طَوال الوقت. سيُعيقون تعاملكَ مع معامل التكرير والأسواق والبنوك؛ أنا لا أخبركَ كثيرًا عن تلك المشاكل، ولكن لم يعُد هناك مكانٌ في دنيا الأعمال للتجار الصغار بعد الآن. قد تحسبني تاجرًا كبيرًا لأنني أملك عشرين مليونًا، وقد أحسب فيرن تاجرًا كبيرًا لأنه يملك خمسين مليونًا، ولكن هناك شركة إكسلسيور بيت التي تملك ثلاثين أو أربعين شركة، تعمل جميعها كشركة واحدة؛ أي ما يقرب من مليار دولار في مواجهتك. وهناك شركة فيكتور التي تملك ثلاثمائة أو أربعمائة مليونٍ أخرى، وجميع البنوك وموارد شركات التأمين التي تدعمها؛ فما فُرص نجاحنا نحن المستقلين؟ انظر إلى الانخفاض الحالي في أسعار البنزين، تُخبرك الصحف أن هناك وفرة، لكن هذا كله هُراء، فما السبب وراء هذه الوفرة

سوى إغراق الخمس شركات الكبرى للأسواق للقضاء على التجار الصغار؟ يا إلهي، إنها تمحوهم من الوجود!»

«ولكن كيف يمكن للمسئولين العموميين منع ذلك؟»

«هناك آلاف الأشياء التي تطرأ يا بني، وعلينا أن نُوجِّه أول لكمةٍ مباشرة عند سماع صوت جرس الجولة! فكيف باعتقادك نتمكن من حفر خطوط الأنابيب؟ وكيف نحصل على المرافق؟ لقد شهدتَ بنفسك الوضع في بارادايس، هل كنا سنُحقق أيًّا من هذه التطورات لو لم أدفع لجيك كوفي؟ كيف برأيك سيكون وضعنا حاليًّا أنا وفيرن، لو لم نجلس معه ونراجع القائمة، ونتأكد من أن الرفاق الذين يُدرِجهم بالقائمة مناسبون لنا؟ والوضع الآن لا يختلف كثيرًا عن ذي قبل. فالفرق الوحيد هو أننا أصبحنا أكبر، وأصبح اللعب على المستوى الوطني، هذا كل شيء. فإذا تمكَّنا أنا وفيرن وبيت أورايلي وفريد أوربان من الحصول على الأراضي التي نضع أعيننا عليها، فسيصير هناك ست شركاتٍ كبرى في مجال النفط وربما سبعٌ أو ثمانٍ، وتذكَّر كلامي يا بني؛ فنحن نفعل ما فعلَه الرفاق الآخرون منذ اليوم الذي بدأ فيه استخدام النفط، قبل خمسين عامًا.»

كانا يسيران على طريقٍ قديمٍ مألوف، وكان باني يعرف المناظر الطبيعية به عن ظهر قلب.

«من الجيد جدًّا أن يمضي المرء في دراسته، ويكتشف كيف ينبغي للعالم أن يكون، لكن الأمور لا تسير بهذه الطريقة يا بني. لا بد أن يكون هناك نفط، ونحن الذين نعرف كيفية استخراجه من الأرض علينا فعلُ ذلك. أنت تستمع إلى هؤلاء الاشتراكيين والبلاشفة، لكن تخيَّل لو أن الحكومة بدأت في شراء الأراضي التي تحتوي على النفط وتطويرها، سيكون هناك استغلالٌ للنفوذ يتجاوز ثروة أمريكا بأكملها. أنا أعمل في هذا المجال؛ حيث يمكنني مشاهدة ما يحدث، وأعلم أنه عندما تتولى الحكومة أي شيء، فهذا يعني دفنه على عمق عشرة آلاف ميل في الأرض. أنت تتحدث عن القوانين، ولكن هناك قوانين اقتصادية أيضًا، ولا تستطيع الحكومة أن تقف ضدها، تمامًا مثل أي شخصٍ آخر. فعندما ترتكب الحكومة حماقات، يجد الناس طريقةً للالتفاف حولها، ولا يختلف رجال الأعمال الذين يفعلون ذلك عن غيرهم من الناس؛ ولذلك يجب ألا يتلقَّوا قدْرًا أكبر من اللوم. فهذا هو عصر النفط، وعندما تُحاوِل إيقاف إنتاج النفط، يبدو الأمر كما لو كنتَ تُحاوِل بناء سد على شلالات نياجرا.»

كانت هذه لحظةً حاسمة في حياتهما. فبعد سنوات، سيتذكرها باني، ويفكِّر، لماذا لم يأخذ موقفًا؟ كان من الممكن أن يجعل والده يعدل عن قراره لو كان حازمًا بما يكفي!

لو قال له: «يا أبي، أنا أرفض شراء الرئاسة، وإذا شاركتَ السيد روسكو في هذه الصفقة، فعليك أن تعلم أنني سأتخلى عن ميراثي، ولن أقبل بسنتٍ واحد من أموالك اعتبارًا من هذا اليوم فصاعدًا. سأرحل وأحصُل على وظيفة لنفسي، ويمكنك أن تترك أموالك لبيرتي إن أردتَ ذلك.» لكنه لو كان قال ذلك، لكان الأب قد انهار، وكان من الممكن أن تتحطم نفسيته، ولربما تأذَّى السيد روسكو لو لم يساعده الأب في ترشيح السيناتور هاردينج.

والسؤال هنا: لماذا لم يفعل باني ذلك؟ لم يكن ذلك جبنًا؛ فهو لم يكن يعرف ما يكفي عن الحياة حتى الآن ليخاف منها. لم يكسب قَط دولارًا واحدًا في حياته، ومع ذلك كانت لديه قناعةٌ راسخة بأنه يستطيع «الحصول على وظيفة»، وتوفير سبل الراحة والرفاهية التي اعتادها. لكن المشكلة كانت أنه لم يكن يستطيع أن يجرح الناس. كان هذا ما قصدَه بول عندما قال إن باني كان «ليِّن العريكة». فقد كان يقتنع بسهولة بوجهة نظر الآخرين. لقد استوعب بوضوحٍ شديد سبب رغبة الأب والسيد روسكو في شراء مؤتمر الحزب الجمهوري، وبعد ساعاتٍ قليلة، ذهب إلى كابينة آل راسكوم، وجلس مع بول و«بد» ستونر و«جيك» دوجان وبقية «المجموعة البلشفية»، واستوعَب بوضوحٍ شديد لماذا أرادوا من عمال النفط أن ينظِّموا ويثقِّفوا أنفسهم، ويستَولوا على آبار النفط من الأب والسيد روسكو!

٦

عاد باني إلى جامعة جنوب المحيط الهادي، وبينما كان يُنهي عامه الدراسي، عُقد مؤتمر الحزب الجمهوري في شيكاغو، وحضر ألف مندوب والعديد من المناوبين، والعديد من مراسلي الصحف والكتَّاب المميَّزين، لإخبار العالم عن هذا الحدث التاريخي العظيم. استمع الحضور إلى الخطابات «الافتتاحية» المثيرة للإعجاب، ودخَّنوا كمياتٍ هائلةً من التبغ، وشربوا كمياتٍ كبيرةً من المشروبات الكحولية غير المشروعة، وفي هذه الأثناء، في إحدى غرف فندق بلاكستون، اجتمع ستةٌ من أرباب الأعمال الذين سيطروا على الأصوات لعقد صفقاتهم. ضمن ملايين الكلمات التي سرت عَبْر الأسلاك فيما يتعلق بالمؤتمر، لم يُذكَر اسم فيرنون روسكو مطلقًا، لكنه كان يمكث في جناحٍ خاص بجوار تلك الغرفة في الفندق؛ حيث كان يُقدِّم عروضًا مغرية، ويدفع شيكاتٍ مضمونة للرجال المناسبين، وبعد الوصول إلى طريقٍ مسدود وإجراء ثماني جولاتٍ من الاقتراع، بدأ دعم الجنرال ليونارد

وود في الانهيار فجأة، وسط إثارةٍ شديدة في قاعة المؤتمر، وفي الجولة التاسعة، أصبح وارن جماليل هاردينج من ولاية أوهايو حامل لواء الحزب الجمهوري.

انتهى العام الدراسي، وتوجه جريجور نيكولاييف إلى سان فرانسيسكو ليعمل على متن إحدى سفن «أسطول التعليب» التي كانت تتجه إلى ألاسكا لصيد سمك السلمون وتعبئته. وانضمَّت رايتشل مينزيس وشقيقها إلى ثلاثةِ طلابٍ يهود آخرين، كانوا قد أحضروا سيارةَ فورد متهالكةً للعمل في قطف الفاكهة، وتنقلوا من مكان إلى آخر، وناموا تحت النجوم، وجمَعوا المشمش والخوخ والبرقوق والعنب لتعليبها وتجفيفها. كان باني هو الوحيد من المجموعة الصغيرة الداعمة لـ «البلاشفة» الذي لم يُضطَر إلى العمل طوال الصيف، وكان هو الوحيد الذي لم يعرف كيف يشغَل وقته.

في الأيام الخوالي، عندما كان هو والأب يحفران الآبار واحدةً واحدة، كان باني ينضم للعمال ويساعد في أي شيءٍ يمكن القيام به؛ كان مجرد «طفل» في ذلك الوقت، وأحب الرجالُ مشاركته. ولكنه الآن بلغ سن الرشد، ومن المفترض أن يتصرف بنضج، وكانت الشركة أيضًا قد أصبحَت كبيرة، وصارت مثل آلةٍ ضخمة لكل ترسٍ فيها دورٌ محدَّد، ولا يجوز التدخل فيه. لم يتمكَّن باني حتى من العناية بالنباتات، وإلا فسيكون بهذا يتعدَّى على وظيفة البستاني! ولذلك عزم على قراءة بعض كتب بول، لكنه لم يسمع قطُّ عن أي شخصٍ يدرُس لثماني ساعات يوميًّا، ولم يتمكَّن من تولي وظيفة بول لجزء من الوقت؛ لأنه لم يكن نجارًا جيدًا بما فيه الكفاية!

كان عالَمًا يعمل فيه أشخاصٌ طوال الوقت، بينما يلهو آخرون طوال الوقت. كان العمل طوال الوقت أمرًا مملًّا، ولم يكن أحدٌ ليقوم به إلا إذا كان مضطرًّا، وكان اللهو طوال الوقت أمرًا مملًّا بالقَدْر ذاته، ولم يكن في حديث الأشخاص الذين يلهون طَوال الوقت أيُّ شيءٍ أراد باني الاستماع إليه. فقد كانوا يتحدثون عن لهوهم بجدية كما لو كان عملًا؛ حيث كانوا يناقشون بطولات التنس، وبطولات الجولف، ومباريات البولو، وكل أنواع الطرق المعقَّدة لضرب كرةٍ صغيرة في ملعب! كان هذا أمرًا لا بأس به عندما تحتاج إلى ممارسة الرياضة والترفيه عن نفسك؛ أن تخرج وتضرب كرةً صغيرة، ولكن ليس أن تجعل منه عملًا حياتيًّا، وتُكرِّس كل وقتك وفكرك له، وتتفانى فيه، وتقرأ وتكتب كتبًا عنه، وتُناقِشه لساعاتٍ متواصلة، نظر باني إلى هؤلاء الرجال والنساء الناضجين، الذين كانوا يرتدون «ملابسَ رياضية» متقَنة الصنع، وبدا له أنهم يمارسون نوعًا من التنويم المغناطيسي؛ ليجعلوا أنفسهم يعتقدون أنهم يستمتعون حقًّا بحياتهم.

٧

حاولَت بيرتي مجددًا سحب شقيقها إلى عالم اللهو هذا، الذي كان ينتمي إليه بالنظر إلى حقه في الميراث ومواهبه الطبيعية. أنهت بيرتي علاقتها بإلدون بورديك. فقد كان «فاشلًا»، كما أخبرت باني، وكان يريد دائمًا أن تكون له طريقتُه الخاصة. كانت هناك علاقةٌ غراميةٌ أخرى، لكن باني لاحظ أن هذه العلاقة كانت ميئوسًا منها للغاية، بما أن أخته كشفَت عن مشاعرها حتى له. كان الابن الوحيد للراحل أوجست نورمان، مؤسس شركة أوكسيدنتال ستيل؛ كان اسم الفتى تشارلي، وقالت بيرتي عنه إنه جامحٌ بعضَ الشيء، لكنه كان رائعًا وفاحشَ الثراء. لم يكن لديه مَن يعتني به سوى أمٍّ بلهاءَ إلى حدٍّ ما؛ حيث كانت تحاول أن تكون شابة، وترتدي ملابس الشابات الصغيرات، وتُجري عملياتٍ جراحيةً على وجهها لحمايته من «الترهُّل». كان لديهما يختٌ رائعٌ جدًّا في الميناء، واقترحا على بيرتي إحضار شقيقها، فلماذا لا يذهب ويساعدها بمنتهى السهولة بمظهره الجميل وميزاته الأخرى؟

ارتأى باني أن أخته مفتونة بتشارلي، لدرجة أنها كانت تعتمد على مهاراته الاجتماعية المتذبذبة! ومع ذلك وافق على مرافقتها، وبينما كانا يقودان سيارتهما إلى الميناء، أعطَته بيرتي تعليماتٍ صارمة، وحذَّرَته من التحدث عن أفكاره البلشفية الرهيبة، وإذا ذكروا فضيحتَه في جامعة جنوب المحيط الهادي، فعليه أن يسخَر من الأمر. لقد تعلَّم باني بالفعل أن هذا ما يجب عليه فعله، واتبع نصيحتها، واكتشف أن الأمر سهلٌ للغاية؛ لأن تشارلي نورمان كان واحدًا من هؤلاء الشباب اللامعين الذين كانوا يعلقون بفكاهة على كل ما تقول، وإذا لم يتمكَّن من ذلك، فسيتلاعب لفظيًّا بكلامك.

ها هو قصر «السيرانة» العائم، المطلي بالكامل باللون الأبيض والنحاسي اللامع، والمزوَّد بأثاث من خشب الماهوجني المنحوت يدويًّا، والمفروش بحرير عليه رسوماتٌ يدوية. كان البحَّارة المتألقون، والصبيان الفلبينيون الذين كانوا يتحركون في كل اتجاه بصوانٍ مليئة بالأكواب، متأنقين بما يكفي لحضور عرضٍ مسرحي. وكان الضيوف يستقلُّون زورقًا بخاريًّا، وبعد ذلك عدة سيارات، ويُنقلون إلى ملعب الجولف، ومن هناك إلى نادٍ ريفي لتناول طعام الغداء، كانوا يرقصون لمدة ساعة أو ساعتَين، ثم يُنقلون بسرعة إلى شاطئ للسباحة، ثم إلى ملعب تنس، وبعد ذلك يعودون إلى يخت «السيرانة» ليرتدوا ملابسهم لتناول العشاء، الذي كان يُقدَّم بنفس الفخامة التي قد تتوقعها في مأدبة سفير. كان سطح القصر مزينًا بمصابيحَ كهربائيةٍ متعددة الألوان، وكانت هناك فرقةٌ

موسيقية وكان الأصدقاء يستقلُّون الزوارق، ويرقصون حتى الفجر، بينما ترتطم الأمواج بلطف على جوانبها، وكانت الأضواء المتداخلة على طول الشاطئ تقلِّل من شدة سطوع النجوم.

تحدَّث هؤلاء الأشخاص عن مظهر جميع معارفهم وسماتهم الخاصة ومغامراتهم، وكان من الصعب متابعةُ حديثهم إلا إذا كنتَ واحدًا من مجموعتهم، حتى إنهم كانوا يردِّدون كلماتٍ عاميةً خاصة بهم، وكان الأمر يزداد مرحًا بالنسبة لهم كلما قلَّت احتمالية فَهْم شخصٍ غريب لهذه الكلمات. تحدَّثوا عن الملابس، وأحدث «صيحة». وتحدَّثوا عن مُهربي الكحول ومَن يمكن الاعتماد عليه. وفي بقية الوقت تحدَّثوا عن ضرب الكرات الصغيرة عَبْر الملعب، والنتائج التي سجَّلوها في ذلك اليوم والأيام السابقة، والقُدرات النسبية لمختلف الخبراء في هذا المجال. هل سيحتفظ بطل التنس بلقبه لعامٍ آخر؟ كيف كان أداء لاعبي الجولف الأمريكيين في إنجلترا؟ هل سيأتي فريق البولو من فيلادلفيا، وهل سيفوز بالكأس؟ كانت هناك جوائزُ جميلةٌ مطلية بالفضة والذهب وبها نقوشٌ محفورة، مما ساعد على إيهامك بأن ضرب الكرات الصغيرة حول الملعب له أهميةٌ كبيرة!

٨

جلس باني على سطح هذا القصر العائم يقرأ عن المجاعة في نهر الفولجا. لقد فسدَت المحاصيل في مناطقَ شاسعة، وكان الفلاحون يتضوَّرون جوعًا ببطء، ويأكلون العشب والجذور، ويأكلون أطفالَهم الموتى، ويُهاجِرون في جحافل، وتنتشر جُثَثُهم على طول الطريق. أعلن محرِّرو الصحف أن ذلك كان الدليل النهائي على عدم جدوى الشيوعية، ولم ينتهز تشارلي نورمان الفرصة «ليسخر» من باني، ولم يكن ذلك إلا لأنه لم يقرأ صحيفةً قَط.

كان باني قد تحدث مع هاري سيجر، وتلقى وجهةَ نظرٍ مختلفة عن المجاعات في روسيا. لقد كان سببها الجفاف وليس الشيوعية، وكانت هذه مشكلةً أزلية منذ فجر التاريخ، ولم يُؤخَذ حدوثها قط كدليل على عدم جدوى حكم القيصر. كانت الظروف سيئةً الآن بسبب انهيار خطوط السكك الحديدية. لكن الأشخاص الذين ألقَوا باللوم على الشيوعية تغافَلوا عن حقيقة أن خطوط السكك الحديدية كانت قد انهارت قبل الثورة، وأنه في ظل الحكم السوفييتي كان عليهم أن يتحمَّلوا وطأة ثلاث سنوات من الحرب الأهلية، والغزو الخارجي على ستٍّ وعشرين جبهة. وكانت الصحف التي حرَّضَت على

هذه الحملات، وأشادت بإنفاق مئات الملايين من الأموال الأمريكية للترويج لها، تلوم الآن البلاشفة لأنهم لم يكونوا مستعدين للتعامل مع المجاعة!

يمكنك أن تستوعب أن شابًّا يحمل مثل هذه الأفكار في ذهنه لن يندمج مطلقًا مع هذه المجموعة المحبة للهو. لقد بذل قُصارى جهده ليكون مثل الآخرين، لكنهم اكتشفوا أنه كان مختلفًا، وعلى الفور جلست والدة تشارلي بجانبه. قالت له: «باني»؛ حيث كان يناديك هذا الحشد بأسماءٍ مستعارة مثل باني أو بيرتي أو عزيزي أو جميلتي، بمجرد أن تشاركهم في لعب مباراة جولف وتشرب من قنينة خمر أحدهم، «باني، أنت تذهب إلى الجامعة، أليس كذلك؟ وأنا متأكدة من أنك تدرس كثيرًا.»

«ليس كثيرًا، على ما أخشى.»

«أتمنى أن تخبرني كيف أجعل تشارلي يهتم بدراسته. لا أستطيع أن أجعله يفعل أي شيءٍ آخر بخلاف اللهو والتودُّد إلى الفتيات.»

أراد باني أن يقول: «حاولي قطع مصروفه»، لكنه أدرك أن ذلك سيكون واحدًا من تلك الأشياء «الفظيعة» التي كانت بيرتي تُوبِّخه عليها دائمًا. ولذا قال بأسلوب رجلٍ دبلوماسي أو سياسي: «إنها مشكلةٌ كبيرة.»

قالت والدة تشارلي: «الشباب مشكلةٌ كبيرة بالنسبة لي. فهم يريدون الانطلاق طَوال اليوم، ويُصرُّون على جرِّك معهم، وقد أصبح الأمر فوق احتمالي.» حينئذٍ شعر باني بالأسف على والدة تشارلي؛ إذ كان قد افترض أنها تشارك في هذه «الأفعال الصبيانية» لاستمتاعها بها. بالنظر إليها، كانت تبدو مثل البحَّارة، لديها جسمٌ ممتلئ لكن متناسق، وترتدي ملابسَ بيضاءَ وزرقاءَ ناصعة، ولها شعرٌ بنيٌّ ناعم كان النسيم يُبعثِره أمام عينَيها الزرقاوَين اللامعتَين. كان باني يختلس نظرةً خاطفة بين الحين والآخر، ورأى أن العمليات الجراحية التي أجرِيَت على وجهها كانت ناجحة؛ لأنه لم يرَ أي أثَر لها.

قالت الأم التي كانت ترتدي زي البحارة: «لقد كرَّستُ حياتي كلها لذلك الصبي، وهو لا يُقَدِّر ذلك على الإطلاق. فكلما زاد عطاؤك للناس، اعتبروا ذلك أمرًا طبيعيًّا. أظن أنني سأتمرَّد على هذا الوضع بعد ظهر هذا اليوم! هل ستدعمُني؟»

لذلك عندما بدءوا التجهيز للذهاب إلى ملعب الجولف، أعلن تشارلي بصوتٍ عالٍ لتسمعه المجموعة بأكملها: «أمي الحبيبة لن تذهب معنا؛ فهي معجبةٌ بباني!» ضحكوا جميعًا بمرح، ونزلوا السلم، مرتاحين سرًّا للتخلُّص من واحدة من كبار السن، الذين أصَرُّوا على «مرافقتهم»، ومحاولة التظاهر بأنهم ينتمون إلى المجموعة، في الوقت الذي كان من الواضح تمامًا أنهم لا ينتمون للمجموعة، ولا يستطيعون مجاراة أفعالهم.

٩

جلس باني والسيدة نورمان على سطح يخت «السيرانة»، على كرسيَّين كبيرَين من القماش تحت مظلةٍ قماشيةٍ مخططة، واحتسَيا عصائر الفاكهة وتحدَّثا حول أشياءَ كثيرة. أرادت أن تعرف عن حياته وعائلته، خمَّن باني، بعد أن عرف القليل عن طرق «الأمهات»، أنها كانت تتحقَّق خلفيةَ بيرتي باعتبارها زوجةَ ابنٍ محتملة؛ لذلك ذكَر كل الأشياء اللطيفة التي استطاع تذكُّرها. وعلى افتراضِ أنها ستهتَم ولو قليلًا بالأمور العملية، فقد تحدَّث عن أرض آل روس، وكيف اكتشَفها هو والأب، وكيف استمَر النفط في التدفق من الآبار. قالت السيدة نورمان: «أوه، المال، المال، دائمًا المال! كلٌّ منا لديه الكثير، ولا نعرف كيف نشتري به السعادة!»

واسترسَلَت في حديثها، وأخبرته أنها كانت ثيوصوفية، وأن هناك مهاتما عظيمًا قادمًا، وأننا جميعًا سنتعلم كيف نعيش في عالمٍ نجميٍّ مختلف. كانت قد لاحظَت أنه عندما كان باني يقف أمام خلفيةٍ مظلمة في الليل، كانت تُحيط به هالةٌ ذهبية في غاية الوضوح، وسألَتْه عما إذا كان أحدٌ قد ذكَر له ذلك من قبلُ. وأخبرَتْه أن هذا يعني أنه كان يتمتَّع بطبيعةٍ روحية، وأنه في سبيله لتحقيق أهدافٍ سامية.

ثم بدأَت تسأله عن أفكاره، على ما يبدو، لم تكن قد سمعَت شيئًا عن «فضيحته» في الجامعة؛ ولذلك أعطاها مجرد تلميحٍ عن اقتناعه بوجود خطأٍ ما في نظامنا الاجتماعي، وفي توزيع الثروة في العالم. أجابت الأم التي كانت ترتدي زيَّ البحارة وهي تتكئ على وسائدها الحريرية: «أوه، لكن هذه كلها أمورٌ مادية! ويبدو لي أننا بالفعل وقَعنا في شَرَك الأشياء المادية، وتكمُن سعادتنا في تعلم كيفية الارتقاء فوقَها.»

كان هذا سؤالًا كبيرًا، وتهرَّب باني من الإجابة عليه، وبدأَت السيدة نورمان تتحدث عن نفسها. كانت حياتُها غير سعيدة على الإطلاق. فقد تزوَّجَت عندما كانت صغيرةً جدًّا، أصغر من أن تدرك ما عليها فعلُه باستثناء طاعة والدَيها. كان زوجها رجلًا سيئًا، يعاملها بقسوة، وكانت له عشيقات. ولذلك كرَّسَت حياتَها لابنها، ولكن في النهاية خابت آمالها؛ فكلما زاد عطاؤك للناس، زاد جشعُهم للمزيد. كان تشارلي دائمًا في علاقة حب، لكنه كان يفتقر إلى معرفة المفهوم الحقيقي للحب؛ فهو لم يكن قادرًا على حُب غيره. وهنا سألَت باني عن رأيه في الحب.

كان هذا سؤالًا كبيرًا آخر، وآثر باني التهرُّب من الإجابة عليه أيضًا. وقال إنه لم يكوِّن رأيًا محددًا بهذا الشأن؛ فقد كان يلاحظ أن الناس غير سعداء في الحب؛ ولذلك كان

ينتظر، محاولًا معرفة المزيد عنه. لذلك شرعَت السيدة نورمان في إخباره بالمزيد. إن حُلم الحب، الحب النبيل الحقيقي حقًّا، لم يمُت قَط في روح الرجال أو النساء؛ قد يسخرون من هذا الكلام، ويقولون إنهم لا يؤمنون به، لكنهم دائمًا غيرُ سعداء، وينتظرون ويأملون سرًّا في العثور على الحب؛ لأنه أعظم شيء في العالم. لقد سعدَت السيدة نورمان عندما عرفَت أنه من بين هذا الجيل الصاخب المزعج كان هناك شابٌّ ما زال يقدِّر الحب.

عاد الجيل الصاخب المزعج إلى يخت «السيرانة» وقطَع هذه المحادثة الحميمة. نزلَت «والدة تشارلي الحبيبة» إلى الأسفل، وبعد ذلك ظهرَت مجددًا في قاعة الطعام، المزيَّنة برسومات واتو لحوريات ورعاة، وسيدات القرن السابعَ عشرَ المستلقيات أثناء استماعهن لنغمات العُود الجذَّابة. تخلَّت المضيفة عن ملابس البحَّارة، وأصبحَت سيدةً عظيمةً رائعة الجمال؛ حيث كانت ترتدي ثوبًا من الساتان الأزرق الفاتح اللامع، يكشف عن نهدَين وكتفَين في بياض الثلج، وكان شعرها يتلألأ ببريقٍ ذهبي، ويلتفُّ حول رقبتها عقدٌ مزدوج من اللؤلؤ. لقد كان تحولًا مذهلًا، ومن المفترض أن باني كان على دراية بتلك الأمور بسبب مشاهدتِه لما كانت تفعله العمة إيما، لكن ذهنه كان مشغولًا بأمورٍ أخرى.

جعلَت السيدة نورمان الشابَّ المنقِّب عن النفط يجلس إلى جوارها على الطاولة، وعندما بدأَت حفلة الرقص، سألَته عما إذا كان يريد أن يرقص معها؛ فقد تجاهل هؤلاء الشباب المُروِّعون مضيفتهم بلا خجل. رقصا معًا، واكتشف باني أنها راقصةٌ جيدة، أُعجبَت برقصه وأخبرَتْه أنه راقصٌ رائع، وطلبَت منه أن يرقص معها رقصةً أخرى. وافق باني على طلبها؛ فلم تكن هناك أي فتاةٍ أخرى يريد الرقص معها. كانت تضع عطرًا هادئًا يصعُب تمييزه، وربما كان قد علم بذلك أيضًا من العمة إيما، لكنه كان يؤمن بفكرةٍ غامضة مفادها أن النساء عادةً ما كانت تفوح منهن هذه الرائحة، وكان هذا أمرًا جميلًا جدًّا. كان معظم صدر أرملة صاحب شركة الصلب مكشوفًا، وكان ظهرها عاريًا حتى موضع يد باني.

سخر منهما تشارلي، وضحكَت عليهما بقية المجموعة. لكن في صباح اليوم التالي، عندما قاما بنزهةٍ طويلة على سطح القصر، أدرك باني أن هؤلاء الشباب يعتادون أيَّ شيءٍ في أقلَّ من أربع وعشرين ساعة، وبعد ذلك يصبح مملًّا لهم. ولذلك كان يجلس مع السيدة نورمان، ويقود السيارة برفقتها، ويرقُص معها، ويلعب الجولف، كل ذلك في الوقت الذي كان فيه تشارلي يفعل كل هذه الأشياء مع بيرتي، وكان ذلك يناسب على الأقل ثلاثةً منهم تمامًا.

١٠

ثم في إحدى الأمسيات، أراد باني قراءة شيء في إحدى المجلات، وقرب منتصف الليل انسلَّ إلى حجرته الخاصة، وجلس على فراشه المطلي بالذهب، المفروش بوسائدَ من الحرير الوردي المطرز يدويًّا، وكان يتدلى عند رأسه مصباحٌ مطلي بالذهب، أو ربما كان مصنوعًا من الذهب الخالص، وعلى الفَور انغمس في القراءة التي أخذَتْه بعيدًا؛ إلى روسيا ليرى ضحايا المجاعة يموتون على قارعة الطريق، أو ربما إلى المجر؛ حيث كانوا يخمدون الثورة الاشتراكية باستخدام خطةٍ بسيطة تتمثل في ذبح كل من يؤمن بها، وكما هو الحال دائمًا، كانوا يستخدمون طلقات الرشاشات المصنوعة في مصانع الصلب الأمريكية، التي حصَلوا عليها بقرضٍ أمريكي. كان باني منغمسًا جدًّا في هذه الأحداث التعيسة التي تحدُث بعيدًا، لدرجة أنه لم يسمع باب حجرته يُفتح بهدوءٍ شديد، ويُقفل بلطفٍ شديد من الداخل بالمفتاح. كان أول ما لاحظه هو الرائحة الذكية اللطيفة التي يصعُب تحديدها، وحدق في الخيال الواقف بجانب سريره، مرتديًا كيمونو أرجوانيًّا مزينًا بزهور الخطمي الحمراء الضخمة. بدا الخيال مرتعبًا، وكان يضُم يدَيه أمامه، وهمس بصوتٍ بالكاد استطاع باني سماعه: «باني، هل يمكنني التحدث معك قليلًا؟»

بالطبع كان على باني الموافقة، وجثا الخيال على ركبتَيه بجوار السرير، ولمسَت إحدى يديه الناعمتين بلطفٍ يد باني، وقال الصوت الناعم بارتجاف: «باني، أنا وحيدة جدًّا وغير سعيدة على الإطلاق! لا أعرف ما إذا كان بإمكانك فهم ما يعنيه أن تكون امرأة وحيدة للغاية، لكنك أول رجلٍ شعرتُ أنني أثق به منذ فترةٍ طويلة جدًّا. أعلم أنه لا ينبغي لي أن آتي بهذه الطريقة، لكنني وددتُ إخبارك بهذا؛ فلماذا لا ينبغي للرجال والنساء أن يكونوا صريحين فيما بينهم؟»

لم يكن باني يعرف أي سببٍ يمنعهم من ذلك؛ ولذلك وافق على التحدث بصراحة. وكان جوهر هذه الصراحة هو أن حُلم الحب قد تحرَّك مرةً أخرى في نفس امرأةٍ كانت في حَيرةٍ من أمرها بشأن الحياة. وعليه ألَّا يحسبها ضحلة الفكر أو تافهة؛ فقد كانت صادقةً في مشاعرها وهي لم تفعل شيئًا كهذا من قبلُ، حينئذٍ انهمرَت الدموع من عينَيها، ورجَته ألَّا يَحتقرَها؛ فقد أرادت أن تكون سعيدة، وكان من النادر العثورُ على شخصٍ تحبه حقًّا. «أخبرني يا باني، هل تحب أي امرأةٍ أخرى؟»

ربما كان من الألطف أن يخبرها أنه على علاقة بامرأةٍ أخرى، لكن هذه كانت مغامرته الأولى من هذا النوع؛ ولذلك أخبرها الحقيقة، وكان الأمر مثل سطوع الشمس

بعد سقوط المطر في شهر أبريل؛ حيث أشرقَت ابتسامتُها وسط دموعها. ارتعش صوتها قليلًا، وهي تهمس قائلة: «كم أنا سخيفة، تبدو المرأة قبيحة للغاية وهي تبكي، دعني أطفئ النور.» وبالفعل، سحبَت السلسلة الذهبية الصغيرة، ولم تعُد قبيحةً على الإطلاق، ولم يبقَ منها سوى رائحتها الطيبة فحسب، وتشبَّثَت يداها بيدَيه، وهمسَت: «باني، هل تعتقد أن بإمكانك أن تحبني ولو قليلًا؟»

كان عليه أن يقول الحقيقة، بطريقة أو بأخرى. بدأ كلامه قائلًا: «سيدة نورمان ...»، لكنها قاطعَتْه وقالت: «ثيلما.» تمتَم قائلًا: «ثيلما، لم يخطر ...»

«أعلم يا باني أنني أكبر سنًّا منك، ولكن انظر إلى هؤلاء الفتيات المراهقات، وإلى تفكيرهن الضحل! وصدقني، أنا أهتم بك حقًّا، وسأفعل أي شيء من أجلك، وسأعطيك أي شيءٍ تريده.»

تعلَّم باني شيئًا من هذه الواقعة. كان يعلم أن عليه فقط أن يمُد ذراعَيه ويضُمَّها إليه، كان يعرف ما يجب عليه فعله؛ فقد علَّمَته يونيس هويت كيف يُحب المرأة. كان بإمكانه أن يدفعها إلى الشعور بالنشوة، ومن تلك الساعة فصاعدًا ستصير عبدةً له، وكان بإمكانه الاستيلاء على كل ممتلكاتها، وربما إساءة معاملتها، واستخدام مالها لإمتاع نساءٍ أخريات، ومع ذلك كانت ستظل عبدةً له. كان بإمكانه الآن فهم الأشياء التي كانت تحدث أمام عينَيه، في هذا العالم الذي كان جنةً للمخاطرين. فقد كان هناك رجال لن يشاركوا باني في ترفُّعه عن الرفاهية والسلطة، بل إنهم لن يتوانَوا في إغواء القدَر ذاته لو كان سيدة، مستغلين جاذبيتهم ومكاناتهم الاجتماعية، وكان هؤلاء الرجال يُعرفون بأسماء كثيرة مثل: «سحالي الفنادق» حيث كانوا يتردَّدون كثيرًا على المناسبات الاجتماعية، و«ثعابين قاعات الاستقبال» حيث كانوا يتحدَّثون بلسانٍ معسول، و«القطط الأليفة» وذلك بسبب تعاملهم مع النساء بأسلوبٍ ساحر، و«إخوة روميو» المعروف عنهم سلوكُهم الرومانسي، و«الشيوخ» الذين كانوا يجذبون النساء بثرواتهم. لقد كدَح أوجست نورمان العجوز سنينَ عديدةً لبناء مصنعِ صلبٍ كبير، وقصرٍ عائم في المحيط، وقصرٍ أكبر منه بعشر مرات على الشاطئ، وها هي كل هذه الكنوز مدموجة بطريقةٍ سحرية في جسدٍ أنثوي واحد، انزلق الكيمونو، ولم يكن هناك سوى قميصِ نومٍ رقيق للغاية وكأنه شفَّاف، ورائحةٍ طيبةٍ هادئة، وذراعَين ناعمَين يلاطفانه، وشفتَين تمنحانه قُبلاتٍ مثيرة. همس الصوت: «باني، سأتزوجك إذا أردتَ ذلك. سأعطيكَ كل ما تطلبه.»

لقد تعلم باني من يونيس أنه عندما تكون مستعدًّا للحب، يمكن أن تكون الشفاه مغرية، لكنه تعلم الآن من السيدة، لا بل من ثيلما، أنه عندما لا تكون مهتمًّا، تُصبِح منفرة. ناشدها قائلًا: «أتعرفين يا ثيلما، أنا لا أحتاج إلى أي شيء.»

«أعلم ذلك، يا لفظاظتي! لكنني أحاول بطريقتي المتخبِّطة أن أجعلكَ تفهم أنني مهتمةٌ بك، وأرجو ألَّا تسيء الظن بي!»

بدأ يتحكَّم في زمام المحادثة، وأوضح لها أنه لن يسيء الظن بها أبدًا، لكنه لم يحبَّها؛ فهي بالنسبة له مجرَّد صديقة. استرخَت قبضتها تدريجيًّا، وانهارت بجوار الفراش بشكلٍ يُرثى له، وأخذَت تبكي لأنه بالتأكيد سيكرهها، ولن يرغب في رؤيتها مرة أخرى أبدًا. أكَّد لها أن الأمر لم يكن كذلك؛ فهي لم تفعل ما يخزي، ولم يكن هناك سببٌ للخصام لأنه لم يكن هناك حبٌّ من الأساس. كانت بائسةً بدرجةٍ مزرية، حتى إنه شعر بالأسف عليها، ومدَّ يدَه لتهدئتها، لكنه رأى على الفَور أن هذا لن يُجديَ نفعًا، فأمسكَت بيده وقبَّلَتها، وبدأ تعاطُفه معها يجذبه إليها. في القرن الثامن عشر، أعلن أحد الشعراء الإنجليز عن اكتشافٍ مفاده أن الشفقة قد تثير الحب في الروح.

يجب على المرء أن يُمحِّص هذه الأمور مقدمًا، وأن يكون لديه معيارٌ للسلوك. كان باني قد اتخذ قرارًا بأنه في المرة القادمة التي يحتضن فيها امرأة، ستكون واحدةً يُحبها حقًّا، وأخبره صوت عقله الرزين الواضح بأنه لا يُحب والدة تشارلي نورمان، والأمر لن يتعدى علاقةَ حبٍّ سرية، ولن يكون أيٌّ منهما سعيدًا لفترةٍ طويلة. ولذلك أخبرها بلطفٍ أنه من الأفضل لها أن تذهب، وببطءٍ وحزن التقطَت الكيمونو من الأرض، ونهضَت واقفةً. وقالت: «باني، عقول الناس بغيضة. إذا علموا بما حدث، فسيُحوِّلونه لأمرٍ فظيع.»

أجاب: «لا تفكِّري في الأمر. فأنا لن أخبر أحدًا.»

سمع الباب يُفتح ويُغلق بهدوء، وأشعل الضوء وأوصد الباب، وتعهَّد لنفسه بأنه لن ينسى أبدًا فعل هذا الإجراء في أي حفلةٍ منزلية! ذرَع الحجرة جيئةً وذهابًا لفترة من الوقت وهو يفكِّر في هذه التجربة المثيرة للقلق. أخبَر نفسه، بتواضعٍ لائق، أن السبب فيما حدث لم يكن لأنه كان جذابًا بشكل لا يُقاوم، ولكن في هذه الحضارة الوثنية الجديدة، كانت النساء تذهَل بشدة عندما يواجهن شابًّا عفيفًا؛ فقد كان ذلك يبدو لهن وكأنه شيءٌ هائل، خارق للطبيعة البشرية.

في صباح اليوم التالي، تورَّد وجه الأم التي كانت ترتدي زي البحارة خجلًا لأول مرة منذ سنواتٍ عديدة، عندما قابلَت أدونيس الشاب على سطح اليخت. لكنها سرعان

ما تجاوزَت الأمر، وتحدَّثا عن الثيوصوفية، من الناحية الروحانية كما فعَلا سابقًا، وكانا صديقَين حميمَين مثاليَّين، دعاها ثيلما، ولم يسخر تشارلي من ذلك. لكن في طريق عودته إلى المنزل، أرادَت بيرتي أن تعرف كل شيء عن الأمر، هل ضاجعَته السيدة نورمان، ولأي مدًى تطوَّرَت علاقتهما؟ وعندما تورَّد وجه باني خجلًا، ضحكَت منه، واستفزَّتْها سخافتُه وعدمُ رغبتِه في الإفصاح. وخلصَت إلى وجود علاقةٍ غراميةٍ بينهما. كان لا بأس بذلك؛ فقد كانت هناك علاقاتٌ أخرى في يخت «السيرانة»، وكانت الأضواء خافتةً في الردهة المركزية؛ حتى لا يتعرَّف أحدٌ عليك أثناء تنقُّلك سرًّا من حجرة لأخرى. أضافت بيرتي بحكمة: «لكن لا تتخيَّل أنها ستتزوجك يومًا ما. فهي تتحدث كثيرًا عن الهُراء الخاص بتناسُخ الأرواح، لكنها تتمسَّك بسنداتِ شركة أوكسيدنتال ستيل من أجل حياتها الحالية!»

١١

بعد أيامٍ قليلة، شهدَت شركة أوكسيدنتال ستيل تراجعًا شنيعًا في السوق، وكانت بيرتي تشعر بالقلق؛ حيث كانت تهتم لأمر الشركة. سألت الأب، فأجابها أن الأمر كان «مجرد تلاعُبٍ مفتعل في السوق». لكن على الفور تراجعَ الكثيرُ من الأسهم الأخرى، بما في ذلك شركة روس كونسوليديتد، وحينئذٍ قال الأب إن هناك حمقَى يُخاطرون ويرفعون أسعار الأسهم؛ ومن ثَمَّ كان يتعيَّن أن تنخفض هذه الأسهم وتعود إلى أسعارها الحقيقية. لكن المشكلة استمرَّت في الانتشار في جميع أنحاء البلاد، وكانت هناك تقاريرُ عن مواجهة شركاتٍ كبيرة، وحتى بنوك، لمشاكلَ عسيرة. انتشر الذعر، وأجرى الأب و«فيرن» مشاوراتٍ قلقة، وأوقفا جميع أعمال التطوير، وسرَّحا عدة مئاتٍ من العمال «توخيًا للحذَر» على حد تعبير الأب. وأضاف الأب أنه كان هناك الكثير من المال في البنوك، لكنه لم يكن متاحًا إلا لكبار التجار فقط، وكان «فيرن» غاضبًا من مدير البنك، مارك أيزنبرج، الذي كان قد «تخلى عنه». لقد كانت «الشركات الخمس الكبرى» تمارس حيلَها القديمة لمحاولة استبعاد التجار المستقلين. فهي لن تتوانى عن وضع شركة روس كونسوليديتد في موقفٍ صعب، وشرائها مقابل خمسة أو عشرة ملايين!

تحدَّث باني مع السيد إيرفينج، الذي أخبره أن نظام الاحتياطي الفيدرالي هو المسئول عن كل ما يحدث؛ فهو أداةٌ تابعة لبنوك وول ستريت الكبرى، ومن المفترض أن يكون هيئةً حكومية، ولكنه في الحقيقة مجرد لجنة من أصحاب البنوك الذين كانوا يملكون سلطة طباعة عددٍ غير محدود من النقود الورقية الجديدة في أوقات الأزمات. وتُسلَّم هذه

الأموال إلى البنوك الكبرى التي تُقرِضها بدورها للشركات الصناعية الكبرى، التي كانت تحتفظ بأوراقها المالية ويجب عليها حمايتها. لذلك كلما انتشَر الذعر، كان التجار الكبار ينجُون، بينما يعاني التجار الصغار من خسائرَ فادحة.

في هذه الحالة، كان المزارعون هم أكثر من «انخفضَت» أسعار منتجاتهم. فقد كانوا يفتقرون إلى النظام والحماية، وقد اضطرُوا إلى بيع محاصيلهم في السوق بأسعارٍ أقلَّ بكثيرٍ من قيمتها الفعلية، وكانت الأسعار تنهار، ونتيجةً لذلك كان من المؤكَّد أن يواجه ملايين المزارعين الإفلاس قبل انتهاء هذا العام. على الجانب الآخر لم تنخفض أسعار السلع المصنَّعة بالقَدْر ذاته؛ وذلك لأن الصناديق الاستثمارية الكبرى، التي تدعمها بنوك وول ستريت، استطاعت الاحتفاظ بأسهمها. نقَل باني هذا التفسير إلى والده، الذي نقله إلى السيد روسكو، الذي أقر بصحته؛ فقد كان يعرف مجموعة الشركات التي كانت تسرق من بنك الاحتياطي الفيدرالي هنا في الساحل، وتشتري كل ما هو متاح، لكنه أكَّد أنها لن تحصُل على ممتلكات روسكو-روس، وتمنى أن تذهب جميعُها إلى الجحيم.

شَحَّ المال، ولم تتمكَّن بيرتي من شراء سيارةٍ جديدة، على الرغم من الضرر الذي لحق بسيارتها في حادث تصادم، وكان الأب يتحدث عن الاقتصاد أثناء تناول الوجبات، حتى بدأَت العمة إيما في استخدام ما تبقَّى من لحمِ أمسِ لإعداد مزيجٍ من الخضراوات واللحم المشوي! انتشَر العَوَز في كل مكان، وعلا القلقُ وجوه الناس، وبدأَت الصحف تُلمح إلى حدوث إفلاس وبطالة، وبالرغم من محاولاتها لإخفاء ذلك، كان مفهومًا ضمنيًّا بين السطور.

ثم حدث شيءٌ غريب. في إحدى الأمسيات الصيفية، توقفَت سيارة ليموزين كبيرة يقودها سائقٌ أمام منزل آل روس، وخرج منها شخصٌ تبدو عليه الأبهة، يرتدي ملابسَ بيضاءَ كالثلج؛ شابٌّ طويل القامة ذو شعرٍ أصفر ووجهٍ مهيب، يا إلهي، إنه إيلاي واتكينز! صافَح الجميع بطريقةٍ تشبه طريقة رؤساء الأساقفة، ثم طلب عقد اجتماعٍ خاص مع الأب. اصطحبه الأب إلى حجرة مكتبه، وبعد نصف ساعةٍ خرج إيلاي مبتسمًا، وودَّعَهم بانحناءة، لم يقل الأب شيئًا حتى أصبح وحده مع باني، ثم انفرجت أساريره وضحك ضحكةً مكتومة، وقال إن إيلاي، ويا للعجب، قد دخل إلى مجال العقارات. لقد عثَر على مربعٍ سكني في ضواحي المدينة بحجم الكنيسة التي أمره مَلاك الرب ببنائها، أو بالأحرى عثَر على بعضٍ من مقسِّمي العقارات الذين لديهم علاقاتٌ قويةٌ مع مجلس المشرفين بالمدينة، وحصل على إذن لبناء مربعٍ سكني بهذا الحجم غير المسبوق. وبذلك

تحقَّقَت كلمة الرب، وكان من المقرَّر البدء في بناء الكنيسة الذهبية. ولكن لسببٍ غير معروف، لم يُحذِّر الرب إيلاي من حدوث الأزمة؛ ولذلك وقع في «ورطة»، تمامًا مثل أي رجلِ أعمالٍ عاديٍّ غير متدين، وقد تأخر قرابة شهر في سداد قسط أرضه التي يبلغ ثمنها مائة وخمسة وسبعين ألف دولار. فقد قلَّت تبرعاتُ اجتماعاتِ إحياء الروح الدينية، وقد أوضح الرب أنه أراد أن يستخدم إيلاي طريقةً أخرى لجمع الأموال.

«ماذا أراد منك يا أبي؟»

«أخبره الرب أنني سأتحمل دفع رهنٍ جديد على الأرض. لكنني أخبرتُه أن الرب لم يكشف عن المصدر الذي سأحصل منه على النقود. فأعطيتُه خمسمائة لمساعدته.»

«يا إلهي يا أبي! ظننتُ أننا كنا نقتصد في نفقاتنا!»

«حسنًا، أشار إيلاي إلى أنه لولا مباركته لتلك البئر الأولى في أرض بارادايس، لما حصلنا على كل هذا النفط. كما ترى، من الكفر أن أنكر ذلك.»

«لكن يا أبي، أنت لا تؤمن بالهُراء الذي يقوله إيلاي واتكينز!»

«هذا صحيح، ولكن هذا الرجل لديه عددٌ هائل من التابعين، وقد نحتاج إليه يومًا ما، من يدري؟ فإذا أُجريَت انتخاباتٌ قريبة، هنا أو في بارادايس، فقد نسترد أموالنا أضعافًا مضاعفة عن طريق جَعْل إيلاي يؤيد قائمة مرشَّحينا.»

١٢

فكَّر باني مليًّا في هذا الأمر، ثم استجمع شجاعتَه، وعاد إلى والده. «اسمع يا أبي! إذا كان بإمكانك دفع خمسمائة مقابل مزحة مع إيلاي واتكينز، فأنا أريد خمسمائة مقابل شيءٍ جدي.»

بدا القلق على الأب على الفور. كان عليه ألَّا يُخبر باني عن هذا المال! «ما الأمر يا بني؟»

«لقد ذهبتُ لرؤية السيد إيرفينج، يا أبي، وهو في ورطة، ولا يستطيع الحصول على وظيفة في أي مكان. لقد أدرجوه في القائمة السوداء. فكما تعلم، عليه أن يذكُر أنه كان يعمل في جامعة جنوب المحيط الهادي خلال العامَين الماضيَين، حينئذٍ يُرسِلون خطابًا للجامعة للاستفسار عنه، وهو مقتنعٌ بأن شخصًا ما في الجامعة يخبرهم أنه مساندٌ للجيش الأحمر.»

قال الأب: «هذا أمرٌ متوقَّع. لكنه ليس خطأك.»

«كلا، إنه كذلك يا أبي! فأنا مَن جعلته يتحدث معي. ظننتُ أنني أستطيع الحفاظ على هذا السر، لكن كان هناك جاسوسٌ بيننا.»

«حسنًا يا بني، هل يحاول اقتراض المال منك؟»

«لا، لقد عرضتُ عليه مبلغًا بسيطًا، لكنه لم يقبل. لكنني أعلم أنه يحتاج إليه، وقد تحدَّثتُ عن ذلك الأمر مع هاري سيجر ومع بيتر نيجل؛ فهما يعرفان بعض العمال في المدينة، ويعتقدان أن هناك إمكانيةً لبدء كليةٍ عمالية هنا. ونتفق جميعًا على أن السيد إيرفينج هو الرجل المثالي لإدارتها.»

قال الأب: «كلية للعمال؟ هذه أول مرة أسمع عن شيءٍ مثل هذا.»

«إنها مخصَّصة لتعليم العمال الشباب.»

«ولكن لماذا لا يذهبون إلى المدارس العادية المجانية؟»

«إنهم لا يُعلِّمونهم هناك أي شيءٍ عن العمال. أو على الأقل لا يعلمونهم أي شيءٍ صحيح. لذا سيؤسِّس العمال أماكن يمكن فيها إعداد الشباب الأذكياء للقيام بدورهم في النضال العمالي.»

فكَّر الأب في الموضوع. وقال: «أنت تقصد يا بني أنه مكانٌ حيث تقوم مجموعة من داعمي الجيش الأحمر بتعليم الاشتراكية وأشياءَ من هذا القبيل.»

«لا، هذا ليس قولًا منصِفًا يا أبي، نحن لا نقترح تدريس أي معتقدات. نريد أن نعلمهم كيفية التمتع بعقليةٍ متفتحة؛ لطالما كانت هذه رؤية السيد إيرفينج. فهو يريد أن يفكِّر العمال بأنفسهم».

لكن هذا النوع من الحديث لم يخدع الأب ولو للحظة. ولذلك قال: «سوف يتحوَّلون جميعًا إلى جيشٍ أحمر قبل أن ينجحوا في تحقيق ذلك. واسمع يا بني، أنا لا أمانع أن تعطي خمسمائة للسيد إيرفينج، ولكن من الصعب عليَّ تقبُّل فكرة أنني قضيتُ حياتي في كسب المال الذي تريد استخدامه لتعليم الشباب أنني لا أستحق هذا المال!»

ضحك باني، كانت تلك هي أفضل طريقة لتناول الأمر. لكنه فكَّر في الأمر مرارًا وتكرارًا مع مرور السنين، وأدرك كيف كان ذلك الرجل العجوز الداهية ينظر إلى المستقبل ويستوعب الحياة!

الفصل الثالث عشر

الدير

١

ظل باني يبحث ويفكر، محاولًا اتخاذ قرار بشأن الصراع بين أصحاب رأس المال والعمال. لقد أصبح من الواضح له أن النظام الحالي لا يمكن أن يستمر إلى الأبد؛ فقد كان الوضع كما لو كانت موارد البلاد وثرواتها تُلقى في ساحة قتال ليتدافع إليها الأكثر جشعًا ويستولوا عليها. وعند التفكير فيمن يستطيع تغيير النظام، لم تكن هناك سوى إجابةٍ واحدةٍ محتملة؛ الغالبية العظمى من العمال، الذين لم يتمتعوا بروح المخاطرة، وتلخَّصَت معرفتهم في أن الثروة تأتي من الكد في العمل. وبحكم طبيعة وَضْعهم، لم يكن بوُسع العمال الانتصار إلا باتحادهم، وهكذا، سواء أرادوا ذلك أم لا، كان عليهم أن يعزِّزوا بداخلهم إحساسَهم بالتضامن، سعيًا إلى تحقيق الأخوة والتعاون.

كان هذا هو معتقد جميع «الراديكاليين» الأساسي، وقد قبل باني تعاليمه بسعادة، كوسيلة للهروب من التعقيدات المتعلقة بالتجارة والحرب. كان على العُمال أن ينظموا صفوفهم، ويسيطروا على الصناعة، ويعيدوا بناءها على أساس الخدمات التي تقدِّمها. كانت المعادلة بسيطة، وتستحق أن يُوثَق بها ثقة عمياء، ولكن للأسف، اعترف باني على مضض أن الواقع كان معقدًا. فمؤسِّسو المجتمع الجديد لم يستطيعوا الاتفاق على مخطَّطات هيكلته، ولا على كيفية التخلص من المخطَّطات القديمة. وأدَّى ذلك إلى انقسامهم إلى عدد من الفصائل، وإهدار جزءٍ كبير من طاقاتهم في الشجار فيما بينهم. كان باني يظن أنه هنا في جنوب كاليفورنيا على الأقل، كان للحركة العمالية ما يكفي من الأعداء في اتحادات أصحاب العمل، التي كانت تلجأ إلى وكالات فض الإضرابات والتجسُّس، ونظام القائمة السوداء والاضطهاد، والسياسيين المُعيَّنين لقلب القانون على العمال. ولكن للأسف، لم يبدُ الأمر كذلك بالنسبة للراديكاليين الشباب؛ حيث نشبَت بينهم العداوة!

كانوا يشعرون في الوقت الحاضر بحماسٍ شديد؛ بسبب الثورة الروسية التي كانت تُعتبَر حدثًا هائلًا هزَّ الحركة العمالية في العالم كله. فلأول مرة في التاريخ، استولى العمال على الحكومة، ولكن كيف استغلوا هذه الفرصة؟ بالطبع، كانت الصحافة الرأسمالية العالمية تصوِّر روسيا على أنها كابوس، لكن السوفييت استمرُّوا في البقاء، وكان كل يوم من بقائهم بمثابة هزيمةٍ جديدة لحَمْلة الصحف. واتضح للجميع التالي: بإمكان العمال إدارة حكومة! وبالفعل تولى العمال إدارة حكومة! لم يكن الأمر مستحيلًا!

لذلك، في كل بلد من بلدان العالم، أصبحَت الحركة العمالية منقسمةً إلى فصيلَين، أولئك الذين اعتقدوا أن العمال في بلادهم يمكن أن يحذوا حذو الروس، وعليهم تنظيم صفوفهم والاستعداد للقيام بذلك، وأولئك الذين ظنوا أنه لسبب أو لآخر لا يمكن القيام بذلك، ومجرد محاولة القيام به تُعَد جنونًا. وقد ظهر هذا الانقسام الكبير في كل فصيل ومدرسةٍ فكرية. وانقسم الاشتراكيون إلى قسمَين؛ أولئك الذين يريدون اتباع روسيا وأولئك الذين لا يريدون ذلك، وانقسم الفوضويون و«اتحاد العمال الصناعيين في العالم» على نفس المنوال؛ حتى القادة العماليون المحافظون انقسموا إلى أولئك الذين أرادوا ترك الحكومة السوفييتية وشأنها، وأولئك الذين أرادوا مساعدة الرأسماليين على إسقاطها!

بالنسبة لباني، كانت عائلة مينزيس تجسيدًا حيًّا لهذا النضال. فقد كان الأب مينزيس أجنبيًّا اشتراكيًّا ديمقراطيًّا تقليديًّا، وعضوًا نشطًا في اتحاد عمال الملابس. من بين أطفاله الستة، تبعَت ابنتان أمهما، وهي يهودية أرثوذكسية تقليدية ترتدي شعرًا مستعارًا قذرًا، وتحرص على الاحتفال بجميع الأعياد التي كانوا يحتفلون بها في الديار، وتبكي وتصلي من أجل أرواح أبنائها الضالين، الذين أبعدَتهم أمريكا عن دين آبائهم، وجعلَتْهم يعملون في أيام السبت، والذين حوَّلَتهم الحركة الراديكالية إلى ملحدين ومستهزئين. كانت رايتشل والصبي الأكبر، جيكوب، اشتراكيَّين مثل والدهما، بينما انتقل الاثنان الآخران، جو وأيكي، إلى «الجناح اليساري»، وكانا يدعوان إلى ديكتاتورية طبقة العمال.

٢

تلقى باني رسالةً من رايتشل. بدأت رسالتها ب «عزيزي السيد روس»، لطالما كان هو الوحيد الذي كانت تخاطبه بهذه الطريقة من بين زملائه في الدراسة؛ فقد كانت هذه هي طريقتها في الحفاظ على كرامتها باعتبارها واحدةً من أبناء الطبقة العمالية، عند التعامل مع شخص لديه تطلعاتٌ اجتماعيةٌ كبيرة. «لقد عُدنا إلى الديار بعد قطف جميع أنواع

البرقوق في كاليفورنيا، وسنبدأ في الأسبوع المقبل في قطف العنب. لقد أخبرتَني من قبلُ أنك تريد حضور اجتماع للاشتراكيين المحليين، سيُعقد اجتماعٌ مهم مساء الغد، في قاعة عمال الملابس. سيحضر والدي وإخوتي الاجتماع، وسيكون من دواعي سرورهم مقابلتك.»

ردَّ باني ببرقية دعا فيها خمسة من اليهود الاشتراكيين؛ أحدهم من كبار السن، والأربعة الآخرين من الشباب لتناول العشاء معه قبل الاجتماع. اصطحَبهم إلى مطعمٍ فاخر، معتقدًا أنه بذلك يكرمهم، ونسي أنهم قد يشعُرون بالضيق بسبب ملابسهم وآداب المائدة. لا ريب في أن ولوج الجمل من سَم الخِياط أيسر من أن يفهم الأغنياء مشاعر المحرومين.

لاحظ باني أن رايتشل قد تغيَّرَت تمامًا عن الفتاة الشاحبة المجتهدة التي كان يعرفها. فأصلُها الشرقي مكنها من قطف الفاكهة في الشمس لعدة أسابيع دون القلق على بشرتها، اكتسب خدَّاها سمرةً لطيفة وكانت روحها تشعُّ بالحيوية، وللمرة الأولى خطر لباني أنها كانت فتاةً ذات مظهرٍ مثير للاهتمام. تحدَّثَت عن مغامراتهم التي بدت له ساحرةً للغاية. عند الانغماس في أحلام اليقظة، قد يتصوَّر معظم الناس أنفسهم أنهم أبناء أحد أقطاب النفط العظام وورثته، الذين يمتلكون ملايين الدولارات، وسياراتٍ رياضية، وأراملَ ثرية وغيرها من الفاتنات اللاتي بإمكانهم ممارسة الحب معهن. لكن فكرة باني عن القصة الخيالية كانت تتمثَّل في الانطلاق مع مجموعةٍ من الشباب، في سيارةِ فورد قديمةٍ متهالكة تتعطل بين الحين والآخر، والنوم في خيمة تطيح بها الرياح، والعمل جنبًا إلى جنب مع المكسيكيين واليابانيين والهندوس في قطف الفاكهة، وإرسال حوالةٍ بريدية إلى الديار بقيمة عشرة أو اثنَي عشر دولارًا كل أسبوع!

كان الأب مينزيس رجلًا قصيرًا ممتلئ الجسم، قوي المظهر، ذا شعرٍ أصفرَ مجعَّد يغطي رأسه بالكامل، وعلى الرغم من أنه كان عريض المنكبَين، لم يكن هذا واضحًا بسبب انحناء ظهره الشديد من كدِّه في العمل. عندما كان يسخر من المناقشات المتعلقة بالثورة العالمية، لاحظ باني أن هناك بعض الحروف الإنجليزية التي لم يستطع نطقها قطُّ. أما جيكوب، الابن الاشتراكي، فقد انتبه باني إلى أن مظهره قد تحسَّن كثيرًا بفضل الحياة في الهواء الطلق، بعدما كان طالبًا شاحبَ اللون منحنيَ الكتفَين. كان الصبيَّان الآخران الصغيران «اليساريان» ثرثارَين ومغرورَين، وصدَّا باني الشديد الحساسية، الذي لم يكن لديه فراسةٌ كافية ليُخمِّن أن هذه كانت المرة الأولى في حياتهما التي يقابلان فيها شابًّا ثريًّا؛ ولهذا كانا يحاولان جاهدَين حماية نزاهة الطبقة العاملة التي ينتميان إليها. ولم

يكن في نية أيٍّ منهما الاعتراف بانبهارهما بباني! بالإضافة إلى ذلك، لم يكونا على وفاقٍ مع بقية أفراد الأسرة؛ بسبب النزاع السياسي المرير الدائر بينهم.

توجَّهوا إلى القاعة التي كانت مكتظة بالناس، وكان معظم الحضور من العمال الذين بدَوا في غاية الحماسة. كانت هناك لجنةٌ معينةٌ للتعامل مع سياسة «المحليين»، وقدَّمَت هذه اللجنة تقريرًا ينصُّ على طَرْد «اليساريين»، كما كان هناك تقريرٌ آخر للأقلية ينصُّ على طرد أي شخصٍ آخر! كان الوضع محتدمًا، واستمع باني لما يُقال وحاول ببسالةٍ التحرُّر من أوهام الحركة الراديكالية. كانوا صاخبين للغاية، وكان باني يفضِّل المناقشات الهادئة! قال لنفسه إنه لم يكن يتوقَّع من العمال أن يتمتَّعوا بأخلاقٍ مثالية، أو يستخدموا لغةً إنجليزيةً سليمة، لكن هل كانوا بحاجة إلى الصراخ والتلويح بقبضاتهم؟ ألا يمكنهم مناقشة أفكارهم، دون أن يطلق بعضهم على بعض ألقابًا مثل «العمال المزيفين» و«البُغَضاء الحُقَراء» وما إلى ذلك؟ لقد اختار باني زيارة الحزب الاشتراكي المحلي بمدينة إنجِل سيتي في لحظةٍ حرجة من تاريخه، وبالتأكيد لم يحاول أعضاؤه التحلي بأي آداب سلوك تكريمًا لحضوره!

صعد الأب مينزيس إلى المنصة وصاح في أبنائه قائلًا إنهم مجموعة من الحمقى، ليتخيلوا أنهم قادرون على إحداث ثورةٍ جماهيريةٍ في أمريكا. وتساءل: «لماذا حدثَت الثورة في روسيا؟ لأن البلد بأكمله قد دمرته الحرب. لكن الأمر قد يستغرق عشر سنوات من الحرب حتى تنهار الطبقة الرأسمالية في أمريكا بهذا الشكل، وفي هذه الأثناء، ماذا تفعلون أيها الشباب الحمقى؟ أنتم تريدون تسليم الحزب الاشتراكي للشرطة! فلا شك أن لديهم جواسيس هنا، وهؤلاء الجواسيس هم المحرك الرئيسي لحركتكم اليسارية الحمقاء!»

بدا ذلك معقولًا بما فيه الكفاية لباني. فرجال الأعمال في إنجِل سيتي سيريدون أن تتجاوز الحركة الراديكالية أقصى الحدود، حتى يكون لديهم عذر لسحقها؛ فهم عندما يريدون حدوث شيءٍ ما، لا يتردَّدون في تحقيقه. لكن قول ذلك للمتطرفين الشباب كان أشبه بالتلويح بعلم أحمر أمام قطيع من الثيران. صاح أيكي مينزيس في وجه والده قائلًا: «ماذا؟ هل تتحدث عن الشرطة؟ ماذا يفعل الديمقراطيون الاشتراكيون المحبوبون لديكم الآن في ألمانيا؟ لقد فرضوا سيطرتهم على الشرطة، ويطلقون النار على العمال الشيوعيين من أجل الطبقة الرأسمالية!»

صاح الأخ الآخر: «هذا صحيح، وسيفعلون الشيء ذاته في كاليفورنيا! لكن هذا ليس مهمًّا بالنسبة لكم لأنكم مجموعة من معاوني الطبقة الرأسمالية!» كان هذا مصطلحًا

جديدًا، ويبدو أنه كان ذا أثرٍ مروِّع. وكان السؤال هو ما إذا كان من الممكن دعم النظام الرأسمالي المترنِّح لمدة عشر سنواتٍ أخرى أو نحو ذلك، وهل سيتولى «اليمينيون» مناصبهم تحت رئاسة الرأسماليين ويساعدون في إنقاذهم. صرح جو مينزيس قائلًا: «أنت تنصِّب نفسك وكيلًا لهم لرشوة العمال بسنتَين إضافيتَين عن كل ساعة!»

وهكذا دار النزاع في الحزب المحلي بإنجِل سيتي، كما هو الحال في أي مكانٍ آخر في العالم، وانسحب «داعمو الجيش الأحمر» وانقسموا إلى ثلاثِ مجموعاتٍ شيوعيةٍ مختلفة، وغادر جو وأيكي مينزيس المنزل، وانتقلا إلى منزلٍ خاص بهما برفقة فتاتَين عاملتَين تتفقان معهما في التفكير. كان باني في حَيرة من أمره أكثر من أي وقتٍ مضى؛ حيث بدَت الحياة معقَّدة للغاية، وأصبحَت السعادة أمرًا صعب المنال!

٣

في أحد أيام السبت رن الهاتف، وكان فيرنون روسكو يتصل بالأب. وتصادف أن أجاب باني، وسمع الصوت المرح يقول: «مرحبًا، كيف حال صبيِّنا البلشفي؟ ألم تخبرني أنك ستأتي لزيارتي يا جيم الابن! لمَ لا تأتي الآن؟ إن آنابيل في فترة راحة من عرض «آلام الحب» وستسعد برؤيتك. وستكون هناك مجموعةٌ كبيرة من الناس يوم الأحد، مثل فِي تريسي وهارفي مانينج. وبالتأكيد، سأكون موجودًا! تعالَ على الفور، وسيدلُّك والدك على الطريق.»

أخبر باني الأب أنه قبل الدعوة، وقال الأب إن ظروف المعيشة داخل منزل السيد روسكو كانت من النوع الذي لا بد أن يكون باني على دراية بها مسبقًا. فآنابيل إيمز، ممثلة الأفلام السينمائية، كانت عشيقتَه كما يطلق عليها الناس، لكن الأمر لم يكن كذلك حقًّا، لأنها كانت مخلصةً له، وكان جميع أصدقائهما يعرفون بشأن علاقتهما، وكان الأمر تمامًا مثل الزواج، لكن، بالطبع، كانت هناك السيدة روسكو، التي كانت تعيش في المنزل بالمدينة برفقة أبنائها الأربعة. انخرطَت السيدة روسكو في المجتمع وكل ما يتعلق به، وحاولت جر فيرن إلى هذه الحياة، لكنها لم تكن مناسبة له. في بعض الأحيان، كانت السيدة روسكو تذهب إلى «الدير»، كما كان يُطلق على المنزل الريفي، ولكن بالطبع عندما لا تكون الآنسة إيمز هناك، قال الأب إنه كان لا بد من وجود نظامٍ ما حتى لا تصطدم إحداهما بالأخرى. كان لدى الآنسة إيمز منزلها الخاص، بالقرب من الاستوديو، وكان الدير كـ «مزار سياحي»؛ حيث كانا يصطحبان أصدقاءهما في عطلات نهاية الأسبوع.

عند تجاوز سلسلة الجبال التي تصطف على طول الساحل، ستجد نفسك على واحد من تلك الطرق الرائعة، التي تشبه شريطًا سحريًّا من الخرسانة مهَّدَته يدٌ عملاقة. أطلق المحرِّك صوتَ خرخرةٍ ناعمة، وسبقَت السيارة الرياح، متجهةً لأعلى وأسفل المنحدرات الشاهقة، ومنعطفةً عَبْر التلال المتداخلة، لاحت في الأفق منحدراتٌ حادة ومناظر لجبالٍ متداعية، ومساحات واسعة من الوديان، وشواطئ بها أكواخ للصيادين، وقواربهم، وشباكهم التي تُركَت لتجف في أشعة الشمس، ثم المزيد من التلال والمنحدرات الجبلية، كان بإمكانك الانطلاق لساعات بالسرعة التي تريدها؛ لأنك الآن في الحادية والعشرين من عمرك، ولم يعُد الأب يتوقع منك أن تلتزم بقوانين السرعة.

كان هناك طريقٌ متفرع باتجاه المحيط، وبعد السير مسافةَ عشرة أميال أو نحو ذلك، ستجد نفسك أمام سياجٍ عالٍ من الفولاذ، وبواباتٍ فولاذية، ولافتة تقول: «ملكية خاصة؛ ممنوع الدخول»، وكان بالطريق مكانٌ واسعٌ مُعَد خصوصًا لتتمكن من الرجوع بالسيارة! كانت البوابة مفتوحة؛ لذلك واصل باني القيادة، وتسلق تلةً أخرى، حتى وصل إلى القمة، حينئذٍ امتد أمامه لمسافة ميلَين أو ثلاثة أميالٍ منظرٌ رائعٌ من اللونَين الأصفر والأخضر، وكان أحد الجوانب يتجه نحو المحيط، وتمركزَت في الوسط أبراج الدير الحجرية الرمادية! كانت الجبال تحيط بالمكان من كل جانب، وكان قطب النفط يمتلك كل شيءٍ على مرمى البصر، الأرض والمناظر الطبيعية، وإذا أراد الناس رؤية ملاذه، فسيتعيَّن عليهم الوصول إليه بزورقِ تجديف أو عن طريقِ السباحة.

مضت السيارة في الطريق المتعرِّج، عَبْر أكوام من الصخور المتبعثرة وأجمات البلوط الحي التي تبلغ من العمر قرنًا أو قرنَين، حتى وصلَت إلى نقطة انقسم فيها الطريق إلى اثنَين، وكان في بداية أحدهما لافتةٌ عليها «التوصيل»، والآخر «الضيوف». إذا كنتَ من الضيوف المحظوظين، فطريقك سيمُر أسفل بوابةٍ كبيرة بما يكفي لمرور ست حافلاتٍ ذات طابقَين، ظهر أحد الحراس، واستدعى سائقًا لأخذ سيارتك إلى المرأب، واصطحابك إلى غرفة معيشة، حسنًا، كان الأمر أشبه بدخول كاتدرائية؛ فعيناك ستتبع القناطر العلوية، وقد تتعثر بجلد ثورٍ بري أو ظبيٍ أفريقي أو أيًّا كان نوع الحيوان المقتول. يا له من مهندسٍ معماريٍّ تهكميٍّ كئيب ذلك الذي جمع في مكانٍ واحد أبراجًا قوطية وأبراج كنيسة، وشرفاتِ حصون ذات فتحات وكوَّات إطلاق قذائف، وأطلق عليه هذا الاسم المثير للغاية، هنا وسط إمبراطوريةٍ مدنيةٍ حديثة! من المؤكد أن الدير كان لا بد أن يكون على طراز ما قبل الإصلاح، ليتناسب مع طريقة الراهب الذي كان يقطنه!

اكتشف باني أن هناك مصعدًا سريًّا في جناح الكاتدرائية، خرج منه فجأةً بخطًى رشيقة سيدةٌ صغيرة الحجم ترتدي ثوبًا من الشيفون بلون الليمون، وجوربَين وحذاءً بلون الليمون، وقبعةً كبيرة بلون الليمون، مثل تلك التي اعتادت راعيات الأغنام ارتداءها عند رسم اللوحات. كانت ملابسها أنيقة وفخمة بما يكفي لحضور حفلةٍ تنكرية، لم تكن بحاجة إلى تقديم نفسها؛ لأن باني كان واحدًا من التسعين بالمائة من جميع الذكور في العالم المتحضِّر، وربما سبعين بالمائة في مدغشقر وباراجواي ونوفا زيمبلا والتبت وغينيا الجديدة، الذين كان بإمكانهم معرفة عدد الرموش في جفنَي آنابيل إيمز، أو رسم شكلٍ توضيحي لغَمَّازتَيها، والمسار الدقيق الذي تسلكه دمعةٌ من دموعها لأسفل خدها. لقد رآها في دور الابنة «الجامحة» لأحد أقطاب الفولاذ في بيتسبرج؛ حيث تأدَّبَت على النحو الواجب وأُعيد بداخلها إحياء الإيمان بأهمية العائلة والوطن والدين، وفي دور عشيقة ملكٍ فرنسي، تتعرض لنهايةٍ مأساوية لتُكفِّر عن خطاياها، وفي دور الوريثة التي هربَت من قصر صاحب الضَّيعة المبني على الطراز الجورجي بعدما تعرَّضَت لمعاملةٍ سيئة، وفي دور «فتاةٍ جبلية» عارية الساقين تعيش في بلو ريدج، وتتحدث بلهجةٍ مميزة وتقول: «مرحبًا أيها الغريب، هل أنت واحدٌ من مأموري الضرائب؟» كان كل هذا في «الأفلام»، ولكن ها هي الآن بنفسها أمامه وكأنه يشاهدها في «عرضٍ مسرحي!»

«إذن أنت السيد روس!» كان صوتها عاليَ الطبقة بعض الشيء وغير مألوف. «لقد أخبرَني حبيبي الكثير عنك!» (كانت تشير إلى السيد روسكو بحبيبي.) «يسعدني قدومك إلى هنا، أرجو أن تعتبر نفسك في منزلك. افعل ما يحلو لك؛ فهذه هي قاعة الحرية.» تذكَّر باني هذه الجملة، لكن هل كانت من فيلم «قلوب من فولاذ» (هارتس أوف ستيل) أم «خادمة القصر» (ذا ميد أوف ذا مانور)؟

قالت سيدة القصر: «ها قد جاء هارف. هارف، تعالَ إلى هنا، دعني أعرِّفك على باني روس، هذا هارفي مانينج. هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها السيد روس إلى هنا، أرجو أن تكون لطيفًا معه حتى يكرِّر زيارته لنا. إنه يدرُس بالكلية، ويقرأ كثيرًا ويعرف كل شيء، وسنبدو أمامه في قمة الجهل والتفاهة!»

كان هارفي مانينج يدخل من إحدى النوافذ الطويلة التي تُفتح بمصراعَين، كالأبواب التي حلَّت محل مراحل درب الصليب في هذه الكاتدرائية. كان يمشي ببطء، دون أن يزيد من وتيرته، وكان يتحدث بلهجةٍ بطيئة وجافة أيضًا؛ إذ لم يُضطر قطُّ إلى التعجُّل في حياته من قبل؛ لأنه كان ينتمي إلى إحدى العائلات العريقة في الولاية. كان وجهه غريبًا

وقبيحًا، به الكثير من التجاعيد، ولم يتمكن باني قطُّ من تحديد ما إذا كان مسنًّا أم شابًّا. قال: «مرحبًا يا روس، سعيد بلقائك. لديَّ عمٌّ مستعد لدفع مائة ألف دولار ليزج بك في السجن.»

قال باني، بقليلٍ من الدهشة: «هل هذا صحيح؟»

«بالتأكيد! فهو مهووس بموضوع القبض على داعمي الجيش الأحمر، ويقول إن الراديكاليين المعتدلين أسوأ من البلاشفة. ولذلك كنتُ قلقًا عليك.»

قال باني: «لا داعي للقلق»، مدركًا أنه كان «يمزح»، فهذا يساعد في جعل الحياة محتملةً للرجال العاطلين، صغارًا وكبارًا. وأضاف: «سوف يدفع أبي مائتَي ألف ويخرجني من السجن.»

«بالتفكير في الأمر، أعتقد أن فيرن سيتدخَّل أيضًا، أليس كذلك يا آنابيل؟»

أجابت النجمة: «لا أحد من ضيوفي يبقى حبيسًا في السجن. فهم يتصلون بحبيبي، وهو يتصل برئيس الشرطة، الذي يسمح لهم بالخروج على الفور.»

قالت هذا دون أن تبتسم، وعلق هارفي مانينج قائلًا: «كما ترى يا روس، يتعامل عقلُ آنابيل مع الأمور بعملية.»

٤

بعد مراقبة نجمة الشاشة اللامعة، لاحظ باني أن هذه كانت حقيقتها؛ فقد كان عقلها يتعامل مع الأمور بعملية. أما كل الشاعرية والرومانسية التي تخيَّل الجمهور أنها تتمتع بها، فلم تكن إلا من نسج خيال الجمهور، إن جاز التعبير. فهي لم تشارك سوى بجسدها الشاب ووجهها المرن، وتولى المخرجون ذوو الأجور الكبيرة باقي الأمور. فإنتاج الأفلام كان بالنسبة لها نوعًا من أنواع التجارة، وكان كل حديثها عن تكاليف الإنتاج، والنسَب المئوية للمبيعات في الخارج، تمامًا كما لو كانت بئرًا للنفط. وكان هذا سببَ توافُقها مع فيرنون روسكو، الذي كان لديه أيضًا عقلٌ عملي. فزهرة الربيع على حافة النهر كانت بالنسبة له مجرَّد زهرةٍ صفراء، وكانت بالنسبة لآنابيل ديكورًا «داخليًّا» أو خلفية «لموقعِ تصويرٍ خارجي».

اكتشف باني أن هناك قدْرًا من الصدق المرير في هذا الأمر؛ فآنابيل كانت ترغب في أن تكون ممثلة وليست عشيقة. وكان فيرن يعلن لضيوفه قائلًا: «عجبًا، لقد تكلَّفتُ ثمانية ملايين دولار لأصنع من هذه الطفلة نجمةً سينمائية.» وكانت الطفلة البالغة من

العمر ثلاثين عامًا تحلُم بأنها ستحقق يومًا ما تحفةً فنية ستكسب منها هذا المبلغ، وتُبرِّئ شرفها. في هذه الأثناء، كانت تقسِّط المبلغ عن طريق العناية بفيرن، وكانت تفعل ذلك علانيةً بطريقةٍ مؤثِّرة جدًّا ومحترمة، وفقًا للمعايير البرجوازية الصارمة. وإن كان قطب النفط قد تصوَّر يومًا أنه عندما يكون على علاقةٍ بنجمةٍ سينمائية، سيعيش حياةً جامحة وصاخبة؛ فقد أخطأ خطأً مؤسفًا حيث أصبح على النقيض؛ واحدًا من أكثر «الرجال الأثرياء» الذين كانت رفيقاتهم تُسيطِر على أفعالهم.

كان يمكن لآنابيل أن تقول: «حبيبي، لقد شربتَ ما يكفي من الخمر. ضع الكأس جانبًا.» كانت تقول ذلك أمام مجموعةٍ من الضيوف، مجتمعين بملابسهم الزاهية لحضور حفل عَشاء، وكان فيرن يحتج قائلًا: «يا إلهي، يا عزيزتي، أنا لم أبدأ بعدُ!»

«حسنًا، توقَّف قبل أن تبدأ الليلة. تذكَّر ما يقوله الدكتور ويلكنز عن كبدك.»

كان فيرن يتبجَّح قائلًا: «فلتذهب الكبد إلى الجحيم!» وكانت تردُّ عليه قائلة: «حسنًا يا حبيبي، لقد طلبتَ مني أن أجعلَكَ تُطيعني! هل يجب أن أجعلكَ تشعر بالخجل أمام كل هذه الصحبة؟»

ردَّ عليها متسائلًا: «تجعلينني أشعر بالخجل؟ لا أعتقد أن هناك مَن يستطيع أن يجعلني أشعر بالخجل!»

«حسنًا يا حبيبي، أنت تعلم أنك ستشعُر بالخجل إذا أخبرتُهم بما قلتَه لي في المرة الأخيرة التي كنت فيها ثملًا.»

صمت فيرن، حاملًا كأسه في الهواء، محاولًا التذكُّر، وانفجر الحضور في صخب: «أوه، أخبرينا! أخبرينا!»

«هل أخبرهم يا حبيبي؟» لقد كانت خدعة؛ لأن آنابيل كانت متشددة للغاية، ولم تنغمس قطُّ في مثل هذه الأفعال المبتذلة. انطلت عليه الخدعة، ووضع الرجل العظيم كأسه. وأعلن: «أنا أستسلم! خذي الشراب بعيدًا.» وهنا صفَّق الجميع، مما أضفى على الحفل بدايةً سعيدة.

من الغريب أن آنابيل كانت كاثوليكيةً تقية. لكن باني لم يعرف قَط كيف تمكَّنَت من توطيد علاقاتها مع الكهنة؛ فقد كانت تتبرع بسخاء للجمعيات الخيرية، وكانت تُوجد في حفلات جمع التبرعات من أجل ملاجئ الأيتام الكاثوليكية وما شابه ذلك. في الوقت ذاته، كان رأسها الصغير مليئًا بالخرافات وكأنها أمٌّ زنجيةٌ عجوز. فكانت ترفض بدء تصوير فيلم يوم الجمعة، حتى لو كانت ستأخذ في المقابل الثمانية ملايين دولار التي

أعطاها لها فيرنون. وإذا سكبتَ الملح، فلن تكتفيَ بنصحكَ بإلقاء بعضٍ منه من فوق كتفك فحسب، بل ستفعل ذلك من أجلك، إذا لزم الأمر. ذات مرة، أثناء تناول الغداء، جعلَت إحدى صديقاتها تأكل على طاولةٍ جانبية، حتى لا يصبح عددهن ثلاث عشرة، وكانت هذه الفتاة ستقع ضحيةً للحظ السيئ لكونها الأصغر سنًّا.

في الوقت ذاته كانت آنابيل تتمتع بصفاتٍ جيدة جدًّا. فقد كانت صادقة في مشاعر إعجابها بك، وبصحبتك، وعندما كانت تتوسَّل إليك لتكرار الزيارة، كانت تعني ذلك حقًّا. كما أنها لن تُعلِّق عليك بملاحظاتٍ سيئة بعد رحيلك. وبالرغم من تمتُّعها بشطحات الطبع الفني فقد تمكَّنَت من النجاة من غيرته المزعجة؛ إذ اكتشف باني أنها كانت واحدةً من النجمات القلائل، اللاتي كان من المأمون الثناءُ على أعمال نجماتٍ أخريات أمامهن. كما أنها كانت تُكِن له احترامًا راسخًا؛ لأنه قرأ الكتب، وكانت لديه أفكار حول المسائل العامة. وساعدَت حقيقة نشر اسم باني على الصفحات الأولى للصحف باعتباره «راديكاليًّا معتدلًا» خطيرًا، في منحه هالة الغموض والرومانسية نفسها، التي منحها الجمهور لآنابيل باعتبارها نجمةً بارزة في عالم السينما، وسيدة الدير!

٥

قالت آنابيل: «هارف، هلا اصطحبتَ السيد روس في جولة لتفقُّد المكان؛ فموعد العشاء لم يَحِن بعدُ.» وهكذا تمكَّن باني من استكشاف المنزل الريفي، حتى يتمكَّن من إقناع والده بشراء واحد له. لكن هارفي مانينج لم يكن مرافقًا جيدًا. فلاستعراض مزارٍ ما، تحتاج إلى شخصٍ يميل إلى الإعجاب بهذه الأماكن، لكن «هارف» كان قد شهد العديد منها، وكان يميل إلى التحدُّث عنها جميعًا بازدراء.

كان هناك عددٌ كبير من المباني في هذه الملكية يوازي عدد الخزانات في معمل تكرير باراديس، إلا أن هذه المباني كانت على الطراز القوطي، ذات أبراجٍ مصغَّرة وأبراج كنائس وشرفاتِ حصون ذات فتحاتٍ وكوَّاتٍ لإطلاق القذائف. لم تكن هناك كنيسةٌ صغيرة أو مكانٌ للعبادة، ولا مقابر لرؤساء الأديرة القدامى، ولكن كانت هناك صالةٌ للألعاب الرياضية، بالإضافة إلى مَسبَح من الرخام الأخضر، وصالة بولينج، وملاعب اسكواش وتنس، وملعب جولف من تسعِ حُفر، وملعب بولو، وكل ما يمكن أن تعثر عليه في أفخم النوادي الريفية. كان هناك إسطبلٌ به خيولٌ مسرجة يمتطيها السائسون في الغالب،

ومكتبة لا يقرأ كتبها إلا مخرجو الأفلام الذين يبحثون عن التفاصيل المحلية، أو حسبما قال هارفي.

كذلك كانت هناك حديقةُ حيواناتٍ تحتوي على مجموعة من الحيوانات المحلية. فقد اكتشف الرجال المأجورون وأطفالهم أن مثل هذه الهدايا تُسعِد سيدهم؛ لذلك أحضروا كل ما تمكَّنوا من الحصول عليه. كانت هناك حديقةٌ مغلقة بها غزلان وأغنامٌ جبلية، وأوكارٌ منيعة بها دببةٌ رمادية تمشي متثاقلةً فوق الصخور، وقططٌ برية وذئاب القيوط وأسودٌ جبلية تغفو في الظل. وكانت هناك قبةٌ عملاقةٌ مغطَّاة بالشِّباك، وبداخلها شجرةٌ كبيرةٌ ميتة، تجلس عليها النسور. كان النسر في موطنه الأصلي، وهو يُحلق في عظمةٍ مطلقة عَبْر السماء الصافية، يمثل موضوعًا مثيرًا للشعراء؛ ولذا كان من المحزن رؤيتُه جالسًا هكذا في قفص. علَّق هارفي مانينج بشكلٍ عابر قائلًا: «ألا يشبه أصدقاءك البلاشفة المسجونين؟»

اكتشف باني أن هناك ما يثير اهتمام الرجل الذي يتمتع بأكبر قدْرٍ من اللامبالاة في العالم. فبعد وقتٍ قليل، أخرج مرشدُه ساعتَه وأشار إلى أن الساعة تقترب من السادسة والنصف، وعليهما العودة إلى المنزل. فقد كان «يمتنع عن شرب الكحول» حتى تلك الساعة من كل يوم، وكان يشعر بحماسٍ شديد عند اقتراب هذا الموعد. لذلك عادا إلى المنزل سيرًا على الأقدام، وكان بانتظارهما صبيٌّ صيني يرتدي سروالًا قطنيًّا أبيض اللون يحمل صينية، من الواضح أنه كان على علمٍ بموعد عودتهما. تناول هارفي مشروبَين للتعويض عن الوقت الضائع، ثم تنهَّد بارتياح، واتضح أنه يستطيع التحدُّث دون هذه اللهجة البطيئة.

عندما نزل باني لتناول العشاء، وجد مجموعةً كبيرة من الضيوف، بعضهم يرتدي ملابس السهرة، وبعضهم يرتدي ملابس الجولف، وبعضهم يرتدي سُتراتٍ عادية مثل المضيف؛ وذلك تماشيًا مع الاسم الذي تحمله القاعة «قاعة الحرية». كان روسكو يتحدث في السياسة مع فريد أوربان، وعن الهزيمة التي كانوا سيُلحِقونها بالحزب الديمقراطي. تولى روسكو دفة الحديث؛ حيث كان الشخص الآخر رجلًا صامتًا غريب الأطوار، كان طويل القامة ونحيفًا، وله وجهٌ طويل ونحيف، يشبه وجه الحصان. كانت له عينان غريبتان لونهما رماديٌّ مخضر، بدَتا بطريقةٍ ما خاليتَين تمامًا من أي مشاعر، وعندما تراه يستمع ولا يقول شيئًا لمدة ساعة، ستعتقد أن رأسه فارغٌ أيضًا من أي أفكار، لكن هذا غير صحيح؛ لأنه كان الرئيس المباشر لسلسلةٍ كبيرة من شركات النفط، وقد قال الأب إنه كان في غاية الذكاء.

كانت هناك أيضًا بيسي باري؛ حيث اقتضت آداب السلوك أن تُدعى أينما دُعي أوربان. فقد دعمَها في عدة أفلام، وكانت «تدفع الثمن» كما يُقال، لكن علاقتهما لم تكن بنفس الاحترام الذي كانت تتميز به العلاقة بين روسكو وآنابيل؛ فبيسي كانت تُحب مخرج أفلامها، وكان لا يزال يحبها، وكان التعامل بين الرجلَين غير ودي على الإطلاق. كان مَن شرَح هذا لباني هو هارفي مانينج، رئيس القيل والقال، الذي كان قد شرب الكثير من الخمر، وأصبح يتحدَّث بحرية دون حساب. لاحظ باني أن المضيفة قد وضعَت ببراعة الرجلَين المتنافسَين على طرفَي الطاولة.

انتقلوا بعد ذلك إلى كاتدرائيةٍ أصغر حجمًا، تُعرف باسم «قاعة الطعام»، جلس باني على مقعد ضيف الشرف، على يمين آنابيل الساحرة، التي تحوَّلَت من راعية أغنام ترتدي ثوبًا بلون الليمون إلى دوقة ترتدي الساتان الأبيض. على يسارها جلس مخرج أفلامها بيري دوشان، الذي كان يحكي عن تقطيع المشاهد في البكرتَين الأوليَين، اللتَين أحضَرهما معه لعرضهما. بجانبه كان هناك مقعدٌ شاغر؛ حيث تأخرَت إحدى السيدات، وكان باني صغيرًا جدًّا ليعي كيفية سير الأمور في العالم، وليعلم أن هذه هي الطريقة التي تؤمِّن بها الشخصياتُ العظيمةُ الأهميةَ لنفسها. فقد كان هذا أول لقاءٍ له مع ممثلات، ولم يكن يعرف أنهن يمثِّلن أحيانًا في الحياة العادية بعيدًا عن الكاميرات.

٦

هل تتذكَّر في فيلم «إمبراطور إترووريا» (ذا إمبرور أوف إترووريا) ذي الإنتاج الضخم، الجارية السكوتية التي أُحضِرَت من البَرية لخدمة ملذاتِ أحد المترَفين المدلَّلين، والمشهد الذي حاول فيه آغاوات الحرملك السمان الإمساك بها؟ وكيف استخدمَت أظافرها بغضب شديد لخدشهم وضربت رءوسهم ببعض! كان بالإمكان إلقاء نظراتٍ سريعة على جسدها الرشيق القوي بعدما تمزَّقَت ملابسها أثناء مقاومتها لهم، ومع ذلك يختلف هذا المشهد وفقًا لقوانين الرقابة في الولاية التي يُعرَض الفيلم فيها. لاقى المشهد رواجًا كبيرًا لدى الجمهور، وتنافَس العديد من المنتجين على فيولا تريسي، التي يُرجى التركيز على المقطع الأول من اسمها عند نطقه ليصبح كما يلي: فِي-أولا. وقد استعرضَت مهاراتها القتالية الرائعة بعد ذلك في فيلم «العذراء اللعوب» (ذا فيرجن فامب)، وبعد ذلك هربَت بأعجوبةٍ من الفضائح التي كانت تُلاحِقها بسبب العديد من المشاهد المثيرة. كانت قد بدأت أخيرًا تؤدي أدوارًا أكثر احترامًا، وكانت تظهر على جميع لوحات الإعلانات بمدينة إنجِل سيتي

بزيٍّ ملكي في فيلم «عروس توت عنخ آمون» (ذا برايد أوف توت عنخ آمون)؛ حيث كانت تجسِّد شخصيةً جذابةً ذات عينَين سوداوَين غامضتَين عميقتَين، وابتسامةٍ مبهمة تحمل في طياتها أسرار أربعة آلاف عام من التاريخ.

ها هي ذي، تخرج من لوحات الإعلانات، إلى قاعة طعام الدير، وتغير زيها المصري لآخرَ جريءٍ من المخمل الأسود، قادمٍ لتوِّه من باريس، ومرصَّع باللآلئ السوداء التي تتناسب معه. سحب لها الخادم مقعدها، ووضعَت إحدى يدَيها عليه، لكنها لم تجلس، قالت مضيفتها: «آنسة تريسي، أقدم لكِ السيد روس»، ومع ذلك ظلت واقفة وتبادلَت هي وباني الابتسامات. كانت وقفتُها لافتة للنظر، وفجأةً قال تومي بالي، مخرج أفلامها، الذي علَّمها هذه الحركة، وكان يشاهدها من الطرف الآخر من الطاولة: «أحضروا الكاميرا!» ضحك الجميع، وكانت «فِي» أكثرهم طربًا على الإطلاق؛ حيث كشفَت عن صفَّين من اللآلئ البيضاء، التي تتسق مع بعضها أكثر من اللآلئ السوداء، وتحظى بقيمةٍ أكبر بكثير منها لدى نجمةٍ سينمائية.

كانت آنابيل إيمز تعيش حياتها دون أن تقول أي شيءٍ سيئ عن أي شخص، لكن هذا لم يكن أسلوب «فِي» تريسي؛ فقد كانت سليطة اللسان، وقد يتطور الأمر دون تردُّد إلى استخدام لكماتها، وتسبَّبَت محادثتُها في شعور باني بصدمة لشبابه البريء. لقد تصادف أنهم كانوا يتحدثون في البداية عن ممثلة إغراء، جاءت أخيرًا من الخارج حيث أعلنَت عن ذلك حملةٌ تسويقيةٌ واسعة النطاق. قالت آنابيل بلطف: «لديها ذوقٌ رفيع للغاية في انتقاء ملابسها.» قالت فِي: «أوه، رائع! رائع للغاية! حتى إنها اختارت كلبًا يتناسب مع وجهها!» بعد قليل تحدثوا عن ذلك الفيلم الذي كلف إنتاجه مليون دولار، «السطل البلوطي القديم» (ذا أولد أوكن باكيت)، والذي كان حينئذٍ يوقظ ذكريات الوطن ويُبكي عيون الملايين من الأوغاد قساة القلوب. وعلَّقَت آنابيل قائلة إن دوللي دين، التي لعبَت دور الفتاة الريفية البريئة التي أغراها بائعٌ متجول، كانت بسيطةً للغاية. أجابت فِي: «نعم بالتأكيد! لكن للحصول على فرصة لتكون بهذه البساطة، كان عليها أن تُضاجِع مُنتِجَها واثنَين من الممثلين والمخرج ومساعده، وقد أخبروها جميعًا كيف تتلو عذراءُ بريئة صلواتها!»

جلس باني، الذي كان يعتبر نفسه متمردًا، منتبهًا لما يُقال في هذه المحادثة، وبالتأكيد لاحظَت فِي أميرَ النفط الشاب، وهي تُغازله بعينَيها السوداوَين المتلألئتَين. أحضَر لها الخادم طبقًا من الحَسَاء في وعاءٍ ذهبي، فألقت عليه نظرةً خاطفة وصرخَت: «يا إلهي، خذه بعيدًا، إنه يحتوي على النشا! آنابيل، هل تحاولين إخراجي من المهنة؟» ثم

وجَّهَت كلامها لباني: «يقولون إنه لا يمكن لأحد أن يأكل السُّمَانى يوميًّا لمدة ثلاثين يومًا، ولكن ماذا ستقول، يا سيد روس، إذا أخبرتُك أنني أكلتُ قطعتَين من لحم الضأن وثلاثَ شرائح من الأناناس كل يوم لمدة سبع سنوات؟»

«سأطرح السؤال التالي: هل هذه طقوسٌ مصرية، أو ربما سكوثية؟»

«إنها وصفة طبيبٍ في هوليوود متخصصٍ في تقليص أجساد الممثلات. من المفترض أن نعيش نحن المشاهير في ترف، ولكن في الحقيقة لدينا حُلمٌ واحد فقط، وهو شراء ما يكفي من العقارات بهوليوود حتى نتمكن من التقاعُد وتناول وجبةٍ دسمة!»

سأل باني بتعاطُف: «ألا تتناولين خلسةً وجبةً دسمةً أبدًا؟»

فأجابت: «أجسادنا من النوع الذي لا يكذب أبدًا. يمكنك أن تسأل تومي بايلي عما سيحدُث إن رأوا أن وزني قد زاد عندما يمزِّق الرجل ملابسي! سيجعلونني أمثِّل أدوارًا كوميدية، وسأكسب رزقي من التدحرُج إلى أسفل التل في برميل!»

٧

كان الحديث في حفل العَشاء هذا، كما هو الحال في معظم حفلات العَشاء في أمريكا في ذلك الوقت، يشبه المشي على حافة حفرةٍ زلقة. عاجلًا أم آجلًا، كان لا بد من الانزلاق إلى داخل الحفرة، وبعد ذلك لن تتمكَّن من الخروج منها، بل ستُكمِل سيرك داخل الحفرة. قالت آنابيل، بوصفها المضيفة: «سيد روس، لقد لاحظتُ أنك لا تشرب نبيذك. يمكنك الوثوقُ بما نقدِّمه؛ فهو لدينا من فترة ما قبل الحرب.» وهكذا انزلقوا داخل الحفرة، وتحدثوا عن الحظر.

بالرغم من صدور القانون منذ عامَين ونصف، كانت الطبقات المرفَّهة قد أدركَت للتو الأبعاد الكاملة للإهانة التي لحقَت بها. لم يكن السبب هو ارتفاع الأسعار؛ فقد كان أفراد تلك الطبقات جميعًا يبحثون عن طرقٍ لإنفاق الأموال بسرعة، ولكن كان السبب هو المضايقات والصعوبات التي كانت تُواجِههم للتأكد مما سيحصُلون عليه. لقد نجا الناسُ من المشكلة عن طريق وضع ثقتهم بمهربٍ معين، ولاحظ باني أنها ظاهرةٌ عالميةٌ رائعة؛ حيث كان الأشخاص الأكثر تشاؤمًا، الذين جعلوا من عدم الثقة بأي شخص قاعدةً لحياتهم، يَرْوون أغرب القصص التي أخبرهم بها رجال عالم الإجرام، حول كيفية تهريب «صندوق السكوتش» هذا بالتحديد من المكسيك، أو ربما سرقته من المخزون الشخصي لدوق زائر في كندا.

ناقشوا آخر تطوُّرات المأساة التي حلَّت بكوسكي، أحد أباطرة عالم السينما الخاص بهم، الذي كان لديه مخزون لا يُقدَّر بثمَن في قبو منزله الريفي، واتخذ الاحتياطات اللازمة، وأحاطه بجدارٍ مبني من الطوب يصل سُمكُه إلى قدمَين، وأمَّنَه بأبوابٍ كتلك الموجودة في خزانة البنك، لكن اللصوص جاءوا أثناء غياب المالك، وقيَّدوا الحارس وكمَّموه، وحفَروا أرضيةَ قاعة الاستقبال، التي كانت تعلو القبو، واستَولَوا على كل شيءٍ بالحبال والبكرات، ونقلوه في الشاحنات. منذ ذلك الحين نشبَ خلاف بين كوسكي والسلطات، واتهمها بأنها متواطئة مع اللصوص، وتعاقد مع وكالةِ تحقيقٍ خارجية، وهدَّد بفضح قسم الشرطة وتشويه سمعته. وبهذه الطريقة استعاد الجزء الأكبر من براميله وزجاجاته، ولكن للأسف، اختفت محتوياتها الأصلية، حيث أُفرغَت جميعًا وأُعيد تعبئتُها بنبيذٍ زائف. وهكذا، بعد ذلك، أصبح لدى مهربك قصةٌ مقنعة يخبرك بها؛ وهي أنه كان يبيع لك بعضًا من نبيذ كوسكي الأصلي! شُربَت ملايين الجالونات من نبيذ كوسكي الأصلي في كاليفورنيا، وحتى في الولايات المجاورة.

فجأة صفَّقَت فِي تريسي بيدَيها. «أوه، أنصتوا لي! لديَّ ما أقوله عن كوسكي! هو وآخرين! هل سمع أحدكم عن «صلاة الفيلم»؟»

ساد الصمت. فلم يكن أحدٌ قد سمع عنها.

«هذا شيء يجب علينا جميعًا أن نُعلِّمه لأطفالنا ليُردِّدوه كل صباح ومساء. الأمر جدِّي، ولا يمكن المزاح بشأنه.»

قالت بيسي باري: «دعونا نصلِّ.»

وأمرتهم فِي قائلةً: «فلتضُموا أيديكم، مثل الأطفال الصغار الصالحين، ولتَحْنُوا رءوسكم.» ثم بدأَت تقول بنبرةٍ بطيئة ومهيبة:

«فيلمنا، الذي في السموات، ليتقدس اسمك بمجد هوليوود. ليأتِ كوسكي. لتكن مشيئتُه، كما في الفِراش كذلك في الاستوديو.»

تلا ذلك شهقة، ثم اجتاح هدير من الضحك الطاولة؛ لم تكن هناك حاجةٌ إلى أي تفسيرات؛ فقد كانوا جميعًا على دراية بإمبراطورهم، المتحكم في مصير المئات من ممثلات السينما. صاحت الأصوات: «تابعي!» واستمرَّت الفتاة في تلاوة صلاة، تشبه إلى حدٍّ كبير الصلاة الربانية في تركيبها وإيقاعها، وذكرَت أسماء أشخاصٍ آخرين ذوي نفوذ في عالم الظل الخاص بهم، ودائمًا ما كانت تضيف بعض التلميحات الفاحشة. لقد كان نوعًا من القُداس الأسود، الذي لعب دورًا سحريًّا في خروج المحادثة من حفرة الحظر. تحدثوا

لفترة عن العادات الجنسية لملوك صناعة السينما، والممثلات اللاتي كانوا يعاشرونهن، والفضائح التي كانت تهدِّدهم، وحوادث إطلاق النار ومحاولات التسميم التي نتجَت عن ذلك. كانت هناك جرائمُ غامضةٌ مثيرة، من شأنها أن توفِّر موضوعًا للحديث لساعاتٍ في أي تجمُّعٍ هوليوودي، وقد تسمع العديد من الحلول المختلفة، التي تمتاز جميعُها بالإيجابية، ولا يشبه أحدها الآخر.

٨

انتقلوا إلى الكاتدرائية الأكبر حجمًا؛ حيث كانت الأضواء خافتة، وفي مكان المذبح كانت تُوجد شاشةٌ بيضاءُ كبيرة. في نهاية الغرفة كانت هناك آلةُ عرض، وجلس الضيوف على كراسيَّ مريحة، مستعدين لتحمُّل تكلفة ترفيههم بمشاهدة أول بكرتَين من فيلم آنابيل الجديد، وتقديم آرائهم المهنية بشأن «تقطيع المشاهد». قد تتذكَّر فيلم «آلام الحب» باعتباره قصةً تحرك المشاعر حول شابةٍ في مقتبل العمر من الطبقة العليا، أغوت امرأةٌ مطلقةٌ زوجَها الشاب الوسيم حتى ضل طريقه، ولتجعلَه يشعر بالغَيرة، بدأَت تغازل مهرب كحول، مما أدى إلى اختطافها في إحدى السفن التي تهرِّب الخمر، وأصبحت ضحيةَ مشهد تمزيق الملابس المعتاد. قالت فِي تريسي، في تعليقٍ جانبي لباني: «يا إلهي، إن آنابيل تلعب دور فتيات المجتمع هذه من قبل أن يولدْنَ، وطَوال ذلك الوقت لم تحظَ بقصةٍ تفوق ذكاء طفل في الثانية عشرة من عمره! قد تعتبر ما أقوله مزحة، لكنني أعلم يقينًا أن بيري دوشان يجمع مجموعةً من طلاب المدارس معًا ويخبرهم بالسيناريو، وإذا كان هناك أيُّ شيءٍ لا يعجبهم، يحذفه.»

ثم قالت لآنابيل: «الفيلم يرقى إلى المستوى المطلوب يا عزيزتي؛ سوف يحقِّق مكاسبَ جيدة.» ثم أكملَت كلامها وهي تنظر إلى باني: «هذا ما يميز آنابيل، يمكنك أن تقول لها ذلك فتصبح راضية؛ فهي لا تسألك ما إذا كان العمل تحفةً فنية. لكن هناك من يفعل ذلك، ومن هنا أصبح لديَّ أعداءٌ لدودون لأنني لن أكذب عليهم. فأنا أخبرهم: «فلندَع الفن جانبًا يا عزيزي؛ نعلم جميعًا أن أفلامنا لا قيمة لها».»

دارت مناقشةٌ فنية، وأُتيحَت الفرصة لباني للتعرُّف على حيل «تقطيع المشاهد». كما عرف أيضًا إجمالي إيرادات عددٍ من أفلام آنابيل إيمز، وأرقامٍ سرية عن أفلامٍ أخرى ناجحة. كان تومي بايلي قد انغمس أخيرًا في ترف صنع أفلامٍ فنيةٍ جميلة، وصفَتها الصحف بأنها «كلاسيكيات»، لكنه خسر فيها هو ومجموعة من الأصدقاء ما يزيد عن

مائة ألف، لكنه برَّر ذلك بأنه تكلفة اكتساب الخبرة، وقال: «دع الألمان يقوموا بالأعمال الفنية بعد ذلك!»

طَوال هذا الوقت كان هناك طيفٌ صامت يحوم حول الكاتدرائية، مرتديًا معطفًا وسروالًا قطنيًّا أبيض اللون ونعلَين مبطنَين أرجوانيَّين؛ كان ذلك هو الصبي الصيني الذي كان يحمل صينيةً عليها أكوابٌ صغيرةٌ مليئة بمشروباتٍ وردية وصفراء وأرجوانية وخضراء اللون. كان ينتقل من ضيف إلى آخر، ويقدِّم له صينيَّتَه، فيضعون الأكواب الفارغة ويأخذون أخرى مملوءة، وطَوال المساء لم يُصدِر الطيف صوتًا واحدًا، ولم يُوجِّه له أحدٌ أي كلمة. منذ حوالي ثلاثمائة عام، طرح شاعرٌ إنجليزي، نَسِيَه عالم السينما منذ فترةٍ طويلة، السؤال التالي: لماذا يضع الرجل شيئًا ضارًّا في فمه يحجُب دماغه؟ ولكن هنا في الدير، بدا أن مصدر القلق هو أن ينسى أحدٌ تناول الشراب؛ ومن هنا جاء دور هذا الطيف الصيني لتذكرة الجميع.

امتنع عددٌ قليل من الحضور عن تناول الشراب؛ منهم آنابيل وفِي تريسي. يبدو أن الطيف قد تلقَّى تعليمات بعدم الاقتراب من فيرنون روسكو، وإذا حاول فيرنون الاقتراب من الطيف، فسيكون هناك تحذيرٌ حاد: «توقَّف يا فيرن!» لكنَّ الآخرين شربوا، وتحدَّثوا بحرية، وأفصحوا عما في قلوبهم مع مرور المساء. حتى فريد أوربان دبَّت فيه الحياة، وبدأ يتحدَّث! عادةً ما كان فيرنون روسكو «يمازح» الجميع، والآن حان موعد السداد؛ حيث اعتدل صاحب وجه الحصان الطويل، الذي كان يعمل سابقًا في مزرعةِ ماشيةٍ في تكساس، في جلسته وسأل بصوتٍ مصطنع بدا كما لو أنه صدر من شخصٍ يتكلم من بطنه: «هل يعرف أحدٌ هنا كيف بدأ هذا العجوز المخادع حياته؟»

يبدو أنه لم يكن هناك من يعرف، فطرح أوربان سؤالًا آخر: «هل سبق لأحدٍ أن رآه وهو يسبح؟ أُراهِن أنكم لم تَرَوه قَط يفعل ذلك! عندما يكون بالخارج، سيخبرك أن الماء بارد جدًّا، وعندما يكون بالداخل، سيُخبرك أن الماء متسخ أو شيء من هذا القبيل. والسبب هو أن إحدى أصابع قدمَيه مفقودة، ويخشى أن يُكشف ذلك الأمر. فعندما كان يحفر بئره الأولى، نفدَ ماله وكان في حالةٍ مزرية؛ لذا ذهب وأخرج بوليصة تأمين ضد الحوادث، ثم ذهب لصيد الأرانب وأطلق النار على إحدى إصبعَي قدمَيه الكبيرتَين. وبهذا حصل على المال لإنهاء حفر البئر! أليست هذه هي الحقيقة يا صديقي؟»

ضحك الحضور بابتهاج وطالبوه بالإجابة، وضحك فيرنون مثل أي شخصٍ آخر. لم يرَ بأسًا من القصة، لكن لم يكن بإمكانك أن تجعله يحكيها. وبدلًا من ذلك، ردَّ على

مهاجمه قائلًا: «يجب أن تسمعوا قصة هذا المحتال العجوز، وكيف أصبح ثريًّا بتأجير أراضي النفط من الهنود. لقد سمعتُ هذه القصة عن عشرات من رجال النفط، لكن فريد كان صاحب القصة الحقيقي، وأعرف ذلك لأنني شهدتُ ما حدث بنفسي. عرض فريد على زعيم قبيلة شاوني العجوز ثُمن الأرباح، لكن العجوز الخرِف أغلق عينَيه وقال: «لا أريد الثُّمن، أريد أن أحصل على جزء من ستة عشر!» قال فريد إنه لا يستطيع تحمُّل ذلك، وتوسَّل إليه أن يأخذ جزءًا من اثنَي عشر، لكنه قال: «جزء من ستة عشر وإلا فلن يكون هناك عقد إيجار.» لذا اتفقا على جزء من ستة عشر، والآن أصبحَت تُعرَف باسم «قبة الجحيم»! أليس كذلك، أيها المحتال العجوز؟»

قال فريد أوربان: «يمكنك إكمال القصة بإخبارهم بما كان يفعله الزعيم العجوز بأرباحه. كان لديه سبعُ سياراتٍ مختلفة الألوان لكل يوم من أيام الأسبوع، وكان يثمل ثلاثَ مراتٍ كل يوم.»

صاح صوت هارفي مانينج: «يا إلهي، خذوني إلى قبة الجحيم! فهم لا يسمحون لي أن أثمل إلا مرةً واحدة في الليل، ويمنعون عني الشراب طَوال النهار!»

٩

كان هناك أرغن كبير في هذه الكاتدرائية، أرغن سحري على الطراز الحديث، تصدر منه الموسيقى عندما تضع فيه لفافةً من الورق وتضغط على مفتاحٍ كهربائي. عزف أحدث نغمات الجاز من برودواي، ورقص الحضور، وجاءت فِي تريسي إلى باني وقالت: «طبيبي يسمح لي بمشروبٍ واحد فقط في المساء؛ ولذا أريد شريكًا رصينًا.» سعد باني بهذا الإلزام، وهكذا مرَّ الوقت ممتعًا. رقص مع مضيفته ومع الحورية الشقراء بيسي باري. تجاذبوا أطراف الحديث بين الرقصات، واستمر الطيف الصيني في الطواف، وانكشفَت أعماق الروح الإنسانية أكثر فأكثر.

أمام باني وقف تومي بالي، المخرج العبقري، الوسيم، متورِّد الوجه، جميل المظهر، وإن كان غير مُهندَم بعض الشيء، ويبدو عليه الهدوء رغم اضطراب أفكاره. قال: «روس، أريدك أن تخبرني بشيء.»

«ما هو؟»

«أريد أن أعرف عما يدور الأمر كله.»

«أي أمر، يا سيد بالي؟»

«الحياة! لماذا نحن هنا بحق الجحيم، وأين سينتهي بنا المطاف؟»

قال باني: «لو كنتُ أعرف، لَكنتُ بالتأكيد سأخبرك.»

«لكنك ذهبتَ إلى الكلية يا رجل! أما أنا فلم أحصل على أي تعليم قَط، كنتُ بائع جرائدَ وما إلى ذلك. وظننتُ أنه عندما يقرأ المرء عددًا كبيرًا من الكتب ويذهب إلى الكلية ...»

قال باني: «لم نصل إلى ذلك الموضوع بعدُ. ربما سيأتي في السنتَين الأخيرتَين.»

«حسنًا، بحق الرب، إذا أخبروك الإجابة، فتعالَ وأخبِرني. واكتشِف يا بني ماذا سنفعل بشأن العلاقات الجنسية بحق الجحيم؟ فلا يمكنك العيش بها ولا يمكنك العيش بدونها، أي نوعٍ من الفوضى هذا؟»

اعترف باني: «إنه أمرٌ محيِّر للغاية.»

قال الآخر: «إنه أمرٌ لعين! سأدفع لأي شخص راتب عشر سنوات إذا جعلَني أنسى ذلك الأمر اللعين بأكمله.»

قال باني: «ولكن حينئذٍ، ماذا ستُخرِج؟»

نظر إليه المخرج العبقري، في حَيرة من أمره، وفجأة انفجر ضاحكًا. «يا إلهي، هذا صحيح! يا لها من مزحةٍ جيدة! ها ها ها!» وانطلق، على الأرجح، ليخبر الجميع بالمزحة الجيدة.

حل مكانه هارفي مانينج، الذي لم يعُد قادرًا على الوقوف؛ ولذا تمدَّد على أحد المقاعد، وأعلن بصوت يحمل في طياته ألمًا شديدًا: «أريد أن أعرف من كان يتحدث عني!»

سأله باني: «يتحدث بشأن ماذا؟».

«هذا ما أريد أن أعرفه. ماذا كانوا يقولون؟»

«لا أعرف ما تقصد يا هارفي.»

«هذا هو بيت القصيد! لماذا لا تعرف؟ لماذا لا تخبرني؟ هل تعني أن تقول إنني لا أسأل سؤالًا مباشرًا؟ هل تظن أنني ثمل؟ أقول إنني أريد أن أعرف من كان يتحدث عني وماذا كان يقول. يجب أن أعتني بسمعتي. أريد أن أعرف لماذا لا تريد أن تخبرني. سأعرف حتى ولو تعيَّن عليَّ أن أستمر في السؤال طَوال الليل.» ومن ثَمَّ عاد يقول: «أرجوك يا رفيقي أخبِرني ماذا قالوا لك.»

ولكن عندئذٍ مر عليه الطيف الصيني، ونهض هارفي وحاول الإمساك به، لكنه فشل، وأمسك بدلًا من ذلك بمصباح يتدلى من حامل أطول منه قليلًا. لم يكن قويًّا مثل أعمدة

الإنارة التي اعتاد أن يتشبَّث بها في زوايا الشوارع؛ ولذلك بدأ الحامل في السقوط، وهبَّ باني وأمسك به، وصرخ هارفي في ذعر، «انتبه، ستُوقِعه!»

ثم حدث شيءٌ مضحك. لاحظ باني على مائدة العشاء وجود رجلٍ حسن الهندام يتمتع بالصفات النمطية للغرب الأمريكي، مهذب ومتوارٍ عن الأنظار؛ كان هو المشرف على المنزل وأحد القلائل الذين لم يثملوا. بدا أن من بين مهام المشرف في الدير مهمةَ «الحارس» التقليديةَ في حانات شارع باوري. ولذلك اقترب من هارفي مانينج ولفَّ ذراعه حوله بهدوء، من الواضح أن الأخير كان معتادًا على هذا الموقف من قبلُ؛ ولذا بدأ ينتحب في ألم: «لا أريد أن أذهب إلى الفِراش! لن أذهب إلى الفِراش! اللعنة، أندرسون، دعني وشأني! إذا ذهبت إلى الفراش الآن فسأستيقظ في الصباح، ولن أستطيع تناوُل أي شرابٍ حتى المساء وسأُصاب بالجنون!»

قاوم هارفي المسكين باهتياج هذا المصير الرهيب، لكن من الواضح أن المادة التي كانت تُبطِّن كتفَي معطف السيد أندرسون لم تكن مصنوعة من حشوة الخياط العادية؛ ولذا عجزَت الضحية الباكية عن الإفلات من قبضة أندرسون كما لو أنها وقعَت فريسة لأفعَى عاصرة. سار معه، حتى وهو يعلن بصوتٍ عالٍ أنه لن يفعل ذلك قائلًا: «اعلم أنني سأستيقظ مرةً أخرى! لا أقبل بمعاملتي كطفلٍ رضيع! لن آتي إلى هذا المكان اللعين مرةً أخرى! هذه إهانة! أنا رجلٌ بالغ، ولديَّ الحق في أن أثمل إذا أردتُ ذلك …» وهكذا تلاشى صوتُه الباكي في المصعد!

قالت فِي تريسي: «سيد روس، هناك صرختان يسمعهما المرء في حفلات هوليوود. الأولى هي «لا أريد الذهاب إلى الفراش»؛ والثانية «أودُّ الذهاب إلى الفراش».»

١٠

في صباح يوم الأحد، وجد باني نفسه وحيدًا في الدير. تناول إفطاره، وقرأ الصحف التي وصلَته من أقرب محطة سكة حديد، ثم انطلق للتنزه، وكرَّر زيارته لقفص النسور. سار نحو المحيط، واكتشف طريقًا كان كحاجز لمنع انتشار الحريق، وممرًّا لراكبي الخيول، يصعد التلال التي على امتداد الساحل. سلك هذا الطريق لبضعة أميال، حتى وصل إلى شاطئٍ كبير. أقام صاحب الدير حاجزًا هناك عليه لافتاتٌ تحذِّر الناس من الاقتراب، كانت هناك بوابةٌ ذات قفلٍ زنبركي، وفي الداخل لوح خشب معلَّق عليه مفاتيح، وتعليمات بأخذ واحدٍ معك، حتى تتمكن من العودة. تَبِع باني التعليمات، وواصل طريقه إلى الشاطئ.

بعد قليل وصل إلى قلعةٍ مبنية على طراز قلاع نهر الراين، واقعة على أحد هذه التلال المنعزلة، وأمامها كانت تتجه نحو الماء مجموعةٌ من درجات السلالم والحدائق. وكانت هناك ممرَّات، ومجارٍ مائية، وشلالاتٌ يشبه ماؤها «وشاح العروس»، ونوافيرُ بها ضفادعُ وطيور لقلق وسلاحف وتماثيل الإله تريتون منحوتة جميعًا من الحجر، وكانت كلها تعاني من الجفاف؛ حيث كانت المياه مقفولة. يمكنك أن تخمِّن أن المالك لم يكن موجودًا حيث أُسدلَت ستائر النوافذ في قلعة الراين، وانتشر في جميع أنحاء الحدائق عددٌ كبير من الأغطية البيضاء، على ما يبدو كانت ملفوفةً حول التماثيل. كان بعضٌ من هذه التماثيل يرتكز على قواعد، والبعض الآخر كان موضوعًا على الجدران الحجرية، وكان مصباح كهربائي يتدلى مباشرةً فوق رأس كلٍّ منها.

لقد كانت ظاهرةً غريبة لدرجة أن باني تحمَّل عناء التسلق إلى الحديقة، ورفع طرف واحدة من تلك الملاءات، وشعَر بالخجل عندما وجد تمثالًا رخاميًّا كبيرًا لسيدةٍ عارية الساقين، من المفترض أنه كان تمثال لوريلاي، أو سيدةٍ ألمانيةٍ أخرى؛ لأنه من شكل القماش كان بالإمكان معرفة أنها كانت ترفع كأسًا بإحدى يدَيها، وخلف رأسها حبلٌ رخاميٌّ سميك، مصنوع من شعرها المضفَّر. حينئذٍ تتذكر أنها كانت تمشِّط شعرَها بمشطٍ ذهبي، وهي تغني أغنية لها لحنٌ قوي ورائع، وكان باني هو صياد السمك الصغير الذي تمكَّنَت من السيطرة عليه بحزنٍ شديد. ألقى نظرةً تحت ست ملاءات، وأحصى الباقي، وتأكَّد من حقيقة أن الحدائق كانت تحتوي على ما لا يقلُّ عن اثنَين وثلاثين تمثالًا رخاميًّا كبيرًا لسيداتٍ ممتلئات، ذوات شعرٍ مضفَّر يتدلَّى على ظهورهن. لا بد أنها كانت تمثِّل مشهدًا مذهلًا بالليل عند إضاءة جميع المصابيح، لكن لم يكن هناك مَن يراه سوى الفُقمات! وبالفعل نظر باني إلى البحر، لم يكن هناك شراعٌ في الأفق، ولكن بالقرب من الشاطئ كانت هناك مجموعاتٌ من الصخور، جلسَت عليها فُقماتٌ في انتظار معرفة ما إذا كان سيُزيح الملاءات عن التماثيل، ويُعيد الأيام السعيدة قبل أن يدمِّر الحظر أمريكا!

عاد إلى الشاطئ، وأكمل سيره. كانت الشمس ساطعةً الآن، والمياه مغرية، وكانت الأمواج ذات اللون الأخضر والأبيض تتناثر فوق الفُقمات التي كانت تستلقي فوق الصخور، لم تكن الأمواج عالية لدرجةٍ خطيرة، ولكنها كانت كافيةً لإغواء باني بالنزول فيها. تأكَّد باني من أنه بمفرده، ثم خلَع ملابسه وخاض في الماء.

ثبَّتَت الفُقمات أنظارها عليه، ومع كل خطوة يخطوها كانت إحداها تدفع جسدها ليقترب من حافة الماء. كان بعضها أصفر اللون، والبعض الآخر بنيًّا داكنًا، وبالرغم من

اختلاف أحجامها إلا أنها كانت جميعًا سمينةً للغاية، بعد أن استهلكَت قرابة وزنها من الأسماك على مدار اليوم. بينما كان باني يسبح بالقرب منها، كانت تنزلق بصمتٍ من فوق الصخور، وتُفسِح له المجال بتأدب، وعندما كان يتسلق الصخور، كانت تظهر على سطح الماء وتشكِّل دائرةً على بُعد بضع ياردات؛ حيث تبرُز من الماء برءوسها الصفراء والبنية، وشواربها الشعثاء، وعيونها اللطيفة المحدِّقة. كانت تتصرَّف بطريقةٍ بشريةٍ غريبة، وكأنها مجموعةٌ من الأطفال الأجانب، يراقبون زائرًا لا يعرفون لغته، ولا يعرفون ما إذا كان من الآمن التعامل معه.

مياه كاليفورنيا باردةٌ دائمًا، لكن أشعة الشمس بها دافئة؛ لذلك كان باني يسبح لفترة من الوقت، ثم يقترب من مجموعة من الصخور، ويشاهد المجموعة الصامتة وهي تنزلق في الماء. أيًّا كان ما يريده، فستتنازل عنه من أجله؛ فهي الكائنة الأسمى؛ ولذا سترضى بالأماكن التي سيتركها لها. كانت مياه البحر البيضاء والخضراء تتناثر فوقه، وتحت سطحها كانت هناك حديقةٌ من النباتات الغريبة؛ حيث كانت تتشبَّث قواقع أذن البحر بشقائق النعمان بقوةٍ يصعب معها انتزاعها بالأصابع. انجرفَت السحب البيضاء مشكِّلةً ظلالًا سريعة فوق الماء، وبعيدًا في البحر أظهر خطٌّ من الدخان مكانَ مرورِ باخرة.

كان العالم جميلًا جدًّا، وفي الوقت ذاته غريبًا، ومن الممتع العيش فيه! كيف سيكون الأمر عندما تكون فُقْمة؟ وما رأيها في هذا المتكبِّر الذي استولى على أماكن راحتها؟ هل رأَتْ قلعة الراين على الشاطئ، أم أنها لم ترَ سوى السمك الذي يمكنُها أن تأكله، وكيف فهمَت بوضوحٍ أنه لا ينبغي لها أن تأكل إنسانًا؟ من المحرج أن «تثور» إحداها وتتمرد على عادات الفُقمات اللطيفة! وهكذا كان باني في سن الحادية والعشرين تمامًا كما التقينا به لأول مرة في السيارة التي كانت تنطلق على منحدر جوادالوبي، وهو يفكِّر في مشاعر سناجب الأرض وطيور النُّهَس. كان في الوقت الراهن قد أكمل دراستَه في مدرسة بيتش سيتي الثانوية، وتبقَّى له عامان في جامعة جنوب المحيط الهادي، ومع ذلك لم تُمِدَّه أيٌّ من المؤسستَين بما أراد معرفته!

١١

شعر الفيلسوف الشاب أنه قد أمضى ما يكفي من الوقت في السباحة، وبدأ يسبح باتجاه الشاطئ، لكنه لاحظ حينئذٍ شخصًا يمتطي حصانًا، يركض نحوه على الشاطئ. كان هذا

الشخص حاسر الرأس ويرتدي سروالًا قصيرًا يصل إلى الركبة، ويبدو أنه رجل، لكن لا يمكنك التأكُّد أبدًا هذه الأيام؛ لذلك سبح وانتظر، وتأكَّد على الفور أن ذلك الشخص كان فِي تريسي. رأَته ولوَّحَت بيدها، وعندما أصبحَت في الجهة المقابلة له، كبحَت حصانها. وقالت: «صباح الخير سيد روس.»

صاح قائلًا: «صباح الخير. هل هذا جزءٌ من وصفة الطبيب؟».

«نعم، ويتضمَّن السباحة أيضًا.» علَت وجهَها ضحكة، كما لو أنها خمَّنَت وضعه الحرج. وقالت: «لماذا لا تدعوني للانضمام إليك؟»

«أعتقد أن هذا سيُحرِج الفُقمات.» سبَح ببطء، ووقف وسط الأمواج التي كانت تتدفَّق حول كتفَيه.

قالت لي: «إنه صباح عالمٍ جديد. اخرج، ودَعْنا نستمتع به.»

أوضح قائلًا: «اسمعي يا آنسة تريسي، لم أكن أتوقَّع صحبة. ولذلك فأنا كما ولدَتني أمي.»

رنَّمت قائلة: «يا بَنِي البشر، حتى متى يكون مجدي عارًا؟» وأوضحَت قائلة: «لقد مثلت ذات مرةٍ في عرض ديني اسمه «الملك سليمان». كان عندنا ثلاثة جمالٍ حقيقية، وكنتُ ألعب دور أبيشج الشونمية، الفتاة الشابة التي كانت ترعى الملك وتخدمه، وغنَّى لي: «قُومي يا حبيبتي، يا جميلتي وتعالَي. لأن الشتاء قد مضى، والمطر مرَّ وزال، الزهور ظهرَت في الأرض، بلغ أوان القَضْب، وصوت اليمامة سُمع في أرضنا. التينة أخرجت فِجَّها، وقُعَال الكُرُوم تفيح رائحتها. قومي يا حبيبتي، يا جميلتي وتعالَي. يا حمامتي في محاجئ الصخر ...»»

لقد كان قريبًا بما يكفي ليرى في عينَيها السوداوَين نيتها للتصرف بشقاوة. قال: «أيتها الشابة، أودُّ أن أخطركِ بشيء. لقد قضيتُ ساعةً في هذا الماء، وأشعر بالبرد الآن. وكنت في طريقي للخروج.»

تابعت: «عنقك كبرج داود المبني للأسلحة، ألف مِجَنٍّ عُلِّق عليه، كلها أَتْرَاس الجبابرة.»

مشى بضع خطواتٍ حتى صارَت الأمواج تصل بالكاد إلى خصره. وقال: «أنا في طريقي للخروج.»

«مَن هذا الذي يخرج من الماء؟ حبيبي أبيض وأحمر، مُعْلَم بين رَبْوة. رأسه ذهب إبريز، قُصَصه مُسترسِلة ...»

قال بصوتٍ عالٍ: «أحذِّركِ للمرة الأخيرة! واحد، اثنان، ثلاثة!» وعندما لم تُبدِ أي علامةٍ على الإذعان، خرج دون تردُّد من بين الأمواج.

«ساقاه عمودَا رخام، مُؤسَّستان على قاعدتَين من إبْرِيز، طَلْعتُه كلُبْنان، فتًى كالأَرْز.»

وقف أمامها، والماء يداعب قدمَيه.

«أنتِ جميلةٌ يا حبيبتي كَتِرْصَة، حَسَنةٌ كأورشليم، مُرهِبةٌ كجيش بأَلْوِيَة. حَوِّلي عني عينَيكِ فإنهما قد غَلَبَتاني!»

قال باني: «إذا كان هذا موجودًا في الكتاب المقدَّس، فأظن أنه لا بأس به.»

قالت السيدة التي كانت تمتطي الحصان: «لم يحقِّق «الملك سليمان» أيَّ أرباح؛ لذلك لم أشارك في أي عروضٍ من ذلك النوع بعد ذلك، وهو الشعر الوحيد الذي يمكنني إلقاؤه. أعتقد أنني لو كنتُ قد شاركتُ في عرضٍ إغريقيٍّ لَتمكَّنتُ من اقتباس شيءٍ مناسب؛ فقد قرأتُ أنهم كانوا يركضون عُراةً في المسابقات، ولم يُسبِّب لهم ذلك أي إحراج. هل هذا صحيح؟»

قال باني: «هكذا تقول الكتب.»

«حسنًا، لنُحيِ رُوحَ الإغريق بداخلنا! لقد سمعتُ أنك عدَّاء. هل تتدرَّب؟»

«إلى حدٍّ ما.»

«شفتا حبيبي زرقاء وجسده يرتعش؛ لذا دعنا نجرِ سباقًا بينكما أنت وحصاني، سيكون الأمر وكأنه عرضٌ إغريقي.»

«سأفعل أي شيء لإرضائكِ.»

صرخَت بحدَّة: «مستعد! انطلق!» وبعد ذلك، أدهشه كثيرًا أنها سحبَت مسدسًا صغيرًا من تحت سترتها، وأطلقَت النار في الهواء. وتحوَّل الأمر إلى سباقٍ حقيقي!

انطلق بسرعة عشرين ميلًا في الساعة، أو أسرع من هذا بقليل، وسمع وَقْع خطوات الحصان الذي كان يركُض على الرمال خلفه. لم يكن يعرف لِكَم من الوقت سيستمر السباق؛ لذلك استقر على معدل سرعةِ سباقاتِ المسافات الطويلة؛ حيث كان يركض بخطًى واسعة. شعَر بالدفء من جديد، وأصبح مستعدًّا للتحقُّق من كونه إغريقيًّا. كانت السماء زرقاء، والسحب بيضاء، والبحر أخضر، والرمال باردة متلألئة؛ حقًّا، كان صباح عالمٍ جديد، كما قالت الفتاة!

وصلا إلى مكانٍ تظهر فيه آثار عرباتٍ متجهة إلى الشاطئ، وكان هناك ثلاثة رجال يدفعون قواربهم عَبْر الأمواج. توقفوا عن التجديف، ليُحدِّقوا في هذا المشهد المذهل، شاب

عارٍ تمامًا يتسابق على الشاطئ مع امرأة تمتطي حصانًا. علَت وجوهَهم الإيطالية أو البرتغالية الداكنة ابتساماتٌ عريضة، حتى ظهرَت أسنانهم البيضاء. فقد كانوا يعلمون بأمر الدير، وكانت هذه آخر نزوات الأثرياء العاطلين!

ولكن بعد ذلك وصلا إلى بقعةٍ يقترب فيها الطريق السريع من الشاطئ. كانت هناك خيام أمامهما، وسياراتٌ متوقفة مغطَّاة بأغطيةٍ من القماش لحمايتها من الشمس. وكان هناك أناسٌ على الشاطئ، وعلم باني أن هؤلاء لن يكونوا أجانبَ بسطاء، بل أصحاب مزارع من داخل البلاد، أحضَروا عائلاتهم لقضاء يوم الأحد بعيدًا عن الحرارة الشديدة. ولذلك فهم لن يتسامحوا مع نزوات الأثرياء العاطلين، ولن يعرفوا عادات الإغريق القدماء، لقد كانوا أناسًا رصينين، يرتادون الكنيسة، من النوع الذي شكل جماعة كو كلوكس كلان، ويعاقب مرتكبي الفسق والزنا بتلطيخهم بالقير وتغطيتهم بالريش ورَبْطهم إلى قضيب والتجوُّل بهم في الشوارع. لكن ڤِي كانت تتحدَّى باني؛ ولذلك قال لنفسه إن الأمر متروك لها. فهل أرادت حقًّا أن تكون غير تقليدية وتتحمل العواقب؟

واصل الركض. واقتربَت الخيام، ورأى نساءً يحدِّقن فيهما ثم يُهرَعن إلى الداخل، ورأى رجالًا لا يهربون ولا يديرون رءوسهم، بل تتقد وجوههم بنظرات الوعيد. ماذا سيفعلون؟ هل سيقبضون على الدخيل الفاسق ويلفُّونه بالقوة ببطانية ويسلِّمونه إلى الشرطة؟ قفز عقل باني بسرعةٍ إلى النتيجة وتخيَّل عنوانًا رئيسيًّا يغطِّي الصفحة الأولى لصحيفة إنجِل سيتي «إيفينينج هاولر»:

نجمة تسابق بلشفيًّا عاريًا يعمل في مجال النفط!

وفجأةً سمع صوتًا من خلفه: «أنا أستسلم! سأعود!» لذلك دار إلى الخلف، وكذلك فعل الحصان، وانطلقا مبتعدَين أسرع مما جاءا، وكلاهما يرتجف من الضحك في صباح عالمٍ جديد!

١٢

لم يكن الإغريق يرتدون قطُّ السراويل أو القمصان، ولم تكن عملية ارتداء هذه الملابس تحمل أي معانٍ رومانسية أو جمالية. لذلك اتجهَت ڤِي تريسي إلى الشاطئ حتى انتهاء باني من ارتداء ملابسه، وعندما انضم إليها مرةً أخرى، كانت قد تخلَّت عن رُوحها

الإغريقية، وأصبحت شابةً أمريكيةً محترمة؛ ولذا كان من غير اللائق الإشارة إلى مزحتها المجنونة.

كانت تُوجِّه الحصان باللجام الموضوع فوق رأسه، وكان باني يسير بجانبها. قالت، أثناء مرورهما بالاثنَين والثلاثين تمثالًا للوريلاي المكفَّنة بالملاءات البيضاء: «هل لاحظتَ هذا الكابوس؟ كان ذلك أحد أحلام هانك ثاتشر العجوز. هل سمعتَ عن «هانك السعيد»، ملك العنب في كاليفورنيا؟».

صاح باني: «إذن هذا منزله!».

«كان يحلم بإقامة حفلات عربدة، وكان لديه عددٌ من الحريم، ورفضَت زوجته الطلاق عقابًا له، وعندما مات غطَّت حُلمه كنوع من الكفَّارة العلنية.»

«يبدو أنْ لا أحد يراه سوى الفُقْمات.»

«ذَخرَت الصحف بهذا الخبر؛ فهي لن تفوِّت أبدًا أي أخبار عن آل ثاتشر. ولذلك تُرسِل مراسلًا من حين لآخر. في إحدى المرات نشرَت قصةً مروِّعة عن مراسلٍ كان يرتدي درعًا واقيًا تحت بنطاله، ورغم ذلك مزَّقَته الكلاب!»

«هل تُطلق الكلاب عليهم؟»

«لهذا السبب لا يجرؤ أحدٌ على الصعود إلى هناك لإلقاء نظرةٍ خاطفةٍ على التماثيل.»

صاح باني: «يا إلهي! لقد ألقيتُ نظرة خاطفة على ستة منها.»

«حسنًا، لقد كنتَ محظوظًا. ولهذا السبب حملتُ هذا المسدس معي؛ فأحيانًا تأتي إلى الشاطئ، ويَهجُم الجيران عليها.»

«لماذا لا تُقيم سياجًا؟»

«إنها في نزاعٍ مع المقاطعة. فهي تدَّعي أنها تمتلك الشاطئ، وبين الحين والآخر تضع حاجزًا عَبْره، وترسل المقاطعة ليلًا رجالًا لهدمه. لقد بدأ هذا النزاع منذ عشر سنوات. وتحاول الولاية أيضًا إنشاء طريقٍ سريعٍ عَبْر هذه الأرض — حيث سيوفِّر هذا عدة أميال من الطريق الساحلي — لكنها أنفقَت أموالًا طائلة لعرقلتهم؛ فهي تعيش في تلك القلعة وكأنها أميرةٌ محاصرة في الأيام الخوالي؛ تُسدِل جميع الستائر وتتحرك خلسةً من غرفة إلى أخرى، وهي تحمل بيدها بندقيةً بحثًا عن اللصوص والجواسيس. اسأل هارفي عن هذا الأمر؛ فهو يعرفها.»

«هل هي مجنونة؟»

«إنه رد فعل لحياتها مع زوجها؛ فقد كان مسرفًا، ولذلك أصبحَت بخيلة. هناك قصة عنه تقول إنه كان يدفع أجور موظفيه نقدًا، وكان يتجوَّل في البلاد بعربة بها أكياسٌ

صغيرة من القماش يحتوي كلٌّ منها على ألف دولار من الذهب. في إحدى المرات أسقط كيسًا واحدًا ولم يُلاحِظ ذلك، أحضره له واحدٌ من موظفيه، نظر هانك العجوز إلى الرجل بازدراء، ووضع يده في جيبه وأخرج نصف دولار. وقال: «خُذ، ها هو ثمن الحبل، اذهب واشترِ واحدًا واشنق نفسك!»»

«ولهذا تعتني هي الآن بالمال!»

«بالضبط. فهي تدفع جميع فواتيرها بالبريد المسجَّل، وتحتفظ بالإيصالات، وتُصِر على الحصول على إيصال بالاستلام من مكتب البريد، وعندما يأتي إليها تحتفظ بالاثنَين معًا، وعندما تعود إليها الفاتورة المسدَّدة، تصنِّفها وتُجدوِلها. لن تسمح لمحاسب أن يفعل ذلك؛ لأنه لا يمكنكَ العثور على أي موظف يمكن الوثوق به للاهتمام بالأمور بشكلٍ صحيح. ولذلك تقضي ساعاتٍ في دراسة أوراق عملها، واكتشاف إهمال الآخرين وعدم كفاءتهم. فهي توظِّف محامين، ثم توظِّف محامين آخرين للتحقُّق من عملهم، ثم وكالة تحقيق لمعرفة كيف يخدعها المحامون. إنها مقتنعة بأن سلطات المقاطعة تضطهدها، وأنهم جميعًا محتالون، وقد لا تكون مخطئة في ذلك. لقد أنهكَت نفسها وأصبحَت نحيفةً وهزيلة مثل هيكلٍ عظمي يتجول في أرجاء المنزل، وينفُض الغبار عن الأثاث، ويُزعِج الخدم لعدم اعتنائهم بالأشياء.»

مشى الاثنان على الشاطئ. قالت في: «فوق ذلك التل، تعيش أخت هانك العجوز، لقد ترك لها جزءًا من المنزل، وتشاجرَت المرأتان حول الحدود وحقوق المياه. إن تيسي ثاتشر فاسقةٌ عجوز، تستأجر رجالًا للعمل لديها، وتجعلهم عشَّاقها، وتكتب لهم رسائلَ عاطفية، ثم يحاولون ابتزازها، حينئذٍ تطردهم، فيرفعون عليها دعوى لعدم سداد رواتبهم، ويبيعون الرسائل إلى الصحف التي تنشُرها كلها، لكن تيسي لا تهتم؛ فهي تعلم أنه لا يُوجد شيء يمكن أن يضرَّ بمكانتها الاجتماعية؛ فهي غنيةٌ جدًّا، وعلاوةً على ذلك، قد اعتادَت نسيانَ مشاكلها بالإسراف في شرب الخمر.»

صاح باني: «يا إلهي! ماذا تفعل الثروة بالناس؟!»

قالت فِي: «بالنساء على وجه الخصوص. إنه أمرٌ يفوق احتمالهن. فأنا أنظر إلى العجائز اللاتي أقابلهن، وأفكِّر، يا تُرى هل سأشبههن عندما أكبر؟ ثم أقول يا إلهي! وأقفز إلى سيارتي وأقودها بسرعة خمسين ميلًا في الساعة لأهرب من مشاكلي، ومن الأشخاص الذين يريدون إخباري بمشاكلهم!»

قال باني ضاحكًا: «هل هذا ما كنتِ تفعلينه عندما أرسلكِ القاضي إلى السجن لمدة أسبوع؟».

أجابت: «لا، كانت تلك حيلةً دعائية، فكرةً ذكية من مسئول الدعاية الخاص بي.»

الفصل الرابع عشر

النجمة السينمائية

١

عاد باني إلى إنجِل سيتي، واكتشَف أنه إذا أراد اتباعَ نهجِ في تريسي في تفادي مشاكل الآخرين، فسيكون قد ارتكَب خطأً فادحًا بالاهتمام بكلية العمال! ذهب لرؤية السيد إيرفينج، ووجَد المدرسَ الشابَّ منغمسًا في المعاناةِ والعوائقِ المتزايدة التي تُواجِه الحركةَ العمالية. فطَوالَ الصيف، كان مسئولًا عن إجراء مقابلاتٍ مع القادة والمؤيدين، ومحاولة جمعهم معًا في برنامج. وقد تمكَّن من إنشاء الكلية بثلاثةِ معلِّمين وحواليَ خمسين تلميذًا، معظمهم يأتون ليلًا، لكن الأمر برمته كان محفوفًا بالمخاطر، وبدَت الصعوباتُ جارفة.

كان هناك عددٌ قليل من الرجال والنساء التقدُّميين أصحابِ التفكيرِ المنطقيِّ في الحركة العمالية، وكان السواد الأعظم من البيروقراطيين، الذين يرفضون أي أفكارٍ جديدة، وأيضًا مجموعة صغيرة من الراديكاليين المتطرفين، الذين يُفضِّلون عدمَ الحصولِ على الخبز على الإطلاقِ على أخذِ نصفِ رغيف. أعلن القادة المحافظون أنهم لن يكون لهم أيُّ علاقة بالكلية إذا انضَم إليها هؤلاء «البلاشفة»، ومن ناحيةٍ أخرى، إذا استُبعِدَت «البلاشفة»، فسوف يثيرون ضجَّة، وسيطرح الكثير من الليبراليين الحقيقيين السؤال التالي: ما الفائدة من إنشاء كليةٍ جديدة تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ الكلياتِ القديمة؟

كان للحركة العمالية مناهجُها المتعلقة بحصول العُمال على ساعاتِ عملٍ أقلَّ وأجورٍ أعلى، وكان كبارُ المسئولين ملتزمين بوجهة النظر هذه. فمسئول الاتحاد العادي كان عاملًا هرب من عمله اليومي بمساعدة تنظيمٍ سياسيٍّ داخل الاتحاد. وكان أي شيءٍ جديد يمثِّل له خطرَ فقدانِ وظيفتِه المكتبية، والاضطرار إلى العودة إلى العمل الشاق. لقد تعلَّم التفاوضَ مع أصحابِ العمل وتدخينَ السيجار، وفي نسبةٍ كبيرةٍ من الحالات كان يُنفق

أموالًا تزيد عن راتبه. كان لدى الاتحادات، هنا في إنجِل سيتي، صحيفةٌ أسبوعية، تحصُل على تمويلها من خلال طلبِ مقابلٍ مادي لقاءَ إجراءِ دعايةٍ لرجال الأعمال، ولم يكن ذلك سوى شكلٍ محترم من أشكال الكسب غير المشروع. وعندما تنقل أي خبرٍ محل نزاعٍ إلى محرِّر من هذا النوع، سيتهمُك بأنكَ «بلشفي»، ويرمي ما تقولُه في سلة المهملات.

انطبق الأمرُ ذاتُه على الجوانب الوطنية للحركة. وأنشأ اتحاد العمال الأمريكي مكتبًا في واشنطن بغرض مكافحة الراديكاليين، ولأغراضٍ عملية كان هذا المكتب مثل أي جمعيةٍ وطنية؛ حيث كانت وظيفتُه تتلخص في أن يجمعَ من جميع أنحاء العالم أخبارًا سلبيةً عن روسيا، وينشرَ هذه الأخبار في الصحافة العمالية الأمريكية. وبالطبع، إذا تمرَّد أي عامل على هذا الوضع، وكان له وجهةُ نظرٍ مختلفة، فستَنشبُ بينه وبين هذا التنظيم عداوةٌ مريرة، وسوف يرمونه إلى الذئاب. وحينئذٍ ستنشر الصحافة الرأسمالية خبرًا مخيفًا بشأن كيفية استيلاء الشيوعيين على اتحاد عمال الجص، أو ربما عمال تركيب الأزرار، واستعداد هيئة المحلَّفين الكبرى لاتخاذ إجراءاتٍ ضد مجموعةٍ من المتآمرين. وكان هذا التهديد كفيلًا بأن يجعل أيَّ زعيمٍ للعمال يرتجف خوفًا، بغَضِّ النظر عن مدى صدقِه وإخلاصِه.

٢

كان هناك أيضًا هاري سيجر ومشاكله. فقد قامت مؤسسة سيجر المتخصِّصة في مجال الأعمال بتخريجِ مجموعةٍ من الشباب والشابات، المدرَّبين تدريبًا كاملًا على كتابة الجمل التالية على الآلة الكاتبة: «لقد خُلق جميع الناس أحرارًا ومتساوين» وأيضًا «الحرية أو الموت». والآن كان هؤلاء الشباب يتردَّدون على مكاتب الأعمال في إنجِل سيتي، واكتَشَفوا أنه لا يُوجَد من يرغب في توظيف موظفين يكتبون أشياءَ من هذا القبيل! وبكل بساطة، قيل لهؤلاء الشباب إن مؤسسة سيجر المتخصِّصة في مجال الأعمال هي مؤسَّسةٌ بلشفية، وقد تلقَّى رجال الأعمال في المدينة تحذيرًا بعدم توظيف خرِّيجيها. كانت المقاطعةُ غيرَ قانونية في إنجِل سيتي، وإذا حاول أيٌّ من العمال تطبيقَها، فسيُزجُّ به في السجن في لمح البصر. لكن تخيَّل أن يطلب هاري سيجر من المدَّعي العام أن يحاكم رؤساء رابطة التجار وأصحاب المصانع، الذين أدَّت إسهاماتُ حملاتهم إلى وصول المدعي العام إلى منصبه!

ذهب باني إلى بارادايس، وكان بانتظاره مجموعةٌ أخرى من الأخبار الحزينة. فاستعدادًا للصراع المرتقَب بشأن الأجور، كان أصحاب آبار النفط يتخلَّصون من

«مثيري الشغب»؛ أي أعضاء الاتحاد النشطين. والآن ولأول مرة، كانت شركة روس كونسوليديتد تتبع السياسةَ ذاتَها مثل باقي الشركات. وبالفعل قيل لبن رايلي، أحد الرفاق الذين كانوا متجمهرين عند كابينة آل راسكوم، إنه لم تعُد هناك حاجةٌ إليه. وأبلغَه رئيس العمال أن لديهم عددًا كبيرًا جدًّا من الرجال، لكن ذلك كان كذبًا صريحًا؛ لأنه وظف ستة رجالٍ جُددًا بعد ذلك. وكان السبب الحقيقي هو أن بِن كان اشتراكيًّا، وقد شارك في اجتماعات في بارادايس، وساعد على توزيع صحفٍ اشتراكية أظهرَت الخسائر الفادحة في صناعة النفط، والتنافس العالمي على النفط الذي كان سببًا في نشوب الحرب الكبرى التالية.

كانت روث هي التي أخبرت باني بهذا، بجدية بالغة، والضيق يملأ عينَيها اللطيفتَين. وقالت له: «إنه لأمرٌ مخزٍ يا باني؛ لأن بِن ليس لديه مكانٌ آخر يذهب إليه. فهنا لديه منزل وزوجة وفتاتان صغيرتان.»

كان باني منزعجًا أيضًا؛ فقد وعده الأب بعدم حدوث مثل هذه الأشياء!

توسلت إليه روث قائلةً: «ألا يمكنك فعل شيء حيال ذلك؟».

«حسنًا، لقد كان بِن عامل ضخ، وينتمي ذلك إلى قسم التشغيل، وأبي لا علاقة له إلا بأعمال التطوير. ولن يستطيع التدخل في شئون مشرف التشغيل.»

«إذن اطلب منه أن يمنح بِن وظيفةً لها علاقة بأعمال التطوير.»

«سأطلب منه يا روث، لكنني أعرف ما سيقول. إذا تعهد بتوفير وظائف للرجال الذين تريد الأقسام الأخرى التخلص منهم، فسيتسبَّب ذلك في إثارة استياء الجميع. أنتِ تعرفين مدى أهمية الحفاظ على أجواءٍ إيجابيةٍ داخل الشركة بالنسبة له.»

«نعم يا باني، ولكن ماذا عن شعور بِن وجميع الرجال؟» واصلت روث كلامها، بتلك القوة المدهشة التي يظهرها الأشخاص اللطفاء أحيانًا. لم تكن روث تفهم المسائل المجردة، ولم يكن لديها أيُّ نظرياتٍ حول «الصراع الطبقي»، ولكن عندما يتعلَّق الأمر بحقيقة إنسانية، أو بظلم، حينئذٍ تصبح مهووسةً بالأمر، وعاقدة العزم تمامًا مثل بول. فهؤلاء الرجال الذين جاءوا إلى الكابينة للجدال والمناقشة، كانوا جميعًا أصدقاء لها، وإذا لم يحصلوا على صفقةٍ عادلة، فلا بد من فعل شيء ما!

وهكذا وجد باني نفسه في معاناته القديمة؛ حيث يلعب دَور المتفرج على النزاعات ويعجز عن إيقافها، أو حتى التخفيف من حدَّتها! تمكَّن بِن رايلي من الحصول على عملٍ في إحدى المزارع، وكان عليه أن يعمل اثنتَي عشرة ساعةً في اليوم، لكنه رغم ذلك كان

يأتي ليلًا ويُوزِّع المنشورات الاشتراكية، وبالطبع كان يشعُر بمرارةٍ شديدة، يشاركه فيها أصدقاؤه.

عاد توم أكستون إلى حقل النفط لممارسة وظيفته كمُنظِّم للاتحاد، وحظي هو وبول وباني بمناقشاتٍ طويلة. فقد واجه اتحادُ عمالِ النفطِ مشكلةَ ما يجب فعلُه بشأن «البلاشفة»، تمامًا كما حدَث في كلية العمال. فلا يمكن أن تكون لديك مجموعةٌ كبيرة من العمال دون أن تضُم اشتراكيين وشيوعيين، ومن بينهم أعضاء «اتحاد عمال الصناعة في العالم»، وجميعهم منشغلون بالترويج لأفكارهم. كان بول يؤيد موقف أكستون، وهو أن أهمَّ شيءٍ في صناعة النفط هو إنقاذ الاتحاد؛ ولذا على جميع العمال التركيز على ذلك، وتجنُّب كل أسباب الانقسام. وافق الاشتراكيون والشيوعيون على المساعدة في تحقيق ذلك الأمر، ولكن مع تطوُّر النضال، لجأ أرباب العمل إلى الشرطة والمحاكم، ووجد عمال النفط، مثل جميع العمال الآخرين، أنهم لا يستطيعون البقاء بعيدًا عن السياسة، وسيتعيَّن عليهم السيطرة على الدولة الرأسمالية. حتى هذه اللحظة كان الاشتراكيون والشيوعيون متفقين على ذلك، ولكن حينئذٍ ظهر السؤال التالي، كيف يمكن تحقيق هذه السيطرة، وعلى الفور أصبح الوضع بين المجموعتَين يشبه الوضع بين أفراد آل مينزيس!

شكَّل «اتحاد عمال الصناعة في العالم»، كما أطلقوا على أنفسهم، مجموعة منفصلة من الرجال الذين ثاروا بسبب الفساد وغياب الرؤية في الاتحادات القديمة، وشكَّلوا منظمةً منافسة، باسم «الاتحاد الكبير»، كان من المقرَّر أن تضُم جميع العمال يومًا ما. لكنَّ قادةَ العمال العاديين كانوا يكرهونهم، وصوَّرَتهم الصحف على أنهم مجرمون وبلطجية. وعندما التقى باني بأحدهم، وجده شابًّا يتمسك بمبادئه وكأنه أحدُ الشهداء المسيحيين الأوائل. كان أعضاء «اتحاد عمال الصناعة في العالم» هؤلاء يتعرَّضون للملاحقة مثل الحيوانات البرية، بموجب «قانون تجريم الحركة النقابية» في كاليفورنيا، وكان كل شخصٍ يدخل إلى معسكرٍ خاصٍّ بالعمال أو مصنعٍ صناعي؛ عرضةً ليقبض عليه شرطي أو أحد «ثيران» الحراسة التابعين لإحدى الشركات، وكان مجرد إثباتِ أنك عضوٌ باتحاد عمال الصناعة في العالم يعني السجن لمدة أربعة عشر عامًا. ومع ذلك، كان الوضع مختلفًا في بارادايس؛ فقد كان لدى ستةٍ منهم «وَكْر» أو مكانٌ للتخييم في التلال، وكانوا يستدرجون العمال إلى اجتماعاتهم، وكان بإمكانك رؤيةُ وهج نار المخيم، وسماعُ الصدى الخافت للأغاني التي كانوا يغنُّونها من «كتاب الأغاني الأحمر الصغير». بالنسبة إلى باني كان هذا رومانسيًّا وغامضًا، وبالنسبة إلى الأب والسيد روسكو ومديري شركة روس

كونسوليديتد، كان الأمر كما لو أن هذا «الوَكْر» كان موجودًا في البنغال، والأصوات التي تنقلُها رياحُ الليل كانت صرخات النمور الآكلة للبشر!

٣

أصبح الدير بالنسبة لباني في الوقت الحالي وسيلةً للهروب السريع من هذه المشاكل وجميع المشاكل الأخرى. فهناك لم يكن أحدٌ يعاني من المشاكل، وإن حدث ذلك، فلن يُثْقِلوا كاهله بها! قالت آنابيل: «اعتبر المكان ناديَكَ الريفي؛ تعالَ متى شئت وارحل متى شئت. فخيولُنا بحاجة إلى من يمتطيها، وكتبُنا تريد من يقرؤها، ويمكنك الاستمتاعُ بالمحيط، فقط احذَر من المد والجزر!» لذلك كان باني يركض إلى هذا الملعب الجميل، وأحيانًا كانت ﭬي تريسي تُوجَد هناك، وفي حالة عدم وجودها كانت تظهر بعد بضع ساعات، بطريقةٍ غامضةٍ تمامًا.

كانت أكبرَ منه بعدة سنوات، أما فيما يخص خبرتها الحياتية فقد كانت أكبر منه بمائة عام. ومع ذلك، كانت رفيقةً جيدةً في اللهو. فقد كان عملها يتمحور حول أن تحافظ على شباب جسدها وروحها، وكانت هذه هي الطريقة التي تكسب بها رزقها؛ ولذا كانت تلهو طوال الوقت. وكان عليها أن تكدَّ في العيش، مثلما يكدُّ الرياضي في التدريب، والملاكم قبل المباراة. فمن يستطيع معرفة الفكرة الغريبة الأطوار التي قد تطرأ بعد ذلك على ذهنِ مؤلفِ رواية، أو «كاتبِ سيناريو»، أو مخرجٍ غير راضٍ عن تقدُّم الميلودراما؟ فربما تجد نفسها مقيدة بحصانٍ بري، أو بجذع شجرة في مصنع لنشر الأخشاب، أو تُجر بحبلٍ مربوطٍ بقاربٍ سريع، أو تتسلق برج كنيسة من الخارج. في العصور الماضية، في البلاد البربرية والمتحضرة، كانت مصاعب الحياة النسكية تُفرَض على النساء لأسبابٍ عديدةٍ غريبة، ولكن هل كان هناك على الإطلاق شيءٌ أكثر غرابةً من ظهورها أمام أعين الملايين، في صورة عذراءَ مذعورةٍ تنتزع نفسها من أيدي المختطفين الشهوانيين!

على أية حال، كانت رفيقةَ لهوٍ لشابٍّ مثاليٍّ يهرب من مشاكل الآخرين. وكانا يأخذان حصانَين من خيول آنابيل التي لا يمتطيها أحد، ويركبانهما من دون سرجٍ فوق التلال وصولًا إلى الشاطئ، ويركضان بهما حيث ترتدُّ الأمواج عن الشاطئ ويسبَحان بهما هناك، مما يثير حيرة الفُقمات، أو يطلقان العنان للحصانَين، ويتسابقان، ويمارسان بعض الشقلبات، كانت ﭬي تنطلق حتى تصل إلى الماء، وكأنها عاصفةٌ لها أطرافٌ بيضاءُ متطايرةٌ وشعرٌ أسود، وكانت الأمواج أقلَّ جموحًا من ضحكتها. بعد ذلك، كانا يجلسان،

ويستمتعان بأشعة الشمس، وتحكي له قصصًا عن هوليوود، ومن المؤكَّد أن الأمواج كانت أقلَّ جموحًا أيضًا من هذه القصص. فقد يحدث أي شيء في هوليوود، وبالفعل كان هناك العديد من الأحداث، وكانت فِي تعرف الأشخاص الذين يتعرضون لها.

كان باني عندما يرحل، يجد نفسه مفتونًا بشابةٍ ترتدي ملابسَ سباحةٍ كاشفةً تتكون من قطعةٍ واحدة، ولها جسدٌ قويٌّ رشيقٌ خفيفُ الحركة مفعمٌ بالحيوية. كان من الواضح أنها مُعجَبة به، وكان باني يستيقظ من أحلامه ويدرك أنه معجَبٌ بها. كان يفكِّر فيها في أوقات الدراسة، وكان تفكيره يتلخَّص في سؤالٍ واحد: «لمَ لا؟» وكان يردُّ عليه صدًى يحمل أصوات الأب والسيد روسكو وآنابيل إيمز وأصدقائهم: «لمَ لا؟» كان الشخص الوحيد الذي كان يجيبه بردٍّ مختلفٍ هو هنريتا آشلي، وللأسف، لم تعُد هنريتا الآن حتى مجرد ذكرى. فباني لم يعُد يزور البُحيرة الزرقاء، ولم يكن يتلو صلواتٍ من الكتب الصغيرة ذات اللونَين الأسود والذهبي.

كان باني يتصل بفِي تريسي عَبْر الهاتف، في الاستوديو أو في منزلها، وكانت دائمًا مستعدةً للهو. كانا يذهبان إلى أحد المطاعم حيث يتناول العاملون في مجال السينما العَشاء، ثم يتوجهان إلى واحدةٍ من دور السينما حيث تُعرض أفلام لنفس الأشخاص، وكانت تحكي له عن الحياة الخاصة لهؤلاء الأشخاص؛ قصص أغرب من تلك التي أُلِّفَت من أجلهم. وسرعان ما بدأ عالم السينما في نشر الشائعات، واحدةً تلو الأخرى. وقيل إن فِي تريسي على علاقة بأمير نفط مليونير، في غاية الثراء! وقيل إنه بلشفيٌّ ورومانسي أيضًا! وأعطت النظراتُ ونغماتُ الصوت التي واجهَها باني أصداءً جديدةً للسؤال الذي كان يطارده: «لمَ لا؟»

٤

بينما كانت فِي جالسةً على الشاطئ، ونصفُ جسَدها مدفونٌ في الرمال، أخبرَتْه شيئًا عن حياتها وهي تُحدِّق في المياه الزرقاء. «لا تتخيل أنني فتاةٌ بريئة، يا باني. فعندما دخلتُ هذا المجال، كان لديَّ طريقتي الخاصة في العمل، ودفعتُ الثمن، مثل أي فتاةٍ أخرى. لا تنخدع بالأكاذيب التي ستسمعُها بشأن ذلك؛ فلا تُوجد مُنتِجات نساء، ولا يُوجَد قديسون بين الرجال.»

فكر باني مليًّا في الأمر. وقال: «ألَا يكفيهم العثور على ممثلةٍ جيدة؟»

«يمكنها أن تكون ممثلة جيدة في النهار، وعشيقة جيدة في الليل، ويمكن للرجل الحصول على الأمرَين، وهذا ما يفعله.»

قال باني: «يبدو الأمر مروعًا إلى حدٍّ ما.»

«سأخبرك كيف يبدو الأمر، هناك منافسة شرسة في هذا المجال، وإذا كنت تريد المضي قدمًا، فلا شيء آخر يهم، ولا شيء آخر حقيقي. هكذا كان الحال معي؛ فقد كنت أتسكع حول أبواب الاستوديوهات عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري فقط، وكنت أتضور جوعًا وأتوق إلى الحصول على فرصة، لدرجة أنني كنت على استعداد لمضاجعة الشيطان لأتمكَّن من الدخول.»

جلست محدقةً في الأفق، ورأى باني، الذي كان يراقبها بطرف عينه، أن وجهها كان متجهمًا.

أضافَت قائلة: «هناك شيءٌ آخر أيضًا؛ فالفتاة تلتقي برجلٍ لديه الكثير من المال، ويمكنه أن يُقِلَّها في سيارةٍ كبيرة، ويشتري لها وجبةً جيدة، والكثير من الملابسِ الجميلة، ويُسكِنها في منزل، بالنسبة لها هو رجلٌ عظيم الشأن، من السهل أن تحسبه رائعًا. ومن الطبيعي أن ينتقدَني دعاةُ الأخلاق الذين لا يعرفون شيئًا عن طبيعة الأمر، لكن الحقيقة الواضحة هي أن الرجل الذي جاء بالمال، وقدَّم لي أول بدايةٍ حقيقيةٍ في الأفلام كان كإلهٍ لي، وكان من اللائق أن أعطِيَه ما يريد. كان عليَّ أن أعيشَ معه بضعةَ أشهُر، قبل أن أعرفَ أنه غبيٌّ أحمق.»

ساد الصمت لبرهة. ثم قالت لِي: «أظن أنك تتساءل لماذا أخبركَ بهذا. فأنا الآن في أمان، ولدَيَّ بعضُ المال في البنك، ويمكنني أن ألعب دَورَ سيدةِ المجتمع، وأتعامَل مع الآخرين بتعالٍ وأنسى الماضيَ القبيح. فأنَّى لكَ أن تعرف الحقيقة لو أخبرتكَ أنني عذراءُ بريئة؟ ولكنني قلتُ لنفسي: بحق الرب، إذا كان امتلاكُ المال يعني لي شيئًا، فهو يعني أنني لن أُضطَر إلى الكذبِ بعد الآن.»

قال باني: «أعرف رجلًا يقول ذلك. وقد أثَّر ذلك فيَّ كثيرًا. فأنا لم أقابل أحدًا مثلَه من قبلُ.»

«حسنًا، يجعلكَ هذا قاسيًا إلى حدٍّ ما. وقد تسبَّب ذلك في اكتسابي سمعةً سيئةً في عالم الأفلام، هل أخبركَ أحدٌ بذلك؟»

أجاب: «ليس الكثير.»

نظرت إليه بحدَّة. وقالت: «ماذا قالوا لك؟ أظن أنهم أخبروك بكل شيءٍ عن روبي واردن، أليس كذلك؟»

ابتسَم قائلًا: «ليس كل شيء. سمعتُ أنكِ كنتِ تُحبينه، وأنكِ كنتِ في حالة حدادٍ منذ ذلك الحين.»

«لقد جعلتُ من نفسي أضحوكةً مرتَين بسبب الرجال، كانت المرة الأخيرة بسبب روبي، وصدِّقني، ستبقى الأخيرة. لقد أنتج لي أفضلَ فيلم مثَّلتُه على الإطلاق، وكان في غاية الوسامة، وتوسَّل إليَّ لأتزوَّجه، وكنتُ أنوي ذلك حقًّا، لكنه كان طَوالَ الوقت يتسكَّع مع امرأتَين أو ثلاثٍ أخريات، وأردَتْه إحداهُن قتيلًا، وكانت تلك نهايةَ حُلمي الصغير المشرق. ولذلك لا، لستُ في حداد، بل في فرحٍ لأنني تجنَّبتُ الكثير من المتاعب. ولكن إذا كنت متشككةً بعضَ الشيء بشأن الحب، وأستخدم لغةً سوقية، فبإمكانك فهم السبب.»

نفضَت ڤِي جبلَ الرمالِ عن ساقَيها العاريتَين ووقفَت. وقالت: «هكذا أتخلَّص من الدهون»، ووضعَت يدَيها على الرمال الرطبة القوية، ووقفَت عليهما، وامتدَّت ساقاها البيضاوان النحيلتان بشكلٍ مستقيمٍ لأعلى، وكان وجهُها، وهو مقلوبٌ رأسًا على عقب، ينظُر إلى باني ويضحَك، ثم بدأَت تسير وهي في هذا الوضع خطواتٍ بطيئةً نحو الماء، ثم تشقلبَت وألقَت بنفسها في الماء، وهبطَت برشاقةٍ على قدمَيها واصطدمَت بالأمواج. وقالت: «تعالَ! المياهُ رائعة!»

٥

فكَّر باني في هذه المحادثة وتعلَّم منها درسًا عن التواضع. فقد كان على ڤِي أن تُناضِل من أجل نجاحها، بينما لم يُضطَرَّ باني مطلقًا للكفاح من أجل أي شيء. فلو أراد أن يعمل في مجال السينما، كان الأب سيتخذ الإجراءاتِ اللازمة، وستُفتح له أبواب الاستوديوهات على مصراعَيها. وينطبق الأمرُ ذاتُه على أي مهنةٍ أخرى قد يفكِّر فيها. فكيف له أن يحكُم على أحد؟

وبينما كان يستمع إلى ڤِي تريسي، تذكَّر يونيس هويت؛ مما جعلَه يعلم أنه ليس أفضل من ڤِي. فالناس لا يعرفون ما الصوابُ في الأمور المتعلقة بالجنس، أو على أية حال، إذا عرفوا ذلك، فلا يوضِّحونه. كان من غير المقبول الاضطرارُ إلى التفكير في علاقاتها السابقة، ولكن بعد ذلك، ساعد ذلك الأمرُ على تهدئة الوضع. فهي لم تكن تتوقَّع الزواج منه على الفور؛ فقد كانت هناك زيجاتٌ بين العاملين في مجال السينما، ولكن على ما يبدو لم يحدُث ذلك إلا بعد التأكُّد من أنهم كانوا سعداء. كما أن هذه المعرفة جعلَت باني على يقينٍ من أن ڤِي لن تنصدم، عندما تعلم أنه كان يحلُم بها.

كانا في الدير، وكانا قد انتهَيا للتو من رقصتهما، وخرجا إلى إحدى الشرفات، أو المنصات، أو الأروقة، أو أيًّا كان ما تدعو به الجزء الخارجي من الكاتدرائية. كان القمر ساطعًا، ذلك القمر الذي كان يسطع على باني ويونيس، وعلى باني ونينا جودريتش. انبعثَت من الداخل موسيقى الأرغن، وانبعثَت من الخارج رائحة الزهور، وقال باني لنفسه: «ماذا سأفعل حيال هذا؟» من المؤكَّد أن الوضع لن يستمرَّ هكذا؛ فقد كان يرتجف. ومع ذلك، بطريقةٍ ما، بدا معقودَ اللسان. فحتى هذه اللحظة، كان على جميع الفتيات أن يتقدَّمْنَ إليه، وكان ذلك سخيفًا تمامًا. ما خَطبُه بحق الجحيم؟

اقترح بصوتٍ متردِّد: «دعينا نرقص.» وقفَت فِي، ونهض هو الآخر، لقد كانا يرقصان قبل الخروج إلى هذه الشرفة أو الرواق أو المنصة أو أيًّا كان اسمها، والآن كانا سيرقصان مرةً أخرى، وبهذا كان الأمر سينتهي به، حرفيًّا، من حيث بدأ. لا، يجب ألَّا ينتهي الأمر هكذا! أصيب بنوبةِ يأسٍ مفاجئة، وبدلًا من احتضانها برفقٍ كما يحدث في الرقص، لفَّ ذراعَيه حولها بطريقةٍ جعلَت من المستحيل عليها أن ترقُص. كانت خطوةً فظَّة، لا تليق بطالبٍ بالسنة قبل الأخيرة وزعيم الموضة في جامعةٍ رفيعةِ المستوى. عرف باني ذلك، وكان في حالةٍ من الذعر. فهي لن تفهَم ما يدور بداخله، وستغضَب وتطرده!

لكن لا، لم تكن غاضبة، وبطريقةٍ ما، كانت قادرةً على فَهْمه. هناك مقولةٌ قديمةٌ تقول إن الأصابع كانت موجودةً قبل أدوات المائدة، ومن نفس المنطلق من الصحيح قولُ إن الأحضان تسبقُ الكلماتِ بوقتٍ طويل. أدرك باني أنها كانت تضُمه بقوة أيضًا بذراعَيها القويتَين، اللتَين كانتا قادرتَين على حملِها رأسًا على عقب في الهواء ونقلِها إلى الأمواج! كان كل شيءٍ على ما يُرام! قال هامسًا: «أوه، فِي! إذن أنتِ تهتمِّين لأمري حقًّا!» التقَت شفتاهما، ووقفا هناك في ضوء القمر، متلاصقَين، بينما ارتفع صوتُ موسيقى الأرغن إلى حد الصخب.

قال: «فِي، لقد كنتُ خائفًا جدًّا!» ضحكَت. وقالت: «أيها الفتى السخيف!» ولكن فجأةً سحبَت رأسَها إلى الوراء.

واستطردَت: «باني، أريد أن أتحدث معك. هناك شيءٌ يجب أن أخبرَك به. دعني أذهب وأجلس، من فضلك، لا، على ذلك الكرسي هناك! أريد أن نتحدَّث في هدوء.»

كان هناك خوفٌ في صوتها؛ ولذا فعل ما طلبَتْه منه. سألها: «ما الأمر يا فِي؟»

«أريد أن نكون عقلانيَّين، ونعيَ ما نفعله. يبدو لي أنه لا يُوجَد أحدٌ سعيد في الحب، وقد أقسمتُ مسبقًا أنني لن أقعَ في هذا الأمر مرةً أخرى أبدًا.»

«إذن عليكِ أن تحنثي بقسمك!» كانت عقدةُ لسان باني قد انفكَّت.

«أريد أن نَعِد أنفسنا بأننا سنكونُ سعيدَين! وإذا شعَرنا بعدم السعادة في أي وقت، فليترك أحدُنا الآخر، دون إثارة أيِّ ضجة! ولنكُن عقلانيَّين، ولا نغضب من الغَيرة، ويعذِّب أحدُنا الآخر.»

أعلن باني: «أنتِ تكفينني. وبالتأكيد لن أجعلكِ تشعرين بالغَيرة!»

«أنت لا تعرف ماذا ستفعل! لا أحد يعرف! إنه عملُ الشيطان، أوه، ليس لديك أيُّ فكرةٍ عما رأيتُه، يا باني! أنت مجرد طفلٍ بريء.»

«وأنتِ ستكونين جيدةً معي يا فِي، وترشدينني!»

«ما أدراكَ بما سأفعله؟ ماذا تعرف عني؟ تريدني، دون أن تعرف حقًّا ما أنا عليه أو ما سأفعله! كان بإمكاني أن أخبركَ بمليون كذبةٍ دون أن تدري. والمرأة التي ستأتي بعدي ستُخبركَ بمليون كذبة وكذبة دون أن تدري أيضًا.»

«هذا سهلٌ للغاية يا فِي، ستُخبرينني!»

جثا على ركبتَيه أمامها، وأمسك بإحدى يدَيها لتهدئتها، لكنها دفعَتها بعيدًا. «لا، لا أريدك أن تفعل ذلك. أريدك أن تفكِّر فيما أقوله. أريد أن نتخذ القرار بدمٍ بارد.»

ضحك قائلًا: «أنت تُجمِّدين الدم في عروقي، عندما تتحدَّثين عن ممثلات هوليوود المغريات!»

«باني، يجب على الرجل والمرأة أن يقول أحدُهما للآخر الحقيقة طَوالَ الوقت. يجب عليهما أن يثق أحدهما بالآخر كثيرًا، بغَض النظر عن مدى الألم الناجم عن ذلك. هل تتفق معي؟»

«أنتِ محقةٌ تمامًا.»

«إذا كان هذا يعني أن يتخلَّى أحدهما عن الآخر، فلا بأس بذلك، لكن يجب ألَّا يحافظ أحدُهما على الآخر بالأكاذيب. هل تُوافق على عقدِ هذه الصفقةِ يا باني؟»

«عن طيبِ خاطر.»

«وأريدُكَ أن تعرف أنني لا أريد أيًّا من أموالك.»

«ليس لديَّ أيُّ أموال يا فِي؛ فكلها أموال أبي. هذه هي الحقيقةُ المؤلمةُ الأولى.»

«حسنًا، لا أريدها. فلديَّ مالي الخاص، وسوف أعتَني بنفسي. لديَّ وظيفة، وأنتَ ستكون لديكَ وظيفتُك، وسيتمتَّع كلٌّ منا بمساحته الشخصية، ولن نلتقي إلا عندما يجعلُنا ذلك سعيدَين.»

«هذا سهلٌ للغاية على الرجل، يا فِي!»

«ستكون لعبة، وهذه هي قواعدها، وإذا انتهَكنا هذه القواعد، فسيُعتبَر غشًّا.»

أكَّد لها باني أنه لم يغشَّ في أي لعبةٍ مطلقًا، وأنه لن يغشَّ في هذه اللعبة. وبذلك تغلَّب على مخاوفها، وعادت إلى حضنه مرةً أخرى، وتبادلا تلك القبلاتِ الساحرة، التي بدا لبعض الوقت أن من المستحيل الاكتفاءَ منها. همسَت بعد قليل قائلة: «سيخرج أحدٌ إلى هنا يا باني. دعني أدخل، وسأرقص قليلًا، ثم أختلقُ عذرًا وأرحل، حينئذٍ اصعَد إلى غرفتي.»

٦

هل رآهما أحدٌ في ضوء القمر؟ أم هل باحت فِي بالسر لآنابيل؟ أم أنه مجرد ضوء السعادة الذي يشعُّ من عينَي الثنائي الشاب؟ على أية حال، كان واضحًا في اليوم التالي أن الخبر قد انتشَر، وكانت هناك أجواءٌ احتفاليةٌ في الدير. لكن لم يصل الأمرُ إلى حد رش الأرز على الاثنَين، أو رميهما بأحذيةٍ قديمة، أو ربط شرائطَ بيضاءَ بسيارتَيهما، ولكن كانت هناك ابتساماتٌ ودية ودُعاباتٌ ماكرةٌ كافية للحفاظ على روح المرح. بالطبع، كانت آنابيل مبتهجة، لقد خطَّطَت لهذا منذ البداية، واختارت أميرَ النفط الشاب هذا لصديقتها منذ اليوم الذي أخبَرها فيه فيرن عنه. أما فيرن، فيمكنكَ أن تتخيل أنه عندما بدأ بإلقاء النكاتِ حول هذا الموضوع، لم يترك مجالًا ليشُك أحدٌ بشأنِ ما حدث!

من الغريب أنه عندما عاد باني إلى الديار، وجد أن هذه الروحَ الخاصةَ بأزهار البرتقال والأشرطة البيضاء قد نُقِلَت بطريقةٍ غامضةٍ للأب. هل يمكن أن يكون فيرن، ذلك الوغد العجوز، هو الذي كلَّف نفسه عناء نقل الأخبار عَبْر الهاتف؟ فها هو الأب، وقد ارتسَم على وجهه شعورٌ بالارتياح، واستطاع باني قراءةَ كل أفكاره. كان الأب قد التقى بفِي تريسي، وأُعجِب بها جدًّا. فقد كانت نجمةً سينمائية بحق السماء، وكان هذا شيئًا يستحقُّ التباهي به! كانت هذه هي المهنة المناسبة لأمير النفط الشاب؛ حيث كانت تتماشَى مع طبقته الأرستقراطية! والآن سينشغل عقلُ باني بشيءٍ آخرَ غير هذه الأفكارِ البلشفيةِ الحمقاء!

بعد قليلٍ كان الأب يُحاول التلميحَ إلى الموضوع، بالقَدْر نفسه من اللباقة التي تتوقَّعها من وحيدِ قرنٍ كاملِ النمو! وبدأ حديثَه متسائلًا: «هل كانت فِي تريسي موجودةً

في الدير هذه المرة؟» وأضاف قائلًا: «إن هذه الفتاة مفعَمةٌ بالحيوية! أخبَرني فيرن أنها تحصُل على ما يصل إلى أربعة آلافٍ في الأسبوع، وهذا ليس كلام صحافة. فهي أذكى من جميع الممثِّلين الذكور مجتمعين، ولديها مدَّخرات، وتمتلكُ الكثير من الممتلكات في جميعِ أنحاءِ هوليوود. لقد أتَت إلى فيرن لتستشيره بشأن الاستثمار في شركة روس كونسوليديتد، وقد طلب منها أن تضع جميع مدخراتها، وبالفعل، أحضرَت له شيكًا بقيمة خمسين ألف دولار، وحصلَت على مجموعة من الأسهم بسعر الافتتاح، والآن أصبحَت تُساوي ثلاثة أضعاف ذلك، وقالت فِي إن فيرن أنقذها من ست عمليات اغتصاب!» ثم تابع وحيدُ القرن العجوز وأوضَح ما كانت فِي تقصده؛ أنها لن تُضطَر إلى التمثيل في ستة أفلام!

وبعد ذلك كانت هناك بيرتي، التي تلقَّت الأخبار على الفور؛ لأنه صادف أن مهرب الخمور الذي يتعامل معه تشارلي نورمان كان يحب أخت آنابيل إيمز. وعلى الفور، كانت لدى بيرتي رغبةٌ شديدةٌ لمقابلة فِي تريسي، وأمرَت باني بإحضارها لتناول الغداء. كانت فِي تشعُر بعدم الارتياح لهذا الأمر، قائلةً إن الأخوات عادةً ما يكون لهنَّ تأثيرٌ سيئ على أشقائهن فيما يخص عشيقاتهم. لكن باني ضحك وأخبرها أن لديه مناعةً ضد بيرتي. وهكذا التقيا، وسار كل شيءٍ بشكلٍ جميل؛ حيث كانت فِي متواضعةً ومتشوِّقةً لإرضاء الآخرين، وكانت بيرتي تلعب دور السيدة العظيمة، الكريمة للغاية. ودارت المقابلة وَفقًا لآداب اللباقة الاجتماعية؛ ففِي كانت مجرد ممثلة، بينما كانت بيرتي سيدةَ «مجتمع» حقيقية، وكانت أفعالها تظهر في جزءٍ مقدَّس من الصحيفة، نادرًا ما يظهر فيه الممثلون. وبعد مأدبة الغَداء، أخبرَت بيرتي شقيقها أن فِي كانَت جيدة، وربما ستُعلِّمه القليل من المنطق، وكان هذا أطيب شيءٍ قد تقوله أختٌ عن حبيبة أخيها.

وهكذا كانت الأمور تسير على ما يُرام. لم تعُد الأحلام تؤرِّق نوم باني؛ فقد أصبح الحُلم حقيقة، وهو الآن يستمتع به. عندما زارا الدير وُضِعا في غرفتَين متصلتَين، وعندما ذهب لزيارتها في منزلها الصغير، كانت مدبِّرة المنزل المسنة الكَتُوم تختفي بهدوء. أما في مجال صناعة الأفلام، فلم يُتداول شيءٌ آخر؛ فقد قيل بالفعل كل ما يمكن قولُه.

كان باني يتصل بفِي هاتفيًّا، وكانا يتقابلان في أيام السبت والعطلات الرسمية، ولكن في أيام الأسبوع، كانت فِي تقول: «لا يا باني، عليك البقاء في الديار والدراسة.»

وكان يجيبها: «أوه، يا إلهي، أنا متقدم على دروسي بأسبوعٍ كامل.»

«لكن يا باني، إذا جعلتُك تُهمِل دراستك، فسيغضبُ والدك مني!»

«أبي يحبكِ أكثر مني! ويعتقد أنكِ ألمعُ نجمةٍ في مجال السينما.»

«يجب ألَّا نبالغ في أفعالنا يا باني! سوف يؤنبك ضميرك، وسوف تلومني.»

«يا إلهي، فِي، أنت تتحكَّمين بي أكثر من تحكُّم آنابيل بروسكو.»

«حسنًا، دعني أخبرك شيئًا، إذا تمكَّنتُ من الحفاظ على أمير النفط الخاص بي لفترةٍ طويلةٍ كما احتفظَت آنابيل بأميرها، فسأعتبر نفسي امرأةً محظوظة!»

٧

عاد جريجور نيكولاييف من رحلته إلى ألاسكا، محملًا بمزيدٍ من المشاكل التي ستؤرِّق ضمير الشاب المثالي. كان جريجور هزيلًا، غائر العينَين، يشبه بول عندما عاد من سيبيريا. شاب أجنبي ساذج مسكين، كان قد أبحر على متن ما يُسمِّيه البحارة «أسطول الجحيم في المحيط الهادي»، ووجد نفسه محبوسًا في خليجٍ مهجور، تُحيط به الجبال من جانب والمحيط من الجانب الآخر، حيث أقام في ثكناتٍ أرضياتُها رطبة بسبب المد والجزر، ونام في أسرَّة تسكُنها الحشرات، وأكل طعامًا مثل ذلك الذي تقدِّمه سجون المقاطعة لنزلائها. بلا وسيلةٍ للهروب، إلا عن طريق السفن التي لن تقبل بصعودك على متنها! فبينما كان باني يمرح في المحيط الهادي مع فِي والفُقمات، كان جريجور على وشك إغراق نفسه في المحيط ذاته.

كذلك عادَت رايتشل مينزيس إلى الديار وهي تعاني المزيدَ من المشاكل؛ حيث كان هناك إضرابٌ لعمال الملابس! فبشكلٍ غيرِ متوقَّع وعفوي تمامًا، خرج مئات العمال، في منتصف يوم عملهم، بسبب التعرُّض لاضطهاداتٍ فاقَت الاحتمال، وانتشرَت الحركة في جميع أنحاء مدينة إنجِل سيتي، موطن «الجماعة المناهضة لفكرة الاتحادات». كان العمال يحتشدون في مكاتب الاتحاد ويسجِّلون أسماءهم، وكان النضال الجماهيري النظامي على قدمٍ وساق. لكن الأب مينزيس، أحد المثقَّفين بين المضربين، ورجل يتمتَّع بقوة وبصيرة، كان يجلس في المنزل مع زوجته العبرية الهائجة، التي كانت تتشبَّث بمعطفه الطويل وتندبُ قائلةً إنه إذا خرج وشارك في الإضراب، فستقبض عليه الشرطة وترسله إلى بولندا حيث سيُقتَل رميًا بالرصاص، ولن يرى عائلته مرةً أخرى أبدًا!

نتيجةً لهذا الإضراب، لم تكن رايتشل ستتمكَّن من القدوم إلى الجامعة. ولم يستطع باني، الشاب الأنيق الذي يعيش في رفاهية، ولم يعرف قَط معنى الحاجة إلى المال في حياته، فَهْم ذلك، وكان لا بد من إخباره بكلماتٍ واضحةٍ أن عائلة رايتشل كانت تقدم تضحياتٍ من أجل حصولها على التعليم، وقد أُلغيَت كل هذه الخطَط. بالطبع أراد باني

أن يطلب المساعدة من الأب؛ فما فائدة أن يكون لديك أبٌ ثري، إذا كنتَ لا تستطيعُ مساعدةَ أصدقائك في أزماتهم؟ لكن رايتشل رفضَت؛ فقد كانوا دائمًا مُستقلِّين، ولم تكُن لتفكِّر في شيءٍ كهذا، وسيتعيَّن عليها الاعتذار عن حضور فصلٍ دراسي في الجامعة.

صاح باني: «ولكن حينئذٍ لن تكوني في صفِّي!» وأدرك فجأةً مدى حاجتِه إلى مضادٍّ للسموم للقضاء على بلادةِ ثقافةِ جامعةِ جنوب المحيط الهادي!

أجابت برصانة: «هذا لطفٌ منك يا سيد روس. ولكن ربما يمكنكَ حضورُ اجتماعات الاشتراكيين المحليين.»

«ولكنني يمكنني حقًّا الحصولُ على المال دون أدنى مشكلة، وليس عليكِ أن تعتبريه هدية، يمكنكِ ردُّه عندما تريدين ذلك. ألن يكون من الأسهل كَسْب المال إذا كان لديكِ شهادةٌ جامعية؟»

أقرَّت رايتشل بذلك؛ فقد كانت تنوي العمل أخصائيةً اجتماعية، وقد جاءت إلى هذه الجامعة حيث كانت هناك دوراتٌ متخصصة من شأنها أن تساعدها في الحصول على مثل هذه المهنة. توسَّل إليها باني أن تأخذ أموال الأب، دون أي قيود على الإطلاق، وبإمكانها أن تدفع له عشرةً أو عشرين دولارًا شهريًّا من راتبها المستقبلي. لكن رايتشل كانت عنيدة، وكان لديها دافعٌ غريبٌ ناجم عن «وعيها الطبقي». شعَر باني بحماسٍ شديدٍ حيال ذلك الأمر لدرجة أنه دون أن يقول لها أي شيء، ركب سيارتَه وتوجَّه إلى منزل آل مينزيس. كان لديه العنوان في دفتر ملاحظاته، ولم يخطُر بباله أنها أو عائلتها قد يشعُرون بالحرج من رؤيته للحال التي كانوا عليها في حيٍّ فقيرٍ بائس، مكدَّسين في منزلٍ صغيرٍ مكوَّن من ثلاث غرف في الجزء الخلفي من قطعة أرض، دون وجود أي خضرة في الأفق. كان المنزل مستأجرًا؛ فقد استثمر الأب مينزيس أموالَه في الاشتراكية، بدلًا من العقارات والشجيرات. وجده باني في غرفةٍ أماميةٍ مزدحمة بالأثاث والكتب؛ حيث كان يخيط بعض الملابس، وأمامه بقايا وجبةٍ من الخبز والسمك المملَّح، والنسخُ الأولية لمقالٍ كان يُجهِّزه من أجل نشرة الإضراب، وسيدةٌ يهوديةٌ عجوزٌ سمينة تندفع في ذعر، محاولةً إخفاء الأشياء عن أنظار هذا الزائر الأنيق المثير للقلق.

لم ينزعج الرجل المُسِن من أيٍّ من ذلك؛ فقد اعتاد الارتباك، وكان كل تفكيره منشغلًا بالإضراب. تحدث مع باني عن الإضراب، وقرأ عليه مقالته، التي كانت عبارةً عن بيانٍ مريرٍ لمظالم عمال الملابس. ثم انتقل باني إلى الحديث عن مسألة رايتشل وتعليمها، وأصَر على أن يقنع خاييم مينزيس ابنتَه بعدم التخلِّي عن حياتها المهنية. جلسَت السيدة

مينزيس، تحدِّق بعينَيها الداكنتَين الكبيرتَين، وتحاول فَهْم الأمر، وفجأةً تدفق من فمها بمنتهى الحماس سيلٌ من الكلمات المنطوقة باللغة اليديشية، التي كان من الجيد أن باني لم يتمكَّن من فهم كلمةٍ واحدة منها. فالأم مينزيس لم تكن تثق في هذا الشاب الوسيم، بل إنها افترضَت أسوأ احتمالٍ ممكنٍ لزيارته، وتخيَّلَت أنه كان يحاول استدراج ابنتِهما إلى الخطيئة، وربما كان قد فعَل ذلك بالفعل؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يعرف نوع الحياة التي كانت تعيشُها، مع كل هذه الأفكار الملحدة والاشتراكية في رأسها، والذهاب إلى كليةٍ يُديرها مجموعة من المسيحيين!

طلب منها الأب مينزيس بحزم أن تُمسِك عليها لسانها، وهو ما كان من المفترض أن تفعله وفقًا للشريعة اليهودية، ولكن يبدو أنها لم تكن ملتزمةً بكل قواعد شريعتِها اليهودية شأنها في ذلك شأن المسيحيين. ووسط هذا السيل من اللغة اليديشية، شكر خاييم باني على لطفه، وأوضح أن ما كان يُقلِق رايتشل هو الوقت العصيب الذي ستشهَده الأسرة أثناء الإضراب. وإذا كان باني يريد مساعدة العائلة، فسيكون حينئذٍ من السهل على رايتشل أن تُساعِد نفسها. وتصافَحا، وعاد باني إلى المنزل ليُخبِر الأب أنه قد اضطلَع بمسئولية دعمِ عددٍ من عمال الملابس اليهود!

٨

عاد باني إلى جامعة جنوب المحيط الهادي. كان هذا هو المكان الذي يبذل فيه أقلَّ قَدْر من المقاومة؛ حيث كان يلعب دورًا لطيفًا، بسيطًا، مشرفًا، ومريحًا للأعصاب. فهناك كان شخصًا وسيمًا وثريًّا، يعرف كيف يؤثِّر على الأساتذة، وبإمكانه تدبُّر أموره دون الاضطرار إلى عمل أي شيءٍ على الإطلاق، وكان لديه متَّسَع من الوقت لقراءة الدعاية البلشفية، ومشاهدة الإضرابات التي تحدث، وأيضًا التجوُّل في المدينة مع نجمةٍ سينمائية، وقيادة السيارة وتناول الطعام والرقص معها، ومرافقتها إلى حفلات نهاية الأسبوع التي يحضرها نخبة هوليوود.

وربما حتى كان سيتسنى له وقتٌ لزيارة الاستوديو ومشاهدتها وهي تعمل على فيلمها الجديد، لكنها لم تكُن تسمح له بفعل هذا. فقد كانت تُحبه كثيرًا، ولم تكن تستطيع التركيز وهو ينظر إليها. قالت إنه علاوةً على ذلك كان عملُها فظيعًا، وجميعُ أفلامها كانت فظيعة، وإن باني لن يعجبه ما كانت تفعله. فبالنسبة لها كان الأمر مجرد وسيلة لكسب العيش، وكان عليها أن تفعل ما يقوله لها الآخرون، لم يكن لعملها أي

علاقةٍ بالحياة، وقد يظن باني، الذي كان جادًّا ومتعلمًا، أنه شيءٌ صبياني، أو أسوأ من ذلك. كانت تُحب جديته، وكان عزيزًا عليها، وتعتبرُه واحدًا من الرجال القلائل الذين يمكنهم حقًّا أن يخبروها شيئًا عن العالم؛ ولذا يجب أن يستمرَّ على هذا النحو، دون الاهتمام بأفلامها.

شعَر باني بأن ثمَّة شيئًا غامضًا بعض الشيء؛ فقد كان اعتراضُها مبالغًا فيه. وسرعان ما اكتشف السبب، في بعض الإشاعات حول عالم السينما التي امتلأَت بها صفحاتٌ وصفحاتٌ من الصحف. فقد كانت فِي تريسي تعمل على فيلم عن روسيا! وكان من المقرَّر أن تلعب دور أميرةٍ جميلةٍ من النظام القديم، علقَت في خِضَم عاصفة الثورة، وسقطَت في أيدي البلاشفة؛ حيث تقوم بواحدة من «عمليات هروبها» الشهيرة بمساعدة شابٍّ أمريكيٍّ وسيم من رجال المخابرات الأمريكية! كانت فِي تعمل على هذا الفيلم طوال الأشهر الستة الماضية، وفي منتصف تلك المدة، اتخذَت لنفسها عشيقًا «بلشفيًّا» التقت به في إحدى قاعات الاستقبال، والآن كانت تخشى أن تُخبره بما كانت تفعله!

كان باني المسكين يبذل جهودًا جادةً ومتفانية؛ لاتباع مجموعتَين متعارضتَين من الأفكار في وقتٍ واحد، وكأنه كان يُحاول امتطاء حصانَين في الوقت نفسه! ولكن ظل الحصانان يبتعدان أكثر فأكثر حتى انقسَم إلى نصفَين! فقد كان ذهنه منشغلًا بإضراب عمال الملابس، الذي عكَّر صفو أول مدينة في أمريكا تضُم «جماعة مناهضة لفكرة الاتحادات». لقد مثَّل ذلك الإضراب ذروة سلسلةٍ من الاضطرابات بدأَت بإضراب عمال الترام، ثم النجارين، وكان من الواضح أن برنامج البلاشفة «الذي كان يُروج له من الداخل» كان يحقِّق نجاحًا مرعبًا، وكان لا بد من إيقاف الأمر نهائيًّا وبلا رجعة. ولذا أصدر مجلس المدينة قانونًا لمكافحة الاعتصام؛ حيث كان يحظر على أي شخصٍ حتى أن يصنع تعبيراتٍ مسيئةً بوجهه أمام المكان الذي كان فيه إضراب. ونظرًا لأن وجوه عمال الملابس لم تكن كلها ذات جمالٍ طبيعي، فقد كان هناك الكثير من الانتهاكات لهذا القانون، وسرعان ما امتلأَت الصحف بتقارير عن أعمال الشغب، التي قمعَتْها الشرطة ببسالة. وكان جزءٌ من منهج باني الدراسي في الجامعة هو جَعْل رايتشل مينزيس تصف له، ولبقية «مجموعة البلاشفة» كيف ألقت الشرطة القبض على الفتيات اللاتي لم يفعلْنَ شيئًا سوى المشي جيئةً وذهابًا في الشارع في أزواج، واحتجزتهنَّ عن طريق ليِّ أذرعهنَّ بعنف.

في صباح أحد الأيام، لم تحضُر رايتشل إلى الصف، وفي اليوم التالي وصلَت إلى باني ملاحظةٌ تخبره أن جيكوب مينزيس قد تعرَّض للضرب بالهراوات، حتى كاد يفقد الوعي

بين المعتصمين. كان جيكوب هو الأخ «اليميني»، الشاحب، المنحني الكتفَين، الذي كان يكسب مصاريفَ تعليمِه عن طريق كيِّ سراويل الطلاب، وكان باني قد خرج عن القاعدة الآمنة المتمثلة في تفادي مشاكل الآخرين، لدرجة أنه شعَر أن من واجبه الذهاب إلى منزل آل مينزيس، وقد تأثَّرَت مشاعره برؤية جيكوب مينزيس مستلقيًا في الفراش، لونُه شاحب مثل لون الملاءات، وحول رأسه عمامةٌ هندوسية. كانت الدموع تنهمر على خدَّي الأم مينزيس التي كانت تنُوح دون توقُّف بكلمةٍ يديشيةٍ واحدة، تمكَّن باني من فهمها «أوي! أوي! أوي!» التي كانت تعني «يا إلهي!». لم يكن الأب خاييم مينزيس موجودًا بالمنزل؛ فقد انقطع معطفُه الطويل وهو يُفلِت من قبضة زوجته، وكان في مقرِّ الإضراب يؤدي واجبه.

بعد ظهر اليوم التالي، بعد انتهاء باني من دروسه، رأى في كشك بيع الصحف صحيفة «إيفينينج بوستر» بلونها الأخضر المألوف، ولفَت انتباهَه العناوينُ الرئيسيةُ المتأججة، كما كان من المفترض أن تفعل، التي نصَّت على ما يلي:

الشرطة تُداهِم مقر البلاشفة

لذلك اشترى باني الصحيفة، كما كان ينبغي أن يفعل، وقرأ كيف اجتاحت فرقةٌ من مركز قيادة الشرطة في ذلك الصباح غرفَ اتحاد عمال الملابس، وأخذَت ما يقرب من حمولةِ شاحنةٍ من الوثائق، التي كان من المتوقع أن تُثبِت أن الاضطرابات في قطاع الصناعة بالمدينة كانت موجَّهة ومموَّلة من قِبَل الثوار البلاشفة في موسكو. واعتُقِل مسئولو الاتحاد، وكان من ضمن هؤلاء المعتقلين خاييم مينزيس، «المحرِّض الاشتراكي الذي اعترف على نفسه».

٩

وبذلك ظهرَت وظيفةٌ أخرى لباني. لكنه لم يكن يعرف تمامًا كيفية التعامُل معها، وكان الأب في طريقه إلى بارادايس، ولم يكن من الممكن استشارتُه. ولذلك ذهب باني لمقابلة محامي الأب، السيد دوليفر، وهو رجلٌ حادُّ الذكاء، معسولُ الكلام، وبالرغم من عدم تعاطُفه مع البلاشفة، كان مثل جميع المحامين مستعدًّا لأي مشكلةٍ غريبة قد يجلبها إليه موكِّلوه الأثرياء. واتصل هاتفيًّا بمقر الشرطة، وتأكَّد من أن المحرِّض الاشتراكي الذي اعترف على نفسه سيُستدعى في اليوم التالي، وسُتحدَّد الكفالة في ذلك الوقت، وسيُترك

لباني أمر الدفع نقدًا، أو في صورة سندات عقاريةٍ تُساوي قيمتُها ضعف المبلغ. طلب باني رؤية السجين، وأخبره السيد دوليفر أنه يعرف قائد الشرطة، وربما يكون قادرًا على ترتيب ذلك.

كتَب ملاحظة، وذهب باني إلى المبنى القديم القذِر الذي كان قد شُيِّد لخدمةِ مدينةٍ يبلُغ تعداد سكانها خمسين ألف نسمة، لكنه يخدم الآن مدينةً وصل تعداد سكانها إلى مليون نسمة. كان قائد الشرطة شخصًا قويَّ البنية يرتدي ملابسَ مدنية، وتفوح منه رائحةُ الويسكي المدني بقوة، طلب من باني الجلوس، واستدعى اثنَين من المحققين، وبذل مجهودًا واضحًا لمعرفة كل ما يعرفه باني عن خاييم مينزيس، وأفكار باني، وأفكار خاييم. وقدَّم باني، الذي كان ينضجُ بسرعة في عالمٍ قبيح، عرضًا مصاغًا بعناية يوضِّح فيه الفرقَ بين التوجُّهَين اليميني واليساري للحركة الاشتراكية. وعندما اكتشف قائد الشرطة أنه لا يمكن الإيقاع به في شَرَك الحماقات الطائشة، وعلمًا منه بأنه ابن مليونير، ولا يمكن إلقاؤه في زنزانة، استسلم قائد الشرطة، وطلب من أحد المحقِّقين أن يأخذه لرؤية السجين.

وهكذا تسنَّى لباني أن يلقي نظرةً خاطفةً على سجن مدينته. كان المبنى القديم متصدعًا، وأقرَّت ست لجان متتالية بأنه يُشكِّل خطرًا على حياة المتواجدين به؛ ومع ذلك، فقد كان بمثابة نُصبٍ تذكاري لجشع سماسرة العقارات، الذين لم يهتمُّوا مطلقًا بسمعة المدينة الطيبة، مقابل أن يكون معدَّل الضرائب منخفضًا. كان المكانُ القديمُ المتعفِّن كريهَ الرائحة، وإذا نظرتَ بعناية، فقد ترى حشراتٍ تزحف على الجدران. حُبس السجناء في عددٍ من «الزنزانات»، وهي عبارةٌ عن أقفاصٍ ذاتِ قضبانٍ فولاذيةٍ يضُم كلٌّ منها ثلاثينَ أو أربعين رجلًا، دون أن يدخلها شعاعٌ من ضوء النهار، ولا يُوجَد بها ما يكفي من الضوء الصناعي ليتمكَّن أي شخص من القراءة. بدت هذه المدينة، التي يُطلق عليها بشكلٍ غريبٍ اسم «إنجِل» (أي المَلَاك باللغة الإنجليزية)، حريصةً على زرع كل الرذائل المحتَمَلة في ضحاياها؛ لأنها لم تُوفِّر لهم أي مادة للقراءة، أو حتى إمكانية التريُّض والترفيه عن النفس، لكنها سمحَت لهم بالحصول على البطاقات والنرد والسجائر، وكان السجَّانون يُهرِّبون سرًّا الويسكي والكوكايين لأولئك الذين كان بإمكانهم دفع الرشاوى.

في إحدى هذه الزنزانات جلس الأب مينزيس على الأرض؛ حيث لم يكن هناك مكانٌ آخر للجلوس عليه. بدا راضيًا تمامًا، بعد أن تجمَّع حوله جميع المسجونين بالزنزانة، ليسمعوا عن نضال عمال الملابس، وكيف أنه كان في يد الكادحين في العالم تنظيمُ النظام

الرأسمالي وإلغاؤه. عندما ظهَر باني، قفز الرجل المسن وأمسك بيده؛ حينئذٍ قال باني بسرعة: «سيد مينزيس، عليك أن تعلم أن هذا السيد الذي يرافقني محقِّق.»

ابتسم الأب مينزيس. وقال: «لا عليك؛ فليس لديَّ ما أُخفيه. لقد كنتُ عضوًا في الحزب الاشتراكي لمدة عشرين عامًا. وأُومِن بصندوق الاقتراع، ولن يجدوا شيئًا يُثبِت عكس ذلك، ما لم يختلقوا هم شيئًا. لقد كنتُ أخبِر هؤلاء الأولاد عن ماهية الاشتراكية، ويمكنني أن أخبِر هذا الرجل، إذا كان يريد أن يسمع. فقد كنتُ أساعد عمال الملابس على الوقوف معًا للحصول على ظروفِ عملٍ كريمة، وسأواصل هذا الأمر بمجرَّد خروجي من هنا.» وكان هذا كل ما دار في المقابلة!

في المساء اتصل باني هاتفيًّا بوالده وأخبرَه بالوضع. كان باني معتادًا على التوقيع باسم والده على شيكاتٍ بأي مبالغ، وكان حريصًا على عدم إساءة استخدام هذا الامتياز، لكنه الآن كان ينوي سحب خمسة عشر ألف دولار؛ لأنهم ربما سيُحدِّدون كفالةً كبيرة، على أمل إبقاء الرجل العجوز في السجن حتى فَضِّ الإضراب. أعلن باني أن هذا الأمر لا ينطوي على أي خطر؛ لأن مينزيس كان رجلًا شريفًا، ولن يهرب.

ظهر الامتعاضُ على وجه الأب، لكن لم يكن بإمكانه فعلُ شيء. فقد كان ابنه الحبيب مستشاطًا غضبًا، وأصَر على أنه كان ملمًّا بكل أبعاد الأمر، وأنه لم يكن هناك أي احتمالٍ على الإطلاق أن يكون عامل الملابس المسن هذا عميلًا سريًّا للحكومة السوفييتية، زُرِع عمدًا في مدينة إنجِل سيتي لتدمير المؤسَّسات الأمريكية. لم يستطع الأب تخيُّل أنَّى لباني معرفةُ مثل هذه الأشياء، لكنه لم يرَ ابنه على هذا القَدْر من الانفعال من قبلُ، وأخيرًا وافَق على المبلغ، ولكنه سيطلُب من السيد دوليفر إرسالَ شخصٍ ما إلى المحكمة مع المال، حتى لا يُنشَر اسمُ باني في الصحف مرةً أخرى.

١٠

عُولج الموقف كما أمر الأب، وذهب أحد موظفي المحامي إلى المحكمة، وعاد وأخبرهم أن السجناء قد مثَلوا أمام المحكمة، لكن خاييم مينزيس لم يكن بينهم. فقد تولَّت السلطات الفيدرالية قضيته؛ حيث تبيَّن أنه وُلد في بولندا الروسية، وكان من المقترح إلغاءُ أوراقِ تجنيسِه وترحيلُه. ونُقل خاييم إلى سجن المقاطعة، وهو مبنًى آخرُ آيلٌ للسقوط، قذرٌ ومتسخٌ تمامًا مثل سجن المدينة. لم يعُد هناك أي شيءٍ يمكن فعله حيال ذلك؛ لأنه في قضايا الترحيل هذه كانت المحاكم ترفُض التدخل؛ حيث تعتبرها مسائلَ إدارية. وقد

فشلَت محاولاتُ المدعي العام الديمقراطي للترشح لمنصب الرئيس من خلال حملته ضد البلاشفة، لكن الآلية التي كان قد أنشأها كانت لا تزال تتسبَّب في معاناة المذنبين والأبرياء على حدٍّ سواء.

لذلك كان باني يواجه مشكلةً حقيقية! وفي منزل آل مينزيس كانت رايتشل تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بوجهٍ شاحب، والأم مينزيس تنتحب وتمزِّق ملابسها. كان من المستحيل حتى إيصال كلمة إلى خاييم المسكين؛ فقد كان «معزولًا عن العالم الخارجي»، وفي الواقع، قد يكون بالفعل على متن قطارٍ متجهٍ إلى الشرق. وحينئذٍ لن تكون هناك أيُّ فرصةٍ له على الإطلاق؛ حيث سيُلقى به على متن باخرةٍ متجهةٍ إلى دانتزيج، وهناك سيُسلَّم إلى حركة «الإرهاب الأبيض» البولندية.

أصَر باني على ضرورة محاولة فعل شيءٍ ما؛ ولذلك استدعى السيد دوليفر اثنَين من المحامين الأعلى تكلفةً منه، على حساب الأب، وناقشوا أوامر المثول أمام المحكمة والأوامر الزجرية وغيرها من المصطلحات الغامضة، وأعدُّوا الكثير من الأوراق وحاولوا في أكثر من محكمة، ولكن دون جدوى. في هذه الأثناء، استجابةً لأوامرَ هائجةٍ من ابنه، كسَر الأب قوانين السرعة في بارادايس، وعندما وصل، كان باني وصديقتُه اليهودية في انتظاره في الشرفة الأمامية لمنزله. أخذاه إلى غرفة مكتبه وأرغماه على الاستماع إلى محاضرةٍ طويلة حول الفرق بين الجناحَين اليميني واليساري في الحركة الاشتراكية، مع وصفٍ كاملٍ لأنشطة المسئول عن المنشورات في الحزب الاشتراكي. وفي وسط ذلك انفجرَت رايتشل في البكاء، وانهارت على الأريكة، فذهب إليها الأب، الذي لم يكن في حقيقة الأمر أكثرَ قدرةً من باني على تحمُّل رؤية امرأة تبكي، وربَّت على كتفها، وقال: «اهدئي، أيتها الفتاة الصغيرة، لا عليك! سأخرجه، حتى لو اضطُررتُ إلى إرسال أحد إلى نيويورك!»

وهكذا رحل الأب مسرعًا بسيارته. كان ذلك قرب وقت الغداء، وقبل الساعة الثالثة بقليل من اليوم نفسه، خرج خاييم نفسُه من سيارة أجرة أمام مسكن آل مينزيس، كان قذرًا غيرَ حليق، لكنه كان مبتسمًا وهادئًا، ومستعدًّا لمواصلة جهوده من أجل «عمال الملابس»! لم يكن لديه أدنى فكرة عن كيفية حدوث ذلك؛ حيث لم يتطوَّع حُراس سجن المقاطعة بتقديم أي معلوماتٍ عندما أطلقوا سراحه، ولم يتوقف خاييم لطرح الأسئلة. لم يعرف قطُّ ما حدث، ولا حتى ابنته؛ لأن ما قاله الأب لباني كان سريًّا تمامًا، وهو جزءٌ من التقاليد السرية لرجال النفط.

«ماذا فعلت؟ لقد اتصلتُ بصديقٍ قديمٍ لنا، بن سكوت.»

«بن سكوت!» لم يفكِّر باني في «صائد عقود الإيجار» لسنوات.

«نعم؛ فبن يتولى منصبًا رفيعًا في الدفاع الآن، وقد فعَل ذلك من أجلي.»

«بماذا أخبرتَه؟»

«أخبرتُه؟ لم أخبره شيئًا. قلتُ له سأعطيك ألف دولار.»

«ألف ماذا؟»

«هكذا يعمل أمثاله. أعطيتُه خمسمائة دولار، وقلتُ له: «اذهب يا بن لمقابلة الرجل الذي يحتجز هذا اليهودي المسن في السجن واطلب منه أن يُطلِق سراحه، ثم عد إليَّ وسأعطيك خمسمائة دولارٍ أخرى»!»

قال باني: «يا إلهي!».

وأخذ الأب بضعةَ أنفاسٍ من سيجاره الكبير. «الآن تفهم لماذا يجبُ علينا نحن العاملين بمجال النفط الانخراطُ في السياسة!»

١١

إلى جانب استكمال تعليم باني السياسي، كانت هذه الحادثة مهمةً بالنسبة له من ناحيةٍ أخرى؛ فقد كانت سببًا في تولي ڤِي تريسي إدارةَ حياته. اتصل روس الأب بالنجمة السينمائية عَبْر الهاتف في ذلك المساء، وقال لها: «اسمعي، يا ڤِي، أنت لا تؤدِّين دوركِ كما ينبغي!»

«ماذا تقصد يا سيد روس؟»

قال الصوت: «ناديني بالأب، وما أعنيه هو أنكِ لا تعتنين بابني كما أردتُ منكِ أن تفعلي. لقد وقع في مشاكل مع هؤلاء البلاشفة مرةً أخرى، وكل هذا بسببِ عدمِ مقابلتكِ له كثيرًا.»

«لكن يا سيدي، أعني أيها الأب، كنتُ أحاول أن أجعلَه يدرُس، لقد ظننتُ أن هذا ما كنتَ تريده.»

«حسنًا، فلتنسَي أمر دراسته؛ فهذا كله هراء، ولن يفيده كثيرًا، علاوةً على أنه لا يهتم بها حقًّا، فهو يذهب إلى اجتماعات الاشتراكيين، ومن الأفضل أن يكون معكِ.»

«يا إلهي!» ارتعش صوتُ ڤِي قليلًا. «لا يُوجد شيءٌ أحب إليَّ من ذلك! فأنا أعشَق هذا الفتى!»

«حسنًا، خذيه تحت جناحكِ واجعليه بقربكِ، وإذا تمكنتِ من تخليصه من هؤلاء البلاشفة، فسوف أتذكركِ في وصيتي.»

وهكذا وجد باني بعد ذلك أن بإمكانه الحصول على موعد مع حبيبته في أي ساعةٍ من النهار أو الليل. لم تُخبره قط بالسبب، لا؛ ففكرتها عن قول الحقيقة لم تصل إلى هذا الحد! لقد جعلَته يحسب أن ذلك كان بسبب سحره الطاغي، وقد رضيَت أنانيتُه الذكورية بهذا التفسير. وعند المقاومة كانت تقدِّم ادعاءاتٍ ضعيفة. «أوه، باني، سيظن والدك أنني أضيع وقتك، وسيدعونني بالمرأة اللعوب!» فيجيبها باني قائلًا: «يا لكِ من ساذجة! إنه يعلم أنني إن لم أكن معكِ، فقد أكون في أحد الاجتماعاتِ الاشتراكية.»

كانا في غاية السعادة! يستمتعان بنشوة الروحَين الشابتَين الغضتَين والجسدَين الشابَّين النضرَين، المتشوِّقَين، المرتعشَين! لقد غمر حبُّهما كامل كيانهما، وأصبح كل شيء ساحرًا، بدءًا من أصواتهما، وإيماءات أيديهما، وحتى الملابس التي كانا يرتديانها، والسيارات التي كانا يقودانها، والمنازل التي كانا يعيشان فيها، كانا لا ينفصلان حتى إن عاملات الهاتف أُصِبنَ بالإرهاق لإبقائهما على تواصل. أصبح باني ما كان يُعرف في العامية في ذلك الوقت باسم «سائق بذراعٍ واحدة»؛ كما درَس فنون تملُّق الأساتذة والاعتذار عن المحاضرات. كان ضميره مرتاحًا؛ لأنه أدى واجبه تجاه الحركة الاشتراكية، بهذه «الألف دولار» من الأب. علاوةً على ذلك، انتهى الإضراب، وحصل عمال الملابس على بعض الامتيازات، وأُطلق سراح القادة، ونَسيَت الصحف ما وعدَت به من «تسريبات موسكو» ومن ثَمَّ نسي الجميع.

كانت ڤِي لا تزال لا تسمح لباني بالحضور إلى الاستوديو حيث كانت تعمل. ربما من الممكن أن يأتي في الفيلم القادم، لكن ليس هذا الفيلم؛ فهو والبلاشفة لن يعجبهم الفيلم، وعليه أن يؤجل رؤيته لأطول فترةٍ ممكنة. ولكن كل ما تبقَّى من وقتها كان له، كل لحظةٍ ثمينةٍ منه! كانت مدبرة المنزل المسنَّة تتلقى خمسةَ دولاراتٍ بين الحين والآخر، وكانت لا تسمع ولا ترى شيئًا وبالطبع لا تنقل أيًّا مما يحدث. كانت غرفة ڤِي هي الغرفة الوحيدة في الطابق العلوي للمنزل، وكانت جوانب الغرفة الأربعة بها نوافذ يكلِّلها اللبلاب، ومن الداخل كانت بيضاءَ اللون، وكأنها تعريشةٌ ساحرة. هنا كان أحدهما يصبح مِلكًا للآخر، وكانت دموع النشوة تنهمر من عينَي ڤِي. «أوه، باني، باني! أقسمتُ أنني لن أفعل هذا أبدًا، وها أنا أقع في الحب على نحوٍ أسوأ مما حلمتُ به! باني، إذا هجرتَني، فسأموت!»

كان يقهر مخاوفَها بالقبلات، وكان ذلك كتطبيقٍ لمقولةٍ قديمةٍ أخرى، وهي: إن الأفعال أبلغ من الأقوال!

لم يكن هناك ما يُكدِّر صفو سماء سعادتهما، إلا سحابة واحدة صغيرة! لم يلاحظها باني على الإطلاق، لكن المرأة لاحظَتها لوهلة أو نحو ذلك، ثم تجاهلَتها وأشاحت النظر عنها. يا إلهي، بالتأكيد سوف تزدهر هذه العلاقة إلى الأبد!

١٢

أعلنَت عقارب القدَر التي تدور في ساعة الأفلام عن موعد استعادة ﭬِي لمجدها مرةً أخرى. كان الفيلم الرائع جاهزًا للعرض، وظهرَت ﭬِي مرةً أخرى على جميع اللوحات الإعلانية في المدينة: «تقدِّم شركة شمولسكي–سوبربا ﭬيولا تريسي في الفيلم الاستثنائي الملحمي، «نائب إبليس» (ذا ديفل ديبيوتي)، دراما بطولية عن الثورة الروسية.» كشف المشهد الذي زيَّن اللوحات الإعلانية عن ﭬِي، كعادتها بملابسها الداخلية الممزَّقة، وهي تجلس في أحضان عميل المخابرات الأمريكية الشاب الذي كان يتميَّز بوسامةٍ طاغية، وكان يُصوِّب مسدسًا إلى مجموعةٍ من الأجانب الذين يترصَّدون له، بوجوههم البشعة وشواربهم السوداء الشعثة.

كذلك كانت هناك دعايةٌ في الصحف؛ حيث روَّجَت المقالاتُ والأعمدةُ للفيلم والمؤلفين وكاتب السيناريو والمخرج وكاتب العناوين والفنانين ومصمِّمي الديكور والمصمِّمين والموسيقيين، ولكن كان الأهم من ذلك كله نجمة الفيلم. هل كان من المتوقع ألَّا يقدِّم المسئول عن الدعاية أي تلميحٍ للصحفيين حول أمير النفط الشاب الرائع، الذي أصبح الآن الصديق الحميم جدًّا للآنسة تريسي؟ لقد توقَّع باني ذلك الأمر، وربما توقَّع الأب ذلك أيضًا، ولكن بالتأكيد لم يتوقع أيُّ شخصٍ آخرُ حدوثَ ذلك. حاصَر المراسلون الأمير الشاب، وسعَت الصحفياتُ اللطيفاتُ العاطفياتُ إلى استدراجه للكشف عن شعوره؛ كونه أعزَّ صديقٍ لمثل هذه النجمة المتألقة ببراعة في سماء السينما. وفي أحد الأيام، تردَّدَت شائعاتٌ عن أنهما كانا مخطوبَين، وفي اليوم التالي نُفيَت الشائعات؛ فحتى عند التزامهما الصمت، كان المراسلون يعرفون ما كان ينبغي عليهم قوله. وعندما رفض باني إعطاءهم صورتَه، التقطوا صورتَه في الشارع، وعندما أدار وجهه بعيدًا، وضعوا عليها مازحين التعليق التالي: «أمير النفط الخجول!»

كان من المقرَّر أن يحظى فيلم «نائب إبليس» (ذا ديفل ديبيوتي) بـ «العرض العالمي الأول» في دار عرض جلوبري الخاصة بعلية القوم، وكما تعلم، تُعتَبر هذه «العروض العالمية الأولى» من أعظم الفعاليات الاجتماعية التي تحدُث في جنوب كاليفورنيا. أُنيرَت السماء بالأضواء الكاشفة والألعاب النارية، وفي الشوارع وُضعَت النيرانُ الحمراءُ لتُحاكيَ الجحيم، وكانت المصابيح التي تُستخدَم في تصوير الأفلام تضيء الرواق، وقد تولَّى الأثرياء مسئولية كل هذه التجهيزات. امتلأَت الشوارع بالحشود، وغزت المدينةَ جماعاتٌ من اللصوص؛ حيث كان قسم الشرطة بأكمله مطالبًا بإنشاء ممرٍّ لنجوم السينما أثناء تحرُّكهم في المسارات المحدَّدة لهم، من سيارات الليموزين اللامعة التي تبلغ قيمتُها عشرة آلاف دولار، مرورًا بالرصيف والرواق، وصولًا إلى البوابات الفخمة. كانت المصابيح مسلطةً عليهم، وبدأَت عشراتٌ من كاميرات الأفلام في العمل، وسطع ضوء المصابيح الكهربائية، وتدفَّق الحشد بحماسٍ وهو يُتمتم في نشوة.

لم يشهد تاريخ البشرية كله من قبلُ مثل هذه الفخامة، ولم يسبق لعيون البشر أن رأت مثل هذه الأبهة الملكية! لقد هلَك ناصبو الشراك والصيادون في الأراضي الجليدية في القطب الشمالي، أثناء جَلْبهم لفرو القاقم والسَّمُّور الذي ترتديه هذه الملكات، ومزَّقَت أسماكُ القرش الغواصين أثناء استخراج اللآلئ من أعماق البحار الاستوائية، وسُحق عمال المناجم في أعماق الأرض أثناء استخراج الماسات البرَّاقة، وفجَّر الكيميائيون أنفسهم بحثًا عن مستحضرات التجميل والأصباغ، وأصيبَت الخياطات بالعَمى وهن يُطرِّزن التصاميم المتقنة التي كانَت تتلألأ على كواحلهن الناعمة كالحرير. كل هذا كان يتركز في مسيرةٍ واحدةٍ مجيدةٍ لم تدُم طويلًا؛ ولذلك لا عجب أن الناس في الحشد كانوا يرفعون رءوسهم لإلقاء نظراتٍ خاطفةٍ على هذه الفخامة. ولا عجب أنهم بدءوا يتقدمون للأمام، ويندفعون بعنف، حتى فقدَت النساء وعيهن، وأتت سيارات الإسعاف بسرينتها المدوِّية.

داخل دار العرض، فوق رأس أحد الأثرياء، كان هناك مكبِّر صوتٍ ضخم؛ وبينما كان العظماء يترجَّلون من سياراتهم، كان صوتٌ جَهْوريٌّ يُعلِم الجمهور بتقدُّمهم. «السيد أبراهام شمولسكي قادم عبر الرواق. ويرافق السيد شمولسكي السيدة شمولسكي. ترتدي السيدة شمولسكي عباءة من الساتان الأزرق مزينة بفرو الشِّنشيلة، من صنع فوسون، أحضرتها للتو السيدة شمولسكي من باريس. ترتدي السيدة شمولسكي تاجَها الشهير المرصَّع بالألماس. يدخل السيدُ شمولسكي وحرمُه دار العرض الآن. توقَّف السيد شمولسكي وحرمُه للتحدُّث مع السيد جاكوب جلوبري وحرمه.»

وهكذا توالت اللحظات المثيرة، واحدةً تلو الأخرى، حتى أخيرًا، في تمام الساعة الثامنة والنصف المقدَّسة، حان موعد ذروة التشويق في هذه الأمسية، وأعلن الصوت:

«الآنسة فيولا تريسي تنزل من سيارتها. يرافق الآنسة تريسي صديقُها السيد جيه أرنولد روس، الابن، مكتشف حقل نفط روس الابن والوريث الوحيد له، القادم من باراديس، كاليفورنيا. الآنسة تريسي والسيد روس قادمان عبر الرواق. ترتدي الآنسة تريسي عباءةً من فرو القاقم الرائع، ونعلَين من الساتان الأبيض المرصَّعَين باللآلئ. وترتدي طوقًا من اللؤلؤ وعصابةَ رأسٍ من اللؤلؤ قدَّمهما لها السيد جيه أرنولد روس، الأب. الآنسة تريسي والسيد روس الابن موجودان في الردهة، يتصافحان مع السيد شمولسكي وحرمه والسيد جلوبري وحرمه»، وهكذا استمر ذلك الأمر حتى جلسَت الآنسة تريسي والسيد روس الابن في مقعدَيهما، وحان موعد بدء التاريخ.

١٣

وهكذا شاهَد باني الفيلم الروسي. لعبَت حبيبتُه دور العروس الجميلة لدوقٍ روسي، وكانت الإيماءاتُ والقبلاتُ ونشوةُ الحب التي تدربَت عليها مع باني، تغدق بها الآن على شخصٍ رائع ذي شواربَ حادةٍ يرتدي زيًّا عسكريًّا مرصَّعًا بالعديد من النجوم والأوسمة. وبالرغم من غطرسته، كان هذا الشخص صاحب مبادئ، وكانت زوجتُه تحب عمل الخير، وكان الفلاحون الذين كانت تساعدهم في غاية اللطف! فقد كانوا ينحنون بأدب، ويرقصون بعذوبة، وقد اجتمعوا ليهتفوا ويُلقوا الزهور على عربة الدوق! لقد كان عالمًا جميلًا يكاد يكون شاعريًّا، وكان المرء يميل حقًّا إلى الشك فيما إذا كان قد وُجِد على وجه الأرض يومًا ما عالمٌ يتمتع بهذا القَدْر من الكمال.

لم يكن هناك سوى خطأٍ واحدٍ في ذلك العالم، وهو جماعة سرية من الأشرار ذوي الوجوه البغيضة المشوَّهة التي يبدو عليها فسادُ أخلاقهم، وكان لدى بعضهم شعرٌ أشعثُ ويرتدون نظاراتٍ كبيرة، وكان لدى البعض الآخر شواربُ سوداءُ كثَّة ويحملون سكاكينَ في أحذيتهم. لقد اجتمعوا لإعداد بيانات الإعلان عن الفوضى، التي تهدف إلى إغواءِ الفلاحين الأبرياء اللطفاء، وصُنعِ قنابل الديناميت لتفجير الدوقات النبلاء. كانوا يشربون الخمر في أوكارهم، ويتجاذبون النساء بخشونة بعضهم أمام بعض. ارتكبَتْ هذه الكائناتُ كلَّ أنواع الشرور، وقد قدَّم زعيمهم، الذي كان لديه وجهٌ يشبه وجه الفأر وذراعان تشبهان ذراعَي الغوريلا، دليلًا واضحًا لأشد العقول بلادةً عن سبب تسمية الفيلم «نائب إبليس».

ثم جاء شابٌّ من المخابرات الأمريكية، أنيق المظهر، حليق الذقن، سريع البديهة. كانت وظيفتُه هي إيصال الرسائل من السفارة الأمريكية إلى الأسطول الأمريكي، وبعد ذلك إنقاذ كنوز السفارة من البلاشفة. وبالطبع أنت تعرفُ ما حدث في روسيا، وكيف أدَّى ذلك إلى نهوضِ هذه المجموعة من الأشرار ذوي الوجوه المشوَّهة، والإطاحةِ بالحكومة، وتعذيبِ الدوق الروسي المتغطرس العادل تعذيبًا وحشيًّا وقَتْله. وبالطبع كان نائب إبليس يريد الدوقة بشكلٍ خاص، وفي البداية طاردَها في جميع أرجاء القلعة، مهشمًا الأبواب، وكان بطل المخابرات الأمريكية الشاب يندفع معها من غرفة إلى أخرى. وبالرغم من أن الدماء كانت تسيل على وجهِه بسبب إصابته بطلقٍ ناري، فإنه حملَها خارج إحدى نوافذ القلعة، وهرَبا على ظهر حصان، عَبْر التلال والوديان المغطاة بأشجار الأوكالبتوس الروسية المألوفة.

وبعد فترةٍ وجيزة، حُوصِرا في سانت بطرسبرج، وأمسك نائب إبليس بفِي، ومزَّق بيدَيه القذرتَين ملابسَها الداخلية، كما وعدَتك اللوحات الإعلانية بأنه سيفعل. ولكن هنا جاء البطل بسلاحه الآلي، وتصدَّى للغوغاء، بينما أَرسَلَتْ فِي من خلف ظهرها إشاراتٍ إلى أحد أصدقاء البطل، الذي كان يعدُّ واحدةً من قنابل الأشرار لإلقائها عليهم، هل يمكنك تخيُّل عالمٍ به عدالةٌ شعرية أكثر من هذا؟ هربَت فِي ومنقذُها، هذه المرة في سيارة، على الطرق الخرسانية الروسية الشهيرة، عبر جبال ضواحي سانت بطرسبرج المعروفة، حتى وصَلا إلى نهر نيفا؛ حيث كانت بساتين الأوكالبتوس تخفي زورقًا سريعًا. وحدثَت مطاردةٌ مجنونةٌ أخرى، انتهَت بالإمساك بالثنائي المتألم، وتمزيق ملابس فِي الداخلية على يد نائب إبليس.

لكن لا داعي للقلق، ففي اللحظة الحاسمة جاءت البحرية الأمريكية، ذلك الأسطول المجيد بأكمله الذي احتفظنا به في نهر نيفا أثناء الحرب. ورفرف «العلم الأمريكي» مع النسيم، وعزفَت الفرقة أغنية «فليحيَ العلم إلى الأبد» (ذا ستارز أند ستريبس فورإيفر)، مما أشعَل حماس جمهور الأثرياء الذي بدأ يهتف هتافًا بهيجًا. وانطلق سريعًا زورقٌ بخاري من إحدى البوارج الحربية، وقفز نائبُ إبليس في الماء وفي فمه إحدى قنابله، وتعانقَت فيولا تريسي ورجل المخابرات على نحوٍ كان مألوفًا لباني، وكذلك للجمهور الثري.

طَوال الوقت الذي كانت تتكشَّف فيه هذه القصة، كان لباني شرف الجلوس بجانب البطلة والإمساك بيدها. في لحظةٍ ما، انحنَت تجاهَه وهمسَت: «هل الفيلم سيئ للغاية؟»

وكانت إجابته: «إنه يرقى إلى المستوى المطلوب. وسيُحقِّق مكاسبَ جيدة.» كانت تلك هي المصطلحات التي استخدمَتها مع آنابيل إيمز، وشعَر باني بها تضغط على يده. كان هذا قولًا ذكيًّا ولطيفًا منه!

١٤

أُظلمَت الشاشة، وخفتَ الهتاف، وأُضيئَت الأنوار، وتَجَمهر الحضور حول ڤِي تريسي، والسيد شمولسكي، المنتج، وتومي بالي، المخرج، وجميع الأفراد الذين شاركوا بإخلاص في الفيلم. تصافح الجميع وعلَت أصوات الثرثرة، وفي هذه الأثناء وقفَت الحشود تُحدِّق في المشاهير؛ فقد كان من الصعب إخلاء دار العرض بعد «العرض العالمي الأول». كانت الشرطة لا تزال تمنع دخول الحشود في الردهة، وفي الخارج في الرواق؛ حيث وقف العديد منهم لمدة ثلاث ساعات، من أجل رؤية نجومهم المفضَّلين.

كانت ڤِي وعشيقُها ضمن آخر المغادرين، وكانا يحيِّيان هذا وذاك؛ حيث كانا محط أنظار الجميع. ورأى باني العديد من الأشخاص الذين كان يعرفهم، ومن بينهم كان هناك وجهٌ واحدٌ لم يتوقع وجوده، إنه وجه رايتشل مينزيس! رأته، ولاحظ أنها رأته، وعلى الفور كان لزامًا على الشاب المثالي أن يعاملها مثل أي شخصٍ آخر. فرايتشل فتاةٌ عاملةٌ فقيرة، لديها وعيٌ طبقي، كانت تثير الشفقة بمعطفِها القذِر البالي وقبَّعتِها الباهتةِ العتيقةِ الطراز؛ ولذلك يجب ألَّا تظن رايتشل أنه سيستخفُّ بها في هذا التجمع الفخم! توجَّه إليها مباشرةً. وقال: «كيف حالكِ يا آنسة مينزيس؟ لم أكن أعلم أنكِ من محبي السينما.»

أجابت: «لست كذلك. لكنني أردتُ أن أرى ماذا سيفعلون بالثورة الروسية.»

قال باني: «لم يكن للفيلم أي علاقةٍ بنا»، فأجابت بتجهُّم: «نعم، صدَقت.»

كان يودُّ التحدُّث معها، ولكن ليس في هذا المكان. سألها: «هل يمكنني مساعدتكِ في الخروج؟» واستدار كما لو كان يبحث عن طريقٍ وسط الحشد.

ولكن في تلك اللحظة جاءت ڤِي! فبالرغم من التفاف كل هؤلاء العظماء حولها، والثناء الذي كانت تتلقاه، كان هناك شيءٌ واحدٌ تهتم به حقًّا، وهو باني؛ فهي لم تُرِد أن يغيب عنها للحظة! وبالطبع، على الفور، ظهرَت دماثة الشاب المثالي. وكان لزامًا عليه تقديم صديقتِه العاملةِ القذرة إلى السيدةِ الرائعةِ التي ترتدي فرو القاقم واللؤلؤ! قال: «دعيني أعرِّفكِ على الآنسة فيولا تريسي. ڤِي، هذه هي الآنسة رايتشل مينزيس، زميلتي في الجامعة.»

وبالمثل، كانت ڤِي ودودة من منطلق اللياقة. قالت ڤِي: «كيف حالكِ يا آنسة مينزيس؟» ومدت يدها. لكن رايتشل لم تمُد يدَها لتصافحها، بل وقفت متيبسةً ومنتصبة، وأجابت: «كيف حالكِ يا آنسة تريسي؟» بالنسبة لباني، الذي كان يعرفها، بدا صوتُها غريبًا وخاليًا من أي مشاعر، لكن بالطبع لم تكن ڤِي على درايةٍ بطبيعةِ صوتِها، وظنت أنها ربما كانت تشعُر بالخجل لمقابلة أهم شخصٍ في هوليوود في تلك الليلة. كانت ڤِي لا تزال ودودةً عندما سألتها: «هل أعجبكِ الفيلم؟»

كان هذا السؤال بالنسبة لباني أخطر من أي قنبلةٍ صنعَها أحدُ نُوابِ إبليس! كان يبحث في ذهنه الحائر عن شيءٍ ليقوله، ربما شيء مرح مثل «الآنسة مينزيس اشتراكية مثلي»، ولكن قبل أن يتمكن من تحريك لسانه، أجابت رايتشل بسرعة وحزم: «أظن أنه أخبثُ فيلمٍ رأيتُه على الإطلاق.»

لا شك أن الأمر لم يكن له علاقة بخجل أو أي شيءٍ آخر. حدَّقَت فيولا تريسي في هذه الكائنة المذهلة. وقالت: «هل تعتقدين ذلك حقًّا، يا آنسة؟!»

«نعم، والأشخاص الذين ساعدوا على تحقيق ذلك ستؤنِّبهم ضمائرهم يومًا ما، على دماء ملايين من الشباب.»

قاطعَها باني موضحًا: «كما تَرَين يا ڤِي ...»

لكنها مدَّت يدها لمنعه. وقالت: «انتظر! أريد أن أعرف ماذا تقصدين!»

«أقصِد أن هذا الفيلم هو جزءٌ من الدعاية لإدخالنا في حربٍ مع روسيا، والمرأة التي تشارك في مثل هذا العمل هي عارٌ على جنسها.»

حملقَت ڤِي غضبًا، وعلا السخطُ وجهها. وصاحت «أيتها العاهرة!» ورفعَت يدها وصفعَت رايتشل على خدها.

للحظةٍ واحدةٍ مروعة، وقف باني مخدرًا، ولاحظ احمرارَ وجه رايتشل، وترقرُق الدموع في عينَيها، حينئذٍ اندفع ليحُول بينهما، وأمسك بيد ڤِي لمنعها من تسديد صفعةٍ أخرى. وقال لها: «لا، يا ڤِي، لا!» أكمل شرطيٌّ قوي البنية مهمة الفصل بين الخصمَين، واختفت رايتشل وسط الحشد، وهو أمرٌ كان من السهل القيام به؛ حيث كان يندفع الجميع إلى المقدمة. وفي خِضَم هذه الحالة من الارتباك، أدرك باني شيئًا شنيعًا؛ فقد كان هناك شابٌّ يسأل بإلحاح: «ماذا هناك؟ ما المشكلة؟ ماذا حدث يا آنسة تريسي؟ ما المشكلة أيها الضابط؟» همَس باني في أذن ڤِي: «أسرِعي! إنه مُراسِل!» وأمسَك بذراعِها وهرَبَا وسط الحشد.

١٥

همسَت ڤِي لباني الذي كان يقود السيارة: «من هذه المرأة؟»

أجاب: «عائلتُها عمالُ ملابسَ يهود. والدها هو الرجل الذي قُبِض عليه، ألَا تتذكَّرين أنني أخبرتُك بذلك؟»

«يا إلهي! تلك الفتاة!»

«نعم. كما تَرَين، لقد أهنتِ وعيَها الطبقي.»

صكَّت ڤِي أسنانها. وقالت: «يا لها من فتاةٍ بغيضة!»

«لكن يا ڤِي! لا تنسي أنك سألتِها عن رأيها.»

«أوه، يا لها من وقحة! لقد كان سلوكها شائنًا!»

«لكن يا عزيزتي، أنتِ تُعبِّرين عن رأيكِ بحرية. أليس من حقها التمتع بالحق ذاته؟»

«باني! هل ستُدافع عنها؟!» وقبل أن يتمكن من الرد، صرخت بصوتٍ غاضب: «أنا أكره هؤلاء الناس، أكرههم! إنهم قذرون، ومنحطون، وحاقدون، ولا يؤمنون بشيءٍ سوى الاستيلاء على الأشياء التي كدح الآخرون للحصول عليها.»

ساد صمتٌ طويل. واصل باني قيادة السيارة، وعندما تحدثَت ڤِي مرة أخرى، كان لتسأله: «إلى أين أنت ذاهب؟»

«هل نسيتِ حفل عشاء آل شمولسكي.»

«لا، لا يمكنني تحمُّل فكرة الذهاب إلى أي حفل عشاء. خذني إلى المنزل، على الفور.»

أطاعها، وبمجرد وصول ڤِي إلى المنزل، فرَّت إلى غرفتها. وحين تبعها، وجد عباءة فرو القاقم ملقاة على الأرض، وڤِي مكوَّمة على الفراش، غير مهتمة بثوبها الحريري المطرَّز الباهظ الثمن. كانت تتشنج من كثرة البكاء، وسمعها تقول: «هذا سيدمر علاقتنا!»

وفجأةً اعتدلَت ڤي في جلستها والدموع تنهمر من عينَيها ومدَّت ذراعَيها. وقالت: «أوه، باني، باني، لا تدَع حبنا ينتهي! دعنا لا نتشاجر مثل الآخرين! باني، أنا لا أهتم بهؤلاء الأشخاص، يمكنهم أن يقولوا لي ما يحلو لهم، ولن أمانع في ذلك مجددًا! سأعتذر لتلك الفتاة، وسأدعُها تفعل بي ما يحلو لها، وسأفعل أي شيءٍ تطلبه مني! ولكن، من فضلك لا تدَع حبنا يتوقف!»

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ڤِي منهارة هكذا، وبالطبع دائمًا ما كان يترك هذا انطباعًا رائعًا لدى الذكر الذي يحب أن يلعب دور الحامي. طوَّقَها بذراعَيه،

بدموعها وكل شيء، دون الاهتمام ببدلة السهرة الباهظة الثمن المصنوعة من الجوخ. تأجَّج حبهما، وذابت مشاكلهما، وأقسما ألَّا يسمحا لشيءٍ أن يفرق بينهما أبدًا.

بعد ذلك بوقتٍ طويل، وبينما كانا مستلقيَين أحدهما في حضن الآخر، همسَت ڤِي قائلة: «باني، تلك الفتاة تُحبك!»

«أوه، هذا غير معقولٍ يا ڤِي!»

«لماذا تقول هذا؟»

«لأنها لم تُبدِ قَط أي إشارة تدُل على وجود شيءٍ من هذا القبيل.»

«وكيف يمكنك معرفة الإشارة؟»

«لكن يا عزيزتي ...»

«بالطبع هي تحبك! كيف يمكن لأي شخصٍ ألَّا يقع في حبك يا باني؟»

لم يكن الأمر يستحق محاولة الجدال. يبدو أن هذه سمةٌ تميِّز النساء، فهن متأكداتٌ دائمًا من أن جميع النساء الأخريات يقعْنَ في حب رجلهن. فعندما أخبر ڤِي عن هنريتا أشلي، كانت متأكدة من أن هنريتا كانت مفتونةً به بشدة، وأن كبرياءها الطبقي فقط هو الذي منعَها من محاولة التعلق به. وبالمثل، عندما أخبَرها عن روث، كانت متأكدةً من أن هذه الفتاة الريفية الفقيرة كانت تُكِن له مشاعرَ عميقة. ولهذا السبب لم تكن مهتمةً بجاذبية عمال النفط، ليس بسبب ارتباطها الشديد ببول. فالأخوات لا يُثِرن كل هذه الضجة بشأن أشقائهن، لا، كان كل هذا هُراء! تذكَّر باني أن بيرتي قالت الشيء ذاته، ومن الغريب أن يونيس هويت قالت ذلك أيضًا؛ فقد كان ذلك أحد الأسباب التي جعلَتها تكره ذهابه إلى بارادايس. ولذلك قرَّر باني أن من الأفضل عدم إخبار النساء بعلاقاته السابقة، وعدم تعريف إحداهن على الأخرى، إذا كان من الممكن تجنُّب ذلك!

جاء الصباح، وكانت الصحف بانتظارهما خارج باب الغرفة. قرآها بنهَم وهما جالسان على الفراش بملابسهما الحريرية؛ لم يكونا يبحثان عن المقالات التي كانت تسردُ تفاصيل الثياب التي ارتدَتها النساء في العرض العالمي الأول؛ فبإمكانهما الاهتمام بذلك الأمر لاحقًا. قفزَت عيناهما أولًا إلى العنوان:

نجمة تصفَع منافِستَها في الردهة

ها هو! ولأن المراسل لم يتمكَّن من الحصول على القصة الحقيقية؛ فقد لجأ إلى افتراض أن سبب المشكلة رومانسيٌّ لا محالة. مثلَّثٌ آخر في عالم السينما! وقد كتب مقالًا

مرحًا للغاية عن النجمة المشهورة عالميًّا، التي حضَرَت ساعة مجدها برفقة أمير النفط الشاب، الذي انتشرَت حوله الكثير من الشائعات المثيرة للاهتمام. وعندما رأته يترك جانبها وينضَم إلى امرأةٍ أخرى، اندفعَت النجمة نحوهما في نَوبة من الغَيرة والغضب، وصفعَت المرأةَ الأخرى على وجهها. كانت هناك مقابلةٌ مع الضابط توني ريبر من قسم شرطة إنجِل سيتي، الذي فصل بين الخصمَين الغاضبتَين. لقد أطلقَت النجمة لفظًا شائنًا على منافستها، حال حياءُ الضابط دون تكراره. ومع ذلك قال للجميع: «لكن دعوني أخبركم شيئًا، بإمكان تلك السيدة تسديد لكماتٍ قوية حقًّا. ولو أنني ضربتُ شخصًا بهذه القوة، فسوف أُطرد بكل تأكيدٍ من عملي.»

١٦

التقى باني بالخَصْم الأخرى في الحرم الجامعي في اليوم ذاته، وكان وجهها شاحبًا وعيناها الداكنتان كئيبتَين. وبادرَتْه بالحديث على الفور: «سيد روس، أود أن أعبِّر لك عن خجلي الشديد مما قلتُه.»

أجاب: «لا داعي للخجل. لقد كان كلامُك صحيحًا.»

«أعرف ذلك، ولكن ليس لي الحق في قول ذلك لواحدةٍ من أصدقائك، خاصةً بعد كل ما فعَلتَه من أجلي. كل ما في الأمر أنني كنتُ منفعلة جدًّا من ذلك الفيلم.»

قال باني: «أتفهَّم ذلك. ولذا تريدني الآنسة تريسي على أن أنقل لكِ أسفَها الشديد عما بدَر منها.»

«أعرف أنك السبب وراء اعتذارها. لكنني لا أهتَم بذلك؛ فنحن باعتبارنا يهودًا وعمالًا قد تعرَّضنا للضرب مراتٍ عديدة، وسنتعرَّض للمزيد قبل أن تنتهي الحربُ الطبقية. الضَرَر الحقيقي الذي لا يمكنها التكفير عنه أبدًا هو ذلك الفيلم البشِع الذي يُسمِّم عقولَ ملايين من الناس. ولكنها لا تستطيع الاعتذار عن ذلك أبدًا.»

كان هذا جانبًا من الأمر الذي غفَل عنه وعيُ باني بطريقةٍ ما في خِضَم كل هذه الإثارة. أجاب: «لا يمكنني الدفاعُ عن الفيلم، ولكني أظن أنه يجب عليكِ أن تلتمسي الأعذار للآنسة تريسي. فهي لا تعرف الكثير عن روسيا مثلما نعرف أنا وأنتِ.»

«هل تعني أنها ليست على دراية بالأعمال الوحشية البشعة التي كانت تحدُث في روسيا القديمة، والأعمال الإرهابية التي كانت تُنفَّذ في ظل حكم القيصر؟».

قال باني: «نعم، ولكن ...»

قاطعته رايتشل: «هل تعني أنها لا تعلم أن الرجال الذين تُصوِّرهم كمجرمين كان معظمهم في زنزانات القيصر من أجل معتقداتهم؟»

«ربما لا تعرف ذلك أيضًا يا آنسة مينزيس. فمن الصعب إدراك مدى جهل الناس عندما لا يقرءون سوى الصحف والمجلات الأمريكية.»

«حسنًا يا سيد روس، أنت تعلم أنني لستُ بلشفية، لكن علينا أن نُدافع عن عمال روسيا في مواجهة رد الفعل العالمي. فذلك الفيلم جزء من الإرهاب الأبيض، والأشخاص الذين صنَعوه كانوا يعرفون بالضبط ما كانوا يفعلون، تمامًا مثلما فعَلوا عندما ضربوا أخي على رأسِه وشرعوا في ترحيل والدي.»

قال باني: «نعم، لكن عليكِ أن تفهمي أن الممثلة لا تكتُب القصة، ولا يُؤخذ رأيُها دائمًا في الأدوار التي تلعبُها.»

قالت رايتشل: «حسنًا سيد روس!» وعلَت وجهَها ابتسامةٌ مشفِقة. «هذا ما ستقولُه لك، وأنت حريص جدًّا على رؤية الجانب الجيد في الناس! حسنًا، سأخبِرك برأيي، وربما لن تتحدث معي بعد ذلك أبدًا. إن المرأة التي تصنع فيلمًا كهذا ليست سوى عاهرة، وحقيقةُ أنها تحصل على أجرٍ عالٍ مقابله يجعلها أكثر إثارةً للاشمئزاز.»

«حسبكِ يا آنسة مينزيس!»

«أعلم أن ما أقوله يبدو قاسيًا. لكن هذا الفيلم بمثابة جريمة قتل، وتلك المرأة كانت تعرف ذلك جيدًا. لقد دفعوا لها المال والمجوهرات والمعاطف الفرو والملابس الداخلية الحريرية، وظهَر وجهها على اللوحاتِ الإعلانيةِ وفي جميع الصحف، وقد قبِلَت بهذا الثمن، كما فعلَت مراتٍ عديدةً من قبلُ. لا أعرف شيئًا واحدًا عن حياتها الخاصة يا سيد روس، لكنني أراهنُ أنك إذا حقَّقتَ في الأمر، فستجد أنها باعَت نفسها، جسدًا وعقلًا، طَوالَ الطريق من القاع حتى القمة التي تتربَّع عليها الآن!»

وهكذا قرَّر باني أن من الأفضل تأجيل الخطة التي كانت في ذهنه لفترةٍ من الوقت، والتي كانت تتضمَّن تدبير لقاء بين فِي تريسي ورايتشل مينزيس حتى تفهم إحداهما الأخرى!

الفصل الخامس عشر

العطلة

١

طوال فصلَي الصيف والخريف، تحمل الأب والسيد روسكو مسئوليةً كبيرة، وهي المساعدة في تغيير تفكير الشعب الأمريكي. فقد كانت الحملة الرئاسية على قدم وساق، وكان على رجال النفط، الذين تجرَّءوا واختاروا مرشحًا، إنهاءُ المهمة الآن بإقناع الناخبين بأنه رجل دولة عظيم ونبيل. كذلك كان عليهم دفعُ جزءٍ من النفقات، قد يصل إلى خمسين مليون دولار، كما وصَل إلى مسامعِ باني من الأحاديث التي دارَت في بارادايس وفي الدير. كان هذا المبلغ أكبر بكثيرٍ مما كان سيُسجَّل رسميًّا؛ حيث كانت الأموالُ تمُر عَبْر وكالاتٍ محليةٍ وغيرِ رسمية. وكانت هذه الأموالُ تأتي من المؤسسات الكبيرة التي تتمتَّع بالحماية، والشركات، والبنوك؛ أي كل من كان لديه مصالحُ مع الحكومة، أو من كان عُرضةً لضغط السياسيين، وقد عُرِفت هذه العملية باسم «استنزاف الأغنياء». وبطبيعةِ الحالِ جذَب رجالُ النفط، بوصفِهم أصحابَ النصيبِ الأكبرِ من هذه الأموال، انتباهَ جميعِ لجانِ الحملات، على مستوى المقاطعة والولاية والدولة. وتلقَّى الأب والسيد روسكو زياراتٍ من جيك كوفي، ومن كبار رجالات الدولة، واستمَعا إلى قصصٍ تقشَعرُّ لها الأبدانُ حول مخاطرِ الوضع.

كان من الضروري إقناعُ الشعبِ الأمريكيِّ بأن الإدارةَ الديمقراطيةَ على مدارِ السنواتِ الثماني الماضية كانت مسرفةً وفاسدة، وجاهلةً وحمقاء، وكان ذلك أمرًا يسهُل تنفيذه. ومع ذلك كان من الضروري أيضًا إقناعُه بأنه من المرجَّح أن تكون إدارة السيناتور هاردينج أفضل، لكن لم يكن من السهل تحقيقُ ذلك الأمر. وبطبيعة الحال، أراد رؤساء لجان الحملات الانتخابية أن يجعلوا الأمر يبدو صعبًا قَدْر الإمكان، فكلما زادت الأموال التي مرَّت بين أيديهم، زاد حجمُ المبلَغ الذي سيستولون عليه. ومع قرب انتهاء الحملة

الانتخابية، شعَر باني بالرضا عندما سمع والده يسبُّ بشكلٍ شنيع، ويتمنَّى لو أنه أخذ بنصيحةِ ابنِه وتركَ مصائر بلاده لصاحب مصنع الصابون الذي دفع الملايين للجنرال وود!

كان سيناتور ولاية أوهايو شخصًا ضخمًا مهيبًا ذا ملامحَ جادة، وأدار ما أطلقَت عليه الصحف اسم «حملة الشرفة الأمامية». والسبب وراء هذه التسمية أنه لم يتكبَّد عناء السفر في القطارات ومقابلة الناس، بل استقبل في منزله وفودًا من «تجار التبن والأعلاف في دولوث»، أو «متعهِّدي دفن الموتى في أوساواتومي». كانوا يجلسون على مقاعد التخييم في حديقته، وكان رجلُ الدولة ينضَم إليهم ويقرأ خطابًا مهيبًا، كتَبه السكرتير الذي اختاره فيرنون روسكو، وأُعطي لجميع المؤسساتِ الصحفيةِ في اليوم السابق، حتى يتسنَّى توزيعُه عَبْر التلغراف ونشرُه في خمسين مليونَ صفحةٍ أولى في وقتٍ واحد. إنه جهازٌ دعائيٌّ هائل، وعلى الرجال الذين يديرونه نسيانُ فكرة النوم لساعاتٍ طويلة. لكن نوم المرشَّح المهيب لم يتأثَّر على الإطلاق؛ فقد كان دائمًا منتعشًا وهادئًا ومطمئنًّا، وقد كان على هذا النحو طَوالَ حياته المهنية؛ لأن رجال الأعمال القادرين الذين تولَّوا أمره ودفَعوا له المال، لم يفشلوا قطُّ في إخباره بما يجب عليه فعله.

كان باني يعيش في برجٍ عاجي، وينظر بازدراء إلى شئون البشر المثيرين للشفقة. سمح له الأب والسيد روسكو بسماع كل شيء، متأكدَين من أن المنطق السليم سينتصر في النهاية، وأنه سيَقبَل وجهة نظرهما. فقد كانا يملكان فلسفةً تحميهما وكأنها درعٌ ضد كل التردُّدات والشكوك. فلا بد من إدارة شئون البلاد على يد أصحاب المال والذكاء والخبرة، وبما أن الغالبية العظمى من الشعب لم يكن لديها الوعيُ الكافي لمنح السلطة طواعية، كان لا بد من خداع جماهير الشعب. وينطوي ذلك على تأليف «الشعارات» وترسيخها في رءوسهم عن طريقِ تكرارِها ملايين المرات، بل مليارات المرات. كانت تلك مهارةً يتقنها الخبراء، وكان أصحابُ المال يدفعون لهم مقابلها، على الرغم من أن ثمنَها كان باهظًا للغاية!

انتهت الحملة الهائلة، وتبيَّن تعرُّض ١٦٬١٤٠٬٥٨٥ أمريكيًّا للخداع بنجاح. وكان عدد الأصوات التي حصدَها السيناتور هاردينج يزيد عن أصواتِ المرشَّحِ الديمقراطي بسبعة ملايين صوت، وهي أكبر أغلبيةٍ حصَل عليها مرشَّح في التاريخ الأمريكي على الإطلاق. ولذلك انطلقَت الحشود تصيح في الشوارع، وفي النوادي والمطاعم الفاخرة حيث يحتفل الأغنياء، وكان الجميع يحتفلون بشرب الخمر حتى الثمالة. نعم، حتى فيرنون

روسكو ثمل؛ لأن آنابيل كانت ثملةً جدًّا لدرجة أنها لم تتمكَّن من إيقافه، وتحدَّث فِي تريسي طبيبها، ونسي الأب قراراتِه، وحتى باني شرب ما يكفي لجعله يخشى على مثاليته. فالإنسان حيوانٌ اجتماعي، ومن الصعب ألَّا تحذوَ حَذو جميع من حولك!

٢

أتى عيدُ الميلاد المجيد، وتردَّدَت صيحاتُ طيورِ السُّمَانى في تلال بارادايس. لم يكن هناك الكثير منها بجوار المنزل، ولكن كان هناك الكثير من الأراضي المجاورة حيث كان بإمكان أمير النفط وأبيه الملك إطلاق النار. وبمجرَّد أن تبتعدَ عن أبراج الحفر، ورائحة معمل التكرير، ستجدُ الريف الجميل ذاته، بالسماء الصافية وغروب الشمس الذهبي نفسَيهما؛ حيث يمكنك تنقيةُ دمكَ من سموم المشروبات الكحولية غير المشروعة، وتطهير روحك من الذكريات المحرجة. وأثناء التجوُّل عَبْر هذه التلال الصخرية، واستنشاق هذا الهواء السحري، كان من المستحيل تصوُّر أن البشر لن يتعلموا يومًا ما كيف يكونون سعداء!

تزامنَت هذه الزيارة مع حدثٍ تاريخيٍّ عظيم وضع بارادايس على خريطة كاليفورنيا. كان إيلاي واتكينز، نبي الرب، قد انتهى من سداد ثمن الأرض التي كان سيُقام عليها مَقْدِسه في إنجِل سيتي، واحتفَل بهذا الحدَث بالعودة إلى أماكن طفولته؛ حيث المعبد الصغير المبني من الخشب الذي نزل فيه الوحيُ الثالثُ للبشرية، وهناك أُقيم عرضٌ جديدٌ مثير للاهتمام من اختراعه، اسمه «ماراثون الكتاب المقدس». كما ترى، كان إيلاي قد قرأ في الصحف عن سباقات الماراثون، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف معنى الكلمة، فإنها كانت تبدو مؤثِّرة، وكان مُولعًا بالكلمات الغريبة. لذلك أعلن تلاميذ الكنيسة الرسولية الأولى ببارادايس أن «ماراثون الكتاب المقدس» كان عبارةً عن قراءة كلام الرب المقدَّس دون توقُّف؛ حيث سيقرءون بالتتابُع، وستتواجد ليلًا ونهارًا مجموعةٌ صغيرةٌ في الكنيسة، وسيتولى المهمةَ المقدَّسةَ صوتٌ تلو الآخر، بغَض النظر عن الآبار «التي تضُخُّ النفط» خارج الباب مباشرةً.

كان هذا الأمر مذهلًا حقًّا. فلم يكن يقتصر على إثارة حماسة أتباعهم وجلب حشودٍ من الناس إلى المدينة، بل استحوذ على اهتمام الصحف، التي سارعَت إلى إرسال المراسلين لتغطية الحدث. حدث العديد من المعجزات الجديدة، وعُلِّق العديد من العكازات، وفي خِضَم هذه الإثارة، أعطى الرب علامةً جديدةً لرحمته، وأعلن إيلاي، وهو يعظ الحشود في الخارج، باسم الرب أنه إذا اكتملَت القراءة، فإن القدرة الإلهية المطلقة ستتكفَّل بتوفير

بقية المبلغ، وسيُقام مَقدِس مدينة إنجِل سيتي في غضون عام. بعد ذلك، بالطبع، لم يكن يمكن لأي شيءٍ أن يُوقف «الماراثون»، وأُنجِز هذا الحدَث التاريخي في غضون أربعةِ أيام وخمسِ ساعات وسبعَ عشرةَ دقيقةً واثنتَين وأربعين ثانيةً وثلاثة أرباع الثانية؛ المجد للرب، هللويا، سبِّحوا الرب!

رأى باني الآلاف وهم يصرخون، ورءوسهم مكشوفة ووجوههم مرفوعة ومسلَّط عليها ضوءٌ كاشف؛ فإيلاي الآن كان يملك المال، وكان يستخدمه في إحداث هذه التأثيرات المذهلة. وقفَت «فرقته الموسيقية المتألقة» على منصةٍ حيث كانت الأضواء الكهربائية مُسلطةً على الآلات الموسيقية، وكان النبي يعظ، ثم يلوِّح بيده، فيعزف الموسيقيون بأبواقهم لحنًا إنجيليًّا قديمًا، وكانت الحشود تردِّد من ورائهم وكأنها جوقةٌ عظيمة، وكانت تتمايل وتضربُ الأرض بأقدامها، حتى انتقلَت أرواحها إلى المجد، وسالت الدموع على خدودها.

حضر العديد من زوجات عمال النفط، وكُنَّ يتوسلن ويصلين ويحاولن إقناع أزواجهن بالحضور. فلم يكن هناك الكثير الذي يمكن أن يفعله المرء في مكان منعزل مثل بارادايس، وكان أحد أفلام الدرجة الثالثة هو الشكل الوحيد للتسلية، لكن ها هي الأضواء الساطعة والأبواق الفضية وحالات النشوة السماوية؛ كل هذا مجانًا، بالإضافة إلى فرصة الفوز بدخول ملكوت السموات! لا عجب أن العديد من الرجال «وقعوا في هذا الفخ»، لكن بول ومجموعته الصغيرة من المتمردين أصروا على أن أصحاب العمل كانوا قد وظفوا إيلاي ليأتي إلى هناك في هذا الوقت الحرج، بينما كان النضال من أجل إنقاذ الاتحاد وشيكًا. كان باني يعتقد أن هذه الفكرة مبالغٌ فيها، لكنه تذكر بعد ذلك خمسمائة الدولار التي أعطاها والده لإيلاي! وتذكر أيضًا ملاحظةً قالها فيرنون روسكو في الدير: «يمكنهم الاستمتاع بهذه الوعود السماوية الواهية، ما داموا يتركونني أحصل على النفط.» صاحت آنابيل بخوفٍ قائلةً: «اصمت، يا فيرن! إن ما تقوله شيء فظيع!» وذلك لأن آنابيل كانت تعرف أن القوى السماوية غير متسامحة ولها تقلبات عنيفة.

وكان أعضاء «الاتحاد العالمي للعمال الصناعيين» أيضًا يحاولون إثارة روح الإحياء في أعضائهم، واستخدام قوة الأغاني. لكن الغناء في «الأدغال» كان ضعيفًا حقًّا، مقارنة بالدوي القوي لأبواق إيلاي الفضية، وصيحات تهليل ضيوفه. وبالتأكيد لم يكن أصحاب الآبار يدعمون أعضاء «الاتحاد العالمي للعمال الصناعيين»! فقد أرسلوا مأمور الشرطة

وعشرين من نوابه، يحملون بنادق محشوةً بالرصاص، وداهموا مكان تخييم المتمردين، ووضعوا أحد عشر منهم في شاحنة وحبسوهم في سجن المقاطعة. ظل الوضع هكذا، وسمع باني الحكاية المأساوية لإيدي بيات، أحد أصدقاء بول، الذي ذهب إلى سان إليدو لمعرفة مبلغ الكفالة، لكنه حُبِس للاشتباه في كونه عضوًا في المنظمة الخارجة عن القانون. علمًا بأنه لم يكن عضوًا في المنظمة، لكن كيف يمكنه إثبات ذلك؟

أرادت روث، التي أخبرت باني بالأمر، أن تعرف ما إذا كان الأب سيدفع له الكفالة لإخراجه. وسألت باني ما إذا كان يتذكر ذلك الشابَّ الهادئَ جدًّا، ذا الشعر الداكن والمظهر الحازم. أجابها باني بأنه يتذكَّره. حسنًا، لقد كان جديرًا بالثقة مثل عامل الملابس اليهودي، وكان الطعام الذي يقدمونه في ذلك المكان الرهيب مليئًا بالديدان، ولم يكن لدى الفتيان حتى بطانية لتدفئتهم. كان مخططًا نقلُهم جميعًا بالقطار إلى سان كوينتين، وكان بول يعرف أحدَ «السجناء السياسيين» الذين خرجوا للتوِّ من هناك، وأخبرَه بأفظع القصص، انهمرَت الدموعُ من عينَي روث عندما روت كيف جعلوا الرجال يعملون في مصنع الخيش، وملأت المادة البنية رئاتهم، مما سبَّب لهم السعال، وكان ذلك بمثابة حكم بالإعدام. وعندما لم يتمكَّنوا من تحمُّل العمل، تعرَّضوا للضرب والإلقاء في «الحبس الانفرادي»؛ فقط تخيَّل حجم المعاناة التي اضطُر هؤلاء الرفاق الذين تعرفُهم وتهتَم لأمورهم إلى تحمُّلها!

كان باني يعرف مأمور مقاطعة سان إليدو، وكذلك المدعي العام للمنطقة، وكان يعلم أن الأب هو من عيَّن هذَين المسئولَين، ويمكنه إصدار أوامر لهما. ولكن هل سيعترض الأب جهودهما لحماية شركات النفط؟ هل سيعارض رغبات جميع المديرين والمديرين التنفيذيين والمشرفين الآخرين في شركة روس كونسوليديتد؟ لا، بالتأكيد لن يفعل! كل ما استطاع باني فِعْله هو إعطاء روث بضعَ مئاتٍ من الدولارات، لتتمكَّن من جلبِ طعامٍ للسجناء. وعاد لاستكمال دراسته في الجامعة، لكن في قرارة نفسه كانت هناك «فجوة» يجرُّه إليها ضميرُه محتجًّا ومقاوِمًا بلا جدوى، فيَرْميه فيها، ويُغلِق خلفه بابًا من حديدٍ له صليلٌ مرعب. نعم، حتى عندما كان باني في الغرفة ذاتِ اللونِ الأبيضِ الثلجي مع نباتات اللبلاب التي تزين النافذة، وحتى عندما كان يضُم بين ذراعَيه جسد حبيبتِه المتشوِّق، حتى في ذلك الوقت كان باب السجن يُصدِر صليلًا، ليجد نفسه في إحدى زنزانات سجن المقاطعة مع «سجناء الحرب الطبقية»!

٣

بموجب الترتيبات التي حافظَت على السلام في قطاع النفط خلال الحرب، كان على «مجلس النفط» الحكومي الاستماع إلى تظلُّمات العمال، وإصدار قراراتٍ عادلة. لكن الحرب بدأَت تتلاشى الآن في ذاكرة الرجال، وكان أصحاب آبار النفط يشعرون بالقلق في ظل هذه السيطرة «الخارجية». أليس من الحقوق الأساسية لكل أمريكي إدارة أعماله بطريقتِه الخاصة؟ ألم يكن من الواضح أن الأجورَ في زمن الحرب كانت مرتفعة، وأن من المستحَب الآن «تقليلَها»؟ ومن ثَمَّ رفَض بعضٌ من أصحاب الآبار الانصياع لأوامر «مجلس النفط»، وأُجريَت مناقشاتٌ طويلة، ولجأ البعض إلى المحاكم، وفي هذه الأثناء كان العمال يحتجُّون ويهدِّدون، وكان الجميع يرى أن هناك أزمةً وشيكة.

في الأيام الخوالي، كان جيه أرنولد روس واحدًا من رجال الأعمال الصغار، ولم يكن بوسع باني فعل شيءٍ سوى انتظار الأحداث. لكنه أصبح الآن أحد أقطاب المجال، وكان يشهَد عملية إعداد المصائر. توصَّل اتحاد أرباب العمل في قطاع النفط، من خلال لجنته التنفيذية، التي كان فيرنون روسكو عضوًا فيها، إلى قرارٍ بتنحية مجلس النفط الفيدرالي جانبًا، وتجاهُل اتحادات العمال، والإعلان عن جدولٍ جديدٍ للأجور في القطاع. حصل الأب على نسخةٍ من هذا الجدول، وكان متوسط الأجور به يقلُّ عن المعدل الحالي بحوالي ١٠ بالمائة.

كان ذلك يعني صراعًا مريرًا، وكان باني قلقًا جدًّا لدرجة أنه، دون أن يقول أي شيء لوالده، لجأ إلى السيد روسكو. ونظرًا لأن هذه مسألةٌ تجارية، اقتضَت آدابُ اللباقة زيارتَه في مكتبه؛ لذلك اتصل باني بالسكرتير وطلب موعدًا بالطريقة المعتادة.

جلس الرجلُ العظيمُ إلى مكتبه المسطَّح المصنوع من خشب الماهوجني، الخالي من الأوراق حسبما اقتضَت الخرافةُ السائدة. بدا الأمر كما لو أن قائدَ قطاعِ النفطِ ليس لديه ما يفعلُه سوى الابتسام لصبيٍّ جامعي، والثرثرة عن عشيقة الصبي وعن عشيقته. ولكن بعد ذلك علَّق باني قائلًا: «سيد روسكو، جئتُ لمقابلتك لأنني أريد أن أتحدث معك بشأن جدول الأجور الجديد.» وفي لمح البصر، اختفت الابتسامة من وجه قطب النفط، وبرز فكَّاه، وإن كنتَ تعتقد أنه شخصٌ لطيفٌ ومِهزار، فهذا هو الوقت المناسب لتصحيح اعتقادك، ومعك باني وجميع المتمردين الآخرين على النظام الأمريكي.

بدأ باني يتحدث عما يشعُر به الرجال، والمشكلة التي كانت على وشكِ الحدوث، لكن السيد روسكو أوقفَه. «اسمَعني يا جيم الابن، ووفِّر كلامك. أعرف كل ما يقوله الرجال،

وكل ما تُعلِّمهم إياه مجموعةُ البلاشفة. فأنا أحصل على تقريرٍ سريٍّ كل أسبوع. وأعرف بشأن صديقك توم أكستون وبول واتكينز وإيدي بيات وبود ستونر وجيك دوجان، ويمكنني أن أخبرك بكل ما تعرفه، والكثير من الأشياء التي ستُفاجئك.»

ذهل باني، كما كان السيد روسكو يهدف. وتابع الأخير قائلًا: «يا جيم الابن، أنت فتًى ذكي، وسوف تتغلَّب على هذا الهُراء، وأودُّ أن أساعدَك في فعل ذلك، وربما أجنبك قدْرًا كبيرًا من المعاناة، وكذلك أجنِّب والدك، ذلك الرجل المحبوب الذي يحظى بقدْرٍ كبيرٍ من الاحترام. لقد جئتُ إلى هذا العالم قبلكَ بثلاثين أو أربعين سنة، وتعلَّمتُ الكثير من الأمور التي لا تعرفها، لكنك ستعيها يومًا ما. لقد جاء والدُكَ وبقيَّتُنا إلى هنا لأننا نعرفُ كيفيةَ إدارة قطاع النفط، وهذا شيءٌ حقيقيٌّ حقًّا، وليس مجرَّد كلام. لكن بعض الرفاق الآخرين يريدون عزلنا، ويعتقدون أن كل ما عليهم فعله هو إلقاءُ خطاباتٍ على عمال النفط، وتحريضُهم على القيام بأعمال شغب، لكن دعني أخبرك أيها الفتى أن الأمر يتطلَّب أكثر من ذلك بكثير!»

«حسنًا يا سيد روسكو، لكن هذا ليس الهدف …»

قاطعه قائلًا: «اعذرني، ولكنه كذلك. فلنُوقِف هذا الهُراء، ولتكن صادقًا مع نفسك وتعترف بأنك كنتَ تستمع إلى مناقشات هؤلاء البلاشفة. هل ينوون الاستيلاء على قطاع النفط مني ومن والدك، أم لا؟»

«حسنًا، ربما يظنُّون أنه في نهاية المطاف …»

قاطعه قائلًا: «نعم، بالضبط. وعلى حد علمي، فإن الوقت المناسب لوقف هذا الأمر هو الآن. ودَعْني أخبرك أنه إذا تصوَّر أيٌّ من هؤلاء السفلة أنهم سيعيشون على أجوري بينما يستعدُّون لسرقتي، فهم مخطئون، وإذا وجدوا أنفسهم في مصنع الخيش في سان كوينتين، فلن أستخدم أموالي لدفع كفالاتهم وإخراجهم!»

كلُّ ما قيل كان دقيقًا وفي محله، وكان فيرنون روسكو ينظر إلى عينَي باني مباشرة وهو يتحدث. تابع قائلًا: «يا جيم الابن، أعرف كل العبارات المثالية الجميلة التي يخبرك بها هؤلاء الرفاق. كل هذا جميل ولطيف ومن أجل مصلحة الإنسانية، لكنهم يعلمون أن هذا كله طُعْمٌ للحمقى، وإذا كان بوسعك أن تَسمَعَهم وهم يضحكون عليك من وراء ظهرك، فسوف تُدرِك كيف أنهم يستغلونك. ما أريد قولَه لك هو أنه من الأفضل أن تقف على الجانب الخاص بك من السياج قبل أن يبدأ إطلاق النار.»

«هل سيكونُ هناك إطلاقُ نارٍ يا سيد روسكو؟»

«الأمر منوط بأصدقائك البلاشفة. لقد حصَلنا على ما نريد، والآن يريدون أخذه منا.»

«لقد كنا بحاجة إلى عمالِ النفطِ أثناء الحرب يا سيد روسكو، وقد قطعنا لهم الوعود ...»

«اعذرني أيها الفتى، نحن لم نقطع أيَّ وعودٍ على الإطلاق! لقد قطعَها نيابةً عنا أستاذٌ جامعيٌّ لعينٌ متذمرٌ كئيبُ الوجه، وقد انتهينا من هذا الهُراء إلى الأبد! فلدينا رجلُ أعمالٍ مرشَّح لمنصب الرئيس، وسنُدير هذا البلد على أسسٍ تجارية. ودعني أخبرك شيئًا، لقد سئمتُ بشدة من الاضطرار إلى رشوة القيادات العماليين، ويُمكِنني التفكير في طرقٍ أرخصَ لإدارة الأمور.»

أصاب باني الذهول. «هل هذا صحيحٌ حقًّا يا سيد روسكو؟ هل تمكَّنتَ من رشوة مسئولي عمال النفط؟»

اعتدَل فيرن في جلسته وراء المكتب، ووَجَّه إصبعَه الكبيرة إلى وجه باني. وقال: «اسمَع ما أقولُه لك، يا فتى: يمكنني شراءُ أيِّ مسئول، مثلما يمكنني شراءُ أيِّ سياسي، أو أي شخصٍ آخرَ يمكن لمجموعة من المغفَّلين انتخابُه لتولي منصبٍ ما. وأعلمُ ما تفكِّر فيه بشأني، فبالطبع تقول إنني راعي بقرٍ مُسِن، ليست لديه أي مُثُلٍ عليا، ولدَيه برميلٌ من المال ويحسب أنه يستطيعُ استخدامَه في تنفيذ أي شيءٍ يريده. لكن هذا ليس المقصود يا بني، بل لأنني أتمتَّع بالذكاء الكافي لكسبِ المال، واستخدامِه. فالمال لا يمثِّل سلطةً إلا عند استخدامه، والسبب الذي يُمكِّنني من شراء السلطة هو أن الرجال يعرفون أنني أستطيعُ استخدامَها، وإلا فلن يبيعوها لي. هل تفهم قصدي؟»

«ولكن ماذا ستفعل بهذه السلطة يا سيد روسكو؟»

«سأبحث عن النفط وأستخرجه من الأرض، وأكرِّره وأبيعه لمن يملك سعره. وستظل هذه وظيفتي ما دام العالم يحتاج إلى النفط، وعندما يتمكَّن الناسُ من العيش بدون نفط، سأفعل شيئًا آخر. وإذا أراد أيُّ شخصٍ أن يشارك في تلك المهنة، فليَسِر على خطاي، وليكدَّ ويعرق، ويلتزم بقوانين اللعبة.»

«لكن يا سيد روسكو هذه النصيحة لا تناسب جميع العمال. فلا يمكن لأي شخص أن يُدير بئر نفط.»

«أنت محقٌّ في ذلك أيها الفتى؛ فلا يستطيع تولِّي ذلك الأمر إلا من يتمتَّع بالذكاء. وعلى الباقين أن يعملوا، وإذا عملوا لحسابي، فسوف يحصلون على أجورٍ عادلةٍ منتظمةٍ كل ليلة سبت، بغَض النظر عن الجهود التي أبذلها في التخطيط والقلق بشأن المشاكل

المحتمَلة. لكن عندما يأتي شخصٌ فصيح اللسان، ويتدخَّل بيني وبين رجالي، ويقول إنني لا أستطيع التعامل معهم إلا عن طريق دفعِ عمولةٍ له، حينئذٍ سأُرسِله إلى مصنع الخيش!»

٤

كان الشيء الوحيد الذي علق في رأس باني بعد هذه المقابلة هو مناشدة فيرنون روسكو الأخيرة. فقد قال له: «ألا ترى أيها الصبي أن والدك رجلٌ مريض؟ فهو لن يبقى معك لسنواتٍ عديدةٍ أخرى، ويومًا ما، عندما يفوت الأوان، سوف تستيقظ وتُدرِك ما فعلتَه به. فهذا الرجل العجوز كان شغلُه الشاغلُ هو جعل حياتك أسهل، يمكنك أن تقول إذا أردتَ إنه لم ينبغِ له فعلُ ذلك، ولكن هذا ما عاش من أجله. والآن، أنت تجعل جهدَه طَوال حياته هباءً! نعم، هذا ما تفعله، فلتواجه الأمر. أنت ترى أن كل ما فعله لم يكن ذا جدوى، وأن كل أفعاله ملتويةٌ وقذرة، وأن الأشخاص الوحيدين الذين لديهم أي مُثُل أو حقوق مشروعة هم مجموعةٌ من الأشخاص الفاشلين، الذين يكرهون نجاحَه لمعرفتهم أنه أحسَن صنعًا، وأنهم يعجزون عن تحقيق ما يضاهيه. وإذا كنتَ تظُن أن والدك لا يشعُر بذلك، وإذا كنتَ لا تعرفُ أن ذلك يحزنُ قلبه، فإذن دعني أخبرك أن عليك إدراكَ الأمرِ قبل فوات الأوان. إذا كنتَ تريد احتقارَ مال أبيك، فحبًّا للرب انتظر حتى يموت، ويصبح المال ملكك.»

ولذلك عندما خرج باني من المكتب، لم يكن يفكِّر في مشاكل عمال النفط. وبدأ يتساءل: هل صحيحٌ أن حالة الأب الصحية سيئةٌ للغاية؟ ألَا تُوجَد طريقةٌ ما يمكن بها جعلُه يتوقف عن العمل الجاد؟ هل كان من الضروري أن يكون حاضرًا ليشهد كل بئرٍ جديدةٍ تحفرها شركة روس كونسوليديتد، سواء كان في نهر لوبوس أو بارادايس أو بيتش سيتي؟ وماذا سيحدث للأب عندما يصل هذا النضال العمالي إلى ذروته؟

في أوائل الربيع، عقَد قادة الاتحاد مؤتمرًا، ووجهوا إخطارًا لمجلس النفط بأن تحدي أصحاب الآبار لسلطة الحكومة أمرٌ لا يُطاق، فإما أن يؤكِّد المجلسُ سلطته، وإلا فإن العمال سيتولَّون زمام الأمور. لم يحرِّك المجلس ساكنًا، وعندما وجَّه مسئولو الاتحاد رسائل إلى لجنة أصحاب الآبار، لم تُؤخذ بعين الاعتبار. وأصبح لا مفَر من الإضراب، وكلما طال تأجيله، ازداد الأمر سوءًا بالنسبة للرجال.

ثم حدث شيءٌ غريب. جاءت فِي تريسي إلى باني، كانت قد انتهت للتو من تصوير فيلمٍ آخر، لكن لم تكن هناك دعايةٌ هذه المرة، فقد أملت شروطها على شمولسكي، وأخبرَتْه أنها لن تكون لها أي علاقةٍ مرةً أخرى ببروسيا، أو بالإضرابات، أو أي شيءٍ قد يجرح مشاعر حبيبها أمير النفط. هذه المرة أعلنَت اللوحات الإعلانية عن فيولا تريسي في «فيلمٍ كوميديٍّ طويل عن مواقفَ وطرائف بالجامعة، بعنوان «عيون مغرية» (كوم-هيذر آيز).» تتألَّقت فِي في دور الفتاة اللعوب التي كانت تُغازِل طلاب الجامعة، وتحطِّم قلوب جميع نجوم فريق كرة القدم في آنٍ واحد، وأحبطَت بالمصادفة مؤامرةَ مجموعةٍ من وكلاء المراهنات، الذين راهنوا بمليون دولار على نتيجة المباراة الكبيرة، وسَعَوا إلى تدمير الفريق عن طريق اختطافِ تميمةِ حظِّه ومحبوبته. لم يكن باني يشعُر بأي تعاطُف مع وكلاء المراهنات أو الخاطفين؛ ومن ثَمَّ لم يكن هناك بأسٌ من مشاهدته لهذا الفيلم وهو في مرحلة الإعداد، بل إنه أمدَّهم ببعض التفاصيل والمعلومات المستمدَّة من تجاربه الشخصية مع مواقف وطرائف الجامعة.

كان من المقرر أن يُقام «العرض الأول» لفيلم «عيون مغرية» (كوم-هيذر آيز) في نيويورك، وكان يتعيَّن على النجمة السينمائية الحضور. ولذا اقترحَت قائلة: «باني، لماذا لا تأتي معي وتستمتع قليلًا؟»

لم يكن باني قد ذهب إلى الشرق من قبل، وكانت الفكرة مغرية. فقد كانت لديه إجازة عيد الفصح التي تمتدُّ لأسبوعَين، وإذا فاتَته بعض الصفوف في الكلية، فبإمكانه تعويضها. ولذلك أخبرها أنه سيفكر في الأمر، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، كان في الدير وتحدثت آنابيل معه بصراحة قائلة: «لماذا لا تذهب مع فِي وتصطحب الأب معك؟ إنه يحتاج إلى التغيير بشدة.»

تأمل ملامحها البريئة، وعلا وجهه ابتسامة. «ما الأمر يا آنابيل، هل تحاولين أنتِ وفيرن إبعادنا عن الإضراب؟»

فأجابَت: «إذا كان أصدقاؤك يهتمون لأمرك حقًّا، فسوف يتمنَّون لك السعادة.» وعندما قال إن الهروب يُعَد جبنًا، ردَّت عليه ردًّا صادمًا. «هل من الضروري زيارة المسلَخ إذا كنا سنتناول لحم الضأن المشوي على العَشاء؟»

أجاب: «أنتِ فيلسوفةٌ اجتماعيةٌ، يا آنابيل.» وأخبرَتْه أن الناس يذهبون إلى الجامعات ليتعلَّموا مصطلحاتٍ طويلةً تعبِّر عن المنطق السليم!

كان من الواضحِ أن المؤامرةَ كان مخططًا لها بحنكة؛ لأنه عندما عاد باني إلى البيت، سأله الأب: «هل أخبرك فيرن بما يريدني أن أفعله؟»

«لا يا أبي، ما الأمر؟»

«هناك مؤتمر في نيويورك يجب على شخصٍ ما أن يحضُره، وأراد أن يعرفَ ما إذا كان بإمكاني الذهاب. وكنتُ أتساءلُ عما إذا كان أخذُ إجازةٍ قصيرةٍ من الجامعة سيؤثِّر في دراستك.»

دخل باني في أخذٍ وردٍّ مع نفسه. ما الذي يُمكِن تحقيقُه بالبقاء؟ في الإضراب الأول، تمكَّن من إبقاء العمال في منازلهم، لكنه لا يستطيع فعلَ ذلك الآن؛ لأن فيرن كان هو المسئول، ولن يتزحزحَ عن موقفِه قيدَ أَنْمَلة. ويبدو أن تشبيه آنابيل للحم الضأن كان يتناسب تمامًا مع وضعِ اتحادِ عمالِ النفط. فقد تستغرق عمليةُ الذبحِ أسابيع، أو حتى أشهُر، لكنها ستتم في النهاية، وفي غضونِ ذلك لن يفعل باني شيئًا سوى تعذيبِ والدِه المسكين.

وبعد ذلك استُدعِيَت بيرتي للمشاركة في المؤامرة. فقد أرادَتْه بيرتي أن يرحل. وكان من المقرَّر أن تزور آل وودبريدج رايلي العصريين، وبعد ذلك ستكونُ على متنِ يختِ ثيلما نورمان، ولم تكن تريد أن يتورَّط شقيقها في إضراب النفط، وربما تُنشَر فضيحتُه مجددًا في الصحف! ألن يفكِّر في الأب لمرةٍ واحدة، ويجعله يأخذ قسطًا من الراحة؟ وسئم باني من الجدال، ووافَق على السفر.

٥

أثارت الرحلة المقترحة مشكلةً غريبة. كيف يسافر المرءُ مع عشيقتِه إلى «أرض فخر الحجاج»؟ وتذكَّر باني بشكلٍ مبهم أنه سمع عن طردِ أشخاصٍ من الفنادق؛ بسبب عدمِ وجودِ وثائقِ زواج. هل سيتعيَّن عليه هو وِفي أن يلتقيا سرًّا؟ سألها عن ذلك، مفترضًا أن خبرتَها ستُمكِّنها من الإجابة عن السؤال، وبالفعل أجابَتْه. في القطارات، كان بإمكانك حجزُ مقصورة، دون أن يُطرح عليك أيُّ أسئلة. أما الفنادق، فما عليك إلا الذهابُ إلى أرقى الفنادق، وإخبارُهم بهُويتك، وحينئذٍ لن يمانعوا في توفير جناحَين متجاورَين، لهما بابٌ متصل. وطلبَت منه فِي أن ينظر إلى فيرن وآنابيل؛ فعندما كان يناسبُهما الوضع، كانا يعلنان عن علاقتِهما عند الإقامة في أرقى فنادق إنجِل سيتي، ولم يكن هناك أيُّ اعتراضٍ من الإدارة أو الصحف. وقد تصادَف أن أقامت السيدة روسكو في الفندقِ ذاتِه

أكثرَ من مرة، وكانت الصحفُ تنشُر إنجازاتها في صفحة المجتمع، وإنجازاتِ آنابيل في صفحة الترفيه، حتى لا يحدُث أيُّ صدامٍ بينهما.

في واقع الأمر لم تعُد أرضُ فخر الحجاج موجودة، وحلَّت محلَّها أرضُ مجد المليونيرات. وعندما كانت إحدى نجمات السينما تتجه شرقًا، مع عشيقها أو من دونه، كانت دائمًا تُغادِر في وضح النهار، وكان مسئولُ الدعاية الخاصُّ بها يحرص على أن تنشُر الصحف الزمان والمكان. وكانت النتيجة احتشادَ آلافٍ من مطلقي الهتافات، ووجودَ رجال الشرطة لردعهم، وارتفاعَ أصوات الكاميرات، ووجودَ العديد من باقاتِ الزهور؛ حتى يعرف جميع ركاب القطار أن هناك نجمةً بصحبتهم على متن القطار. كانت الحشود تنتظر في كل محطة، تُطالِب بإلقاء نظرةٍ سريعةٍ على نجمتها المفضَّلة، وإذا كان هناك أميرُ نفطٍ يسافر بصحبتها في المقصورة ذاتها، فذلك لا يُعتبَر فضيحة، بل قصة حب.

وعندما وصلا إلى نيويورك، كان هناك حشدٌ آخر، استحضَره فريقُ الدعاية الكفُؤ الخاص بشركة شمولسكي سوبربا. وفي الفندق كان في انتظارهما مزيدٌ من الأشخاص ومزيدٌ من باقات الزهور، وعشراتُ المراسلين الذين يطالبون بإجراء المقابلات. وهنا يأتي السؤال التالي: هل، مع كل تلك الإعلاناتِ المجانيةِ للفندق، سيهتَم أيُّ موظفٍ فضوليٍّ أو مسئول أمنٍ بالفندق بمسألة ما إذا كان الباب الواصل بين الجناحَين قد ظل مغلقًا أم لا؟ وهل سيحدُث ذلك في ظل وجود شخصيةٍ تتمتع بسلطةٍ مذهلة، مثل جيه أرنولد روس الذي يُسافِر معهما ويُبدِي موافقتَه على الوضع؟ فقد كان وجهُ الأب يُضاهِي دزينةً من وثائقِ الزواجِ في أي فندقٍ في البلاد!

أما الأب، فكان مستمتعًا بكل شيءٍ طَوالَ هذه الرحلة؛ فقد شعر بنشوة غير مباشرة، حالت دون معاناته من «آثار الشرب» في صباحِ اليومِ التالي. وقد أصَر على دفعِ جميعِ الفواتير، وكان بصحبته سكرتيره الخاص؛ ولذا حدث كلُّ شيء بسهولة، مثل حجز تذاكر القطار، والأجنحة الفندقية، وسيارات الأجرة، والزهور، والحلوى، وتذاكر السينما، كل ما كان عليك فعلُه هو أن تتمنَّى أمنية، وعلى الفور كانت تتحقَّق. هل هناك ما يمكن إضافته إلى هذا النعيم الدنيوي؟ كانت ڤِي ترغب في تناول وجبةٍ مشبعةٍ بين الحين والآخر؛ وأن تقضيَ الصباح في السرير، بدلًا من الاضطرار إلى الذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية لـ «تقليل وزنها»!

شاهدوا العرضَ الأول لفيلم «عيون مغرية» (كوم-هيذر آيز). في حال أنك لم تلتحق قَط بالجامعة في أمريكا، ولا تفهم طرقَ حديثنا المفعمة بالحيوية، دعني أوضِّح أنه قد

لوحظ تمتُّع عيون «فتيات الجامعة» في بعض الأحيان بصفةٍ معيَّنة تثير داخل أي ذكرٍ الرغبةَ في الاقتراب منهن، وقد تكون هذه الصفة ناجمةً عن موهبةٍ طبيعيةٍ أو مكتسبةٍ من خلال الممارسة. عنوانٌ لذيذ كما ترى، وفيلم لذيذ، ينقل ملايينَ من الأشخاص الذين يشعُرون بالتعب والملل إلى عالم إنفاقِ الأموالِ المجيدِ الذي يعيش فيه فِي وباني. فالميكانيكي الذي كان يُحكِم ربط الصامولة رقم ٨٤٧ في أحدِ مصانعِ السياراتِ طَوالَ اليوم، وربة المنزل التي كانت تغسل حفَّاضات الأطفال وتشتري بضائعَ رديئةً من أحد المتاجر التي تبيع كل المنتجات بخمسة وعشرة سنتات، كانا في نفس وضع الأب؛ حيث كانا يستمتعان بنشوةٍ غير مباشرة، حالت دون معاناتهما من «آثار الشرب» في صباح اليوم التالي!

كانت أجواءُ العرض الأول في نيويورك تُضاهي أجواء إنجِل سيتي؛ حيث كانت الحشودُ كبيرةً والهتافاتُ حماسية. وأثناء جلوس فِي وباني في السرير بملابسهما الحريرية، قرآ ما كتبَتْه الصحفُ عن انتصارهما، والأشخاص الذين حضَروا العرض الأول والملابس التي ارتدوها، وفي غضون ذلك كان الخدَم بملابسهم السوداء يقدِّمون لهما وجبةَ الإفطارِ بطريقةٍ آليةٍ هادئةٍ على صَوانٍ فضية. ثُم، أثناء تصفُّح الجريدة، قرأ باني خبرًا قادمًا من إنجِل سيتي مفادُه أن عشرةَ آلافٍ من عمال النفط قد أضربوا عن العمل، مما أدى إلى توقُّف الإنتاج. وأعلن أصحابُ الآبار أنهم لم يعودوا على استعدادٍ للاعترافِ بمجلس النفط، وأصدروا جدولَ أجورٍ جديدًا كان على العمال إما القبول به وإما الرحيل. وأضافت الصحف أن ثمَّة مخاوفَ من حدوثِ مشاكل؛ لأنه كان معروفًا أن المحرِّضين المتطرِّفين كانوا يمارسون أنشطتَهم بين الرجال منذ فترة.

٦

كان باني في عطلة، وكان عليه الاستمتاع بوقته، ولو لم يفعل ذلك، لأفسَد على رفيقَيه مُتعتَهما. ولذلك كان عليه أن يبتسمَ ويرافقَهما إلى دار العرض، وبعد ذلك يرسل الأب إلى المنزل في سيارة أجرة، ويذهب مع فِي إلى حفلِ عَشاء مع بعض العاملين في مجال السينما، ويتحدث معهم عن إنتاجاتهم وأرباحهم، ويشاهدهم وهم يسرفون في الشراب، ويعلم أنهم سيتحدثون لمدة ساعة عن الحظر والمهربين، بمجرد أن يرفض هو وفِي الشرب. وسيستفسرون عما إذا كانا «يقلعان عن الشرب». وقد يفترضون أنهما كانا خائفَين من

شرب هذا المشروب الكحولي. حينئذٍ سيخبرونهما عن مدى تميُّز هذا المشروب؛ فقد كان من مشروبات كوسكي الكحولية الأصلية، أو أيًّا ما كان موجودًا في نيويورك.

ثم في الصباح، كان الثنائي يذهب إلى «صالة الألعاب الرياضية»، ويتدربان على الحركات الخطيرة معًا، حتى أصبحا لاعبَي جمباز في غاية الكفاءة، وكانت فِي تقول إنه إذا أفلس الأب يومًا ما، وأتعبَتها الشهرة وكان عليها تركُ مجال الأفلام، فبإمكانهما كسبُ عدةِ مئاتٍ من الدولارات أسبوعيًّا من خلال الاشتراك في «استعراضات السيرك الكبيرة». كانا يتناولان الغداء، وبعد ذلك قد يحضُران عرضًا بعد الظهر، أو قد يزورهما شخصٌ ما، أو مراسلون أو كتَّابٌ متخصصون، أو ربما تذهب فِي للتسوق، وتُصِر بشدة على اصطحاب حبيبها باني معها؛ لأنه كان يتمتع بذوقٍ رائع، فهي تحب أن تحظى ملابسها برضاه. التقى باني بشبابٍ أثرياء آخرين في نفس وضعه، وعلم أن تلك التصريحات كانت تمهيدًا لأن تطلب المرأة من الرجل أن تُرسَل الفاتورة إليه. ولكن فِي لم تكن «مستغِلَّة»؛ فعندما كانت تدعو أحدًا، كانت تدفع الحساب.

ما أرادَتْه هو حبيبها باني. كانت تعشقُه، وأرادت أن تكون معه في كل لحظة، وأن تتباهى به أمام العالم أجمع، بما في ذلك الصحف. لقد امتدَّت علاقتُهما لفترةٍ طويلةٍ تكفي ليعرفَها باني حق المعرفة، ويُدرِك عيوب هذه العلاقة ومزاياها. ولم يزعجه أنها كانت شهوانية؛ لأنه كان صغيرًا، وكانت رغبتُه تُضاهِي رغبتها. كانت فنونُ العشق التي تعلَّمها من يونيس هويت قد دُمجَت مع تلك التي تعلمَتْها فِي من عُشَّاقها الكثيرين، وكانا يشعُران ببهجةٍ غامرة؛ فقد كان من المستحيل مقاومةُ الغريزة التي كانت تجمعهما معًا.

لكن فكريًّا كانا مختلفَين للغاية. فقد كانت فِي تستمع إلى أي شيءٍ يريد التحدث عنه، لكن مدى ضآلة اهتمامها بالأشياء الجادة كان ينكشف بطريقةٍ هَزْلية، من خلال تغيير موضوع المحادثة فجأة. فقد كان لها حياتُها الخاصة، حياةٌ مفعمةٌ بالسرعة والإثارة والاستعراض. ربما كانت تستهزئ بعالم السينما وأعماله، لكنها مع ذلك كانت تنتمي إلى ذلك العالم، وكان التصفيق والاهتمام كالهواء الذي تتنفَّسه. فطوالَ الوقتِ كانت الأضواءُ مسلَّطةً عليها، وهي تلعب دور الممثِّلة المحترِفة المفضَّلة لدى العالم، وكانت دائمًا مشرقةً ومنتعشةً وشابةً وجميلةً ومليئةً بالحيوية. ولذلك كان التفَكُّر موضعَ شك، ستارًا يمكن أن يستخدمه الأعداء الخطرون للتسلُّل إلى عقلك. قالت لباني: «ما الأمر يا عزيزي باني؟ أعتقد أنك تفكِّر في ذلك الإضراب الشنيع!»

كان الجلوسُ وقراءةُ كتابٍ أمرًا لا تعرفه على الإطلاق هذه الممثِّلة المفضَّلة للعالم. بالطبع كان بإمكانها قراءةُ صحيفة، أو مجلة؛ فهي موجودة في الجوار؛ ولذلك كان المرء يلتقطها ويُلقي نظرةً عليها، لكنه دائمًا ما يكون على استعدادٍ للتوقف عن القراءة والنظر إلى فستانٍ جديد، أو الاستماع إلى قليلٍ من القيل والقال. لكن لم يَبدُ من الأدب على الإطلاق أن تنغمسَ في القراءة وألَّا تريد أن يقاطعك أحد. أما عن قضاء فترة ما بعد الظهر أو المساء بأكملها في قراءة كتاب، فببساطة لم تسمع ﭬي قط عن شيءٍ من هذا القبيل. وعلى الرغم من أنها لم تُفصِح عن هذا الأمر، استطاع باني أن يفهَم أن الكتاب شيءٌ رخيصُ الثمن، يمكن لأي شخصٍ أن يحصُل على واحدٍ ويجلس في الزاوية، لكن قلة هم الذين يمكِنهم الحصول على مقصورةٍ خاصةٍ في دار العرض، مُقدمة من الإدارة؛ فالجلوسُ هناك يعطيك أهميةً لا تقلُّ عن أهمية العرض ذاته.

التقى باني بأحد الرفاق الشباب الذين درَّسوا في كلية العمال التابعة لدان إيرفينج في نيويورك، وتحدَّثا عما كان يحدُث في الحركة العمالية في جميع أنحاء العالم. كان باني يودُّ مقابلتَه مرةً أخرى، والذهاب إلى الاجتماعات؛ فقد كان هناك الكثير من الأشياء المثيرة في هذه المدينة العظيمة التي تُعتبَر مركزَ الحركةِ الراديكالية، كما كانت مركزَ كلِّ شيءٍ آخر. لكن ﭬي علمَت بهذا الأمر، وشرعَت في إنقاذه، تمامًا كما لو كان يريد تدخين الأفيون أو شرب الأفسنتين! كانت تشغَل وقته بالمقابلات التي تحدِّدها، وتسأله بقلق: «أين سيذهب فتاي المتجوِّل الليلة؟» عرف باني بالطبع أنها كانت تفعل ذلك من أجل خلاصِ روحه، وبلا شكٍّ بناءً على طلبٍ مباشرٍ من الأب، ولكن مع ذلك كان الأمر مزعجًا.

كان لديه أحد المعارف الآخرين الذي لم تعترض ﭬي على زيارته؛ وهو والدتُه. فقد أرسلَت له رسالةً تُخبره فيها أنها قد تزوَّجَت مرةً أخرى منذ فترة، وكان زوجها ثريًّا، ولديها الآن منزلٌ جميل. ذهب باني لرؤيتها، وكان عليه أن يبذل قصارى جهده حتى لا يظهَر ذعرُه من تغيُّر مظهرها. لقد كانت مثالًا مروعًا لما يحدُث للمرأة عندما تستسلم لرغبتها في تناول وجبةٍ مشبعة! فقد ازداد وزن الأم حتى أصبحَت مستديرةً مثل كرة من الزبدة، وناعمةً جدًّا لدرجة أنها كان من الصعب أن تتحمل يومًا حارًّا مثل هذا. هناك مقولةٌ تقول: «أربعينية، سمينة، جميلة»، وكان الجراحون يضيفون: «وذات مرارةٍ متضرِّرة»، لكن باني لم يكن يعرف تلك المقولة، وكذلك الأم. تأنَّقت كملكة تكريمًا لزيارته، وكان لديها كلب بودل، قالت ﭬي إنها اختارت هذا النوع من الكلاب ليتناسب مع قوامها. كان زوجها تاجر مجوهرات، ويبدو أنه كان يحتفظ بمجوهراته مع زوجته بدلًا من

وضعِها في خزنة. وأصرَّت على إعطاء باني خاتمًا من الألماس، وعندما أخبرها عن الإضراب، أعطته خاتمًا آخر ليبيعه من أجل صندوق إغاثة المضربين. وأخبرَتْه الأم أنها تعلم مدى قسوة رجال النفط!

٧

كان الأب يتولَّى أمر المهمة التي أتَت به إلى الساحل الشرقي. لم يقُل الكثير عنها، وكان ذلك غير معتاد؛ لذلك عرف باني أنها كانت شيئًا مريبًا. وبعد فترةٍ وجيزة، تمكَّن من الحصول على معلومات من والده؛ كان الأمر له علاقة بعقود إيجارِ قوات البحرية الاحتياطية التي كانوا يخطِّطون للحصول عليها. وبعد تولِّي هاردينج الرئاسة، عين بارني بروكواي نائبًا عامًّا له، وفقًا للخطة، وعين رفيق فيرنون روسكو وزيرًا للداخلية. كان هذا الرفيق هو السيناتور كريسبي، وهو عضو قديم في الحزب خدم روسكو وأورايلي عندما كانا منشغلَين بإقالة حكومةٍ مكسيكيةٍ وتعيين أخرى، وكان يهدِّد المكسيكيين بالتدخُّل الأمريكي، وكان كريسبي هذا، بصفته سيناتور من تكساس، قد دعا إلى الحرب، وكاد يتسبَّب في حدوثها. قال الأب إنه لا يستطيع أن يترك النساء وشأنهن؛ ولذلك كان بحاجةٍ إلى المال طوال الوقت وكان مستعدًّا لتولِّي أي وظيفةٍ جديدة.

الآن كان عليه أن يمنح رجال النفط مجموعةً كاملةً من عقود الإيجار القَيِّمة دون مقابل تقريبًا، ولكنه طلب مزيدًا من المال، كما فعل الكثير من الرفاق. وكانت تلك هي مشكلة التعامل مع السياسيين؛ فإذا اشتريتَ ذممَهم قبل الانتخابات، فعليك أن تُعيد شراءها بعد الانتخابات؛ فهم لا «يثبتون على موقفهم»، مثل رجال الأعمال. لقد أتى الأب إلى هنا من أجل استشارة محامٍ يعتبره فيرن الأعظم في البلاد، وتأسيس شركةٍ صغيرةٍ بغرضِ دعمِ مسئولين حكوميين ماديًّا بشكلٍ قانوني. بالطبع لم يُعبِّر الأب عن الأمر بتلك الصراحة، لكن باني أصَر على أن هذا ما كان يعنيه، وسأله عن كيفية تنفيذ ذلك. أجاب الأب أن المحامي الجيد حقًّا يمكنه فعل أي شيء. فقد كان من المقرَّر أن تكون هذه الشركة كندية؛ حتى لا تُضطَر إلى الانصياع لقوانين الولايات المتحدة، وفي النهاية سيحصُل حمَلة الأسهم بتلك الشركة على عقود الإيجار الخاصة بهم. لكن المشكلة كانت أنه لا يمكن لأحدٍ أن يكون متأكدًا من قيمة عقود الإيجار، وكان بيت أورايلي وفريد أوربان يُحاولان جَعْل الأب وفيرن يدفعان حصةً كبيرةً جدًّا من المال. جُنَّ جنونُ فيرن وأخبرهما أن هذا هُراء، وأراد من الأب أن ينتظر لبعض الوقت في نيويورك، وأن يُخادعَهما. وهنا سأل الأب

باني عما إذا كان بإمكانه عدمُ حضورِ ما تبقَّى من فصله الدراسي، وربما أَخْذ دروسٍ خصوصية، واجتياز الامتحانات في الخريف.

قال باني إنه غيرُ مهتم بالجامعة، لكن ما يقلقه هو تورُّط الأب في هذه الشركة الكندية. أكد له الأب أن الأمر على ما يُرام؛ فلديه أفضل محامٍ في البلاد. لكن باني قال: «هل أنت متأكدٌ من أن فيرن لا يخدعك؟» صُدم الأب من كلامه، فكيف يمكن لباني أن يفكِّر في شيءٍ كهذا؛ إذ كان فيرن أفضلَ صديقٍ حظي به الأب في العمل على الإطلاق، وقد كان شخصًا أمينًا. «لكن يا أبي، لعبة النفط ليست مكانًا للأمناء. ولماذا لا يدفع فيرن الرشوة بنفسه؟ لماذا لم يأتِ إلى نيويورك؟»

«لكن يا بُني، يتولى فيرن مسئولية التعامل مع الإضراب؛ ولذلك لم يكن بإمكانه السفَر الآن. لقد أزال ذلك الحِملَ عن كاهلي، ويجب أن تكون سعيدًا بذلك.» أضاف الأب ملاحظةً ساذجة تُفيد أن رجال النفط لم يسمحوا له بالتعامل مع العمال لأنه كان «ليِّن العريكة». بدَت هذه العبارة مألوفةً لباني.

اتضح أن فِي والأب كانا يتعاونان لتنفيذ هذه الخطة. فقد أرادت فِي أيضًا الحصول على إجازة؛ ولذلك قرَّرا السفر إلى كندا لإكمال عمل الأب، وبعد ذلك مكَثا في أحد المعسكرات، وبدلًا من إجراء التدريبات المُتعِبة في «صالة الألعاب الرياضية»، كانت هي وباني يتجوَّلان في الغابات ويسبحان في إحدى البحيرات الجميلة. ولذلك أرسل الأب برقيةً إلى رئيس الجامعة، ألونزو تي كوبر، الحاصل على دكتوراه في علم اللاهوت والفلسفة والقانون، موضحًا أن الأعمال المُلحَّة أجبرت ابنَه على البقاء في الساحل الشرقي، وسأله عما إذا كان من الممكن تأجيلُ امتحاناتِ باني للخريف. أرسل الدكتور كوبر برقيةً تفيد بأنه من دواعي سرور الإدارة تلبيةُ هذا الطلب.

وبعد ذلك، في صباح اليوم التالي لتسوية كل شيء، وصلَت برقية لباني، ففتَحَها وقرأ التوقيع. كانت روث واتكينز هي مَن أرسلَتها. تصفَّح البرقية بسرعة، وأدرَكَ فحواها، كان قد قُبِضَ على بول وإيدي بيات وبود ستونر وجيك دوجان وأربعةٍ آخرين من مجموعتهم؛ حيث وُجهَت إليهم تهمة «الاشتباه في تورُّطهم في نشاطٍ نقابيٍّ إجرامي»، وزُجَّ بهم في سجن مقاطعة سان إليدو مع إمكانية خروجهم بكفالةٍ قدرُها عشرةُ آلاف دولار لبول وسبعة آلاف وخمسمائة لكل واحدٍ من الآخرين. وقالت روث في البرقية: «إنهم لم يفعلوا شيئًا، والجميع يعرف ذلك، وهذه مجرَّد خطةٍ لحبسهم أثناء الإضراب. إن السجن مكانٌ فظيع، وصحة بول لن تتحمَّله؛ لذا أناشدكَ من أجل صداقتنا القديمة أن تدفعَ الكفالةَ

المطلوبةَ للجميع، وبالتأكيد ليس هناك حاجةٌ إلى التأكيد على أن أيَّ أموالٍ ستُصرَف على هؤلاء الشباب لن تضيع هباء.»

٨

في البداية، كان لدى باني شكٌّ موجِع في أن والده كان على علمٍ بهذا الاعتقال، أو على الأقل أنه كان قيد النظر، قبل محاولتِه الأخيرة لإبعاد باني عن كاليفورنيا. لكنه استوعب أن ذلك كان كافيًا لإدراك أن فيرنون روسكو، الذي كان ينوي القضاء على «عش البلشفية» في كابينة آل راسكوم، قد وضع خطَطًا لإبعاد كلٍّ من الأب وباني. على أية حال، لن ينجح المخطَّط؛ لأن باني لن يسمح بأن يُعامَل صديقُه بهذه الطريقةِ الفظة!

تصادَف أن الأب كان بالخارج، وأطلَع باني فِي على البرقية، وتحدَّث معها بشأنها. أرادت أن تعرف ما الذي ينوي فعله، فأجاب أنه سيتعيَّن على الأب دفعُ كفالةِ بول، على الأقل.

قالت: «لكن يا باني، أنت تعلَم أنه لا يستطيع فِعْل ذلك؛ فهو لن يخالف فيرن فيما يتعلق بالإضراب.»

«هذا ببساطة ما عليه فعلُه يا فِي! وسأشعُر بخذلانٍ شديد إن تركتُ رجلًا مثل بول محبوسًا في ذلك الجُب القذر.»

«ولكن لنفترِض أن الأب رفضَ فعلَ ذلك يا باني؟»

«إذن لا بد أن أعود، هذا كل ما في الأمر.»

«ماذا يمكنك أن تفعل عندما تعود إلى هناك؟»

«سأبحثُ عن شخصٍ يتمتع بالنزاهة والقليل من المال أيضًا.»

«ليس من السهل العثورُ على هذا المزيج يا عزيزي، أعرف ذلك لأنني حاولتُ بنفسي. وهذا سيجعل الأب غيرَ سعيدٍ على الإطلاق، فضلًا عن إفساد إجازتنا. لقد سمعتُ للتو عن أجمل مكان على الإطلاق؛ إنه معسكر اشتراه شمولسكي في أونتاريو، ولم يذهب إليه من قبلُ بسبب انشغاله الشديد. يا إلهي، لقد تصوَّرتُ أننا سنقضي وقتًا رائعًا يا باني.»

لفَّت ذراعَيها حوله، لكنه لم يكُن يشعر بوجودها؛ فقد كانت روحُه معذبةً بشدة لمجرد التفكير في أن بول كان في السجن. بينما هو، باني، يهرُب من المتاعب، ويتسكَّع ويتظاهر بأنه في «عطلة»! لقد كان يحسب أنه يفهم المُعضِلة الاجتماعية، وأن لديه مُثلًا عليا، أو على الأقل فكرة بسيطة عن اللطف والعدل! تحرَّر من ذراعَي فِي، وبدأ يسير جيئةً

وذهابًا، وهو يشعر بغضبٍ شديد، أولًا من نفسه لكونه خائنًا، وثانيًا من المحتالين القذِرين الذين يُديرون حكومة مقاطعة سان إليدو، ويسرقون الأموال التي كان من المفترض أن تكون مخصَّصة للحفاظ على نظافة السجن وإطعام السجناء. كان باني يضُم يدَيه معًا في حزنٍ شديد، وشاهدَته فِي وهي مذهولة؛ فقد كان ذلك جانبًا جديدًا من شخصية حبيبها باني، الذي اعتقدَت أنه في غاية اللطف والرقة والدفء!

قالت فجأة: «اسمع يا عزيزي! توقَّف لحظة وتحدَّث معي بهدوء. كما تعلم، أنا لا أعرف الكثير عن هذه الأشياء.»

«ما الذي تريدين معرفتَه؟»

«كيف يمكنك التأكد من أن بول لم ينتهك أي قانون؟»

«لأنني أعرفه. وأعرف كل أفكاره. لقد تناقشتُ معه في كل شيء يخُص هذا الإضراب، وكيفية إدارته، وأهمية توحيد صفوف العمال، وضرورة إخضاعِ كل شيءٍ آخرَ لذلك الأمر. وهذا ما كان يفعلُه، ولهذا السبب ألقاه فيرن في السجن».

«هل أنت متأكدٌ تمامًا من أن فيرن فعل ذلك؟»

«بالطبع، هو وبقية لجنة أصحاب آبار النفط. فهؤلاء المسئولون في سان إليدو ما هم إلا خدَمٌ لرجال النفط! وقبل أن يأتي فيرن إلى هناك، كان الأب يُدير تلك المقاطعة؛ لقد رأيتُه بعيني يدفَع المال، أكثر من مرة.»

«ألا تظُن أنه قد يكون لديهم أدلةٌ على تواطؤ بول في أعمال عنف؟»

«لا أعرف ما الأدلة التي لديهم. لقد أخبرني فيرن أن لديه جواسيسَ ضمن تلك المجموعة، ولا أعرف ما الأدلة التي ربما قد زرَعها هؤلاء الجواسيس، وحتى فيرن نفسه لا يعرف شيئًا بشأن هذا الأمر. وهذا واحدٌ من الأمور اللعينة التي لها علاقة بهذا الموضوع. الأمر الآخر هو، كما هو واضح، تهمة «الاشتباه في التورُّط في نشاطٍ نقابيٍّ إجرامي»! فما يُسمُّونه ﺑ «النشاط النقابي الإجرامي» يعني أنكِ تَدْعين إلى إسقاط الحكومة، أو تغيير النظام الاجتماعي بالقوة، لكنهم، كما لاحظتِ، لا يعتقلونك بسبب ذلك، بل يعتقلونك ﻟ «الاشتباه» في تورُّطك في ذلك! بعبارةٍ أخرى، إذا دافعتِ عن إحدى الأفكار التي قد يعتبرُها شرطيٌّ جاهلٌ أو مسئولٌ محتالٌ خطيرة، حينئذٍ يُلقون بكِ في السجن، وتظلين هناك؛ فالمحاكم مزدحمة، وبإمكانهم إبقاؤك هناك لمدة عامٍ دون محاكمة أو أي فرصةٍ على الإطلاق.»

«بالتأكيد لا يمكنهم فعلُ ذلك يا باني!»

«هذا بالضبط ما يفعلونه. وأعرف رفاقًا تعرَّضوا لذلك. فهم يتعمَّدون تحديد كفالةٍ باهظة؛ حتى لا يتمكَّن العمال من دفعها. ويحسبون أنهم سيفعلون ذلك ببول واتكينز، أفضلِ صديقٍ حظيتُ به على الإطلاق وأكثر شخصٍ مستقيمٍ عرفتُه في حياتي، بحق الرب، لقد ذهب إلى سيبيريا وخدَم في تلك الحرب، وخرج منها مريضًا، لقد كان هذا الصبي قبل ذلك قويًّا مثل ثمرة جوز، رجلًا ريفيًّا، بسيطًا مستقيمًا، صالحًا. وهكذا تُكافِئه بلاده مقابل خدماته، يا إلهي، أودُّ أن أراهم يدفعونني للقتال من أجل بلدٍ كهذا!»

مسَح باني بسرعةٍ دمعةً فرَّت من عينه، واستأنف سيره جيئةً وذهابًا، وتعثَّر في أحد المقاعد. وضعَت فِي ذراعَيها حوله وهمسَت قائلة: «اسمعني يا عزيزي، أعرف بعض الأشخاص الذين يملكون المال، وقد أتمكَّن من مساعدتك. دع لي الأمر لبضع ساعات، ولا تقُل أي شيء للأب؛ فما فائدة إزعاجه دون هدف؟ إذا تمكَّنتُ من تدبُّر الأمر، فسيكون قادرًا على إخبار فيرن بأنه لا يعرف شيئًا عن هذا الموضوع، وسيكون ذلك أفضلَ بكثيرٍ من جميع النواحي.»

خرجَت فِي، وبعد بضع ساعاتٍ عادت. وأرسَل باني لروث برقيةً يُخبِرها أنه هو ووالده لم يستطيعا فعل أيِّ شيء، لكن أحد الأصدقاء اهتم بالأمر، وقد أُودِع المالُ لدى شركة أمريكان بوندينج لسندات الكفالة، وسيتولَّى مكتبُها في إنجِل سيتي مسئوليةَ إطلاقِ سراح بول. سألها باني: «كيف فعلتِ ذلك؟» فأجابت: «كلما قلَّت معرفتك بالأمر كان أفضل. أعرف شخصًا يمتلكُ بعض العقارات في إنجِل سيتي، ويحصُل على دخلٍ منتظم منها، ولديه أصحابُ عملٍ حريصون على إبقائه سعيدًا وراضيًا.» أخبَرها باني أنه ينبغي عليه ردُّ هذا المبلغ فلا بد أن الأمر كان مكلفًا، فقالت فِي: «نعم، لقد كلَّفني الكثير، وسوف تُسدِّده لي حبًّا ومودَّة، ويمكنك البدء الآن.» واندفعَت إلى ذراعيه، فأغرقَها بالقبلات، وبدا الأمر كما لو كانت هناك فرقةٌ موسيقيةٌ تعزف بحماسٍ في قلبَيْهما. إنه لأمرٌ مقلقٌ للغاية أن يكون لديك فرقةٌ موسيقيةٌ كاملةٌ بداخلك!

٩

خرج بول من السجن، وكان من المفترض أن يَسعَد باني بهذا الخبر. لكن كان هناك سبعةُ رفاقٍ آخرين، وكان باني يعرفهم جميعًا، لكن إطلاق سراحهم كان سيُكلِّف اثنين وخمسين ألفًا وخمسمائة دولار، ومن المؤكَّد أن ذلك كان سيدفع بالمثالية إلى حدودٍ متطرفةٍ

غير معقولة. لذا، سمح باني لِفِي بأخذه هو والأب إلى ذلك «المعسكر» الذي يُطِل على بحيرة ويحمل اسمًا هنديًّا طويلًا، وهناك سبَحا، وركبا الزوارق، واصطادا الأسماك، وتجوَّلا في الغابات، والتقَطا صورًا لحيوان الموظ وهو في الماء؛ كان لديهما مرشدون هنود، وكان كل شيء رومانسيًّا، وفي الوقت ذاته كان هناك مياهٌ ساخنةٌ وباردةٌ في غرف نومهما، فضلًا عن التدفئة بالبخار إذا أرادا ذلك؛ فقد توفَّرَت هناك جميعُ سُبل الراحة التي كانت موجودةً ببرودواي وشارع فورتي سكند.

في هذا المكان أُتيحت لهما فرصة قضاء وقتٍ كافٍ معًا؛ فلم تُلهِهما أي واجباتٍ اجتماعيةٍ أو زوَّار؛ ولذا لم يكن عليهما الاهتمام بمظهرهما وارتداء الملابس المناسبة، وكانا معًا طوال النهار والليل. ما اكتشَفه باني هو أنهما كانا يشعُران بسعادةٍ غامرةٍ ما داما كانا يمارسان أنشطةً جسدية، مثل: الذهاب إلى أماكنَ أخرى بالزوارق، واستخدام أساليبِ صيدٍ جديدة، وتصوير الحياة البرية، والتجديف في المنحدرات المائية السريعة، وتعلُّم كيفية إقامة المعسكرات، وإشعال النار مثل الهنود، وغير ذلك من الأنشطة. لكن بمجرد انتهاء وقت اللعب، كانا يشعُران بفجوةٍ كبيرةٍ بينهما. فعندما كان باني يريد القراءة، لم يكن لدى فِي فكرة عن كيفية شغل وقتها.

كانت هناك سفينةٌ بخاريةٌ صغيرةٌ تمُر مرةً واحدةً يوميًّا على البحيرة لتوصيل المؤن والبريد. تضمَّن هذا البريد صحفًا من إنجِل سيتي، وأيضًا نشرةَ إضرابِ عمال النفط، التي كانت تأتي مرةً واحدةً في الأسبوع، والتي كان باني قد اتخذ قرارًا غيرَ حكيم بالاشتراك فيها. فما الفائدة من الابتعاد عن المشاكل مسافة ثلاثة آلاف ميل، ثم طلب إرسالها إليك عَبْر البريد؟ شرع في قراءة المَشَاهد التي كان يعرفها جيدًا وتخيلها، والتي كانت تشمل الاجتماعات، وأعمال الإغاثة، وجمع الأموال، والصراعات مع الحراس، والاعتقالات، ومعاناة الرجال في السجن، وضرب المعتصمين، ووقاحة مأمور الشرطة والمسئولين الآخرين، وتضليل الصحف، كان الأمر تمامًا كما لو كان باني في بارادايس. كان بول أحد أعضاء اللجنة التنفيذية، وقد أصبح اليد اليمنى لتوم أكستون، وقد اقتُبِسَت خطاباتُه، ونُقِلَت تجاربه في سجن مقاطعة سان إليدو؛ أصاب باني اضطرابٌ شديدٌ بعدما أنهى قراءة تلك الصحيفة الصغيرة، واستمرَّت هذه الحالة طوال اليوم. بالطبع اكتشفَت فِي الأمر، وشرعَت في إقناعه بالتوقُّف عن قراءة هذه الصحيفة. وأكَّدَت له أنه قد أدى دوره بالفعل بإخراج قائد الإضراب من السجن. وذكَّرَته بوعده لها بمكافأتها بالحب والمودَّة طوال الصيف.

كان باني يدخُل في صراعٍ مع روحه في اللحظات التي كان يتمكَّن فيها من الجلوس بمفرده. كان يقول لنفسه إن الهدف من ذلك هو مساعدة والده، وهو عذرٌ أكثر احترامًا من الترفيه عن عشيقته! لكنه تساءل: هل كانت مطالب والده منطقية؟ هل يحق لأي شخصٍ أن يحل محل بقية البشرية؟ إذا كان من واجب الشباب أن يُضحُّوا بأنفسهم من أجل الكبار، فكيف سيتقدَّم العالم؟ مع مرور الوقت، وتزايُد حدة الصراع في حقول النفط، فضلًا عن معاناة العمال، توصَّل باني إلى قرارٍ واضحٍ بأن هروبه كان تصرفًا جبانًا.

حاول شرح وجهة نظره لِفي، لكنه كان كمن اصطدم بجدار صخر. فالأمر بالنسبة لها لم يكن قابلًا للنقاش العقلاني، بل كان مسألةً غريزية. فقد كانت تعشق أموالها، وقد تضوَّرَت جوعًا من أجل الحصول عليها، وباعت نفسها، جسدًا وعقلًا، من أجلها، وكانت عازمةً على الحفاظ عليها. ما كان باني يطلق عليه اسم «الحركة الراديكالية» كان يعني لها أن آخرين يريدون الاستيلاء على أموالها. لقد اكتشف فيها عيبًا غريبًا وقاسيًا؛ فقد كانت تُنفِق المال ببذخ، على الحرير والفراء والمجوهرات، وعلى السيارات والحفلات، لكن كل هذه الأموال كانت من أجل مهنتها، وكانت جزءًا من مصاريف الدعاية لها. ولكن، من ناحيةٍ أخرى، عندما لم يكن هناك عروضٌ ولا جمهور، كانت تكره إنفاق المال؛ فقد سمعَها وهي تتجادل مع عاملة غسيل الملابس حول المبلغ الذي ستدفعه مقابل كيِّ ملابسِها الداخلية، وقمصانِ النوم الشفافة التي كانت تُغوي روحَه بها.

كان عليه تقبُّل فكرة أنه لن ينجح أبدًا في جَعْل الممثلة المفضَّلة لدى العالم «راديكالية». فقد كانت تستمع إليه؛ لأنها تحبه، وتحب صوته حتى وهو يتفوه بالترَّهات، وكانت تتظاهر بموافقته، ولكن طَوالَ الوقت كان الأمر كما لو كانت تنتظر شفاءه من الحصبة، أو كما لو كان مدمنًا للخمر وتُحاوِل جعله يُقلِع عن الشرب. لقد اعتذرَت لرايتشل، وأخرجَت بول من السجن، ولكن فقط لإرضائه، ففي الواقع كانت تكره هذَين الشخصَين. علاوةً على ذلك، كانت تكره روث كراهيةً قاسيةً لا تعرف الصفح؛ فبالنسبة لها هي فتاةٌ وقحةٌ مخادعة، تتظاهر بأنها عذراءُ ريفيةٌ بسيطةٌ من أجل الفوز بأمير النفط! فمن وجهةِ نظر فِي لم تكن هناك نساءٌ بسيطات، وقليلٌ منهن كُن عذارى.

ولم تتوقف روث قطُّ عن كونها مصدَر إزعاجٍ لهما. ففي خِضَم أحدِ أسعدِ الأوقاتِ بينهما، أرسلَت إلى باني برقيةً أخرى تفيد بأن شقيقَها قد زُج به في السجن مرةً أخرى، وكانت تُهمتُه هذه المرة ازدراءَ المحكمة. رأى باني أن من الضروري استقلالَ أحد القوارب والتوجُّه إلى أقرب مكتب تلغراف وإرسال برقية إلى السيد دوليفر المحامي؛ للتحقيق في

هذا الأمر وإبلاغه بالمستجدات. وكان الرد أنه لا يمكن فعل أي شيء؛ فقد تجاهَل بول وآخرون من قادة الإضراب أمرًا قضائيًّا يمنعُهم من فعل عدة أمور، ولم تكن هناك كفالةٌ ولا استئناف، ولا أوامرُ قضائيةٌ بالمثول أمام القضاء ولا أوامرُ مضادَّة، وكان على بول أن يقضيَ عقوبةً مدتها ثلاثة أشهر.

كان باني يشعُر بالمرارة والتمرُّد ضد القضاة الذين أصدروا الأوامر القضائية، وكانت ﭬِي تخشى التحدُّث معه؛ لأنه بدا واضحًا لها أنه يتعيَّن على شخصٍ ما السيطرة على المُضرِبين. وبالطبع خيَّمَت بعد ذلك الكآبة على إجازتهما؛ فقد كان باني يفكِّر في صديقه المحبوس في سجن المقاطعة. وأرسل لروث خمسمائة دولارٍ لرعاية جميع السجناء، ولكن بعد ذلك وصلَته رسالة تفيد بأن السجناء رفَضوا المال؛ ولذلك وضَعَته روث في صندوقِ إغاثةِ المُضرِبين. فقد كان أمرًا فظيعًا أن ترى أطفالًا ليس لديهم ما يكفي من الطعام، وأن يستغلَّ أصحابُ النفوذ سلطتَهم في تجويع الأطفال! وبهذا لم تكن روث «البسيطة» تقصد التلميح بأي شكلٍ من الأشكال إلى الأب!

١٠

كان على باني أن يدرُس استعدادًا لامتحانات الخريف، وبدا ذلك كمشكلةٍ لِڨي لأنها لم تكن تعلَم كيف ستشغل وقتها. لكن القدَر قدَّم حَلًّا؛ فقد أرسل الأب برقيةً إلى جامعة هارفارد، التي أرسلَت مدرسًا شابًّا يعطي دروسًا خصوصية، وكان هذا المدرس هو الحل. كان طويل القامة، ذا عينَين جميلتَين لونُهما أزرقُ فاتح، وشاربٍ ذهبيٍّ مجعَّد قليلًا، ويغطي جسدَه كلَّه شعرٌ ذهبيٌّ ناعم وكأنه طفلٌ صغير، وكان يضع على أنفه نظارةً ذهبية، ويتحدَّث بصوتٍ هادئٍ ومثقَّف جدًّا؛ فقد كان واحدًا من أصحاب العقول الماهرة الذين يُمكِنهم أن يُدَرِّسوا لك أيَّ مادةٍ إذا منحتَهم أسبوعًا للتحضير!

ونظرًا لانحداره من عائلةٍ عريقةٍ في فيلادلفيا، وتدرُّبه في أكثر مراكز العجرفة الفكرية غطرسة، فربما حسبتَ أنه سينظر بازدراء إلى سائقِ بغالٍ سابقٍ وابنِه، فضلًا عن ممثلةٍ نشأَت في عربةِ بائعِ أدويةٍ مسجَّلة، ولم تقرأ كتابًا كاملًا في حياتها. ولكن في واقع الأمر، فقد انهار السيد أبلتون لورانس الشاب بكل بساطة أمام الوضع الذي وجد نفسه فيه في مخيم أونتاريو هذا؛ فقد كانت هذه هي التجربة الأكثر رومانسيةً وإثارةً التي مرَّ بها مدرسٌ شابٌّ منذ بدأَت جامعة هارفارد. فهو لم يستطع إبعاد عينَيه عن ابنةِ بائعِ الأدويةِ

المسجَّلة، وعندما كانت تقتربُ منه، كان يفقد التركيز تمامًا كما لو كان إعصارًا أطاش عقلَه.

وبالطبع بدأَت فِي تستغل عينَيها السوداوَين المتلألئتَين، وكانت تجرِّب على ضحيتها الجديد كل تلك الحركات المثيرة التي علَّمها إياها تومي بالي، وكان باني في وضع يسمح له بدراستِهما بموضوعية باعتباره مُشاهدًا. كانت فِي تنتظر أن يُحدِّد السيد لورانس لباني عملَه الصباحي، ثم تذهب هي والمعلم في نزهة في الغابة، وأثناء جلوس باني لدراسة كتبه، كان عقلُه يتساءل عما كان يحدُث، وما كان عليه أن يتوقَّعه من امرأةٍ كان لديها الكثير من العشَّاق.

لكنها لم تتركه طويلًا في هذا الشك. وقالت: «عزيزي باني، هل أنتَ قلقٌ بشأن علاقتي بآبي؟» فالإعصار الذي أطاش عقل المدرس أطاح بهيبته، وأصبح السيد أبلتون لورانس «آبي»، وفي بعض الأحيان «أبل صوص» (التي تعني هريس التفاح).

أجاب باني: «لن أشعُر بالقلقِ إلا إذا طلبتِ مني ذلك.»

«يا لك من لطيف! يجب أن تفهم أنني ممثلة، هذه هي الطريقة التي أكسبُ بها رزقي، وببساطةٍ يجب أن أعرف كل شيء عن الحب، لكن كيف يُمكِنني أن أتعلَّم دون ممارسة؟»

«حسنًا، لا بأس يا عزيزتي ...»

«بعضُ الرجال الذين يجلبونهم في هوليوود ليسوا سوى مجرَّد حمقَى، لدرجةٍ تجعلُك تشعُر بالاشمئزاز، وسرعانَ ما تجدُ نفسكَ بين أحضانِ دميةٍ بمتجرٍ للملابس. لذلك يجب أن أخبرهم كيف يتصرفون، ويجب أن أعرف كيف يتصرف الرجل النبيل الحقيقي؛ أنت تعرف ما أعنيه، أصحاب الثقافة العالية والمتكبرون. أوه، يا باني، إنه ألطفُ رجلٍ رأيتُه على الإطلاق؛ فهو يجثو على ركبتَيه، وتترقرقُ الدموعُ في عينَيه، وكما تعلم، يُمكِنه إلقاء الشعر عن ظهر قلب، أنا لم أرَ أي شيءٍ مثل ذلك من قبلُ، وكأنه ممثلٌ شيكسبيريٌّ قديم. إنها حقًّا فرصةٌ عظيمةٌ لي، لتنمية ذوقي وصَقْله.»

«حسنًا يا عزيزتي، ولكن أليس الأمر صعبًا عليه قليلًا؟»

«أوه، على الإطلاق؛ فهذا لن يؤذيَه، بل سيجعلُه يؤلف القصائد الشعرية، وهذا ما يفعله بالفعل، وربما يصبح مشهورًا يومًا ما، حينئذٍ سأحصُل على دعايةٍ عظيمة! لا تقلَق بشأنه يا باني، ولا تقلَق بشأني؛ فلا أحد في العالم يناسبني سوى باني، والباقون كلهم مجرَّد مزحة.» ولفَّت ذراعَيها حوله. «أعرف معنى الغَيرة يا عزيزي، ولن أسبِّب لك هذه

التعاسة مقابل أي شيءٍ في العالم. إذا كنتَ تمانع حقًّا، يمكنك أن تطلب من أبل صوص العجوز أن يحزم أغراضَه ويرحل، ولن أغضبَ من ذلك.»

ضحك باني. «لا يمكنني فعلُ ذلك؛ فعليَّ أن أتلقَّى دروسًا.»

كذلك أخبرَت ﭬِي الأب بالوضع، خشيةَ أن يحزن على باني. وعندما سمع الأب عن الركوع على الركبتَين والدموع، ضحك. فهكذا سيستفيد «باني» من عقل المعلم، وستستفيد «ﭬِي» من قلبه، وسيعود إلى دياره خاليَ الوفاض. أشاد الأب بهذه الصفقة الجيدة. فكما تتذكَّر، كان يعمل لدى الأب في بارادايس كيميائيٌّ نابغة، وكان يدفع له ستة آلاف دولار سنويًّا، ويكسب من وراثه الملايين!

١١

حدَث تطوُّرٌ آخر في مسألة منع شعور ﭬِي بالملل. فقد أرسل لها شمولسكي «سيناريو» الفيلم الجديد الذي كان من المقرَّر أن تبدأ العمل عليه في الخريف. وفجأة تبيَّن أن الممثلة المفضَّلة لدى العالم تعرف القراءة! ظلت منكبةً على السيناريو لمدة ساعةٍ كاملة، ثم قفزَت واستعدَّت لبدء البروفات، وكانت حماستُها في هذه اللحظة لا تُقارَن بكل الأعاصير التي اجتاحت مقاطعة أونتاريو. أفسحوا الطريق أمام «أميرة الباتشولي»!

كان السيناريو لكوميديا موسيقية شهيرة من المقرَّر تحويلُها إلى فيلم. وكانت «الباتشولي» إحدى ممالك البلقان الصغيرة، على الرغم من أن أجواءها كانت تبدو مثل ﭬيينا المشهورة بموسيقى الفالس لشتراوس. كانت القصة تدور حول مهندسٍ أمريكيٍّ شاب جاء لبناء خطٍّ سكةٍ حديد، ووجد نفسَه متهمًا خطأً بالتآمر، وبعد قليل يُنقِذ الأميرةَ الجميلةَ من جماعة ثورية؛ لم يكن أعضاء الجماعة من البلاشفة، بل كانوا متآمرين من الطبقة الأرستقراطية، وبذلك لن تتأذى مشاعرُ باني. بالطبع هرَّبها البطل، وتزوَّجها من أجل الحب فقط، ثم أصبح أميرَ المملكة؛ حيث اشتراها له المصرفيون الذين كانوا يموِّلون خطَّ السكة الحديد.

وهكذا صارت ﭬِي تتقمَّص دور الأميرة طَوال الوقت. وكان من المدهش مشاهدتها وهي تعمل؛ حيث أدرك باني فجأةً أن نجاحها لم يتمحور فقط حول المال والجنس. فقد انقضَّت على الدور مثل نمرة، وعندما بدأَت في العمل، اختفى بقية العالم من الوجود، إلا بالقَدْر الذي احتاجت إليه الشخصية. «والآن أيها الأب، أنت ستلعب دور الملك؛ تعال إلى

هنا، لا، لا، يا إلهي، الملوك لا يسيرون بهذه السرعة! سأركع عند قدمَيك، وأتوسَّل من أجل حياته، وأقول: «الرحمة يا سيدي»، وما إلى ذلك!»

إحدى خصائص تمثيل الأفلام أنه لا يهمُّ ما تقوله، ما دمت تقول شيئًا ما؛ لذلك كانت ﭬي تبكي وتُدندِن بلهجات الحب العاطفية إما لباني أو آبل، وتصرُخ في رعبٍ رهيبٍ قائلةً شيئًا ما لجلاد يرفع بلطته، دون أن تلتزم بالحوار المكتوب. وإذا لم يقُم الشخص الآخر بذلك بشكلٍ صحيح خلال المشهد، فقد تحل كلماتُ التوبيخ والأوامر محلَّ الكلمات في إحدى أغاني الحب: «توقف، الآن، أيها الأحمق، أنا أعشقُك، يا عزيزي»، أو ربما قد يكون الأمر كالتالي: «أبعِد يدَيك عني، أيها الوحشُ الكريه، لا تتركني، أيها الأحمق، أمسِكني! هذا أفضل، ليس عليكَ أن تكونَ مهذبًا عندما تكون قاتلًا.»

لو أراد باني أن يتدرب على الانفعالات الحادة، والصراخ والصياح وتمزيق شعره، لكان قد لجأ إلى الغابة؛ حيث لا يستطيع سماعَه سوى السناجب. لكن ﭬي كانت غير مبالية تمامًا بوجود بشرٍ آخرين. وهذا شيءٌ يتعلمه المرء عند العمل في صناعة الأفلام؛ إذ سيكون هناك مصوِّرون ومغيِّرو مشاهد وعمال ديكور ونجارون يعملون في موقع التصوير المجاور، وبعض الزوَّار الذين تمكَّنوا من الاقتحام على الرغم من التعليمات الصارمة، وما عليكَ إلا أن تواصلَ عملك. في المرة الأولى التي رفَع فيها الجلادُ فأسَه وبدأَت ﭬي بالصراخ، جاء المرشدون الهنود مسرعين في حالة من الذعر، لكنها لم تتوقف حتى لتضحك، واستمرَّت في تمثيل المشهد، بينما كان الجميع يقفون مُحدِّقين بأفواهٍ فاغرة. عند عودتها هي وعشيقَيها من السباحة، كانت تدعوهما فجأةً إلى أداء بروفةٍ لموكبٍ ملكي؛ فبإمكانها أن تكون أميرةً أيضًا وهي ترتدي ملابسَ السباحةِ الكاشفة، وأوراق الصنَوبَر المدبَّبة تُغَطي الأرض تحت قدمَيها العاريتَين.

لم يقابل السيد أبلتون لورانس أيَّ أميراتٍ من قبل، لكنه قرأ الكثير من التاريخ والشعر وكان لديه قدرٌ كبير من المعلومات؛ ولذا كان ينتقد طريقتَها في المشي، وإيماءاتها، وتصرفاتِها، وردَّ فعلِها تجاه محاولاتِ تودُّد مهندسٍ أمريكيٍّ شابٍّ وسيم. وكانت تقول له: «فقط تخيَّل أنكَ تُحبني يا آبي»، وهكذا صقلَت عواطفُه من مهاراته التمثيلية، وأطلق العِنان لروحه، أمام باني والأب وسكرتير الأب والهنود! وأكَّدَت له قائلة: «أنت أفضلُ بكثيرٍ من باني في ذلك. أعتقد أنه اعتاد عليَّ، الأمرُ سيئٌ كما لو كنا متزوجَين.»

مر الوقت بسرور. وشعرَت ﭬي بأنها قد استوعبت تمامًا مفهوم آبي عن الملكية، ولم تعُد مُضطرةً لطرح الأسئلة، ولا للتوقُّف والتفكير، بل عَرفَت على الفور ما يجب عليها

فعله، ومن ذلك الوقت، كانت كُل تفاعُلاتها مع مجتمع هوليوود تحمل لمحةً من أميرة الباتشولي كما تصوَّرَها مدرسُ جامعة هارفارد. لقد نفد صبرُها الآن، وأرادت التوجُّه إلى مواقع التصوير، وسماعَ صوتِ تومي بالي وهو يصيح قائلًا: «كاميرا!». أما باني فقد أصبَح عقلُه محملًا بالإجابات على جميع أسئلة الامتحانات المحتمَلة، وكان جاهزًا للعودة ومشاركتِها مع أساتذته. وكان الأب قد ذهب إلى تورونتو، ووقَّع على آخر الأوراق اللازمة لشركته الكندية، وكان يتلقَّى برقياتٍ من فيرن كل يوم تقريبًا؛ أخبَره فيها أن المضربين قد تعلَّموا الدرس، بعد أن صمَدوا لمدة أربعة أشهرٍ تقريبًا، وأرسل لهم مجلس النفط الفيدرالي خطابًا، ينصحُهم فيه بالعودة إلى العمل كأفراد، ووعدَهم بعدم التحيُّز ضد العمال التابعين للاتحاد.

ثم في أحد الأيام، أحضرَت السفينة البخارية برقيةً موقَّعةً من آنابيل، وموجَّهة إلى باني، مكتوبًا فيها: «لحم الضأن جاهز، عُد إلى الديار لتناول العشاء.» وأوضح أن هذا يعني انتهاء الإضراب، وهكذا حزم سكان المخيَّم أمتعتَهم، وعاد السيد أبلتون لورانس إلى جامعة هارفارد الحبيبة والحزنُ يعتصر قلبه، وأخذ معه في حقيبتِه حزمةً من القصائد الشعرية الخالدة، بينما استمتع كلٌّ من فِي تريسي والأب وباني والسكرتير بوقتهم في المقصوراتِ الفاخرة، في أحد قطارات السكك الحديدية الكندية الباسيفيكية المتجه غربًا.

الفصل السادس عشر

الفرصة الذهبية

١

نجح باني في امتحاناته، وأصبح كما هو متوقع «طالبًا رزينًا بالسنة النهائية» في جامعة جنوب المحيط الهادي. وبمجرد تواصُله مع أصدقائه، وقع على كاهله الكثير من المشاكل! كان الجميع حرفيًّا يعانون من المشاكل! فقد عادت رايتشل وجيكوب مينزيس من قطف الفاكهة لهذا الصيف، ليجدا أن شقيقَيهما الأصغر سنًّا، «اليساريَّين»، قد زُج بهما في سجن المقاطعة! نجم ذلك عن مداهمة الشرطة لاجتماعٍ شيوعي، وإلقاء القبض على جميع المتحدثين والمنظِّمين وموزِّعي المنشورات، وكل من كان يضع شاراتٍ حمراءَ في عروات قمصانهم. وداهمَت الشرطة كذلك المقر الرئيسي للشيوعيين، حيث أعلنَت الصحفُ أن الشرطة كانت عازمةً على التخلُّص من كل عميلٍ روسي في المدينة. وقسَّموا السجناء، وفرضوا غرامات على بعضهم، واحتجزوا الباقين، بمن في ذلك ابنا مينزيس، بموجب تلك التهمة الفضفاضة «الاشتباه في التورط في نشاطٍ نقابيٍّ إجرامي» التي يسهُل إلصاقُها بأي شخص.

قالت رايتشل إن هذَين الصبيَّين الأحمقَين أوقعا نفسَيهما في المشاكل، ولكن ليس من العدل اعتقال أشخاص بسبب معتقداتهم، ومن المؤلم التفكير في أن أناسًا من لحمك ودمك محبوسون في تلك الأقفاص الرهيبة. سألها باني عن الكفالة، وأخبرته أنها ألفا دولار لكل أخ. بدأ يشرح لها مشاكله مع والده وعدم قدرته على فعل شيء، وأكَّدَت له رايتشل تفهُّمَها للوضع؛ فهي لا تتوقع منه أن يُنقِذ جميعَ أعضاءِ الحركة الراديكالية. وبالرغم من ذلك، لم يتمكن باني من استعادة راحة باله بالكامل.

بعد ذلك كان هناك هاري سيجر، الذي انهارت كليةُ إدارة الأعمال الخاصة به. فقد دمَّرَتها المقاطعة، وكان هاري يحاول بيعَ ما تبقى منها. وكان ينوي شراء مزرعة جوز؛ إذ سيكون من الصعب مقاطعة الجوز، فلا يمكنك التمييز بين الجوز «الأحمر» و«الأبيض»!

كان هناك أيضًا دان إيرفينج، الذي كانت كلية العمال الخاصة به في وضعٍ لا تُحسد عليه. فقد أخافت موجةُ الاعتقالاتِ القادةَ العماليين المحافظين تمامًا. وعلى الرغم من استمرار عمل الكلية، كانت غارقةً في الديون، ولم يتقاضَ رئيسُها أي راتبٍ منذ عدة أشهر. أعطى له باني شيكًا بمبلغ مائتَي دولار، ورحل وهو يفكِّر مليًّا في المسألة التي لن يستطيع تسويتها أبدًا وهي: إلى أي مدًى كان له الحق في نهب والده لصالح أعداء والده؟

عرفَ من دان إيرفينج أن بول قد خرج من السجن، وأنه في إنجِل سيتي، مع روث. وأطلَعه كذلك على الصفقةِ القذِرة التي كان عمالُ النفط قد حصلوا عليها؛ حيث استغل أصحابُ الآبار مجلسَ النفطِ للمرة الأخيرة، لخداع العمال ودفعِهم إلى الاستسلام الكامل. فقد وعدوا مجلسَ النفط بأنه لن يكون هناك أيُّ تحيُّز ضد العمال التابعين للاتحاد، لكن لم تكن لديهم أدنى نيةٍ للوفاء بهذا الوعد. واحتفظوا بجميع العُمال البُدلاء، ولم يستعيدوا من المضربين سوى ما يكفي لتعويضِ احتياجاتهم. وكان جميع أعضاء الاتحاد الناشطين يتوسَّلون للحصول على فرصةِ عمل، وأصبح قطاعُ النفط كساحةٍ للعبيد تديرها «الجماعة المناهضة لفكرة الاتحادات».

٢

ذهب باني على الفور لزيارة بول وروث في العنوان الذي أعطاه إياه دان إيرفينج. كانا يعيشان في نُزلٍ حقيرٍ وقذِر، يقع في جزء من المدينة غالبيةُ سكانه من المكسيكيين والصينيين. وجَّهَته عجوزٌ إلى الطابق الثاني، ودلَّتْه على باب غرفتَيهما، طرق باني الباب، لكنه لم يتلقَّ أيَّ رد. عاد لاحقًا، ووجد أن روث كانت قد وصلَت للتو. كانا يتشاركان غرفةً واحدةً صغيرة، بها موقدُ غاز ومغسلةٌ في كوةٍ عديمةِ التهوية، وكوة أخرى أمامها ستارة، وبها سريرٌ صغيرٌ قابلٌ للطي والنقل كان بول ينام عليه. شعَرَت روث بالخجل من زيارة باني لهما في مكانٍ مثل هذا، لكنها أوضحَت أن هذا الوضع لن يطول، وسينتهي بمجرد حصول بول على وظيفة؛ فقد كان بالخارج يبحث عن عمل في هذه اللحظة. وقد حصلَت هي على وظيفةٍ في أحد المتاجر المتعددة الأقسام، وبمجرد أن تتحسن ظروفُهما ستدرُس

التمريض. بدت شاحبةً ومنهكة، لكنها ابتسمَت بشجاعة؛ فهي حقًّا لم تكن تهتم بأي شيء، ما دام بول خارج السجن.

أراد باني أن يعرف كل الأخبار، وأمطر روث بالأسئلة. وكان مهتمًّا بمعرفة سبب إلقاء القبض على بول. أخبرَتْه روث أنه، في المرة الأولى، داهم المأمور كابينة آل راسكوم، برفقة الكثير من الرجال القساة البغيضين، الذين مزقوا كل شيء إرْبًا وصادروا كل كتب بول وأوراقه، وما زالوا يحتفظون بها. وفعلوا الشيء نفسَه مع جميع الرفاق الآخرين الذين كانوا يأتون إلى الكابينة؛ كل ذلك من أجل إثبات أنهم «بلاشفة»، ولكن الدليل الذي كانوا يملكونه أو زعموا امتلاكه كان سرًّا احتفظ به المأمور أو المدعي العام أو أيًّا كان منصبه لنفسه. فقد كان بينهم الكثير من الجواسيس، وكان أحد زملائهم معروفًا بأنه جاسوس، واختفى اثنانِ آخران، ولا شك في أنهما سيظهران بصفتهما شاهدَين، ولكن مَن بإمكانه معرفةُ ما الذي سيشهدان به؟ كان الرجال الآخرون جميعًا لا يزالون محتجزين في تلك الزنازين البشعة، المظلمة القذرة، دون فعل شيءٍ طَوال النهار أو الليل. وكان من المقرَّر إجراء المحاكمة في شهر فبراير المقبل، ومن الواضح أنهم كانوا سيبقَون هناك حتى ذلك الحين. أُطلق سراحُ بول بفضل عشرة آلاف الدولار التي أرسلَها باني، وكانت روث عاجزةً عن التعبير عن امتنانها ...

قاطعها باني وأخبرها ألَّا تشغَل بالها بذلك الأمر، وسألها عن سبب اعتقال بول في المرة الثانية. أخبرَتْه روث كيف أصدر القاضي ديلانو أمرًا قضائيًّا يمنع أي شخصٍ من التدخُّل في أعمال شركة إكسلسيور بيت، بما في ذلك إنتاج النفط وتسويقه. وكان ذلك يعني أنه لا يجوز لك الدعوة إلى الإضراب أو التشجيع عليه، وهذا بالطبع ما كان بول يفعله؛ ولذلك أرسله القاضي إلى السجن، هذا كل ما في الأمر. كان القضاة يفعلون ذلك طَوال الوقت؛ ولذلك لم يكن بوسع عمال الاتحاد فعل شيء. لقد كانت فترةً عصيبةً في حياة بول، أثَّرَت سلبًا على صحته، وبالطبع كان يشعر بمرارةٍ شديدة. وقد قرَّر أنه لن يعود إلى بارادايس مرةً أخرى؛ فهي لم تعُد كالسابق على الإطلاق. ابتسمَت روث ابتسامةً باهتة، وقالت: «لقد قطعوا كل تلك الأشجار الجميلة التي زرعناها يا باني. فقد كانوا بحاجة إلى مساحة للصهاريج.»

أخرج باني دفتر الشيكات الخاص به، وسعى إلى إراحة ضميره بتقديمِ هديةٍ لصديقَيه. لكن روث رفضَت، وكانت متأكدة من أن بول لن يدَعه يفعل ذلك. فبإمكانهما تدبُّر أمورهما. فقد كان بول نجارًا جيدًا، وعاجلًا أم آجلًا سيجد صاحبَ عملٍ مستعدًّا

لتعيينِ شخصٍ قضى مدةً في السجن. أصرَّت روث على رفضها بالرغم من جدال باني، وأخبرَتْه أنها حتى لو قبلَت منه الشيك، فسيعيده بول له.

لم ينتظر باني عودة بول، واختلق بعض الأعذار، ورحل. لم تكن لديه الجرأة للجلوس هناك، بملابسه الأنيقة التي اختارتها له فِي في نيويورك، وسيارته الرياضية الجديدة التي تنتظره بالأسفل، ورؤية بول وهو يدخل، مريضًا، محبطًا من البحث عن عملٍ دون جدوى، ومثقلًا بكل ذكريات الظلم والخيانة السوداء. بالطبع كان بإمكان باني تقديمُ الأعذار. فلم يكن بول يعلم أنه كان يقضي الصيفَ في اللهو مع الممثِّلة المفضَّلة لدى العالم، بل سيعتقد أنه رحَل من أجل أبيه. لكن لا شيء يمكن أن يغيِّر حقيقةَ أن باني كان يعيش في رفاهيةٍ بسبب الأموال التي انتُزعَت من عمال بارادايس، ولا شيء يمكن أن يغيِّر حقيقةَ أن بول قضى ثلاثةَ أشهرٍ في السجن، وأن الرفاق الآخرين سيقضُون ما يقرُب من عام في السجن من أجل زيادة هذه الأموال، ولمضاعفة استغلال العمال. وما دامت هذه هي الحقيقة، لم يكن بوسع باني فعلُ شيءٍ سوى التهرُّب من بول!

٣

المال! المال! كان المال يتدفق على الأب وفيرن. لم ترتفع أسعار النفط إلى هذا الحد من قبلُ، ولم تكن وتيرةُ الإنتاج في بارادايس بهذه السرعة من قبلُ. كانت الأرباح بالملايين، وكانوا يخطِّطون لجعلها عشرات الملايين. لقد كانت لعبةً رائعة، لا تُقاوَم، وكان الجميع يشارك فيها، فلماذا لم يكن باني مهتمًّا بها؟ ولماذا كان عليه أن يتسلل إلى غُرف تبديل الملابس وخلف المدرجات؛ ليكتشف حقائقَ قذرةً وسيئةَ السمعة عن لاعبي هذه اللعبة وأساليبهم؟

بدا كما لو أن القدَر كان يتآمر على باني. ففي كل مرة كان يحاول على استحياء أن يكونَ مثلَ والده وأصدقاء والده، كانت تحدُث بعضُ التطورات الجديدة لتطيح بمحاولاته وتُسقِطها أرضًا! فقد التحَق بإحدى الجامعات المحترمة للغاية؛ سعيًا لتحسين عقله وليصير رجلًا محترمًا، وسلَّم عقله الشاب المتحمس إلى السلطات الأكثر تقليديةً وانتظامًا، واثقًا من قدرتِها على جعله صالحًا وصادقًا وسعيدًا، وتعليمه الحكمةَ والكرامةَ والشرف! كانت مثل هذه الأشياء تُدرَّس لجميعِ الطلابِ في هذه المؤسَّسة العظيمة، التي بدأَت مدرسةً دينيةً ميثودية، ولا تزال تُقدِّم مقرراتٍ دراسيةً عن دين يسوع المسيح أكثر من أي مادةٍ أخرى! نعم، لا شك في ذلك!

لقد تطوَّرَت الجامعة بفضلِ أموالِ بيت أورايلي، ملك النفط، وكان ابن بِيت أورايلي قد تخرَّج في الجامعة أيضًا، وكان «بِيت الأب» و«بِيت الابن» يحظيان بمعاملة خاصة في الحرم الجامعي. وأثناء حفل التخرُّج، انحنى أعضاء هيئة التدريس أمامهما، ولم تخلُ جميعُ الأخبار التي أرسلَها مسئولُ الدعاية بالجامعة إلى الصحف من اسمَي بِيت أورايلي، الأب والابن. وكان الابنُ من أنشط الخرِّيجين، ويتمتَّع بمكانةٍ كبيرة بينهم؛ فعند إقامة الولائم، كانوا يشربون نخبه ويمدَحونه ويهتفون باسمه؛ فقد كان راعي جميع الفرق، والصديق السخي لجميع الرياضيين. وبالطبع، إذا كنتَ على دراية بنظام الجامعات الأمريكية، فستُدرِك أن هذا الأمر يلعب دورًا مهمًّا في تشكيل عقول الطلاب؛ فهذا هو الشيء الذي يفعلونه لأنفسهم، وينخرطون فيه بكل روحهم.

في البداية بدا الأمر على ما يُرام. وكان من المعلوم أن جامعة جنوب المحيط الهادي كانت جامعةً مجيدة، وتضم فرقًا رائعةً حقَّقَت انتصاراتٍ تردَّدَت أصداؤها في كل مكان. وحاليًّا كان هناك استادٌ رياضي، وبرامجُ ضخمةٌ للألعاب الرياضية، وأسفر ذلك عن نيل الجامعة الأم استحسانًا لا حصر له ودعايةً مجانية. كان هذا أمرًا يدعو للفخر، وقد اتحد في هذا الشعور جميعُ الطلاب بفضل ذلك الشيء الذي يُسمَّى «روح الانتماء للجامعة». وحَظِي باني، الذي كان عدَّاءً، على نصيبه من الهتاف؛ فقد كانت هذه «لعبة» يستطيع أن يلعبها من كل قلبه!

لكنه كان الآن طالبًا بالسنة النهائية وأصبح في قلب الأحداث، تمامًا كما هو الحال في لعبة النفط، والإضرابات، والحملات السياسية. فماذا اكتشَف؟ ببساطة، هناك مَن يسرقُ كل الانتصارات التي تُحققِّها جامعةُ جنوب المحيط الهادي في كرة القدم وسباقات العَدْو وغيرهما من الرياضات، وكان «بِيت أورايلي الابن» هو اللص! فقد أنشأ ابن ملك النفط صندوقًا يحتوي على خمسين ألف دولار سنويًّا، لتحويل الألعاب الرياضية بالجامعة إلى عملية احتيال! وكانت تُدير الصندوق لجنةٌ سريةٌ مكوَّنة من الخريجين والطلاب، وكان يُستخدَم لشراء الرياضيين، وتسجيل أسمائهم بموجب ذرائعَ كاذبةٍ ليُحقِّقوا انتصارات لجامعة جنوب المحيط الهادي. وكان هؤلاء الرياضيون شبابًا أقوياءَ من سائقي الشاحنات والحطَّابين وعمال المزارع وعمال الشحن والتفريغ بالميناء، الذين لا يستطيعون التحدُّث باللغة الإنجليزية بشكلٍ صحيح، ولكن يمكنُهم صد «الاختراقات» والاصطدام بالخصم لتسجيل هدف! وكان الميثوديون الأتقياء الذين يشكِّلون هيئةَ التدريسِ متواطئين في هذا الأمر، إلى حد السماح لهؤلاء الشباب الأقوياء البنية باجتياز اختباراتٍ هزلية؛ إذ كانوا

يعرفون خير المعرفة أن أيَّ أستاذٍ جامعيٍّ يجرؤ على أن يكون سببًا في رسوب ظهير رُبعي واعد؛ سيبحث قريبًا عن جامعةٍ أخرى ليعمل فيها. وقد أظهر «بِيت الابن» رأيَه في الأساتذة، من خلال إعطاء مدرب كرة قدمٍ ثلاثةَ أمثالِ راتب أفضل أستاذ بالجامعة.

وبالطبع عُيِّن هؤلاء الرياضيون للفوز، دون الاهتمام بقواعد اللعبة؛ ولذا كانوا يدفعون الخصم ويرتكبون الأخطاء، وكانت الفرق المنافسة تدفع لهم المال، وكانت هناك فوضى شائنة، تشوبها اتهاماتٌ واتهاماتٌ مضادة، ورشاوى وتهديدات، وأصبحَت الأجواء تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ تلك الخاصة بالمحاكم الجنائية. وصاحَب هذا الاحترافَ السريَّ مرافقوه من العالم السفلي من مهربين ووكلاء مراهناتٍ وبائعات هوًى. وأصبحَت الدراسة كمزحةٍ للمصارعين المستأجَرين، وسرعان ما أصبحَت مزحةً للطلاب الذين ارتبطوا بهم. وكان الهدف الوحيد هو الفوز بالمباريات، وبلغَت قيمة الأرباح مائتَي ألف دولار من إيصالات البوابة، وعند توزيع هذه الأرباح، كان هناك العديد من أنواع الكسب غير المشروع التي يمكن العثور عليها في حكومة إحدى المقاطعات؛ حيث كان هناك طلابٌ يقدمون فواتير لهذا وذاك، وطلابٌ يبحثون عن وظائفَ سهلة، وطلابٌ وخريجون يبتكرون نظامًا، ويدفعون لأنفسهم وأتباعهم المال في شكل عقود وخدمات. نتَج كل ذلك بسبب تصميم أحد ملوك النفط على إنتاج الثقافة بالجملة، بموجب أمرٍ تنفيذي!

٤

ذهب باني لمقابلة المحامي الشاب الذي عيَّنه اتحاد عمال النفط للدفاع عن «السجناء السياسيين» الثمانية. في ذلك الوقت كان الاتحاد منحلًّا فعليًّا، وكان المحامي الشاب يتساءل من أين سيحصُل على راتبه. وعندما جاء باني ليستفسر منه عن بعض الأشياء، شعَر براحةٍ كبيرة؛ فمن المؤكَّد أن أمير النفط الشاب هذا سيعطيه بعض المال للدفاع عن أصدقائه! أم أنه أُرسِل مبعوثًا من الجانب الآخر ليتفقَّد الوضع؟

تحدَّث السيد الشاب هارينجتون بحُرية عن القضية. وأوضَح أن ما كانت الولاية تفعله بهؤلاء الرجال الثمانية لم يسبق له مثيلٌ في قانوننا، وإذا استمَر الوضع على ما هو عليه، فإن هذا سيعني نهاية العدالة الأمريكية. فمن المفترض أن يعرف كلُّ سجينٍ التُّهمَ الموجهة إليه، والأفعالَ المحدَّدة التي يُزعَم أنه ارتكبها. لكن في كل قضايا «النشاط النقابي الإجرامي»، كانت الدولة ببساطةٍ تكتفي بزعم انتهاكِ القانونِ بمصطلحاتٍ قانونيةٍ عامةٍ غامضة. وحينئذٍ يظهر السؤال التالي: كيف يمكنكَ إعدادُ دفاعٍ في مثل هذه القضية؟ ومَن

هم الشهود الذين ستستدعيهم، وأنت لا تعرف الزمان، أو المكان، أو الأشياء المحدَّدة التي يُزعَم أن المتهمين قد فعَلوها، أو قالوها، أو كتَبوها، أو نشَروها؟ لقد نُقِل المتهمون إلى المحكمة معصوبي الأعين ومقيَّدين ومكمَّمين. ومع ذلك، كانت المحاكم مرتعبةً للغاية من حشودِ رجالِ الأعمال؛ ولذلك لم يأمر أي قاضٍ المدَّعيَ العامَّ بتقديم بيانٍ مُفصَّلٍ بالتهم!

رحل باني وهو في حالةٍ من اليأس، وقرَّر أن يلعب خدعةً قذرةً على فيرنون روسكو؛ ولذا ذهَب لزيارة آنابيل إيمز. كانت آنابيل طيبةً ولطيفة، وكان باني مستعدًّا لانتزاع روحها ليرى ما إذا كان بهذه الطريقة سيتمكَّن من إخراج عملاق النفط العجوز من مخبئه! أخبَرها عن هؤلاء الأولاد، وكيف يبدون، وما يؤمنون به، وما يعانونه في السجن. استمعَت آنابيل، وانهمَرَت الدموع من عينيها، وقالت إنه لأمرٌ فظيعٌ أن يكون الرجال بهذه القسوة. وسألَتْه عما يمكنها فعله. أخبَرها باني أن الإضراب قد انتهى، وأن الخروف قد ذُبح وأُكل؛ ولذا يجب على فيرن أن يُوقِف هذا الأمر. ولا فائدةَ من ادعائه أنه لا يستطيع فعل أي شيء، وأن القانون يجب أن يأخذ مجراه؛ فهذا كلُّه هُراء لأن المدعي العام له الحق في طلب إسقاط القضايا، ومن المؤكَّد أنه سيفعل ذلك إذا طلَب منه فيرن ذلك.

وبالفعل تمكَّن باني من إخراج عملاق النفط العجوز من مخبئه! وسمع أن الأب قد عاد إلى المنزل وهو في حالةٍ يُرثى لها، بعدما هجَم عليه فيرن الذي كان هائجًا مثل الشيطان؛ بسبب تسلُّل باني إلى منزله ومحاولتِه زعزعةَ استقرارِه العائلي! وأراد أن يوضِّح للأب أنه إذا لم يتمكَّن من السيطرة على ابنه، فسيتولى بنفسِه هذا الأمر. أراد باني أن يعرف ما كان ينوي فيرن فِعلَه، هل سيضربه؟ أم أنه سيحبسه مع الآخرين؟

كان باني قد قرَّر الثبات على موقفه؛ فقد كان لديه كامل الحق في التحدُّث إلى آنابيل، فقد كانت امرأةً ناضجة، ولم تكن هناك طريقةٌ يمكن لفيرن أن يمنعه بها. وكان ينوي التحدُّث مع الأب قبل أن يتخذ أي إجراء؛ ولذلك كان آسفًا على ما يشعُر به والده من حزن، ولكن في حقيقة الأمر، إذا عُرضَت هذه القضية على المحكمة، فسوف يشهد باني روس لصالح المتهمين الثمانية، ولن يكون مجرَّد شاهد، بل شخصٌ لديه معرفةٌ مباشرةٌ بالحقائق؛ فقد جلس في كابينة آل راسكوم ليلةً بعد ليلة، وسمعَهم يناقشون مشاكلَ الإضراب، وموقفَهم منه، ويمكنه أن يشهد بأن كل رجلٍ منهم قد وافَق على أن تضامُن العمال هو الطريق إلى النصر، وأن أعمال العنف هي فخٌّ حاول أصحابُ الآبار استدراجَهم إليه. وإذا لم تكن هناك طريقةٌ أخرى للحصول على المال للدفاع عن هؤلاء

الصبية، فسيبيع باني السيارة التي أعطاها له الأب، وأضاف قائلًا: «أظن أن فيرن لن يكون له أيُّ حقٍّ في منعي من السير إلى الجامعة!»

لم يستطع الأب المسكين أن يتحمل كلامًا كهذا من ابنه العزيز، وبدأ يستسلم، وكشَف عن أنه ناقش مع فيرن إمكانيةَ التوصُّل إلى حل وسط مع المتمردين. وتساءل عما إذا كانوا سيوافقون على الخروج من الولاية، أو على الأقل الابتعاد عن قطاع النفط. تعجَّب باني من كلامه، وأخبره أن فيرنون روسكو إذا أراد تقديم اقتراح مثل هذا، فبإمكانه فعلُ ذلك بنفسِه! كان باني يعرف ردَّ بول على هذا الاقتراح؛ فقد كان لدى بول الحقُّ في تنظيم عمال النفط، وهو لن يتوقف عن ذلك أبدًا ما دام حيًّا. وكان باني متأكدًا من أن جميع الرجال الثمانية سيرفضون هذا الاقتراح رفضًا قاطعًا، وخيرٌ لهم أن يظلوا في السجن بقيةَ حياتِهم من أن يعقدوا مثل هذه الصفقة!

بعد الإفصاح عن رأيه ببراعةٍ هائلة، واصَل الشاب المثالي، الذي كان يتطوَّر بشكلٍ تدريجيٍّ ومؤلم إلى رجلٍ ذي خبرة، توضيحَ أنه في واقع الأمر لن يكون لدى أيٍّ من الرجال الثمانية فرصةٌ كبيرة لإزعاج فيرن. فنظام القائمةِ السوداءِ الفعَّال الذي استحدثَه سيضمنُ عدمَ حصولهم على عملٍ في حقول النفط، وأيُّ تنظيمٍ لهم لن يمثل أي قوة. من ناحيةٍ أخرى، يجب أن يُدرِك فيرن أنه إذا استمر في محاولة نقل هؤلاء الزملاء إلى السجن، فستكون هناك محاكمةٌ طويلة، والكثيرُ من الدعاية التي قد يجدُها أصحابُ الآبار أمرًا مزعجًا. وبالطبع ستكون الأدلة «ملفقة»، وسيبذل باني كل ما في وُسعِه لفضحِ هذا الأمر والتأكُّد من حصول العامة على الحقائق. ماذا لو استدعى محامي المتهمين السيد فيرنون روسكو أمام المحكمة، وسأله عما يعرفُه عن زرع الجواسيس وسط عمال بارادايس؟

صاح الأب: «لا يا بني، أنت لن تُقدِم على فعل شيءٍ قذرٍ كهذا!»

أجاب باني: «بالطبع لن أفعل ذلك. لقد قلتُ إن المحامي هو من سيستدعيه. ألم تكن لتفعل ذلك لو كنتَ مكانه؟» شعر الأب بضيقٍ شديد، وطلَب من باني تركَ الأمرِ جانبًا الآن، وسيرى ما يمكن فعلُه مع فيرن.

٥

كان من نتائجِ هذه المفاوضاتِ أن ناشَد الأبُ فِي تريسي أن تبذلَ مزيدًا من الجهد، لإبعاد باني عن أيدي أنصار الشيوعية الفظيعين هؤلاء. يبدو أنه لم يكن هناك حلٌّ آخر! أخبرَتْه

ﭬِي أنها ستحاول، وبالفعل أضافت هذه المحاولات مزيدًا من التوتُّر على حُبهما وعاطفتهما. وذلك لأن باني كان قد بدأ يعرفُ ما يريده في الوقت الراهن، ولم يُرِد أن يمنَعه أحدٌ من تنفيذه.

كانت ﭬِي تعمل بجدٍّ على فيلم «أميرة الباتشولي» (ذا برينسيس أوف باتشولي). وبالرغم من اعترافها بكل صراحةٍ بسخافة القصة، كانت تركِّز بكل كيانها على جعلها حقيقيةً وحيوية. وإذا سألتَها عن السبب، فسيكون جوابها أن هذه هي مهنتها؛ مما يعني أنها كانت تحصُل على أربعة آلاف دولار أسبوعيًّا، مع إمكانية زيادتها إلى خمسة آلاف دولار أسبوعيًّا إذا «أبلت بلاءً حسنًا». لكن ماذا أرادت أن تفعل بخمسة آلاف الدولار أسبوعيًّا؟ هل أرادت شراءَ مزيدٍ من التصفيق والاهتمام، كوسيلةٍ للحصول على مزيدٍ من آلاف الدولارات لأسابيعَ أخرى؟ لقد كانت حلقةً مفرغة، تمامًا مثل آبار النفط التي يمتلكُها الأب. كان للمنخرطين في «اتحاد عمال الصناعة في العالم» أغنيةٌ عن هذا الأمر يغنُّونها في تجمُّعاتهم: «نحن نذهب إلى العمل للحصول على المال لشراء الطعام، للتمتع بالقوة للذهاب إلى العمل للحصول على المال لشراء الطعام، للتمتع بالقوة للذهاب إلى العمل ...» وهكذا، حتى تنقطعَ أنفاسُك.

أرادت ﭬِي أن تتحدَّث عن الفيلم والمشاكل التي تظهر يومًا بعد يوم، والشخصيات المختلفة وغَيرتهم وغرورهم، وحُبهم وكُرههم. وكان باني، الذي كان يُحبها، يتظاهر بالاهتمام؛ لأنه كان سيؤذي مشاعرها لو لم يفعل ذلك. وانطبَق الأمر على حفلات هوليوود؛ فقد كانت سابقًا جديدةً ومذهلة، لكنها الآن تبدو جميعًا متشابهة. كان الجميع يشاركون في فيلمٍ جديد، لكنه كان دائمًا لا يختلف عن أفلامهم القديمة. لم يفعل أحدٌ شيئًا مبتكرًا، بل اتبع الجميعُ التياراتِ السائدة؛ فقد كان ذوق الجمهور يتجه نحو الأفلام الاجتماعية، ولم يكن أحدٌ يُريد مشاهدة فيلمٍ حربي، لكن بعد ذلك توجَّه الجمهور إلى الأفلام الحربية، ثم الأفلام التاريخية، وأفلام مغامرات البحار، ثم عاد مرةً أخرى إلى الأفلام الاجتماعية. وبالرغم من تغيير أصدقاء ﭬِي لمهربي الخمور، كانوا دائمًا يشربون أنواعَ الخمورِ نفسها. كذلك كانوا يُبدِّلون عشيقاتهم؛ فكان الرجل يقيم علاقةً مع امرأةٍ ما، وبعد فترةٍ وجيزةٍ يصبح مع امرأةٍ مختلفة، ولكن كلما زادت وتيرة تغيير الأشياء، بقيَت على حالها.

كان باني وﭬِي متحابَّين، ولم يتغير شغفُ أحدهما تجاه الآخر. أو على الأقل، هكذا كانا يُحدِّثان نفسَيهما، ولكن طَوالَ الوقت لم تتوقَّف كيمياءُ التغيير الخفية عن العمل.

فالرجال والنساء ليسا أجسادًا فقط، ولا يمكن أن يكتَفُوا بملذاتِ الجسدِ فقط. فلدَيهم عقول، ولا بد أن يكون هناك انسجامٌ في أفكارهم. وهنا يظهر السؤال التالي: هل يمكن أن يستمرَّ الحبُّ إذا شعَر الرجلُ والمرأة أحدهما بالملل من أفكار الآخر؟ فللرجال والنساء شخصياتٌ مختلفة، وهذه الشخصيات تدفعُهم إلى أفعالٍ معيَّنة، فماذا لو دفعَتْهم إلى أفعالٍ مختلفة؟ ماذا لو أراد الرجل قراءة كتاب بينما أرادت المرأة الذهاب لحفل راقص؟

لقد كانت فِي مراعيةً للغاية فيما يتعلق بعلاقتها مع «أبل صوص»، وكانت حريصةً جدًّا على ألَّا يشعُر باني بالغيرة، والآن اكتشف باني اكتشافًا مزعجًا مفادُه أن دوره قد حان لتوخي الحذر! فقد كان لدى فِي عدوتان، وكان باني يُصِر على أن تظلا مقربتَين منه. كانت الأولى تلك الفتاة الاشتراكية في الجامعة، وبالطبع كان عليه أن يراها هناك، ولكن هل كان عليه أن يذهب معها إلى الاجتماعات الاشتراكية؟ كانت فِي على استعدادٍ للاعتقاد بأنه لم يكن يُحب فتاةً يهوديةً وضيعة من الطبقة العاملة، ولكن ماذا لو أرادت فِي أن يصطحبها باني إلى «عرضٍ أول» في ليلة تُعقد فيها إحدى المحاضرات الاشتراكية؟

وكانت الفتاة الأخرى هي روث واتكينز! بالطبع لن يقع باني في حب فتاةٍ ريفيةٍ جاهلة، لم تحصُل على أي تعليم، ولكن مع ذلك، كانت تنصبُ له فخاخًا، وقد تعرَّفَت فِي على ما يكفي من الرجال لتعرف أن المرأة يمكنها دائمًا الحصولُ على ما تريد، إذا واصلَت السعي وراءه. فقد ظل باني يذهب إلى تلك الغرفة في النُّزل، ليضع الخطَط ويكيد المكايد مع بول لإثارةِ قلقِ والده، وإثارة المشاكل مع فيرن وآنابيل، وقريبًا لن يُرحِّبا بباني مرةً أخرى في الدير، الذي كان يمثِّل لفِي ناديًا ريفيًّا من الناحية العملية؛ حيث كانت تلتقي بالأشخاص المهمين للغاية. فمهنة الممثلة لم تكن تعتمد على الحياة الاجتماعية فقط، بل على العلاقات. ويُقاس النجاح في عالم السينما بمدى القبول الذي تتمتَّع به لدى الآخرين؛ ولذلك ببساطة لم تكن فِي تستطيع أن تتخلى عن علاقتها الوطيدة بفيرن وآنابيل. لقد حاولَت نقل ذلك بلباقةٍ إلى باني، ولكن عندما فشل في الالتفات إلى ما تقوله، كان عليها مواصلَة الإصرار، حتى أصبح الأمر مزعجًا. وتذكَّر باني ملاحظتَها المرحة لأبل صوص، «الأمر سيئٌ كما لو كنا متزوجَين!»

٦

أجرى الأب وفيرن الكثير من المفاوضات مع بِيت أورايلي، فيما يتعلق بعقود الإيجار الجديدة التي كانوا يُبرمونها، ودُعي الأب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في المنزل الريفي

لهذا الرجل الشهير. كان باني مدعوًّا أيضًا، وأصَر الأب على ضرورة حضوره؛ حيث كان يأمُل دائمًا في أن يُعجَب ابنُه الذي يصعب إرضاؤه بأحد الأشياء التي أثارت إعجاب الأب الشديد في هذا العالم «العظيم». وأضاف مبتسمًا أن عائلة أورايلي لديها ابنةٌ صالحة للزواج.

كان باني قد التقى بالفعل بـ «بِيت الابن» في الجامعة ضمن الفعاليات الرياضية. وقد حظي باني باهتمامٍ خاص؛ لأنه كان أيضًا نجلَ أحدِ أقطابِ النفط، ويومًا ما، سيتولى هو و«بِيت الابن» إدارةَ حكومةِ الولايات المتحدة، كما كان والداهما يُديرانها الآن. كان «بِيت الابن» رجلَ أعمال مشهورًا محليًّا لكنه لم يكن لافتًا للنظر على الإطلاق، على عكس والده الذي أصبح استثنائيًّا بعدما كان رجلًا أيرلنديًّا عجوزًا يتجول في الصحاري على ظهر حمارٍ يحمل معولًا، وبطانية، وكيسًا به لحمُ خنزيرٍ مقدَّد وفاصوليا، وقربةً مملوءةً بالماء. وقد استمر هذا الوضع حتى كهولتِه، وكان يستمتع بسرد قصته وكيف أنه عندما جاء إلى إنجِل سيتي لطباعة منشور يعلن عن البئر التي اكتشَفها، لم تقبل المطبعة بإقراضه ثلاثةَ عشرَ دولارًا! أما الآن، فلا يُمكِن لأحدٍ أن يخمِّن الملايين التي يملكها، لكنه ظل رجلًا عجوزًا محبوبًا متواضعًا أراد أن يخلع معطفَه في الطقس الحار، لكن لم يُسمَح له بذلك.

كانت زعيمةُ الأسرة هي السيدة بِيت، التي كانت قد وصلَت إلى هذه المكانة الرفيعة في مجتمع جنوب كاليفورنيا بعدما كانت ابنةَ رئيس عمال. كانت واثقةً من نفسها وتتمتع بشخصيةٍ حاسمة، وعندما كانت تدخُل متجرًا متعدِّد الأقسام، لم تكن تُضيع وقتَها مع الموظفين، بل كانت تتوجَّه على الفور لمدير القسم وتُخبره بالآتي: «أنا السيدة بيتر أورايلي، وأرغب في أن أتلقى خدمةً فورية.» كان المدير المسئول ينحني لها حتى يكاد رأسُه يلمسُ الأرض، ويخصِّص للسيدةِ العظيمةِ ثلاثةَ موظَّفين لتلبية طلباتها.

كانت السيدة بيتر هي التي استدعت المهندسين المعماريين وأمرَت ببناء قصرٍ ملكي وحوله حديقة، يُحيط بها من كلِّ مكانٍ سياجٌ برونزيٌّ عالٍ، وبواباتٌ برونزية، وكانت هي التي طلبَت نقشَ اسمِ صاحبِ العقار على البوابات. وكانت هي التي تفاوضَت من أجل الحصول على يخت ملكٍ أوروبيٍّ مخلوع، وجدَّدَته بالكامل ليتناسب مع مُنقِّب عن النفط أمريكي من أصلٍ أيرلندي، حيث طعَّمَته بخشب الجوز الشركسي والساتان الأزرق، ووضعَت اسم المالك على مرأًى من الجميع. كما كانت هناك سيارةٌ خاصةٌ مزينة بخشب الجوز الشركسي والساتان الأزرق، ومكتوبٌ عليها اسم المالك على لوحةٍ نحاسية. وكانت ذات تصميمٍ داخليٍّ رائع كما لو كانت متجرًا فاخرًا.

استقبلَت السيدةُ بيتر الأبَ وباني وبدأَت تمارس عاداتها «المجتمعية» عليهما؛ حيث كانت تمُد يدها عاليًا عند المصافحة، وتُعلِّق على الطقس البارد الذي جاء قبل موعده، والجبال المغطاة بالثلوج. ثم عرَّفَتهما على باتريشيا، وراقبَتها وهي تؤدي الحركاتِ التي علَّمَها إياها المخرجُ الخاصُّ بها، والتي أعطت باني دافعًا لقول «كاميرا!» كانت الآنسة باتريشيا أورايلي طويلةَ القامة مثل والدتها، وكان جسدُها يميل إلى اكتساب الوزن في سنٍّ مبكرة؛ ولذا كانت تتناول أدويةً لإنقاص الوزن، مما كان يؤذي قلبَها ويجعلها تبدو شاحبةً وأرستقراطية. كانت قد تعلَّمَت كل حركة وكل أسلوب بعنايةٍ شديدة، لدرجة أنها كانت تُثير الاهتمام مثل دميةٍ فرنسيةٍ كبيرة، كانت والدتها تنظر بابتهاجٍ لهذا الثنائي الشاب؛ فقد كان يمثل اتحادًا محتملًا بين عائلتَين عظيمتَين، وتخيَّلَت إقامة حفل زفافٍ في كنيسةِ الاسم المقدس، بينما ينتظر بالخارج خمسون ألفَ شخص، وتُنشر الصور في الصفحات الأولى لجميع الصحف. أما باني فقد ذهبَت أفكارُه إلى أبعد من ذلك؛ إذ تخيَّل «الصحف الصفراء» تُجري مقابلة مع فِي تريسي، وبالرغم من أنها كانت تبدو باردةً ومتغطرسة، فقد كانت تبكي سرًّا، ثم تُلقي نظرةً خاطفةً على وجهها في المرآة، وتقول لنفسها «تمالَكِي نفسك»!

كان هناك ضيوفٌ آخرون، منهم الدكتور ألونزو تي كوبر، الحاصل على دكتوراه في علم اللاهوت والفلسفة والقانون، الذي كان من المستحيل تخيُّل شخصٍ ينضَح بمودةٍ أكثر منه. لقد كان سعيدًا لاجتياز باني امتحاناتِه بنجاح، وكان مسرورًا لأنه تمكَّن من خدمة والده، وزادت فرحتُه عندما وجد الأب فخورًا بنجاح ابنه. عندما كانا بمفردهما، غامر بإلقاء بعض التعليقات المرحة حول الحصبة الحمراء التي أصيب بها باني، وانزعج للغاية عندما علم أن المريض لم يتعافَ بعد، وانتهز الفرصة ليسأل الشاب عما إذا كان صحيحًا حقًّا أن أنصار الشيوعية كانوا يُحرِزون تقدمًا مثيرًا للقلق في إنجِل سيتي. أراد الدكتور كوبر أن يتحدث عن هذه المعتقدات الصادمة، كما لو كان طفلًا صغيرًا يريد أن يقرأ كتابًا محظورًا!

لم يُستدعَ باني لحضور الاجتماع الذي عُقد بين بِيت الأب ووالده، ولكن في طريق عودتهما للديار أخبره الأب بما دار في الاجتماع. لقد كانوا يمرُّون بوقتٍ عصيب، ولم يكن شراء الحكومة أمرًا بسيطًا كما ظنوا سابقًا. كان يتعيَّن أن يحصُل الجميع على «عمولة»، حتى ساعي المكتب الذي أحضَر لك رسالةً حول هذا الموضوع كان يتوقع الحصولَ على عشرة دولارات! اغتنَم باني الفرصة ليُناشِد الأب بالخروج من هذا الأمر؛ فبالتأكيد كان

لديهما ما يكفي من المال! لكن الأب قال إنهما كانا متورطَين في هذا الشأن للغاية؛ فقد كلفه الأمر شخصيًّا ما يقرب من ستمائة ألف دولار، وكان هذا مبلغًا كبيرًا، وتسبَّب في حدوثِ خسائرَ فادحةٍ له. لذا كان يتعيَّن عليهم المواصلة، وعندما يحصلون على عقود الإيجار، ستُصبِح الأمور على ما يُرام.

ظهرَت مشكلتان. الأولى أن أراضي الاحتياطي البحري من النفط كانت تحت سيطرة وزارة البحرية، وكان من الضروري نقلُها إلى سيطرة الوزير كريسبي. وأُثير تساؤلٌ حول ما إذا كان يمكن تنفيذ ذلك بموجب مرسوم تنفيذي، أم أنه يتطلب قانونًا صادرًا من الكونجرس. تعمَّد المسئولون تأخير الإجراءات، ولكن بالطبع كان ذلك مجردَ عرقلةٍ لسير الأمور للحصول على مزيدٍ من المال. وأرسل بِيت الأب ابنَه إلى واشنطن ليتولى أمورَ دفع الرشاوى. كانت المشكلة الثانية هي حصول شركةِ نفطٍ صغيرةٍ على أرض صني سايد، تلك التي كان من المقرَّر أن يحصل عليها فيرن والأب، وبدأَت في الحفر بموجب عقدِ إيجارٍ قديم. كان لا بد من طرد هذه الشركة، وكان من الضروري فعل ذلك في هدوء، وتسويةَ الأمور مع الصحف بطريقةٍ أو بأخرى. اقترح فيرن أن يذهب الأب إلى هناك ويلقي نظرةً على الأرض، وربما يصطحب باني معه في هذه الرحلة. فقد كان من المقرَّر أن يصبح حقل صني سايد واحدًا من عجائب الدنيا في مجال النفط؛ حيث سيتفوَّق بامتيازٍ على حقل بارادايس، وبمجرد أن يضعا أيديَهما عليه، يمكن للأب أن يحصُل على راحةٍ طويلة.

٧

تلقَّى باني مكالمةً هاتفيةً تطلب منه أن يجري «مكالمةً بعيدةَ المدى» لمدينة تقع على بعد مائة ميل. وعندما فعل ذلك، ردَّت عليه ممرضةٌ في أحد المستشفيات وأبلغَته رسالة من بيرتي مفادُها أنها أرادت منه أن يأتي إليها. وأضافَت أنها لم تكن في خطر، ولا داعي لإثارة قلق الأسرة؛ ولذلك طلبَت منه ألَّا يُخبرَهم بشيءٍ عن الأمر. قفز باني بالطبع في سيارته وانطلَق بسرعة. كانت أختُه في زيارة لآل نورمان، الذين يقع منزلهم على مسافةٍ بعيدةٍ من هذا المستشفى.

عندما وصل إلى هناك، أخبرَتْه الممرضات أن بيرتي خضعَت لعمليةٍ جراحية لاستئصال الزائدة الدودية، وأنها في حالةٍ جيدة. واصطحَبْنه إلى غرفتها، وهناك وجدها مستلقية، شاحبة، يبدو شكلها غريبًا حيث لم يسبق له مطلقًا أن رآها دون مساحيق التجميل. كانت تبدو بريئةً للغاية مثل الراهبات، بثوب النوم الدانتيل الأبيض الذي كانت ترتديه،

والوسائد البيضاء الناعمة التي كانت تغوص فيها، وكانت سعادتها لرؤيته مثيرة للعاطفة.
«يا للهول، بيرتي! كيف حدث هذا؟»

«لقد حدث الأمر فجأة. كان الوضع سيئًا جدًّا، لكنني بخير الآن. وكان الجميع لطيفًا جدًّا معي.» كانت هناك ممرضةٌ في الغرفة، وانتظرَت بيرتي حتى خرجَت وأغلقَت الباب. ثم نظرَت إلى أخيها بعينَيها المتعبتَين وقالت: «لقد اخترتُ التهاب الزائدة الدودية لأنه أمرٌ مألوف، وهو ما يجبُ أن تُخبِر به الأب والعمة إيما. لكن في حقيقة الأمر، كنتُ سأُرزَق بطفل.»

قال باني: «يا إلهي!» ونظر إليها في ذعر.

«لا داعي للمبالغة في رد الفعل؛ فأنت لست طفلًا صغيرًا يا باني.»

«مَن الأب؟»

«توقَّف عن هذا الأداء المسرحي. أنت تعلم أن هذا قد يحدُث لأي شخص.»

«نعَم، ولكن من ورَّطكِ في هذا يا بيرتي؟»

«في البداية أريدكَ أن تفهم الموضوع بوضوح، لم يكن ذلك خطأَه. لقد فعلتُ ذلك عن عمد.»

لم يعرف باني ما يجبُ القيام به عند سماع ذلك الاعتراف. ولذلك قال: «مِن الأفضل أن تُخبريني بالأمر يا بيرتي.»

«حسنًا، أريدك أن تتحكَّم في رد فعلك. فأنا مديرةُ نفسي، وأعرفُ ما أفعل. ولن أتزوَّجه الآن ولو مقابل مليون دولار، وحتى لو عرض عليَّ كل ملايينه؛ لأنه شخصٌ جبانٌ، وأنا أحتقره».

«هل تقصدين تشارلي نورمان؟!»

أومأَت برأسها موافقة، وعندما رأت باني يشُد على يدَيه، قالت: «ليس عليك القيام بأي أعمالٍ بطولية. لا يمكن إقامة حفل زفافٍ قسري لعروس ترفض الحضور».

«أخبريني ماذا حدث يا بيرتي.»

«حسنًا، كانت تربطنا علاقةٌ من الحب العارم لفترة من الوقت، وظننتُ أنه سيتزوَّجني. ولكن بعد ذلك أدركتُ أنه لن يستغني عن النساء الأخريات، وفكَّرتُ في الأمر مليًّا، وقرَّرتُ أنه إذا حملتُ بطفل، فسيتعيَّن عليه أن يتزوَّجني، وبالفعل نفَّذتُ الفكرة.»

«بيرتي، يا للهول!»

«ليس عليكَ أن تبالغ في رد فعلك. فالآلاف من النساء يفعلْنَ ذلك، إنها إحدى حِيَلنا. لكن تشارلي جبان. عندما أخبرتُه بالأمر، تصرَّف بطريقةٍ مثيرةٍ للاشمئزاز؛ ولذلك قطَعتُ علاقتي به. وعثرتُ على طبيبٍ بإمكانه تولي هذه الأمور، وسيتعيَّن على الأب دفعُ ألف دولار، إجمالي التكلفة.»

همس قائلًا: «بيرتي، لماذا تلجئين إلى أشياء كهذه؟»

«لا تقلق، لن أكرِّر هذا الأمر. كان عليَّ أن أتعلم، مثل أي شخصٍ آخر.»

«ولكن لماذا كان عليكِ خوض تلك التجربة ولو مرةً واحدة؟ لمَ حاولتِ الإيقاع برجلٍ ثري للزواج؟! ألَا يعطيكِ الأب ما يكفي من المال؟»

«من السهل جدًّا عليك أن تقول ذلك يا باني؛ فأنت تشعُر بالسعادة لمجرد الجلوس في أحد الأركان وقراءة كتابٍ قديم. لكني لستُ كذلك، أريدُ أن أستمتعَ بحياتي. الأب يعطيني مصروفًا، ولكن هذا ليس ما أريد. أريد مهنة، شيئًا خاصًّا بي. ولا تبدأ بوعظي؛ لأنني ضعيفةٌ مثل قطةٍ صغيرةٍ ولا أستطيع تحمُّل أي شيءٍ الآن. أردتُ ما تريده كل امرأة؛ منزلًا خاصًّا بي، ولم أرغب في منزل من طابقٍ واحد، بل مكان يمكِنُني دعوة الناس إليه والاستفادة من مواهبي كمضيفة. حسنًا، لقد أخفقتُ، والآن أريدك أن تكون لطيفًا معي لبضعِ دقائق، إذا كان بإمكانك فعل ذلك.»

بدا الأمر كما لو كانت الدموعُ تتدفق إلى عينَيها؛ لذلك سارع باني إلى قول: «حسنًا، أيتها الفتاة العجوز، سأتوقف عن مضايقتك. لكن من الطبيعي أن أتفاجأ».

«لا، لستَ بحاجة إلى ذلك. يقول الطبيب إن هذه العملية تُجرى مليون مرة سنويًّا في الولايات المتحدة. ومن باب التسلية حسبتُ هذه الأرقام، واتضح أنها تُجرى كل ثلاثين ثانيةً تقريبًا. فما الحياة إلا فوضى. دعنا نتحدث عن شيءٍ آخر!»

كان هذا وقت مشاركة الأسرار؛ ولذا سألَته عن علاقته بفِي، هل كان ينوي الزواج منها؟ قال إنه لا يعرف ما إذا كانت ستُوافق به. ضحكَت بيرتي، وقالت إنها ستقبل به؛ فهي تعرف بالضبط ماذا تريد. لكن باني أخبرها عن عدد المرات التي غضبَت فيها منه، وسببِ غضبها، مما أعطى بيرتي الفرصة للتحدث. وعادت لطبيعتها القديمة؛ فمن الممكن أن تشعُر بالضعف لبضع دقائق، وتطلب منه أن يكون لطيفًا، لكنها ما زالت تؤمن بالمال، والأشياء التي يشتريها المال. وبالفعل حلَّلَت شخصية فِي من وجهة النظر هذه؛ فعلى المدى الطويل من الآمَن والأعظَم الزواجُ من سيدة مجتمع، وليس ممثلة، لكن مع ذلك، كانت فِي تتمتَّع بقدْرٍ كبيرٍ من المنطق، أما باني فربما يسيء التصرُّف. فقد كان من المقزِّز تدميرُ سعادتهما من أجل مفاهيمه البلشفية الحمقاء!

ثم سألَتْه عن أحوال الأب، وكيفية سير تلك الصفقة في واشنطن؛ هل سيحصلون حقًّا على عقود الإيجار؟ وهل كان صحيحًا أن الأب يتمتع بتأثيرٍ حقيقي على الحكومة في واشنطن؟ كان باني متأكدًا من ذلك الأمر، وكشفَت بيرتي عما كان يدور في ذهنها. «لقد كنتُ أفكِّر مليًّا في بعض الأمور؛ فقد كان لديَّ الكثيرُ من الوقتِ للتفكير وأنا مستلقيةٌ هنا. أعتقد أن ما سأفعلُه هو العودة إلى إلدون بورديك. إنه شخصٌ أخرقُ إلى حدٍّ كبير، لكنك تعرف دائمًا أين تجدُه، وهذا يبدو لي الآن أمرًا طيبًا.»

سأل باني متعجبًا: «هل ستُخبرينَه بهذا الأمر؟»

أجابت: «لا، ولِمَ أفعل ذلك؟ أظنُّ أن لديه أخطاءه التي لم يُعلِن عنها. إنه يعلم أنني كنتُ على علاقة بتشارلي، ولكن أظنُّ أنه لا يزال يُحبني. ما يدور في ذهني هو أن أوفِّر له مهنة؛ سأطلب من الأب أو فيرن أن يُرسِلا بعضَ البرقيات ويمنحاه منصبًا دبلوماسيًّا جيدًا. أعتقد أنني أرغبُ في العيش في باريس؛ فهناك يمكنك مقابلة جميع الأشخاص المهمين، وهذا أمرٌ عصريٌّ للغاية. يقول إلدون إنه سيتعيَّن علينا تولِّي مسئولية أوروبا، وأظن أنه من الرجالِ الذين سيحتاجون إليهم. ما رأيك في هذا؟»

«حسنًا، إذا كان هذا ما تريدينه، فلا شك لديَّ في أنكِ تستطيعين تحقيقَه. لكن سيكون من الصعب على إلدون أن أكون صهره.»

طمأنَتْه بيرتي قائلة: «أنا متأكدةٌ من أنك ستُحسِن التصرُّف. فهذه مجردُ مسألةٍ بسيطةٍ يمكنكَ التغلُّب عليها.»

٨

طردَت وزارةُ البحرية الشركةَ الصغيرةَ التي كانت قد بدأَت تحفِر في حقل صني سايد، الذي كان ضمن أراضي احتياطي القوات البحرية من النفط. وأرسلَت مجموعةً من مشاة البحرية لتنفيذ هذه المهمة، وقد جذبَت هذه الخطوةُ التي لم يسبق لها مثيل الكثيرَ من الاهتمام، مما أثار قلق الأب وفيرن. ووضع فيرن رجلًا هناك لتسوية الأمور مع مراسلي الصحف، وكان «بيت الابن» في واشنطن يتولَّى رعاية الأمور هناك. بدأَت الصحف تنشر أخبارًا مفادها أن وزارة البحرية كانت تشعر بقلقٍ شديد؛ لأن الشركات التي كانت تشغل الأراضي المجاورة لأراضي احتياطي القوات البحرية من النفط كانت تحفِر الآبار، وتستنزف نفط البحرية، ولتجنُّب حدوث كارثة، رأت السلطات أنه لا بد من تولي وزارة الداخلية أمر الاحتياطيات، وتأجيرها بشروط تعود بالنفع على الحكومة.

لم يكن باني بحاجة إلى سؤال والده عن تلك الدعاية؛ فقد كان يعرف ما يعنيه ذلك؛ ولذا انتظر وهو يتساءل: هل من الممكن الإفلاتُ من تصرُّف بهذه الفظاظة؟ وهل من الممكن لأي شخصٍ ألَّا يدرك أن بإمكان الحكومة الاستيلاءَ على الأراضي المجاورة، بموجب السلطاتِ ذاتِها التي مكنتها من الاستيلاء على الاحتياطيات الحالية؟ أو أن بإمكان البحرية حفرَ آبارٍ فرعيةٍ مقابلةٍ في ممتلكاتها الخاصة، تمامًا كما كان سيفعل أيُّ رجلِ نفط. لكن لا؛ فهذه الحكومة لم تكن تفكِّر في البحرية، بل كانت تفكِّر في الأب وفيرن! فحين اشترى رجال النفط الحزب الجمهوري، حصَلا أيضًا على أجهزة الحزب، بما في ذلك الصحافة، التي قبلَت الآن بخنوع «المعلومات» المرسَلة من واشنطن، وأشادت بالإجراءات السريعة التي اتخذَتْها الحكومة لحماية نفط البحرية الثمين.

ثم حدث شيءٌ غريب. اتصل دان إيرفينج بباني عَبْر الهاتف، وحدَّد معه موعدًا لتناول طعام الغداء. وكان أول ما قاله هو: «إن كلية العمال عديمةُ الفائدة!» واستطرد قائلًا إن محاولة إبقاء هذا المشروع على قيد الحياة مضيعةٌ للوقت؛ فمع بقاء القادة العماليين الحاليين في السلطة وعدَم رغبتِهم في تعلُّم العمال الشباب، من الصعب على الكلية أن تسيطر عليهم. في الأسبوع الماضي، داهَم شخصٌ ما الكلية ليلًا، واستولى على معظم ممتلكاتها، باستثناء الديون، وقرَّر دان أن يدفع هذه الديونَ من مدَّخراته واستقال.

سأله باني: «ما الذي تنوي فعله؟» أوضح دان أنه كان يرسل أخبارًا إلى وكالةٍ صحفيةٍ صغيرةٍ كانت تُديرها مجموعة من الراديكاليين في شيكاغو، وأنه قد حصَل من واشنطن على الكثير من المعلومات التي جذبَت الانتباه. فقد كان لديه بعضُ الأصدقاءِ الذين كانوا يعملون هناك، وكانت النتيجة أن عُرِض على دان خمسة عشر دولارًا أسبوعيًّا للذهاب إلى العاصمةِ كمراسلٍ لهذه الوكالة الصحفية. «يمكنني تدبُّر حالي بهذه الوظيفة؛ فهي أفضل وظيفةٍ يمكنني القيام بها.»

سَعِد باني لسماع ذلك. وقال: «دان، هذا خبرٌ جيد! فهناك الكثير من الأوغاد الذين يجب فضحُهم!»

«أعلم ذلك، وهذا سبب مقابلتي لك. فأحد الأشياء التي أركِّز عليها هو عقود إيجار احتياطيِّ القواتِ البحريةِ من النفط. فهي تبدو لي مريبة للغاية. فأنا أظن، ما لم أكن مخطئًا، أن الشخصَين القائمَين على ذلك الأمر هما فيرنون روسكو وبِيت أورايلي، وعادةً ما تكون هناك أنشطةٌ مشبوهةٌ في كل ما يفعلانه.»

أجاب باني، محاولًا الحفاظ على نبرة صوته: «أفترض ذلك.»

«وهناك إشاعاتٌ في واشنطن عن أن هذه هي الطريقة التي وصل بها كريسبي إلى مجلس الوزراء. فقد عُقدَت الصفقة قبل ترشيح هاردينج. ويقول الجنرال وود إن الترشيح قد عُرض عليه مقابل عقد هذه الصفقة، لكنه رفض.»

قال باني: «يا إلهي!»

«بالطبع أنا لستُ متأكدًا من هذه المعلومات حتى الآن، لكنني سأُجري مزيدًا من التحريات. بعد ذلك تذكَّرتُ أن روسكو هو أحدُ شركاء والدك، وخطَر ببالي أنه سيكون من المحرج التوصُّل إلى أي شيء ... حسنًا، أنت تعرفُ ما أعنيه، يا باني؛ فقد كان والدك لطيفًا جدًّا معي وأنتَ تبرعتَ بالمال للكلية ...»

قال باني: «أعرفُ ما تقصد. لا داعيَ للقلق بشأن ذلك يا دان. امضِ قدمًا وقُم بعملك، وكأنكَ لم تعرفنا من قبلُ.»

«هذا لطفٌ منك. كنتُ أخشى أن ينشأ سوءُ فهمٍ يومًا ما إن لم أوضِّح ذلك؛ فأنت لم تخبرني بأي شيءٍ عن هذا الموضوع من قبلُ. فذاكرتي قويَّة، وأنا متأكد أنكَ لم تذكُر ذلك أبدًا. أليس كذلك؟»

«هذا صحيحٌ تمامًا يا دان.»

«لم تُناقِش معي مطلقًا أعمالَ والدك، باستثناء الإضراب، كما أنكَ لم تناقش أفكار روسكو أو أورايلي أيضًا.»

«هذا صحيحٌ يا دان. لن يشُكَّ أحدٌ في ذلك أبدًا.»

«لا يا باني، قطعًا سينتاب الجميعَ الشك، فإذا فضحتُ أمرهم في واشنطن، فلن يقتنع روسكو وأورايلي على الإطلاق بأنني لم أحصُل على هذه المعلومات منك. وأخشى ألَّا يقتنع والدك أيضًا. ولكنني أريد أن أتأكَّد من أنك تعي ما تفعله، وأنني لم أخدَعْك.»

صافحَه باني، ولم يكن بإمكان أيٍّ من لاعبي البوكر المخضرمين، الذين كانوا يجلسون طوالَ الليل في غرفة المعيشة المليئة بالدخان في «بيت المزرعة» في بارادايس؛ أن يتصرف بلامبالاة على نحوٍ أروعَ من ذلك. حتى إن باني أجبَر نفسَه على إنهاء الغَداء، وكتَب شيكًا لسدادِ جزءٍ من ديون كلية العمال، وودَّع صديقه وداعًا حارًّا وتمنى له التوفيقَ في وظيفتِه الجديدة. ثم انطلَق بسيارته، وحينئذٍ أصبَح بإمكانه أن يُعبِّر عما كان يشعُر به بداخله من حزنٍ شديد!

رأى أن من واجبه إخبارَ والده بهذه المحادثة. فإخباره لن يُحدِثَ أي فارقٍ في عمل دان إيرفينج، لكن من المحتمَل أن يُبعِد الأب عن المتاعب. ولكن عندما عاد روس الأكبر

إلى المنزل في ذلك المساء، لم يكن لدى باني وقتٌ للتحدث. قال الأب: «حسنًا يا بُني، لقد حصلنا على عقود الإيجار!»

«هذا رائعٌ يا أبي!»

«تمَّت الموافقةُ عليها، وغادر فيرن إلى واشنطن اليوم. ومن المقرَّر توقيعُها الأسبوع المقبل، وسنذهب أنا وأنتَ في رحلةٍ ونحظى ببعضِ المرح!»

٩

كان جو وأيكي مينزيس قد خرجا من السجن منذ شهرَين، بعد أن جمع رفاقُهما في حزب العمال مبلغ الكفالة بصعوبةٍ شديدة. والآن حان موعدُ محاكمتهما، بالإضافة إلى العديد من أعضاء الحزب الآخرين. وكانت الدولة تأخذ على عاتقها مسئوليةَ إثباتِ أن هذه المنظمة لم تكن سوى حزبٍ شيوعيٍّ متخفٍّ؛ فقد كان هذا هو الجزء «القانوني» من المنظمة، لكن التوجيه الحقيقي كان في يد مجموعةٍ «سرية»، كانت تتلقَّى الأموال والأوامر من موسكو. وكانت تدعو إلى الإطاحة القسرية بـ «الدولة الرأسمالية»، وإقامة «ديكتاتورية طبقة العمال»، على غرار النموذج الروسي. ومن ناحيةٍ أخرى، ادَّعى المتهمون أنهم نظموا حزبًا سياسيًّا شرعيًّا للطبقة العاملة، وكان موقفهم تجاه العنف دفاعيًّا بحتًا. لقد اعتقدوا أن الرأسماليين لن يسمحوا أبدًا بأن تُنتزع منهم السلطة سلميًّا، وكان الرأسماليون هم مَن أطاحوا بالدستور، وكان على العمال الدفاعُ عن أنفسهم.

أُجريَت محاكمةُ جميعِ السجناء في وقتٍ واحد، واستغرقَت الإجراءاتُ ثلاثةَ أسابيع وكان ذلك درسًا توضيحيًّا للمشاكل المعاصرة، أو كان من الممكن أن يكون كذلك، لو أن الصحف نشرَت أخبارًا عن كلا الجانبين. وللحصول على معلوماتٍ عن جانب العمال، كان عليك الجلوس في قاعة المحكمة، وكان باني يذهب كلما سمَح له جدولُ دراستِه في الجامعة بذلك. وقد كان حاضرًا عندما قدَّم الادعاءُ شاهدًا «غير متوقع» وهو صديقُ طفولته، بن سكوت، وكان ذلك أمرًا غير متوقَّع لباني أيضًا! بدا أن بن قد أطلق شاربًا وأخذ دورةً تدريبيةً في لهجة أهل موسكو، وانضَم إلى حزب العمال باعتباره عاملَ نفطٍ عاطلًا عن العمل، وبعد فترةٍ قصيرةٍ حصَل على وظيفة في المكتب. والآن كان يروي قصصًا مروِّعة عن الأفعال الإجرامية التي سمِعها، وعن الجهود التي بذلها الحزبُ لتحريضِ عمالِ النفطِ على التمرُّد وتدمير الآبار. من ناحيةٍ أخرى، وَفقًا لما قاله أيكي مينزيس لباني، كان الشيوعيون على استعدادٍ للقسَم بأن بن سكوت نفسه هو من دعا إلى كل اقتراحات التدمير، وفي خِضَم

أزمة الإضراب كان يُصِر على أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ الوضع هي تأجيرُ مجموعةٍ من المقاتلين الحقيقيين، وحرقُ بعضٍ من حقول النفط.

عاد باني إلى المنزل حيث كان والده. وسأله: «أبي، ما الذي جعلكَ تستغني عن بِن سكوت؟»

«اكتشفتُ أنه كان يأخذ عمولاتٍ من شخصٍ آخر. وكان متورطًا في عملياتِ احتيالٍ أخرى أيضًا.»

«ماذا تعني؟»

ضحك الأب. وقال: «كان لديه مخطَّطٌ عجيب. فكما تعلم، في حقل بروسبكت هيل، كان الناس في عَجلةٍ من أمرهم لحفر الآبار، وكان مالك قطعة الأرض المجاورة يحفر بئره أولًا، لاستنزاف كل النفط. ولذلك كان بن ورجلٌ آخرُ يبحثان عن مجموعةٍ من مالكي قِطَع الأرض الذين كانوا على وشك الحصول على عقدِ إيجارٍ جيد، ويطلب بِن من صديقه الحصولَ على عقدِ تنازلِ ملكيةٍ لواحدة من تلك الأراضي. وكان بِن يُسجِّل هذا العقد، وبالطبع، عندما تأتي شركة التحقُّق من الملكية لتقديم تقرير عن الأرض، ستظهر مشكلة في عقد الملكية. حينئذٍ يُهرع المالك خلف بِن سكوت في حالةٍ من الذعر، متسائلًا عما يحدث. فتبدو الصدمة على بِن، ويُخبره أنه اشترى قطعةَ الأرض من أحدِ الرجال بحسن نية. والسؤال هنا: من كان هذا الرجل؟ حسنًا، لقد اختفى الرجل ولم يتمكَّن أحدٌ من العثور عليه. ولكن بِن أوقف عَقدَ الإيجار، مما أدى إلى تأجيل بدء الحفر. وكان مالكُ قطعةِ الأرضِ يغضَب ويسبُّ؛ إذ كان جميع أصحاب الأراضي في عقد الإيجار مرتبطين بعضهم ببعض، ولن يتمكَّن أحدٌ من التصرُّف في ملكيته حتى تسوية المشكلة في قطعة الأرض هذه. وسيستغرق الذهاب إلى المحكمة وإلغاء عقد الملكية ستة أشهر أو نحو ذلك، وفي هذه الأثناء ستضيع فرصةُ إيجار الأرض؛ لذلك سيتعيَّن على المُلَّاك أن يتعاونوا ليدفعوا لبِن خمسة آلاف دولار، أو أيًّا كان المبلغ الذي ادَّعى دفعه للرجل الآخر.»

علَّق باني قائلًا: «أظن أن هذه الحيلة ستتكرَّر مراتٍ عديدة»، أجابه الأب أنها لن تتكرر كثيرًا بمجرد انتشار الخبر، وحينئذٍ سيضَع مالكُ قطعةِ الأرضِ مسدسًا تحت أنف بِن، ويُسوِّي الأمر بهذه الطريقة. وبالفعل تعرَّض بِن لعمليةِ احتيالٍ معتادةٍ على يد امرأة تركَتْه مفلسًا؛ ولهذا اتجه إلى أعمال التجسُّس لصالح الجمعيات الوطنية.

عَرفَ باني أن والده لا يدينُ بأي شيء لهذا الوغدِ المراوغ؛ ولذلك لن يمانعَ في كشفِ أمره، بشرط ألَّا يُذكر اسمُ باني. وسيكون من السهل تتبُّع الأمر، من خلال البحث عن

معاملات بِن العقارية في سجلَّات المقاطعة؛ فقد كان يقدِّم عقود تنازل ملكية لأصحاب الأراضي الذين كان يبتزُّهم، وإذا كان هؤلاء الرجال لا يزالون في الحي، فلا شك أنهم سيشهدون، أو يمكن إجبارهم على ذلك. رأى باني رايتشل في الجامعة في صباح اليوم التالي وأخبرها بالقصة، وأعطاها ورقةً نقديةً بقيمة مائة دولار لتغطية تكاليف البحث عن عقد ملكية. وبدَورها نقلت الأخبار لجو أو أيكي، وبعد يومَين وجد بِن نفسه في مواجهة بعض المواطنين الغاضبين، من الذكور والإناث، الذين أبلَوا بلاءً حسنًا في زعزعة ثقة هيئة المحلَّفين في شهادته فيما يتعلق بالمؤامرات السرية في حزب العمال! اختلفَت هيئة المحلَّفين في الحكم على الجميع باستثناء قائدَي الحزب؛ حيث حُكم على كلٍّ منهما بستِّ سنوات، لكنَّ ابنَي مينزيس حصلا على البراءة، وأقام الحزب احتفالًا وصفَتْه الصحف بأنه عربدةٌ من الهذيان الثوري الشيوعي.

١٠

لم ينزعج الأب كثيرًا عندما أخبره باني أن دان إيرفينج كان يتعقَّب فيرنون روسكو في العاصمة. بالطبع كان لا بد من وجود شائعاتٍ حول عقد الإيجار؛ فدائمًا ما يكون هناك «محتجُّون» يحاولون إثارة المشاكل، لكن الجميع كانوا يفهمون أن الأمر يتعلق بالسياسة. فلقد كانت هذه أكبر «فرصةٍ ذهبية» في حياة الأب، وحياة فيرن أيضًا؛ ولذا سيمضيان قُدمًا ويَحفِران الأرض ويستخرجان النفط، ولن يهمَّهما أيُّ شيءٍ آخر. ففي هذه اللعبة، عليك أن تكون مثل سرطان بقشرةٍ صلبة، وكان من المؤسف للغاية أن باني لم يكن قادرًا على اكتساب هذه القشرة اللازمة. ومن المؤسف أيضًا أن شابًّا لطيفًا مثل «الأستاذ الجامعي» لم يجد شيئًا أفضل من التدخل في شئون فيرن ليشغل به وقته.

تأسَّسَت شركةٌ جديدةٌ لتطوير أعظم حقل نفط في أمريكا، وكان الأب شريكًا في ملكية الأسهم، ونائبًا للرئيس، ويحصل على مائة ألف دولار سنويًّا مقابل إدارة أعمال التطوير. لكنه وعَد باني أنه لن يرهق نفسه بالتفاصيل؛ فقد أشرف في الفترة الأخيرة على تدريب بعض الشباب الأَكْفاء، وكلُّ ما كان عليه فعلُه هو توجيهُهم. كانت هذه مهمةً رائعة، وكان منهمكًا في إنجازها، والعمل بجدٍّ أكثر من أي وقتٍ مضى، متحديًا نصائح أطبائه.

جاءت برقيةٌ من فيرن تحمل خبرَ توقيعِ عقودِ الإيجار. وتمكَّن باني من الحصول على أسبوع إجازة من جامعته؛ فهذه الخدمات يمكن أن يحصُل عليها أحدُ طلاب السنة الأخيرة الوقورين، خاصةً عندما يكون هناك أمل في أن يخصِّص والدُه منحةً لأستاذ في

أبحاث علم كيمياء البترول. مضَيَا في رحلةٍ طويلةٍ بالسيارة إلى حقل صني سايد، الذي كان يقع في منطقةٍ نائيةٍ من الولاية، بها مراعٍ وطرقٌ غير ممهَّدة وعددٌ قليلٌ جدًّا من المستوطنين. وأقاما في فندقٍ ريفيٍّ بدائي، وتفقَّدا الحقول الجديدة، وهما يمتطيان الخيل أغلب الوقت. كان بانتظارهما الجيولوجيون الذين يعملون لدى الأب، برفقة المهندسين والمسَّاحين؛ لتحديد مواقع الحفر، والطرق، وخطوط الأنابيب، ومستودع الصهاريج، حتى إنهم وضعوا مخططًا لإنشاء بلدة، وحدَّدوا أماكن الشوارع ودار السينما والمتجر العام! اتُّخذَت الإجراءات اللازمة، وكان من المقرَّر أن تبدأ المقاطعةُ العملَ على تمهيدِ طريقٍ الأسبوع المقبل. وكانت الأمور تسير على ما يُرام!

كان ينبغي على باني أن يكون مهتمًّا بكل هذا، وكان ينبغي عليه أن يفتخر بهذه «الفرصة الذهبية» مثل أيِّ ابنٍ مخلص. لكنه، كالعادة، كان «يُقحِم أنفَه في شئون غيره» كما كان يقول سائق البغال السابق بفظاظة. لقد تبعَتْه الأقدار التي شاءت أن يكون باني دائمًا على الجانب الخطأ من عمل والده إلى هذا الفندق الريفي، وجعلَته يتعرف على صاحبِ مزرعةٍ مُسِن، ضعيفٍ ومثيرٍ للشفقة، تتمتع بشرتُه بسُمرةٍ طبيعيةٍ ناجمةٍ عن التعرُّض لأشعَّة الشمس الحارقة والرياح لمدة ستين سنة. كان لديه عينان زرقاوان دامعتان قلقتان، وحقيبةٌ كبيرةٌ من الأوراق يحملها تحت ذراعه؛ حيث لم يكن يتركها في غرفته خوفًا من سرقتها. وطلَب من الأب النظر في مسألة إبرام عقد إيجار معه، وبالطبع لم يكن لدى الأب وقتٌ ليُضيعَه في عقودِ إيجارٍ صغيرة، وأخبَره بذلك، وحسم الأمر. لكن الرجل المسن اكتشف بطريقةٍ ما أن باني يفتقر إلى القشرة الصلبة المعتادة لسرطانات النفط الكبيرة، ونجح في استدراج الشاب إلى غرفته وعرض عليه مستنداته. لقد كان ملفًّا موثقًا من وزارة الداخلية، وعليه أختامٌ حمراءُ ونياشينُ زرقاءُ رائعة، لكن الرجل المسن أوضح أنه مع كل ذلك لم يكن كاملًا؛ فقد سرق شخصٌ ما المستنداتِ الأساسيةَ من الملفَّات الحكومية، التي كانت توضِّح كيف أخرجَته شركة «ميد سنترال بِيت» من منزله. وقال: «إنه رجلٌ يُدعى فيرنون روسكو، وهو أحد المحتالين الكبار في هذا المجال.»

كان الرجل المسن، كاربري، قد عقَد العزم على المطالبة بامتلاكِ بعضِ الأراضي القريبة، بموجب قانون الحيازة الزراعية، وبعد اكتشاف وجود نفط، جاءت شركة «ميد سنترال بِيت» وطردَتْه، ولم تدفع له أيَّ سنتٍ مقابل التحسينات التي أجراها والتي بلغَت ألفَين ومائتَي دولار. كان لدى الرجل المسن نسخةٌ من القانون توضِّح أن من حق الشركة فعل ذلك؛ حيث كان القانون يستثني «الأراضي الغنية بالثروات المعدنية» من حقوق

الحيازة الزراعية، وقد وقع في هذا الفخ آلافُ الأشخاص في هذا الجزء من الولاية. لكن كاربري كان بالفعل قد سجَّل أرضه؛ ومن ثَمَّ كانت مطالبته مشروعة، لكنَّ شخصًا ما تمكَّن من التلاعُب بالسجلَّات الحكومية، وعلى مدى سنواتٍ عديدةٍ ظل الرجل المسن يُكافِح من أجل تحقيق العدالة. وبكل ثقةٍ مثيرةٍ للشفقة، أرسل خطابًا إلى عضو الكونجرس للحصول على محامٍ يمثِّله في واشنطن، وقد أوصى عضو الكونجرس بمحامٍ، وأرسل له كاربري الأموال عدة مراتٍ دون نتيجة، وبعد ذلك، عندما ذهب إلى واشنطن، اكتشف أن المحامي المزعوم كان مجرد كاتب في مكتب عضو الكونجرس، ينهب المطالبين بالأراضي، وكان صاحب العمل على الأرجح يُشارِكه في هذا المكسب غير المشروع!

يا لها من قصةٍ مثيرةٍ للشفقة! وأسوأ ما في الأمر هو أنه كان بوسعك أن ترى أنها لم تكن حالةً فردية، لكن أمرًا ممنهجًا. طريقة أخرى ينهب بها الأغنياءُ والأقوياءُ الفقراءَ والضعفاء! كان لدى كاربري وثيقةٌ حكوميةٌ تمكَّن من الحصول عليها في واشنطن، تحتوي على تقريرٍ عن تحقيقٍ أجراه الكونجرس عن قضايا الأراضي في كاليفورنيا. قضى باني إحدى الأمسيات في إلقاء نظرةٍ سريعةٍ على هذا التقرير الذي كان يتكوَّن من ألف صفحةٍ مكتوبةٍ بخطٍّ صغير، تتحدث عن عمليات السرقة والاحتيال الجماعية. على سبيل المثال: الاستيلاء على حقوق النفط بجوار السكك الحديدية! فقد منحَت الحكومةُ السككَ الحديديةَ كل قطعةِ أرضٍ على طولِ حرمِ طريقِ السكةِ الحديدية، لكنها استثنَت على وجه التحديد جميعَ «الأراضي الغنية بالثروات المعدنية». وعند العثور على معادن، كان لا بد للسكك الحديدية من التنازل عن هذه الأراضي والحصول على أراضٍ أخرى. وبموجب القانون، كانت كلمة «الثروات المعدنية» تشمل النفط، ولكن هل كانت السككُ الحديديةُ تُولي أي اهتمامٍ لهذا القانون؟ كانت جامعةُ جنوب المحيط الهادي وحدَها تضُم أراضيَ نفطيةً في كاليفورنيا تزيد قيمتُها عن مليار دولار، وقد أحبط المحامون الماكرون والسياسيون والقضاة المرتشون كلَّ الجهودِ المبذولةِ لاستعادةِ الدولةِ لهذه الممتلكات. أثناء عودتهما إلى الديار، حاول باني إخبار والده بهذا الأمر، ولكن ما الذي يمكن أن يفعلَه الأب؟ ماذا يُمكِنه أن يفعل بشأن كاربري العجوز، الذي سَرقَت شركة «ميد سنترال بِيت» منزله؟ بالتأكيد لم يكن الأب ينوي «إقحام أنفه في شئون فيرن»!

الفصل السابع عشر

الفضيحة

١

ظلَّت تغريدات طائر السُّمَانى تنساب من فوق تلال بارادايس، طيلة الخريف والشتاء، دون أن تجد آذانًا تصغي إليها. لم يَشَأ باني الذهاب إلى هناك. لكن طرأ للأب بعضُ الأمور الهامة التي تتطلب عنايتَه الخاصة، ولم يكن سائقه متاحًا؛ إذ زُج به في السجن لمتاجرته في الكحول بصورةٍ غير مشروعة خارج أوقات العمل. كما كان الأب يمُر بوعكةٍ صحية لا تسمح له بقيادة السيارة، ولأن اليوم هو الجمعة عرَض ابنه أن يُوصلَه إلى هناك.

فقدَت قطعة الأرض المملوكة لروس الابن كل لمساته الشخصية، فلم تعُد ترتبط به إلا بالقانون. تولَّت مدبرةٌ غريبة إدارةَ منزل المزرعة، ونُقلَت كابينة العجوز راسكوم من مكانها، وحلَّ برج الحفر محل عريشة نباتات الجهنمية. ورحل جميعُ مَن كانوا قد التقَوا ببول عن المكان، وتوقَّفَت المناقشاتُ الفكرية. وصارت بارادايس مكانًا يكدَح فيه الرجال لاستخراج النفط، ملتزمين الصمت. كان هناك مئاتٌ من الوجوه الجديدة، لم يرَها باني من قبلُ، وساد مُناخٌ جديد في المكان. كان هؤلاء يدعمون المتاجرة غير الشرعية في الكحول، وصالات الرهان، والأماكن السرية لممارسة القمار واحتساء الخمر. أطلَق عمال النفط القدامى لقب «قطَّافي البرتقال» على العمال الجُدُد؛ إذ لم يمتلكوا الخبرة الكافية، ما شكَّل مصدرَ إزعاج لا ينتهي؛ فقد كانوا ينزلقون في أبراج الحفر المُتسخة بالشحم، أو يتعرَّضون للسحق من الأنبوب الثقيل، فاضطُرت الشركة إلى بناء توْسِعة للمشفى. كان ذلك أرخص، بلا شك، من دفع رواتب الاتحاد للعمال ذوي الخبرة!

وقعَت حادثةٌ مؤسفة لباني؛ زارته زوجة جيك دوجان، وهو أحد المسجونين في سجن المقاطعة، فيما كان يختلي بكِتابه. أصرَّت على رؤيته، وأبَتْ إلا أن تغرق المكان بدموعها، وهي تقصُّ قصصًا مروِّعة عن زوجها والسجناء الآخرين. توسَّلَت إليه أن يتفقد المكان

بنفسه، فلم يجد في نفسه قدرةً على الرفض، مع ما في قراره من حُمق، بالنظر إلى أنه أميرُ نفطٍ شابٌّ يحاول اكتساب صفة الصلابة؛ ليتسنى له مساعدة أبيه العجوز وقضاء حياةٍ ممتعة مع محبوبة العالم. كان باني يدرك خطأه، وأظهَر شعوره بالذنب من خلال عدم إخبار والده بوجهته المنشودة، غداةَ ذاك السبت الماطر.

سمحوا له بدخول السجن دون اعتراض؛ إذ أَلِف القائمون على المكان مِثل هذه الزيارات، كما عَجزوا عن توقُّع الانطباع الذي سيتركه المكان على شابٍّ حالم. كانت الزنازين القديمة من صُنع مهندسٍ معماري ذي عبقريةٍ خاصة في إصابة إخوته من البشر بالجنون. فعلى عكس السجون الأخرى صمَّم المهندس «الخزَّانات» على شاكلة أبراجٍ دوَّارة، بلا أبوابٍ أو مفاتيح، تُدار حتى تتلاءم فتحات القضبان مع فتحات الجهة المقابلة، عند إرادة إيداع سجين داخلها أو إخراجه. يقع هذا الدوران بواسطة رافعةٍ يدوية، ويحدث صوت صريرٍ وأزيزٍ مرعب، بسبب احتكاك الحديد الصدئ. كانت هناك ثلاثُ حُجيرات من هذا النوع، مُصطفَّة بشكلٍ عمودي، فكان الضجيج يصل إلى كل المسجونين عند دوران أيِّ حجرةٍ منها. وعلى مدار تاريخ السجن ذي الأربعين عامًا، أُصيب الكثيرون بالجنون بسبب سماع هذه الأصوات ليلَ نهار.

هل اختبرتَ من قبلُ شعورَ رؤية شخصٍ تعرفه وتُحبه مسجونًا خلف قضبان مثل وحشٍ مفترس؟ هزَّ المشهد باني بعنف، وأصابه بالضعف والوهن. فقد وجد أمامه سبعة أشخاص، في نفس عمره باستثناء اثنَين، يتدافعون مثل غزلانٍ ودودةٍ رقيقة الحس، فيما يمرِّغون أنوفهم بالقضبان، في انتظار قطعة سكَّر أو فتات خبز. عَلَت صيحاتهم الترحيبية المثيرة للشفقة، وأشرقَت وجوهم في امتنان؛ لأنهم حظوا بزيارة بل ببضعِ دقائقَ من وقت شابٍّ غني!

كان هؤلاء من عمال المزرعة أو عمال العراء، الذين عملوا في الشمس والمطر طيلة حياتهم، واكتسبوا ضخامةً في الجسم، وصبغةً داكنة في البشرة، وقوة في البنية، لكن صارَت بشرتهم شاحبة، وأجسادهم متسخة، وشعورهم شعثاء، ووجناتهم خالية من اللحم، وأعينهم غائرة. كان جيك دوجان يسعل، مثلما قالت زوجتُه، ولم يكن بينهم رجلٌ في حالة صحةٍ جيدة. لو استطاع باني إقناع نفسه بوضاعة ما اقترفه هؤلاء الرجال وأن هذا العقاب تكفيرٌ لذنوبهم، لربما وجد تبريرًا لهذا العقاب، وإن كان يتساءل عن جدواه، لكن هؤلاء الرجال قد سُجنوا بسبب تجرُّئِهم على الحُلم بالعدالة لأصدقائهم، وعلى الحديث عنها، في تحدٍّ لـ «الجماعة المناهضة للاتحادات» من كبار رجال الأعمال!

أرسل باني إليهم بعض الكتب؛ حيث كان مسموحًا لهم اقتناءُ الكتب على ألَّا تبدو راديكالية للسجَّانين المتسمين بالجهل المطبق، وأن تُرسل من الناشرين مباشرة، حتى لا يُضطَروا إلى تفتشيها بدقة؛ بحثًا عن أغراضٍ مخبَّأة مثل المناشير والماريجوانا. أرادوا أن يُخبروه عن مدى نفع هذه الكتب وطلب المزيد. سألوه ماذا إذا كان يعرف أي شيءٍ عن فُرص خضوعهم للمحاكمة. وسألوه ما إذا كان قد رأى بول أو سمع عن رأيه في الأحداث. سألوه أيضًا عن مستجدَّات الاتحاد وعما تبقى منه. لم يُؤذن لهم في الحصول على أي صحيفةٍ «راديكالية» من أي نوع؛ لذا كانوا متأخرين عن أخبار عالمهم بحواليَ ستة أو سبعة شهور.

٢

خرج باني لأشعة الشمس يغمره شعورٌ جديد باليأس. كان والده مريضًا نوعًا ما، لكن لا مفَر من إثقال كاهله بهذا العبء المرير! ففي آخر مرة تناقشا في هذا الشأن، أخبره أبوه أن ينتظر، وأن فيرنون روسكو «سيرى ما يمكنه فعله.» لكن باني لن يطيق الانتظار أكثر من هذا؛ يجب أن يُجبر أبوه فيرن على التصرُّف، وإلا فسيتولَّى المهمة بنفسه.

قاد باني السيارة عائدًا بأبيه إلى إنجِل سيتي، وعلم بتنظيم الراديكاليين «لجنة دفاع»، وبعقد لقاءٍ احتجاجيٍّ جماهيري لجمع التبرُّعات للمحكمة الوشيكة. كان من المفترض أن يكون بول متحدثًا رئيسيًّا في هذا اللقاء، رغم احتمالية حرمانه من امتياز الكفالة بسبب مشاركته. علم باني بهذه الأخبار، وأصدَر إنذاره الأخير لأبيه؛ فقد كان من المقرَّر أن يُعقد الاجتماع في الأسبوع القادم، ولو لم يتصرَّف فيرن في هذه الفترة، فسيكون باني أحد هؤلاء المتحدثين، وسيُعبِّر عن رأيه كاملًا في القضية.

احتجَّ الأب بطبيعة الحال. لكن فاجأه ابنُه بأن تصرَّف بـ «غلظة». وتمادى في غلظته من فَرْط يأسه. قال: «ربما تشعُر أنه لا يحقُّ لي التصرُّف بهذه الطريقة، لا سيما وأنا أستخدم مالك، وربما يجدُر بي أن أترك الدراسة في الجامعة وأبحث عن وظيفةٍ لنفسي.»

قال الأب: «لم أقُل أيَّ شيء من هذا القبيل يا بني!»

ردَّ باني: «لكني أضعك في موقفٍ حرج مع فيرن، والأسهل لك أن تقول إنني يجب ألَّا أعيش عالةً عليك.»

قال: «لا أريد أن أقول أي شيء من هذا القبيل يا بُني. ومع ذلك أريدك أن تفكِّر في وضعي.»

قلتُ: «لقد فكرتُ في كل شيءٍ يا أبي، وتأمَّلتُ المسألة من جميع الأوجه حتى لم أجد مخرجًا. كل ما في الأمر أنه لا يمكنني أن أدَع حُبي لشخصٍ يتغلب على إحساسي بالعدالة. نحن نرتكب جريمةً بإبقاء هؤلاء الرجال في السجن، ولا بد أن يُطلِق فيرن سراحهم، وإنْ لم يفعل ذلك فسأسبِّب له المشكلات.»

كان فيرن في طريق عودته من الشرق، وطلب باني أن يخبر محامي المقاطعة برغباته هاتفيًّا، كما يمكنه الاتصال بالقاضي إن تطلَّب الأمر؛ فلن تكون هذه المرة الأولى بحسب تخمينه. ولو لم يفعل ذلك، فسيُعلَن عن اسم باني متحدثًا في هذا الاجتماع الجماهيري. ومَض في ذاكرة الأب الاجتماعُ المخيف لهاري سيجر، تخيَّل ابنه العزيز، ينضم لصفوف الجماهير المتوحشة علنًا، ويعانق ذلك السيل من الوجوه الغاضبة والأيدي المرتفعة والأصوات العالية!

أيضًا كرَّر باني تهديده بخصوص آنابيل. قال: «أخبر فيرن، مع تحياتي، أنني سأحاصِر فتاته، وسأصحبها إلى الاجتماع. سأبلغها بمحاولته حبسَها في قفصٍ ذهبي، ما سيدفعُها للحضور، ولو سمعَت قصة المسجونين السياسيين كاملةً بأي شكلٍ من الأشكال، فستجعلُه يندم على عدم الاستسلام!» وجد الأب صعوبةً في منع ابتسامةٍ عريضة من الارتسام على شفتَيه. كان الرجل المسكين، في أعماق قلبه، فخورًا بشجاعة ابنه!

لا أدري إذا كان الأب قد استخدم ورقة آنابيل، ولا أعرف الكلام الذي قاله تحديدًا، لكن ما سجله التاريخ هو التالي: بعد يومَين من عودة فيرنون روسكو من واشنطن في سيارته الخاصة، يحمل في يدَيه الوثائق الثمينة ذات الأختام الحمراء الكبيرة لوزارة الداخلية، وقف محامي مقاطعة سان إليدو أمام قاضي المحكمة العليا باتن، و«أسقط التهم» في قضايا الحركة النقابية الإجرامية الثمانية. وهكذا استعادت في تريسي عشرة آلاف دولار، وأُخرج عمال النفط السبعة إلى السطح؛ حيث أصابتهم أشعَّة الشمس القوية بشبه عمًى، وأجَّل باني ظهوره الأول في دور السفيه — أو أيًّا كان وصفه — الذي يجلب الهلاك على نفسه.

٣

تلقى باني الأخبار، قبل أن تنشُرها الصحف، وأسرع في نقلها إلى بول وروث. كان بول يعمل نجارًا، واستأجر هو وأختُه كوخًا صغيرًا في الجزء الخلفي من قطعة أرض. بدأت روث الدورة التدريبية في مجال التمريض في أحد المستشفيات الكبيرة، وحصل بول على

بعض الكتب، ونُقلت صورةٌ مصغرة من بارادايس إلى ذلك الجزء من إنجِل سيتي، الذي تعيش فيه الطبقة العاملة. فرحَت روث أيما فرحٍ عندما قَدِم باني بالأخبار! بعد ذلك تحدَّث بول بذلك المزيج من الألم والفخر: «كان لطفًا منك، يا بُني، أن تكبَّدتَ كل هذا العناء، وأشكر لك هذا، لكن أخشى أنك ستراني ناكرًا للجميل إن سمعتَ ما أنوي فعله بحريتي.»

سأل باني: «ماذا تريد فعله يا بول؟»

أجاب: «لقد قررتُ الانضمام إلى حزب العمال.»

هتف باني وأمارات الأسى واضحة على وجهه: «أوه، بول! لكن لماذا؟»

أجاب بول: «لأنني أُومِن بفاعلية أساليبهم. لقد آمنتُ بها دائمًا منذ ذلك الوقت الذي أمضيتُه في سيبيريا. انتظرتُ فحسب لأني لم أشأ الإضرار بالإضراب، وبعدما قُبض عليَّ ما كان بوسعي فعل شيءٍ دون الإضرار بالآخرين. لكن الآن الضرر هو ضرري وحدي؛ لذا سأفصح عما أعرفه.»

قال باني: «لكن، بول! سيقبضون عليك مرةً أخرى!»

أجاب بول: «ربما. لكنهم هذه المرة سيقبضون عليَّ بصفتي شيوعيًّا، وسيُحاكمونني على هذا الأساس.»

قال باني: «لكنهم أدانوا الكثيرين بالفعل!»

ردَّ بول: «هذا هو السبيل الوحيد للقضايا التي لا تجذب الرأي العالم. ها هو أنا، عاملٌ مغمور، لا يأبه أحدٌ لأفكاره أو أقواله، لكنهم إذا حاكموني بصفتي شيوعيًّا، فسأحضُّ الآخرين على الحديث، وسأحثُّهم على تأمُّل أفكارنا.»

اختلس باني نظرةً إلى روث، وأخذَته بها شفقةٌ شديدة؛ فقد كانت عيناها مثبتتَين على أخيها، ويداها مشبكتَين في خوف. كانت نفس النظرة التي كانت على وجهها عندما كان بول يتهيأ للخروج للحرب. كان قدَرها أن تراه يذهب للحرب!

سأل باني: «هل أنتَ متأكد من أنه لا يُوجَد شيء تفعله أهم من ذلك يا بول؟»

أجاب: «فيما مضى كنتُ أحسب أنني سأفعل الكثير من الأمور العظيمة. لكن علَّمتني السنوات الأخيرة أن العامل ليست له أهميةٌ كبيرة في هذا العالم الرأسمالي؛ لذا لا بد أن يتذكر مكانته. يُزج بالكثير منا في السجن، ويخسر عددٌ أكبر حياتهم. الشيء الوحيد الذي يجب أن نحرص على فعله هو المساهمة في صحوة العبيد.»

تلا ذلك صمتٌ. «هل أنت متيقن أنه لا يُوجَد حلٌّ سلمي لهذه القضية؟»

أجاب: «هذا ما سيُقرِّره الطرف الآخر يا بُني. أتظن أنهم لم يستخدموا العُنف في أثناء الإضراب؟ ليتكَ كنتَ هناك!»

سأل باني: «هل فقدتَ أمَلَك في الديمقراطية؟»

ردَّ بول: «مطلقًا! الديمقراطية هي الغاية؛ إنها الشيء الوحيد الذي يستحق العمل من أجله. لكنها لن تتحقق دون تحطيم قبضة الشركات الكبرى. وهذه مهمةٌ تتطلب القتال، ولا سبيل لتنفيذها بواسطة الديمقراطية. تخيَّل لو أن الحمقى الذين جمعهم إيلاي في معبده اندفعوا للنَّيل من فيرنون روسكو!»

لم يستطع باني كبح ابتسامته. قال: «هذه مقولةُ فيرنون بالضبط.»

علَّق بول: «حسنًا، إنه رجلٌ عملي، وأكنُّ له الكثير من الاحترام. لو أراد فعلَ شيءٍ معين، فإنه يبحث عن الوسيلة لتحقيقه ويأخذ بها. ولا يسمح للحكومة بالوقوف في طريقه بالتأكيد. بل يطيح بالحكومة بالرشوة. على ذكر ذلك، هل قرأتَ خطاب واشنطن لدان إيرفينج الذي صدر هذا الأسبوع؟»

أجاب باني: «الصحيفة في المنزل، لكن لم أقرأها بعدُ.»

قال: «حسنًا، ستجده مسليًا. يقول دان إنه معروف بين الصحفيين في واشنطن أن روسكو وأورايلي عقدا صفقةً مع المدعي العام، بشأن شراء ترشيح هاردينج، على أن يحصلوا على عقود إيجار الاحتياطي البحري تلك. وقد قاما برشوة الكثيرين من مسئولي الحكومة بالإضافة إلى الصحفيين. وهناك مطالبة بالتحقيق في الأمر، لكن العصابة لن تسمح بأن يحدث ذلك.»

أعقب ذلك صمتٌ. راقب بول صديقه، ورأى أمارات القلق مرتسمة على وجهه، فأضاف: «لا تحدثني عن الأمر يا بني؛ فلا أريد معرفة ما لا يمكنني البوح به. أنا وأنتَ نفهم أن هذه حكومةٌ رأسمالية، فما شأنها بالديمقراطية؟»

مرةً أخرى لم يُجب باني، وقال بول: «أفكِّر في فيرن، كما تُحب أن تناديَه؛ لأنني اختلفتُ معه للتو، وهو يمثِّل لي النظام. أريد أن أنتزع نفوذه منه، لكن كيف سأفعل هذا؟ لقد طرقتُ كل الأبواب، في محاولةٍ للعثور على طريقةٍ قانونية لتحقيق ما أريد. فوجدتُ القضاء في يده، وسيحظى بغطاءٍ شرعي متى أراد، وسينتهي بي الأمر عالقًا في شبكة من التفاصيل المعقَّدة. ولديه آلية الوصول إلى الجماهير، فلا يمكنك إخبار العامة إلا بما يريده هو. والسينما في قبضته أيضًا؛ لأن عشيقته نجمةٌ سينمائية حسبما يُقال، ولعلك لا تجهل هذه الحقيقة. لقد التحقتَ بالجامعة؛ حيث يسيطر أورايلي على نظام التعليم، بحسب ما

تناهَى إلى علمي. ولا يمكننا الحصول على الأغلبية في التصويت؛ لأن فيرن لديه صناديقُ ممتلئة بأصوات الناخبين، حتى لو رشَّحنا أحدًا، لاشترى ولاءه قبل استلامه لمنصبه. كلما فكَّرتُ في احتمالية إذعانه لصناديق الاقتراع، بدَت لي الفكرة غير قابلة للتصديق.»

سأل باني: «إذن ما الذي تطمح إليه يا بول؟»

قال: «سأذهب إلى العمال! عمال النفط هم مصدرُ قوة فيرن؛ فهم مَن يصنَعون ثروته، ويمكننا الوصول إليهم بسهولة؛ لأنهم ليسوا مبعثَرين في الأرجاء. هؤلاء يجمعهم هدفٌ مشترك ومصلحةٌ مشتركة، وهي الحصول على الثروة التي يأخذها فيرن من أيديهم. بطبيعة الحال لا يدركون هذه الحقيقة بشكلٍ واضح؛ لأنهم يقرءون الصحف ويذهبون إلى دور السينما. لكننا سنُعلِّمهم، وإذا استولَوا على آبار النفط، فكيف سيستطيع فيرن استردادها؟»

أجاب باني: «سيرسل قواتٍ ويستردُّها يا بول!»

ردَّ بول: «لن يرسل قواتٍ؛ لأننا سنحصل على دعم عمال السكة الحديدية. وسينضم إلينا عمَّال البرقيات الذين سيُرسلون رسائلنا بدلًا من رسائله. وسيكون لدينا رجال في الصناعات الهامة — حيث سنعمل على تنظيمهم وسنُخبِرهم بكيفية أداء الأمر بالضبط — وبهذا تصير السلطة الكاملة للاتحادات.»

كان باني يتأمل مجددًا في الرؤية التي جلبها صديقُه من سيبيريا. وواصل بول كلامه بذلك التشامخ، الذي أثار إعجاب باني وحنقَ أخته دائمًا. قال: «يبدو لك الأمر مريعًا؛ لأنه ينطوي على القتال، وأنتَ لا تريد القتال، بل لا يتعيَّن عليك القتال أصلًا. رجال هذه المهمة هم الذين يتمتَّعون بإرادة من حديد، وتعرَّضوا للضرب والسحق، وأُلقي بهم في السجن حيث تضوَّروا جوعًا. هكذا يصنع فيرن الثورة؛ أن يقذف بنا في السجن ويتركنا نتعفَّن. فنقبع هناك وتراودنا أفكارٌ سوداءُ مريرة. لقد تدرَّب جميع البلاشفة في الزنازين تحت الأرض، والآن يعقد السادة نفس الدورة التدريبية في أمريكا. ولا يقتصر الأمر على جرِّنا إلى هذا الطريق ولا على الصلابة التي اكتسبناها، بل إننا نُصبِحُ معروفين ولا تجهلنا الطبقة العاملة، ويتعلم أولئك العبيد المساكين — الذين لا يجرءون على الدفاع عن أنفسهم بأدنى وسيلة — أن هناك أشخاصًا يمكنهم الثقة بهم، ولن يتخلوا عنهم من أجل فيرنون روسكو! سأعود إلى بارادايس يا بُني، وأنشُر أفكار الشيوعية، ولو قبض عليَّ فيرن مرةً أخرى، فسيُدرج مشروع موسكو في سجلات محكمة مقاطعة سان إليدو!»

٤

أعلنَت الصحف حدثًا اجتماعيًّا بالغَ الأهمية، وهو خِطبة الآنسة ألبيرتا روس، الابنة الوحيدة للسيد جيه أرنولد روس، إلى السيد إلدون بورديك، سليل أعرق عائلات المدينة، الذي اختِير في الفترة الأخيرة رئيسًا لهيئة دفاع كاليفورنيا. بعد أيامٍ قليلة، أُذيع نبأ تعيين السيد بورديك سكرتيرًا للسفارة الأمريكية في باريس، فصار العُرس حدَثًا دوليًّا، وفاضت الكنيسة بالزهور مثلما لم يحدُث من قبلُ، وتأنَّق باني شاهدًا للعروس، وبدا الأب وسيمًا مثل مدير حلبة سيرك، ووقفَت العمة إيما — التي تعتبر نفسها المسئولة عن هذه الزيجة — وعلى وجهها ذلك الشعورُ المختلط من البهجة والحزن الملائم لهذه المناسبة. «كانت السيدة إيما روس، عمة العروس، ترتدي فستانًا حريرًا ورديًّا مزدانًا بالخرز الملوَّن بألوان الباستيل، وتحمل زنابقَ وردية في يدَيها ...» هكذا أوردَت الصحف، التي استعرضَت مكانة عائلة بورديك المرموقة، وملايين روس، دون أن تتطرق إلى عمل الأخير سائقَ بغال في الماضي، ولا إلى امتلاكه متجرًا عامًّا في كوين سينتر في كاليفورنيا!

بعدما انقضَت الأفراح، وانطلَق العروسان لمهامهما، حدث أمرٌ طريف؛ فقد وجَّهَت العمة إيما جهودَها لباني، بعدما ارتفعَت معنوياتُها بنجاحها في تدبير زواج ابنة أخيها! كانت المناسبة هي العرض الأول العالمي لـ «أميرة باتشولي» (ذا برنسيس أوف باتشولي)، وهو حدَثٌ عائلي نوعًا ما. ألم يحضُر الأب وباني انطلاقة هذا العمل الفني الفاخرة؟ ألم يكن الأب ملكًا؟ ربَّاه — بلى — وحدَّث العمة إيما بذلك عدَّة مراتٍ على الأقل، أليس طبيعيًّا إذن أن يرافقها ممسكًا بذراعها، وخلفهما مباشرة نجم الحدث الصغير باني؟ أليس طبيعيًّا أن تقابل العمة إيما فِي تريسي، وأن تقع في غرامها من أول نظرة، وأن تخبر ابن أخيها بمشاعرها؟

خلاصة القول، أدرك باني أن عمَّته تتلاعب به ببراعتها الشهيرة، ليرى في تريسي أميرةً مثالية على الشاشة؛ لأنها امرأةٌ أرستقراطية بالفطرة في كلٍّ من مظهرها وسلوكها. فجزءٌ من القوى الحَدْسية الشهيرة لعمته هو قدرتُها على الوصف الدقيق للأرستقراطي في مظهره وأقواله، مع أنها لم تغادر ولاية كاليفورنيا قط، ولا حطَّت عيناها على أرستقراطيٍّ واحد طيلة سنواتها الخمسين.

قال باني، أجل، فِي لا بأس بها؛ فهي حسنة المظهر. ولم يستجب لتلميحاتِ عمته، بفتور الذَّكَر الأناني الشهير، ولا أخبَرها بعلاقته الغرامية. في الحقيقة كان مصدومًا نوعًا

ما؛ لأنه ظنَّ أن سنَّ عمته الكبيرة ستحول دون معرفتها لأمورٍ غير لائقة. ولهذا اضطُرَّت عمته إلى الحديث بصراحة: «لِمَ لا تتزوجُها يا باني؟»

أجاب: «حسنًا، لكن يا عمتي إيما، لا أعرف إذا كانت ستقبل بي أم لا.»

قالت: «هل عرضتَ عليها الزواجَ من قبلُ؟»

قال: «في الواقع، ألمَحتُ نوعًا ما إلى الأمر.»

ردَّت: «توقَّف عن التلميح واسألها مباشرةً. إنها فتاةٌ رائعة، وقد أصبحتَ رجلًا راشدًا، ويمكنك أن تأخذ الأمر بجدية، وأظنه سيكون زواجًا مميزًا جدًّا، وأعلم أن والدك سيُسَر به، بل أعتقد أنه سيطلب يدها لنفسه إن لم تفعل.» كانت العمة إيما سعيدةً للغاية بهذه الشقاوة، في إشارةٍ واضحة للجيل الأصغر سنًّا أنه لم يأتِ أوان إقصاء كبار السن بعدُ!

يُحب باني التعاون مع الآخرين دائمًا؛ لذا ذهب وفكَّر في الأمر، وتوصَّل إلى ما يشبه القرار في شأن عرض الزواج على فِي. لكن وا أسفاه، في لقائهما التالي، دخلا في أحد النقاشات التي تحول دون سعادتهما. كانت قد قدمَت لتوها من عند آنابيل إيمز، وأبلغَته أن آنابيل في محنةٍ صعبة؛ لأن صحفيًّا وغدًا يكتب خطابات من واشنطن، يتهم فيها فيرن برشوة رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، ويصف عقد إيجار ساني سايد بأكبر عملية سرقة في القرن، ويطالب بمحاكمة فيرن بتهمة الرشوة. وقد قصَّ صديقٌ وفيٌّ نسخةً من هذه المقالة المطبوعة مبرزًا التهم بخطٍّ أحمر، ثم أرسلها إلى منزل آنابيل بوسم «شخصي». كانت المقالة مهينةً للغاية، وبدا اسم الكاتب مألوفًا لِفي — دانيال ويبستر إيرفينج — وتساءلَتْ أين سمعَت بهذا الاسم من قبلُ. بطبيعة الحال اضطُر باني أن يخبرها مباشرة؛ لأنها كانت ستكتشف الحقيقة حتمًا، وستظُن أنه تعمَّد إخفاءها عنها، كان دان إيرفينج معلمه السابق في الجامعة، وعميد كلية العمال التي كانت قد أخفقَت في مساعيها.

حينئذٍ فقدَت فِي صوابها. وأخبرَتْه أن هذا الشخص كان يحتال عليه لاستخلاص الأسرار منه! وعندما صرَّح باني بحزمٍ أنه لم يبُح بهذا السر لدان أو لأيٍّ من أصدقائه الراديكاليين، هتفَت: «أوه، يا إلهي! يا إلهي! يا لك من طيب، ساذج، مسكين!» وواصلَت على هذا المنوال، وقالت إن في ذلك دليلًا قاطعًا على خُبث الشيوعيين الخطِرين، وعلى قدرتهم على إخفاء المعلومات عنه، وفي نفس الوقت استغلاله واستنزافه مثل بئر نفط! وكان من وجهة نظر فِي أنه من الضروري للغاية ألَّا يعلم فيرن وآنابيل علاقتَه بذلك الصحفي الوغد، وعن مساعدتِه له في الحقيقة. فلو علما بذلك فستنتهي صداقتهم، وسيتيقَّنان من

أنه خانهما بدناءة، أو على الأقل سيصفان باني بتشتُّت الفكر، وسيتخليان عن صحبته لعدم شعورهما بالأمان في وجوده. أرادت فِي أن تكون وفية ورومانسية وميلودرامية مثل أحد أعمالها «المتسلسلة». وشعر باني بالضجر، وقال لها إنه ربما يكون أبوه قد أخبر فيرن بالأمر، بعدما أخبر هو أباه به.

لم يطلب أمير النفط الشاب من «الأرستقراطية بالفطرة» أن تتزوَّجه. ورحل من عندها، وهو في غاية التعاسة؛ إذ كان يشتاق إليها كلما غاب عنها، لكنهما كانا يمُران دائمًا بأزماتٍ عاطفية تتطلب حلَّها بالدموع. لم يكن أمامه طريقٌ آخر لتجنُّب المشكلات سوى التخلي عن الحركة الراديكالية، لكنها تغريه فكريًّا أكثر من أي شيءٍ آخر. أراد أن يرى بول ويجادله ويستعرض أمامه عددًا كبيرًا من الاعتراضات الجديدة على حزب العمال! ودَّ أن يأخذ رايتشل لمقابلة بول وروث، ويسمع الردود السريعة الغاضبة، ما إن تستعرض رايتشل رأيها في جنون الحزب اليساري! وأحب حضور لقاءات «واي بي إس إي إل إس»، وهو الاختصار الإنجليزي لاتحاد الشباب الاشتراكيين؛ حيث كانت رايتشل قد تقلَّدَت منصب السكرتير حديثًا؛ فهي منبعُ العلم الحقيقي، ومعقِلُ الشباب الراغبين حقًّا في استخدام عقولهم والتعامل مع الأفكار بجدية، في وقتٍ اقتصرَت فيه مناقشاتُ الطلاب الآخرين على كرة القدم وسياسات الأخوية!

٥

بدا أن الشخص الوحيد الذي كان في غاية النجاح والسعادة، مِن بين جميع معارف باني، هو إيلاي واتكينز، نبي الوحي الثالث. فقد حقَّق له الرب الوعدَ الذي كشف عنه للراكضين في مارثون الإنجيل؛ كان قد دفع المصرفي العظيم، مارك أيزنبرج، المسئول عن شئون إنجِل سيتي المالية، للنظر في التأثير السياسي الهام لإيلاي، وإلى تخصيص مقدارٍ كبير من المال لبناء المعبد الجديد. واكتمل بناء المعبد، وافتُتِح في تمجيدٍ عظيم للرب، لم يشهَده هذا الجزء من العالم من قبلُ.

تتشكَّل غالبية كاليفورنيا الجنوبية من المزارعين المتقاعدين، الذين قد قَدِموا من الغرب الأوسط للموت وسط أشعة الشمس والزهور. بطبيعة الحال، يريدون الموت بسعادة، راجين التنعُّم بأشعة الشمس والزهور في الحياة الأخرى؛ لهذا صارت إنجِل سيتي موطنَ طوائف ومِللٍ غريبة، ولا يمكن تشكيل أي تصوُّرٍ عنها دون القدوم إليها وفَحْصها. ولو تصفَّح قارئٌ العُروض المُعلَن عنها في صحيفة «سانداي»، لانفجر ضاحكًا

أو باكيًا، على حسب مزاجه. فكلما تجمَّع ثلاثة أو أكثر، باسم المسيح أو بوذا أو زرادشت أو الحقيقة أو النور أو الحب أو الفكر الجديد أو الروحانية أو العلم الباطني، نشأ وحيٌ جديد بحالاتٍ روحانيةٍ داخلية من النعيم، وطُرقِ خلاصٍ معروفة للخاصَّة فحسب.

تمتَّع إيلاي بمزايا لا تتوفَّر لغالبية المؤسسين الروحانيين. بادئ ذي بدء، كان راعيًا حقيقيًّا للقطعان والأسراب، وهناك تقاليدُ قديمةٌ مرتبطة بهذه المهنة. كما أنها مهنةٌ مفيدة بطريق المجاز؛ إذ عامَل إيلاي سكَّان إنجِل سيتي، كما عامَل قطعان المَعْز في الماضي، حيث كان يجمعُهم في الكنيسة ويحميهم من الشيطان المفترِس الظالم. وكان يحمل عصا الراعي على المنبر — وهو يرتدي رداء الكاهن الأبيض وتعلو نجمةٌ متلألئة شعره الأصفر — ويبدأ في دعوة الحاضرين، مثلما كان يدعو القطعان من أعلى التلال، وعندما يمرِّر طبق التبرُّعات يضع الحاضرون الأموال طواعية، كما تدخُل القطعان آلة جز الصوف طواعية.

امتلك إيلاي حسًّا مسرحيًّا، ترك له العِنان في ابتكار اللوحات والاستعراضات البدائية الصغيرة، باعثًا البهجة في نفوس أتباعه البسطاءِ العقول. فكان إذا حكى عن إغواء الشيطان له، دخل الشرير إلى المسرح بحوافره وقرونه وذيله، تحت ضوء المسرح الأحمر، ويرفع إيلاي الصليب عاليًا، فيسقط الشيطان وترتطم جبهته بأرضية المسرح، وتُدوِّي الأبواق الفضية، وتعلو أصواتُ الأتباع بهتاف «هوشعنا». وفي بعض الأحيان كان إيلاي يُصدِر الأمر: «دعوا الأولادَ يأتُونَ إليَّ»، فيستجيب له مئاتٌ من الأطفال في أرديةٍ بيضاء، وعندما يرفع إيلاي عصا الراعي ويدعوهم إلى المنبر، يأتون مندفعين وأصواتهم الصغيرة الطازجة تلهج بالدعاء: «المجد للرب!» وبالطبع كانت هناك دكةُ مُتلقِّي العزاء وإجراءات التعميد في الخزَّان المصنوع من الرخام. ولم يكن مسموحًا للمرء نسيانُ روحه أو نسيان أهميتِها البالغة عنده وعند المسيح، وأنه ينقذُها بمساعدة إيلاي. ولن يُترك المرء وسبيله؛ إذ سيطلب إيلاي منه الوقوف من أجل الرب، أو التصفيق من أجل الخلاص، أو رفع يده اليمنى إذا كان وافدًا جديدًا على المعبد.

لكن أكبر ميزة تفوَّق بها إيلاي على الأنبياء الآخرين هي البوق الجلدي الذي كان قد ابتكَره في تلال بارادايس. فلم يُسمع مِثل هذا الصوتِ الحماسي من قبلُ، بل لم يضاهِه صوتٌ آخر في القدرة على الصمود لفترةٍ طويلة دون كلل. كان صوته يجلجل ويدوِّي في الصباح وفي الظهيرة وفي المساء يومَ الأحد، ويُعقد القدَّاس كلَّ مساء على مدار الأسبوع باستثناء السبت، وتُجرى اجتماعات الصلوات ومدارس الإنجيل، وخدمات الأغاني

والمباركات الشفائية، واحتفالات التعميد وقرابين الشكر والأعراس الجماعية، وإهداءات عروس الحَمْل في الصباح وفي الظهيرة، ما يجعل من الصعب تتبُّع ما يحدُث في الغرف الكثيرة وقاعات الاجتماعات للمعبد الذي يساوي نصف مليون دولار.

كما أتى العلم باختراعٍ عجيب في الآونة الأخيرة؛ فقد أصبح الصوت البشري مُكبرًا مائة مليون مرة، وينتشر في كل بقاع الأرض. أثار الميكرفون جنون سكان القارة الأمريكية، واندفع الجميع لشرائه. واستُخدم هذا الاختراع العجيب لأول مرة على الملأ في إنجِل سيتي، في افتتاح فندقٍ جديد للأغنياء بقيمة ثلاثة ملايين دولار، وأُذيعَت حفلات الافتتاحِ وفاضَت الصحف بالحديث عنه، لكنه أثبت فداحتَه عندما أُصيب الجميع بالسُّكْر، ومن بينهم مدير الفندق الذي وقف أمام الميكروفون، وانهال بسيل من الكلام الفاحش خدشَ حياء زوجات المزارعين في آيوا. شعَر الجميع أن هذا الاختراع الجديد بحاجةٍ إلى تقديسه وحمايته، فباشر إيلاي تركيب واحدةٍ من أكبر محطات البث وأضخمها. كان يهدفُ إلى أن تبلغ كلماته أربعة ملايين ميلٍ مربع، بمشيئة الرب، وشعَر أن الأمر يستحقُّ هذا العناء لدعوة ذلك الحجم الكبير من البشر!

أصبح وعظ إيلاي من سمات حياة كاليفورنيا الجنوبية. ولا يُمكن الابتعاد عنه حرفيًّا مهما حاول المرء. وقد نصح الطبيب أبي بممارسة المزيد من التمارين، فكان يسير مسافة نصف ساعةٍ قبل العشاء، وقال إنه كان يسمع خُطَب إيلاي طيلة جولاته، دون أن يفوِّت كلمةً واحدة! كانت منازل الجميع مفتوحةً على مصراعَيها في طقس الربيع الدفيء، في المناطق السكنية التي يعيش فيها الفقراء المتوسطو الدخل الذين يشكِّلون تسعين بالمائة من السكان. وكلما سار المرء في تلك المناطق، سمع ذلك الصوت الجَهْوري المألوف، فلا يخرج من نطاق مذياعٍ حتى يدخل في نطاقِ مذياعٍ آخر، في أثناء تنقُّله من شارع لآخر ومن حي لآخر! وفي تلك البيوت جلس الأزواج المسنون، والكتاب المقدس العائلي بين أيديهم، ودموع الفرحة في أعينهم، وربما انهمكَت الأم بغسل ثياب طفلها الرضيع أو إعداد البودينج لعَشاء زوجها، فيما حلَّقَت رُوحُها على جناحَي بلاغة النبي العظيم! كان الأب يسير بالخارج، فرحًا هو أيضًا؛ لأنه المسئول عن ظهور الوحي الثالث؛ إذ كان هو الذي تسبَّب في هذه النداءات، عندما حاول أن يمنع العجوز آيبل واتكينز من ضرب ابنته روث في ذلك اليوم!

٦

تلقَّى باني من دان إيرفينج خطابًا يخبره فيه بوظيفته الجديدة. في الآونة الأخيرة في واشنطن صار من السهل أن يعمل المرء مراسلًا للصحف الراديكالية؛ فقد حُمِّل الصحفيون العاديون بمعلوماتٍ غير مسموح لهم بمعالجتها. وكان الجميع، باستثناء عددٍ قليل من «الرجال الأشداء»، في حالةِ غضبٍ شديدة مما شاهدوه، وراحوا يزوِّدون دان بسيلٍ من المعلومات كلما التقَوا به. المشكلة الوحيدة كانت أنَّ خدمة الصحافة العمالية ليست لديها مساحةٌ كافية لهذه الأخبار، وبقية الصحف الراديكالية الأخرى، باستثناء واحدة أو اثنتَين، رفضَت النظر إلى هذه المواد.

وقد أحضر الرئيس هاردينج معه سربًا من أتباعه أو حرَّاسه السياسيين في وطنه، وأسماهم الصحفيون «عصابة أوهايو»؛ إذ كانوا ينهبون كل ما تقع عليه أعينُهم. وأعطى بارني بروكواي أحد أنصاره منصبًا في إدارة الخدمة السرية، فكان «المُصلح» الذي يعالج جميع الأزمات، في مقابل أن تدفع له أتعابه. وقد سمنَت إدارة ويلسون في السابق من استغلال الممتلكات المغتصبة من الأجانب المعادين، ثم خلفَتها إدارة هاردينج وسمنت من إعادتها! ونصَّت «القسمة» العادية على الحصول على خمسة بالمائة من الممتلكات المُستعادة؛ فإذا أراد المرء استعادة ملكية قدرها عشرة ملايين دولار، يجب أن يعطي «المُصلح» نصف مليون دولار في صورة سنداتٍ حرة. كما بِيعت امتيازات المتاجرة غير المشروعة في الكحول بالملايين، وأُجريَت الصفقات في ردهات الكابيتول مباشرةً. وعرَفَ دان من بعض المصادر المُطلعة أنه سُرِق ما يزيد عن ثلاثمائة مليون دولار من الأموال المخصَّصة لإعانة المحاربين القدامى؛ إذ كان رئيس المكتب فردًا من أفراد «عصابة أوهايو». المدهش في الأمر أنه مهما كشَفتَ عن فضائح، فلن تجد صحيفةً أو مجلةً واحدة في البلاد تقبل نشرها!

أخذ باني ذلك الخطاب إلى أبيه الذي فسَّره كالعادة عكس ما فسَّره هو. أجل، السياسة قبيحة، وهذه نتيجة حماقةِ ائتمانِ الحكومة على الشئون التجارية. لو أُبعد السياسيون عن التجارة، وقُصرَت على التجاريين، لسيَّروا أمورها بلا فساد. فلو أُعطيت أراضي النفط للأب وفيرن من البداية، على سبيل المثال، ما قدَّموا الرشوة للمسئولين قطعًا. إن الأب وفيرن محبان للوطن لأنهما يضعان حدًّا لسياسةٍ عامةٍ شريرة!

هل كان الأب يُصدِّق حقًّا ما يقوله؟ احتار باني في الجواب. ففي جعبة الأب أكاذيبُ يقُصُّها على العامة، وربما كانت لديه أكاذيبُ يقُصُّها عليه، وأكاذيبُ أخرى يقولها لنفسه. وخيِّل إليه أنه لو أُمسك بياقة الأب، ونُفِضَت الأكاذيب منه، لَمَا تحمَّل النظر إلى حقيقته المجردة.

وقد انهمك خصومه «السريعو الغضب» في الكونجرس في تجريده من أغطيته الروحانية تلك. في واشنطن كان هناك سيناتور عجوز، اسمه لافولت، يُكنُّ له العداوة منذ أربعة عقود بلا أي أمل للشفاء منها. انشغل هذا السيناتور في الآونة الأخيرة بالتشهير بعقود إيجار النفط مطالبًا الحكومة بالتحقيق فيها. وقد منعَتْه عصابة هاردينج من تحقيق مأربه، لكنها لم تستطع تكميم فمه، فكان يخطب لثماني ساعاتٍ بلا توقُّف وتمتلئ الشرفات بالحاضرين، ثم يُرسل خطاباتِه بالختم الرسمي للحكومة. وما كان للأب أمام هذه الانتقادات إلا أن يتبرَّم ويتذمَّر، ليتذكَّر، في وسط هذه الضجة، أن ابنه العزيز يدعم مثيري المتاعب أولئك! فقد انتقد أكاذيب أبيه، بدلًا من أن يتعاطف معها، وأصابه بالخزي!

تلَت ذلك الأمر حادثةٌ مؤسفة. كان هناك ناشرٌ صحفي في مدينةٍ غربية، وهو أحد القراصنة القدامى من الاستعماريين الغربيين، الذي بدأ حياته ساقيًا ووجد متعتَه في الحديث عن مهارته في قذف عملةِ دولارٍ فضية إلى السقف، فإذا ارتطمَت بالسقف أخذها المدير، وإذا سقطَت في يده أخذها هو. وقد حقَّق الغنى بهذه الوسيلة، وصار مالكًا لصحيفة، وانخرط في فضيحة عقود إيجار النفط. وأتى إليه رجلٌ يزعم أن له حقًّا في عقدِ إيجارِ ساني ساید، فاتفق معه على اقتسام ما سيحصُل عليه مناصفةً، ثم أرسل إنذارًا إلى فيرن لإعطائهما مليون دولار. لكن فيرن أخبره أن يفعل ما يحلو له، وكانت النتيجة أن افتتحَت الصحيفةُ صفحتَها الأولى بفضح أكبر عمليةِ سرقةٍ للموارد العامة في التاريخ. هذه الصحيفة لم تكن اشتراكيةً مغمورة، بل شعبية ذات قاعدةٍ جماهيريةٍ واسعة، وأُرسلَت نسخُها لجميع أعضاء الكونجرس وللصحف الأخرى بالبريد، وحدثَت ضجةٌ كبيرة! ونجم عن ذلك أن عقد الأب وفيرن والبقية مؤتمراتٍ عاجلة، ومرُّوا بفترةٍ عصيبة، وفي النهاية اضطرُّوا للإذعان للقرصان القديم، وإلى دفع مليون دولار على الفور، ففقَدَت الصحيفة اهتمامها بالصالح العام!

كان باني قد قرأ قصصَ القبطان ماين رِيد في طفولته، لكنه كان يتذكَّر منها مشهدًا واحدًا بعينه، عندما أمسك العُقاب النسري بسمكة، ثم انقضَّ عليه عُقاب من السماء

بسرعة البرق، وسرق غنيمته. هذا ما حدث بالضبط مع مسألة النفط في عالم من البشر على هيئة طيور العقاب النسري وطيور العقاب.

٧

لم يعُد باني يشعر بالراحة بشأن الذهاب إلى الموناستري. لكن ﭬِي لم تدَعْه وشأنه، وراحت تناقشه وترجوه؛ لأن آنابيل في غاية الرقة والطيبة، وستنجرح مشاعرها بشدة إذا ترك الخلافات السياسية تُنهي صداقتهما! وأخبرها باني أن ڤيرن في غاية الاستياء بلا شك، ولا يُتصوَّر منه أن يتصرَّف بلباقةٍ أو بلُطفٍ مع ضيفه!

إذا ذهب المرء إلى مناسبةٍ اجتماعية ورفضَ تناول الكحول، فهو بذلك يثير الكلام عن مسألة تحريم الكحول. وبالطريقة نفسها، إذا لم ينتقد المرء أعضاء مجلس الشيوخ «المتمردين» في واشنطن، فهو يثير الكلام حول تعاطُفه مع قاذفي القنابل. في هذه الآونة، كانت هناك حفنة «الشيوعيين» في الكونجرس تُعيق تنفيذ التشريعات التي يريدها الأغنياء؛ لذا فهي تتعرض للنقد على كل موائد العشاء ومن بينها موائد ڤيرنون روسكو. سأل العظيم شمولسكي: «ما الذي يسعَون وراءه بحق الجحيم؟» وأجاب ڤيرن: «اسأل جيم الابن؛ فهو صديقهم»، اضطُرت آنابيل إلى مقاطعته، وهتفَت: «ممنوع الحديث في السياسة! لن أسمح لك بمضايقة صديقي باني!»

ثم لاحقًا في ذلك المساء، بعدما ثمل هارڤي مانينج، جلس على ركبة باني في رقةٍ بالغة كما هي عادته، وحرَّك إصبعه محذرًا قائلًا: «لن تخبرهم عني، أليس كذلك؟» وعندما سأل باني: «مَن تقصد يا هارڤي؟» أجاب: «أصدقاءك صيادي الفضائح. لن أتركهم يبلِّغون عني! إذا علم عمي العجوز بأنني ثملتُ، فسيُخرجني من وصيته.» وهكذا علم باني أن صداقته مع العدو قد أصبحَت موضعَ نقاشٍ في الموناستري!

كانت هناك سلسلةٌ من الأحداث العنيفة في إنجِل سيتي. فقد اقتحم أعضاء رابطة المحاربين القدامى مقرَّ الاتحاد العالمي للعمال الصناعيين، وألقَوا بأعضائه من فوق الدرَج ثم بآلاتهم الكتابية ومكاتبهم، في ردَّة فعلٍ لـ «هذيان الثوريين الشيوعيين». كان هؤلاء الشباب قد قرَّروا الاعتناء بالأمر بأنفسهم، بعدما شَهِدوا عجز المحاكم عن فرض القانون والنظام. وأغاروا على المكتبات التي تُباع فيها الكتب الثورية، وألقَوا بالكتب في الشوارع، وأحرقوها. وأشبعوا تجار الصحف الراديكالية ضربًا. كما تولَّوا مسئولية المتحدثين الذين

يسمعهم العامة؛ فإذا لم يعجبهم أحدهم، حذَّروا مالك القاعة، الذي كان يُسرِع بإلغاء عقده.

جلس جون جروبي، أحد شركاء فيرن في مجال النفط من أوكلاهوما، إلى مائدة العشاء، وقال إن هذه هي الطريقة المُثلى للتعامل مع حيَّات الجرس. ولم يكن يدرك أن أحد هذه الحيَّات جالس قبالته؛ لذا لم يأخذ باني كلامه على محمل الإهانة، واكتفى بالإنصات بهدوء. قال: «هذا ما فعلناه في أرض الوطن؛ أطلقنا رابطة المحاربين القدامى عليهم، وهشَّمنا رءوسهم، فارتحلوا إلى حقلِ نفطٍ آخر. أنتَ تعامل المتمردين بتهذيبٍ بالغ يا فيرن.»

كانت آنابيل قد أجلسَت باني بجوارها، ليتسنَّى لها حمايته من محاولات الاعتداء. وبدأَت تُحدِّثه عن فيلمها الجديد «قلب الأم». فأثنت على قصته لأنها قديمة الطراز وجميلة! وقالت إنه ربما سيُحبِّذ استخدام وصف «مثيرة للعواطف»، لكن النساء ستُحبها لهذا السبب تحديدًا، وهي تعطيها دورًا رائعًا. كما أن فِي لديها سيناريو رائع لفيلمها الجديد: «الأريكة الذهبية» (ذا جولدن كاوتش). إنه عنوانٌ ساحر، ألَا يوافقُها الرأي؟ طيلة هذا الوقت، كان باني يستمع إلى جون جروبي، الذي كان صوتُه يعلو همساتِ آنابيل الخافتة، وهو يبارك جهود الرابطة. وودَّ باني لو سأله عن رأي المحاربين القدامى في «عصابة أوهايو» التي تسرق الأموال من رفاقهم ذوي الاحتياجات الخاصة.

وذكَر شخصٌ حيلةً أخرى للجنود العائدين، وهي رقابة أفلام الصور المتحركة. حكى أنه في يوم من الأيام، بدأ مسرح في إنجِل سيتي بعرض فيلمٍ ألماني، وهو «خزانة الطبيب كاليجار»، فأثار الاعتداء الألماني غضب الرابطة، واندفَعوا يرتدون حُلَلَهم العسكرية، وحاصروا المسرح وراحوا يضربون كل مَن تسوِّل له نفسُه الدخول. ضحك تومي بيلي؛ إذ ألهبَت حماسةَ المحاربين القدماء ورقةٌ من فئة خمسة دولارات، دفعَتْها جمعية منتجي أفلام الصور المتحركة! فهي لا تريد عرض الأفلام الأجنبية التي تعلو بسقف معايير المتفرجين!

تلا ذلك تعليق شمولسكي. كان في غاية الغباء؛ فلم يأخذ الكلام على محمل السخرية، كما أراد قائله، وعلَّق أن المنتجين لهم كل الحق في ذلك. قال شمولسكي، وهو يهودي من روثينيا أو روميليا أو رومانيا أو ما شابه، إننا لا نريد للأفلام الأجنبية أن تُعطِّل جداول الإنتاج الخاصة بنا. وبعد مرور ساعة أو نحو ذلك، سمعه باني يحكي عن اجتياح أفلام هوليوود للسوق الألماني، وأن الأمريكيين سيُسيطِرون على هذا القطاع في غضون

ثلاث سنوات. علَّق باني: «وا أسفاه على المنهزمين!» فنظر إليه شمولسكي في حَيرة وقال: «هاه؟»

٨

سيعود باني من عطلة نهاية الأسبوع إلى إنجِل سيتي، وسيصطحب رايتشل إلى لقاء اتحاد الشباب الاشتراكيين. ففي قاعةٍ مغمورة، كان يجتمع خمسة وعشرون أو ثلاثون فتًى وفتاةً من الطبقة العاملة، مرةً واحدة أسبوعيًّا، لقراءة الصحف ومناقشة المشكلات السياسية والاقتصادية وتحديات الحركة العمالية والحزب الاشتراكي. لقد ترعرعَت رايتشل مع هذا التنظيم، وتمتَّعَت بمكانةٍ مرموقة؛ نظرًا لحصولها على التعليم الجامعي ولإحضارها «الرفيقَ روس» معها. ولم يستطع الشباب، الذين يُدرِكون الاختلافات الطبقية بشكلٍ كبير، أن يمنعوا أنفسهم من الشعور بالفرحة برؤية مليونير داعم للعمال على غير العادة، بل ساعدَ في وقتٍ سابق في دفع كفالة سجنائهم السياسيين.

وجرت معركة اليمين واليسار بين الشباب الاشتراكيين مثلما جرت بين الأجيال الأكبر سنًّا؛ وتجادل الجميع بشأن التكتيكات، وثارت حماستُهم بشكلٍ كبير. وكان للشيوعيين تنظيمٌ خاص بهم، وهو اتحاد العمال الشباب، وانخرط التنظيمان المتنافسان في معاركَ كلامية، فكانا يعقدان مناظراتٍ رسمية في بعض الأحيان؛ حيث يقفز الشباب فوق مقاعدهم من فَرْط حماستهم، ثم ينقلون هذا النقاش إلى بيوتهم وإلى أماكن العمل لعدة أسابيعَ لاحقة. كانت موسكو ضد أمستردام، والأممية الثالثة ضد الأممية الثانية، و«الحمر» (كناية عن الشيوعيين) ضد «الورديين» (وهو كناية عن الاشتراكيين الوسطيين). دار هذا الصراع نفسه داخل باني. كان بول واتكينز يسحبه ناحية التطرُّف، فيما تجذبه رايتشل مينزيس ناحية الاعتدال، والمعضلة هي أنه كان يتبنى آخِرَ رأيٍ يسمعه. فقد كان ميَّالًا لسماع آراء الآخرين، لدرجة أنه ينسى نفسه! لمَ لا يتبنَّى آراءه الخاصة؟!

كان من السهل نظريًّا الانتقال من الرأسمالية للاشتراكية بأساليبَ سلميةٍ تدريجية. وأي شخصٍ يمكنه إعداد هذه الخطوات. لكن عندما يتخذ الخطوة الأولى، يواجه حقيقة رفض الرأسماليين للتحول إلى الاشتراكية، وإعاقتهم لأي خطوة من شأنها تحقيق ذلك. هذه الحقيقة أعيَت العمال كلَّ مرَّة، بل أجبر الرأسماليون الحكومة على التراجُع عن الخطوات التي اتخذَتْها؛ بسبب ظروف الحرب الطارئة. كان بول محقًّا عندما قال إن

الرأسماليين لن يسمحوا للعمال بالالتزام بالسلمية؛ إذ كانوا يَلجَئون للعنف في كل مرة، ويُنحُّون القوانين والدستور جانبًا عندما يحلو لهم ذلك.

هذا ما جعل باني ينظر بعين الشفقة للاشتراكيين. لنضرب مثالًا بخاييم مينزيس؛ كانت لديه رؤيةٌ طويلة المدى وصبرُ عاملٍ كبير في السن، فلم تمنعه سنوات العمل الشاق المنصرفة ولا السنوات القادمة من تأسيس الاتحاد. لكن لم يسمح له السادة باستكمال هذا البناء، وسرعان ما هدَموه بين ليلة وضحاها، وراحوا يرسلون جواسيسهم، ويعطون الرشوة للمسئولين ويزرعون بذور الفرقة، وفي فترات الاضطرابات اقتحمَت شرطتهم ورجالهم المسلحون المكاتب، فسجنَت القادة وأعادت العمال إلى العبودية. والعجيب في الأمر أن السادة كانوا يخدمون مصالح الشيوعيين وهم لا يدرون. يقول فيرن ومديرو النفط وبقية الجماعة المناهضة للاتحادات للطبقة العاملة: «لا، لا تستمعوا للاشتراكيين؛ لأنهم حفنةٌ من الرجعيين. سيخبركم الشيوعيون بحقيقتنا والكيفية التي سنتصرَّف بها!»

الأمر الوحيد الذي كان باني متأكدًا منه هو ضرورة تحديد العمال تكتيكاتِهم، دون إحداث ضغينة وانقسام في صفوفهم. لكنه صار يشكُّ في إمكانية حدوث هذا الأمر من أساسه. هذا النزاع بين الفصيلَين كان ينطوي على طبيعة المشكلة. فإن كان الفصيل يؤمن بالانتقال السلمي للسلطة فسيتخذ المسار السلمي، وإن كان يؤمن بعكس ذلك فسيتخذ المسار غير السلمي. إذا آمَنَ بقدرته على إقناع جماهير المصوِّتين، فسيتعامل بحذَر وكياسة وسيتجنَّب المتطرفين الذين ينفِّرون المقترعين بسبب أساليبهم العنيفة. لذا سيحاول إقصاء الشيوعيين عن تنظيمه، ويُثير بذلك مقتَهم، وسينعتونه بالمتساهل و«المتعاون الطبقي»، ويُصرُّون على عمالته للمديرين، وأنهم استأجروه لإبقاء العمال تحت سيطرتهم.

وفي نفس الوقت سيتَّهم الاشتراكيون الشيوعيين بالرشوة. ظلَّ خاييم مينزيس يتهم بعض الشيوعيين بالعمالة السرية، وأنهم أُجراء المديرين بهدف بثِّ روح الفرقة بين أعضاء الحركة وتعريضهم لمداهمات الشرطة. علم باني، من المحادثات التي سمعها من شركاء أبيه، أن كبار رجال الأعمال لديهم شبكةٌ معقَّدة من العملاء السريين، تهدف إلى تعطيل أنشطة الحركة العمالية. كان هؤلاء العملاء يعملون في كلا الاتجاهَين، فيستأجرون قادةً متشددين يغدرون بالعمال أو يلغون الاضطرابات، أو يعقدون إضراباتٍ طائشة لا أمل في الفوز فيها، أو يرسلون عملاءَ يتظاهرون بالتطرف، فيتسبَّبون في حدوث الانقسام بين التنظيمات، ويُغْوون القادة بارتكاب الجرائم. وربما يبدو بعيدًا عن التصديق القولُ بأن الخدمة السرية الحكومية متورطةٌ بشدة في هذا العمل، تحت قيادة الوطني العظيم بارني

بروكواي. فعند محاكمة إحدى الجماعات الشيوعية علَّق القاضي الفيدرالي المشرف على القضية قائلًا إن إدارة الحزب الشيوعي، على ما يبدو، في قبضة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية!

٩

كان يراود باني حلمٌ جميلٌ دائمًا؛ أن ينبذ أصدقاؤه الضغينة وينسجموا معًا. لهذا السبب اصطحب رايتشل لزيارة بول وروث، كان يكنُّ لهم محبةً كبيرة، ولا بد أنهم يبادلونه نفس الشعور. لكن وا أسفاه، لم يبدُ أنهم كذلك! فقد تعامل الطرفان بتحفُّظٍ بالغ، وتجنَّبا الحديث في السياسة، كأنهما في زيارة للموناستري! لكن باني رغب في أن يتحدث الطرفان في السياسة؛ لأنه كان يُحاوِل فضَّ النزاع في داخله، وشعَر أنهما مؤهلان لأداء هذه المهمة؛ فهما من الطبقة العاملة وهو مجرد دخيل عليها. قد ينجح طرفٌ في إقناع الآخر، لكن لم يكن من السهل عليه تحديدُ الطرف الذي يريده أن يتحوَّل عن رأيه، والطرف الذي يريده أن يثبُت عليه!

استجوب باني بول، وعلم أنه تخلى عن حرفة النجارة؛ إذ يمنحه حزب العمال مرتبًا صغيرًا كي يكرِّس وقته للأمور التنظيمية. كان بول قد قابل جو وإيكاي مينزيس، الشابَّين اللذَين ينتميان للحزب «اليساري»، وتحدَّث باني عن الجهد الذي بذله مع رايتشل لإيقاف بِن سكوت في المحاكمة. ودَّ باني لو أن الاشتراكيين والشيوعيين يتعاونون معًا بدلًا من أن يساعدوا عدوَّهم في النَّيل منهم!

شجَّعَت المحادثة رايتشل في التعبير عن رغبتها في سماع أفكار الرفيق واتكينز. (كلما أراد اشتراكيٌّ إظهار الاحترام لبلشفيٍّ، ناداه بالرفيق، وهو مصطلح كان ساريًا قبل اندلاع هذا النزاع العائلي!) فسألَت عن كيفية إنجاح انتفاضةٍ جماهيرية في أمريكا، والرأسماليةُ تسيطر على جميع الأسلحة ووسائل التواصل الإعلامي. كما أنه صار لديها غازٌ سام من شأنه قتل آلاف العمال الثوريين في الحال. النتيجة المحتملة الوحيدة هي أن يردَّ العمال على الرأسماليين، كما حدث في إيطاليا، عندما سيطروا على المصانع، ثم اضطُروا إلى التخلي عنها لعجزهم عن إدارتها.

أجاب الرفيق واتكينز بأن إيطاليا لم تكن مالكة للفحم، بل اعتمدَت على بريطانيا وأمريكا لتوفيره، وهو ما منحَهما الفرصة لقمع العمال الإيطاليين. لقد تحرَّكَت الفاشية الإيطالية، في حقيقة الأمر، بدعم من المصرفيين الأمريكيين؛ إذ لم يجرؤ موسوليني وعصابتُه

على تحريك إصبعٍ واحدة دون التأكُّد من حصولهم على التمويل من أمريكا. وفعلنا في إيطاليا مثلما فعلنا في المجر وبافاريا؛ على مستوى العالم كان الذهب الأمريكي يدعم استجابة العمَّال. كان بول قد شَهِد ذلك بأم عينَيه في سيبيريا، وقال إنه لن يفهم أحدٌ مغزى ذلك على الإطلاق حتى يختبر الأمر بنفسه. ولم يوجِّه بول اللوم إلى الرفيقة مينزيس لشعورها ذاك؛ إذ كان طبيعيًّا من شخص نشأ في السلم، لكنه شارك في الحرب، ورأى نضال الطبقة العاملة على أرض الواقع.

قالت رايتشل: «نعم، أيها الرفيق واتكينز، لكننا إذا حاولنا وأخفقنا فستزداد الأوضاع سوءًا!»

قال بول: «لو لم نحاول، فلن ننجح أبدًا، وإذا أخفقنا فسيزداد الوعي الطبقي، وستكون النهاية أقرب مما لو لم نفعل شيئًا. يجب أن نضع الهدف الثوري أمام الجماهير وألَّا نتركهم يقعون في فخ التسوية. هذا هو سبب نقدي للحركة الاشتراكية؛ أنها تُخفِق في إدراك القوى الفكرية والأخلاقية الكامنة في الطبقة العاملة، والتي يمكن استدعاؤها بالدعوة المناسبة.»

قالت رايتشل: «آه، هذا هو السؤال، ما هي الدعوة المناسبة؟ أريد الدعوة إلى السلام بدلًا من العنف. لأن السلام يبدو لي أكثر أخلاقية.»

أجاب بول أن مناشدة نمرٍ بالتزام السلمية قد تبدو دعوةً أخلاقية للبعض، لكنها تبدو له عديمةَ الجدوى. والدليل على ذلك ما فعلَته الطبقة الرأسمالية في السنوات التسع الماضية. فقد قضَت على ثلاثين مليون شخص، وعطَّلَت ثروات تُقدَّر بثلاثمائة مليار، وأفسدَت كل ما أنتجه جيلٌ كامل من الكادحين. لهذا السبب لم يدخل بول مع الرأسماليين في مناقشاتٍ أخلاقية؛ فهم حفنةٌ من المجانين القتلة، ولا بد من إزالتهم من السلطة بأي ثمن. وأيُّ وسيلة تحقِّق هذا الهدف هي وسيلةٌ أخلاقية؛ لأنه ما من شيءٍ غير أخلاقي بالمرَّة مثل الرأسمالية.

عندما رحل باني مع رايتشل، وصفت بول بالرجل الاستثنائي والخطير، بلا ريب، على الطبقة الرأسمالية. وقالت إنه لا يزال يُعاني من آثار ما بعد الحرب، والذين تسبَّبوا في الحرب سيتعيَّن عليهم أن يتعاملوا معه. بعد ذلك سألها باني عن رأيها في روث، فقالت إنها فتاةٌ لطيفة، لكنها تفتقد إلى الحيوية نوعًا ما، وسألَتْه إن كان يتفق معها في ذلك أم لا. حاول باني أن يشرَح لها أن روث عميقةُ الشخصية، جيَّاشة المشاعر، لكنها لا

تُفصِح عنها إلا فيما ندر. فقالت لا بد أن تفكِّر روث في نفسها؛ لأنها ستُواجِه الكثير من الصعوبات، إذا ما اتبعَت بول في مسلكه البلشفي. اقترح باني عليها أن تساعد في تعليمها، لكنها ابتسمَت وقالت إنه ليس ساذجًا لهذه الدرجة؛ فلن يروق لبول أن يأتي اشتراكيٌّ إلى منزله ويسرق منه تعاطُف أخته. وهكذا أدرك باني أنه لا سبيل لتحقيق الوئام بين أصدقائه مهما بذل من جهد!

رأى باني بول في وقتٍ لاحق، وعرف منه رأيه في رايتشل. قال إنها فتاةٌ لطيفة، حسنة النية، ذكية، لكنها لن تستمر في موقفها البروليتاري ذاك لفترةٍ طويلة. فلن تحدث الثورة الاجتماعية في أمريكا بواسطة العمل الخيري الذي تؤديه خريجات الجامعات الشابات للطبقة الرأسمالية! لهذا السبب كل ما تفعله في صفوف اتحاد الشباب الاشتراكيين جهدٌ لا طائل من ورائه في معظمه؛ لأن المنظمات الاشتراكية تبذل جهودها في محاربة الشيوعية. وسيُسَر الرأسماليون أيما سرور بتوظيفها لأداء هذه المهمة!

لكن بطريقةٍ ما أدرك باني أن الوضع ليس على هذا النحو؛ فقد اتسم الرأسماليون بضيق الأفق وانعدام الرؤية! ففي غضون أيامٍ قليلة علم أن رايتشل تواجه معضلةً عويصة. كانت قد أخذَت دورة تدريبية مدتها أربع سنوات في الجامعة بهدف العمل في المجال المجتمعي، لكن حذَّرَتها صديقةٌ تأخذ بنصيحتها أنها تُضيِّع كل فرصها بعملها مع «اتحاد الشباب الاشتراكيين». لم يكن من السهل أن تحصل فتاةٌ يهودية من الطبقة العاملة على وظيفةٍ مهنية، حتى تزيد الوضع سوءًا بانتمائها للاشتراكية. فلا بد أن تنتظر حتى تحصُل على وظيفةٍ وتثبِّت أقدامها فيها على الأقل.

هكذا واجهَت رايتشل المزيد من المشكلات! ماذا ستفعل في هذه المعضلة؟ الإجابة هي أنها لن تتخلَّى عن اتحاد الشباب الاشتراكيين المحبَّب إليها. كانت تعلم أن الانتظار ليس خطأً في حد ذاته، لكن العقد ينفرط بانفراط حبةٍ واحدة منه؛ وإن سارت في هذا الطريق فلن تستطيع التوقف. لهذا قرَّرَت رايتشل أنها ستخاطر باحتمالية تعرض «اتحاد الشباب الاشتراكيين» لمداهمة الشرطة، أو إدانته بالتآمر في الصحف لزعزعة مبادئ الشباب الأخلاقية! وإنْ ثبتَت صحة كلام صديقتها أن الطبقة البرجوازية لا ترغب في استعمالها في تصريف جمعياتها الخيرية، فستُحاوِل العثور على عمل في الحركة العمالية. وانطلق باني للوفاء بالتزامه بتناول العشاء مع فِي تريسي، وذهب بوجهٍ حزين وضميرٍ مُعذب، لم يفلح في إخفاء أيٍّ منهما!

١٠

اقترَب موعد التخرج وانشغَل الطلاب باختيار وظائفهم المستقبلية. سأل الأب باني عما إذا كان قد اتخذ قرارَه في هذا الشأن، وردَّ باني بالإيجاب. قال: «لكن أخشى أن أخبرك يا أبي؛ لأن ما سأقوله سيُصيبُك بالتعاسة.»

حلَّت نظرةٌ قلقة على وجه العجوز المستدير المليء بالتجاعيد وسأل: «ما هي يا بُني؟»

قال: «حسنًا، أريد الرحيل لمدة عام، واستخدام اسمٍ جديد، والحصول على وظيفة في إحدى الصناعات الكبيرة.»

هتف الأب: «أوه، يا إلهي!» تلا ذلك فترةُ صمتٍ وجيزة، فيما حدَّق الأب في عينَي ابنه المضطربتَين. وسأل: «ماذا تقصد بذلك؟»

قال: «كل ما أسعى إليه هو فهم الطبقة العاملة، ولا سبيل آخر لتحقيق هذا الأمر.»

سأل: «ألَا تستطيع سؤالهم عما تريد معرفته؟»

أجاب: «نعم، يا أبي؛ فهم لا يمتلكون إجابةً واضحة عن هذا السؤال. لا بد من أن أختبر الأمر بنفسي.»

هتف: «رحماك يا إلهي، دعني أساعدك، يا بني! لقد مررتُ بتلك التجربة. ولن تجد سوى القذارة والحشرات والأمراض؛ كنتُ أظن أنني أنقذتُك من هذا الوضع، ووفَّرتُ لك حياةً كريمة!»

قال: «أعلم، يا أبي، لكن هذا خطأ؛ فلم يسِرِ الأمر مثلما توقَّعتَ. عندما يحصُل المرء على كل ما يريده بلا تعب، يصبح مدللًا وبلا إرادةٍ مستقلة. أُدرِك ما فعلتَه من أجلي، وأدينُ لك بالفضل، لكن يجب أن أحاول تجربة شيءٍ مختلف لبعض الوقت.»

سأل: «ألن تجد أي صعوبة في إدارة صناعة النفط؟»

قال: «قد أواجه بعض التحديات يا أبي، إن استطعتُ تولي الإدارة حقًّا. لكنك تعرف أنه لا يمكنني فعل ذلك. هذا العمل ملكٌ لك، وإنْ منحتَه لي فلن يسمح لي فيرن واتحاد المديرين بالتصرف كما أريد. لا، يا أبي، ثمَّة خطأٌ جوهري في صناعة النفط، ولن أستطيع ممارسةَ هذه الوظيفةِ مع البقية. أريد أن أغادر وأن أجرِّب عملًا مختلفًا بنفسي.»

سأل: «أتعني أنك ستذهب بمفردك؟»

قال: «لديَّ زميل يشاطرني نفس الرأي وسنذهب معًا. اسمه جريجور نيكولاييف.»

هتف: «ذلك الروسي! ألم تجد زميلًا أمريكيًّا يرافقك؟»

قال: «حسنًا، هذا ما حدث يا أبي، فلم تُثِر الفكرة اهتمام أحد الأمريكيين.»

تلا ذلك صمتٌ طويل. وسأل: «هل أنتَ جادٌّ فيما تقوله؟»

قال: «نعم، يا أبي، لقد عزمتُ على الأمر.»

عقَّب الأب قائلًا: «أنتَ تعلم، يا بني، أن الصناعات الكبرى في غاية القسوة، أو معظمها على أي حال. فبعض الرجال يتأذَّون والبعض الآخر يُقتَلون.»

قال: «أجل، هذه هي المسألة.»

علَّق: «ما قُلتَه صعبٌ جدًّا على أبٍ لا يملك إلا ابنًا واحدًا وقد وضع عليه كل آماله. لقد فكَّرتُ كثيرًا بشأنك كما تعلم، وأنتَ السبب الرئيس وراء كدحي.»

قال: «أعلم يا أبي، ولا تظن أنني لم أعانِ بسبب هذه الحقيقة، كل ما في الأمر أنني لا أستطيع إيقاف نفسي.»

ساد الصمت من جديد. سأل: «هل فكَّرتَ في أمر فِي؟»

أجاب: «نعم.»

سأل: «وهل أخبرتَها بما تنوي فعله؟»

قال: «لا، أجَّلتُ الأمر مثلما فعلتُ معك. أعلم أنها لن تسمحَ بذلك. وسأُضطَر إلى التخلِّي عنها.»

قال: «يجب أن يفكِّر المرء طويلًا، يا بني، قبل أن يُفرِّط في سعادته بهذه الطريقة.»

ردَّ: «لقد فكَّرتُ في الأمر من جميع الأوجه. لكن لا يمكن أن تكون حياتي مرتبطةً بمسار فِي السينمائي. سأشعُر بالاختناق من البذخ. فلديَّ قناعاتي الخاصة، ويتحتَّم عليَّ الالتزام بها. أريد محاولةَ مساعدةِ العمال، ولا بد أولًا أن أعرف شُعورَهم.»

قال: «أراك تتحدث كواحدٍ منهم يا بني؛ أعني الشيوعيين.»

ردَّ: «ربما يكون الأمر كذلك يا أبي، لكن أؤكِّد لك أن الشيوعيين لا يشاطرونك الرأي!»

حلَّ الصمت مرةً أخرى. كان مخزون الأب من الكلمات على وَشْك النفاد. قال: «لم أسمع بهذا الأمر من قبلُ في حياتي!»

ردَّ: «إنها فكرةٌ قديمة جدًّا، عُمرها ألفان وأربعمائة سنةٍ على الأقل.» وتابع باني يحكي قصة السيد الشاب سدهارتا، في بلاد الهند البعيدة، الذي يعرفه العالم الغربي باسم بوذا، وسرد كيف تخلَّى عن أراضيه وكنوزه، وخرج للسياحة بطستٍ كالشحاذين، على أمل أن يكتشف حقيقة الحياة التي لا يعرفها أهل البلاط. أضاف: «كان المكان الذي منحَه الملك للأمير يتألَّق بجميع محاسن الهند؛ إذ كان الملك حريصًا على سعادة ابنه.

وحُجبَت عنه جميعُ مظاهر الحزن والبؤس والمعارف البائسة فلم يعرف بوجود الشر في العالم. لكن كما يتوق الفيل المُكبَّل لحياة الأدغال البرية، تشوَّق الأمير لرؤية العالم، وطلب إذن والده الملك لتحقيق مراده. فأمر سدودانا بتجهيز عربةٍ مُرصَّعة مقدمتُها بالجواهر وذات أربعِ خيولٍ ضخمة من أجل ابنه، كما أمر بزخرفة الطرق التي سيطرقُها بعربته.»
انفجر باني ضاحكًا عندما رأى النظرة الحائرة على وجه أبيه. قال: «هل تريدني أن أصبح بوذيًّا أم بلشفيًّا يا أبي؟»

وفي الحقيقة حار الأب في الإجابة!

١١

في القرن الحالي، فُتِح عالمٌ جديدٌ من المعرفة، وهو العقل اللاواعي، وتردَّد الكثير من الأقاويل الغريبة بشأنه. وعُرف أن الإنسان ينال مطلبه بطريق العزيمة، فإذا حِيل بينه وبين مطلبه في بعض الأحيان، تمادت النفس ومرض الجسد. فالزوجة الغَيور قد تعاني من انهيارٍ عصبي، حقيقةً لا تكلفًا، حتى تنال اهتمام زوجها، وهناك أمثلةٌ أخرى على هذه الظاهرة الغريبة. لكن النظريات الفرويدية لم تتغلغل جنوب المحيط الهادي؛ لأنها لا تتوافق مع العقيدة الميثودية. لذا لم يُثِر هذا النمط شكوك باني، عندما أصيب أبوه بنوبةِ إنفلونزا شديدة، بعد تخرُّجه بفترةٍ وجيزة، وقبل رحيله مع جريجور نيكولاييف. واضطُر باني إلى تأجيل رحيله بالتأكيد، وظهرَت كل المشكلات الممكنة في بيته. ومرَّت أيامٌ عديدة كانت فيها نجاة الأب غير مؤكدة، وشعر باني بتأنيب الضمير، كما تنبَّأ فيرنون روسكو. وساورَه القلق حيال إدارته لثروة الأب التي تُقدر بالملايين!

تحسَّنَت حالة الرجل المسن، لكنه كان في غاية الضعف والوهن، وحذَّر الطبيب عائلتَه من أن نوبة الإنفلونزا قد تركَت قلبه في حالةٍ سيئة؛ لذا فإنه بحاجة إلى العناية وعدم التعرُّض للصدمات. ولا بد أن الأب كان يضحك بسعادة في أعماق قلبه؛ إذ لم يعُد بإمكان باني الرحيل على الإطلاق. وتعلَّق الأب بيد ابنه مثل طفلٍ صغير، فلم يجد باني مفرًّا من أن يجلس بجواره، ويقرأ عليه القصة الحزينة الرقيقة للسيد الشاب سدهارتا. هل أخبر الأب فِي بخطته السرية أم حدث تواصلٌ تخاطري بين عقلَيهما اللاواعيين؟ فقد كثُر تردُّدها على المنزل، وأظهرَت حنانًا وشفقةً بالغَين، ما ساهم في تقييد روح باني الجامحة بملايين من الحبال الحريرية.

بعد ذلك، أصبح الأب قادرًا على التجوُّل في الأنحاء، والجلوس على الشُّرفة تحت أشعة الشمس، فبدأ عقله الواعي الحكيم يعمل من جديد، وعلى الفور وضع خطة. قال: «كنتُ أفكر في مشكلتك يا بُني، وأدركتُ أن من حقك التعبير عن أفكارك. تُرى أيمكننا الوصول إلى حلٍّ وسط وتسمح لي بمساعدتك؟»

سأل: «كيف ذلك يا أبي؟»

أجاب: «حسنًا، يمكنك أن تحصل مني على المال، وتستخدمه كيفما تشاء، كأنه مالك الخاص. لن يروقني بالطبع أن أساعدك في أمرٍ يخالف القانون، لكن إن وجدت تعليمًا معينًا لا يدعو إلى العنف فلا بأس في ذلك، فهل سيفي بغرضك أن تحصُل على دخلٍ شهري مقداره ألف دولار لتمويل هذا؟»

ألف دولار في الشهر! يا إلهي! نسي باني معايير طبقته؛ لأن هذا المبلغ لا يغطي تكلفة مجموعةٍ من أمهار البولو أو يخت سباقٍ صغير؛ فقد كان يفكِّر بمعايير المتطرفين، حيث تُغطي ألف دولار شهريًّا التكلفة الكاملة لكليةٍ أو صحيفةٍ أسبوعية للعمال. لم يذكُر الأب شيئًا حول بقائه في بلده، لكنه كان يعلم أن العرض عبارةٌ عن رشوة؛ لأنه سيُضطر إلى إدارة التمويل! أذعن باني لهذا الإغراء، وأسرع يتصل برايتشل ليخبرها أن لديه وظيفةً محتملة من أجلها!

دعا باني رايتشل إلى الغداء، وكان عقله يقفز من خطةٍ إلى أخرى في طريقه إلى هناك بالسيارة. ستظل رايتشل سكرتيرة «اتحاد الشباب الاشتراكيين» بالراتب نفسه الذي كانت ستحصُل عليه لو عملَت مرشدةً اجتماعية. وسيستأجر الاشتراكيون الشباب قاعةً أكبر حجمًا، وسينشرون صحيفةً أسبوعية تستهدف المدارس الثانوية والكليات في إنجِل سيتي. وسيتحرَّر باني من الوعد الذي قطعه للبروفيسور كوبر بشأن عدم الترويج للاشتراكية في جنوب المحيط الهادي. سينجح في الأمر بلا أي شك! وسيعرف طلابُ تلك الجامعة وغيرهم الفكر المعاصر والحركة العمالية والاشتراكية، ولن يعرفوا كثيرًا عن الشيوعية بالتأكيد؛ لأن الأب سيرى ذلك تطرفًا، وقد يكون انتهاكًا للقانون!

الفصل الثامن عشر

الهروب

١

مرَّ صيف ١٩٢٣ على باني ممتعًا. فقد كان أحد المحررين في صحيفةٍ صغيرة، يعبِّر عن أفكاره بحرية، وينشرها أسبوعيًّا، ويوزِّعها، دون أن ينتزعها عميد الجامعة سكويرج من بين يدَيه، أو تقتحم الشرطة أو الوطنيون مكتبه! وكان يُرسِل الصحيفة بالبريد إلى جميع معارفه، ويشعر بالسعادة من فكرة أن هناك مَن يقرأ الصحيفة ويصحِّح تحيُّزاته! وكان باني قد وضع زملاءه في الدراسة على القائمة البريدية لصحيفة «الطالب الشاب»، التي من المُقرَّر أن يبيعها «اتحاد الشباب الاشتراكيين» في الحرم الجامعي في فصل الخريف، مع ما في ذلك من احتمالية إثارة المشكلات، فإنه سيحصُل على دعاية بالمجان!

تحسَّنَت صحة الأب شيئًا فشيئًا. كان يقرأ الصحيفة أسبوعيًّا، ويؤدي دور المراقب المُحِب. ولم يكن هناك داعٍ لذلك؛ لأن رايتشل، إحدى أعضاء الحزب الاشتراكي المتشدِّدين، لم تكن تسمح بإهدار أيِّ مساحة من الصحيفة على اليساريين. وكلما أمسك أحد المتطرفين بباني، وحاول إقناعه بضرورة حصول كلا الطرفَين على منصة للتعبير، سألَتْه لِمَ لا يفتتحون صحيفةً خاصةً بهم؟ وهكذا كان هناك مَن «يترأس» باني كالعادة، بل كانت مَن تترأسه امرأة! وهذا سيئ مِثل الزواج تقريبًا!

كان هناك مصدرٌ آخر من مصادر الراحة وهو عدم شجار ڤِي معه. ولا بد أن اقتراحه المجنون بالرحيل والتعرُّض للقتل في مجال الصناعات الثقيلة قد أصابها بصدمةٍ كبيرة فرَضيَت بالتضحية، وأن تحصُل على نصف وقته، فيما تحظى رايتشل وصحيفة «الطالب الشاب» بالنصف الآخر. وانشغلَت ڤِي بالعمل على فيلمها الجديد «الأريكة الذهبية» (ذا جولدن كاوتش) الذي يحكي قصة أمريكيٍّ مرفَّه يسقط في شِراك أميرٍ مزيَّف في إحدى دول البلقان. ولأداء هذا الدور، تعاقَد فريق العمل مع أميرٍ رومانيٍّ حقيقي، يمتاز

بأساليبه الساحرة واستعداده لتكريس نفسه لِفي على مدار الساعة، عند انشغال باني بالشابة اليهودية الاشتراكية.

كما تلقَّوا رسائلَ سارَّةً من بيرتي التي كانت قد نُقِلَت للعيش في الجنة. وتحدَّثَت في رسائلها عن جمال باريس وعن انشغالها بالمناسبات الهامة! فقد تناولَت الغداء مع الأمير ذاك والدوقة تلك. وحثَّت الأب وباني على زيارتها؛ إذ يستطيع باني عقد احتفالٍ فاخر هناك بمناسبة زواجه. ضحك الأب ضحكةً خافتة من مجرد التفكير في ذهابه إلى باريس ومحاولة التحدُّث بالفرنسية!

ولم يتوقَّف المبتزُّون عن محاولاتهم بالتأكيد، لكن الأب كان منذ مرضه قد ترك فيرن يتعامل مع هذه المتاعب. كان الكونجرس في عطلة؛ ما يعني أنه ستكون هناك راحةٌ مؤقتة؛ فبوسع الشيوعيين الأعضاء في مجلس الشيوخ التنديد بعقود إيجار النفط في ولاياتهم، دون أن تشعُر الصحف بالحاجة لطباعة أقوالهم. كان هناك معتقدٌ غريب عند الصحف — ومن بينها الصحف ذات المصداقية — بضرورة نشر جميع النقاشات الدائرة في الكونجرس. وبمثل هذه المعتقدات ساءت سُمعة السياسة عند رجال الأعمال.

كانت عملياتُ حفرِ أرضِ ساني سايد جاريةً على قدم وساق. وتدفق النفط من اثنتَي عشرة بئرًا، ولبَّى الآمال المنعقدة عليه. في بعض الأحيان، كان الأب يُضطَر إلى الذهاب إلى مكتبه، لكن في معظم الأحيان كان المديرون التنفيذيون البارعون الشباب يأتون إلى بيته، ويجلسون في غرفة مكتبه، ويتلقَّون تعليماته. يا لهم من شبابٍ أَكْفاء، يمتازون بحُسْن المظهر، ويُكرِّسون قُدراتهم لإخراج النفط من الأرض! لا تتخطَّفهم وجهاتُ النظر المختلفة، ولا تستولي عليهم النغمات الموسيقية، ولا يشعرون بالتردُّد، ولا يعانون من الأمور غير اليقينية، ولا يشكُّون أبدًا في أن غاية حياة الرجل هي إخراجُ النفط من الأرض! بهذه الطريقة تصرَّفوا بالمنطق، وأتقنوا مجال اختصاصهم، وارتقَوا في مكانتهم الاجتماعية، وازدادت رواتبهم، وعند رحيل أحدهم، كان الأب يحزن على فراقه حُزنَ الوالد على ولده. لماذا لم يصبح باني مثل الشاب سيمونز أو الشاب هيمان أو الشاب بويلينج؟

٢

كان الطبيب قد قال إنه يُحظَر على الأب التفكير في العمل أكثر من ساعتَين في اليوم، فكان باني يغريه بالسير على مَهلٍ، وقد يسمعان في أثناء تنزُّههما خُطب إيلاي التي كانت تنجح دائمًا في تشتيت انتباهه وإثارة ضحكه. كان الأب يجد سعادةً عابثة في مشاهدة

الاكتساح المجيد للوَحْي الثالث؛ لأن فيه دليلًا دامغًا على حُمق الجماهير، ما يجعل من الصواب اختلاس احتياطياتهم البحرية! كما اشترك الأب في صحيفةٍ صغيرة، يُصدِرها أحد العارضين المتدينين المنافسين في البلدة، تتهم إيلاي بالكذب، وتكشف حِيَله.

أصابت الغَيرة الكنائس التقليدية من الوحي الجديد الذي تطفَّل عليهم بوقاحةٍ شديدة. كان إيلاي مُدعيًا ودجَّالًا، وأعلن منافسه الديني توم بوبر أنه زيَّف الكثير من أساليب علاجه المزعومة، واستأجر أشخاصًا ليقفوا على أقدامهم، ويَحْكوا للحاضرين عن شفاء أطرافهم من العرَج وأعضائهم من السرطان. كما أن أتباع إيلاي رفضوا التخلي عن عادتهم في التدحرج على الأرض والتكلم بألسنة، فبنى عددًا من الغرف العازلة للصوت في المعبد لمباشرة هذه الطقوس. وسُميَت هذه الغرف بـ «غرف الإقامة»؛ لأنك تذهب إلى هناك لـ «الإقامة مع المسيح»، وكلما بدأَت الطقوس، رأيتَ مئات الرجال والنساء يتدحرجون على الأرض، ويجذب بعضهم بعضًا بخشونة، ويمزِّقون ثيابهم، وشاهدتَ نساءً يقذفْنَ برءوسهنَّ للوراء، أو يقفزْنَ لبضع أقدام في القفزة الواحدة في أرجاء المكان، مثل دجاجاتٍ مذبوحة. وكانت هذه الحفلات الجامحة تنتهي بكتلةٍ من البشر متكدِّسة، تتلوَّى وتنثني، وسط رائحةِ عرقٍ ثقيلة مثيرة للغثيان.

أخذ القس بوبر على عاتقه نشر هذه المشاهد في صحيفته، وكان يجعل بائعي الصحف يبيعونها أمام المعبد، فيتعرَّضون للهجوم والضرب، وتفشل قوات الشرطة في القبض على المعتدين، ولو حدث وقبضَت عليهم فإنها تُطلِق سراحهم. فهل يخشى السياسيون في إنجِل سيتي من سطوة هذا النبي المزيف؟ كان توم بوبر يسأل هذا السؤال بحروفٍ كبيرة، ويضحك الأب ضحكةً خافتة، مثل استعماريٍّ غربي يعود إلى بيته، وإذا بزوجته تتصارع مع دب يدًا بيدٍ، فيضع بندقيتَه على السياج، ويتخذ مجلسه ويصيح: «أمسكيه يا امرأة! اقبِض عليها أيها الدب!»

كانت هناك تهمةٌ أخرى، وهي أن النبي الجديد مغرمٌ بصحبة الفتيات الجميلات. وهي تهمةٌ قاسية لأن إيلاي كان ينتقد السِّفاح والزنا بقوة، مثل أي نبيٍّ عبراني من أنبياء الوحي الأول. ضحك الأب ضحكةً خفيفة عندما سمع بهذه التهمة، وراح يفكِّر في الأمر، وفي يوم من الأيام، في أثناء تنزههما بالسيارة نزهةً طويلة، توقف هو وباني عند شاطئٍ غير مطروق، ليبحثا عن مكانٍ يسبح فيه باني. بعد ذلك، وجدا فندقًا رخيصًا مطلًّا على الماء، وفور أن خرجا من بابه التقيا بإيلاي واتكينز بصحبة امرأةٍ شابةٍ جميلة! أسرعَت

الشابة بالرحيل، وتبادل إيلاي التحية معه ومع باني، ثم استأذن بالانصراف. وقف الأب برهة، ينظر إلى الاثنَين وهما يبتعدان عن الفندق، هاتفًا: «يا إلهي!»

بعد ذلك استدار الأب، ودخل إلى الفندق، وسأل الرجل الجالس في مكتب الاستقبال بنبرةٍ عادية: «لقد قابلتُ الرجل المهذَّب من قبلُ، لكنني نسيتُ اسمه؛ أقصد الرجل الذي خرج للتو.»

أجاب: «إنه السيد تي سي براون من سانتا يِنِز.»

سأل: «هل يقيم هُنا؟»

أجاب: «لقد سجَّل مغادرتَه للتو.»

ألقى الأب نظرةً سريعة على سجل النزلاء، ووجد «تي سي براون وزوجته، ولاية سانتا ينز» مكتوبة بحروفٍ واضحة. ميَّز الأب خط إيلاي واتكينز السيئ الذي كان على الكثير من رسائل العمل القابعة في منزله! وكان هذا كل ما استطاع فعلَه حتى لا ينفجر ضاحكًا. وتخيَّل إنْ أخبر توم بوبر بمحتوياتِ سجل النزلاء، فسيُدمِّر سمعة الوحي الثالث تمامًا!

٣

مات الرئيس هاردينج، وأرسل دان إيرفينج الخبر من واشنطن. كان السيد المسن مترددًا في قبول المال من رجال الأعمال في مجال النفط، فنسَّق له بارني بروكواي و«المُصلح» الأوضاع، من خلال «إنشاء حساب» في بورصة وول ستريت، وهي طريقةٌ يستخدمها رجال الأعمال لتسهيل حياة السياسيين. ومن حين لآخر كان الرجلان يجلبان للعجوز حزمةً من السندات الحرة، التي كانا قد «فازا» بها من أجله. عثرَت أرملتُه على هذه السندات التي تُقدَّر بمئات آلاف الدولارات، في صندوقِ إيداعٍ آمن، وصارت مقتنعةً بأنه كان قد خبَّأها من أجل امرأةٍ أخرى، فاحتدم غضبُها وأخذَت تحكي الأمر لأصدقائها، وسُرَّ بذلك مروِّجو الإشاعات في واشنطن أيَّما سرور.

بعد ذلك أتى رئيسٌ جديد، وهو رجلٌ ضئيل الجسم اشتُهر بأسطورة إنهائه لإضراب الشرطة في بوسطن، مع أنه في الحقيقة كان مختبئًا في غرفته في الفندق، عينه متورِّمة، من لكمةٍ عاجلَه بها عمدة المدينة. كان حُلم حياته — كما قال بنفسه — هو إدارة متجر، وفي هذا إشارةٌ إلى مَحدوديةِ قُدرات عقله. لم يستطع هذا الرئيس التعليق على الفضيحة فلقَّبَته الصحف ب «الرجل القوي الصامت».

لم ينشُر باني الكثير من هذه المعلومات؛ لأن رايتشل كانت ترفض نشر الإشاعات. لكنه نشَر بعض الحقائق السرية حول مهنية الأنشطة الرياضية في الكليات، وعندما عُرضَت الصحيفة للبيع في حرم الجامعة، احتشد الطلاب الرياضيون حول «اتحاد الشباب الاشتراكيين». لكن الجميع قَرءوا الصحيفة ومن بينهم المحتشدون، وكانت هذه من أمتع اللحظات في حياة باني.

في شهر ديسمبر، اجتمع الكونجرس الجديد، وانكَشَف اللثام عن وضعٍ مثير للقلق؛ فقد سيطر «المتمردون» على ميزان القوة في مجلس الشيوخ، وكانت أولى تحركاتهم هي التعاون مع الديمقراطيين وطلب إجراء تحقيق في قضية عقود إيجار النفط. نزلت الأنباء على الأب وفيرن مثل الصاعقة؛ إذ كان جواسيسهما في واشنطن قد عَجزوا عن توقُّع هذه الكارثة، واضطُر فيرن إلى القفز في سيارته الخاصة والسفر إلى واشنطن على عَجل؛ ليرى ما قد تؤدي إليه رشاوى اللحظة الأخيرة من حلول. لكنها على ما يبدو لم تُسفِر عن الكثير؛ إذ شرعَت اللجنة باستدعاء الشهود إلى المنصة و«استجوابهم»؛ وهي كلمةٌ صحفية مُفزعة ذات صلةٍ بعمليات الاستجواب النمطية، لكنها لم تكن عمليةَ استجوابٍ نمطية بل عنيفة، وتردَّدَت أصداؤها في الصفحات الأولى من الصحف.

كان الوضع ملتهبًا ولا سبيل للتستر على الفضيحة. لم يبدُ المشهد عراكًا سياسيًّا عاديًّا، وإنما فيلمًا دراميًّا مليئًا بالدماء والصراخ. ولم يكن السكرتير كريسبي ذكيًّا بما يكفي لوضع أمواله التي اكتسَبها من النفط في سنداتٍ حرة، وإخفائها في صندوقِ ودائعَ آمن، بل تصرف بحماقةٍ شديدة، ودفع رهنًا عقاريًّا كبيرًا على مزرعته في تكساس، واشترى العديد من الأغراض على مرأًى من الجميع، وفوق ذلك نقل خبر حصوله على ثمانية وستين ألف دولار من فيرنون روسكو لكبير عُماله الذي أذاعه بين عُمال المزرعة الآخرين. استدعى أعضاء مجلس الشيوخ كبير العُمال المضطرب إلى منصة الشهود، فاضطُر إلى القول إنه أساء فهم الأمر؛ فهو لم يقل «ثمانية وستين ألف دولار» وإنما «ست أو ثماني بقرات». ومن السهل ارتكاب مثل هذا الخطأ كما هو واضح!

لكن ظهر فيما بعدُ أن السكرتير كريسبي أودع في حسابه البنكي مائة ألف دولار في يومٍ واحد؛ فمن أين له بهذا المال؟ تقدَّم ناشرٌ صحفيٌّ كبير في واشنطن، وأعلن عن إقراضه لصديقه العزيز هذا المبلغ الصغير، بلا أي سببٍ وجيه. بعد ذلك، ذهب الناشر الكبير إلى فلوريدا لقضاء الشتاء، ولم يكن في حالةٍ صحيةٍ جيدة تسمح بإزعاجه بأي شكل من الأشكال. لكن اللجنة العنيدة أرسلَت أحد أعضائها إلى فلوريدا، ووضعَت الناشر على منصة الشهود، وجعلَته يعترف بأن ما قاله مجرد قصةٍ ودية من بنات خياله.

مِن أين حصل الرجل على مائة ألف دولار؟ كان النمَّامون، مثل دان إيرفينج الذي كان يركُض إلى اللجنة بالإشاعات المتداولة في واشنطن، يعملون على قدمٍ وساق. بهذه الطريقة أمسكَت اللجنة بأورايلي «بيت الصغير»، و«استجوبَتْه»، وجعلَته يعترف بنقل هذا المبلغ التافه، المُقدر بمائة ألف دولار، إلى السكرتير كريسبي في حقيبةٍ سوداءَ صغيرة، وغير ذلك من الادعاءات التي نسمعها في الأفلام! بعد ذلك، أمسكَت اللجنة ب «بيت الكبير»، وزعم أنه أقرض السكرتير هذا المال، ولديه كمبيالةٌ تُثبِت صحة كلامه، لكنه لا يتذكَّر أين وضعَها. في النهاية قدَّم قصاصةً ورقية عليها توقيع السكرتير، زعم أنها مقطوعةٌ من الكمبيالة، لكنه لا يستطيع الجزم بما حدث لبقيتها؛ فهو لا يأبه كثيرًا بأمور الكمبيالات، وظنَّ أنه أعطاها لزوجته التي أضاعت الورقة كاملة، باستثناء قصاصة التوقيع. وهكذا انكشفَت التفاصيل المخزية عن قادة المجتمع الراقي في واشنطن وإنجِل سيتي! نشرَت الصحف هذه التفاصيل، على الرغم من اضطراب الناشرين من بذاءتها.

٤

كان الأب يتلقَّى بصورةٍ يومية برقياتٍ طويلةً من فيرن، لا تُرسَل إليه مباشرة بالتأكيد، بل إلى السيدة بولينج، زوجة المدير التنفيذي الشاب الأمين، وذُيلَت ب «إيه. إتش. دوري»، وهي اختصارٌ مازح لعبارة الأب المفضَّلة، «أول هانكي دوري» (أي: كل شيء على ما يُرام). لم تكن البرقيات من النوعية التي سيختارها الطبيب لتهدئة أعصاب مريضه، بل كانت مثيرةً للقلق، حتى تمنَّى الأب كثيرًا لو أنه استمع إلى تحذيرات ابنه المثالي، وابتعد عن هذا الفساد الفوضوي! لكن لم يؤنِّبه باني بالطبع؛ كان يكتفي بقراءة الأخبار والانتظار والتساؤل عن موعد سقوط الصاعقة فوق رءوسهم.

انتهت آنابيل من فيلمها الجديد «قلب الأم»، الذي كان سيُعرَض في حفلٍ كبير جدًّا، يصحبها فيه باني، وكان الأب سيصحب العمة إيما، ويصير كل شيء على ما يُرام، في هذه الليلة على الأقل. أتى باني إلى البيت بعدما دقَّق في الإصدار القادم للصحيفة، ووجد عمَّتَه في انتظاره في الردهة، ويداها ترتعشان وأسنانها تصطَك من فَرْط الإثارة. قالت: «أوه، باني! انظر إلى الكارثة التي حلَّت علينا! إنهم يحاولون اعتقال أبيك!»

سأل: «اعتقاله؟»

ردَّت: «إنهم يبحثون عنه، ويقفون أمام المنزل مباشرةً! اهرب خفيةً، حتى لا يلاحقوك — أوه، أنا في غاية الخوف — أوه، خُذ حذرك، أرجوك، أرجوك! لا تسمح لهم باعتقال أبيك!»

تمكَّن باني من أن يعرف ما يدور حوله، ووجد القصة ميلودرامية، كما نقلَتها كلمات عمته بالضبط. كان المدير التنفيذي الأمين الشاب بولينج قد أتى إلى المنزل منذ بضع دقائق، ليرى باني وينقل له رسالةً شديدة الأهمية من الأب، فترك له رسالةً تنص على التالي: قُد سيارتك، وتأكَّد من عدم ملاحقتك؛ إذ سيحاول البعض اقتفاء أثرك من أجل العثور على الأب. فور أن تُفلِت من قبضة المطاردين، اترك سيارتك المُسجَّلة باسمك، بعد ذلك اذهب إلى معرض سياراتٍ لا يعرفك فيه أحد، واشترِ سيارةً مُغلقة باسمٍ مستعار، لا بد أن تكون السيارة مُستعملة؛ لأنكما قد تُضطَران إلى القيادة بسرعةٍ فائقة. بعد أن تتأكد مرةً أخرى من عدم تعرُّضك للملاحقة، اتجه إلى بلدة سان بسكوال في الضواحي، وسينضم إليك الأب عند منعطفٍ محدَّد. وأعطى السيد بولينج العمة إيما خمسة آلاف دولار نقدية، ثم انصرف على أمل أن يتبعه الرجال الذين يراقبون المنزل.

تفوَّه باني ببضع كلماتٍ لتهدئة العجوز المسكينة. أخبرها أنهم لا يريدون الزجَّ بالأب في السجن، وإنما إحضاره إلى منصة الشهود كما حدث مع «بيت» الصغير والكبير. حزم باني قليلًا من ملابسه في حقيبةِ سَفرٍ قديمة، لا تحمل اسمًا أو أحرفًا أولى، وأسرع إلى سيارته. بالطبع كانت هناك سيارةٌ أخرى في الشارع، وعندما أدار محرك سيارته دار محرك السيارة الأخرى. أخذ باني عددًا من الانعطافات، لكن السيارة واصلَت ملاحقته بعناد. ثم خطر له الخناق المروري في مركز المدينة، وهو أسوأ ما يكون في هذه الساعة، بين الساعة الخامسة والسادسة مساءً. ودائمًا ما يُوجد هناك اثنان أو ثلاثة ضباط مرور عند المنعطفات المكتظة بالسيارات لتسيير حركة المرور؛ لذا فإنه يمكنه ببعض المناورات وضعُ عددٍ من السيارات بينه وبين مُطارِده، ثم يتحيَّن الفرصة لعبور التقاطُع عند رنين الجرس فيُجبِر مُطارِده على الانتظار.

نفَّذ باني حيلتَه وتملَّص من السيارة الأخرى، بعد ذلك ترك سيارته الخاصة في مرأبٍ عام، واشترى سيارةً أخرى مغلقة ذات مقعدَين، تحمل اسم «أليكس إتش جونز». استخدم باني فاتورة الشراء التي حصَل عليها من البائع رخصةً مؤقتة، بعدما دفع ألفًا وثمانمائة دولار نقدًا ثمنًا للسيارة، ثم قادها مبتعدًا عن المكان. في غضون نصف ساعة، وصل إلى بلدة سان بسكوال، ومَرَّ بالمنعطف المحدَّد. مرَّ به مرتَين، وفي المرة الثانية خرج

الأب من أحد الفنادق، فأبطأ باني سرعة السيارة حتى توقَّف عنده، وانطلقا معًا! كان أول ما قاله الأب: «هل يتبعك أحد؟» وأجاب باني: «لا أظن، ولكن لنتأكَّد من ذلك.» فأخذ باني عدة منعطفات، وواصل الأب المراقبة من النافذة الخلفية. قال الأب في نهاية المطاف: «الأمور على ما يُرام»، فسأل باني: «أين سنذهب؟» وأجاب الأب: «كندا»، فاتخذ باني، الذي كان على أُهْبة الاستعداد، الشارع العريض الشمالي المؤدي إلى خارج بلدة سان باسكال.

تولَّى باني قيادة السيارة، فيما أخبره الأب بالمستجدَّات. بادئ ذي بدء، كان فيرن قد تسلَّل إلى أوروبا؛ أخبره الأب أن باخرتَه ستُبحر اليوم على أي حال، وكان يأمُل ألَّا يُلقى القبضُ عليه. كان «إيه إتش دوري» قد أرسل برقيةً إلى السيدة بولينج، ينصح فيها بضرورة مقابلة السيد بارادايس، وهو الاسم الكودي للأب، لأصدقائهما في مدينة فانكوفر بشكلٍ عاجل، ولا بد من رحيله الليلةَ حتى لا يفوتَه الموعد. كان هذا التلميح كافيًا للأب؛ فقد وصلَت إليه معلوماتٌ مؤسفة أمس، تعمَّد إخفاءها عن باني، عن سماع محقِّقي لجنة الكونجرس بالتعاون الكندي، وعن تخطيطهم لاستدعاء جميع المنظِّمين للمثول أمام القضاء. ولا بد أن مذكراتِ الإحضار أُصدرَت في ذاك اليوم، وأُرسلَت إلى إنجِل سيتي بالبريد، مُلحقًا بها تعليماتٍ للموظفين القانونيين التابعين للولايات المتحدة بضرورة إحضار الشهود في الحال. وقد نجح الأب والشاب بولينج في الخروج من المكتب من خلال مخرج الحرائق وما إلى ذلك من التفاصيل الدرامية! وها هما، أليكس إتش جونز وبول كيه جونز، يقودان السيارة في طريقٍ سريعٍ مُوحل، لا يجرؤان على الاستراحة في أحد الفنادق؛ خشيةَ أن ينقضَّ عليهما الموظفون القانونيون في بَهْو الفندق، ولا يجرؤان على عبور المدن الكبيرة؛ مخافةَ أن تراهما من النافذة عينا العم سام (كناية عن الحكومة الأمريكية الفيدرالية) الغاضب اللتَان لا يخفى عليهما أيُّ شيء!

٥

وصلا إلى مدينة فانكوفر وسط عاصفةٍ ثلجيةٍ غزيرة، فتوقفا عن استخدام أسمائهما المستعارة غير المريحة، ونزلا في أفضلِ فنادقِ المدينة. وبالطبع هُرِع المراسلون إلى الفندق مباشرة، ونفى الأب بوقاره الرصين أنباء هرَبهما من تحقيق مجلس الشيوخ؛ لأنهما رجلا أعمالٍ قَدِما إلى كولومبيا البريطانية بغرض الاستثمار. وزعم أن الفضيحة في واشنطن مجرد لعبةٍ سياسيةٍ رخيصةٍ سخيفة؛ لأن عقود الإيجار ذاتُ نفعٍ كبير للحكومة، بالإضافة

إلى فائدتها العظيمة لكندا. سأل المراسلون بحماسةٍ ما إذا كان السيد روس وابنه قد خطَّطا للتنقيب عن النفط في كولومبيا البريطانية، وأجاب الأب أنه ليست لديهما معلوماتٌ بعدُ.

شعَر الأب والابن بالراحة من الناحية الجسدية، لا من الناحية العقلية، في مدينةٍ نائية، باردة الطقس، غير مثيرة للاهتمام. لكن غلَب على ظنهما بقاء الأب في المنفى لفترةٍ طويلة، فسينعقد الكونجرس الجديد لمدة نصف عام، وسيتأكد مثيرو المتاعب من بقاء فضيحة النفط قضيةَ رأيٍ عام، ليتسنَّى لهم استخدامها سلاحًا في الانتخابات الرئاسية القادمة في الخريف. أرسل الأب البرقيات إلى مكتبه والرسائل اللاسلكية إلى فيرن على متن الباخرة، وسرعان ما حصل على ردٍّ منه يطالبه بلقائه في لندن على وجه السرعة.

كان الأب مضطرًّا إلى الذهاب، لكن ماذا عن باني؟ فحبيبتُه تنتظره بأرض الوطن، وكذا أعماله في الصحيفة؛ لذا قد يعود إلى إنجِل سيتي. لكنه تخلى عن الفكرة لعدم صوابها؛ لأنه من غير الممكن أن يعبُر الأب القارة والمحيط في الشتاء بمفرده. لا بد أن يذهب معه، ويمكنهما الذهاب إلى باريس وقضاء بعض الوقت مع بيرتي ولقاء أصدقائها الدبلوماسيين، بعد مناقشة الأمور مع فيرن تفصيلًا. بعد ذلك، قد يعود باني إلى إنجِل سيتي بمفرده، إذا اقتضَت الضرورة ذلك، لكنهما سيُقرِّران ذلك في وقتٍ لاحق.

كان الأب في غاية السعادة بهذا القرار. فليس لديه أحدٌ آخر سوى باني. ولا بد أنه كان يشعر في قرارة نفسه بالحرج الشديد منه، لكنه اضطُر لمواصلة ادِّعائه أنه رجلُ أعمالٍ محترم يتعرَّض للمضايقة من أعدائه السياسيين العديمي الضمير. كان يتحدث عن المسألة لفترةٍ قصيرة مع باني، وبالساعات الطويلة مع الآخرين، وفي هذه الثرثرة المفاجئة حول شئونه دلالةٌ مُحزنة على ضعفه.

كتب باني رسائلَ طويلة لِفي، يشرح فيها الموقف ويُقسِم على حبه لها، وكتب رسائلَ أخرى لرايتشل، يمنحُها فيها حقَّ إدارة الصحيفة، ويرتِّب حصولها على ألف دولار شهريًّا. وكتب الأب رسائلَ طويلة لمديريه التنفيذيين الأكْفاء الذين كان لهم دورٌ بالغ الأهمية في هذه المرحلة! ومن المفترض أن يتواصلوا معه ومع فيرن، وأن يرسل عملاء فيرن في واشنطن «آخر المستجدات» حول التحقيق. نسَّق باني حصولَه على خطاب دان إيرفينج الأسبوعي، وغير ذلك من الصحف الراديكالية التي كان حريصًا على قراءتها، وهكذا يكون الأب والابن في وضعٍ يُخوِّل لهما مواصلة جدالهما في أوروبا!

أمضيا أربعة أيام في قطارٍ يمُر عَبْر سهول كندا المغطَّاة بالثلوج. كان الجو قارس البرودة بالخارج، لكن عربة المراقبة الخلفية؛ حيث جلس عشرون أو أكثر قليلًا من رجال

الأعمال الأمريكيين والكنديين، كانت مريحةً ودافئة. في غضون بضعِ ساعاتٍ قليلة، أدرك المسافرون وجودَ العظيم جي أرنولد روس بينهم، ومنذ ذلك الحين حَظِي الأب باهتمام الجميع، وقَصَّ عليهم ما جابَهه من متاعب. تعجَّب باني من الوعي الطبقي الذي أظهَره هؤلاء الرجال على نحوٍ تلقائيٍّ عاجل؛ فقد دعموا الأب في موقفه، وعلموا أن هذه الفضيحة من عمل المزعجين السياسيين الخبثاء، وأن عقود الإيجار كانت تعود بالنفع على الصالح العام. فرجال الأعمال الأذكياء يحقِّقون دائمًا مدخراتٍ تفوق الأرباح التي يُحصِّلونها بمراحلَ كثيرة.

وصلا إلى مدينة مونتريال، ووجدا باخرةً فاخرة في انتظارهما، ومئاتٍ من العبيد بالأجرة من مختلف الأصناف على استعدادٍ لخدمتهما في مقابل بضع مئاتٍ من براميل النفط المسروقة. صَعِدا على متن الباخرة وتحرَّكَت بهما في نهر سانت لورانس، ثم توقَّفَت في مقاطعة كيبيك؛ حيث وجد باني مجموعةً من الصحف، وعلم بخبر مداهمة العملاء الفيدراليين لاجتماعٍ سري لحزب العمال واعتقال جميع المفوَّضين. تسبَّب الحدث في ضجَّةٍ كبيرة، وأتت الصحفُ الكندية على ذِكْر جميع تفاصيله؛ إذ كانت تعاني من نفس المشكلة! ذكَرَت الرواية الكندية أسماء المجرمين الذين وقَعوا في قبضة الشرطة والتي كان من بينها بول واتكينز!

٦

وقف مال النفط عاجزًا أمام الطريق الشتوي البارد العاصف المؤدي إلى إنجلترا. وأثبت الأب عدم تحمُّله للسفر بحرًا، وكان في حالةٍ بائسة، عندما وصل إلى الفندق الذي ينزل به فيرنون روسكو في لندن. لكن فيرن أعاد إليه حيويته؛ فقد نَشِطَت روحُه فور أن ربَّت على ظهره، وسمع دويَّ صوته في ردهة الفندق. قال فيرن: «انظروا إلى صديقي العزيز! أرى أن الشيوعيين قد نالوا من ثقته!»

لم ينَلْ أحد من ثقة فيرن بالتأكيد، كان في أَوْج سعادته! رأى أن التحقيق لا طائل من ورائه؛ إذ هو أشبه بحيلةٍ يؤديها المهرِّجون في السيرك لتسلية الفلاحين. وآمن أن هذه الضجة ستخمُد، وستُصبِح طي النسيان في غضون بضعة شهور؛ واستشهد بتاماني هول، قائد العشيرة، الذي تعرَّض لعملية الابتزاز نفسها، وقال: «عُمر ذاكرة هذه المدينة تسعة أيام؛ فلو استطعتَ الصمود لتسعة أيام فحسب، فقد نجوت.» حاول طمأنة شريكه، وربَّت على ظهره مرةً أخرى، وأكَّد له أنهما سيَستَخرجان النفط من ساني سايد، ويتدفَّق

المال إلى حساباتهما البنكية التي هي ملكٌ لهما ولا أحد سواهما، وسيُنفقانه كما يحلو لهما. وفوق ذلك سيقلبان الطاولة على أعضاء مجلس الشيوخ الشيوعيين الحمقى؛ فما على الأب سوى الانتظار لبضعة أيام، وسيرى بعض الأخبار تحتل الصفحات الأولى للصحف حتى في إنجلترا!

حظيَ جيم الابن بنصيبه من التشجيع. وحضَّ فيرن الشاب البلشفي على أخذ والده المسن في جولة في الأنحاء، ومرافقته إلى بعض معالم لندن السياحية، ألم يتعرف عليها في كتب التاريخ، حيث قُطعَت الرءوس منذ خمسمائة عام مضت، وغير ذلك من المعالم المثيرة للبهجة؟ وبعد أن ينال الرجل المسن قسطًا من الراحة، سيُريه فيرن بعضَ العروض النفطية المثيرة. لم يكن فيرن قد أهدَر الوقت؛ فلم يكن ذلك من شيمه! كان قد وضع خمسة ملايين دولار في مشروع، هدفُه إعادة فتحِ حقلِ نفطٍ كبير في رومانيا كان قد تعرَّض للإحراق في أثناء الغزو الألماني، وهي صفقةٌ أكبر من ساني سايد بكثير؛ حيث سيحصُل منها على خمسين بالمائة مع جميع الصلاحيات، وعزَم على جلب معدَّاتٍ أمريكية كاملة ليُريَ أولئك الغجر، أو أيًّا كانت ماهيتهم، مشروع النفط كما يجب أن يكون. كما أنه في خِضَم نزاعٍ مع بعض رجال النفط البريطانيين، حول آبار النفط في فارس (إيران حاليًّا)، وتعاون مع وزارة الخارجية الأمريكية في إيقاظ جون بول (كناية عن بريطانيا) من حُلمٍ طويلٍ جميل.

شهد باني ذلك الوضع المتناقض في بريطانيا. كان فيرنون روسكو هاربًا من لجنة تحقيقٍ عقدَها مجلس الشيوخ بشأن عقود النفط، وفي الوقت نفسه ذا تأثيرٍ كبير على سياسة الخارجية الأمريكية في مجال النفط، حتى إن السفراء في الخارج ووزير الخارجية في الداخل يؤدُّون دور مساعديه. كان هناك رجالُ أعمال آخرون بالتأكيد؛ فلدى إكسلسيور بيت وفيكتور وباقي الشركات الخمس مئاتُ العملاء بالخارج، لكن حس المبادرة عند فيرن، والكلمة العليا التي حَظِي بها في واشنطن، أجبرَت الآخرين على الإذعان لقيادته. قد يكون الرئيس هاردينج مات، لكن لا تزال روحُه باقية، وقد اشتراها فيرن وحاشيتُه ودفعوا ثمنها.

دخل الزعيم الأمريكي مجتمع رجال الأعمال البريطانيين ببراعة ورشاقة، مثل أحد العجول المخصية الطويلة القرون القادمة من السهول الجنوبية الغربية. ولم يكن في نيته التصرف بأخلاقيات المجتمع الراقي؛ لأنه راعي بقر من أوكلاهوما، وإذا لم يُعجِب ذلك «أولئك الذين يلبسون أغطيةً على الكاحل وعدسةً واحدة» كما أحب أن يُسمِّي «كبار زعماء

النفط في بريطانيا العظمى»، فسينطحُهم بقرونه! حضر باني مأدبة طعام، دُعي إليها مجموعةٌ من المتنافسين، ولاحظ أن فيرن أصبح أكثر صخبًا وسوقيَّةً مما كان عليه على مائدته في المونASTري. وشكَّ في أن لديه دافعًا خفيًّا وراء هذا الأمر؛ فقد أثارت أساليبه الغربية الجامحة الخوف في قلوب هؤلاء الأجانب، وهذه هي الحالة النفسية المناسبة للدخول في المفاوضات! كان هؤلاء في حاجةٍ ماسَّة لقواتنا البحرية منذ بضعِ سنوات وحصَلوا عليها بالمجان، لكن لن يحدث هذا مرةً أخرى، وفيرن هو الرجل المناسب لإيصال هذه الرسالة. في المرة القادمة، بمشيئة الرب، سيُدلي كبار النفط برأيهم في مسألة البوارج البحرية ومسألة الدولارات.

حدَث تغيرٌ جديد في الدبلوماسية الأمريكية منذ الحرب. فقد تولَّت وزارة الخارجية مسئولية إدارة الاستثمارات الخارجية التي ينفِّذها المصرفيون، وراحت توجِّهُها حيث شاءت وتَصرِفُها عما أرادت. ولم يجد المصرفيون مفرًّا سوى الإذعان؛ إذ لا أحد يدري متى سيحتاج إلى مساعدة القوات البحرية، من أجل جمع أرباحه. وتُرجمَت هذه السياسة عمليًّا في صورة حفنة من المقاتلين، مثل فيرنون روسكو، يذهبون إلى رجال الأعمال الأجانب ويطلبون السماح بالدخول في مشاريع، والحصول على حصةٍ في مشاريعَ أخرى، مع تهديدهم بعدم الحصول على القرض القادم من وول ستريت في حال الرفض. ويُعرف هذا الإجراء بين رعاة الماشية بـ «التطفُّل»؛ فبعد أن يختبر البريطانيون «التطفُّل»، يدركون ما أدركه الآخرون في أرض الوطن، مَن هم السادة الحقيقيون لأمريكا!

٧

لم يهتَم الأب أدنى اهتمامٍ بالأماكن التي جرى فيها قطع الرءوس منذ خمسمائة عام مضت، وحاول باني زيارتَها ووجد أنها لا تثير اهتمامه هو أيضًا. ما أراده باني هو مقابلة الرجال الذين يواجهون خطر قطع رءوسهم في هذه الآونة. كانت هناك حركةٌ عماليةٌ كبيرة في إنجلترا، ذات نظامٍ تعليميٍّ متطور للعمال، يدعمه القادة القدامى، كما حَظِيَت بمجموعة من المتمردين الشباب الذين يهاجمونها بسبب افتقارها لرؤيةٍ ثوريةٍ واضحة. كانت صحيفة «الطالب الشاب» تتبادل النقاشات مع صحيفة «العامة»، وذهب باني للقاء أولئك المتمردين، وسرعان ما انخرط في الصراع البريطاني؛ حيث حضر لقاءً رائعًا في قاعة ألبيرت هول، وقابل أعضاء حزب العمال في البرلمان، وغيرهم من الأشخاص المثيرين للاهتمام.

نشرَت بضعُ صحفٍ لقاءاتها مع أمير النفط الشاب الذي تبنَّى مبادئ «الراديكالية» بحسب وصف الأمريكيين. فنجم عن ذلك أن أرسلَت بيرتي خطابًا مفعمًا بالألم. لقد كانت تتوسَّل إليهما لزيارة باريس ولقاء معالي القوم، لكن ها هو باني، على بُعد ستة آلاف ميل من الوطن، يثير المتاعب كعادته! ألا يمكنه التوقُّف بحق السماء، والتفكير في عاقبة أفعاله على أقاربه؟ كاد إلدون يحصُل على ترقية حتى أتى صهره وأفسَدها عليه! أظهرَت بيرتي موقفَها الأخلاقيَّ القوي على الورق من خلال هدوئها وصبرها على أخيها، وهي تشرح له الفرق بين أوروبا وكاليفورنيا. بيَّنَت له أن الأوروبيين يأخذون تهديد الشيوعية على محمل الجد، وأنه سرعان ما سيجد باني نفسه منبوذًا تمامًا. وكيف سيثق المسئولون الأعلى مقامًا بإلدون في المسائل الحسَّاسة المتعلقة بسياسة الدولة، إذا ما علموا أن أعضاء عائلته يتعاطفون مع مجرمي موسكو القَتَلة؟

ردَّ باني بأنه في غاية الأسف حقًّا، ونصحَها وزوجَها بالتبرؤ منه وقطع صلتهما به؛ إذ لا نية له في الابتعاد عن الحركات العمالية والاشتراكية في البلاد التي يزورها. وبعد أن أفرغ ما في صدره، جلس ليكتب تقريرًا لصحيفة «الطالب الشاب»، عما شَهِده من مظاهر الشيوعية، وعن الشيوعيين الذين التقى بهم حتى ذلك الحين.

توافدَت الإصدارات الجديدة للصحيفة على باني، وقرأها في استحسانٍ من أعلى الزاوية اليسرى للصفحة الأولى حتى أسفل الزاوية اليمنى من الصفحة الرابعة. ودفَعه تواضُعه إلى الاعتراف ببراعة رايتشل مينزيس في التحرير، وأنها ستتفوَّق عليه كثيرًا. كانت قد بدأَت سلسلةً من المقالات بعنوان «العدل والطالب» تناقش فيها مشكلات الأجيال الصاعدة. كانت تفهم هذه المشكلات على نحوٍ جيد، وتعرضها بأسلوبٍ لبقٍ قوي الحجة، دون أن تفقد هدوءها كعادة الشيوعيين الشباب! وقد أثار أسلوبها إعجاب الأب، وأثنى على مهارتها؛ إذا رأيتها لم يخطُر ببالك براعتها، لكن اليهود أذكياءُ دائمًا.

كما توافدَت خدمة صحافة العمال، مع خطاب دان إيرفينج من واشنطن، وغير ذلك من الأخبار عن فضيحة النفط. وسرعان ما أدرك باني ما كان يعنيه فيرن عندما تنبَّأ بانهيار التحقيق. فقد وجَّه مكتب المدَّعي العام تركيزَه إلى أعضاء مجلس الشيوخ المتمردين. وانشغَل بارني بروكواي بالدفاع عن نفسه وعن «عصابة أوهايو»، بعدما وجد نفسَه في ورطةٍ كبيرة. ففي وقتٍ سابق داهم عملاء المخابرات مكاتبَ أعضاء مجلس الشيوخ المسئولين عن التحقيق وفتَّشوا أوراقهم، كانوا يُحاوِلون جمع الفضائح عنهم، من خلال إرسال النساء لـ «إغوائهم»، ونصب «المكايد» لهم في ولايتهم، مستخدمين

في ذلك كلَّ الحِيَل التي طبَّقوها على الشيوعيين والاتحاد العالمي للعمال الصناعيين في السابق. وسرعان ما وجَّهوا الاتهام إلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ، واستعادت كبرى الصحف رُشدَها، وأزالت جرائم رجال الأعمال من صفحاتها الأولى، ووضعَت مكانها جرائم الشيوعيين، كما تنبَّأ فيرن من قبلُ.

كانت تُوجد الآن مجموعةٌ من «الزعماء» في المنفى؛ إذ كان هناك فريد أوربان، وجون جروبي، وجميع مَن شاركوا في تشكيل التعاون الكندي، ووزَّعوا رشاوى قَدْرها مليونا دولار في واشنطن. تناول الأب وباني الغداء مع هذه المجموعة بصفةٍ منتظمة، وتبادلا معها البرقيات السرية، وبدَت ردودُ أفعال أفرادها غريبة. فقد سخروا من جدية الوضع وأخذوا يحيُّون بعضهم بعضًا بـ «مرحبًا أيها السجين!»، لكن تحت هذا القناع كان القلق ينهَش أعماقهم. فمن بين التطورات الأخيرة، كان الرئيس الجديد يُحضِّر للتخلي عن أعضاء المجموعة استعدادًا لانتخابات الخريف القادم. هذا الرئيس، الذي يُلقب بالكاليفورني الحذِر، لم يتلطخ اسمُه بفضائح النفط — أوه لا! أوه لا! استهجَن رجال النفط هذا الزعم؛ فقد جلس الرجل الضئيل في مجلس الوزراء في أثناء الإقرار على عقود الإيجار، وكان من أصدقائهم المقرَّبين. وكانت المرة الأولى التي يستمتع فيها أتباع فيرن بهذه الفضائح، عندما بدأَت لجنة مجلس الشيوخ التحقيق في مجموعةٍ من البرقيات التي تُظهِر تورُّط الرجل الطاهر بفضيحة النفط بشدة كغيره من السياسيين الآخرين؛ فقد كان يُرسِل رسائلَ سرية، يحاول فيها تجنُّب الفضيحة تارة، ويُحاوِل إنقاذ هذا وذاك تارةً أخرى. ولكن ها هو يستعد لطرد عُملائهم من الوزارة، فيا له من شخصٍ كريه! لهذا دائمًا ما كان فيرن يُلقِّب رئيس القضاء في دولته بـ «الضفدع الصغير»!

٨

لم تتحسَّن صحة الأب بسرعةٍ كما كانوا يأملون. فعلى ما يبدو لم يكن مُناخ لندن البارد الرطب صالحًا له؛ لذلك صَحِبه باني إلى باريس. أذعنَت بيرتي وقابلَتْهما عند المحطة، بل خاطر زوجها بمهنته الدبلوماسية وقابلَهما ودامت الأجواء مهذبةً وودودةً لعدة ساعات. بعد ذلك دبَّ الخلاف بين الأخ وأخته؛ فقد أرادت بيرتي ألَّا يستعلم باني عن الحركة الاشتراكية في فرنسا، على الأقل، وردَّ الأخير بأنه قطع وعدًا لرايتشل بكتابة مقالةٍ عنها. ففي باريس تُوجد صحيفة «الشباب»، وهي على قائمة الصحيفة البريدية، كما أنه من المقرَّر عَقْد لقاءٍ للاشتراكيين سيحضُره هذا الأسبوع تحديدًا. قالت بيرتي إن الأمر قد

حُسم، وإنه لن يقابل الأمير فلانًا والدوقة علانة، وكان باني في غاية الجهل فلم يدرك أهمية ما كان يفوِّته.

كانت باريس رطبةً وباردةً هي الأخرى، وعانى الأب من السُّعال، فاكتفى بالجلوس في ردهة الفندق، في بؤسٍ يفطر القلب. وكان يسمح للآخرين بأخذه في نزهة بالسيارة، ويتأمل المباني العامة، في استحسان لرقي المدينة وجمالها؛ فقد لاحظ أن مواطنيها قد انشغلوا بتطويرها لفترةٍ طويلة، فيما لم يكن لديهم وقتٌ كافٍ للقيام بعملٍ مماثلٍ في الوطن. لكن لم يكن خافيًا عدم اكتراث الأب بالمدينة؛ فهو لم يحب أولئك الغرباء بثرثرتهم، ورأى الرجال متبجِّحين والنساء فاجرات، وكره محاولاتِ الباعة لغشِّه بالأموال المزيَّفة، ولم تُعجِبه الإضافات التي تحول دون التلذُّذ بمذاق الطعام الأصلي، مما أثار استغرابه من رغبة الأمريكيين في القدوم إلى أوروبا.

تقرَّر أخذ الأب إلى الريفيرا حتى فصل الربيع. وأقام في بيتٍ كبير يُطِل على البحر المتوسط، تخترقه أشعة الشمس التي افتقدَها كثيرًا، فكان شبيهًا بصورةٍ طفيفة ببيتهم في كاليفورنيا. وأتت بيرتي للزيارة، ثم العمة إيما لتولي شئون المنزل، فعمَّ نوعًا ما الدفءُ في البيت. انسجمَت العمة إيما وبيرتي بشكلٍ جيد؛ لأن العجوز نجحَت دائمًا في مدح الأشياء المناسبة، فتجدها تصفُ المباني بأنها جميلة وأنيقة وراقية ورائعة، واللوحات بأنها تشبه الحقيقة تمامًا، والأزياء بأنها في غاية العصرية! كما يمكنُها مقابلة الأمير فلان والدوقة علانة، ولن تضُرَّ بمهنة زوج ابنة أخيها الدبلوماسية!

وجلب باني لنفسه مدرسًا خاصًّا، وسرعان ما تخلص من الفرنسية، التي تعلَّمها في السابق في جنوب المحيط الأطلسي. وبالطبع استعان بمدرسٍ اشتراكي، كان شابًّا غريبَ الأطوار رثَّ الثياب، يبدو عليه أثَر الجوع كأنه لم يتناول وجبةَ طعامٍ دسمة منذ سنواتٍ كثيرة، بالإضافة إلى بلاغته في الشعر بحسب ما قيل. تردَّد اشتراكيون آخرون على المنزل، إلى جانب حفنةٍ من الشيوعيين والفوضويين والنقابيين ومزيجٍ من تلك التوجُّهات؛ كانوا يرتدون أربطةَ عنقٍ غير محكمة الربط، أو لا يرتدون أربطةَ عنقٍ على الإطلاق، وتنسدل شعورهم على أعينهم، ويَبْدون للأب والعمة كأنهم يستكشفون الموقع بنِيَّة السطو عليه. انعقدَت اجتماعات الراديكاليين هناك، على ساحل الذهب؛ حيث انهمك الأوروبيون الأغنياء في المقامرة واللعب، وأثار الشياطينُ المساكين، الذين كانوا على حافة الموت جوعًا، شفقةَ المليونير الأمريكي الشاب، الذي كان يعيش في رفاهة وتأنيب ضمير. وكلما تجلَّت نيتُه في

إقراض المال، ظهر بعض المساكين لطلبه، وكانوا كذَّابين في معظمهم، لكن مِن أين له تمييز الصالح من الطالح؟

كان السكرتير الخاص للأب قد رافق العمة إيما، من إنجِل سيتي، وجلب معه حقيبتَين مليئتَين بالتقارير والخطابات. وصار الأب مشغولًا وسعيدًا لفترة من الوقت؛ حيث درس هذه الأوراق، وأسهب في كتابة التعليمات، وأرسل برقياتٍ سلكيةً مشفرة، وانهمك في استيعاب بعض الردود لعدم وضوحها. أجل، لم تكن إدارة أعمال النفط سهلةً مِن على بُعد ستة آلاف ميل. كان العمال ينشئون آبارًا تجريبية في النصف الشمالي من ساني سايد، وكان من الضروري وجودُه لفحص لُبَاب الحفر. وتساءل لماذا لمْ يرسل هؤلاء الحمقى النص الكامل لتقارير الجيولوجيين.

لم يكن الأب في حالةٍ صحية تسمَح له بعقد صفقاتٍ جديدة مع فيرن؛ إذ كان بحاجة إلى بعض الراحة أولًا. لكن الراحة لم تُفِده؛ لأنه كان يبحث عن شيء يفعله بصفةٍ مستمرة، وعن شيءٍ يُوكِله إلى سكرتيره. كان يتجوَّل بالسيارة على الساحل بشكلٍ روتيني، لكنه كره الجلوس في حفلات الشاي، وتجاذُب أطراف الحديث مع العاطلين من أبناء الطبقة الراقية؛ إذ كان يزدريهم إلى حدٍّ تعجز الكلمات عن وصفه؛ لأنهم لم يكونوا فظِّين وأصحَّاء، مثل الأغنياء في كاليفورنيا، بل فاسدين حتى النخاع وشرسين وفظيعين. نظر سائق البغال إلى قصر القمار المُذهب، الذي ذاع صيتُه في جميع أنحاء العالم، ثم خرج وهو يبصُق على درَجه هاتفًا: «اللعنة عليكم!» كان على استعدادٍ لقبول رأي باني في هذه المسألة: إن هؤلاء الأشخاص نتاجُ توارُث الامتيازات على مدار عدة أجيالٍ متلاحقة؛ فإنْ سارت الأمور على المنوال نفسه في كاليفورنيا، فسيعطي أحفاد الأب لهذا الحشد دروسًا في الانحلال الأخلاقي. وفي الحقيقة، كان بعضُ الأمريكيين، في الريفيرا في الوقت الحالي، بهذا القَدْر من الانحلال، وهم الأغنياء الأمريكيون الذي يرسمون المسار برعونتهم وتفاخُرهم.

قال الأب: «على أي حالٍ أريد رؤية أمريكيين!» وفي إحدى الجولات، التقى بمالكِ متجرٍ كبير من دي موين يشعُر بالضجر الشديد مثله، فكانا يجلسان لساعاتٍ في الممشى يتحدثان عن أعمالهما والمشكلاتِ التي تجابههما. وسرعان ما انضَم إليهما مصرفيٌّ من داكوتا الجنوبية، ثم مزارعٌ كان قد حقَّق نجاحًا مفاجئًا في تكساس. كانت النساء تُصِر على القيام بهذه الرحلات الأوروبية السخيفة، ولم يجد الآباء مفرًّا من الانفراد بأنفسهم، والتذمُّر من النفقات. وها هم الأربعة، يُشجِّع بعضهم بعضًا، ويمارسون لعبة إلقاء حدوة الفرس بالقمصان، كأنهم لم يُخطئوا في جمع أموالٍ طائلة وإفساد حياتهم العائلية!

٩

أصبح الطقس حارًّا وعادا إلى باريس. أحب الأب الأجواءَ بعد هذا التحسُّن في الطقس، فراح يتجوَّل في الشوارع العريضة، ويجلس في المقاهي الخارجية ويرتشف المشروبات في تأنٍّ؛ كان يجد دائمًا نادلًا يفهم الإنجليزية أو ذهب يومًا إلى دولة الرب (أمريكا) ويريد التحدُّث عن ذلك. وقابل عددًا كبيرًا من الأمريكيين، وعثَر على مكتب شركة الشحن السريع التي يتلقَّون منها رسائلهم البريدية، بل إنه التقى بعددٍ من الأشخاص القادمين من إنجِل سيتي! وقدمَت الصحف من أرض الوطن مرتَين أسبوعيًّا، واستمَرَّ الحال على ذلك المنوال لفترةٍ طويلة.

وتوافَد عليهم الأصدقاء مثل آنابيل إيمز، التي جاءت لحضور العرض الأول لفيلمها «قلب الأم» في لندن، ولزيارة رومانيا والقسطنطينية مع فيرن. اتضح أن فيرن يدعم الحكومة التركية بهدف استخلاص أكبر حصة من نفط الموصل من البريطانيين. والغريب في الأمر أن خَصْمَه اللدود في أمريكا، إكسلسيور بيت، عرض أن يُدخله في هذه الامتيازات. لا شك أن المرء يجني بعض المنافع من شرائه لأعضاء الوزارة القياديين في حكومة الولايات المتحدة الأمريكية! فقد أظهرَت إيماءة إكسلسيور بيت الأهمية الكبرى التي يُولُونها لفضائح النفط وللموقف العام للرئيس الجديد.

كانت آنابيل سيدة أعمال، وعلى دراية بهذه المسائل، فبثَّ هذا الراحةَ في نفس الأب. كما استجدَت باني، بأسلوبها المحب اللطيف، أنه لا بأس في أن يضع معاييرَ جديدة للعمل، لكن هل من العدل أن يُحاكِم أباه بهذه المعايير؟ لا شك في أن كبار رجال الأعمال لا يتبعون هذه المعايير. وبالطبع من حق أمريكا الحصول على حصتها من نفط العالم، لكن لا سبيل لانتزاعه من هؤلاء الخصوم الأجانب الجَشِعين إلا بحشد قوة الحكومة في مواجهتهم.

جاءت آنابيل محمَّلة بالأخبار من الوطن. ولا علاقة لهذه الأخبار بالإشاعات فهي لا تنقل الأخبار الدنيئة، لكنها لم تستطع منعَ نفسها من قصِّ قصةٍ بعينها، تبيَّن أنها طريفة، وأثارت ضحك الأبِ كثيرًا. تحكي هذه القصة نوبة التواضُع المفاجئة التي أصابت عائلة أورايلي؛ فقد أخذَت العائلة تُزيل كل الدلائل الذهبية والنحاسية التي أفصحَت عن ازدهارها في أرجاء العالم! كما محت الأسماء من فوق بوَّابات المزرعة، واليخت الملقَّب بـ «الفاتح»، والسيارة الخاصة بتصميمها الداخلي البني الفاتح وكسوتها الحريرية الزرقاء! وتحدَّثَت الزوجة عن مَسَاوي الزواج بزعيم نفطٍ؛ فقد يقذفك متعصبٌ بقنبلةٍ على حين غرَّة!

اختَتَم الكونجرس أعماله لفصل الصيف، وتهيأ فيرن للعودة إلى أرض الوطن. لكنه أراد من الأب مواصلة البقاء لبعض الوقت؛ لأن التعاون الكندي هو أكثر عمل عُرضةً للهجوم من بين أعمال رجال النفط الأخرى؛ فهو لم يفعل شيئًا سوى توزيع مليونَي دولار على سبيل الرشاوى. ازدادت الحاجة للتكتُّم على الأمر؛ لأن الحكومة باشرَت إقامة الدعاوى لاسترجاع الاحتياطيات البحرية. وسينجُم عن ذلك أن تُحتجَز الأرباح، التي تمثِّل كميةً كبيرة من المال، في المحاكم، ما يجعل الوضع في غاية السوء!

سيبقى الأب بالتأكيد، وسيُضطَر باني إلى البقاء معه. ولأجل تسهيل الأوضاع، انضَم إليهما العظيم شمولسكي، الذي كان قد انتهى للتوِّ من شراء معظم كبار نجوم السينما الألمان، في خطوةٍ أخرى للهيمنة على صناعة الأفلام. لجأَت إليه آنابيل، وأظهر تعاونًا كبيرًا وأجابها إلى طلبها؛ إذ رأى أن المعاملة التي تلقَّاها جيم الأب لم تكن لائقة، كما أثنى على ابنه الذي لزم صحبته؛ فقد كان اليهود يُولُون اعتبارًا كبيرًا للروابط العائلية؛ وهكذا سيُنسِّق شمولسكي عرض فيلم «الأريكة الذهبية» عدَّة مرات في أوروبا، ما سيسمح لِفي بقضاء إجازةٍ طويلة بصحبة عزيزها باني. وكي لا ينسى شمولسكي جعلَته آنابيل يُملي برقيةً سلكية في الحال، وبهذه الطريقة استوعب باني أهميةَ وجودِ أصدقاءَ ذوي نفوذ! كان هذا الإجراء صفقةً تجاريةً ناجحة ومعروفة في الوقت نفسه؛ هذا لأنه عندما يشرع مشاهير العالم في هذه الجولات الترويجية الساحرة، فإن رجل علاقاتٍ عامة يمهِّد لهم الطريق، في عاصمةٍ تلو الأخرى، وتُرسَل أخبار الجماهير والضجَّة التي أحدثَتها الجولة في برقياتٍ إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتستحوذ على الصفحات الأولى من الصحف في كل مرة.

لا بأس أن يُخمِد باني ضميره إذ لا حاجة إليه في أرض الوطن. فأمور الصحيفة كانت على ما يُرام. ونُشِر منها اثنان وخمسون إصدارًا، تولَّت رايتشل تحرير ما يزيد عن نصفها، وصارت الصحيفة لا غنى عنها، مثلما لا يستغني المرء عن أشعة الشمس في الصباح، كما استحوذَت على اهتمام القُرَّاء في العالم بأَسْره!

كانت أوضاع بول هادئةً أيضًا. فمن بين التسعة عشر رجلًا الذين أُلقي القبض عليهم في أحد لقاءات الحزب الشيوعي أُدين رجلٌ واستُؤنفَت قضيتُه؛ وأُرجئَت باقي القضايا، إلى حين البَتِّ فيها، وأُطلِق سراح بول والآخرين بكفالة. أرسلَت روث هذه الأخبار إلى باني، من المؤلم أن يعيش المرء في ظل الخوف من الحكم عليه بالسجن لمدة عشرين عامًا، لكنهم

قد أَلِفُوا مثل هذه الأمور. واصلَت روث عملها في التمريض وأحرزَت تقدمًا جيدًا. وخرج بول في رحلةٍ طويلة، لم تُفصِح عن وجهتها؛ لأنه لم يأذن لها بذلك.

لكن الصحافة الرأسمالية أعطَت لنفسها الحقَّ في الإعلان عن وجهته. فمن وقتٍ لآخر، كان المرء يقرأ في الصحف الفرنسية أنباءً عن روسيا، سطَّرها الكاتب بصيغةٍ منفِّرة بأكبر قَدْرٍ ممكن. وبعد فترةٍ قصيرة من استلام خطاب روث، نشَرَت الصحف الفرنسية أنباء وقوع نزاعٍ بين الشيوعيين الأمريكيين بشأن الرؤى، ما دفع الفصيلَين المتنازعَين إلى رفع قضيَّتِهما لرؤساء الأممية الثالثة لحسم النزاع. لهذا السبب يُوجد حفنةٌ من قادة من الحزب الشيوعي الأمريكي في روسيا في الوقت الراهن؛ أحدهم يُدعى بول واتكينز، الذي يواجه تحقيقات في أرض الوطن بشأن مشاركته في مؤتمرٍ غير قانوني.

١٠

وقع العديد من الأحداث المثيرة التي شغلَت وقتَهُما في المنفى. أولها أن العمة إيما وقعَت في الحب، أجل، مثلما قرأتَ؛ فعندما يتعلق الأمر بالحب، فلا سبيل لمعرفة ما قد يحدث للنساء أو الرجال! أغرمَت العمة بتاجرٍ مُسنٍّ مرموق، من نبراسكا، يُمضِي وقت فراغه في جمع الأحجار البارزة النقوش. ربما ذكَّرته العمة إيما بحجارة من حجارته النفيسة، على أي حال، بعد مواعدتِها لعدة شهور، عرَض عليها الزواج فجأة، وحظيا بعرسٍ عائليٍّ هادئ، وذهبا لقضاء شهر العسل في نبراسكا!

شعَر الأب بالوحدة بعد زواج العمة، لكنه سرعان ما سعى وراء مغامرة، وهذا أغربُ مما فعلَته العمة بكثير؛ إذ لن يخطر ذلك ببال أحدٍ ولو ظل يخمِّن مليون سنة. بل كان الأمر مخيفًا! فذات مرة ذهب باني في إحدى الأمسيات إلى لقاءٍ انخرط فيه الاشتراكيون والشيوعيون في شجارٍ عنيف، كما تبيَّن أن هذه عادتُهم في باريس، وعندما عاد، لم يجد الأبَ في غرفته. في صباح اليوم التالي أخبره الأب بما فعلَه بتردُّد وخجلٍ بالغَين. وسأل باني عن رأيه في الروحانية. فأجابه باني أنه ليس لديه رأيٌ معيَّن أو ليست لديه معلوماتٌ بشأنها؛ حينئذٍ أعلن الأب أنه مرَّ بتجربةٍ مذهلة وخاض محادثةً طويلة مع الجدة!

صُعق باني، واعترف الأب أن ما قاله يصعُب تصديقه، لكن لا سبيل له إلى إنكاره. فقد حدَّثَته الجدَّة عن طفولته بإسهاب، ووصفَت بيت المزرعة حيث عاشت العائلة، وسألَتْه عن لوحاتها، وعما فعلَه بلوحة الألمان الذين يشربون من الأكواب الخزفية، وما إذا كان لا يزال يمتلك القصر الكبير ذا النافورة في مقدمته، والعربة التي يجرُّها اثنتان من الخيل

وتجلس السيدة والسيد داخلها. وقد نادته بـ «الصغير جيم»، وكان الأمر في غاية الواقعية، فأجهَش الأب بالبكاء.

أراد باني أن يعرف مكان الواقعة، وحكى له الأب عن امرأةٍ تعيش في الفندق، اسمها السيدة أوليفييه، قد قَدمَت من بوسطن في الماضي، وتزوَّجَت برجلٍ فرنسي قضى نحبه منذ سنة أو سنتَين تقريبًا. وقد تحدث إليها، وأخبرَتْه عن انشغالها بالأمور الروحانية، وعن اشتهارها بالوساطة، حتى إنها تعقد جلساتِ استحضار الأرواح في غُرفتها بالفندق، ودَعَته لحضور جلسةٍ من هذه الجلسات، وخاض هذه التجربة. شَهِد حدوث أمورٍ مذهلة؛ إذ حلَّقت الرءوس في الهواء، وانسابت الأصوات منها، وتذبذبَت المصابيح، بعد ذلك ظهَرَت الأشباح، وكان آخرها شبح سيدةٍ عجوز سأل عن «الصغير جيم» قبل أن يسرد مباشرةً التفاصيل التي عقدَت لسانه. كيف يمكن لوسيطٍ روحاني أن يعرف هذه الأمور؟

بهذه الطريقة شغل الأب وقته! وبالطبع ذهب إلى الجلسة التالية والجلسة التي تليها، وسرعان ما بدأ يتعلم طريقة حديث الروحانيين، وتعامل معها بجدية كأنها ديانةٌ من الديانات. وليست ثمَّة غرابةٌ في تصرُّفه؛ إذ أمضى الأب حياته بلا دين؛ لأنه كان في صحةٍ جيدة ولديه من المشاغل ما يكفيه، لكنه بعدما تقدَّم في السن وأصابه التعب والمرض، أصبح يتوق إلى شيءٍ يعتمد عليه. خَجِل الأب من اهتمامه بالروحانية أيما خجل، وخَشِي من أن يسخر منه ابنُه. وسأل باني إذا كان لديه دليلٌ على عدم حياة الروح بعد الموت. ودعاه إلى حضور جلسةٍ لتحضير الأرواح لأنه لا يمتلك الدليل. رأى الأب أن هذه المسألة أهمُّ من الاشتراكية بالتأكيد. فلو كان صحيحًا أننا نعيشُ للأبد، فلا بأس من تحمُّل الابتلاءاتِ المؤقتة، ولا جدوى من الجدال بشأن المال. هذا ما قاله جيه أرنولد روس بنفسه!

ذهب باني، الذي كان يحاول تلبية طلبات أبيه، إلى الجلسة وشهِدَ تلك الظاهرة الغريبة. كان يعلم أن مِثل هذه الأمور يمكن تنفيذها بالحيلة والخداع، ولا سبيل له للتأكد من ذلك؛ إذ لن يحظى بهذه الفرصة وسط جماعة المؤمنين المستثارين عاطفيًّا. كانت جلسة واحدة كافية لباني وقرَّر العودة إلى رفاقه الاشتراكيين. لكنه لم يمانع أن يكون الأب روحانيًّا ما دام سعيدًا بذلك!

على عكس باني، دخلَت بيرتي في نوبةِ غضبٍ شديدة عندما سمعَت بالأمر. وتعجَّبَت من سماحه بوقوع الأب في مِثل هذه الأيدي. فهذه أسوأُ حيلةٍ على الإطلاق في رأيها! وليس ثمَّة شكٌّ في أن تلك المرأة، السيدة أوليفييه، لها دافعٌ خفي وهو الزواج بالأب! قالت إنهما عملا بجدٍّ طيلة حياتهما لمساعدة الأب في جمع ثورته والحفاظ عليها، لكن المغامِرة الداهية

انضمَّت إليهما، وتُحاوِل اختطاف المال، وهو أبلهُ لا يدرك ما يحدث حوله! لم يرَ باني أختَه غاضبةً بهذه الدرجة من قبلُ؛ إذ لقَّبَته بالأبله سبعَ مراتٍ متتالية، عندما عبَّر عن موافقته على حصول المرأة الروحانية على حصةٍ من المال، بشرط أن تساعد الرجل المسكين في العثور على السعادة.

١١

بعد ذلك وقعَت حادثةٌ غريبة أثارت نقاش العائلة؛ لأنها بعيدةٌ عن الخيال! نشَرَت الصحف الفرنسية تقريرًا عن إنجِل سيتي بشأن غرق إيلاي واتكينز مُدعي النبوة. ذكَر الخبر أنه ذهب للسباحة عند الشاطئ، وترك ثيابه في غرفة أحد الفنادق، ولم يرَه أحدٌ منذ ذلك الحين. تداولَت الصحافة هذا النبأ لبعض الوقت، وهز الأب رأسه وقال: «يا إلهي، هذا أمرٌ غريب، أن يعجز الرب الذي أنقذ الكثيرين عن إنقاذ نبيه! ماذا سيحدُث لذلك المعبد الكبير الذي كان تحت ملكية إيلاي الخاصة؟»

توافدَت صحف نيويورك، ثم اتبعَتْها صحف إنجِل سيتي في وقتٍ لاحق، بقصةٍ احتلَّت الصفحات الأولى يومًا تلو الآخر. لم يُعثَر على جثة إيلاي. كان أعضاء المعبد قد استأجروا غطَّاسين، ونشروا كشَّافاتٍ تمسح المياه في الليل، فيما باشر آلاف المؤمنين دورياتِ المراقبة على الشاطئ، وعقَدوا مجالس للصلوات الإحيائية، اغرورقَت فيها العيونُ بالدموع ولهجَت الألسنُ بالدعاء، عسى أن يرُد إليهم الرب قائدهم المحبوب في ثياب السباحة الخضراء. دامت هذه الإجراءات لمدة أسبوعٍ وامتدت لأسبوعٍ آخر، بعد ذلك تحيَّرَت العقول؛ لأن أطول فترة يمكن أن تمكُث فيها الجثة تحت الماء هي تسعة أيام، ولم يحدُث من قبلُ أنْ لم تنجرف جثةُ غريقٍ إلى الشاطئ.

ازدادت الأمور غرابةً أكثر فأكثر، وبدأت الإشاعات تتسلل إلى الصحف؛ إذ خشيَ الجميع التصريحَ لكنهم لجَئوا إلى التلميح وإلى اقتباس تلميحات الآخرين، بشأن احتمالية عدم تعرُّض إيلاي للغرق؛ فقد شُوهد في أماكنَ متفرقة بصحبة شابةٍ جميلة بعينها، أعلنَت الإشاعات أنها القيِّمة على الأردية المقدَّسة في المعبد. فور أن قرأ الأب هذه التلميحات، تذكَّر ما رآه وباني ذلك اليوم، في الفندق المُطِل على البحر، وثارت ثائرتُه. قال: «يا إلهي، هذا الشخص يخدعُنا! لقد خرج للمرح مع امرأة!»

كانت واقعة مثيرة! راح الأب يتحدث عنها لعدة ساعات، وكاد ينسى أمر الأشباح. لم يكن الأمر مزحة؛ فقد خسر شخصان حياتهما في أثناء بحثهما عن جثة إيلاي؛ أحدهما

أُصيب بالتهابٍ في الرئة، وهو غطَّاس وعضو من أعضاء المعبد، والآخر توهَّم رؤية جثة فسبَح لمسافةٍ بعيدة حتى غرق في القاع. كان الأب هو الوحيد الذي يمتلك حلَّ هذه الأحجية! وتساءل ما إذا كان يجب عليه إرسال هذه الحقائق في برقية إلى الموقَّر بوبر.

لم تتوقف الإثارة عند هذا الحد؛ فقد بدأ أعضاء المعبد يتلقَّون رسائل اختطاف، زعَم فيها المُرسِلون أنهم اختطفوا إيلاي بملابس السباحة الخضراء وخبَّئوه، وتُطالِبهم بدفع فديةٍ قَدْرها نصف مليون دولار من أجل إطلاق سراحه! كان الموقف بعيدًا عن التصديق. واحتار جميع سكان إنجِل سيتي فيما يفعلونه. وتساءلوا هل اختُطف النبي حقًّا؟ أم أنه يسيح في الأرض بصحبة الآنسة المجهولة، كما أشارت الصحف إلى المرأة التي كانت تَعتَني بالأردية المقدَّسة في السابق؟ المضحك في هذه الفضيحة أن العُشَّاق الشباب الذين كانوا يذهبون في مغامرات حُبٍّ بسياراتهم — وهي تسليةُ الأغنياء المفضَّلة — وجدوا أنفسَهم في موقف حرجٍ؛ فقد كان مراسلو الصحف ومسئولو الشرطة يبحثون عن إيلاي والآنسة المجهولة في جميع أنحاء البلاد، والويل الويل لأي رجلٍ أشقر يُسجِّل الدخول في فندق من الفنادق مع فتاة، دون أن يكون معه ما يُثبت زواجهما!

جاءت لحظة النهاية في نهاية المطاف، وأثارت ضجةً كبيرة وصلَت إلى باريس بالبرق، ووفَّرَت على الأب ذلك الانتظار المُمِل. فبعد اختفاء إيلاي بخمسة وثلاثين يومًا، رأى بعضُ الصيادين في أثناء تجديفهم بالقارب في المَرْسى، على بُعد عدة مئات الأميال من إنجِل سيتي؛ رجلًا يسبَح باتجاه البحر، فانتشلوه من الماء، وللمفاجأة كان رجلًا طويلًا أشقرَ الشعر يرتدي ثياب سباحةٍ خضراء؛ باختصار كان هو النبي المفقود! حكى الرجل أنه بعدما حملَه الماء إلى البحر الواسع، دعا الرب ليُنقِذه، فاستجاب لدعائه، وأرسل ثلاثة ملائكة لإبقائه على سطح الماء. كان اسم أحد هؤلاء الملائكة هو ستيف، أما الملاك الثاني فكان أنثى اسمها روزي، والثالث كان ملاكًا مكسيكيًّا اسمه فيليبي. تناوَب هؤلاء الثلاثة على إمساك حمالتَي كتف ثوبه الأخضر، وعندما كان يُغشى عليه من الجوع، كان أحدهم يطير ويُحضِر له طعامًا. حافَظوا على بقائه بسلامٍ في الماء حتى في أثناء نومه. وقضى إيلاي هذه المدة، المقدَّرة بخمسة وثلاثين يومًا، بين السباحة والنوم. بعد ذلك أتى الشيطان، بأجنحةٍ من اللهب، وطرَد الملائكة الصالحين، وربط يدَيه خلف ظهره، حتى كاد يموت غرقًا. لكنه دعا الرب، فحملَته الملائكة إلى علبةٍ قديمةٍ صدئة، وحَرَصوا على بقائها في مكانها حتى حكَّ وثاقَه بأطرافها الحادَّة، وقطعَه، وعاد يُواصِل السباحة من جديد.

هكذا رجع النبي من مغامرته سالمًا، وبعدما وصل إلى الشاطئ وحصَل على بعض الثياب، هُرِع إليه المراسلون على عَجل؛ إذ لا تقع معجزاتٌ كثيرة في هذه الأيام المليئة بالتشكيك، وما حدَث معجزةٌ قطعًا لا تحتمل الشك. احتشدَت الجماهير الغفيرة حول النبي، يُنشِدون هوشعنا وينثُرون الزهور في طريقه، وعندما عاد إلى إنجِل سيتي، أثار ضجةً لا توصف؛ إذ اجتمع خمسون ألفَ شخصٍ في محطة السكة الحديدية لاستقباله في حفاوةٍ لم يحظَ بها أعظم نجوم السينما. وعندما وصل إلى المعبد، جثا أتباعه على ركبهم وبكَوا من فَرْط الفرحة؛ لأن الرب استجاب لصلواتهم وردَّ إليهم نبيهم، وامتلأَت القاعة عن آخرها بالأتباع ست مراتٍ يوميًّا، وامتلأَت الحديقة المحيطة بالمعبد بالوافدين، وحملَت مكبرات الصوت الكثيرة صوت إيلاي الهادر، فخرَّ الرجال والنساء ساجدين هاتفين: «سَبِّحوا الرب!»

بالطبع كان هناك متشككون، أناسٌ عشَّش الشيطان في قلوبهم، رفضوا تصديق قصة إيلاي، وتحدَّثوا بلا توقف عن السيارة الزرقاء التي كانت تقودها فتاةٌ حسنة المظهر، ويجلس في المقعد بجوارها رجلٌ لا يكاد يظهر منه شيء إلا نظارتُه الواقية. وتحدَّثوا عن التوقيعات في سِجلَّات النزلاء، والخبراء في خطوط اليد، وغير ذلك من الأمور الفاحشة، لكن لم يشكِّل ذلك فارقًا عند العبَّاد المتحمسين، الذين امتلأ بهم المعبد ليلَ نهارَ، مثلما لم يحدُث من قبلُ في تاريخ الأديان. حكى إيلاي قصته، التي كانت مليئةً بالتفاصيل المقنعة للغاية، مرارًا وتكرارًا، حتى إنه وصف رفرفة أجنحة الملائكة، وأنها كانت تنثُر الماء على وجهه في بعض الأحيان، كما نقل حديث الملائكة معه بدقةٍ متناهية. وسأل هل يعجز الرب الذي أبقى يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام، وجعل أتون النار المتقدة بردًا وسلامًا على حننيا وميشائيل وعزريا، عن إبقاء إيلاي واتكينز طافيًا على سطح البحر؟ بالتأكيد لم يستطع أحدٌ إجابة سؤاله.

بعد ذلك، وقعَت حادثةٌ أخمدَت كل الشكوك، وأتمَّت عظمة الوحي الثالث. فعندما كان إيلاي ينظر داخل ثوب السباحة الأخضر، بسبيل المصادفة، عثَر على ريشةٍ لونُها أبيض بياض الثلج! بالطبع، تعرَّف عليها؛ إذ هي الدليل على صدق قصته، وقد تُركَت هناك برحمة الرب! أعلن إيلاي عن المعجزة الجديدة، وعلَت أصوات العبَّاد بالهوشعنا، وسرعان ما وُضعَت الريشة في علبةٍ زجاجية، وثُبِّتَت خلف المكان الذي يخطب فيه، علامةً على رحمة الرب، وهي تَشفي الناظر إليها من جميع الأسقام وتُطهِّره من جميع الذنوب، ولو كان ذنبًا مميتًا مثل الزنا!

الفصل التاسع عشر

العقوبة

١

دخلَت اللوحات الإعلانية في شوارع باريس في فورةٍ من الحماس الواسع الانتشار، وقد كُتِب عليها: «تقدَّم شمولسكي-سوبربا النجمة الأمريكية فيولا تريسي في فيلم «الطبقة الذهبية»، وهي ميلودراما سينمائية من إنتاج الشركة من ثماني بكرات.» وأعلنَت صفحات الصحف أن هذا هو «العرض الأول في قارة أوروبا» — كان شمولسكي يُبلي بلاءً حسنًا. وجاءت «النجمة» بنفسها من كاليفورنيا، وذهب باني بالسيارة إلى هافر لاستقبالها، ويا لها من لحظة! كم كانا سعيدَين؛ فبعد أن تجاوزا الخلافات القديمة، أصبحا بصدَد قضاء شهر عسلٍ ثانٍ. أوصلَها باني إلى باريس — بل إلى مكان بالقرب من باريس — إذ كان عليها ركوب قطار خارج المدينة، ثم دخولها وفقًا للجدول المُحَدَّد في الصحف. كان المشهد مليئًا بالآلاف من المتفرجين المتحمسين والكاميرات والمراسلين، وفيهم أولئك المكلفون بإرسال برقياتٍ تتضمَّن الأخبار المثيرة إلى نيويورك وإنجِل سيتي.

أصبح العالم قريةً صغيرة، وشركة «سينما ميلودراميه دي لا سوسيتيه» هي التي تتولى هذه المهمة — مما يجعل العالم أكثر أمريكية. فقد كان العرض الأول هنا في باريس هو نفسه العرض الأول في هوليوود، باستثناء أن الجمهور في هوليوود كان أكثر حماسًا، وأرادوا معانقة نجمتهم المفضَّلة بحرارة، لدرجة أن ذلك كان في الواقع خطرًا على النجمة. وثمَّة سببٌ إضافي للإثارة وهو أنَّ الرجل الذي لعب الدور الرئيسي لم يكن ممثِّل أفلام عاديًّا، بل كان أميرًا حقيقيًّا من رومانيا، كان يزور جنوب كاليفورنيا، وقرَّر أن يصبح نجمًا سينمائيًّا لليلةٍ واحدة بفضل إقناع شمولسكي. والآن أصبح هنا شخصيًّا، في طريق عودته إلى رومانيا — بعد أن سافر في القطار والباخرة مع فِي، حسبما عَلِم باني. كان شابًّا طويل القامة ونحيفًا، ولم يكن شديدَ الوسامة، لكنه اعتاد لَفْت الانتباه، وكان

مهذبًا، ولكنه كان يشعُر بالملل بسهولة، وغالبًا ما تظهر على شفتَيه ابتسامةٌ فضولية، وكان يتجنَّب المحادثات الجادة — حتى سمع باني يعبِّر عن تعاطفه مع الحُمْر الدمويين الكافرين! فأصبح يُفَضِّل قضاء الوقت مع شقيقة باني.

وبعد انتهاء العرض الأول في باريس، اشترى له الأب سيارةً مكشوفةً كبيرة جدًّا، وتوجَّهوا إلى برلين، كان باني هو من يقود السيارة، وجلسَت فِي بجانبه، وجلس الأب في المقعد الخلفي مع سكرتيره، وكان معهم أيضًا سائق للطوارئ. كانت الرحلة رائعةً مثل رحلتهم إلى نيويورك؛ إذ كانت الطرق ممهدة، والمناظر الطبيعية خلابة، وكان الفلاحون البسطاء يقفون لتحيتهم باحترامٍ وإجلال، وكلَّما توقَّفَت السيارة، هُرِع الخدم لتنفيذ طلباتهم. إن أوروبا بأكملها مَدينةٌ لنا بالمال، وهذه طريقتهم في سداد الدَّيْن.

ثم وصَلوا إلى برلين؛ حيث وجدوا اللوحات الإعلانية: «العرض الأول في ألمانيا، تحت رعاية شركة شمولسكي-سوبربا» وهكذا. ووُجِدَت أيضًا الحشود الضخمة والكاميرات والمراسلون — أصبح العالم كله قريةً صغيرة. فقبل ست سنواتٍ فقط، كانت هذه الدولة تُعتبَر دولةً عدوة، ولكن هل عسكر أي جنديٍّ سابق بزيه العسكري عند مدخل المسرح، ومنع الأفلام الأمريكية من وضع معاييرَ عالية جدًّا للأفلام المحلية؟ لم يفعل أحدٌ ذلك، وابتسم باني وهو يتذكر محادثته مع شمولسكي عندما قال له: «وا أسفاه على المنهزمين!» فردَّ شمولسكي قائلًا: «هاه؟»

وواصلوا رحلتهم إلى فيينا. وهي مدينةٌ فقيرة هذه الأيام، وبالكاد تغطي عائدات الفيلم فيها تكاليف إعلاناته، ومع ذلك، لا يزال اسم المدينة يحمل بعض السحر الخاص، وله أهميةٌ كبيرة في الصحف. لذلك، أُقيم أيضًا في فيينا عرضٌ أول، أقل ضجيجًا ولكن أكثر ودية. ثم بدأَت فِي وحبيبها يشعُران بالملل قليلًا في هذه المرحلة؛ لقد استمتعَت بالفعل بكافة أشكال الإثارة والتشويق التي يمكن أن تقدمها الحياة. فعندما يقوم نجمٌ مشهور بجولةٍ في جميع أنحاء القارة، ويبدأ الملل يتسلَّل إليه، فإنه يصبح مثل شخصٍ طاعن في السن لم يعُد ينبهر بالأشياء بسهولة، شخص يَشْعُر بالملل ولا يعبأ بشيء، لم تَعُد الحياة بالنسبة له سوى سلسلةٍ من الأحداث الروتينية المُتعاقبة.

أما الشخص الذي كان لديه إحساسٌ دائمٌ بالانبهار الطفولي، فهو الأب. فقد استمتع بكل عرضٍ أول للفيلم كما لو كان المرة الأولى التي يشاهده فيها، حتى إنه أراد مواصلة الرحلة إلى بوخارست؛ حيث كانت جلالة الملكة — التي تمتلك عبقريةً في الدعاية — ستذهب إلى أول عرضٍ سينمائي على شرف الأمير ماريسكو. ولكنَّ شيئًا آخر أبقى الأب

في فيينا؛ لقد تبعَته الأشباح! كانت صديقتُه السيدة أوليفييه قد أعطته رسالةً إلى وسيطٍ رائع، وذهبوا إلى جلسة تحضير أرواح، وخلالها، علمَت فِي بأمر بائع الأدوية المُسجَّلة الذي رباها في عربة؛ استخدم الوسيط الكلمات نفسها التي استخدمها هذا الرجل لجذب الجمهور. رائع! إذا كانت هذه خدعة، فهي بالطبع خدعةٌ بارعة جدًّا!

٢

خلال شهر العسل الثاني هذا، كان لدى باني اهتمامٌ واحد، احتفظ به لنفسه. ففي كلٍّ من برلين وفيينا، كانت هناك صحفٌ للشباب، وشعَر أن من واجبه زيارةَ مقرَّات هذه الصحف، ودعوة المحرِّرين المتمردين لتناول الغداء، وإرسال رسائل إلى الديار لتنشرها رايتشل. في فيينا، كانت هناك صحيفةٌ تُنشَر باللغة الإنجليزية مهمتها دعم السجناء السياسيين، وكانت صحيفةً شيوعية، لكن باني لم يدرك ذلك؛ إذ كانت تعمل تحت ستار، وعلى أي حال فقد أراد مقابلة محرِّريها. كان يبذل قصارى جهده لفَهْم كلا الجانبَين — حتى هنا في أوروبا الوسطى؛ حيث كان الاشتراكيون والشيوعيون في كثيرٍ من الأحيان في صراعٍ صريح.

في مكتبٍ سرِّي يقع في حيٍّ للطبقة العاملة في المدينة، عاش باني تجربةً مروعة. رأى شخصًا كان ذات يوم شابًّا، ولكنه الآن لا يزيد كثيرًا عن مجرد هيكلٍ عظمي مُغطًّى بجلدٍ أصفرَ مُخضَر. لم يكن لهذا الشخص سوى عينٍ واحدة وأذنٍ واحدة، وكان عاجزًا عن الكلام بسبب استئصال لسانه أو قطعه، ومعظم أسنانه الأمامية مخلوعة، ووجنتاه مثقوبتان من أثَر حروق السجائر. أما أظافره فقد كانت منزوعة، وكانت يداه مثقوبتَين من الحروق، وخلع الرجال في المكتب قميصه؛ ليكشفوا لباني كيف تَمزَّق جسدُه بفعل الجَلْد الذي تعرَّض له في أماكنَ متفرقةٍ من جسده، ما جعل جسدَه يُشبه لوحات التظليل المتقاطع بالقلم والحبر.

كان هذا الشخص سجينًا هاربًا من أحد السجون الرومانية، وهذه الندوب تُمثل العقوبة التي تلقاها نتيجة لرفضه خيانة رفاقه لصالح الإرهاب الأبيض. وهنا في هذا المكتب كانت هناك صور ورسائل وشهادات للضحايا؛ إذ كان الآلاف من الرجال والنساء في رومانيا يتعرَّضون لمثل هذه المعاملة. والسبب هو أن الحكومة كانت تحت سيطرة أفراد الطبقة الحاكمة الفاسدة، الذين كانوا يسرقون الأخضر واليابس، ويبيعون الموارد الطبيعية للدولة، وفي الآونة الأخيرة، قاموا بتأجير أحد أكبر حقول النفط في رومانيا

لمجموعةٍ من المستثمرين الأمريكيين، هل يمكن أن يكون الرفيق روس على درايةٍ بذلك؟ أكد الرفيق روس أنه سمع بالأمر. ولكنه لم يَذْكُر أن والده كان متورطًا في الصفقة!

كان ضحية الإرهاب الأبيض هذا من بيسارابيا، وهي مقاطعة أُخذَت من روسيا بموجب مبدأ تقرير المصير المُبارك. وكانت بيسارابيا موطنًا للفلاحين الروس، وعندما حاول هؤلاء الفلاحون بطبيعة الحال الحصول على حريتهم، تعرَّضوا للقتل أو التعذيب حتى الموت، ولم يحدُث ذلك للمتمردين فحسب، بل لأي شخص يُظهر تعاطفًا تجاه التمرد. ولم يكن الحال هكذا في مناطقَ متفرقةٍ من روسيا، بل كان كذلك في كل مكانٍ فيها، وهي التي تمتد لمسافة ألف ميل من بحر البلطيق إلى البحر الأسود. فقد أُخذَت كل هذه المقاطعات والمناطق، التي يعيش فيها الفلاحون الروس من الحُمر، وتم إعطاؤها للبيض. لذا، كان الوضع كالتالي: على الجانب الشرقي، امتلك الفلاحون الأراضي وكان لهم دور في عمليات اتخاذ القرار في الحكومة، وكانوا يتمتعون بالحرية ويخلقون مجتمعًا للعمال؛ وعلى الجانب الغربي، عاش الفلاحون أقنانًا تحت رحمة مُلاك الأراضي، يُسلَبون ثمرة جهودهم المضنية، ويُضرَبون أو يُقتَّلون إذا نطقَت شفاههم بكلمة شكوى. وكان من المستحيل منع الفلاحين من العبور إلى الجانب الآخر، وكان الفرق بين طريقتَي الحياة واضحًا جدًّا لدرجة أنه حتى الطفل يمكنه ملاحظته. وأدى ذلك إلى استمرار الصراع الطبقي، وإلى حربٍ أهلية ضَرُوس لم يُسمَح لأحدٍ بالحديث عنها للعالم الخارجي.

لو كان ملاك الأراضي الأغنياء هؤلاء بمفردهم، لَمَا استمرُّوا لسنة. لكنهم حصلوا على دعم من رأس المال العالمي؛ تَمَثَّل هذا الدعم في الأسلحة التي يحتاجونها لأعمال العنف، أو المال للحصول على تلك الأسلحة، من الشركات الأمريكية الكبرى. نعم، لقد كانت أمريكا بالفعل هي التي دعمَت هذا الإرهاب الأبيض؛ من أجل مراكمةِ فوائد القروض واغتنامِ الفُرص لشراء الأصول داخل البلاد؛ السكك الحديدية والمناجم وحقول النفط، وحتى القلاع الضخمة والملكيات العقارية. ألن يُخبر الرفيق روس الشعب الأمريكي بالأشياء الفظيعة التي أُنفِقَت عليها أمواله؟

غادر باني وثمَّة تساؤل يكدِّر ضميره. هل يكشف الحقيقة أم يبقيها سرًّا؟ هل يبدأ بإخبار حبيبته عما اكتشفه عن العالم؟ هل يُخبرها أن الأمير الشاب ماريسكو، الذي أُعجبَت به كثيرًا، هو ابن أحد أكثر أعضاء الطبقة العليا الحاكمة دموية؟

بينما كان باني يصطحب حبيبته بالسيارة عَبْر الممرات المتعرجة، وسط الجبال المُغطاة بالجليد في سويسرا، لم يشعر بالسعادة التي كان من المفترض أن يشعر بها. فقد

كان يغرق في أفكاره لفتراتٍ طويلة، وعندما كانت بِي تسأله عما يشغل باله، كان يتجنَّب الإجابة. لكنها كانت ذكيةً مثل غالبية النساء عندما يتعلق الأمر بأمور الحب، وكانت تُحاصِره بأسئلتها. فسألَته: «هل يتعلق الأمر بالحمر الذين كنت تلتقي بهم؟» فأجابها: «نعم يا عزيزتي، ولكن دعينا لا نتكلَّم في هذا الموضوع لأنه لن يؤثِّر علينا مطلقًا.» فأجابت بنبرةٍ تشاؤمية: «سيكون له تأثيرٌ كبير علينا!»

٣

وفي باريس، كانت هناك رسائلُ مستفيضة من فيرن؛ فقد أقامت الحكومة دعوى لاستعادة الأراضي النفطية، وأصبحَت منطقة ساني سايد الآن تحت سيطرة شخص تم تعيينه لإدارة شئونها؛ لذلك توقفَت كل أعمال التطوير. لكن قيل لهم ألَّا يقلقوا؛ لأنه سيتمُّ إعطاء مجموعتهم امتيازاتٍ خارجيةً مختلفة، أما فيما يتعلق بالمال، فإن الدخل الذي كانوا يتلقَّونه من بارادايس سيؤمِّن لهم مستقبلهم المادي عند تقدُّمهم في السن.

ومن الغريب أن الأب لم يكن يبدو عليه القلق. فقد تعرَّفَت السيدة أوليفييه على وسيطةٍ روحانيةٍ جديدة، كانت حتى أكثر براعة من الوسطاء الذين قابلوهم من قبلُ؛ إذ تمكَّنَت هذه الفلاحة البولندية، التي تعاني من الصرَع ومن مشاكلَ في أسنانها، من التواصل من خلال أعماق الوعي الكوني مع روح جد الأب، الذي عبَر القارة في عربةٍ مُغطَّاة وتُوفي في صحراء موهافي؛ كما تواصلَت أيضًا مع روح زعيمٍ هندي قُتِل على يد هذا الرائد القديم أثناء هذه الرحلة. لقد كان آسرًا للغاية سماعُ هذَين المحاربَين يرويان أحداثًا من الصراعات المبكرة بين الحمر والبيض!

كانت بيرتي حَنِقةً بالطبع، لكنها لم تستطع أن تقول شيئًا للأب؛ إذ إنه كان لا يزال الرئيس وقد يوبِّخها. لذا، نفَّسَت عن غضبها بتوبيخ باني؛ لأنه هو مَن كان يستطيع حماية الأب من هذه المرأة الخَطِرة، لكنه لم يفعل. فلم يستطع باني إلا أن يضحك؛ لأن السيدة أوليفييه لم تكن المرأة التي صوَّرها مخرجو هوليوود؛ كانت عجوزًا وممتلئةً بعض الشيء، وكانت لطيفةً وعاطفية، ولها صوتٌ ناعم ومريح؛ كان من المضحك جدًّا سماعُها تتحدث بحنان إلى الزعيم الهندي الشرس والغاضب، متسائلة: «الآن، أيها «الذئب الأحمر تحت المطر»، هل ستكون لطيفًا معنا الليلة؟ نحن سعداءُ جدًّا لسماعِ صوتكَ مرةً أخرى! إن حفيد الكابتن روس الصغير موجودٌ هنا ويريد أن يعرف ما إذا كانت وجوهُ الحُمر بيضاء في عالمكم البهيج.»

كان باني يصطحب ﭬِي لرؤية باريس، المدينة التي كانت تُظهِر للعالم الانحدار الأخلاقي للإمبريالية الرأسمالية. فعلى مسارح هذا المركز الثقافي، يمكنك مشاهدة عددٍ كبير من النساء العاريات، أجسادهن مطلية بجميع ألوان قوس قُزح، حتى إن بعضهن مُتْنَ بتسمُّم تسببت فيه هذه الألوان، لكن في الوقت نفسه، كانت الحرب من أجل الديمقراطية تحظى بالدعم. فأثناء وجود باني في المدينة، انزعج الفنانون هناك لأن مديري مترو الأنفاق اعترضوا على أحد الإعلانات المبتذلة، واحتجاجًا على الرقابة، خلع بضع مئات من الرجال والنساء ملابسهم خلال حفلات الخمر، ودخلوا وقت الفجر إلى عربات مترو الأنفاق عراةً تمامًا. قام صانعو الجمال ومرشدو المستقبل هؤلاء بتنظيم مهرجانٍ سنوي يُسمَّى حفلة الفنون الأربعة، وهي مناسبةٌ معروفة، دُعِيَت ﭬِي إليها، كونها فنانة زائرة، وهنا، بينما تسير الاحتفالات على قدم وساق، كان بإمكانك التجول في قاعةٍ كبيرة ومشاهدة التصوير الحي لجميع أنواع السلوكيات غير العادية وغير الأخلاقية، التي ابتكَرها الأشخاص ذوو العقول المنحطة على منصَّات مقابل الجدران.

وفي أوقات فراغه، كان باني يكتب مقالًا لصحيفة «الطالب الشاب»، كان بمثابة صرخة احتجاج ضد الإرهاب الأبيض الروماني. وقد كان على وشك الانتهاء من المقال عندما تركَه على طاولة الكتابة في غرفته بالفندق، وعندما عاد، لم يجد المقال، ولم يُسفِر سؤال موظفي الفندق عن أي إجابات. وبعد يومَين، جاءت إليه بيرتي وكانت غاضبة مجددًا؛ فقد عرفَت ما تضمَّنه المقال، وعبَّرَت عن استيائها من العار الذي سوف يُلحِقه بهم! تعجَّب باني، وهو على وَشْك الانفجار غضبًا هو الآخر، قائلًا: «إذن فقد أرسل إلدون جواسيسَ خلفي!» لكن بيرتي قالت إن ما يقوله هُراء وإن إلدون ليس له دخلٌ بهذا الموضوع؛ فقد كان الفاعل هو الاستخبارات الفرنسية. هل تخيَّل للحظةٍ أن الحكومة لا تراقب الدعاية البلشفية؟ هل كان يظُن أن الحكومة ستسمح له باستخدام البلاد قاعدةً للتآمر على سلام أوروبا؟

وتساءل باني عما إذا كانوا حمقى ليتصوَّروا أن بإمكانهم منعه من مشاركة ما اكتشَفه في فيينا مع الناس في وطنه؟ سوف يعيد كتابة المقال وسيجد طرقًا لإرساله إلى أمريكا رغم كل الجواسيس. عندئذٍ انهارت بيرتي وأجهشَت في البكاء؛ لم تصدق أن باني اختار رومانيا من بين جميع الدول! فقد كانت تعمل في الخفاء لتأمين منصبٍ دبلوماسي رفيع لإلدون، مستغلةً نفوذَ فيرن في واشنطن ونفوذَ الأمير ماريسكو في بوخارست، والآن، أتَتْ تصرُّفات باني لتُشوِّه سمعتهم!

وثمَّة شيءٌ آخر! ألم يستطع باني، ذلك الأحمق الأعمى البصيرة، أن يرى أن ماريسكو منجذبٌ إلى فِي؟ هل كان يريد تركها له؟ فبالطبع سيعلم الأمير بهذا الأمر عن طريق الحكومة الفرنسية، التي كانت تسلِّح رومانيا ضد روسيا. ماذا لو عاد إلى باريس وتحدَّى باني في مبارزة؟ فأجاب الشاب المتحذلق: «سنخوض مبارزةً بمضارب التنس!»

٤

وصلَت الأمور إلى ذروتها. فقد تلقَّى باني خطابًا عليه طابعُ بريدٍ فرنسي، ومكتوبًا بخطِّ يدٍ مألوفٍ له جعل قلبه يخفق. ففتحه وقرأ: «ولدي العزيز، أنا في المدينة لبضعة أيام، فهل ترغب في لقائي؟ المخلص للأيام الخوالي، بول واتكينز.»

تَذَكَّر باني، البالغ من العمر الآن أربعةً وعشرين عامًا، عندما كان في الفِناء الخلفي لمنزل السيدة جرورتي منذ أحد عشر عامًا حينما ترك والده، وهو يجري وينادي: «بول! بول! أين أنت؟ أرجوك لا تغادر!» وعلى الرغم من أنه كان من المقرَّر أن يقابل فِي، فإنه ألغى الموعد، وستَدْعوها أختُه إلى إحدى حفلات الشاي الدبلوماسية حيث تقابل الأمراء والدوقات. ثم هُرع باني إلى الفندق المنعزل الذي كان يقيم فيه صديقه.

بدا بول هزيلًا؛ فلا أحد يذهب إلى موسكو لاكتساب الوزن. لكن وجهَه الجاد كان يشعُّ حماسةً شديدة — وهي نفس الحماسة التي وصفَها أخوه إيلاي بالنور الإلهي! ربما كان الأب سيقول إن كلا الأخوَين مخبولان بالقدر نفسه، لكن باني لم يرَ الأمر بهذه الطريقة؛ فقد سخر من إله إيلاي، لكنه آمن بإله بول، على الأقل بدرجةٍ كافية تجعله يرتعد في حضرته. كان بول يعيش مرةً أخرى في ظل حكومةٍ تديرها الطبقة العاملة، ولكن هذه المرة لم يكن عبدًا بالأجرة، ولا عاملًا بديلًا يرتدي الزي العسكري، وإنما رجلٌ حر، سيد المستقبل. إذن، في غرفة الفندق القذرة هذه، جلس باني مقابل أحد الحواريين، بول، بملامحه الحازمة المتجهمة وجسده المعتاد على الكدح؛ كان بول التجسيد الحقيقي لمناصر الطبقة العاملة المتفاني!

وكانت جميع المعجزات التي سيُشاركها حقيقية. أولًا، حدثَت معجزة روحية؛ إذ دافع مائة مليون شخص عن سيادتهم وسقط الحكام والمستغلون، بمن فيهم الملوك والكهنة والرأسماليون، وكل هؤلاء الطفيليين. لقد كانت أيضًا معجزةً مادية لأن هؤلاء المائة مليون شخص تحكَّموا في منطقةٍ شاسعة، تُعادِل سدس مساحة العالم، وكانوا يبنون حضارةً

جديدة؛ لتكون نموذجًا يُحتذى به لمن سيأتون بعدهم. لقد كانوا فقراء، بالطبع؛ إذ بدءوا العمل في حُطام دولة. ولكن ما أهمية بضع سنوات، وقليلٍ من الجوع، مقارنةً بدهور من المعاناة التي تحمَّلوها؟

وصف بول ما رآه في موسكو. أولًا، حركة الشباب؛ إذ تعلَّم جيلٌ جديدٌ بالكامل أن يكون حرًّا وثاقب الفكر، لمواجهة حقائق الطبيعة وخدمة الطبقة العاملة بدلًا من استغلالها وتكوين مجموعةٍ من الطفيليين! كان من الممكن رؤية هؤلاء الشيوعيين الشباب في الفصول الدراسية، وفي الملاعب الرياضية، وفي الشوارع، وهم يسيرون ويغنُّون ويسمعون الخطب، وقد خاطب بول نفسُه عشرات الآلاف منهم، مستخدمًا لغته الروسية المحدودة، وكانت تلك أهم تجربةٍ في حياته. ومنذ تلك اللحظة، لم يعُد لديه سوى مهمةٍ واحدة لما تبقَّى من حياته، وهي مشاركة قصة العمال الشباب في روسيا مع العمال الشباب في أمريكا. وبدأ بمشاركتها مع باني!

وتحدَّث عن الاجتماعات التي حضرها، والتجمُّعات الدولية التي نُوقشَت فيها الخطط المستقبلية للأحزاب السياسية في العالم. وبالطبع أعرب باني عن اعتراضه على هذا الأمر. هل كان بول يعتقد حقًّا أنه من الممكن لحزبٍ سياسيٍّ أمريكي أن يُحدِّد مساره في دولة أجنبية؟ فابتسم بول واعترف بأن الأمر صعب؛ إذ لم يتمكَّن القادة الروس من فَهْم مدى تخلُّف أمريكا من الناحية التاريخية. ولكن ماذا كان البديل؟ هل يرغبون حقًّا في نظامٍ عالمي أم لا؟ وإذا سمحوا لحزب كل دولة بتحديد مساره الخاص، فسوف تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب؛ حيث يُطلِق بعض الأفراد على أنفسهم الاشتراكيين، ويتولَّون السلطة باسم الاشتراكية، ولكنهم في الحقيقة وطنيون مستعدُّون لدَعْم المستغلين في بلادهم في حروبهم ضد المستغلين من بلدانٍ أخرى.

كان هذا ما يُشكِّل تهديدًا للإنسانية، وكان الحل الوحيد هو اتباع مسار الأممية الثالثة؛ أي تكوين حكومةٍ عالمية والتأكُّد من اتباع توجيهاتها. كان المقر الرئيسي للحكومة العمالية العالمية في موسكو؛ لأنه في أي مكان آخر، سيُسجَن المندوبون أو يُغتالون، كما حدث في جنيف. ولكن، قبل مرور عدة سنوات، ستعقد الأممية الثالثة مؤتمرًا في برلين، ثم في باريس ولندن، وفي نهاية المطاف في نيويورك. سيحضُر ممثلون عن العمال من جميع أنحاء العالم، وسيُصدِر هذا المؤتمر توجيهاته؛ لإجبار الدول على وقف صراعاتها، ذلك مؤكَّد! هذا ما اعتقَدَه بول، وكالعادة، انجرف معه باني في موجة الحماس.

٥

كان هناك الكثير من الأشياء التي أراد باني أن يعرفها. فاصطحب بول لتناول العشاء في مقهًى مفتوح، واتباعًا للتقاليد الفرنسية، أمضَيا معظم المساء في المقهى يتسامران. تحدَّث بول عن المدارس، وعن أحدث التطوُّرات في مجال التعليم التي بدأَت في أمريكا ولا يمكن تطبيقها إلا في روسيا. كما تحدَّث عن الأوراق البحثية والكتب، وترجمة كتابات الكتَّاب المعاصرين والتقدُّميين ونَشْر أعمالهم في نصف القارتَين. وتحدَّث أيضًا عن الصناعة، والجهود الهائلة التي يبذلها الناس لبناء عالمٍ حديث من الصفر، دون رأسِ مال أو مساعدةٍ خارجية. ووصَف بول صناعة النفط في ظل النظام السوفييتي هذا بأنها منظمةٌ خاضعة للحكومة معترَف فيها بنقابات العمال، ويُمنح العمال فيها الفرصة لإبداء رأيهم في شئون العمل. كما نشَر العمال أوراقهم البحثية الخاصة، وكوَّنوا أنديةً ومجموعاتٍ تُشارك في الأنشطة المتعلقة بالدراما، وزرعوا ثقافةً جديدة تتمحور حول الصناعة بدلًا من الاستغلال.

ثم، بالطبع، سأله باني عن روث، وعن اعتقاله، ومحاكمته، وعما ينوي فعله في الوقت الحالي. كان بول في طريق عودته إلى أمريكا، ومن المحتمل أن يتم تكليفه بتنظيم الأنشطة في كاليفورنيا؛ لأنه كان على درايةٍ كبيرة بالمنطقة. كان قد عقَد اجتماعاتٍ سريةً مع العمال في بارادايس حتى افتُضِح أمره في النهاية، وطُرد من المنطقة التي وُلد وعاش فيها معظم حياته تقريبًا! لكن لا بأس من ذلك لأن الحزب أنشأ «نواة»، كما يُطلِقون عليها، في المنطقة، وكانت الكُتيبات تُوزَّع هناك وتُقرأ.

أخبره باني عن تجاربه في فيينا، وكيف أن مقاله عن رومانيا قد سُرِق، فقال بول إنه في كل عاصمةٍ أوروبية يُوجد جواسيسُ عددهم أكثر من عدد القمل. ومن المحتمل جدًّا أن يكون هناك عميلٌ يجلس على إحدى الطاولات القريبة، ويحاول التنصُّت على محادثتهما. كانت أمتعة بول تُفَتَّش كل بضعة أيام. فقد كانت الحكومات الحمقاء تحاول قمع الحركة العمالية، وفي الوقت نفسه تكدِّس الأسلحة استعدادًا للحرب المرتقبة، التي من شأنها أن تجعل صعود البلشفية أمرًا حتميًّا كشروق الشمس!

«هل تعتقد حقًّا أنه ستكون هناك حربٌ أخرى يا بول؟»

فضحك بول. وقال: «اسأل صهرَك الموقَّر! فهو يعلم.»

«لكنه لن يخبرني. فنحن لا نكاد نتبادل حديثًا.»

فأجاب بول بأن امتلاك الأسلحة يؤدي تلقائيًّا إلى إشعال الحروب؛ لأن الرأسماليين الذين يصنعونها يحتاجون إلى التأكد من استخدامها لكسب المزيد من المال؛ ومن ثَمَّ صُنع المزيد منها. فأعرب باني عن رعبه من فكرة قيام حربٍ أخرى، فأجاب بول قائلًا: «إذن لا تفكِّر في الأمر؛ فإن ذلك يجعل من السهل على رجال الأعمال إعداد العدة لها.»

وبعد لحظة من التأمل، تابع بول قائلًا: «أثناء سفري في أوروبا، وجدتُ نفسي أفكِّر في تلك الليلة التي التقينا فيها أنا وأنت لأول مرة. هل تتذكَّر ذلك يا بني؟»

عندما قال باني إنه يتذكَّر، تابع بول: «لم أكن داخل غرفة معيشة عمتي، ولم أشاهد هؤلاء الأشخاص الذين أتَوا لاستئجار قطع الأراضي الخاصة بنا، لكنني تنصَّتُّ من الخارج وسمعتُ الشجار، والآن، بينما أسافر حول أوروبا، أقول لنفسي إن هذه هي الدبلوماسية العالمية. شجار حول رخصةٍ للتنقيب عن النفط! فكل دولة تكره الدولة الأخرى، وتشكِّل تحالفات وتتعهَّد بالولاء، لكن الدول يخون بعضها بعضًا قبل حلول الليل، وليس هناك كذبةٌ لم ينطق بها حُكامها ولا جريمة لم يرتكبوها. هل تتذكَّر هذا الشجار؟»

تذكَّر باني تلك الليلة جيدًا! تذكَّر الآنسة سنيب، التي لم يكن يعرف اسمها، ولكن تبادَر إلى ذهنه وجهها المُحمَر من الغضب. «دعني أؤكِّد لك، لن تجبرني أبدًا على التوقيع على تلك الورقة، ولا حتى بعد مليون عام!» وكان هناك السيد هانك، الرجل ذو التعبير الصارم، وهو يصرخ: «دعيني أؤكد لكِ، القانون سيجبركِ على التوقيع عليها»؛ الفرق هو أنه لا يُوجد قانون في الدبلوماسية الأوروبية! وأيضًا كانت هناك السيدة جرورتي، عمة بول، تَحدجُ السيد هانك بغضَبٍ وتُطبِق قبضتَها كما لو كانت تخنقُه. «لقد كنتَ أنتَ من يصرخ من أجل حقوق أصحاب الأراضي الصغيرة! وكنتَ من ينادي بالحصول على حصصٍ متساوية؛ يا لك من لئيم!»

قال بول: «لقد أعمى الجشع بصيرتهم، لدرجة أنهم كانوا على استعدادٍ للتضحية بفرصهم الخاصة لمجرد الانتصار على الآخرين. لقد فعلوا ذلك بالضبط، وأظن أنك قلتَ لي إنهم تخلَّوا عن عقد الإيجار مع والدك. والجميع في الحقل فعلوا الشيء نفسه. لا أعرف إذا كنتَ تعلم عن البيانات الحكومية الخاصة بحقل بروسبكت هل؛ الأموال التي أُنفِقَت في حفره أكثر من إجمالي الأرباح من النفط المستخرَج!»

قال باني: «نعم، بالطبع. لقد شاهدتُ أبراج الحفر هناك حيث كانت منصاتها في الواقع متلامسة.»

«الجميع يُهرعون لاستخراج النفط، وينفقون أكثر مما يكسبون؛ أليس هذا انعكاسًا للرأسمالية؟ ثم الحرب! هل تتذكَّر كيف سمعنا الجلبة، وهُرعنا إلى النافذة، ورأينا رجلًا

يلكم آخر في أنفه، بينما كانت الغرفةُ بأكملها في حالة من الفوضى، والناس يصرخون ويحاولون فضَّ الشجار أو الانضمام إليه!»

«قال أحدهم: «أيها الجبان المخادع الخائن!» وقال الآخر: «خذ أيها الجبان الرعديد!»»

«يا بُني، كان هذا صراعًا بسيطًا على النفط! وبعد عامٍ أو عامَين، بدأ الصراع الكبير، وإذا كان هناك أي شيءٍ تجده مُحيرًا بشأنه، فتذكَّر فقط ما حدَث في منزل عمتي. وتذكَّر أنهم كانوا يتقاتلون من أجل فرصةٍ لاستغلال عُمال النفط؛ لتقسيم الثروة التي كان عُمال النفط سيولدونها؛ ففي خِضَم جشعهم الشديد، تسبَّبوا في إيذاء أو قتل ثلاثة وسبعين بالمائة من جميع الرجال الذين استأجروهم للعمل في بروسبكت هِل؛ هذه أيضًا إحصاءاتٌ حكومية! ألا يمكنك أن ترى كيف يعكس هذا الحرب العالمية بالضبط؟ كان العمال هم الذين يُقاتِلون، بينما يستفيد المصرفيون من السندات!»

٦

كان هناك العديد من الموضوعات التي تناقشا فيها! أخبر باني بول بقصة إيلاي التي لم يكن بول قد سمع بها. ذكَر بول أن الأمر كان مفهومًا لأن إيلاي كان دائمًا شخصًا يطارد النساء. لقد كان هذا أحد الأسباب التي جعلَت بول ينفر من وعظ أخيه. قال: «لا أمانع لو كان لديه صديقة، لكنه يُنكِر حقي في أن أكون مع صديقتي. إنه يُلقي المواعظ بشأن نموذجٍ أحمقَ للزهد، ثم يذهب سرًّا ليفعل ما يحلو له.»

رأى باني فرصةً كان يبحث عنها. فتَحمَّس فجأة. وقال: «بول، هناك شيءٌ أريد أن أخبرك به. طوال السنوات الثلاث الماضية وأنا أعيش مع ممثلةٍ سينمائية.»

أجاب بول: «أعلم ذلك؛ لقد قالت لي روث.»

«روث!»

«نعم، لقد قَرَأَت شيئًا عن ذلك في الصحف»، ثم قال بول بعد أن قرأ أفكار صديقه: «كان على روث أن تتصالح مع حقيقة أن العالم على النحو الذي هو عليه، وليس كما تريده.»

فسأله باني: «وما رأيك في ذلك يا بول؟»

«حسنًا يا بني، يعتمد الأمر على ما تشعُر به تجاه الفتاة. إذا كنتَ تُحبها حقًّا، وهي تحبك، أظن أنه لا بأس بذلك. هل أنت سعيد؟»

«كنا سعيدَينِ في البداية، وما زلنا كذلك في بعض الأحيان. المشكلة هي أنها تكره الحركة الراديكالية بشدة. إنها بالطبع لا تفهمها.»

فأجاب بول: «هناك أناسٌ يكرهون الحركة الراديكالية لأنهم لا يفهمونها، وهناك من يكرهونها لأنهم يفهمونها.» وبعد أن فكَّر باني في هذا الأمر للحظة، تابع بول: «ستحتاج إما إلى إعادة النظر في معتقداتك وإما إلى الانفصال عن الفتاة. الشيء الوحيد الذي أنا متأكدٌ منه هو أنه لا يمكنك إقامة علاقةٍ سعيدة إلا إذا كانت مبنيةً على أفكارٍ متناغمة. وإلا فسوف تتجادلان باستمرار، أو على الأقل ستشعُران بالملل.»

«هل سبق لك أن عشتَ مع امرأة يا بول؟»

«لقد كنت منجذبًا بشدة لفتاة في إنجِل سيتي، وربما كان من الممكن أن أكون معها. ولكن كان ذلك منذ عامَين، عندما عرفتُ أنني سأصبح من البلاشفة، وكنتُ أعلم أنها لن تقبل ذلك؛ لذا ما الفائدة؟ ينتهي بك الأمر إلى الوقوع في دوامة من العواطف، وإضاعة الوقت الذي يجب أن تقضيه في العمل.»

«لطالما تساءلتُ عن أفكارك وعن مثل هذه الأشياء. لقد كنتَ تفكِّر بالطريقة التي يتحدث بها إيلاي عندما التقينا لأول مرة.»

ضحك بول. وقال: «ما كنتُ لأحتفظ بخرافاتي المسيحية عندما أصبحتُ منظِّمًا شيوعيًّا. لا يا بني، ما أعتَقِده هو أن عليك إيجاد امرأة تحبها حقًّا، وتريد أن تشاركَكَ عملك، وتريد أن تستمر معك، ثم تستطيع أن تعيش معها، ولن تحتاج إلى أي كاهنٍ ليمنحك الإذن. في يومٍ من الأيام، أَفترضُ أنني سأقابل رفيقة — أفكِّر في الأمر كثيرًا بالطبع — فأنا لستُ شخصًا عديم الشعور. لكنني يجب أن أنتظر وأرى ما سيحدُث في محاكمتي. لن أكون ذا نفعٍ لفتاة إذا اضطُرِرتُ إلى قضاء عشرين عامًا في ليفنوورث أو أتلانتا!»

٧

كان من المقرَّر أن يتحدث بول في اجتماع للشيوعيين في المساء التالي، وكان على باني أن يحضُر ذلك الاجتماع بالطبع. ولكن ماذا سيفعل مع فِي؟ فهي لن تكون مهتمة بسماع بول يتحدث عن روسيا؛ لأنها سمعَت عنها بالفعل من صديقها الأمير ماريسكو. فتذكَّر باني الأب وجلسات تحضير الأرواح، وفكَّر في حيلة، وهي أن يجعل الأب يتصل بفِي؛ ليخبرها عن جلسةِ تحضيرِ أرواحٍ مثيرة يخطِّطان لحضورها في ذلك المساء. فوافقَت فِي على الحضور، واعتقد باني أنه أصبح الآن حرًّا.

ولكن عندما اقترب موعد الغداء، اتصلت به بيرتي هاتفيًّا. وقالت له: «إذن صديقك القديم بول موجودٌ هنا في باريس!»

فُوجِئ باني عند سماع ذلك؛ إذ كان يظن أنه أبقَى الأمرَ سرًّا. ثم ضحك قائلًا: «يبدو أن خِدمتَك السرية القديمة كانت تقومُ بعملها!»

ردَّت أخته: «لقد ظننتُ فقط أنك ستكون مهتمًّا بأن تعرف؛ صديقك القديم بول لن يتحدث الليلة. لقد اعتقلَته الشرطة.»

«من أخبرَكِ بذلك؟»

«لقد أبلغوا السفارة للتو. وسيتمُّ ترحيله؛ في الواقع هو في طريقه الآن.»

«يا إلهي، هل أنتِ متأكدة يا بيرتي؟»

«بالطبع، أنا متأكدة. هل كنتَ تعتقد أنهم سيسمحون له بإلقاء خطاباتٍ بلشفية في فرنسا؟»

«أعني، هل أنتِ متأكدة من أنهم سيرحِّلونه؟» كان باني قد سمع الكثير عن كيفية معاملة الحمر، وكان يعلم أنهم في جميع أنحاء أوروبا كانوا يسيرون على نهج الشرطة الأمريكية، المتمثِّل في ضرب السجناء بالخراطيم المطاطية التي لا تترك آثارًا مرئيةً على الجلد. لذلك، بدأ جدالٌ حادٌّ عَبْر الهاتف، وكان باني في حالةٍ من الذعر، وأصَر على معرفة المسئول الذي قدَّم هذه المعلومات إلى إلدون، ولكن بيرتي أصرَّت على أن باني لا ينبغي أن يتسبَّب في فضيحةٍ أخرى في باريس، مما قد يعرِّضه لخطر ترحيله وربما الإضرار بسمعة صهره في جميع أنحاء أوروبا.

وفي النهاية، أغلق باني الهاتف واتصل بمكتب الصحيفة الشيوعية. هل هم على علم باعتقال الرفيق بول واتكينز، أو بول فوتكان، كان من الضروري أن يقول الاسم هكذا. لا، لا يعرفون شيئًا عن ذلك، ولكنهم سيُحاولون التقصِّي عن الأمر. ثم ركب باني على عَجلٍ سيارة أجرة وهُرع إلى مكتب مديرية الشرطة؛ حيث استُقبِل بطريقةٍ تفتقر إلى الكياسة التي اعتاد مسئولو الشرطة إظهارها عند التعامل مع الشباب الذين يرتدون ملابسَ أنيقة. لم تكن لديهم أي معلوماتٍ لإعطائها بخصوص الأمريكي الذي يُدعى بول فوتكان، لكنهم كانوا مهتمين بجمع معلومات عن أمريكيٍّ آخر يُدعى جيه أرنولد روس، وإلى متى كان يتوقع استغلال ضيافة الحكومة الفرنسية، من خلال إعطاء مبالغَ مالية لأعداء الأمن العام.

في هذه الأثناء، كانت بيرتي تشعُر باليأس، فطلبَت مِن فِي تريسي أن تبذل المزيد من الجهد في إثناء باني عن التورُّط في هذه الأعمال البشعة. فوافقَت فِي على إجراء محاولةٍ

أخيرة للمساعدة، محاولةٍ واحدة. ثم أبعَدت سماعة الهاتف عن أذنها وأمرَت خادمتها أن تحزم أغراضها، وعندما عاد باني من زيارته للشرطة، وجد رسالةً في صندوق بريده:

«عزيزي باني: لقد اكتشفتُ للتو سبب حضوري جلسةً روحانية الليلة بدلًا من الذهاب إلى الأوبرا معك! لقد حانت اللحظة التي يجب أن تختار فيها بيني وبين أصدقائك الحمر، وقد انتقلتُ إلى فندقٍ آخر حتى تتخذ قرارًا. يُرجى إبلاغ قرارك في رسالة. لا تُحاوِل مقابلتي شخصيًّا؛ لأنني لن أتحدث معك حتى يتم تسوية هذه المسألة. إذا كان ذلك يعني أننا يجب أن نفترق، فأنا أُفضِّل اتخاذ قرارٍ سريعٍ ونهائي. فلم يعُد بإمكاني تحمُّل الإهانة الناتجة عن ارتباط اسمي بمجرمين خطرين، وما لم تعلن أنك تُحبني بما يكفي لتغيير رفاقك، فإنك لن تراني مجددًا. خذ بعض الوقت للتفكير في الأمر، ولكن ليس كثيرًا. المخلصة فِي.»

في واقع الأمر، لم يكن باني بحاجة إلى أي وقتٍ إضافي. فحتى عندما كان يقرأ الرسالة، كان هناك صوتٌ بداخله يخبره بأنه كان يتوقع ذلك. وبعد أن هدأ من صدمته الأولى، جلس وكتب ردًّا:

«عزيزتي فِي: لقد أمضينا معًا أوقاتًا رائعة. وقد عانيتُ لفترةٍ طويلة لأني كنتُ أعلم أن كل شيءٍ بيننا سينتهي. لن أُهدِر وقتك في محاولة الدفاع عن معتقداتي؛ فلديَّ أفكارٌ ومعتقداتٌ لا يمكنني التخلي عنها بالقَدْر نفسه الذي لا يمكنك به التخلي عن معتقداتك وأفكارك. أتمنى لكِ كل السعادة التي يمكنُ أن تهبَها لكِ الحياة، وأتمنى ألَّا تحملي مرارةً في قلبك؛ لأن هذا أمرٌ لا أستطيع تغييره. وإذا أتى وقتٌ يمكنني فيه تقديم المساعدة لكِ، فسأكون طَوعَ أمرك. وبالمودة نفسها، الأرنب باني.»

٨

لا يمكن لباني إهدار الوقت بالانغماس في أحزانه؛ فعليه أن يسرع بالاتصال بالشيوعيين الفرنسيين، وأن يعرض عليهم تَحَمُّل تكاليف توكيل أحد المحامين ليتولى الإجراءات القانونية، ويعرف ماذا يحدث لبول. ولكن، في واقع الأمر، اتضح أن جهوده لم تكن ضرورية؛ لأنه في صباح اليوم التالي، نشرَت جميع الصحف خبرًا: اصطحبَت السلطات مُحرِّضًا بلشفيًّا أمريكيًّا معروفًا إلى هافر، ووضعَتْه على متن سفينةٍ بخارية للإبحار في ذلك اليوم. وعلَّقَت الصحيفة الشيوعية في تقريرها بسخريةٍ قائلةً إن هذا المُحرِّض البلشفي

بالتحديد كان شخصًا لا تستطيع الحكومة الأمريكية منع دخوله؛ إذ إنها دفعَت كفالة بقيمة عشرين ألف دولار مقابل مثوله أمام المحكمة! اتخذ باني، الذي لم يثِق بالسلطات الفرنسية، الاحتياطات اللازمة بإرسال برقية إلى بول على متن السفينة مع ردٍّ مدفوع مسبقًا، وبعد ساعاتٍ قليلة، تلقى الرسالة «في الطريق إلى بارادايس»، وهي رسالةٌ مشفَّرة من بول!

بعد ثلاثة أيام، تلقَّى باني رسالة من حبيبته، ليست رسالةً مشفرة هذه المرة، ولكن إعلانًا عامًّا ليراه العالم كله. أعلنَت الصحف في باريس وفي جميع العواصم الأخرى، عواصم مدغشقر وباراجواي ونوفا زيمبلا والتبت وغينيا الجديدة، خبر خطوبة الممثلة السينمائية الأمريكية فيولا تريسي على الأمير ماريسكو، أمير رومانيا، ومن المقرَّر أن يُقام حفل زفافهما في كاتدرائية بوخارست الكبرى، وستحضُر الملكة ماري بنفسها الزفاف. وقد قام فريق العلاقات العامة الماهر في شمولسكي-سوبربا بتنفيذ العديد من الحِيَل الدعائية من قبلُ، ولكن لم يكن أيٌّ منها ناجحًا مثل تلك التي سلمها لهم القدَر دون أي جهد أو تكلفة!

وهكذا انتهى فصلٌ من حياة باني. تم إغلاق الباب الذي يربط جناحَه الفندقي بجناح في، ووُضعَت قطعة أثاث أمامه. ومع ذلك، لا يمكن لأي قطعة أثاث أن تحجُب الذكريات في ذهن باني! لا شيء يمكن أن يمحو صورة تلك الفتاة البيضاء الرشيقة، المفعمة بالحيوية والمتحمسة، وذكرى السعادة التي جلبَتها إلى حياته. لقد أصيبت روحه، كما أصيب جسد ضحايا الإرهاب الأبيض — والسبب واحد!

كانت هناك نساءٌ من مختلف الأنواع والأحجام، محليات وأمريكيات، شابات يتبعْنَ الموضة، حريصات على جذب انتباه أمير النفط الشاب. لقد كُن على علم بعلاقته الماضية وحسرة قلبه الأخيرة، وقالت لهن أمهاتهن الذكيات نصيحةً قديمة معروفة للنساء، منذ أن عرف الإنسان المغازلة؛ «انتهزي الفرصة عندما يكون الرجل مجروحًا عاطفيًّا!» تمَّت دعوة باني لحضور حفلات الشاي والحفلات الراقصة، ولكنه في أغلب الأحيان كان يذهب إلى اجتماعات الحزب الاشتراكي، وعندما كان يفكِّر في النساء، كان يسرح بخياله في إنجِل سيتي. كانت روث واتكينز لطيفةً وهادئة، ولكنها شجاعة، ولم تتخلَّ عن شقيقها حتى عندما اعتنَق البلشفية! وكانت رايتشل مينزيس فتاةً مثابرة وجادة؛ إذ كانت تُرسل لباني خطابًا من أربع صفحات بانتظام مثل الساعة، به جميع المعلومات التي يريد معرفتها. وكانت تُرسل له مرةً واحدة في الشهر بيانًا مفصَّلًا ودقيقًا دائمًا بالإيصالات والنفقات،

كانت تكتبُه بنفسها بالآلة الكاتبة، وتم تخصيص أي دولاراتٍ متبقية لعيناتٍ من النسخ، مما يضمن أنه لن يكون لديه أبدًا فائضٌ ولا عجز!

٩

في شهر سبتمبر، جاء الأب ومعه بعض الأخبار التي تردَّد في قولها لباني، ودبَّ الاحمرار في وجهه عندما بدأ الحديث. قال: «كما ترى يا بني، لقد أصبحتُ صديقًا مقربًا لأليس؛ نحن نتشارك الأفكار نفسها، ونعتقد أنه يمكننا دعم أحدنا الآخر.»

«نعم يا أبي، بالطبع.»

«حسنًا، الأمر هو — في الواقع — لقد كنتُ أثقِل عليك لفترةٍ طويلة، لكنك الآن ستحصل على حريتك؛ لأنني طلبتُ من أليس الزواج، ووافقَت.»

«حسنًا يا أبي، كنتُ أتوقع حدوث ذلك منذ فترةٍ طويلة. وأنا متأكِّد من أنك ستكون سعيدًا.»

بدا الأب مرتاحًا بشكل واضح — هل كان يخشى أن تنتاب باني نوبةُ غضب، على غرار بيرتي؟ فسارع الأب إلى القول: «أريدك أن تعلم أنني وأليس قد ناقشنا هذا الأمر، واتفقنا، إنها معجبة بك وتقدِّر وقوفك إلى جانبي وكل هذا، وتريد أن توضِّح لك أنها لن تتزوَّجني طمعًا في ثروتي.»

«لا يا أبي، لا أظن ذلك.»

«حسنًا، أنت تعرف بيرتي وآراءها. إن بيرتي مادية، أعتقد أنها تتبنى أسلوب والدتها. على أية حال، لن أناقش هذا الأمر معها؛ فهذا ليس من شأنها، وسنتزوَّج في حفلٍ بسيط، ويُمْكِن لبيرتي معرفة الخبر من الصحف. هذا ما أخطِّط لفعله، لقد قالت أليس إنها لم يكن لها أي دور في مساعدتي في جمع ثروتي، وإنها لا تريد أن يكرهها أبنائي إذا حصلَت على حصةٍ كبيرة من الثروة.»

«أوه، لكنَّني لن أكرهَها يا أبي!»

«لقد اتفقنا على أن أكتُب وصية، وأن أترك لها مليون دولار، وسيتمُّ تقسيم الباقي بينك وبين بيرتي، وأليس ستكون راضيةً بذلك؛ فهذا المبلغ كافٍ لإشباع شغفها بالأعمال الروحانية. هي تريد أن تفعل ذلك …»

«نعم يا أبي، أفهم ذلك. فأنا أيضًا أشارك في نشر الأفكار!»

«أعلم ذلك يا بُني. وما كنتُ أفكِّر فيه هو أن لديك الحقَّ في التعبير عن آرائك. وعلى الرغم من أنني لا أتفق مع آراء تلك الصحيفة الصغيرة، فإنني أرى أنها صادقة، وتعكس معتقداتك؛ لذا سأقوم بتحويل ما يزيد عن مليون دولار من أسهم روس إليك، ويمكنك استخدامها كما يحلو لك. أتمنى ألَّا تصبح بلشفيًّا مثل بول، وآمل ألَّا تجد نفسك في نهاية المطاف في السجن.»

«سيكون من الصعب جدًّا دخولي السجن إذا كان لديَّ مليون دولار يا أبي.»

ابتسم الرجل المسن؛ فلم يُخرِج الوسطاء ولا الأرواح بعدُ الشيطان القديم تمامًا من جسده. وتابع قائلًا إنهم بالطبع لن يرثوا الكثير من المال كما كان يعتقد. فالدعاوى القضائية الحكومية ستأخذ جزءًا كبيرًا من المال؛ فبلا شكٍّ سيهيئ السياسيون الأمر بحيث يضمنون خسارة الأب وفيرن. قد يكسبون بالطبع مالًا كثيرًا من هذه الصفقات الخارجية الجديدة، لكن ذلك لم يكن مؤكدًا، ولم يكن الأب مهتمًّا بمتابعة الأمر؛ بل ترك ذلك لفيرن.

«ما هي خططك أنت والسيدة أليس يا أبي؟»

«في الواقع، نودُّ أن نقضيَ ما يمكن أن نطلق عليه شهرَ عسلٍ روحانيًّا. سنزور ذلك الوسيط في فيينا، وسمعنا أيضًا عن وسيطٍ آخر في فرانكفورت. وسيعتمد الأمر أيضًا على ما تريده أنت. ربما ستعود إلى كاليفورنيا.»

«أعتقد أنني سأفعل ذلك يا أبي لبعض الوقت، إذا كنتَ متأكدًا من أنك تستطيع تدبُّر الأمر بدوني.»

نعم، قال الأب إنه وأليس سيكونان على ما يُرام؛ فقد تَعَلَّم سكرتيره ما يكفي من اللغة الفرنسية لتلبية احتياجاتهما، وكانا يخطِّطان للاستعانة بمرشد أو مترجم خلال فترة إقامتهما في ألمانيا. كان يأمل أن يكون الطقس مناسبًا له؛ فهو لا يتمتَّع بصحةٍ جيدة هذه الأيام. فقد أثَّرَت الإنفلونزا التي أصيب بها على صحته.

تم إجراء الخطوات الأولية، وارتدى كلٌّ من باني ووالده والسكرتير والسيدة أليس هنتنجتون فورسايث أوليفييه من الثياب أرقاها، وذهب الجميع إلى عمدة بلدةٍ صغيرة في ضواحي باريس وتم الزواج رسميًّا، وقبَّل باني زوجةَ أبيه الجديدة على خدَّيها، وفعل العمدة الشيء نفسه، كما قبَّل باني والأب على خدَّيهما. وبعد ذلك، أخذ الأب باني جانبًا وسلَّمَه مظروفًا في يدَيه. كان بالداخل أمرٌ موجَّه إلى فيرن بنقل ٣٢٠٠ سهم من أسهم روس كونسوليديتد من الفئة ب، التي تقدَّر قيمتها بما يزيد قليلًا عن مليون دولار في السوق. أوضح الأب أن هذه الأسهم تُسمى «شهادات الشارع» لقد وَقَّع عليها بالفعل

وتركها مع فيرن، في حال أرادوا بيعها. قال الرجل العجوز: «والآن يا بني، كن رشيدًا في إنفاق هذا المبلغ الكبير من المال. خُذ وقتك، واتخذ قراراتٍ مدروسةً جيدًا، ولا تقع فريسةً للمحتالين الذين سيظهرون فور معرفتهم بوجود هذا المبلغ معك!»

لم يتغيَّر الأب قطُّ! وتبادلا عناقًا حارًّا، وانهمرَت الدموعُ من أعينِ الجميع، حتى السكرتير، وحتى العمدة ومساعديه، الذين لم يسبق لهم أن سمعوا عن هذا الأجر الضخم لحفلات الزفاف؛ الأمريكيون أشخاصٌ رائعون حقًّا! وتعهَّد باني ووالده بأن يُبقي أحدهما الآخر على علم بأخباره، وقال باني إنه سيعود إلى فرنسا في الصيف المقبل إذا لم يتمكَّن الأب من المجيء إلى أمريكا، وأعرب الأب عن ثقته في أن فيرن سوف يُصلح كل شيء قبل ذلك الوقت. ثم قبَّل باني زوجة أبيه مرةً أخرى، وعانق الأب مرةً أخرى وصافح السكرتير؛ لقد كان وداعًا عاطفيًّا وصادقًا، ووقف المسئولون وأطفال الشوارع على الرصيف يتابعون المشهد، مُحدِّقين في السيارة الفاخرة وفي ركَّابها الأمريكيين الأثرياء. سيكون باني سعيدًا عندما يتذكر هذه اللحظة بعد سنوات؛ فعلى الأقل تسلَّلَت السعادة إلى قلب هذا الرجل العجوز لمرةٍ واحدة! وبعد انتهاء الثرثرة والرسائل والزهور، والعناية بالأمتعة والتأكد من أن الملابس في أماكنها الصحيحة، تحرَّكَت السيارة أخيرًا، وسط التلويح بالأيدي والهتافات، وتوجَّها إلى جلسةٍ روحانية في فرانكفورت أم ماين!

استقل باني القطار عائدًا إلى باريس، وكتب رسالتَين؛ واحدة إلى روث واتكينز والأخرى إلى رايتشل مينزيس، يعلن فيهما عن عودته إلى الديار دون إظهار محاباة لأيٍّ منهما! ثم اشترى إحدى الصحف ووقعَت عيناه على مقالٍ إخباريٍّ قصير بعنوان «حريق النفط الهائل في كاليفورنيا.» وذكر المقال أن صاعقةً ضربت أحد صهاريج التخزين التابعة لشركة روس كونسوليديتد للنفط في بارادايس بولاية كاليفورنيا، وبسبب الرياح العاتية، لم يُعتقد أنه من الممكن إنقاذ أي جزءٍ من حقل صهاريج التخزين، وقد يُدمَّر الحقل بأكمله.

عندما عاد باني إلى الفندق، وجد برقيةً من إنجِل سيتي. كان من المستحيل تقديرُ حجم الأضرار، لكن لدَيهم تغطية تأمينية كاملة، فلا داعي للقلق، وتم توقيع البرقية باسم «إيه إتش دوري»، التوقيع الذي لا يزال يستخدمه فيرن عندما يريد أن يكون مرحًا. أرسل باني بدوره هذه الرسالة إلى والده، وسأله عما إذا كان بإمكانه تأجيل سفره، لكن الأب أجاب بأنه لا يمكنه ذلك، ويمكن لباني إخباره بما يريد عن طريق الرسائل أو البرقيات، وسيكون الأب سعيدًا إذا سافر باني إلى الحقل لإطلاعه على ما يجري هناك.

وكتب في النهاية «مع الحب وأطيب التمنيات» وكانت تلك هي آخر كلماتٍ كتبها الأب لباني، باستثناء الاتصالات عَبْر عالم الأرواح!

١٠

استقل باني باخرة أبحرت في المحيط؛ لقد كانت واحدةً من تلك الفنادق العائمة، مثل الفندق الذي كان يقيم فيه في باريس، كانت السفينة مجهزةً على طراز القصور، بها زخارفُ مصنوعة من خشب الماهوجني، وستائر ووسائدُ حريرية، وكانت مليئةً بأشخاصٍ من الطبقة العليا الأنيقة يرتدون ملابسَ باهظة الثمن، والنساء يتحلَّيْنَ بجواهرَ براقة، فخمسة آلاف دولار لكل أنثى سيكون تقديرًا متواضعًا للأمسيات في صالون الطعام. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى بدأَت همسات القيل والقال تنتشر بين الركاب: «والده هو قطب النفط في كاليفورنيا، ويقولون إنه يمتلك حقولَ نفطٍ شاسعةً هناك، لكن أحد هذه الحقول مشتعل حاليًّا، بحسب ما جاء في الصحف. روس الذي كان متورطًا في فضيحة، أتَذْكرينه، إنه مختبئ في الخارج منذ عام تقريبًا، لكن يمكن لابنه العودة بالطبع. يقولون إنه كان أحد عُشَّاق فيولا تريسي، لكنها تركَته وتزوجت بذلك الأمير الروماني. انتهزي الفرصة عندما يكون الرجل مجروحًا عاطفيًّا يا عزيزتي!»

وهكذا تعامَل الجميع بلطف مع باني، ورقصَت معه الكثيرات من الفتيات الفاتنات حتى الساعات الأولى من الصباح، وسارت مَن أرادت منهن معه على سطح السفينة بعيدًا عن الأنظار. كن يُحطن به طَوال اليوم، ويرمقنه بنظراتٍ أنثويةٍ مغرية؛ أبدَين اهتمامًا بكل ما يهتم به، حتى الكتاب الذي كان يقرؤه، في حالة إذا تكلم عنه فقط ولم يقرأه لهن. حتى إن بعضهن ادَّعَين اهتمامهن بالاشتراكية، واعترفْنَ أنهن لا يعرفْنَ الكثير عنها، ولكنهن مُشتاقات للتعلُّم. وفي صباح اليوم الثاني من الرحلة، تلَقَّى الاشتراكي الشاب رسالةً لاسلكية غَيَّرت وضعه تمامًا في المجتمع الراقي:

«والدك مريضٌ جدًّا بسبب التهابٍ رئويٍّ مزدوج، يعتني به أفضل الأطباء، سأُبقيك على علمٍ بحالته، أُرْسِل لك تعاطُفي الشديد وحبي، أليس.»

فمشى باني بمفرده على سطح السفينة، وساورَه الشعور بالذنب الذي توقَّعه له فيرنون روسكو. بالتأكيد كان بإمكانه أن يكون أكثر لُطفًا وصبرًا مع والده المُسِن الطيب! بالتأكيد كان بإمكانه بذل المزيد من الجهد لفهمه وتقديم الدعم له! والآن، كان القدَر يأخذه بعيدًا، خمسمائة أو ستمائة ميلٍ كل يوم، وفي أي لحظة، قد تفصلهما مسافةٌ لا

يُمكن حسابها. كان والده نفسُه يشعر بدنُو أجله، وتَذكَّر باني كلمات والده، وأدرك أن فكرة الموت كانت تراوده؛ لذا عكف على إعطاء ابنه بعض النصائح الأخيرة.

في البداية، لم يشعر باني إلا بالحسرة. لكن تدريجيًّا، وجد ذهنه عالقًا في الفكرة القديمة التي كانت تشغل تفكيره. هل كان من الممكن للرجال أن يستمروا في فعل ما كان الأب يفعله في إدارة أعماله؟ هل يمكن لأي مجتمع أن تقوم له قائمةٌ على أساس شراء البعض للنفوذ داخل الحكومة؟ قال باني في نفسه لا، لكنه كان يعتقد أيضًا أنه كان ينبغي عليه بذلُ المزيد من الجهد، وإظهارُ المزيد من المحبة، وإقناعُ والده بتغيير أساليبه! ولكن متى كان عليه أن يفعل هذا؟ كان والده متورطًا في شراء النفوذ داخل الحكومة منذ أن كان باني صبيًّا صغيرًا. وكان جميع أباطرة النفط وكبار رجال الأعمال منخرطين في فعل الشيء نفسه، سواء قبل الانتخابات أم بعدها. إذن، في أي مرحلةٍ من حياة الابن يُمكِن له أن يخبر والده أن أسلوب حياته خاطئ، وأن عليه أن يلقي في يده زمام الأمور؟

لم يكن لدى باني أي أفكارٍ جديدة بشأن هذا الموضوع، تمامًا كما حدث في موضوعه مع فِي تريسي. فقد شعَر فقط بالحزن وألم الوحدة! تختفي الأشياء القديمة، وتظل تختفي، أين تذهب؟ إنه لغزٌ محيِّر، في أوقاتٍ كهذه؛ كان الأمر أشبه بالوقوف على حافة الهاوية والنظر إلى الأسفل! كان من غير المعقول تقريبًا أن والده، الذي كان حقيقيًّا جدًّا، وكان جزءًا من حياته لفترةٍ طويلة، يمكن أن يختفيَ فجأة، ولا يظل موجودًا! ولأول مرة، بدأ باني يتساءل هل كانت أليس على حقٍّ بشأن وجود الأرواح؟

وفي وقتٍ لاحق من ذلك المساء، وصلَت رسالةٌ أخرى. جاء فيها: «الحالة كما هي، سأبقيك على اطلاع، مع تعاطفي الشديد وحبي.» تم تضمين هذه الكلمات الأخيرة دائمًا في الرسائل، وفي اليوم التالي لم يطرأ أيُّ تغييرٍ على حالة الأب، وكانت الأزمة متوقَّعة في الغد، وعندما جاء الغد، تدهورَت صحة الأب، ثم جاء الصباح التالي، وتلقَّى باني رسالةً من أليس تقول: «لقد انتقلَت روح والدك من هذا العالم إلى العالم الآخر، لكنه لن يتوقَّف أبدًا عن البقاء معك. لقد تحدَّث عنكَ وهو على فراش الموت، ووعدكَ بأنه إذا تواصلتَ مع وسيطٍ جيد في إنجِل سيتي، فسوف يوجِّه حياتك بالحب والمودة كما كان يفعل دائمًا. أليس» بعد ذلك، تلقَّى رسالة من بيرتي: «كنتُ مع أبي وهو على فراش الموت، وقد سامحني، أطلب منكَ أن تسامحني أنت أيضًا.» عندما قرأ باني هذه الرسالة، اضطُرَّ إلى أن يُهرَع إلى حجرته الفاخرة؛ حيث استلقى وبكى كالطفل. نعم، سيسامحها، أرسل لها برقيةً بذلك، وعسى مَن خلقَهم أن يغفر لهم جميعًا!

الفصل العشرون

الإخلاص

١

كان باني وحيدًا وسط صخب مدينة نيويورك، التي يعيش فيها ستة أو سبعة ملايين شخص، ولا يعرف باني منهم سوى القليل. وبالطبع كان هناك مراسلون؛ فخبر انتزاع القدَر لأحد أقطاب النفط من أيدي محقِّقي مجلس الشيوخ هو خبرٌ يهمُّ الكثيرين. وبما أن البلاد كانت تشهد قرب انتهاء حملةٍ رئاسيةٍ شرسة، فقد أصبحَت أدقُّ التفاصيل الخاصة بفضيحة النفط ذات أهمية. وتلقَّى باني أيضًا برقياتٍ سلكية ورسائلَ تلغرافية تعبِّر عن التعاطف؛ من فيرن وآنابيل، ومن بول وروث، ومن راتشيل وأبيها وإخوتها، وتلقَّى برقيةً أيضًا من الأميرة ماريسكو، التي وَقَّعَت باسم التحبُّب «فِي-فِي» كما تعوَّدَت أن تُوقِّع عندما كانا مُقرَّبَين في الماضي.

اشترى باني تذكرةً للعودة إلى وطنه، وخلال الرحلة سوف يتوقف في واشنطن، وفي القطار، قرأ أعداد الصحف القديمة، التي كانت تنشر تقاريرَ يومية عمَّا حدث لحُلم طفولته المُتمثِّل في امتلاك حقلِ نفطٍ ضخم؛ فقد التهمَت ألسنةُ اللهب الأخضرَ واليابس، وجعلَت الليل مشرقًا مثل النهار بوهجها الناري، وحَوَّلَت النهار إلى ليل بسحبٍ كثيفة من الدخان، وتدفَّقَت أنهارٌ من النفط المُحترق عَبْر الوديان، بينما حمَلَت الرياح العاتية النيران من تلٍّ إلى آخر. ودُمِّرَت عشراتٌ من صهاريج التخزين الكبيرة، بالإضافة إلى مصفاة التكرير بأكملها، ومعها جميع صهاريجها، وحوالي ثلاثمائة برج حَفْر، التهمَها هذا الجحيم المستعر. لقد كان أسوأ حريقِ نفطٍ في تاريخ كاليفورنيا، ما تسبَّب في خسائر تتراوح قيمتها من ثمانية إلى عشرة ملايين دولار.

وفي واشنطن، وجد باني شخصًا يمكن أن يُحدِّثه عما يُثقِل كاهله، وهو دان إيرفينج! فذهبا في نزهةٍ طويلة، ووضع دان، الأكبر سنًّا، ذراعه حول باني، وطمأنه أنه فعل كل ما في وسعه في ذلك الوقت العصيب. وأكَّد لباني أن عليه ألَّا يعتبر والده شخصًا فاسدًا؛ فقد قضى دان وقتًا كافيًا في التحرِّي في الأمر، واتفق مع باني على حقيقة أن كبار رجال الأعمال الأمريكيين غالبًا ما يشترون النفوذ داخل الحكومة، وقد وجدوا طرقًا لتبرير هذا الفعل. في البداية، صُدِم دان من هذا الأمر، لكنه أدرك أنه جزءٌ من النظام، وبدون هذا النوع من النفوذ، لن تتمكَّن الشركات الأمريكية الكبرى من الاستمرار. ويمكنك أن ترى ذلك بوضوح في الاستجابة الفورية لمجتمع الأعمال بأكمله تجاه فضائح النفط؛ لقد كان مجتمع الأعمال عازمًا على التقليل من أهمية القضايا، والتعامل معها على أنها غيرُ ذات أهمية، وملاحقة أولئك الذين كشَفوا المخالفات بدلًا من مرتكبي المخالفات الفعليين.

وقادهما هذا إلى الخوض في حديثٍ عن السياسة، التي كانت أفضل طريقةٍ لإلهاء باني، وجَعْله يعاود التفكير في العمل. كان دان قد بذل كل ما في وسعه خلال الحملة الرئاسية، لكنه شعَر بالإحباط والعجز. والسبب هو أن آلة الدعاية الرأسمالية بأكملها كانت تؤدي مهمةً جديدة، وهي تمجيد «الكاليفورني الحَذِر» في أعين الشعب الأمريكي؛ فهذا الرجل الصغير الحجم المثير للشفقة، السياسي الريفي المتواضع الذي كان يطمح في الأساس أن يكون أمينَ مخزن، قد قُدِّم في صورة رجل الدولة القوي والصامت، وبطل عامة الشعب! الشيء الوحيد الذي كان يتوقَّعه منه مجتمع الأعمال هو خفض الضرائب على دخلهم، وفي جميع القضايا الأخرى، لن يكون له تأثيرٌ يُذكَر. لم يكن مراسلو الصحف راضين عن مهمتهم، ولكنهم كانوا عاجزين عن فعل أي شيء؛ فصحفهم المحلية لن تقبل إلا بنوعٍ واحدٍ فقط من الأخبار. وهنا كان دان المسكين يكافح مع خدمته الصحفية لشئون العمال؛ إذ كان يُدير عشرين أو أربعين صحيفةً مغمورةً يتداولها مجتمعةً ربما مائة ألف قارئ، وغالبًا ما كان يكافح لدفع إيجار المكتب بسبب القيود المالية.

قال باني: «هذا ما أودُّ أن أناقشه معك. فقبل مغادرتي فرنسا، أعطاني والدي مليون دولار من أسهم شركة روس كونسوليديتد. لستُ متأكدًا من قيمتها الآن بعد الحريق، لكن فيرن أخبرني أن هناك تأمينًا كاملًا. لن أستخدم المبلغ الأصلي حتى يتسنَّى لي التفكير في الأمر مليًّا، لكن يمكنني المساهمة بألف دولار من الأرباح الشهرية لدعم عملك، إذا كان ذلك مفيدًا.»

«مفيدًا؟ يا إلهي، هذا مبلغٌ أكبر بكثير مما تخيلنا يا باني! لقد كنتُ أحاول جمع مائة دولار إضافية شهريًّا؛ لإرسال نُسخ مجانية إلى الأماكن التي يُمكن أن يكون للصحفِ تأثيرٌ فيها.»

قال باني: «سأعطيك المال، ولكنَّ هناك شرطًا واحدًا؛ يجب أن تحصل على راتبٍ شهري قَدْره مائتا دولار. فلا يوجد سبب يجعلك تستدين لتمويل الحركة الراديكالية.»

ضحك دان. وقال: «لا يُوجد سبب سوى أنه بدون مشاركة أشخاصٍ مثلي، لن تكون هناك حركةٌ راديكالية. أنت أول ملاكٍ كريم يظهر في سمائي.»

قال باني: «حسنًا، انتظِر حتى أعرف مقدار المال الذي سأحصل عليه. أظن أن صديقي فيرنون روسكو سيبذل ما في وسعه لمنعي من الحصول على الكثير من المال. فهو يعلم أن كل ما سأحصُل عليه سيتسبَّب في مشاكل له.»

قال دان: «يا إلهي! هل قرأتَ التقارير التي أرسلناها حول اتفاقيات روسكو الخارجية، وكيف تساعده الحكومة على أن يصبح أكثر ثراءً؟ إذا تمكَّنَّا من إقناع مجلس الشيوخ بالنظر في هذا الأمر، فسيكون لدينا خبرٌ أهم من عقد إيجار ساني سايد!»

٢

تلقَّى باني المزيد من الرسائل أثناء وجوده في شيكاغو. كان قد أرسل برقيةً إلى سكرتير أبيه للتحقُّق مما إذا كانت هناك وصيةٌ بين وثائق أبيه. فأجاب السكرتير أنه لم يعثُر على أي وصية، ولا تعرف الأرملة ولا الابنة شيئًا عن وثيقةٍ كهذه. كانوا ذاهبين إلى باريس بعد الجنازة، وسيُرسل السكرتير برقيةً لباني إذا وجد أي شيء هناك.

وصل باني إلى إنجِل سيتي، وتلقَّى هناك المزيد من البرقيات؛ أبلغه السكرتير أنهم لم يعثُروا على وصيةٍ بين أوراق السيد روس في باريس، وأرسلَت بيرتي برقية تقول فيها: «أعتقد أن هذه المرأة السيئة السمعة قد مَزَّقَت الوصية أو تَخلَّصَت منها. هل لديك أي ورقةٍ مكتوبةٍ بخط يد أبي أو بخط يدها؟» ومن هنا أدرك باني أن التوبة على فراش الموت لا تدوم طويلًا، على الأقل ليس عندما يكون شخصٌ غيرك هو الذي على فراش الموت! لم يكن لدى باني أيُّ ورقةٍ بخط يد أبيه، باستثناء الأمر الخاص بأسهم روس، وهذا لن يكون كافيًا لبيرتي. فأرسل برقية إلى أليس، في الفندق الذي تقيم فيه في باريس، مُذكرًا إياها بأن والده كان قد ذكر شروطًا لزواجهما؛ وهي أنها ستحصل على مليون دولار من التركة، لا أكثر، وطلب منها تأكيد هذا الاتفاق. وكان الرد الذي تلقاه من فريق

من المحامين الأمريكيين في باريس، يُمثل السيدة أليس هنتنجتون فورسايث أوليفييه روس، بأنها لا تعلم أي شيءٍ بخصوص هذا الاتفاق الذي ذكَره في برقيته، وأنها تنوي المطالبة بحقوقها الكاملة في التركة. فابتسم باني بتجهُّم وهو يقرأ البرقية. إنه صراعٌ بين الروحانية والاشتراكية!

وكان هناك أيضًا صراعٌ بين الرأسمالية والاشتراكية! قام باني بزيارة شريك والده في المكتب؛ حيث كان بإمكانهما التحدث بصراحة، وهذا ما حدث بالضبط. نزلَت أولى كلمات فيرن على باني كالصاعقة: كان والد باني مخطئًا في الاعتقاد أنه يمتلك أسهم روس كونسوليديتد من الفئة ب، مما جعل طلَبه من فيرن بشأن الأسهُم عديم القيمة. فقد بيعَت كل الشهادات لحاملها منذ فترةٍ بناءً على طلب الأب، ويبدو أن ذاكرة الأب كانت في تراجُع منذ مرضه، أو ربما لم يكن يراقب شئونه عن كثَبٍ بعد انخراطه في الروحانيات. وكانت أعماله في حالة يُرثى لها. أولًا، كانت شركة روس كونسوليديتد، شركة الأب المُفضَّلة، على وَشْك الإفلاس. وقد أبلغَت شركاتُ التأمين ضد الحرائق فيرن في ذلك اليوم أنها لن تدفع المطالبات؛ لأن لديها أدلةً تُشير إلى أن الحرائق أُشعلت عمدًا، لم تذكُر الشركات ذلك صراحةً، لكنها أشارَت ضمنًا إلى أن فيرن أو شخصًا من طرَفه هو من أشعَل الحرائق؛ إذ إن الشركة لديها فائضٌ من النفط، وكانت تعاني من تراجُع السوق.

قال باني: «يا إلهي! هل هذا نوعٌ من الخداع؟».

أجاب فيرن: «لا، هذه خطة من مارك أيزنبرج، الذي يدير الأعمال المصرفية في هذه المدينة لصالح الشركات الخمس الكبرى، والهدف منها هزيمة إحدى الشركات المستقلَّة. وسوف يورِّطوننا في معاركَ قانونيةٍ لمدة لا يعلمها إلا الله. ولن يكون لدى شركة روس المال لتطوير ذلك الحقل المُحترِق، وإذا اضطُرَّت الشركة إلى مطالبة المساهمين بالأموال، فلن تكفي تركة والدك لتمويل حصتها دون مساعدة. فقد نضبَت آبار نهر لوبوس، وغمرَت المياه حقل بروسبكت هِل. بالطبع لدى والدك أسهُم في مشاريعي الأجنبية، ولكن لن يحقِّق أيٌّ منها أرباحًا لفترةٍ طويلة؛ لذا يبدو أنك ستحتاج إلى بيعها.»

«ومن سيتولَّى كل هذا؟»

«ها هي نُسخة من وصية جيم، يمكنك أخذها إلى المنزل وقراءتها وقتما تشاء. منفِّذو الوصية هم أنا وأنت وفريد أوربان، وكان من المفترض أن تتقاسم أنت وبيرتي التركة. ولكن بالطبع تغيَّر ذلك بعد زواجه، وما لم يكن قد كتب وصيةً أخرى، فستحصُل أرملتُه على نصف التركة، وأنت وبيرتي يحصل كلٌّ منكما على الربع. لقد وعدتُ والدك بأنني

سأكون مُنفِّذ الوصية؛ لذا فمن المفترض أن هذه مسئوليتي. دعني أقُل هذا الآن، إن حقل باراديس يحمل اسمك، فإن كنتَ تريد أخذه وتشغيله، فلن أقف في طريقك. يمكنك بيعُ بعض شركاتك الأخرى، وشراء حصتي بسعر السوق، وإدارة العمل بنفسك. هل تريد أن تعمل في تجارة النفط؟»

أجاب باني على الفور: «لا. لا أريد ذلك.»

«حسنًا، إذن، سيتعيَّن عليَّ شراء أسهُم والدك؛ لأن الشركة مفلسة، ولن أتحمَّل عبئها إلا إذا كنتُ أملك السيطرة عليها. أنا وأنت لا نستطيع العمل معًا يا جيم الابن؛ فمُثُلك العليا عالية جدًّا.» ضحك فيرن، ولكن بدون مرحه المعهود. وتابع: «لو لم أكن قد وعدتُ أباك العجوز بأن أضطلع بهذه المهمة، لكنتُ سَلَّمتُ شركة روس لك وتركتُها تفلس تحت إدارتك، لأرى كيف ستتعامل مع الموقف. أنت لم توافِق والدك الرأي في تدخُّل رجال الأعمال في عمل القضاء. حسنًا، كنْ إذن مواطنًا شابًّا نزيهًا حريصًا على المصلحة العامة، ودع القضاء يُعَيِّن حارسًا قضائيًّا لشركة روس، دون أي رشوة أو تأثيرٍ غير قانوني من أي نوع — لا تلاعُب بالنظام السياسي، ولا تهديدات، ولا وعود تتعارض مع المبادئ المعمول بها — وانظر كم سيتبقَّى لك من الثمانية أو العشرة ملايين دولار، أو أي مبلغ سيُجمَع من شركات التأمين في غضون سنواتٍ قليلة!»

٣

ووسط هذه الأزمات القاسية، وجد باني عزاءه في جريدته المتواضعة. كان قد وصل يوم الأحد، واستقبلَته راتشيل، مع عشرات من شباب الاتحاد الاشتراكي، الذين كانت وجوهُهم تشعُّ بالفرح، في محطة القطار. انطلقَت الهتافات عند رؤيته، كما لو كان نجمًا سينمائيًّا! صافح باني الجميع، وصافح راتشيل عدة مصافحاتٍ إضافية؛ إذ كانا سعيدَين بالتئام شملهما. كان الشباب على علمٍ بحزن باني بسبب وفاة والده، وربما أيضًا بسبب احتراق حقل النفط الخاص به؛ لذلك تجمَّعوا حوله لإطلاعه على جميع الأخبار دفعةً واحدة، حتى إن راتشيل كان لديها مسوَّدات العدد الجديد من «الطالب الشاب»، بالإضافة إلى نسخة من طبعة الأسبوع الماضي، والعديد من النسخ الأخرى التي ربما لم يكن قد تلقَّاها.

كان المكتب الصغير للجريدة بمثابة مسكن لباني، وهو المسكن الوحيد؛ لأن القصر الذي استأجره والده كان قد تم تأجيره لشخصٍ آخر، ووُضِعَت متعلقاتهم في مخزنٍ قبل مغادرة العمة إيما إلى أوروبا. كان المكتب عبارة عن غرفةٍ واحدة فقط، لكنه بدا رائعًا مع

تراكم جميع الملفات والسجلات، لقد أصبح لديهم الآن أكثر من ستة آلاف مشترك، وكانوا يطبعون ثمانية آلاف نسخة هذا الأسبوع. لكن راتشيل كانت لا يزال لديها مساعدٌ واحد فقط؛ كان شبابُ الاتحاد الاشتراكي يتولَّون التغليف والعنونة في المساء وفي أيام السبت والأحد. ولم يعودوا يواجهون أي مشكلاتٍ كالتعرُّض للمضايقات أو الاعتقال؛ فقد دعم الاشتراكيون ترشُّح لافوليت للرئاسة، وأعطاهم هذا الحق في أن يُتركوا وشأنَهم لفترة من الوقت.

وكانت هناك مسألة روث. زارها باني في المنزل الريفي الصغير نفسه. لم يكن بول قد عاد بعد؛ فقد توقَّف في شيكاجو لحضور مؤتمرٍ حزبي، وكان يسافر هذه الأيام عَبْر الشمال الغربي، يُلقي الخطب كل ليلة. كان يعقد اجتماعاتٍ ناجحةً بفضل الأهمية التي حظيَ بها بعد اعتقاله. فقد تناقلَت الصحف في جميع أنحاء البلاد أخبار طرده من فرنسا، وشاركَت روث رسائل مع باني يحكي فيها بول مغامراته مع الشرطة والجواسيس. كانت روث قد جعلَت بول يَعِدها بأن يرسل لها بطاقةً بريدية كل يوم؛ لذلك عندما لم تكن تتلقَّى واحدة، كانت تشعر بالقلق على الفور من أنه قد يكون في زنزانة الشرطة ويخضع لاستجوابٍ قاسٍ.

راقبها باني عن كثَب أثناء حديثها. كانت تتحدث بتفاؤل، لقد تخرجَت وأصبحَت الآن ممرضة، ولها دخلٌ جيد، تقتطع منه مبلغًا إذا ما احتاج بول لمساعدةٍ مالية. ولكنها بدت شاحبةً ومُجهَدة. كانت هناك صحفٌ ومجلاتٌ شيوعية على الطاولة، واستطاع باني من نظرةٍ واحدة أن يدرك ما كان يحدث. كانت هذه الصحف تأتي لبول، وكانت روث، التي تقضي أمسياتٍ عديدةً بمفردها هنا، تقرؤها بحثًا عن أي معلوماتٍ عن أخيها؛ ومن ثَمَّ علمَت بكل القصص المؤلمة عن التعذيب والإصابات وإطلاق النار على السجناء السياسيين، وبدا الأمر وكأن بول في خِضَم معركة.

لم تكن روث شخصًا يناقش النظريات؛ فلا تسمعها أبدًا تتحدث في مواضيعَ مثل تكتيكات الأحزاب ولا التطورات السياسية. كانت تتمتع بغريزةٍ قوية، ممزوجة بوعيٍ قوي وحماسي بالفروق الطبقية. لقد شهدَت إضرابَين، وما رأته بأم عينها خلال هذَين الإضرابَين علَّمها كل ما تحتاج إلى معرفته عن علم الاقتصاد. أدركَت روث أن العمال في الصناعات الكبيرة كانوا عبيدًا بالأجرة، يكافحون من أجل البقاء. وكانت هذه الحرب مختلفةً عن الحروب التي قادها الرأسماليون؛ كانت حربًا لا بدَّ منها، لأن السادة هم من

بدَءوها. وعلى الرغم من إيمانها بما يقوم به بول، فلم يكن بوسع روث إلا أن تشعر بالقلق الشديد.

وكان هناك أمرٌ آخرُ غريب ومُرْبِك: كانت روث منزعجةً من راتشيل ومن صحيفة «الطالب الشاب»! فقد اتضح أن الاشتراكيين كانوا ينظِّمون اجتماعاتٍ في جميع أنحاء البلاد لمن يُسمى بالاشتراكي الثوري الروسي، وهو محاضر استخدم سجن أنصاره في روسيا ذريعةً لانتقاد الحكومة السوفييتية. كان الاشتراكيون الثوريون هم من حاولوا اغتيال لينين، وقَبِلوا الأموال من الحكومات الرأسمالية للتحريض على حربٍ أهلية داخل روسيا. فكيف يمكن لصحيفة باني أن تدعم هؤلاء؟

عاد باني إلى راتشيل وشباب الاتحاد الاشتراكي، الذين أخبروه أن هذا الرجل اشتراكيٌّ ويعارض أعمال العنف، وقد جاء الشيوعيون إلى الاجتماع وحاولوا تعطيله، وكاد يحدث شجار. وهكذا كان باني يشعُر بالانزعاج لمواجهة صراعاتٍ داخلية داخل الحركة، مثل تلك التي أزعجَته بشدة في باريس وبرلين وفيينا! لقد تأثَّر بشدة ببول وما قاله عن روسيا، لكنه اكتشف أن راتشيل لم تغيِّر وجهات نظرها ولو قليلًا. فقد كانت تُدافِع عن حق الروس في تقرير مصيرهم، وعن حقهم في التعبير عن آرائهم في أمريكا، حتى لو لم يدافعوا عن حقها. لكنها لن تكون لها أي علاقةٍ بالأممية الثالثة، ولن تؤيد الديكتاتوريات، إلا إذا كانت هي الديكتاتور؛ فهذا سيضمن ألَّا تمنح جريدة «الطالب الشاب» سلطات البريد أو مكتب وكيل النيابة أي ذريعةٍ لمداهمة الجريدة! وسينادون بحل القضايا الاجتماعية من خلال نهجٍ ديمقراطي، وكالعادة ستترأس باني امرأة!

ما أغربَ طبيعةَ النساء! في البداية، قد تبدو المرأة رقيقة ومَرِنة ولكنها مرونة المطاط أو الماء، التي سرعان ما تعود إلى طبيعتها! فمنذ البداية، ها هي يونيس هويت، المصمِّمة على أن تسير الأمور على طريقتها! حتى روزي تينتور الصغيرة، لو كان تزوَّجها، لاكتشف أن لديها قناعاتٍ دينيةً راسخةً حول التصميم الصحيح لستائر النوافذ وعدد مرات غسلها! وها هي فِي تريسي التي تخلَّت عن سعادتها؛ إذ كان باني يعلم أنها لن تكون سعيدة مع أميرٍ روماني. وآراء روث والجدة عن الحرب! وبيرتي، المصمِّمة على الاندماج في المجتمع الراقي، على الرغم من أنها وُلِدَت ابنةً لسائق بغال. والآن، ها هي راتشيل مينزيس، يفهم باني الوضع تمامًا، سوف يفطر فؤادها أن تترك الجريدة الصغيرة؛ فقد احتضنَت راتشيل الجريدة كما تحتضن الأم صغيرها، لكنها ستغادرها على الفور إذا وقع باني في شَرَك استراتيجية التسلُّل الشيوعية.

٤

وصلت بيرتي إلى إنجِل سيتي بعد أسبوعٍ من وصول شقيقها، فعزَّزَت طبيعتُها الفكرة التي يحملها باني فيما يتعلق بطبيعة المرأة التي لا تتغيَّر. لقد جاءت لتأخذ نصيبها من التركة، وسعت وراء تحقيق ذلك بإصرار يشبه إصرار الكلب الذي يطارد الأرانب. كان لدى بيرتي محامٍ، من النوع الذي يناسبها من المحامين؛ فهو كلبٌ آخر يطارد الأرانب، وقد التقت به يوم وصولها، وبعد ذلك، كان على باني أن يزور مكتب المحامي هذا، وبمساعدة بيرتي وكاتب اختزال، يقوم بالكشف عن كافة التفاصيل ليتم تسجيلها؛ ما قاله الأب بالضبط فيما يتعلق بترتيباته مع السيدة أليس هنتنجتون فورسايث أوليفييه. فلسوء الحظ، لم يشارك الأب هذه المعلومات مع بيرتي أو أي شخصٍ آخر، لكن بيرتي كانَت مقتنعةً تمام الاقتناع بأنه كتب وصية، وأن هذه المرأة السيئة السمعة تَخلَّصَت منها.

وبعد ذلك، كان على باني أن يَذْكُر أيضًا كل ما يستطيع تذكُّره فيما يتعلق بشئون الأب الأخرى؛ أين احتفظ بأمواله ووثائقه، وما هي الأماكن السرية التي ربما وضع فيها الأب الأسهم والسندات، وما هي الأموال التي أنفقها وفقًا لتقديرات باني، الذي كان محل ثقته. وشمل ذلك أيضًا التقارير المُقَدَّمة من فيرنون روسكو، وجميع ملفات المراسلات التي تمت بين الأب وفيرن، والمديرين التنفيذيين الشبان محل الثقة، بولينج وهيمان وسيمونز والآخرين، والمصرفيين وكاتبيهم، وسكرتير الأب الذي جاء مع بيرتي من باريس؛ كمٌّ هائل من التفاصيل، وكان على باني أن يحضُر جميع الجلسات، وأن يصبح كلبًا يطارد الأرانب مثل الآخرين. لقد أقنع نفسه أن هذا واجبه تجاه الحركة التي تحتاج بشدة إلى الدعم من ملاكٍ كريم مثله!

منذ البداية، كان على بيرتي تحمُّل واقعٍ مرير. فقد أخبرها محاميها أن من غير الممكن حرمان السيدة أليس روس من أخذ نصف التركة. فمن الناحية القانونية، لم تكن لشهادة باني أي قيمة؛ لذا ما لم يعثُروا على وصيةٍ أخرى، كان عليهم تقبُّل الواقع الذي لا مفرَّ منه، والتعاون مع الأرملة للحصول على أكبر مبلغٍ ممكن من فيرنون روسكو. كان محامو السيدة روس في باريس قد عيَّنوا بعض المحامين ذوي الأجور المرتفعة في إنجِل سيتي ممثلين لهم، وكان على بيرتي أن تكظم غضبها، وتسمح لهؤلاء المحامين بحضور جلساتهم.

كان هناك الكثير من المشاكل التي تطلَّبَت محامين ذوي أجورٍ مرتفعة. وقام المحاسبون بفحص السجلات المالية لجيه أرنولد روس والتقارير المُقدَّمة من شريكه، وفي

غضون أيامٍ قليلة، تمخَّض هذا الوضع المُعَقَّد عن حقيقةٍ هائلة؛ بالإضافة إلى كل الأموال التي استثمرها الأب في أعمالٍ جديدة مع فيرن وآخرين، وبالإضافة إلى كل الأموال التي تعامَل بها من خلال البنك، فقد اختفت أسهم وسندات تُقَدَّر قيمتها بأكثر من عشرة ملايين دولار، دون أثَر. ادعى فيرن أن الأب أخذ هذه الأوراق المالية لأغراضٍ غير معروفة، وعارضَت بيرتي ذلك الادعاء بشدة، متهمةً فيرنون روسكو بأنه أكبر لصٍّ في التاريخ. الأمر ببساطة هو أن فيرنون روسكو سرق محتويات خزانة الأب؛ إذ كان يحق له فتحها. فالتفتَت بيرتي إلى شقيقها غاضبة وألقت باللوم عليه؛ فقد كان فيرن يعلم أن باني سيستخدم أمواله لمحاولة قلب المجتمع رأسًا على عقب؛ لذلك كان من المنطقي منعُه من ذلك.

ولم يستطع باني أن ينكر أن هذا بدا معقولًا. فقد كان من السهل تَخيُّل فيرن يقول لنفسِه إن باني يمثِّل تهديدًا على المجتمع، وإن بيرتي شخصيةٌ لا تشارك بأي شيءٍ إيجابيٍّ في المجتمع، وإن الأرملةَ شخصيةٌ محدودةُ الفكر، بينما هو، فيرن، رجل أعمالٍ كفؤ يمكنه أن يضع تلك الأوراق المالية في مكانها الصحيح، وهو استخراج المزيد من النفط من باطن الأرض. فعندما علم بوفاة الأب، قام فيرن بهدوء بنقل الأوراق المالية من خزانة الأب إلى خزانته الخاصة، قبل وصول مفوَّض ضرائب الميراث بالولاية للتسجيل! لم يعتبر فيرن أن هذه سرقة، بل اعتبَرها حِكمة، على غرارِ أخذِ الاحتياطيات البحرية من حكومةٍ لا تملكُ الذكاءَ اللازم لتطويرها.

أرادت بيرتي مقاضاةَ شريك والدها وجعْلَه يمثُل أمام القضاء ليُفصح عن كل ما يتعلق بشئونه، وكان على باني، بمساعدة المحامين، التحدُّث معها والتعامُل مع غضبها. كان فيرن حريصًا على عدم كتابة أي شيء حتى الآن، وعندما يُدلي بشهادته، ستكون لديه قصةٌ جاهزة تجعلهم عاجزين. فبإمكانه أن يقول إن الأب أعطاه الأوراق المالية، وكيف لهم أن يتمكَّنوا من إثبات خلاف ذلك؟ ويمكنه أيضًا أن يقول إن الأب قد أخذ الأوراق المالية دون علمه، وخسر المال في سوق الأوراق المالية، فكيف يمكن إثبات خلاف ذلك؟ وحتى لو تتبَّعوا مبيعات الأوراق المالية الخاصة بالأب من خلال وسطاء فيرن، فلن يجنوا شيئًا من ذلك؛ لأن فيرن يمكن أن يقول إنه أعطى المال للأب أو إنه كان مخوَّلًا باستثماره وخسره؛ كان هناك العديد من القصص المختلفة التي يمكن أن يختلقَها فيرن! فصاحت بيرتي: «إذن، ليس لدينا خيارٌ سوى قبول ما يسمح لنا به هذا الوغد!» واتفق المحامون على أن ذلك هو الوضع. ونظرًا لأنهم سيتقاضَون عمولتهم على أساس نسبةٍ مئوية مما يمكنهم استرداده، فقد كانت نصيحتهم صادقة!

ثم وقعَت حادثةٌ ضاعفَت المرارة بين بيرتي وشقيقها. فقد ذهب باني إلى مستودع التخزين؛ حيث تم حفظ أغراضه، وفي الأطلس الذي كان والده يستخدمه أحيانًا وجد خمسة سندات حرية (هي سندات حرب، أصدرتها الحكومة الأمريكية في ١٩١٧–١٩١٨ كوسيلة لتمويل مشاركة الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى والجهود الحربية للحلفاء في أوروبا) تبلغ قيمة كلٍّ منها عشرة آلاف دولار. كانت أموالًا احتفظ بها والده لحالات الطوارئ، ربما لرشوة المسئولين إذا أُلقِي القبضُ عليه، وعلى أي حال، ها هي الأموال، وكان يمكن لباني اعتبارها جزءًا من المليون دولار التي كان والده ينوي منحه إياها في باريس. لكنه قرَّر بتعفُّف ألَّا يشارك في نهب التركة، وقرَّر تسليم السندات حتى يمكن إدراجها كجزء من أصول التركة.

لكنه ارتكب خطأ وأخبر بيرتي بالأمر، ويا لها من ضجة تلك التي أحدثَتها! شعر باني بالحماقة لأنه أعطى أليس ومحاميها هديةً بقيمة خمسة وعشرين ألف دولار! بدلًا من أن يُقَسِّم الأموال بينه وبين أخته بهدوءٍ ويلتزم الصمت! أصبحَت تلك الخمسة والعشرون ألفًا أكثر أهميةً لبيرتي من كل الملايين التي أفلَت بها فيرن؛ إذ كانت هذه السندات شيئًا يمكن رؤيته، أو يكاد يمكن رؤيته، حتى أخذها باني بعيدًا عنها، وأعطاها هديةً لهؤلاء الأشخاص الجشعين! في الوقت الذي احتاج كلاهما إلى المال، واضطُرا للذهاب إلى أحد المصرفيين التابعين لوالدهما للاقتراض بناءً على حقهما في التركة.

كانت بيرتي غاضبةً جدًّا ومنزعجة، فأراد باني إنهاءَ الجدال، وسَلَّم السندات إلى البنك، وبعد ذلك، لم تسامحه بيرتي قطُّ، وكانت تتحدث عن خطئه في كل مرة يكونان فيها بمفردهما. وقد جعلَتها هذه الكراهية والغضب المستمر مريضة؛ إذ كانت تسهَر لوقتٍ متأخر من الليل، تُدقِّق في الأرقام، ثم لا تستطيع النوم من شدة انزعاجها. ومثل جميع الشابَّات في المجتمع، كانت تهتم كثيرًا بالحصول على بشرةٍ ناعمةٍ وخاليةٍ من التجاعيد، لكن غضبها المستمر كان يؤثِّر سلبًا على جمالها، ويجعلها شاحبةً ومنهكة. وبعد سنوات، ستذهب إلى خبراء التجميل، لرفع زوايا فمها، ومعالجة بشرتها بالمواد الكيميائية وتقشيرها؛ لأنها الآن لم تعُد قادرةً على السيطرة على غضبها بسبب خيبة الأمل؛ إذ لم يكن أمامها سوى الحصول على مبلغٍ زهيد وهو مليون أو مليونان فقط، بدلًا من مبلغ العشرة أو الخمسة عشر مليونًا الضخم الذي كانت يومًا ما واثقةً من أنها ستمتلكه.

٥

كانت راتشيل قد كتبَت مقالةً قصيرة عن عودة باني من الخارج، ونقلَت عنه قوله إنه ينوي استخدام ميراثه لمساعدة الحركة. وقد لفت هذا البيان انتباه صحفيةٍ شابةٍ لامعة، كتبت مقالةً طريفة:

«المليونير الأحمر الذي سوف ينقذ المجتمع»

والآن بدا أن لدى الكثير من الناس أفكارهم الخاصة حول كيفية إنقاذ المجتمع، واجتمعوا جميعًا في بهو الفندق على أمل مقابلة باني. فقد ادَّعى أحدهم أن لديه علاجًا أكيدًا للسرطان، بينما ادَّعى آخرُ أنه يمتلك آلةَ حركة أبدية وهي تعمل بالفعل، وأراد أحدهم تربية الضفادع من أجل الاستفادة من أرجلها، وأراد آخر تربية الظربان من أجل جلودها. كما أراد العشراتُ الحيلولة دون وقوع حرب، وأراد آخرون بناء مستعمرات، كما كان لدى البعض خططٌ مختلفة لتحقيق الاشتراكية، وكان هناك العديد من الشعراء والفلاسفة العظماء الذين لديهم أعمالٌ مكتوبة، وادَّعى أحد الأشخاص أن الرب قد تجلى له؛ كان حامل الرسالة ضخم الجثة ويبلغ طوله ست أقدام وأربع بوصات وقد وقف بجانب باني ليكشف عن فرق الطول الكبير بينهما، وتحدث إليه بنبرةٍ خافتة مليئة بالرهبة، قائلًا إن الكلمات التي نطق بها الرب قد كُتبَت وحُفظَت في خزانة، ولم ولن يراها أي إنسان أبدًا. كتب المزيد من الأشخاص ليقولوا إنهم لا يستطيعون الحضور لأنهم محتجزون ظلمًا في مصحاتٍ عقلية، ولكن إذا تمكَّن باني من المساعدة في إخراجهم، فسوف يقومون بإيصال رسائلهم إلى العالم من خلاله.

كان هناك شخصٌ مجنونٌ آخر، اسمه جيه أرنولد روس، لم يعُد «جيه أرنولد روس الابن». وكانت لديه خطة شغلَت باله طويلًا، والآن جمع أصدقاءه ليعرف رد فعلهم تجاه هذه الخطة. كان الأصدقاء هم العجوز خاييم مينزيس، الذي كان جزءًا من الحركة لفترةٍ طويلة، وشَهِد معظم أخطائها؛ كان خاييم يعمل في محل لبيع الملابس كعادته، ويخصِّص وقت فراغه لتنظيم الاجتماعات. وجيكوب مينزيس، الطالب الشاحب؛ حصل جيكوب على وظيفة تدريس في إحدى المدارس لمدة عام، ولكن اكتُشِف أمره بعد ذلك، وأصبح الآن يبيع شهادات التأمين. وهاري سيجر الذي كان يزرع الجوز، وتمكَّن من تجنُّب التأثير السلبي للمقاطعة. وبيتر نيجل، الذي كان يساعد والده في إدارة شركةِ سباكةٍ نقابية في مدينة لم يكن العمال مطالبين فيها بالانضمام إلى النقابة، ويستخدم أرباحه لنشر مجلةٍ

شهرية مكوَّنة من أربع صفحات تسخر من الرب. وجريجور نيكولاييف، الذي أدى واجبه كاشتراكي من خلال العمل لمدة عام في معسكر لقطع الأخشاب، وهو الآن مساعد مُشغِّل الأشعة السينية في أحد المستشفيات. ودان إيرفينج، الذي جاء من واشنطن على نفقة باني؛ جلس هؤلاء الأشخاص الستة مع راتشيل وباني في حفل عَشاءٍ في غرفة طعام خاصة، لمناقشة كيفية إنقاذ المجتمع بمليون دولار.

أوضح باني بتواضُع أنه لم يكن يطرح خطته باعتبارها أفضل خطة على الإطلاق، ولكن فقط باعتبارها الأفضل من وجهة نظره. لم يكن ينوي تجنُّب معالجة الأمر عن طريق التبرُّع بأمواله وتفويض المهام للآخرين؛ فقد تعلم هذا من والده، أن المال وحده لا يكفي؛ إذ إن تحقيق شيءٍ ما يتطلب المال والإدارة الفعَّالة. بالإضافة إلى ذلك، أراد باني نفسُه أن يشارك في نشاطٍ ما؛ فقد سئم من الاكتفاء بالنظر والتحدُّث. لقد فكَّر لفترةٍ طويلة في إنشاء جريدةٍ كبيرة، ولكن لم يكن لديه أيُّ معرفة بالصحافة، ومن المحتمل أن يرتكب أخطاء. الشيء الوحيد الذي كان يعرفه هو الشباب؛ لقد ذهب إلى الكلية، وكان يعرف ما ينبغي أن تكون عليه الكلية، ولم تكن كما ينبغي أن تكون عليه.

«ما نفعله — رايتشل وجيكوب وبقية اتحاد الشباب الاشتراكيين — هو محاولة التأثير على العقول الشابة، لكن التحدي هو أننا نلتقي بهم لبضع ساعاتٍ فقط كل أسبوع، والأشياء التي لها التأثير الأكبر على حياتهم تتعارض مع أفكارنا — أعني المدارس والوظائف والأفلام — كل شيء. لذا، أريد أن أجمع بعض الطلاب معًا لحياةٍ كاملة، أربعًا وعشرين ساعة يوميًّا، ونرى ما إذا كان بإمكاننا بناءُ نظامٍ اشتراكي، حياةٍ شخصية، تكون خدمة قضيتنا هي الهدف الرئيس لها. سوف تتفق معي راتشيل في هذا — ولا أعلم إذا كان أيُّ شخصٍ آخر سيتفق معي — أظن أن أحد أسباب معاناة الحركة هو أننا لم نضَع المعايير الأخلاقية الجديدة التي نحتاجها. فالعديد من الأعضاء ضعفاء؛ إذ تشعُر النساء بالحاجة إلى الجوارب الحريرية والتشبُّه بالبرجوازيات، ويعتقدْنَ أن الحرية تعني تبنِّي عادات الرجال السيئة. فإذا كان الاشتراكيون مخلصين حقًّا للحركة، فلن ينفقوا الأموال على التبغ والكحول والملابس الفاخرة المُقلَّدة.»

قال خاييم مينزيس العجوز، الذي كان قد أشعل سيجاره الرخيص بالفعل: «هذا ليس مناسبًا لي!».

كانت الفكرة الرئيسية لباني هي إنشاء مدرسةٍ للعمال على قطعة أرض في الريف، ولكن بدلًا من إنفاق المليون دولار التي حصل عليها على بناء مبانٍ باهظة الثمن، أراد

أن يبدأ بخيام، وسيقوم الطلاب والمعلمون ببناء جميع المباني بأنفسهم. سيقضي كل شخصٍ في هذا المكان أربعَ ساعات في العمل اليدوي وأربعَ ساعات في الدراسة يوميًّا، وسيرتدي الجميع ملابس الكاكي ويتجنَّبون أزياء المجتمع الراقي. كانت لدى باني فكرةُ زيارة الكليات والمدارس الثانوية والتحدث إلى مجموعاتٍ صغيرة من الطلاب؛ كان يهدف إلى إلهام البعض منهم لتحويل تركيزهم من كرة القدم والأخويات إلى هدفٍ جديد. كما خطَّط أيضًا للتواصل مع النقابات العمالية لاختيار الشابات والشباب الواعدين. يجب أن تنمُو هذه المبادرة سريعًا، ولن تتطلب الكثير من المال؛ لأن كل شيء تقريبًا سيتم إنتاجه في الموقع باستثناء مواد البناء، وتضمَّنَت الخطة إنشاء مزرعة، ومدرسة للمهارات المنزلية؛ أي باختصار تعليم جميع المهن الأساسية، والتأكُّد من مشاركة كل طالب يريد أن يلتحق بهم في عملٍ هادف لمدة أربع ساعات.

٦

ما رأيهم في ذلك؟ كان خاييم مينزيس أول من تحدَّث كالعادة. ربما شعَر بالإهانة قليلًا عند ذِكر التبغ، على أي حال فإنه قال إن الأمر يبدو له وكأنه مجتمعٌ آخر، ومجرد تسميته بالكلية لن يغير في الأمر شيئًا، والمجتمع هو أسوأ فخ يمكن أن ينصبه المرء للحركة. «أنت تشجِّع الناسَ على العيش بمعزِلٍ عن بقية العمال، سواء كانوا مرتاحين أم لا — ولن يكونوا كذلك! — بينما هم منشغلون بشيءٍ آخر غير الصراع الطبقي في العالم.»

قال باني: «هذا صحيح جدًّا. لكننا لن نكون بعيدين جدًّا عن العالم، وسيركِّز تدريبنا على الحركة بالخارج وكيفية دعمها، وليس على مجتمع الكلية.»

«يجب على الأشخاص الذين سيدعمون الحركة أن يكونوا جزءًا منها طوال الوقت. إذا قمتَ بإخراجهم لمدة شهر، فلن يكونوا فعَّالين بعد الآن، ربما يجدون حياةً أيسر، ولن يصبحوا عمالًا بعد ذلك.»

«لكن الأمر ليس بهذه البساطة يا رفيق خاييم ...»

«استمع إليه! إنه يريد جذب شباب وشابات الجامعات ليعيشوا حياةً لن تبدو سهلة بالنسبة للعمال!»

قال هاري سيجر: «يمكنك أيضًا أن تعترف بذلك يا باني. سيكون لديك مكانٌ لطيف ورسمي؛ حيث يرتدي جميع الشباب والفتيات ملابس على طراز ويليام موريس. وسيعملون بحماسٍ لفترة من الوقت، لكنهم لن يكونوا فعَّالين أبدًا، وإذا تمكَّنتَ بالفعل

من بناء أي مبانٍ أو زراعة أي محصول، فستحتاج إلى عمالٍ ذوي خبرة وأقوياء للقيام بذلك. أعرف ذلك؛ لأننا نحصُد الجوز هذه الأيام!»

قال باني: «لا أريد مكانًا رسميًّا. أريد مركز تدريب يستعد فيه الناس للصراع الطبقي، وإذا لم نتمكَّن من ضمان الانضباط بأي طريقةٍ أخرى، فماذا عن ذلك كجزءٍ من البرنامج، يلتزم كل طالب بالذهاب إلى السجن لمدة لا تقل عن ثلاثين يومًا.»

صاح بيتر نيجل: «عظيم! أنت الآن تتحدث لغتي!».

سأل خاييم بسخرية: «ماذا سيفعل، هل سيتجاوز السرعة المقررة؟».

«سيذهب إلى إنجِل سيتي ويتظاهر أثناء الإضراب. أو ينظِّم اجتماعاتٍ اشتراكية في زوايا الشوارع حتى يعتقله شرطي. لا تحتاج أن أخبرك كيف يتم القبض عليك في قضية صراعٍ طبقي، أيها الرفيق خاييم.»

«نعم، لكنه قد يواجه قاضيًا لا يفهم قواعد الكلية وقد يحبسه لمدة ستة أشهر.»

«حسنًا، هذه مخاطرة يجب علينا قبولها؛ النقطة الأساسية هي أن أي طالب في السنة النهائية لن يُعتبر قد أوفى بواجبه الاجتماعي إلا بعد أن يقضيَ ما لا يقل عن ثلاثين يومًا في السجن؛ بسبب قضية صراعٍ طبقي.»

سأل جريجور نيكولاييف: «وماذا عن المعلمين؟».

«مرة كل ثلاث سنوات، أو كل خمس سنوات للمعلمين.»

سأل بيتر بحماس: «والمؤسِّس! كم مرةً عليه أن يدخل السجن؟» لكن دان إيرفينج قال إن المؤسس سيتعيَّن عليه الانتظار حتى يتخلص من كل أمواله.

وظلت النقاشات مستمرة. هل يمكنهم إثارة انتباه الشباب بفكرة الانضباط الذاتي؟ هل كان الخطر يكمن في وضع معاييرَ شديدةِ السهولة بحيث لا يحقِّقون الكثير، أم في وضع معاييرَ عاليةٍ جدًّا بحيث لا يكون لديهم أي طلاب؟ أراد باني، الشاب المثالي، وضع معاييرَ عالية، لكن هاري سيجر قال إن الناس سيكونون أكثر استعدادًا للموت عن التخلِّي عن التبغ. وتساءل ماذا سيفعلون مع الشيوعيين؟ لم يعُد هاري سياسيًّا، لقد كان ثوريًّا اجتماعيًّا، ينتظر تنفيذ الخطة. وبغَض النظر عما قد يرغب فيه أعضاء الحزب الاشتراكي، فلن يتمكَّنوا من منع الطلاب البلاشفة من الالتحاق بالكلية، وحتى لو فعلوا ذلك، فإن الأفكار ستجد طريقًا إليهم.

أجاب باني بمشاركة مفهومه للعقل المنفتح. لماذا لا يستطيع الطلاب تولي مسئولية تعليمهم واتخاذ قراراتهم بأنفسهم؟ دَعِ المعلمين يقدِّمون المعلومات التي طُلبَت منهم،

ثم اسمح للطلاب بمناقشتها، هل يمكن أن يكون كل فصلٍ دراسي كمنتدًى مفتوح، لا يُقدِّر سوى البحث والحرية؟ وقد اتفقوا جميعًا على أن إنشاء مؤسسةٍ طائفية، تعمل على الترويج لمعتقداتٍ بعينها مع استبعاد المعتقدات الأخرى، لن يكون فعَّالًا. علاوةً على ذلك، فإن كل منظورٍ يحتاج إلى مؤيدٍ لتقديمه بشكلٍ عادل. لذا، طرح باني السؤال التالي: «خاييم، هل ستسمح لهاري بشرح أفكاره لفصلك؟ هاري، هل ستعطي خاييم فرصةً للتحدث؟» ورأى باني دوره كوسيط يمنع هذه الفصائل المتصارعة من اصطدام بعضها ببعض!

ثم قال خاييم، المتشكك: «أريد أن أعرف، ماذا ستفعل بشأن الجنس؟»

اعترف باني أن هذا الأمر يقلقه. وقال: «أظن أنه سيتعيَّن علينا اتباع المعايير البرجوازية.»

صاح بيتر نيجل: «يا إلهي! فلتبدأ البرجوازية!».

كان الطالب جيكوب مينزيس قد قرأ أخيرًا كتابًا عن راسكن، وهو مجتمعٌ اشتراكيٌّ قديم في ولاية تينيسي. وادَّعى أن مشكلة الجنس تسبَّبَت في تفكيك ذلك المجتمع؛ وأضاف والده: «سوف يؤدي ذلك إلى تفكيك أي مجتمعٍ موجود في ظل الرأسمالية! هناك طريقةٌ واحدة فقط يمكنك من خلالها جعل رجلٍ واحد يعيش مع امرأةٍ واحدة طوال حياته، وهي حبسهما في منزل معًا وعدم السماح لهما بالخروج أبدًا. ولكن إذا سمحتَ لهما بالتفاعل مع أزواجٍ آخرين، فسيجد الرجل على الفور أنه يريد امرأةً أخرى، ولكنها المرأة المناسبة.»

قال دان إيرفينج: «ولكن بعد ذلك، وفقًا للمعايير البرجوازية، فإنهما سينفصلان.»

قال خاييم: «بالضبط! لكن ليس في مجتمعٍ اشتراكي! إذا فعلا ذلك في مجتمع، فسوف يُنظر إليه على أنه حبٌّ مجاني، وسوف يتصدر الخبر عناوين الأخبار، وسيأتي الفيلق الأمريكي ويقبض عليهما!»

٧

وكانت نتيجة المناقشة أن أيًّا منهم لم يكن متأكدًا من نجاح المشروع، ولكن جميع الشباب كانوا على استعداد للمساعدة إذا كان باني مصممًا على تجربته. وقال باني إنه بالفعل يبحث عن موقعٍ مناسب، أرضٍ جيدة ومياهٍ وفيرة، على بعد حوالي خمسين ميلًا من إنجِل سيتي؛ لقد خطَّط لتسديد دفعةٍ أولية مقابل الأرض بمجرد حصوله على الأموال اللازمة،

وعليهم الآن التركيز على التفاصيل. التزَم باني بتخصيص ثلاث سنوات من وقته لإنشاء المؤسسة، فإذا تمكَّنوا من تحقيق الانضباط والروح المعنوية المطلوبَين، فإنه سيسمح للمؤسسة بإدارة نفسها وتقديم الدعم المالي، حسب الحاجة لضمان تشغيلها بفعالية. وسوف يحتاجون إلى معلمين، ومنظمين، ومديري أعمال؛ لذلك كانت هناك فرص عمل للجميع.

وفي هذه الأثناء، كان على باني العودة إلى المناقشات مع المحامين لمحاولة إنقاذ أكبر قَدْر ممكن من التركة. تضمَّن ذلك جدالاتٍ مطولة مع بيرتي؛ لأن شئونهما كانت متشابكة وأصبحَت تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم. أصر فيرن على أن شركة روس تحتاج إلى أموالٍ لتغطية نفقاتها المستمرة؛ هل يريدان منه أن يقوم بتقييم الأسهُم وإجبار التركة على توليد الأموال، أم أنهما يريدان منه شراء عقد إيجار منطقة روس الابن، الأصل الوحيد لشركة روس، باستثناء المطالبات ضد شركات التأمين؟ كان لدى فيرن حرية الاختيار، نظرًا لأنه كان هو ومديروه التنفيذيون الشباب الموثوقون هم مديري الشركة. كان ينوي إنشاء مشروعٍ جديد، شركة بارادايس، مع مديرين تنفيذيين شباب آخرين يمكن الاعتماد عليهم كمديرين، ثم يبيع لنفسه عقد الإيجار، الذي مدَّتُه عشرون سنة وقيمتُه تُقَدَّر بملايين الدولارات، بستمائة ألف دولار!

قال فيرن: «حسنًا، دعونا نجعل أداء التركة أفضل.» قبلَت بيرتي التحدي، وتواصلَت بشكلٍ مكثَّف مع زوجها في باريس واختلطَت مع أصدقائها الأثرياء، حتى وصلَت إلى اكتشافٍ مُحرج وهو أن الأشخاص الذين لديهم ستمائة ألف دولار نقدًا يقومون بالكثير من التحري قبل إنفاقها، وغالبًا ما يريدون الاحتفاظ بالمبلغ برمته لأنفسهم. قضت بيرتي الكثير من الوقت في التوتر والعمل الجاد، وكان أكثر ما يغضبها هو أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك لنفسها فقط، ولكن كان عليها أن تُدافِع عن التركة بأكملها، مما يعني أن باني غير الكفء وأليس السيئة السمعة سيستفيدان من ثمرة جهودها. تلقَّت عرضًا، ولكن بعد ذلك جاء المحامون الذين يمثلون أليس السيئة السمعة بعرضٍ آخر، فوصفَتهم بيرتي بأنهم لصوصٌ مُتمَكِّنون أكثر من فيرن.

وبعد ذلك، احتاجت شركة روس كونسوليديتد إلى المال، وكان فيرن يعتزم تقييم الأسهم، ما يعني وضع التركة في وضعٍ مالي صعب ونهبها تمامًا. وفي النهاية، قدَّم اقتراحًا؛ كان هناك مشروع النفط الروماني، الذي استثمر فيه الأب مليونًا وربع مليون نقدًا. عرض فيرن إعادة شرائه بنفس المبلغ، وتم إعداد المستندات اللازمة؛ كان على الورثة جميعًا

الموافقة على البيع، وقد وافقوا عليه، وبعد ذلك كان على المحكمة الموافقة على الاقتراح. فتسبَّب هذا في بعض التأخير، وخلال هذا الوقت، كانت التركة متأخرةً في تقييم أسهم روس كونسوليديتد، وكان من المقرَّر بيع هذه الأسهم. وكان الهدف من أموال الصفقة الرومانية هو إنقاذ هذه الأسهم، لكن مما أثار استياء المحامين رفضُ المحكمة الموافقة على هذه الصفقة. كانت هناك إجراءاتٌ قانونية؛ فقد شكَّكَت المحكمة في سلطة محامي السيدة أليس روس وطلبَت توقيعَها الشخصي، الذي تم التحقُّق منه في فرنسا. خلاصة القول، لم تتمكن التركة من الوصول إلى الأموال في الوقت المناسب للبيع، وكان فيرنون روسكو هو من اشترى أسهم روس كونسوليديتد بسعرٍ مُخَفَّض.

كانت بيرتي غاضبة وظلت تطلق السباب، هي حقًّا ابنةُ سائقِ بغال! لقد خدعَهم فيرن الحقير! فهو لم يكتفِ بسرقة مستندات الأب، بل خدعَهم بهذه الطريقة، واستعان بقاضٍ فاسد لتأخير الموافقة، فقط حتى يتمكَّن من انتزاع ميزةٍ أخرى! هدَّدَت بيرتي بأخذ مسدس إلى مكتب فيرن وإطلاق النار عليه مثل الكلب، لكن ما فعلَته حقًّا هو توجيه الإهانات إلى شقيقها، الذي تصرَّف بحماقة من خلال جعل الرجل الأكثر نفوذًا الذي عرفوه عدوًّا لدودًا.

لقد علَّمهم ذلك درسًا. سيُخرِجون أنفسَهم من براثن فيرن، ويتخلصون من كل ما كان يُسيطِر عليه. لقد استثمر الأب ما يقرُب من مليون دولار في مشروع أطلق عليه أنجلو-كاليفورنيا، الذي كان من المُقرَّر أن يقوم بتطوير امتياز الموصل الكبير، وتلقى محامو أليس عرضًا لشراء هذه الأسهم، لكنه تضمَّن دفع أقساط، ولم توافق بيرتي على هذا، ولم يوافق المحامون على عرض فيرن النقدي، وكانت بيرتي تشعُر بقلقٍ شديد من أن ينخرط فيرن في أعمال أكثر خداعًا، ربما إنشاء شركة أنجلو-كاليفورنيا، وتأجير منطقة الموصل لها، وسرقة جميع الأرباح!

وسط هذا الجدل جاءت رسالةٌ من أليس إلى باني، كانت متأكدةً من أنه لن يسمح للمشاكل المالية الفظيعة أن تؤثِّر على علاقتهما، وأن ينفك رباطهما المقدس؛ ذكريات العزيز جيم. قامت أليس بزيارة وسيطتها المفضَّلة بمجرد وصولها إلى باريس، وخلال جلسة تحضير الأرواح الثالثة، تجلى جيم. ومنذ ذلك الحين، قامت أليس بتوثيق كلماته من خلال كاتب اختزال، وأصبح لديها الآن سجلٌّ ضخم مثل نسخة المحاكمة القانونية، ملفوفًا في شرائطَ زرقاءَ أنثويةٍ أنيقة. كانت أليس تأمل أن يكون باني قد استشار وسيطًا هو الآخر، وأن يرسل لها كل ما يقوله جيم العزيز في منزله القديم.

قرأ باني السجل، وأثار في داخله شعورًا غريبًا. كانت الصفحات مليئة بالهُراء العاطفي حول الحياة الآخرة السعيدة، وأجنحة الملائكة، والموسيقى السماوية، وأخبِروا أحبتي أنني معهم، ولكني أكثرُ حكمةً الآن، ويجب أن يعلم عزيزي باني أنني أفهم وأسامح، كل الأشياء التي قد تكون خرجَت من العقل الواعي أو اللاواعي لسيدةٍ مسنةٍ عاطفية أو وسيطةٍ مخادعة. ولكن بعد ذلك، فاجأ الشابَّ شيءٌ ما: «أريد أن يعرف عزيزي باني أن والده هو حقًّا من يتحدث إليه، وسوف يتذكَّر الرجل الذي حصل على كل الأرض لنا، وأنه كان لديه سنَّتان ذهبيتان في مقدمة فمه، وقال باني إن شخصًا ما سوف يسرق قبره.» كيف يمكن لوسيطة في باريس أن تستخدم كافة أنواع السحر لتعرف مزحةً شاركَها باني مع والده فيما يتعلق بالسيد هارداكر، الوكيل الذي اشترى لهما عقود الخيارات الخاصة بالمزارع في بارادايس، كاليفورنيا؟

يا إلهي، كان هذا شيئًا يستحق التأمل! هل من الممكن حقًّا أن الأب لم يختفِ إلى الأبد، بل ذهب ببساطة إلى مكانٍ آخر، إلى مكانٍ يمكن الوصول إليه؟ قرَّر باني أن يتمشَّى ويفكِّر في هذا الأمر، وأثناء تجواله في شوارع إنجِل سيتي، كان كثيرًا ما يسمع صوتَ إيلاي واتكينز يدوِّي من الراديو. كانت خيمة إيلاي مكتظةً دائمًا؛ إذ تدفَّق عشراتُ الآلاف لرؤية النبي الذي جعلَته الملائكة يطفو فوق البحر وعاد بريشةٍ كدليل على هذا، تردَّد صدى صوتِ إيلاي في جميع أنحاء كاليفورنيا، معلنًا وعدًا قديمًا: «هو ذا سرٌّ أقوله لكم: لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغيَّر، في لحظة، في طرفة عين، عند البوق الأخير؛ فإنه سيُبوَّق، فيُقام الأمواتُ عديمي فساد، ونحن نتغيَّر.»

الفصل الحادي والعشرون

شهر العسل

١

كان باني يبحث عن موقع لإنشاء كلية العمال. وهي مهمةٌ أكثر إمتاعًا بكثير من البحث عن الأراضي النفطية؛ إذ يمكنك أن تُولي المناظر الطبيعية، والغابات والتلال، والأشياء الأخرى التي تهمك حقًّا بعضَ الاهتمام؛ علاوةً على ذلك، فإن الأمر لم يكن مقامرة؛ لأنه يمكنك التحقق فعليًّا من توافُر إمدادات المياه وإجراء تحليلٍ كيميائيٍّ للتربة. وقد تطلَّب ذلك رحلاتٍ طويلةً في الريف، وبما أن رايتشل ستكون واحدةً من القادة، فكان من المنطقي أن تُرافقَه. كان لديهما متسعٌ من الوقت ليتجاذبا أطراف الحديث، مع توافر مواضيعَ كثيرةٍ للتحدُّث فيها؛ إذ إنهما سيكونان مسئولَين عن مجموعةٍ من الشباب والشابات الراديكاليين من مختلف الأعمار، على مدار الساعة.

كانا قد زارا بعض المواقع، وكان هناك موقعٌ آخرُ أكثر بُعدًا عن المدينة، فقال باني: «إذا ذهبنا إلى هذا المكان، فسنعود إلى المنزل في وقتٍ متأخر.» فأجابت رايتشل: «في هذه الحالة يمكننا قضاءُ الليل في أحد الفنادق ومواصلةُ العمل في الصباح.» قال باني: «قد يكون هذا مدعاةً للقيل والقال.» ولكن رايتشل قالت إنها لا تكترثُ للقيل والقال.

توجَّها إلى الموقع الجديد. وكان قريبًا من قرية تُسمى ماونت هوب (أي جبل الأمل) وتقع في وادٍ صغير؛ حيث تمتد الأراضي المزروعة إلى أعلى سُفوح ستة تلال. كان ذلك في أوائل نوفمبر، وكانت الأمطار قد هطلَت، ونبتَت الحبوبُ الجديدة، فشكَّلَت أسطحًا متموجةً جميلةً وكأنها عضلاتُ عمالقةٍ عِظام، مستلقين على الأرض ووجوهُهم لأسفل، ذوي جلودٍ خضراءَ برَّاقةٍ لا مثيل لنعومتها. كانت هناك بساتينُ ومياهٌ ارتوازية ومحطةُ ضخٍّ ومزرعةٌ صغيرة، وبدا أن السكان قد ذهبوا إلى البلدة، مما سمح للزوار بالتجوُّل ومعاينة الموقع

على أمل اكتشاف موقعٍ مناسب؛ حظيرة غير تقليدية مطلية بطلاءٍ أحمرَ برَّاقٍ مذهل! قالت رايتشل: «رائع، هذا هو مكانُ الاجتماعاتِ يا باني، كل شيءٍ جاهز! نحتاج فقط إلى تركيب أرضية، ويمكننا أن نرقُص في ليلة الافتتاح!» تخيَّل أن رايتشل تفكِّر في الرقص!

صَعِدا أحد التلال، وكان هناك متنزَّهٌ مليءٌ بأشجار البلوط الحي الداكن والجميز ذي اللون الرمادي الفاتح، وكانت الأرض مغطاةً بالعشب النابت حديثًا. امتد الوادي باتجاه الغرب، وكانت الشمس قد غربَت للتو، لتطلي السماء بألوانٍ ذهبيةٍ برَّاقة، وكانت طيور السُّمَانى تُصدِر نداءاتها الأخيرة، فانتاب باني شعورٌ عميقٌ بالوحدة؛ لأن طائر السُّمَانى كان يُذكِّره بأبيه، وتلال بارادايس الجميلة، وحُلمه بالسعادة التي ذهبَت أدراج الرياح.

الآن كانت رايتشل هي التي تحلُم. وقالت: «أوه، هذا جميلٌ جدًّا يا باني! إنه بالضبط ما نحتاجه! كلية ماونت هوب؛ ما كنا لنجد اسمًا أفضل من ذلك!»

فضحك باني. وقال: «لسنا بحاجة لشراء اسم. لكننا بحاجةٍ لأن نجمع عيناتٍ من التربة.»

«كم هكتارًا تريد؟»

«ستمائة وأربعين، منها ما يزيد قليلًا عن مائةِ فدانٍ مزروعة. وهذا أكثر مما سنكون قادرين على إدارته لفترةٍ طويلة.»

«وثمنها ثمانية وستون ألفًا فقط! تلك صفقةٌ رابحة!» لقد تعلَّمَت رايتشل التفكير على نطاقٍ واسعٍ مثل باني؛ إذ إنها سافرَت معه في جميع أنحاء الولاية بسيارته السريعة؛ لتتفقَّد الأماكن المخصَّصة لأصحابِ الملايين ومُطوِّري العقارات الفاخرة.

قال باني: «السعر معقول، إذا كنا متأكدين من جودة التربة وتوافُر المياه.»

«يمكنكَ معاينةُ حالةِ المحاصيل قبل حلول الظلام.»

«ربما يمكنُني ذلك. سنعود في الصباح ونتحدث إلى القائم على المزرعة. ربما يكون مستأجِرًا ويُقدِّم لنا معلوماتٍ صادقة.» لم يكن قضاء باني صباه في شراء الأراضي مع والده المسن الذكي قد ذهب هباءً!

٢

غَطَّى الشفقُ واديَ الأحلام الجديدة هذا، وبدت التلالُ البعيدة كأنها ظلالٌ أرجوانية. قال باني: «ثمَّة شيءٌ واحدٌ يقلقني الآن بشأن خطتنا: أخشى أن تحدُث فضيحة.»

«ماذا تقصد؟»

«سأكون أنا وأنتِ معًا طَوالَ الوقت، وسنختفي عن الأعين في الليل.»

«أوه، هذا سخفٌ يا باني!»

«لا، حقًّا، أنا قَلِق. لقد أخبرتُ بيتر نيجل أننا يجب أن نلتزم بالمعايير المُحافِظة، وهذه بدايةٌ خاطئة. إن عمتي إيما تمثِّل تلك المعايير، وهي لن توافقَ أبدًا على ذلك، ولن توافقَ والدتُكِ أيضًا. لذا، يجب علينا أن نتزوَّج.»

قالت رايتشل: «أوه، باني!» كانت تُمْعِن النظر فيه، لكن الظلام كان حالكًا فلم تتمكَّن من رؤية أي لمعانٍ في عينَيه. وتابعَت: «هل تمزح؟»

قال: «هل ستُكلفين نفسكِ هذا القَدْر الكبير من العناء للحفاظ على السمعة الطيبة لمؤسَّستنا يا رايتشل؟»

واقترب منها خطوة، فتلعثمَت قائلة: «لا يمكن أن تكون جادًّا يا باني!»

«ليس ثمة سبيلٌ آخر، حقًّا.»

«باني، لا!»

«ولمَ لا؟»

«لأنك لن تحبَّ أن تتزوج من فتاةٍ يهودية!»

«يا إلهي!»

«لا تُسِئ فهمي؛ فأنا فخورةٌ بعِرقي. ولكن كل أصدقائك سيرَونَ أن ذلك كان خطأً.»

«أتقولين أصدقائي يا رايتشل؟ ومن هم أصدقائي، باستثناء أولئك المنتمين إلى الحركة الراديكالية؟ وما قيمة الحركة الراديكالية بدون اليهود؟»

«لكن يا باني، أختك!»

«أختي ليست صديقتي. كما أنها لم تطلُب رأيي عندما اختارت زوجَها.»

وقفَت رايتشل وهي تشبِّك أصابعها معًا باضطراب. وقالت: «أتقول كلامك هذا باندفاع ودون سابق تفكير؟ يا باني؟»

«حسنًا، أظن أنه اندفاعٌ بدون سابق تفكير. يبدو أنني بحاجةٍ لأبوح بما يجول في صدري. إنه اندفاعٌ بلا تفكير لطالما راودني عدة مرات.»

«ولن تندم على ذلك؟»

فضحك. وقال: «هذا يتوقف على الإجابة التي سأسمعُها منك.»

«توقَّف عن المزاح من فضلك، أنت تُخيفني. لا أستطيع أن أسمحَ لك بارتكابِ مثل هذا الخطأ. إنه أمرٌ جادٌّ للغاية!»

«ولماذا تنظرين للأمر بهذه الطريقة؟»

«لا أستطيع أن أنظر له بطريقةٍ أخرى؛ فأنت لا تعرف كيف تشعُر المرأة. لا أريدك أن تُقْدِم على شيء من منطلق الشهامة وبلا سابق تفكير، ثم تشعر أنك مُقيَّد، ولن تكون سعيدًا. لا ينبغي عليك أن تتزوَّج فتاةً كانت تعمل في المصانع.»

«يا إلهي، لقد كان والدي سائقَ بغالٍ يا رايتشل.»

«هذا صحيح، لكنك أنجلوسكسوني، وفي الماضي كان أسلافك فخورين بأنفسهم. يجب أن تتزوَّج من امرأةٍ هيفاءَ وشقراء، ستظل محتفظةً بجمالها طيلةَ حياتها ويتناسب شكلُها مع تجمُّعات المجتمع الراقي. إن النساء اليهوديات يُنجِبن طفلَين أو ثلاثة، ثم يزددْنَ وزنًا، ولن تجدني جذابةً حينئذٍ.»

فانفجر باني بالضحك من قولها. وقال: «لقد حضرتُ حفلاتِ زفافِ بعضٍ من هؤلاء النساء الأنجلوسكسونيات الشقراوات الفارعات الطول، وسمعتُ الكاهن يقول بجديةٍ شديدة: «في هذا الجمع المقدس، أتى الشخصان اللذان أمامنا الآن ليتزوجا. فإذا كان لدى أي شخصٍ سببٌ وجيه يمنع زواجهما بشكلٍ قانوني، فليتكلم الآن أو يصمُت إلى الأبد».»

فقالت متوسلة: «أنا أحاول أن أكون واقعيةً يا باني!»

«حسنًا يا عزيزتي، إذا كنتِ تريدين التحدُّث بجديةٍ فأريد أن أخبركِ أنه لم يحدث أن أحببتُ امرأةً شقراءَ من قبلُ. فالمرأتان اللتان اخترتُ أن أعيش معهما كانت بشرتُهما داكنة، مثلكِ تمامًا. ربما هذه هي طريقة الطبيعة في الجمع بين المتناقضات. أظن أنكِ سمعتِ عن علاقتي بفِي تريسي، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«حسنًا، لقد كانت ذات جمال ولا شك، وستحتفظ به؛ فطبيعة عملها تعتمد عليه. لكن كما ترين، لم يُفِدني ذلك بأي شيء؛ إذ إنها تركَتْني من أجل أميرٍ روماني.»

«لماذا يا باني؟»

«لأنني رفضتُ التخلِّي عن الحركة الراديكالية.»

«أوه، كم كنتُ أكره تلك المرأة!»

وكان هناك بعضُ التأثُّر في صوت رايتشل الذي عادةً ما يكون هادئًا، فأصاب باني الفضول. وسألها: «هل كنتِ تكرهينها حقًّا؟»

«كان يمكن أن أخنُقها.»

«لأنها تعدَّت عليكِ بالضرب؟»

«لا! لأنني كنتُ أعلم أنها كانت تُحاوِل إبعادك عن الحركة، وكنتُ متأكدةً من أنها ستنجح في ذلك. فلديها كلُّ ما كنتُ أفتقر إليه.»

بدأ باني يفكر؛ يا إلهي، كان الأمر غريبًا! لقد أدركَت فِي ذلك، أما هو فلا! أوه، يا لغرابة النساء! وجهرًا قال بتهذيب: «لا، لم يكن لديها كلُّ شيء.»

«وما الذي أملكُه أنا يا باني؟ ماذا أعني لك؟»

«سأخبرك، لقد سئمتُ جدًّا من الجدال المستمر. لا يمكنكِ أن تتخيَّلي، حياتي كلها، منذ أن بدأتُ أتخذ قراراتي، كانت عبارةً عن خلافٍ مع الأشخاص الذين أحبوني، أو ظنوا أن لديهم الحق في توجيهي. لا يمكنكِ تخيُّل السلام الذي أشعُر به عندما أفكِّر في أن أكون معكِ؛ إنه يشبه شعور الجلوس وسط وسائدَ ناعمة ومريحة. لقد تردَّدتُ في أن أفصِح لكِ عما يجول بصدري لأنني، بالطبع، لستُ فخورًا جدًّا بتجربتي مع فِي تريسي، ولم أكن أعرف ما إذا كنتِ ستقبلين برجلٍ مَرَّ بعلاقةٍ فاشلة، أو بالأحرى علاقتَين؛ لأنني كنتُ قد ارتبطتُ بفتاة خلال سنوات الدراسة الثانوية. أنا أشاركِ عيوبي، حتى لا تشعُري بقلة الثقة حيال موضوع زيادة الوزن!»

«ليس لي شأن بالنساء الأخريات يا باني؛ فهن سيطاردنك دائمًا بالطبع. لقد انفطر قلبي بسبب الآنسة تريسي؛ لأنني كنت أعلم أنها امرأةٌ أنانية، وكنتُ أخشى أن تدرك ذلك بعد فوات الأوان وتُحبَط. على الأقل، أقنعتُ نفسي أن هذا هو سببُ كرهي لها، لكني أظن أن الحقيقة هي أنني كنتُ أشعُر بالغَيرة تجاهها فحسب.»

«لماذا يا رايتشل! أتعنين أنكِ تُحبينني؟»

«لا تستطيع أي امرأةٍ أن تقاوم حبك! السؤال الحقيقي هو هل تُحبني؟»

«نعم أحبك، أحبك حقًّا!»

«لكن يا باني ...» كانت هناك رجفةٌ طفيفةٌ في صوتها. «أنت لا تعبِّر عن ذلك!»

وعندئذٍ أدرك باني أنه كان يُهدِر الكثير من الوقت! لم يكن عليه سوى أن يأخذ خطوةً أخرى، ويضَع ذراعَيه حولها، وها هي تبكي على كتفه، كما لو أن قلبها سينفطر. وقالت: «أوه، باني! باني! هل يمكنني تصديقُ ذلك؟»

بدأ باني في تقبيلها ليجعلها تُصدِّق. لقد كانت دائمًا شابَّة هادئة ورزينة، شأنها شأن أي مديرةٍ في مكتب، وكان باني يجلُّها، لكنه اكتشف الآن أنها لا تختلف عن النساء

الأخريات اللاتي أحببْنَه، وحالما أدركَت أنها تستطيع التعبير عن مشاعرها، وأن ذلك لم يكن خطأً أو فكرةً مجنونة، ها هي متمسكةٌ به بسعادة، تضحك وتبكي في الوقت نفسه. وبينما كان يُقبِّلها، تذكَّر شجاعتَها وإخلاصَها وصدقَها؛ إنَّ جَعْل فتاةٍ مثلها سعيدةً يستحقُّ كل هذا العناء! إنَّ مزج الحب بتلك المشاعر الأخرى جعلَه يشعر بالأمان! لقد كانت عاطفيةً بقَدْر يونيس أو فِي، ولم تكن أكثر رزانةً أو تحفظًا بأي قَدْر! همسَت في أذنه في الظلام: «أوه، أحبك كثيرًا يا باني! أحبك كثيرًا!» وكان عناقُها يعبِّر أكثر مما تعبِّر عنه الكلمات.

قال باني بضحكةٍ سعيدةٍ مقتضبة: «عزيزتي رايتشل! إذا كان هذا هو شعوركِ فلنذهب إلى قسٍّ أو مؤدِّي مراسمِ عقودِ الزواج.»

فأجابَت: «ما هذا السخف يا باني! أنا أريد أن أتأكد من أنك تُحبُّني وأن بإمكاني أن أحبَّك. ما أهمية القس أو مؤدي مراسم عقود الزواج؟»

فضمَّها أكثر إلى صدره، والتصقَت شفاهُهما في قبلةٍ طويلة. وكلما حاولَت التحدث والتعبير عن المزيد من الشكوك، كان يُسكِتها، كان يجد سبيلًا لإقناعها! وما هو المكان الأفضل لحبهما من هذا البستان الغامض، المكان الذي سيحتضن مساعيَهما المستقبلية؟ نعم، سيحتاجان إلى شراء هذه المزرعة الآن، بغَض النظر عن أي عيوب في التربة! سيكون لهذا المكان سِحرُه الخاص، وفي السنوات القادمة، بينما يكون الشباب يستمتعون بألعابهم واحتفالاتهم في هذا البستان، سيُشاهِدهم باني ورايتشل بإثارةٍ خفية. ألم تُقَم الطقوسُ الغامضة، ويتم تبادُل الوعود، واستدعاءُ القوات المقدَّسة في بساتين البلوط القديمة!

٣

وفي صباح اليوم التالي، وجدا مؤديَ مراسمِ عقودِ الزواج، وبعد ذلك أتمَّا فحصَ المزرعة، وعادا إلى إنجِل سيتي لتجهيز الدفعة الأولية من ثمن المزرعة. وبعد ذلك أعلنا بحماسٍ خبرَ زواجِهما لأصدقائهما، وأكَّدا أن الزواج تم لمصلحة الكلية بالطبع، ولتجنُّب أي فضائحَ في وسائل الإعلام المُحافظة!

ذهب باني لمقابلة روث وإخبارها؛ ومن الغريب أن ذلك كان يُشعِره بالخجل. فقد جعلَته بيرتي وفِي يظن أن روث كانت تُحبه طوال السنوات العشر الماضية، والآن، كانت رايتشل متأكدةً من ذلك، وقد أثبتَت هؤلاء النساء أنهن دائمًا على حقٍّ فيما يعتقد بعضُهن بشأن بعضهن! وأيضًا، ثمَّة حقيقةٌ لم يكن قد أخبر بها رايتشل؛ لقد قضى وقتًا في طريق

العودة من باريس يفكِّر إذا كانت رايتشل أم روث هي من سيطلُب منها الزواج! لقد كان يُكِن محبةً عميقةً تجاه روث، مثل ما كانت تُظهِره له من حبٍّ هادئ. ولكن المشكلة كانت تكمُن في بول. كانت روث شديدةَ الارتباط بأَخيها، وهذا يعني ارتباطها بالحركة الشيوعية؛ لذلك، كان على باني أن يفكِّر في هذا الأمر مليًّا.

فعاجلًا أم آجلًا، كان لا بدَّ من اتخاذ قرار بالانضمام إلى أيٍّ من الفريقَين. هل ستعمل على الإطاحة بالرأسمالية من خلال التصويت، أم من خلال ممارسة «العمل المباشر»؟ لقد أدرك باني ذلك بوضوح؛ فالقرار النهائي كان في يد الطبقة الرأسمالية. لقد كانت الطبقة الرأسمالية تستعد للحرب المقبلة، وكان هذا يعني صعودَ البلشفية في جميع الدول المتحاربة في نهاية الحرب، إن لم يكن في بدايتها. سيسعى الاشتراكيون جاهدين لمنع هذه الحرب، وإذا فشلوا، فإن نهج بول سوف يسود من خلال الأممية الثالثة. لكن في الوقت الحالي، كانت طبيعة باني تجعله يميل نحو الاشتراكيين. ولم يكن بوسعه أن يدعو إلى العنف! وإذا حدث أي عنف، فلا بد أن يبدأ من الفريق الآخر!

وأيًّا كان تفكيرُ روث أو شعورُها عند سماعها خبرَ زواجه، فإنها لم تُظهِر سوى السرور. وقالت إنها توقَّعَت ذلك؛ فرايتشل فتاةٌ ممتازةٌ تتفق مع معتقداته، وهذا أهم شيء. وبعد ذلك، أبلغَتْه أنه من المتوقع أن يعود بول في اليوم التالي، وكان من المقرَّر أن يُلقيَ كلمةً في أحد الاجتماعات، وقد رتَّب مؤيدوه بلباقة له أن يتحدث في مقر اجتماع العمال، وستكون لديه فرصةٌ لإخبار العمال بما رآه في روسيا. ويجب أن يأتيَ باني ورايتشل ويستمعا إليه، فأكَّد باني أنهما سيحضران.

كان هذا يوم الأحد الذي سبق يوم الانتخابات مباشرة، الذي كان اليوم الختامي لحملةٍ سياسيةٍ طويلة. وكان العمال قد تلقَّوا أعدادًا لا حصر لها من المناشدات للحصول على أصواتهم، لكن في خِضَم ذلك، حدث شيءٌ مختلف وأكثر أهميةً من أي أمورٍ انتخابية. فعلى الرغم من معارضة قادة العمال، كان من المستحيل على العمال أنفسهم تجاهُل المعجزة المُلهِمة التي تحدث في الجانب الآخر من العالم، المتمثِّلة في إمبراطوريةٍ شاسعةٍ يحكمها العمال، ويضعون فيها قوانينهم الخاصة ويفرضون ثقافتهم الخاصة. كان بول قد عاد للتوِّ من هذه الأجواء، ورسم صورةً حيةً بكلماته، حتى إنه جعلك ترى ما كان يتكلم عنه؛ الجيش الأحمر، والمدارس الحمراء، والصحف الحمراء، والإرهاب الأبيض، والصمود في مواجهة الحصار الرأسمالي على مسافة عشرة آلاف ميل.

كان غضب الصحف الرأسمالية في اليوم التالي هائلًا! فهي لم تكتب عن الاجتماع، لكنها انتقدَته كثيرًا وعبَّرَت عن غضبها في مقالاتها. إن أنصار لافوليت الحمر سيئون

بما يكفي، لكنهم الآن مزعجون للغاية؛ فكيف يُسمح لشخصٍ يُعرف عنه دعمُه لموسكو، وكان قد طُرد من فرنسا، أن يعقد اجتماعًا في إنجِل سيتي وتشجيع العمال النقابيين على إثارة الشغب والتمرد! لماذا لم تفعل شرطتُنا أي شيء؟ أين كانت مجموعاتُنا الوطنية والفيلقُ الأمريكي والمنظماتُ الأخرى التي تحافظ على القانون والنظام؟

اتصل باني بروث في صباح اليوم التالي؛ أراد مقابلة بول والتحدُّث معه بخصوص الكلية التي يخطِّط لإنشائها. فأخبرته روث أن بول ذهب إلى الميناء ليتحدث في اجتماعات الملَّاحين. فقد قام هؤلاء الرجال بإضرابٍ كبيرٍ أثناء غياب باني في خارج البلاد، وتعرَّفوا على كيفية عمل الحكومة في ظل الرأسمالية. وتم القبض على حواليَ ستمائةٍ منهم لمجرد القيام بمسيرة والغناء في الشوارع، وتم احتجازُهم في أماكنَ مغلقةٍ دون تهويةٍ مناسبةٍ وذلك لإسكاتهم. وحُكم على عشرين من قادتهم بالسجن لمدة عشر سنواتٍ أو عشرين سنةً بتهمة «إنشاء نقابة إجرامية»؛ لذلك سيكون بقيةُ العمال أكثر تقبلًا لسماعِ الأفكار الشيوعية، وفهمِ الحاجة إلى تحدي النظام الرأسمالي. كانت هناك حفلةٌ في تلك الليلة في قاعة «اتحاد عمال الصناعة في العالم» في الميناء، وستكون هناك موسيقى ووجباتٌ خفيفة، واعتقد بول أنها ستكون فرصةً جيدةً للقاء القادة. فقال باني إنه ورايتشل سيذهبان إلى بيتش سيتي، وقد يأتيان إلى الحفلة ويصطحبان بول معهما في طريق العودة.

٤

كان باني قد رضَخ لإلحاح شقيقته بالمساعدة في الشئون المتعلقة بالتركة بطريقةٍ واحدةٍ على الأقل، وهي فحص التقارير التي قدَّمها فيرنون روسكو بخصوص حقل النفط في بروسبكت هيل. فقد ادَّعى فيرن أن أكثر من نصف الآبار معطَّلة، وشكَّت بيرتي في أنه يحاول خداعهما مرةً أخرى. لم تكن بيرتي تستطيع التمييز بين بئر النفط المعطَّلة وبين حظيرة الدجاج، لكن باني كان يملكُ الخبرة اللازمة، ألا يستطيع زيارة الموقع والتحقيق قليلًا لجمع معلوماتٍ من متخصِّصين آخرين في مجال النفط حول الحقل وإمكاناته؟ أخذ باني رايتشل معه؛ فهي بالطبع ستذهب مع زوجها الجديد إلى أي مكان. وكانا قد عيَّنا أحد شباب رابطة الاتحاد الاشتراكي الأكبر سنًّا مشرفًا على مكتب المجلة، بينما شغلَت رايتشل منصبَي المدير ورئيس التحرير، مما منحها قدْرًا كبيرًا من السلطة والأهمية. كان باني يقود سيارته بذراعٍ واحدةٍ مرةً أخرى، وكانت السيارة مائلةً إلى أحد جانبَيها،

وشعَرَت رايتشل بالقلق عندما قاد سيارته بسرعة؛ لأن اللحظات الرائعة مثل هذه تثير حسد الآلهة.

لم يكن قد سبق لرايتشل أن رأت حقلَ نفطٍ من مسافةٍ قريبة. لذلك أخذها باني إلى «البئر المكتشَفة حديثًا»، وأخبرها كيف فقد السيد كولفر السمع في أذنَيه، وهو يحاول إيقاف التدفق برأسه. وأراها البئر الأولى التي حفَرها الأب، التي ساعد باني في استمرار تدفُّق الطين فيها. وهكذا بدأ الأب في جمع ثروته الكبيرة؛ لقد أصبح ثريًّا هو وربما الكثير من الأشخاص الآخرين، ولتحقيق التوازُن في ذلك، كان هناك عدة آلافٍ من الناس في بيتش سيتي مثقلين بالرهون العقارية على منازلهم، مما يعكس الخسائر التي تكبَّدوها من شراء هذه «الوحدات». كانت تلك هي الطريقة التي جُني بها معظم الأموال في بروسبكت هيل، عن طريق بيع الورق بدلًا من النفط. فالحقيقة هي، كما ذكر بول، أن الأموال المُستثمَرة في التنقيب عن النفط كانت أكثر من تلك المكتسَبة منه. لقد كانت تُوجَد هنا كمياتٌ هائلة من النفط، التي لو كانت قد استُخرِجَت بحكمة، لكان من الممكن أن تستمر ثلاثين عامًا، ولكن في الوقت الحالي، تُستخدم الآلات في الحقل بأكمله لاستخراج النفط، وتُنتِج مئات الآبار كميةً صغيرةً جدًّا مما يجعل تشغيلَها غير مربح. ولم يتم الحفاظ سوى على سدس كمية النفط، في حين تم إهدار خمسة أسداس!

كانت تلك هي «المنافسة» المباركة التي كانوا يعلمون الناس في دروس الاقتصاد أن يسعَوا إليها! ومن جانبٍ آخر، فهناك أيضًا الإحصائيات المخيفة التي تشير إلى أنه من بين آلاف الرجال الذين عملوا هنا، لقيَ ثلاثة وسبعون من كل مائةٍ حتفَهم أو أُصيبوا بجروحٍ خطيرةٍ خلال السنوات القليلة من بَدْء العمل بالحقل! لقد كان صحيحًا حرفيًّا أن الصناعة في ظل الرأسمالية كانت حربًا عالميةً مشتعلةً طوال الوقت، ولكن لا تلتفت إليها الصحف.

فحص باني آبار روس، ولم يكن بإمكانه «التطفُّل»؛ لأن بعض العمال القدامى كانوا يعرفونه، وجاءوا لتحيته. فتحدَّث باني مع عدد من الرجال، وتطابقَت تقاريرهم مع تقارير فيرن. وبعد ذلك، في المساء، بينما كان هو ورايتشل يستعدان للمغادرة، وصلا إلى منزلٍ من طابقٍ واحد، متهالكٍ ومهجورٍ ولونُه أسودُ بسبب بقع الزيت ورمادي بسبب الغبار، وبه مُستودَع تخزين في الفِناء الخلفي، ورافعةٌ على بُعد عشر أقدام في قطعة الأرض المجاورة، وعلى الجانب الآخر كانت تُوجَد سقيفةٌ تحتوي على محرك رافعةٍ أخرى. توقَّف باني، وقرأ الرقم على واجهة المنزل، ٥٧٤٦ جادَّة لوس روبلس. «هنا تعيش السيدة

جرورتي! عمة بول، في ذلك المنزل عُقد الاجتماع بشأن عقد الإيجار، وقد سمعتُ صوت بول لأول مرة من خلال النافذة التي هناك!»

وروى باني ما حدث في تلك الليلة واصفًا الشخصيات وكيف تصرف كلٌّ منهم. قال بول إنه كان نزاعًا بسيطًا حول النفط، وكانت الحرب العالمية صراعًا كبيرًا حول النفط، وكانا متماثلَين تمامًا. وبينما كانا يتحدثان، فُتح الباب، وظهرَت امرأةٌ بدينةٌ ذات وجهٍ أحمرَ ترتدي جلبابًا قذرًا، فقال باني في تعجُّب: «ها هي السيدة جرورتي!» حيَّاها قائلًا: «مرحبًا يا سيدة جرورتي!» كانت قد مضت سنواتٌ كثيرةٌ منذ أن رأته آخر مرة؛ لذا كان عليه أن يخبرها من هو؛ فقد كبر ذلك الصبيُّ الصغيرُ وأصبحَت لديه زوجة، حسنًا، حسنًا، هل تُصدِّقين، يمُر الوقت سريعًا حقًّا! إذن فقد تُوفي السيد روس، كان زوج السيدة جرورتي قد قرأ هذا الخبر الحزين في الجريدة. لقد علمَت أنه يجب أن يكون ثريًّا جدًّا؛ لذا شعَرَت بسعادةٍ غامرةٍ بهذه الزيارة، ودعَتْهما للدخول، ولكنها كانت في حالةٍ من الارتباك لأن منزلها لم يكن منظمًا.

دخل باني ورايتشل إلى المنزل؛ إذ أراد باني أن ترى رايتشل الدرَج الغريبَ في منزل السيدة جرورتي، ليضحكا عليه لاحقًا، فلن تُلاحِظ رايتشل أي شيءٍ غير عادي، وستعتقد أن الدرَج يؤدي إلى طابقٍ ثانٍ، في المنزل ذي الطابق الواحد! بدت الغرفة كما هي، على الرغم من أنها بدت أصغر حجمًا وذهب بريقها. وها هي النافذة التي كان باني يقف عندها أثناء الاستماع إلى صوت بول الخافت. يا إلهي، إن كتاب «دليل السيدات، الكُتيب العملي للأرستقراطية» لا يزال موضوعًا على الطاولة في منتصف الغرفة، وأصبح غِلافُه ذو اللونَين الذهبي والأزرق باهتًا وعليه بقعٌ صغيرة. وبجانب الكتاب كانت تُوجَد مجموعةٌ كبيرةٌ مما يبدو أنها أوراقٌ قانونية، ارتفاعُها ثماني بوصاتٍ على الأقل، مجمعة معًا بأشرطة وختم. فلاحظَت السيدة جرورتي نظرةَ باني للأوراق، أو ربما كانت تشعُر بالاحتياج لشخصٍ تبوح له بما يؤرِّقها. قالت: «هذه هي الأوراق المتعلقة بقطعة الأرض الخاصة بنا. لقد استعدتُها للتو من المحامي؛ فهو يأخذ أموالنا ولا يفعل أي شيء.»

وهكذا بدأَت في الكلام، وظلَّت رايتشل تستمع وتعرف أكثر عن تاريخ النفط. لقد أبرمَت عائلة جرورتي اتفاقيةً مجتمعية، ثم انسحبَت منها ودخلَت في اتفاقية أصغر، ثم قامت بتأجير أرضها لصائدَي عقود الإيجار سليبر وويلكينز، اللذَين باعاها بعد ذلك لنقابة ما، وتعرَّضَت هذه النقابة للسرقة وأشهرَت إفلاسها، فاشترى رجلٌ، وَصَفَته السيدة جرورتي بأنه أحقرُ شخصٍ على الإطلاق، عقدَ الإيجار، وقد حصَل على العديد من الحقوق

والامتيازات من الأرض، وفي الوقت الحالي، يُحاوِل الناس أخذ الأموال من عائلة جرورتي، على الرغم من أن العائلة لم تحصُل على أي أرباحٍ قط من البئر، وانظُر إلى الظروف المعيشية الصعبة التي تعيَّن عليهما أن يعيشا فيها طوال هذه السنوات!

كانت هناك مجموعةٌ ضخمةٌ من الأوراق التي تُوضِّح تفاصيلَ المعاملات المختلفة، وقد شملَت الاتفاقيات المجتمعية، وعقود الإيجار، والمخالصات، وسندات الإبراء، وإخطارات إلغاء عقود الإيجار، والرهون العقارية، ومبيعات الأسهم، ومطالبات المقاول القانونية، وإيصالات الضرائب، وإخطارات انتهاء الاتفاقيات، كانت المجموعة كبيرةً جدًّا، حوالي أربعمائة صفحةٍ مطبوعة، مكتوب فيها حوالي مليون ونصف كلمة، معظمُها عباراتٌ قانونيةٌ معقدة، مثل «الموقِّعون أدناه يوافقون على ذلك» و«في ضوء التفاصيل المنصوص عليها هنا» و«نظرًا لعدم قيام الطرف الأول بتنفيذ العمليات المذكورة في الموعد المذكور»، وما إلى ذلك، وهي عباراتٌ تجعلك تشعُر بالدوار بمجرد قلب الصفحة. وكانت كل هذه الأوراق ضروريةً لتسوية ملكية ما كان متوقعًا في البداية أن يكون عشرة آلاف برميل من النفط، ولكن تبيَّن أنه أقل من ألف برميل! هنا يمكنك أن ترى أين ذهبَت الأموال، لقد قضى العاملون ذوو المظهر الشاحب على الآلة الكاتبة أيامهم في المكاتب، يكتبون هذه الكلمات المعقَّدة وينسخونها، وقضى الموظفون ذوو المظهر الشاحب أيامهم في المكاتب يفحصون هذه البيانات ويُعيدون فحصها، أو يبحثون عنها، أو يُسجِّلونها؛ إذ ازداد بعض الرجال الأثرياء في إنجِل سيتي ثراءً من خلال توظيف الآلاف من الرجال والنساء الذين يعملون كالعبيد، وكانت مهمَّتهم حرفيًّا هي كتابة ملايين المستندات مثل هذه، وفحصها، وإعادة فحصها، والبحث عنها، وتسجيلها!

٥

تناول باني ورايتشل العشاء ثم تمشَّيا على حافة النهر؛ كانت واحدةً من تلك الليالي الدافئة التي يشهدها جنوب كاليفورنيا بين الفَينة والفَينة، ولمع القمر فوق صفحة المياه، وكان هناك جسرٌ طويل مُضاء بأنوارٍ برَّاقة، وكان عزف أوركسترا موسيقية يجتذب العشَّاق. فعند مدخل الجسر، كانت هناك قاعةٌ كبيرةٌ خاليةٌ تملكها المدينة تُقام بها حفلاتُ الرقص اللائقة، تحت إشراف الحكومة المتدينة بالمدينة. فدخل باني وزوجتُه إلى القاعة ورقصا، وكان من الجيد الاستمتاع بالرقص في هذا المكان الآمن والخاضع للإشراف، خاصةً خلال ما كان ينبغي أن يكون شهر العسل الخاص بهما!

لكن بين الرقصات، عندما توقفَت الموسيقى، هزَّ شيءٌ ما القاعة، ضربةٌ شديدةٌ ذات صوتٍ خافت، أشبه بصوت الرعد من مسافةٍ بعيدة، مما جعل النوافذ تهتزُّ والأقدام ترتجف. سألَت رايتشل في تعجُّب: «ما هذا؟ زلزال؟»

أجاب باني: «إنها المدافع.»

«مدافع؟» فكان عليه أن يشرح أن القوات البحرية كانت تتدرَّب. فقد كان هناك حوالي عشرين سفينةً حربيةً في الميناء، تستعد لمواجهة عدوٍّ غير مُسمًّى، والآن كان التدريب الليلي على إطلاق النار. يمكنك سماعُه بين الحين والآخر، في النهار والليل، إذا كنتَ تعيشُ بالقرب من الساحل.

وهكذا لم تعُد رايتشل قادرةً على الاستمتاع بالرقص. ففي كل مرة كانت تسمع فيها ذلك الانفجارَ العميق، كانت تتخيل جُثَث الشباب وهي تتقطع إرْبًا. كان الرأسماليون يستعدون لحربٍ أخرى، فلماذا كان الاشتراكيون الذين يعارضون الحروب يرقصون؟

مضَيا بالسيارة على الطريق بالقرب من الميناء. كان طول الطريق حوالي خمسة عشر إلى عشرين ميلًا، وتُوجَد على امتداده بلداتٌ وأرصفةٌ وجسورٌ وخطوطُ سككٍ حديدية ومصانع، وفي الداخل، كانت هناك أحياءٌ يعيش فيها العمال. لقد أصبح أحد الموانئ الرئيسية في العالم بسرعةٍ كبيرة، وشعر الأشخاصُ المسئولون عن التطوير، الذين يسيطرون على الأموال، بالقلق إزاء مشكلةٍ كبيرة، ما يُطلِقون عليه «العمل المباشر» أو «النقابات الإجرامية.»، وكان لـ «اتحاد عمال الصناعة في العالم» مقرٌّ يجتمع فيه أعضاؤه لمناقشة هذا البرنامج، وكان السادة يشنُّون عليه حربًا باستمرار.

كان العنوان الذي أعطَته روث لباني عبارةً عن شارعٍ مظلمٍ في حي يعيش فيه العمال. كان حجم القاعة معقولًا، وبها أضواءٌ في النوافذ، ويخرج منها صوت البيانو وغناء أحد الأطفال. وجد باني مكانًا خاليًا بين السيارات الواقفة على جانب الطريق، فأوقَف فيه السيارة وكان على وَشْك الخروج منها عندما جذبَتْه رايتشل من ذراعه. وصرخَت: «انتظر!» فقد اندفعَت مجموعةٌ من السيارات في الشارع، اثنتان جنبًا إلى جنب، وأغلقَت الطريق تمامًا، وقفز من السيارات حوالَي خمسين رجلًا يحملون أسلحةً مختلفة، مثل الهراوات والفئوس والمواسير الحديدية. واندفَعوا جميعًا نحو مدخل القاعة، وبعد لحظاتٍ توقَّفَت الموسيقى، وسُمع صوتُ صرخات، وتحطُّم زجاج، وضربات قوية.

صاح باني: «إنهم يهاجمونهم!» وهَمَّ بالركوض إلى القاعة، ولكن رايتشل أمسكَت به بشدة ومنعَتْه من الحركة. وصرخَت: «لا! لا! لا تتحرك! ماذا يمكنك أن تفعل؟»

«يا إلهي! علينا أن نفعل شيئًا!»

«ليس معك سلاح، ولا يمكنك إيقاف هذا العددِ الكبير! ما سيحدُث هو أنك ستُقتل! لذا لا تتحرك!»

كان الهَرْج والمَرْج داخل القاعة يتزايد؛ لا بد أن المكان كان مزدحمًا للغاية، وكان الجميع بالداخل يصرخون بأعلى صوت. وكان صوتُ الضربات مرعبًا لدرجة أنه من الصعب تحديدُ ما إذا كانت الضربات أصابت قِطعًا من الأثاث أم أجسادًا بشرية. وكاد باني يفقد عقله، وهو يُحاوِل التملُّص من قبضة رايتشل، لكنها كانت ممسكةً به بشدة، لم يكن يتوقَّع باني أنها بهذه القوة. ثم صرخَت رايتشل: «لا، يا باني! لا! من فضلك، لأجل الرب! من أجلي! أوه، من فضلك، من فضلك!» وفي تلك اللحظات المرعبة، أدركَت رايتشل الخوفَ الذي سيبقى معها لبقية حياتها؛ ففي يوم من الأيام، في خِضَم هذه المعركة الشنعاء بين الطبقات، ستأتي لحظةٌ يكون فيها من واجب زوجها أن يُضحِّي بنفسه. ولكن ليس الآن، ليس الآن! ليس أثناء شهر العسل!

حدث الأمر بسرعةٍ كبيرة، مثل إعصارٍ مفاجئ أتى وذهب قبل أن يلحظ أحد. خرجَت المجموعة المعتدية إلى خارج القاعة بالسرعة نفسها التي دخلَت بها. وكان أفرادُها يعتقلون ستة من الأشخاص، ويرمونهم في السيارات التي كانت لا تزال محركاتها دائرة، ثم تحركَت السيارات محدثةً صوتًا عاليًا في الشارع، وحل الصمت.

كان يمكن لباني الخروج الآن والإسراع إلى القاعة، ورايتشل خلفه مباشرة. لم يدُر بخلَده سوى خاطرةٍ واحدة، تمامًا مثل الليلة التي هُرع فيها إلى منزل السيدة جرورتي وهو يصرخ: «بول! بول!» كانا متأكدَين من أنهم أخذوا بول أثناء هذا الاعتداء، فكيف يمكن لباني أن ينقذه؟

أول ما رآه باني عند مدخل القاعة كان رجلًا مصابًا بجرحٍ بالغٍ في جبهته، والدم يسيل من كل مكان؛ كان يترنَّح لأنه لم يتمكن من الرؤية جيدًا، وكان يصرخ: «الأوغاد! الأوغاد!» وبجانبه رجلٌ آخرُ جريح اليد، وامرأة تمزِّق تنورتَها لتصنع ضمادة. وعلى الأرض فتاة صغيرة تتألم بشدة، وتصرخ، وكان أحدهم يحاول خلع جواربها، فيخرج الجلد مع الجوارب. همس أحدُهم في أذن باني: «لقد ألقَوا بها في القهوة! يا إلهي، لقد ألقَوا بالأطفال في القهوة المغلية!»

عمَّت الفوضى أرجاء المكان، وكانت النساء إما في حالة من الهيستريا أو يبكين على الأرض. لقد تم تحطيم كل قِطع الأثاث في القاعة؛ إذ تحطَّمَت الكراسي بالفئوس، كما

تحطَّم البيانو وتناثرَت أجزاؤه على الأرض. وانقلبَت الطاولات، وتحطَّمَت الأطباق والآنية الفخارية، وانقلبَت الحاوية المعدنية التي كانت تغلي فيها القهوة، وانسكب السائل المغلي في كل مكان. لكن قبل انقلاب الحاوية، قام المعتدون بإلقاء ثلاثة أطفال في القهوة المغلية، واحدًا تلو الآخر، بينما حاول آباؤهم اليائسون إنقاذهم. فأحرق السائل المغلي أرجلَهم، مما سيتسبب في إعاقتهم مدى الحياة، وكان من بين الأطفال فتاةٌ تبلغ من العمر عشر سنوات تُعرف باسم «طائر العمال المغرد»؛ إذ كانت ذات صوتٍ جميلٍ عالي النبرة، وكانت تُغَني الأغاني العاطفية وأغاني التمرد، وقد أنزلها قائد المعتدين بالقوة من فوق المسرح قائلًا لها: «سنُغلِق هذا الفم اللعين!»

ماذا كان المغزى من هذا الاعتداء؟ فبحسب الصحف فإن هذا كان بسبب سخط بحارة الأسطول الوطنيين. فقد حدث انفجار في إحدى البوارج، قُتل على إثره عدة رجال، ونشرَت الصحف خبرًا مفاده أنه سُمع أحد أعضاء اتحاد عمال الصناعة في العالم وهو يضحك في رضًا. إن هذه استراتيجيةٌ قديمةٌ تستخدمها المؤسسات الإعلامية القوية. ففي روسيا القديمة، جرى تحريض «جماعة المئات السود» من خلال حكايات عن «جرائم القتل الطقسية» التي ارتكبها اليهود؛ إذ قُتل أطفال مسيحيون للتضحية بهم. وفي بريطانيا، تقوم الحكومة الآن بتزوير رسائلَ منسوبةٍ إلى القادة السوفييت، وتستخدمها للتأثير على نتائج الانتخابات. وفي أمريكا، بدا الاضطرابُ الشديدُ بسبب عمليات الترحيل مشروعًا من خلال مجموعةٍ كبيرةٍ من الوثائق المزوَّرة، التي تم التصديق عليها رسميًّا.

وزعمَت الصحف المؤيدة للقانون والنظام أنه اعتداءٌ وليد اللحظة. ومع ذلك، فقد لُوحظَت تفصيلةٌ مهمة؛ فخلال الاجتماعات السابقة التي شارك فيها عمال الصناعة في العالم، كان ضباط الشرطة يحضُرون لملاحظة أي خطابٍ إجرامي، ومن الغريب أنه في هذه الليلة بالذات لم يكن هناك أي ضُباطِ شرطة. وحتى بعد ذلك، لم يُرسَل أيٌّ منهم إلى موقع الحادث، يمكن لباني و«الحمر» الآخرين الاحتجاج خارج قسم الشرطة وحكومة المدينة، وتقديم أسماء المحرِّضين الرئيسيين على الاعتداء، ولكن لن يُتَّخذ أي إجراءٍ لمعاقبة المسئولين عن هذا الهجوم الدموي!

٦

لم يكن باني يتوقع أن يجد بول، لكنه وجده مستلقيًا على ظهره، وحوله بعض الأشخاص. كانت عينُه اليسرى تنزف بشدة، وبدا أنها أصيبَت إصابةً بالغةً نتيجة لإحدى الضربات؛

رقد بول خائر القوى ودون حراك، وعندما ناداه باني باسمه لم يستجب. لكنه كان على قيد الحياة، وصوت تنفُّسِه العالي يشبه صوت الشخير.

استدعُوا الطبيب! استدعُوا الطبيب! كان يعيش في هذا الحي عددٌ من الأطباء، وسارع الناس إلى استدعائهم. كان باني، الذي عاش في بيتش سيتي لفترة من الوقت، يعرف أحد الجراحين، فأسرع إلى الهاتف، ومن حسن حظه أن الجراح كان في المنزل. فأخبره باني بما حدث، فقال له الجراح إنه سيحضر على الفور، وذكر أنه إذا كان هناك أي إصابة في الجمجمة أو العظام الأخرى، فسيكون من الضروري التقاط صور بالأشعة السينية؛ لذا أعطاه أسماء أطباء متخصصين في ذلك، فأجرى باني المزيد من المكالمات الهاتفية، واتفق مع أحدهم أن يبقى في مختبره ويستعد لأي تطورات. كما طلب سيارة إسعافٍ من أحد المستشفيات.

وبعد ذلك عاد إلى القاعة حيث بقي بول على الحالة نفسها. كانت رايتشل قد وضعَت منديلًا نظيفًا على عينه المُصابة، ووضعَت وسادةً تحت رأسه. ونُقِل المصابون الآخرون، وأُغلِق بابُ القاعة المحطَّمة لمنع المتفرِّجين الفضوليين من دخولها.

وصل الجراح، وقال إن بول يعاني من ارتجاج في المخ. وكانت هناك علامات على وجود ضربةٍ قويةٍ في قاع الجمجمة؛ ربما يكون بول قد ضُرب في عينه فسقط وارتطمَت مؤخرة رأسه بشيءٍ ما أثناء السقوط، أو ربما يكون قد تلقَّى ضربةً من الخلف فسقط أرضًا، ثم تلقى ضربةً أخرى على عينه لاحقًا. كانت الخطوة الأولى هي التقاط صورٍ بالأشعة السينية، فنقلوا بول الفاقد للوعي إلى المعمل والتقطوا الصور، ثم أشار الجراح لباني ورايتشل إلى وجود كسرٍ في قاع الجمجمة، يمتد نحو الأمام أعلى تجويف الفم. لم يكن هناك ما يمكن فعله، فمن المستحيل إجراء عمليةٍ في هذا المعمل. كان السؤال هو كيف حدث ذلك، والوقت وحده كفيل بالإجابة عن هذا السؤال. والمريض الآن بحاجة إلى الهدوء.

وكان هناك مستشفًى خاصٌّ في المدينة؛ لذلك لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى نُقل بول إلى سرير المستشفى، تُغَطي عينه المصابة ضمادة، ورأسُه في حمالةٍ لتجنُّب الضغط على المنطقة المصابة، وجلس باني ورايتشل بجوار سريره، ينظران إليه في حزن. وقرأَت رايتشل أفكار باني مثل أي امرأة. فسألَته: «عزيزي، هل ستلوم نفسك إلى الأبد لأنك لم تدخُل إلى القاعة وتُعَرِّض جمجمتك للكسر هي الأخرى؟» لا، كان يعلم أنه لم يكن ليمنع الضرر، ولكن لماذا عقل بول، أفضل عقلٍ عرفه باني على الإطلاق! وجلس ينظر إليه في رعب وحزن.

ومع ذلك، كانت هناك مهمةٌ صعبةٌ أخرى تنتظرهما. فقد ذَكَّرته رايتشل قائلة: «علينا أن نُخبِر روث.» وعرضَت أن تتولَّى هي هذا الأمر مراعاةً لمشاعره. فاتصلَت بأخيها جيكوب، الذي كان قد عاد للتو من اجتماع اللجنة، وكان عليه الآن أن يطلب سيارةَ أجرة، ويذهب إلى منزل روث ويُحضرها إلى الميناء.

وبعد ساعتَين، حضَرَت روث إلى المستشفى مسرعةً وصعدَت الدرَج، وظهر الخوفُ الشديدُ على ملامحها. قالت: «كيف حاله؟ كيف حاله؟» وعندما دخلَت الغرفة ورأت بول، تجمَّدَت في مكانها. وتابعت: «يا إلهي، ماذا حدث؟» وعندما أخبراها بما حدث، سألت: «هل سينجو؟» واقتربَت منه دون أن ترفع عينَيها عن وجهه. ومدَّت يدَيها نحوه، ثم تراجعَت؛ فلم تكن متأكدةً مما إذا كان مسموحًا لها لمسُه، ثم مدَّت يدَيها مرةً أخرى، وكأن ليدَيها إرادةً مستقلة. وفجأة، وهَنَت ركبتاها، وسقطَت على الأرض، وغطَّت وجهَها بيدَيها، وانهمَرَت الدموع من عينَيها.

حاولا مواساتها، لكنها لم تكن تكاد تُدرِك وجودَهما. فقد كانت وحيدةً في أروقة الحزن المؤلمة. راقبَها باني وانهمرَت دموع الحزن على وجنتَيه. كانت فِي قد قالت إنه ليس من المعتاد أن تحمل فتاةٌ مثل هذه المشاعر تجاه أخيها، لكن باني تفهَّم ذلك؛ لقد كانت روث تسترجع أيام طفولتها على تلال بارادايس النائية، عندما كان بول هو صديقَها الوحيد، ملجأَها الآمن من عائلتها المتعصبة دينيًّا، وأبيها الذي كان يستخدم العنف لفرض معتقداتِه عليها. وفي تلك الأيام الخوالي، أدركَت روث أن بول شخصٌ عظيم وتبعَتْه على مرِّ السنين، لقد شهدَت تطوُّر عقله وتعلَّمَت منه كل ما كانت تعرفه، والآن، كانت رؤيةُ عقله محطمًا بضربةٍ من أنبوبٍ حديدي من شخصٍ لا يعرف الرحمة أمرًا مؤلمًا!

٧

مرَّ وقتٌ طويلٌ بعد منتصف الليل، وقالت رايتشل لباني إن عليهما المغادرة. فلم يكن بوسعهما فعلُ أيِّ شيءٍ آخرَ لبول أو لأخته. كان هناك فندقٌ صغيرٌ قريبٌ يمكنهما أخذ غرفةٍ فيه ونيل قسطٍ من الراحة، وستتصل بهما ممرضةُ المستشفى إذا طرأَت على الحالة أي تغيرات. وافق باني؛ فلم يكن يريد أن يظلم رايتشل. فقد أدرك أن إخلاصه الشديد لبول، وموافقتَه الكاملة على جميع أفكاره، وتذكُّره الدقيق لكل ما قاله، كان غير طبيعي بعض الشيء. نعم، لقد قالت له بيرتي ذلك، وكذلك فعلَت فِي، والآن رايتشل!

جافى النومُ عينَي باني. لذا، بينما كان مستلقيًا في سرير غرفة الفندق، شارك رايتشل أفكاره، وأوضح كيف دخل بول إلى حياته في الوقت الذي كان يبحث فيه عن شيءٍ مختلفٍ وأفضل. لقد قدَّم له بول نموذجًا مثاليًّا صعب الوصول إليه؛ إذ قدم له مثالًا على الاعتماد على الذات، والتفكير المستقل، والتصميم على مواجهة الحياة وفهمها، دون الانجراف وراء الثروة أو المتعة. واعترف باني أنه لم يستطع أن يحذو حذوه، لا؛ فقد عاش حياةً مرفَّهة، وانشغل بمطاردة النساء، ومع ذلك، فقد كان متمسكًا دائمًا بهذه الرؤية، ورَغِب في أن يكون مثل بول.

وبعد ذلك، مع كل أزمةٍ جديدةٍ في حياته، كان بول يظهَر، ليكون بمثابة المعيار الذي يستطيع باني من خلاله تقييمَ أفعالِه؛ ليدرك أن النجاح الذي كان يحقِّقه كان ضئيلًا جدًّا. لقد أخبره بول عن العمال وعن شعورهم، مجسدًا روحَ حركة الطبقة العاملة الناشئة. لقد كان عقل بول بمثابة الضوء الكاشف الذي يُنير العالم ويُظهِر لباني ما يحتاج إلى معرفته. والآن انطفأ ضوءُ الكشاف، وكان على باني أن يرى من خلال فانوسِه ذي الضوء الواهن!

همسَت رايتشل بهدوء: «عزيزي، قد يتعافى»، فتأوه باني، لا، لا، سيموت بول. وكانت تلك الصورة بالأشعة السينية للكسر في قاع جمجمة بول تظهَر بشكلٍ واضحٍ في ذهنه مثل صاعقةٍ مفاجئة. لقد انطفأ النور، على الأقل في هذا العالم؛ أطفأه شخصٌ متوحشٌ بأنبوبٍ حديدي.

فضمَّتْه رايتشل إلى صدرها وحاولَت مواساتَه بلمساتها الحانية. ونجحَت في ذلك بالطبع؛ فلم يكن يستطيع مقاومة حبها. وسرعانَ ما راح في إغفاءة. ولكن رايتشل لم تستطع النوم، كانت تستلقي بجانبه وتحتضنه لأنه كان يجفل أثناء نومه، وترتعد أطرافه، مثلما شعرَت عندما أُطلقَت المدافع الكبيرة!

ما الذي كان يفعل باني؟ هل كان يقاتل هؤلاء المجرمين بهراواتهم وفئوسهم وأنابيبهم الحديدية؟ أم كان، كما فعل في الماضي، يحوم فوق بول وروث، ويشهَد الأحداث التي عذَّبَت نفسه؟ أم كان يرى والده وهو يحرمُ الأسرة من أرضها، ويرى شركات النفط وهي تُخمِد الإضراب الأول، ويرى الحكومة تأخذ بول بالقوة وتحوِّله إلى مفسد لإضراب مصرفيِّي وول ستريت، ويرى فيرنون روسكو وهو يُلقي ببول في السجن، ويرى الرأسمالية، بنظامها الإرهابي العالمي، تُطارِد بول هنا وهناك، وتُهينه، وتُهدده، ثم، في النهاية، تستأجر شخصًا بلا رحمة بأنبوبٍ حديدي!

٨

جاء الصباح وعادا إلى غرفة المستشفى. لم يتغيَّر أي شيء. كان بول لا يزال مستلقيًا على السرير، يتنفَّس بخشونة، بينما جلسَت روث على كرسي بجوار السرير، لا ترفع عينَيها عن أخيها، ويداها متشابكتان بإحكام. والفرقُ الوحيدُ هو أنها بدَت أكثر شحوبًا، وكانت شفتاها ترتجفان، ولا تستقرَّان مطلقًا. وحثَّتها ممرضة المستشفى على الاستلقاء ونيل قسطٍ من الراحة، لكنها هزَّت رأسها. لا، لقد كانت معتادة على رعاية المرضى؛ فقد كانت هي الأخرى ممرضة. فقالت لها الممرضة إن جميع الممرضات يخلدْنَ إلى النوم متى أمكَن ذلك، لكن لا، من فضلكِ، أرادت روث أن تبقى في مكانها.

عاد الجرَّاح. ولم يكن هناك ما يمكنُه فعلُه، فالوقتُ وحده كفيلٌ بتقديم الإجابات. فتنحَّى باني به جانبًا وسأله عن فرص بول في النجاة. من المستحيل الإجابة عن هذا السؤال. إذا كان بول سيتعافى، فسوف يستعيد وعيه. وإذا كان على وشك الموت، فقد تحدُث مضاعفات مثل الالتهاب السِّحَائي أو ربما جلطة في المخ.

اقترحَت رايتشل أن يتم إبلاغ أسرته. لذلك أرسل باني برقية إلى آيبل واتكينز في بارادايس، يُخبره فيها أن يستقل سيارة ويُحضِر العائلة على نفقة باني. وفكَّر فيما إذا كان من واجبه إرسالُ تلغراف إلى إيلاي، لكنه قرَّر في النهاية ألَّا يفعل ذلك. قد يتولَّى السيد واتكينز العجوز أمر إبلاغ إيلاي، لكن باني يسترشد في قراره بما كان بول سيُفضِّله. ثم وصلَته صحفُ الصباح وقرأ روايتَها السعيدة لأحداث الليلة السابقة: لقد تلقَّى «الحمر» درسًا كانوا بحاجةٍ إليه، وتمَّت استعادة القانون والنظام في الميناء.

كان ذلك صباح يوم الانتخابات، وهو ما يمثِّل ذروة الحملة التي كانت بمثابة كابوسٍ طويلٍ لباني. كان السيناتور لافوليت مرشحًا مدعومًا من الاشتراكيين، وكانت القضية الأساسية هي الفساد في قطاع النفط، مع التركيز على أولئك الذين كشَفوا جرائم المسئولين الفاسدين في السلطة. في البداية، أحرزَ هؤلاء الكاشفون تقدمًا، وبدا أن الشعب مهتمٌّ بالقضية. ولكن الخصم كان ينتظر فقط اللحظةَ المناسبةَ ليضرب ضربته. ففي الأسابيع الثلاثة الأخيرة من الحملة، استخدم العدو موارده، فأظلمَت السماء بغمامةٍ هائلةٍ من الأكاذيب، مثل أسراب دبابيرَ سامةٍ لادغة!

وبطبيعة الحال، كان مصدر الأموال هو فيرنون روسكو، وأقطاب النفط، وكذلك المصرفيون، ومجموعات القوى، وكبار الصناعيين ممن يتمتعون بالحماية، وجميعُهم كانت لهم مصلحةٌ خاصةٌ في شراء الحكومة، أو سيقع عليهم ضررٌ في حالة الفشَل في

شرائها. تكلَّفَت هذه الحملة خمسين مليون دولارٍ أخرى، وكانت في كل قريةٍ ومنطقةٍ وفي كل مدينةٍ وبلدةٍ لجنةٌ مخصَّصة لنشر الذعر. وكانت المصانع الرئيسية التي تصنع هذه الدعاية موجودةً في واشنطن ونيويورك، وكان منتَجُها يُوَزَّع في جميع أنحاء البلاد بوسائلَ مختلفة؛ بالصحف، والنشرات، والتجمُّعات الجماهيرية، والمسيرات، والفرق الموسيقية، ومسيرات المشاعل والنيران الحمراء، والبث الإذاعي، وشاشات السينما. إذا فاز لافوليت، المدمِّر الأحمر، فسوف يؤدي ذلك إلى كارثةٍ للشركات، ويُصبِح العمال عاطلين عن العمل، وعليه، فقد استُحِثَّ الجميعُ على التصويت لصالح رجل الدولة القوي العظيم الحكيم، الصديق النبيل لعامة الشعب المُسمى بـ «الكاليفورني الحذر». وبينما كان بول واتكينز راقدًا في حالةٍ حرجةٍ يكافح من أجل التقاط أنفاسه الأخيرة في الحياة، كانت بطاقات الاقتراع تُسلَّم وتُفرَز في جميع أنحاء البلاد بمعدَّل ما يقرُب من ألف بطاقة اقتراع في الثانية. كانت تعلن عن إرادة عامة الشعب.

٩

بدا اليوم وكأنه منتصف الصيف، وكانت نوافذ غرفة المستشفى مفتوحةً على مصراعَيها. وعلى بُعد حوالَي عشرين قدمًا، في المبنى السكني المجاور، كانت تُوجَد غرفةٌ أمام غرفة المستشفى مباشرةً، ولها نافذةٌ مفتوحةٌ بجانبها جهاز راديو من بين مائتَي ألف جهاز راديو في ولاية كاليفورنيا. كانت السيدة التي تعيش في تلك الشقة واحدةً من مائتَي ألف ربة منزل اعتدْنَ القيامَ بأعمالهن المنزلية، أثناء الاستماع إلى «يسوع، حبيب روحي» أو «مامي المثيرة، الفاتنة التي لا تُقاوَم.» كانت هناك عدة محطاتٍ إذاعيةٍ متاحة، بعضٌ من هذه المحطات تبُثُّ برامجها بشكلٍ مستمر، ويمكنك الاختيارُ فيما بينها. وكانت لربة المنزل هذه أذواقٌ متنوعة، فكان أولئك الجالسون بجانب سرير بول يسمعون مقتطفاتٍ مختلفةً من فرقة «ألوها هاواي» الرباعية، وحفل الأرغن من الكنيسة الميثودية الأولى، وأوركسترا «بيجلي ويجلي جيرلز،» وراديو «كيو إكس جيه» الذي يعلن عن عدد الأصوات في المنطقة الشرقية، وراديو «في زي دبليو» الذي يعلن عن بيع السيارات المستعملة، ومذيع غير معروف يشجِّع المواطنين على التوجُّه إلى صناديق الاقتراع، والآنسة إلفيرا سميثرز، السوبرانو كولوراتورا، وهي تغني: «أحبك يا عزيزي، نعم أحبك.»

جاءت مكالماتٌ هاتفيةٌ من حزب العمال ومن أعضاء اتحاد عمال الصناعة في العالم الذين في الميناء. واستمَع مراسلو الصحف بلطفٍ إلى باني الغاضب بشأن الاعتداء، وقاموا

بتدوين بعض الملاحظات، لكنهم لم ينشُروا أي شيء بالطبع. فصحف إنجِل سيتي تتبع سياسةً يمكن لأي طفل أن يفهمَها، وهي تجنُّب نشر أي أخبار قد تضُر بالمصالح التجارية أو تُسيء إليها.

وجاءت مكالمةٌ هاتفيةٌ من بارادايس، كانت من ميلي واتكينز، التي أصبحَت الآن السيدة آندي بوجنر. لقد ذهب والدها ووالدتها، مع سادي، إلى اجتماع إحياء. ولم تكن ميلي تعرف مكان الاجتماع، لكنها ستُحاوِل معرفةَ مكانهم. كيف حال بول؟ وعندما أخبرها باني بحالة بول، سألَت عما إذا كانوا قد طلبوا حضور إيلاي. فبغَض النظر عما إذا كانوا مقتنعين بما يفعله أو لا، فالحقيقة هي أن إيلاي يمتلك قدراتِ شفاءٍ مذهلة، وقد نجح في علاج العديد من الأشخاص، وهو بالتأكيد سينجح في علاج أخيه! لذا، أرسل باني برقيةً إلى إيلاي في المعبد، لإبلاغه بحالة بول، وبعد ساعتَين وصلَت سيارة ليموزين كبيرة وفاخرة إلى المستشفى.

ارتدى إيلاي واتكينز، نبي الوحي الثالث، بدلةً بيضاءَ مائلةً إلى الصفرة ذات نسيجٍ ناعمٍ تُبرِز قامتَه الطويلة. وفي أيام المجد والسلطة هذه، كان يتخذ طابعًا بابويًّا. لقد امتنع عن المصافحة، وبدلًا من ذلك كان يثبِّت عينَيه البارزتَين الزرقاوَين اللامعتَين عليك ويقول: «فلتحلَّ عليك بركاتُ الرب.» وعند دخوله إلى غرفة أخيه، وقف في صمتٍ يتأمله، ولم يُظهِر أي اهتمام بصُور الأشعة السينية للجمجمة؛ فالرب كان يعلم كل ما كان يلزم. وفي النهاية قال: «أريد أن أبقى بمفردي مع أخي.» ونظرًا لعدم وجود سببٍ واضحٍ لرفض طلبه، غادر باني ورايتشل وروث الغرفة.

لم يُشكِّل المكان الذي كانت فيه روث أي فرق بالنسبة لها؛ فلم يكن بوسعها سوى الجلوس والتحديق أمامها، وشفتاها ترتجفان بشدة في مشهدٍ مؤلم. إنه حزنٌ عميق! وقد ترجَّاها طبيب المستشفى أن تشربَ القليل من الحليب، وأحضَرت الممرضةُ كوبًا، فأخذَت روث رشفةً منه لكنها لم تستطِع بلعَه. فقد تجمَّعَت الدموع في عينَيها، ولم يكن بوسع أحدٍ أن يتكلَّم معها، أو أن يفعل أي شيءٍ معها.

ورحل إيلاي دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة؛ فطُرق الرب لم تكن دائمًا مفهومةً للبشر العاديين. ولم يطرأ على حالة بول أيُّ تغييرٍ ملحوظ. وعادت روث إلى الجلوس بجانب سرير بول، لكن الطبيب أمرها بأن تأخذ عقارًا منوِّمًا وأن تنال قسطًا من الراحة، فلن يسمحَ لها بإلحاق الأذى بنفسها في مستشفاه. ونظرًا لأن روث كانت معتادةً على تنفيذ أوامر الأطباء، فقد ذهبَت مع الممرضة، وبقي باني ورايتشل بجانب بول.

١٠

ومع حلول الليل، عاد ساكنُ الشقة المقابلة لنافذتهم إلى منزله، وتناول عَشاءَه، وجلس على كرسيٍّ عميقٍ من الخيزران أمام جهاز الراديو يرتدي قميصًا وفي يده غَلْيون، وبدأ في استكشاف قنوات الراديو. وسمح ذلك لمرافقَي بول بمعرفة أخبار الانتخابات دون الحاجة إلى التحرُّك من مكانهما. وبسببِ فروقِ التوقيت، تلقَّت ولاية كاليفورنيا نتائجَ الانتخابات من الولايات الشرقية قبل أن تُصبِح نتائجها متاحة، ولكن ظهرَت النتائج في الولايات الشرقية وتلك الغربية في الوقت نفسه في مساء هذا الثلاثاء؛ فقد حقَّق صندوق الحملة الضخم الذي تبلغ قيمتُه خمسين مليون دولار أهدافه، وبغض النظر عن المكان الذي تُتابع فيه أخبارَ الانتخابات، كان من الواضح أن عدد أصوات الناخبين الذين أدلَوا بأصواتهم لصالح رجل الدولة القوي الصامت، كان أكبر من عدد الأصوات التي حصل عليها خصومُه مجتمعين. ولأن هذا هو بالضبط ما كانت محطات البث، إلى جانب الصحف الكبرى والكنائس والمعابد والمَظالِّ التي تسيطر عليها، ترغب فيه بشدة، فقد حملَت الإعلانات لهجةً مرحة، وبعد سماع أن ولاية ماساتشوستس تدعم بشكلٍ حاسمٍ مرشَّحَها المفضَّل، يمكنك سماع أعضاء فرقة «جولي جاز بويز» الستة وهم يغنُّون: «لقد تعرَّفتُ على فتاةٍ شابةٍ مثيرةٍ في بلدة بالقرب من السكة الحديدية!» أو ربما تسمع فرقة «شيكاجو كوميت» تغني بسعادة: «سوف تأتي حبيبتي في الثانية ودقيقتَين!» وقد خلق هذا جوًّا مبهجًا، على الرغم من أن بول لم يكن في وعيه لسماع ذلك للأسف.

بدأ معبد الوحي الثالث يبُث برنامجه في ذلك الوقت. فلم يُظهِر أتباع إيلاي أي اهتمام بالانتخابات؛ لأنهم اعتقدوا أنهم سيصعدون قريبًا إلى العوالم السماوية التي يحكمُها نظامٌ ملكي. بدأ البث بعزف الأرغن، ولكن صاحب المنزل لم يهتم بذلك، وفضَّل راديو «فِي كاي زي،» وهو برنامج تحت رعاية شركة «سنو بايبي» للصابون، الذي قدَّم أول ظهور في إنجِل سيتي لثلاثي «بريتي بيت»؛ إذ غنَّوا أحدث أغانيهم «عزيزتي الصغيرة المحبة للجاز، حبيبتي الصغيرة المحبة للجاز». ولكن، في وقتٍ لاحق، عاد صاحبُ المنزل مرةً أخرى إلى بث معبد الوحي الثالث، فسُمع صوت إيلاي العالي، وهو الصوتُ الذي يُحبه جميع سكان كاليفورنيا. فأدرك باني ورايتشل الغرض من زيارة إيلاي لبول.

«أيها الإخوة، لقد منَّ عليَّ الرب بدليلٍ رائعٍ على رحمته تجاهي. إنه يقدِّم بشرى مجيدةً للعالم الليلة! لي أخٌ أكبر اسمه بول، كان رفيق صباي، وقد تربَّيْنا على مخافة الرب،

وقد كان معتادًا على سماع صوت العليِّ على التلال المنعزلة؛ حيث كنا نرعى معًا القطعان الخاصة بأبينا. كنا رعاةً نجلس تحت النجوم، ننتظر علامةً على رحمة الرب، ونُصلِّي من أجل خلاص النفوس الضالَّة في هذا العالم، طالبين الحمايةَ من فِخاخ الشيطان.

لكن يا إخوتي الأعزاء، كبر أخي وضلَّ عن طريق الإيمان الذي اعتاد السيرَ فيه في طفولته، واستسلم لتأثير الرفاقِ الأشرارِ وأصبح مستهزئًا بكلمة الرب. ولم تعُد محبة مُخلِّصنا يسوع المسيح تسكُن قلبه، وحل محلَّها الكراهيةُ والشقاقُ والحسدُ تجاه أولئك الذين أعلن لهم الرب حقيقته. لقد حل به يا إخوتي البلاء الذي سعى هذا الضالُّ إلى إلحاقه بالآخرين، وفي هذه الليلة، يرقُد بين الحياة والموت، متأثرًا بأفعال الشر التي حَرَّض عليها ذات يوم. لقد كان من واجبي أن أزورَه وهو في سريره وأراه يرقد فاقدًا للوعي، وكان هذا أمرًا مؤلمًا.

ولكن يا أصدقائي، مَن منَّا يستطيع أن يتوقع حكمة الرب؟ من يستطيع أن يفهم طُرقه؟ لقد جرت إرادتُه الإلهية أن يستجيبَ لصلواتي ويسمحَ لأخي الضال أن يفتَح عينَيه، ويسمع صوتَ الرب يتكلم على لساني، ويستجيب لها، ويعترف بخطاياه، ويتوب، ويُشفى، ويتطهَّر في دم حَمَل الرب. المجد للرب! هللويا! إِنْ كَانَت خطاياكُم كالقِرْمِز تَبيضُّ كالثلج، مباركٌ اسمُ الربِّ! افرحوا معي يا إخوَتِي؛ لأني وجدتُ خِرافي الضَّالَّة. أقولُ لكم: إنَّه هكذا يكون فَرَحٌ في السماء بخَاطِئٍ واحدٍ يتوبُ أكثرَ مِنْ تسعةٍ وتسعينَ بارًّا لا يحتاجون إلى توبة. هللويا! هللويا!»

وطَوال هذا الخطاب، كان هناك هتافٌ مستمرٌّ من جمهورٍ كبير. فقد هتفَت الجموعُ بكلماتٍ حماسيةٍ عند توقُّف النبي عن الكلام، وعندما وصل الخطابُ إلى نهايتِه، هتفَ الجمهورُ في ابتهاج: «المجد! المجد، هللويا!» وفي هذه الأثناء، عند مدخل غرفة المستشفى، كانت تقف روث واتكينز، بعدما استيقظَت من نومها. كانت تُحدِّق في باني في رعب، وهمسَت: «أوه، يا له من كذب!»

كانت لدى باني شكوكٌ حول صحة كلام إيلاي، لكنه لم يتمكَّن من إثباتها، وحتى إن استطاع، فما الفرق الذي سيُحدِثه؟ فالراديو هو وسيلةُ اتصالٍ أحاديةُ الاتجاه، تسمح لك بالاستماع فقط دون الرد. وهذه الطبيعة الأحادية الجانب هي ما يجعل الراديو مفيدًا بشكلٍ كبيرٍ للنظام الرأسمالي. فالمستمع يجلس في منزله ويتلقَّى ما يُقدَّم له من معلومات، مثل الرضيع الذي يرضَع من خلال أنبوب. وهو الأساسُ الذي تُبنى عليه أعظمُ إمبراطوريةٍ للعبيدِ في التاريخ.

١١

قام صاحب المنزل بتغيير محطة الراديو. وقد بدأَت إذاعة نتائج الانتخابات في كاليفورنيا. «إذاعة «في إكس زي»، أخبار إنجِل سيتي المسائية، إنجِل سيتي، كاليفورنيا.» كان المذيع يمتلك صوتًا لطيفًا ومريحًا يستحق عليه راتبًا شهريًّا كبيرًا، وكانت لديه ضحكةٌ مكتومةٌ جعلَته محبوبًا لدى الأطفال، الذين عرَفوه باسم «العم بيتر»، وقد كان يقُصُّ على الأطفال حكايات قبل النوم. والآن يستخدم خفَّة ظلِّه في إذاعة نتائج الانتخابات. «روساريو، كاليفورنيا. أهلًا! مسقط رأس بوب باكمان سكرتير الغرفة التجارية! لنرَ ماذا فعل بوب! روساريو، ٣٧ دائرةً انتخابية من أصل ٥٢، لافوليت ١١٧، دافيز ٨٦، كوليدج ٥٤٩. عظيم! إذا كان بوب يسمعنا الآن، فتهانينا من العم بيتر؛ فأنت مؤيدٌ متحمسٌ يا بوب!»

وبعد ذلك، دهِشَ الأشخاصُ المتجمعون بجانب السرير، عندما تابع قائلًا: «باراdايس، كاليفورنيا. ما رأيكم في هذا؟ المكان الذي به حقل روس الابن للنفط، الذي يملكه باني روس، مؤيِّد البلشفية من الصالون! باني هو فتًى يدافع عن السجناء السياسيين، كما يُحب أن يسمِّيَهم؛ ولديه جريدةٌ متواضعةٌ تهدف لنشر الأفكار الاشتراكية بين شباب وفتيات الجامعات. دعونا نرَ ما ستقوله بلدة الفتى باني. بارادايس، كاليفورنيا، ١٤ دائرةً انتخابية من أصل ٢٩، لافوليت ٢١٧، دافيز ٩٨، كوليدج ٦٩٣. حسنًا، حسنًا، يبدو أن لديك المزيدَ من العمل الذي يتعيَّن عليك القيامُ به داخل المؤسسات يا باني!»

قام صاحب المنزل بتغيير المحطة مرةً أخرى. «إذاعة «كيو إكس جيه»، برامج إنجِل سيتي المسائية، نستمع إلى عزف البانجو الفردي لبيلا بلو، ساحرة ويتشيتا.» بلانكيتي-بلانكيتي-بلانكيتي-بلانك-بلانك-بلانك-بلانك-بلانك!

بدأَت شفاه بول تتحرك. كان يُصدِر أصواتًا خافتة، وانحنَت روث بالقرب منه. وقالت: «إنه يستعيدُ وعيه! أحضِروا الطبيب!» وصل طبيبُ المستشفى واستمع لنبض بول، لكنه هزَّ رأسه. إن الأمر يتعلق فقط بالمناطق التي تأثَّرَت من الدماغ، ربما لم تُصَب المناطق المسئولة عن الكلام بأذًى. لم يكن لكلمات بول معنًى، وأوضح الطبيب أن بول لم يكن على الأرجح على علمٍ بما يقوله. ومن الممكن أن تستمرَّ هذه الحالة لعدة أيام، وربما حتى أسبوع أو أسبوعَين.

ولكن روث ظلَّت تُحاوِل تمييز كلمةٍ واحدة. ربما يحاول بول التحدُّث إليها، ليطلب منها طلبًا معينًا. وهمسَت له بلهفةٍ حزينة: «بول، بول، هل تُحاوِل أن تقول لي شيئًا؟» أصبحَت الأصواتُ أكثر وضوحًا، فقالت رايتشل: «إنها تبدو وكأنها لغةٌ أجنبية.» فقال

باني: «لا بد أنها اللغة الروسية»؛ فهي اللغة الأجنبية الوحيدة التي يعرفها بول. كان الأمر غريبًا، أشبه بجثةٍ أو دميةٍ شمعيةٍ تتكلم؛ يبدو وكأن الأصوات تصدُر من أعماق حلقه. كرَّر مرارًا وتكرارًا: «دا ذدرافستفويت ريفلييتزيا!»؛ فقال باني: «لا بد أن هذا يعني الثورة.» وبعد ذلك، قال بول: «سيا فلاست سوفيتيم»، التي من المحتمل أن يكون لها علاقة بالسوفييت!

استمر هذا لمدة ساعة، حتى تدخَّلَت روث فجأةً قائلة: «يجب أن نكتشف ما يقوله يا باني! أوه، علينا أن نفعل ذلك، تخيَّل فقط لو كان يطلب المساعدة!»

حاولَت رايتشل الجدال معها، مدعيةً أن الأمر لا يعدو كونه هذيانًا. ولكن روث أصبحَت أكثر اضطرابًا؛ فلم ترغب في أن تتدخَّل رايتشل. فقد أنقذَت رايتشل زوجها، فماذا تعرف هي عن المعاناة؟ وقالت: «أريد أن أفهم ما يقولُه بول! ألا يمكننا العثور على شخص يعرف اللغة الروسية؟» لذلك اتصل باني بجريجور نيكولاييف وطلب منه الحضور إلى المستشفى بالسيارة في أسرع وقتٍ ممكن.

عند عودة باني إلى الغرفة، أصبح صوتُ بول أعلى، لكنه لم يكن يحرِّك سوى شفاه. كان كورال «أنجيل جاز» يُغَني: «عزيزي، عزيزي، قبِّلني في رقبتي!» وفي هذه الأثناء، استمر بول في ترديد: «ني تروديشيسيا دا ني ييست!»

توسَّلَت روث: «أوه، باني، علينا أن نكتب ما يقوله! قد يتوقف عن الكلام ويظل صامتًا إلى الأبد!» ففَهِم باني وجهةَ نظر روث؛ فقد نشأَت على الإيمان بالوحي، وبالكلمات ذات المغزى العميق المنطوقة في مناسباتٍ خاصة، بلغاتٍ غريبةٍ أو غيرها من الأساليب غير التقليدية. قد يصفه الأطباء بالهذيان، ولكن كيف يمكن التأكُّد من ذلك؟ ففي بعض الأحيان، كانت الأشياءُ المخفيةُ عن الحكماء تُكشف للبسطاء. وهكذا، أحضر باني دفتَر ملاحظاته وقلمَ الحبر الخاصَّ به وحاول تخمينَ ما يقوله بول بالروسية ويكتبه. «خليبا، ميرا، سفلوبادي!» وعندما وصل جريجور بعد حوالي ساعة، استطاع ترجمة كلمات بول وقال إنها تعني «خبز، سلام، حرية» وهو شعارُ البلاشفة عندما حكَموا روسيا، وأطلق بول أيضًا صرخةَ حربِ الجيش الأحمر، وهو يأمر العدو بترك مواقعه. وكان بول أيضًا يقول عباراتٍ خاصةً بالثورة، التي سمعَها لأول مرة في سيبيريا، ثم في موسكو. لا، لم يكن بول يُحاوِل التحدث إلى شقيقته، بل كان يخبر العمال الشباب في أمريكا عما كان يفعلُه العمال الشباب في روسيا!

١٢

«إذاعة فِي إكس زي، فِقرات إنجِل سيتي المسائية، أوركسترا وينيتسكي، من غرفة الطعام الرئيسية في فندق أدميرالتي، يُبَث عن بُعد.» وبعد فترةٍ وجيزة، كانت إذاعة «كيو إكس جيه، الأخبار المسائية» تعلن نتائج الانتخابات؛ الأعداد النهائية الآن. «يشير مقر حملة الحزب الجمهوري في نيويورك، في نشرة صدَرَت في الساعة الواحدة صباحًا، إلى أن كالفن كوليدج قد فاز بالأغلبية في ولاية ماساتشوستس بـ ٤٠٠ ألف صوت؛ تحية لولاية أولد باي! ونيويورك بـ ٩٠٠ ألف، ثلاثة هتافات لولاية إمباير، راي، راي، راي! وإلينوي، انتظروا، لقد أسقط شخصٌ ما نظارتي؛ إنهم يتسبَّبون في ضجة في هذا الاستوديو. توقَّفْنَ عن هذا يا فتيات؛ ألا تعرفْنَ أن العالم كله يستمع إلى «كيو إكس جيه» الليلة؟ إلينوي بـ ٩٠٠ ألف. عظيم! هذه الضجة التي تسمعونها هي احتفال شيكاجو كوميت بولايته! لقد حان الوقت لكي تُغني لنا شيكاجو كوميت أغنيةً حماسيةً مرةً أخرى، تيدي، الأغنية التي تتحدَّث عن اقتراب الترام. هل تعرف ماذا أقصد؟» أجاب صوتٌ أمريكي من أصلٍ أفريقي مرح ورنَّان: «نعم، بالتأكيد أفهمك! نعم، ها هي ذي!» بلانكيتي-بلانك …

«كان عند شخصٍ ما قبل أن يكون لدَيك
وسوف يكون عند شخصٍ آخرَ بعد رحيلك
سواء كان ترامًا أو حبيبًا لا يهمُّني
سيكون هناك شخصٌ آخرُ قادم!»

قبل ستة أو سبعة أعوام، أصدر المسئولون في الولايات المتحدة، بحكمتهم الفائقة، قانونًا يحظر بيع المشروبات الكحولية للاستخدام الترفيهي. لكن أنصار القانون والنظام قد منَحوا أنفسهم حق اختيار القوانين التي يلتزمون بها، وقانون حظر المشروبات الكحولية لم يكن واحدًا منها. فالطبقة الحاكمة المتميزة في أمريكا تحتفل بانتصاراتها السياسية من خلال تناول الكحول. وقد فهم باني ذلك؛ لأنه هو نفسه تناول الكحول قبل أربع سنوات عندما تم انتخاب الرئيس هاردينج، وكان يضحك الآن ضحكةً مكتومةً عندما تلعثَم مذيع «كيو إكس جاي» في كلامه: «هذا ليس من الأدب يا بولي، توقَّفي عن تحريك الميكروفون!»

كان صاحب المنزل المجاور عاملًا أو موظفًا أو إنسانًا بسيطًا، ولم يكن يتمتَّع بميزة انتهاك القانون بإنفاق عشرة دولاراتٍ على ربع جالون من الجين، أو ثلاثين على

زجاجةٍ من الشمبانيا. ومع ذلك، كان بإمكانه الجلوس في غرفته إلى ما بعد منتصف الليل، والانتقال من محطةٍ إذاعيةٍ إلى أخرى، مستمتعًا بسماع غَيره يشرب الكحول. «إذاعة فِي إكس زي، غرفة الطعام الرئيسية في فندق أدميرالتي.» كان أحد المطربين الفرنسيين من جراند جينيول في باريس يغني أغنيةً حماسية، ويمكنك سماعُ ضحكاتِ مَن فهِموا الكلماتِ البذيئة، وأولئك الذين تظاهروا بالفهم، وأولئك الذين كانوا في حالة سُكْرٍ شديدةٍ لدرجة أنهم لم يتمكَّنوا من فَهْم أي شيءٍ باستثناء كيفية الضحك. شعَر باني وكأنه هناك؛ لأنه ذات يومٍ كان في غرفة الطعام هذه مخمورًا، وكذلك كان الأب، وفِي تريسي وآنابيل إيمز وفيرنون روسكو، وكان هارفي مانينج نائمًا على كرسيه، وتومي بالي يُحاوِل الصعود على الطاولة، وكان عليهم منعُه من الشجار مع النوادل. وكان هناك حوالي ثلاثمائة طاولةٍ في القاعة، تم حجزُها جميعًا قبل شهر، ويشغلها جميعًا محتفلون في حالاتٍ مختلفةٍ من السكر؛ كانت الطاولات مليئةً بقوارير الجيب، والزجاجات الفارغة، ورماد السجائر، والطعام المسكوب، والزهور، وقُصاصات الورق، وكانت المناديل الورقية تُقذَف من طاولةٍ إلى أخرى؛ مما أدَّى إلى تغطية الغرفة بشبكةٍ عنكبوتيةٍ من الألوان الزاهية، وطارَت البالونات هنا وهناك، وعلى صوت الموسيقى والغناء والصُّراخ، واحتضَن الرجال نساءً شبه عاريات، كبارًا وشبابًا، ومتحررات، وأمهات وجدَّات المتحررات.

ستُعلَن نتائج الانتخابات، وستزداد أعدادُ مؤيدي رجل الدولة القوي الصامت المنتصر، أما قطب النفط، الذي كان يعلم أن هذا النصر يعني توفيرَ عدة ملايين من الدولارات من ضرائبِ دخله، أو تأمينَ امتيازٍ نفطي في بلاد ما بين النهرَين أو فنزويلا، من خلال الرشاوى الأمريكية وبحماية البوارج الأمريكية، فسوف يطلق هتافًا، وينهض من مقعده ويوضِّح كيف كان يرقص رقصتَه عندما كان عاملًا في مزرعة، ثم يسقط في أحضان عشيقته، التي ترتدي ألماسًا بقيمة مليون دولار على بشرتها العارية، وسيؤدي المغني من مؤسسةٍ مشهورةٍ في برلين يرتادها المنحرفون جنسيًّا أحدثَ أغنيةٍ لموسيقى الجاز، وسينضَم قطب النفط وعشيقته إلى الكورال:

ماذا أفعل؟
تودل-دودل-دو،
تودل-دودل-دو!

١٣

بدأَت يد بول تتحرك، ومرةً أخرى صرخَت روث بحماس، لقد عاد إلى الحياة! لكن الممرضة قالت إن ذلك لا يعني شيئًا، مشيرةً إلى أن الأطباء قالوا إنه قد يتحرك. ويجب ألَّا يسمحوا له بتحريك رأسه. وقامت الممرضة بقياس درجة حرارته، لكنها لم تقُل لهم شيئًا.

بدأَت يدا بول تتحركان فوق الملاءة التي تُغطيه، بلا هدف، هنا وهناك، كما لو كان يُحاوِل ضرب حشرات على السرير. أصبح صوتُه أعلى، ودائمًا باللغة الروسية، وكان جريجور يتولَّى ترجمة الكلمات لهم. ووجدوا أنفسهم في الساحة الحمراء، يشاهدون الجيوش تسير ويسمعون الجماهير العمالية تهتف بشعاراتها، كانوا مع العمال الشباب، كانوا في سيبيريا مع ماندل بينما كان يعزف على البالالايكا تارة، وبينما كان النمل يلتهم عينَيه تارةً أخرى. «تحيا الثورة!» «كل السلطة للسوفييت!»

ومن هناك وجدوا أنفسَهم في قاعة الرقص في فندق إمبيرور، بإنجِل سيتي، إذاعة آر دبليو كي واي، بث إنجِل سيتي باتريوت بالتحكُّم المباشر. أم كانوا في قلب الكونغو؛ حيث كان أفرادُ القبائل العُراة يرقُصون على إيقاع الطبول، وأجسادُهم الداكنة مغطَّاة بزيت النخيل، تلمع في ضوء النيران؟ لآلاف السنين، أبحَر هؤلاء المتوحشون في مياه النهر دون أن يخطر ببال أحدٍ فكرة المحرك، ووقفوا على شواطئ البحيرات الشاسعة، دون أن يخطر ببال أحدٍ فكرة المركب الشراعي. لقد كانوا مثقلين بخصوبة التربة التي لا يُمكِن السيطرة عليها، ممَّا أدى إلى قمع فضولهم الفكري. والآن، بينما كانت الحضارة الرأسمالية تندفع نحو السقوط بسرعةِ أسرعِ طائراتها المقاتلة، بحثَت عن وسيلةٍ للتعبير عن انحدارها، واختارت إيقاعاتِ الطبل الكونغولية لموسيقاها والرقصاتِ الشرقية للكونغو من أجل الترفيه، فظهرَت أمريكا، أرض الجاز.

انطلق صوتٌ من مكبِّر الصوت، حادٌّ، ثاقبٌ، ساخر:

«هذا ما أنفِق عليه أموالي،
أحمرُ الشفاه ومستحضراتُ التجميل، وأشياءُ من هذا القبيل!»

ووجد باني نفسه في قاعة إمبيرور الكبيرة، وهو المكان الذي رقص فيه لياليَ كثيرة، أولًا مع يونيس هويت ثم مع ڤِي تريسي. والليلة، سيكون جميع أصدقائه حاضرين؛ فيرن وآنابيل وفريد أوربان وثيلما نورمان والسيدة بيت أورايلي ومارك أيزنبرج، الذين يمثِّلون صفوة الطبقة العليا، يحتفلون بأهم انتصارٍ لهم حتى الآن. فقد زينَت الأعلامُ الأمريكيةُ

واللافتاتُ المزخرفةُ الجدران، ولوَّح بعض الحاضرين بأعلامٍ صغيرةٍ في الهواء، في إشارةٍ إلى هذا الحدثِ الوطني العظيم، الذي لم يسبق له مثيلٌ منذ الهدنة؛ مرحبًا كوليدج، كن لطيفًا مع كاليفورنيا! كانت القاعة مكتظةً إلى درجة الاختناق، وبحلول هذه الساعة المتأخرة، كان أغلب الراقصين يتمايلون تحت تأثير الكحول. كان أصحابُ المال البدينون، الذين تجعَّدَت قمصانهم، يحضنون زوجاتهم الممتلئات أو عشيقاتهم النحيفات، اللاتي كانت ظهورُهن عارية وصدورُهن شبه مكشوفة ومزينة بالألماس واللؤلؤ، وشفاههن مطلية بأحمر الشفاه، وجلجلَت الأساور البلاتينية في آذانهن وهن يرقصْنَ رقصةً فوضويةً على إيقاع الطبول، وأنغام الساكسفون، وقعقعةِ العِصي، ورنين الأجراس، وزمجرة الأبواق المتوقفة. «إنها تمشي مشية الجِمال!» كان صوت المغني حادًّا وكانت عضلاتُ حوضِ وأردافِ الرأسمالي ذي الخصر الكبير تنقبضُ وتسترخي بالتناوب، ويجرُّ قدمَيه على الأرض في ردودِ فعلٍ غيرِ متناسقة، وكأنه يعاني من اختلاجٍ حركي وشللٍ نصفيٍّ تشنُّجي.

١٤

بدأ بول يحرِّك ذراعَيه بعنف، فوجب الإمساكُ به، وعندما حاولوا فعل ذلك، أخذ يُقاوِم جهودهم بشراسة. هل ظن أن حُراس الإضراب في بارادايس قد ألقَوا القبض عليه؟ أم أنهم السجانون في سان إليدو؟ أم عملاء المخابرات الفيدرالية؟ أم رجال الدرك الفرنسيون؟ أم بحَّارة الأسطول؟ أم البلطجية المسلحون بالفئوس والأنابيب الحديدية؟ لقد قاتل بإصرارٍ شديد، فأمسك كلٌّ من باني وجريجور بإحدى ذراعَيه، وأمسكَت كلٌّ من روث ورايتشل بإحدى قدمَيه، بينما أسرعت الممرضةُ لإحضار قميصِ التقييد. وبجهدٍ كبيرٍ تمكَّنوا من تثبيته بإحكام. كان يكافح بلا هوادة، وتحوَّل وجهُه إلى اللون الأرجواني، وانتفخَت الأوردة في رقبته، لكن النظام سيطَر عليه، ولم يكن هناك مهرب.

وفي هذه الأثناء، ومن خلال النافذة المفتوحة، بث راديو ﭬِي إكس زي الأجواءَ المفعمةَ بالحيوية من غرفة الطعام الرئيسية في فندق أدميرالتي، كانت الأصواتُ مزيجًا من أصوات مئات الأشخاص وهم يصرخون، ويُغنُّون، ويهتفون، وأحيانًا يحطِّمون طبقًا أو يضربون على طاولة. كان شخصٌ ما يُلقي خطابًا أمام الجمهور، على الرغم من كونه في حالة سُكْر، لدرجة أن الخطاب كان غير مفهوم تقريبًا، وكان جميع الحاضرين في حالة سُكرٍ أيضًا؛ فلم يكونوا ليفهموا الخطاب على أية حال. وكان يمكن تمييزُ أجزاءٍ من

الخطاب، مع عبارات مثل «النصر المجيد»، و«أعظم بلد»، و«المؤسسات الحكيمة»، و«أعظم رجل على الإطلاق في البيت الأبيض»، «الكاليفورني الحذر، تحية لكوليدج!» تعالى صوتُ احتفالٍ صاخب، وهتافات، وصيحات، وضحكات، وصوت المذيع المخمور هو الآخر، وهو يهتف: «حبيبتي بيل، حبيبتي الصغيرة المثيرة، من فضلكِ غني لنا أغنيةً مثيرةً على الفور. عزيزتي، أنا هنا لدعمكِ!»

كان من الواضح أن المذيع مخمور، وكان البث الإذاعي بأكمله مخمورًا أيضًا، وفشلَت الأجهزة في إرسال الأطوال الموجية بدقة، مما أدى إلى اهتزازها، بدت قوانين الكون المادي مرتبكة، كما لو أن الربَّ نفسَه كان مخمورًا على عرشِه، مبتهجًا بانتخاب أعظم رجلٍ يسكُن البيت الأبيض. وأدرك باني المرهَقُ المشهد من خلال مجموعةٍ من الأصوات والحركات؛ الأبواق المتلألئة، والتلويح بالأعلام، ووميض الإشارات الكهربائية، وتصرُّفات الشهوانيين، ورقصات المتوحِّشين، واهتزاز رجال المال وعشيقاتهم في محاكاةٍ للجماع. غنت بيبي بيل، التي بدت غير متزنة أمام الميكروفون، أغنيتَها على أجزاءٍ بسبب ترنُّحها، وكانت هذه الأغنية تعبِّر عن الشهوانية الشديدة: «مامي المثيرة، الفاتنة التي لا تُقاوَم ... الفتاة الأكثر إثارة في المدينة ... الجذابة ... عذاب الحب ... الفتاة التي تُشعِل النار في قلوبهم!»

صرخت روث: «يا إلهي! يا إلهي! إنه يُحاوِل التحدث معي!» وفي لحظة، بدا الأمر كما لو كان يفعل ذلك فعلًا. فتح بول إحدى عينَيه وكشفت عن نظرةٍ غاضبةٍ ومرعبة، ورفع رأسه وأصدر صوتًا مختنقًا ...

صاح مذيع الراديو: «عندما يتعلق الأمر بالحب، فهي مثيرة!».

صرخَت روث: «بول! ما الأمر؟»

«أليس من الغريب أن تحترق النقود الورقية في يدها!»

انهار بول مرةً أخرى على السرير، مستسلمًا، وبدت روث، وقد شبَّكَت يدَيها معًا كما لو كانت تُصلِّي من أجله، وكأنها تتبعُه بروحها إلى ذلك العالم البعيد الذي كان ذاهبًا إليه.

«مامي المثيرة، التي تعمل في منجم، أكلَت علبةً من أعواد الثقاب في سن التاسعة!»

وضعَت روث يدَها على صدر بول، ثم أجفلت متراجعةً وهي تصرخ: «لقد مات! لقد مات!»

غنى الكورال مرةً أخرى: «مامي المثيرة، الفاتنة التي لا تُقاوَم، الفتاة الأكثر إثارةً في المدينة!»

فاندفعَت روث نحو النافذة، كما لو كانت تُحاوِل القفز، لكن باني كان أسرع وتمكَّن من إيقافها، وانضمَّ الآخرون للإمساك بها، بينما أحضَرَت الممرضةُ إبرةً تحت الجلد بسرعة، وفي غضونِ دقائقَ قليلة، كانت روث مستلقيةً على سريرٍ نقَّال بجانب الغرفة، وبدَت وكأنها جثةٌ هامدة، مثل شقيقها.

وفي هذه الأثناء، تحوَّل صاحبُ المنزل إلى إذاعة آر دبليو كي واي، إنجِل سيتي باتريوت التي تبثُّ من الاستوديو المخصَّص لها. «آخر تحديث من نيويورك: تؤكِّد اللجنة المركزية للحزب الجمهوري أن كالفن كوليدج حصل على أعلى أغلبيةٍ تم تسجيلُها على الإطلاق في التاريخ الأمريكي، ما يقرُب من ثمانيةَ عشرَ مليونَ صوت. تصبحون على خيرٍ يا أصدقاء راديولاند الأعزاء.»

١٥

كان الشيوعيون يرغبون في تنظيم «جنازة حمراء» بغرضِ استغلالِ موتِ بول للدعاية. لكن إيلاي تدخَّل وفرض سلطته، وبما أن بول قد تاب عن شَرِّه وعاد إلى يسوع، فيجب دفنُه وفقًا لطقوس الوحي الثالث.

وهكذا، وبعد ثلاثة أيام، شَقَّ موكبٌ متواضعٌ طريقه إلى قمة أحد تلال بارادايس. وتجمَّع حشدٌ من الناس، وكانت هناك شاحنةٌ بها معدَّات الراديو اللازمة، فلم يُسمَح لكلمةٍ واحدةٍ من خطاب إيلاي الثمين أن تمُر دون سماعها هذه الأيام، أُخطِرت جميعُ ربَّاتِ البيوتِ اللاتي لديهن راديو في كاليفورنيا، واللاتي يبلغ عدَدُهن مائتَي ألف، من خلال الصحف، وأجَّلَت مائةٌ وتسعون ألفَ ربة بيت منهن أعمالَها اليومية؛ للاستماع إلى قدَّاس هذه الجنازة المؤثِّرة. وقف باني ورايتشل ومجموعةٌ صغيرةٌ من الحُمْر جانبًا، مدركين أن وجودَهم لم يكن موضعَ ترحيب. ووقفَت روث بالقرب من القبر بجانب العائلة المنكوبة، يُحيط بها من كلا الجانبَين اثنان من عمال النفط الأقوياء، صهراها، آندي بوجنر وجيري بلاك؛ وذلك لأنها كانت معروفةً بتصرُّفاتها العنيفة في بعض الأحيان، ولم يكن أحدٌ متأكدًا مما يمكن أن تفعله. كانت شاحبةً وخائفة، لكنها بدَت غافلةً عما تعنيه الحفرةُ العميقةُ في الأرض والتابوت الأسود الطويل المزيَّن بالزهور. وبينما كان إيلاي يُلقي خطبته الحماسية حول عودة الابن الضال والحمَل الضائع الذي عُثِر عليه، حدَّقَت روث في السُّحُب البيضاء التي كانت تنجرف خلف قمم التلال البعيدة.

لم يكن لديها أيُّ نية في التسبُّب في أي مشكلةٍ أخرى. كانت رغبتها الوحيدة هي أن تتجوَّل في هذه التلال، وتُنادي بين الفَينة والفَينة على الأغنام التي لم تعُد موجودة. وفي بعض الأحيان، كانت تُنادي بول، وأحيانًا أخرى كانت تُنادي باني؛ لذلك سمحوا لها بالتجوُّل بحرية، وفي أحد الأيام، بدأَت تُنادي جو جوندا. لم يكن عمال النفط الذين كانوا يقومون بتركيب أبراجٍ جديدةٍ، وإعادة الآبار المحروقة إلى الإنتاج على دراية بمنطقة روس الابن؛ إذ يُشار إليها الآن باسم منطقة روسكو الابن؛ فقد تولَّى مسئوليةَ المنطقةِ أحدُ أبناء فيرنون روسكو الأربعة. لم يكن هؤلاء العمال الجدد على علم بقصة «عامل الحفر» الذي وقع في البئر المكتشفة حديثًا؛ لذا لم يُعيروا الفتاةَ الحزينةَ التي تتجوَّل وتُنادي اسمَه أيَّ اهتمام.

وفي وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة، عندما أُبلِغ عن اختفاء روث، وبدأَت العائلة في البحث، ذكَر أحدُهم أنه سمع نداءها لجو جوندا. تذكَّرَت ميلي الحادثةَ على الفور، وأنزلوا خطَّافًا في البئر المكتشفة حديثًا، التي كانت في طَور الحَفْر مرةً أخرى، واستعادوا قطعةً من فستان روث، مما دفعهم إلى استخدام خطافٍ ثلاثيِّ الشُّعَب لاستعادة ما تبقَّى منها، وجاء إيلاي مرةً أخرى، ودفنوها بجانب بول، ليس بعيدًا عن المكان الذي دُفِن فيه جو جوندا.

يمكنُك أن ترى تلك القبور محاطةً بعوارضَ رأسية، دونَ وجودِ أي رافعاتٍ بالقرب منها لمسافةِ مائةِ قدمٍ أو أكثر. ويومًا ما في المستقبل، ستُزال جميعُ رافعاتِ النفطِ القبيحة، وكذلك العوارض الرأسية والقبور. وسوف تركُضُ فتياتٌ أخريات، بسيقانٍ بنيةٍ عارية، فوق تلك التلال، وقد يكبرْنَ ليُصبحْنَ نساءً أسعد، إذا تمكَّن الرجالُ من معرفةِ كيفيةِ تصفيدِ الشيطانِ الأسودِ القاسي الذي قتل روث واتكينز وشقيقها، وكذلك الأب؛ إنه قوةٌ شيطانيةٌ تجول في العالم، وتُصيب أجسادَ الرجالِ والنساءِ بالشلَل، وتستدرج الأمم إلى دمارها بأحلامِ الثراءِ السهل، وبفرصةِ استعبادِ العمالِ واستغلالِهم.

هنــداوي